الدكتور محمود توفيق محمد سعد
الأستاذ في جامعة الأزهر الشريف
وجامعة أم القرى بمكة المكرمة
(سابقا)



محاورات منهجية في كتاب
شرح أحاديث من صحيح مسلم
لشيخنا محمد أبي موسى



الكلمة نورُ
مُحاوَرات مَنْهجِيَّة في كِتابِ
شَرْح أحاديث مِن صَحيح مسْلِمٍ
لشَيْخِنا مُحَمَّد أبِي مُوسَى
الدكتور
محمود توفيق محمد سعد
الطبعة الأولى ١٤٣٨ هـ - ٢٠١٧ م
مكتبة وهبة ١٤ شارع الجمهورية - عابدين - القاهرة
٤٣٢ صفحة ١٧ × ٢٤ سم
رقم الإيداع : ٢٠١٧/١٦٧١٥
الترقيم الدولي : I.S.B.N.
978-977-225-457-6



دار الكتب المصرية
فهرسة أثناء النشر إعداد إدارة الشئون الفنية

سعد ، محمود توفيق محمد.
الكلمة نورُ : محاورات منهجية في كتاب شرح أحاديث من صحيح مسلم لشيخنا محمد أبي موسى/محمود توفيق محمد سعد. - القاهرة : مكتبة وهبة للطبع والنشر والتوزيع ، ٢٠١٧
٤٣٢ صفحة ؛ ٢٤ سم
تدمك ٦ ٤٥٧ ٢٢٥ ٩٧٧ ٩٧٨

١ - الحديث - شرح
٢ - الحديث - صحيح مسلم
٣ - أبو موسى ، محمد

أ- العنوان

٢٣٧,٣



ISBN 978-977-225-457-6
9 789772 254576

مكتبة وهبة
١٤شارع الجمهورية - عابدين - القاهرة تليفون : ٢٣٩١٧٤٧٠ تليفاكس : ٢٣٩٠٣٧٤٦
e-mail:publisher_sultan@yahoo.com

بسم الله الرحمن الرحيم

الإهداء

شَيْخَنا المَجْدَ

هَذِهِ أَوراقُ رَقَّنْتُهَا تَحَدُّثًا بِنعمَتِ اللهِ سُبْحانَه وَبِحمدِه عَليَّ أَنْ جَعَلَنِي رَبِيبَ فِكرِك وَبَيانِكَ وَوَلِيدَ حَزمِكِ الرَّؤُوفِ وَغَرْسَ يَمِينِكِ المُبارَكِ الدَّافِقِ بِجَلِيلِ العَطايَا .

لَمْ أَجِدْ سَبِيلاً أَسْلُكُهُ إِلَى التَّحَدُّثِ بِهذِهِ النِّعْمَتِ الماجِدةِ الجَلِيلةِ ، وإلى عَظِيمِ شُكرانِ اللهِ جَلَّ جَلالُهُ عَلَيْها ، سِوَى أَنْ أُرَقِّنَ هِذِهِ الأَوراقَ ، فإِنَّ مِن أَجلِّ نِعَمِ اللهِ سُبْحانَه وَبِحمدِه عَلَى طالِبِ العِلمِ بعدَ نِعمتِ الإِيمانِ بما أمرَ الله تعالى الإِيمانَ بِهِ أنْ يُقيِّضَ لَهُ شَيْخًا يحمِلُه بِعِلمِهِ وَحِكْمَتِهِ وَحَزْمِهِ وَرَأْفَتِهِ إِلَى رِياضِ العِرفانِ بِكِتابِ اللهِ تعالى وَبِسُنَّةِ رَسُولِهِ صلّى الله عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ وسَلَّمَ .

فَأَنتَ شَيْخَنَا مِنْ جَلِيلِ نِعمَتِ اللهِ تعالى عَلَينا ، فَلَهُ الحَمدُ وَالشُّكْرانُ أَن أَجْرَى إِلَيْنا عَلَى يَمِينِكِ الْمُباركَةِ نِعمَتَ طَلَبِ الْعِلْمِ بِكِتابِهِ تعالى وَبِسُنَّةِ رَسُولِهِ صلّى الله عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ وسَلَّمَ .

كَأَنِّي أَرَى أَنّ اللهَ تعالى نَخَلَ جِيلَكَ المَاجِدَ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ ، فَوَجَدَكَ فَرِيدًا فَآوَاكَ لَنَا وَاصْطَفَاكَ لِيُفهِمَك عنه أسرارًا من بلاغة كتابِه وسنة رسُولِه صلّى الله

عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ وسَلَّمَ ، فَأنْعَمَ بِكَ عَلَيْنَا . فَكُنْتَ الْغَيْثَ وَكُنْتَ النِّعمَتَ الَّتِي لا تَشْغَلُنَا عَنِ الْمُنْعِمِ ، بَلْ الّتِي تَشْغَلُنا بِالْمُنْعِمِ سُبْحانَه وَبِحمدِهِ فَكُنْتَ المُتَصاعِدَ بِنا مِنْ طَوْرِ الإنْسانِيَّةِ المُتسَاقِطِ الخسُورِ إِلَى أُفُقِ الآدَمِيَّةِ الرَّحِيبِ الرّبِيحِ المَجِيدِ .

مَا أنَا بِهذا بِالمُطرِيك فِي وَجهِك وأنّى لِي أنْ أفعَلَ وقدْ نَهَانَا سَيِّدُنا رَسُولِ اللهِ عَلَيْهِ وعلَى آلِه وصَحبِه الصَّلاةُ والسَّلامُ عَنْ ذلك ؟!!!

إنّما أنَا مُتذكّرٌ ومُذكّرٌ بِنِعمَتِ اللهِ تَعالَى عَلَيْنَا لعلَّنا نشْكُره ونحمدُه عليها بلسانِ الحالِ قبل لسانِ المقالِ .

وَأَسْأَلُهُ سُبْحانَه وَتَعالَى أَن لايَحْرِمَنَا مِنْ بَقَائِك فِينا إِمامًا تُدخلُ بِنا علَى ربّنا بِعلِمكَ وَحِكْمَتِكِ وَحزْمِك وَرَأَفَتِكَ

وَأَسْأَلُهُ أَنْ يَرفَع بِالقُرآنِ العَظِيمِ ذِكرَك بيْن عبادِهِ الصّالِحينَ الْمُصْلِحينَ فِي الدُّنْيَا والآخِرَةِ . وأن تنْعَم عينُك وقلبُك بعملك المسترْضى وولدك الصّالح وأهلك وتلاميذِك وغرسِ يمينِك إنّه وَليّ ذَلِك وَالقَادرُ عَلَيْه وَالْمُتَفَضِّلُ بِه .

وَالْحَمْدُ لِلهِ ربِّ العَالَمينَ .

وكتبه

المفتَقِرُ إلى سَترِ اللهِ تعالى ورِضْوانِهِ

وليدُ عقلِك وربيبُ حَزمِكَ

مَحمُود تَوفِيق مُحَمّد سَعْد

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمدُ لله ربّ العَالمين حَمْدًا كثِيرًا طيّبًا مُباركًا فِيه كَمَا يُحبُّ ربّنا ويَرضَى اللَّهم صلّ وسلمْ وباركْ علَى عبدِك ونبيِّك ورسُولِك سيّدِنا مُحمّدٍ وعلى آلِه وصحبِه وورثتِهِ مِن أهلِ العلم وأمَّتِه أجمعين كما تُحِبُّ ربّنا وترضَى إنَّك حمِيدٌ مَجيدٌ .

أمّا بعدُ ، فإنّه لَمِمَّا ينفعُ النّاشئة في طَلَبِ العلم أن لا يُكتفَى بِأنْ يُبيّنَ لَهُم مقَالاتِ أهلِ العلمِ في أسفارهم تفصِيلاً وشرحًا ، بل حقٌّ لَهُم أنْ يُبَصَّروا شيْئًا مِن مِنهاج أُولئك الأعيان مِن العلماءِ في التَّفكيرِ والتَّعبيرِ ، ولَفتُهم إلى ما يَشغَلُ قلوبَ أولئك الأعيانِ ، وما يَمْلأ صدورَهم مِن المُجاهدَةِ فِي سَبيلِ الله سُبْحانَه وَبِحمدِه بِمَا مَلكَهم مِن نِعمِهِ عَليْهم .

إذا مَا بُصّرتْ النَّاشئةُ شيئًا من مِنهاج العلماء تفكيرًا وتعبيرًا وشيئًا ممَّا يُؤرِّقُهم ، ويَبعثُهم إلى نشرِ الكلمةِ «النور» والكلمةِ «السّيف» كان ذلك أنفعَ لأولئك النَّاشئةِ ؛ لِيعلمُوا كيْف يُصنُعَ الرّجالُ الّذين يَصنَعونَ العَدْلَ والخيرَ والمَجْدَ .

مِنْ ذلك انْبَعثْتُ إلَى كتابةِ هذِه الوُريْقاتِ في بيانِ شَيْءٍ مِن مِنهاجِ شَيْخِنا شيْخِ البَلاغيّين العَرب أستاذَنا الشَّيْخ أبي أحمد مُحَمَّد أبِي مُوسَى عزّه اللهُ تعالَى بطاعتِه ، ورِضوانِه ، فِي شرحِه أَحادِيثَ مِن صَحيحِ مُسْلِمٍ : دراسَةٌ فِي سَمْتِ الكَلامِ الأَوّلِ

وهُو كتابٌ له طابعٌ خاصٌّ شكَّلته حركةُ الحَياة مِن حولِه ، وقد أَحاطتْ بالشَّيخِ همومُ الأمَّةِ عامَّة ، وهُمومُ « مِصْرَ » خاصّة ، فرأَتْ عينُه وسَمِعَتْ أذنُه وَفَقِه فُؤادُه ما كان مستفزًّا له إلَى ما رَقن فِي هذا الكِتابِ المستفزّ قارئه إلى أن يكونَ سيّدًا في النَّاسِ والكونِ والحياةِ لا مُسْتَنْعَجًا يُسْحبُ إلى مَهلَكِهِ

في هذا الكتابِ ترَى الأمَّةَ المُسلِمَة عَامّة ، وتَرَى « مِصر » خاصَّة حاضِرةً فِي كُلّ فِقرَةٍ مِن فِقر الكِتابِ ، يُشخِّصُ الشَّيخُ داءَها ، ويُعيّنُ دواءَها فِي ضَوْءِ بيانِ النُّبوّةِ الغذاءِ والشفاءِ والنّورِ .

أرَى الشَّيخَ مِن خِلالِ سِفرِه مُوقنًا أنّ بيانَ النّبوَّة إذا قُرِئ فِي سِياقِ واقع كلّ عَصْرٍ ومِصْرٍ ، وكان القارئُ ذا قلبٍ سليم سَمِعَتْ أذنُه النَّبيَّ صلّى الله عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ وسَلّمَ يُخاطبُه هُو ، ورأَتْ عَينُه النّبيّ صلّى الله عَلَيْهِ وعَلى آلِهِ وَصَحبِهِ وسَلّمَ قائمًا فينا ، وكأنَّه واحدٌ مِنْ عَصرِنا ومِصرِنا ، يؤذن فينا : إنَّ غيركم مِن الأمَمِ ينتظرُ « المُخلّصَ » أمّا أنْتُم أصحابَ سُورةِ « البقرةِ » وسُورة « الجُمُعةِ »... فإنَّ مخلّصَكَم قائمٌ فِيكم لا يُفارقكم أبدًا يراهُ مَن كان ذا بصيرةٍ .

« مُخَلِّصُكم » هُو الكِتابُ والسّنّةُ . « قَدْ تَرَكْتُ فِيكُمْ مَا لَنْ تَضِلُّوا بَعْدَهُ إِنِ اعْتَصَمْتُمْ بِهِ كِتَابَ اللَّهِ . » . (مسلم : الحج)

في رواية للحاكم في المستدرك : « إِنِّي قَدْ تَرَكْتُ فِيكُمْ مَا إِنِ اعْتَصَمْتُمْ بِهِ فَلَنْ تَضِلُّوا أَبَدًا كِتَابَ اللَّهِ وَسُنَّةَ نَبِيِّهِ ﷺ » صححه الألباني في صحيح التّرغيب والتّرهيب .

أنتم به أصحابَ سُورةِ « البقرةِ » و« الجُمعةِ » المُخلّصون غيرَكم ممَّا هم مُتَكَبْكِبُون فيهِ .

والصَّادون عن سبيل الله تعالى يعلمون علم يقين أن مجدكم من إسلامكم ، ويعلمون أنه لاطاقة لهم بكم وأنتم به معتصمون ، فاتخذوا إلى إخراكم منه ثلاث مراحل :

- تغريبُ الإسلامِ الحَقّ
- تَغييبُ الإسلام الحقّ
- تجريمُ الإسلامِ الحَقّ

قَدْ فرَغُوا من الأولَى مُنذُ عقودٍ ، وتجاوزُوا مُنتصفَ الثّانيةِ أوْ أكثر ، ومِنْهم فِي « مِصْر » الأزهر فسْطاط علومِ الإسلام وعلمائِه مَن خَطا في الثّالثة خطواتٍ وسيعةٍ علَى ما ترَاه العينُ وتسمعه الأذنُ ، ويسْقُمُ به القلبُ .

هذا الواقعُ الدَّامِي كان حاضرًا في تفكيرِ الشّيخِ وتعبيرِه في هذا السِّفر الجليلِ ، وكان الصَّانِعَ رؤيتَه هذا البلاغَ النَّبويّ ، والصَّابِغَ تذوقَه لفنونِ هذا البيانِ على نحوٍ أنا لم أبصرْ مثله في أسفارِه الماجدة السَّابقة بالخير .

لذا رأيتُ أنَّ سفرَه هذا هو أولَى أسفارِه بالقراءةِ والفهمِ الآن ، نزولاً على وجوبِ القيامِ بِفريضةِ الوَقت .

نحنُ جميعًا أحوجُ إلى قراءةِ هذا السِّفر قراءةً تتغوّرُه ، وتتفرَّسُه ، لتُبصرَ قلوبُنا ما ينبثقُ مِنه أشعةً تضيءُ لنا جنباتِ الطَّريقِ وثبجَه .

وهذه الأوراقُ تسعَى إلى إنْ تتبَصَّرَ منهاجَ الشَّيخ في القِراءةِ والتَّفكيرِ والفَهم أكثرَ من عنايتها برؤيةِ قضايا البلاغةِ ومسائلِها كما نفعلُ في قراءةِ أسفارِه الأولَى التي بثّها فينا في باكرِ الزَّمان . .

وهذه الأوراقُ تسعَى لرؤيةِ الشَّيْخِ ومنهجِه في تهديمِ أركانِ الباطل ، وتشْييدِ أركانِ الحَقِّ والخيرِ مِن خلالِ شرحِه أحاديثَ مِن صَحيحِ مُسلِمٍ .

ولولا ضيقُ العَطن ، ووهَنُ العزمِ لكنتُ مُنتصِبًا إلى ما هُو أوسعُ وأعمَقُ ، ولكنّي قد فقدتُ كثيرًا مِن العَزمِ والتَّحمّلِ ، وما تَراه في هذه الأوراقِ إن هُو نزيرٌ ممَّا يستحقُّه سِفرُ الشَّيخِ مِن العِنايةِ والاحتفاءِ الفِكريّ بما فيه .

وهذه الأوراقُ تُضطّرُ في غيرِ قليلٍ مِن المَواطِنِ إلى نقلِ عيْن مَقالة الشّيخِ فِي هذا السّفرِ ، وإن طالتْ ولاسِيَّما في مواضعَ لا يصلُحُ فيها تخليصُ بيانِه مخافةَ أن لا يكونَ هذا السّفرُ بيْن يديْ قارئ أوراقِي ، فإن جِئتُ بتخليص كلامِ الشَّيخِ بِعبارتِي أفسدتُ على القارئِ الفائدةَ الّتي أرجُوها له مِنْهُ فيؤتَى مِنْ قِبَلَى ولا أُريدُها له أو لغيرِه . .

وقد أنقلُ عيْنَ كلامِه لأعلّق بأقتابِه ما يبسُطُ مجمَلَه أو نحْو ذلك ، فلا يُغني عَن ذكرِ نَصِّ بيانِه شيْءٌ من كلامِي ، فأُحمَلُ على ذلك حَملاً ، وإنْ طال النّقلُ . قد أنقلُ شيْئًا من بيانِهِ لِما أرغبُ في إيقاعِه بحروفِه في سَمعِ القارئ وقلبِهِ ، لما أراهُ فِي بيانه بحروفِهِ من الدَّقائقِ واللّطائفِ تفكيرًا وتعبيرًا . وقد أُحْملُ ـ غيرَ مُخْتارٍ ـ على إعادةِ ذكر شَيءٍ من بيانِهِ فِي مواطنَ عدّة مِن أوراقِي هذِه فِي كلِّ موطن منها ما يقتضِي إعادة ذكره .

وهذا أرمِي به إلى بيانِ أنَّ للقَولِ المُعادِ جهاتٍ عدّةً يُمكِنُ أن ينظرَ إليْه منها لفتًا لطلابِ العِلم أنْ لا تكونَ علاقتُهم بنصٍّ ما مِن جهةٍ واحدةٍ ، فالسَّعيُ إلَى الإحاطةِ بجهاتٍ عدّةٍ مِن القَولِ مِن أصول النَّظرِ العِلمِيِّ ، فالاستقراءُ الذي هو مفتتحُ منهجِ البَحثِ العِلميّ له مجالاتٌ ثلاثة :

المجالُ الأول : استقراءُ مصادرِ القضيَّة ومراجعِها قديمِها وحديثِها والتَّطهّر مِن مَعرَّة الاكتفاءِ بِمصدَرٍ عَن مصدرٍ كمَا يستسْهِلُه غيرُ قليلٍ مِن النَّاشِئةِ مِن طلابِ العِلمِ .

وطالبُ العِلم الحقُّ هوالَّذي يَحمِلُ مِن كلِّ كتاب ما ينفعُه ، وإن كان نفعًا سلبيًّا أي نفعًا مِن جهةِ ما جعلَ الكِتاب غيرَ جوادٍ ، فمعرفةُ أخطاءِ الآخرين وما حَاجَزَهم عن التَّميزِ والإفادةِ من أنفع ما يكونُ لطالب العِلم على نحو ما عَلَّمنَا منهاجُ سيّدنا حذيفة بن اليمان رَضِيَ الله عنه السَّائلِ عَن الشَّرِ مَخافةَ

الوُقوعِ فيه . ويقيني أنّـه ليس هنالك كتابٌ عقيمٌ البَتّةَ ، إنّما العقـيمُ عقـلُ مـن يقرأُ ، لا ما يُقْرَأُ .

المجالُ الثّانِي : استقراء المادّة العلمية للقضية محلّ البحثِ العلمـيِّ في كُـلّ مصدرٍ ومرجعٍ ، فلا يُستغنَى بمادَّةٍ عن مادَّةٍ ، لأنّ الموادَ العِلميّـة لا تُستنسَـخ ، لِما للسّياق الّذي أعيدَ ذكرُها فيه مِن أثرٍ في ما تحملُه مِن الحَقـائقِ العِلميَّـةِ ، والرُّؤَى المَعرفِيّة

المجالُ الثالثُ : استقراءُ تَحليلِ كلّ مادّةٍ ممّـا اسـتقرئَ بِحيـثُ لا يُسـتغنَى ، فالسّعيُ إِلَى استفراغُ المادّة العِلميّة ممّا هو مكنونٌ فيها فَريضةُ علَى كلِّ باحثٍ عن الحقـائق والكليَّـاتِ وكـذلك العمـلُ علَـى اسـتقراءِ تَأويـلِ المـادّةِ العلميَّـة وتعليلِها بعدَ تحليلِها

والبحثُ العلميّ لا يعرفُ أُلعُوبة « النَّمْذَجَة » : الأخذَ مِن كلّ شيْءٍ بطرفٍ ، ولا سيّما في بلاغة البيان .

إن الاكتفاء بأنموذجٍ في البحـثِ العلمـيِّ إنّمـا هُـو فعـلُ الصّـغارِ الـذين لم يُؤخذوا بالحَزم الرَّؤوف على أن يَنحتُوا من الجبالِ بيوتا . فإنَّ أَجـودَ الأعمـالِ بالعطاءِ وأسخاها أحمزُها .

وبِرَغمٍ مِن كلّ ذلك ، فهذه الأوراقُ ليْست بحثًا علميًّا صِرفًا ألتزمُ فيـه بكـلِّ أصولِه في الإبانةِ والإفهامِ ، وبِكلّ أدبياتِه التَّعبيريّة ، بل هو عملٌ علميٌّ مَمزوجٌ به ما رأيتُ الافتقارَ إليْه مِن تثقيفِ النَّفسِ ، وتزكيتها ممّا يُحيطُ بها من مُنكراتِ يَجتهِدُ سَحرةُ إبليسَ إيغالها فيها ، فكان للتّحصِينِ ، والتَّثويرِ نَصيبٌ ، ولا سيّما في هوامشِ الصَّفحاتِ على الرَّغم مِن علمِي الوثيقِ بـأنَّ هـذا غـيرُ نـازلٍ علـى أصولِ لغةِ البحثِ العلميِّ ، فإن تقديمَ حقّ الأمّةِ فِي سِياقِها هذا مقدَّمٌ عندِي في

هذِه الأوراقِ علَى حَقِّ البحثِ العلميِّ ، ولولا هذا السِّياقُ الّذي أرقِّـنُ فيـه هـذه الأوراقَ لكُنتُ غيرَ مُجْترِئ على ما اجْترأتُ عليْه .

﴿ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

(البقرة:١٧٣)

ومن البيِّنِ لِمنْ يقرأ أسفارَ شيْخنا أنَّـه ذو مَنهج في تصوّره وتفكيرِه وتعبيرِه ، وذومَنهجٍ في مقاصِده ومغازيه سواء كانَ الذي يقومُ فيه بيان وحي كتابًا وسنة ، أوبيان إبداعٍ شعراً ونثراً أو بيان علمٍ جادَ به علينا الأعيانُ من أهل العلم . وهو وإن كان له مقصدٌ رئِيسٌ ومغزًى متعيّنٌ نصبَ بصرِه وبصيرته لا يتخلّف في أيّ سفرٍ من أسفارِه ، فإنّ لكلّ سفرٍ مَع هذا المقصدِ الرّئيسِ مقاصدَ منسولةً منه بحسب كلِّ سِفرٍ ، ولكنّها جميعًا مِن رحم المقصِدِ الرّئيس . : صِناعة الرجال عقلاً ونفسًا وقلبًا ولسانًا وخُلقًا ومرامِيَ حياةٍ . وهي أثقلُ صناعة يُعالِجها الإنسان وأنبلُها ، وأنفعُها وأنجعُها . وما قصَّرَ الإنسانُ في شيْءٍ كمثلِ تقصِيرِه في الوَفاء بحقّ تلك الصِّناعة الثقيلة النّبيلة الجليلة[١].

همُّ شيْخنا صِناعةُ الرجال ، بكلِّ ما تحملُه هذه الكلمة مِن معاني عزَّة النَّفس وسّموّ المَقصدِ وزكاءِ المسلك مِن أوضارِ الإنسانيّة ، وبكلِّ ما تحملُه مْنْ معانِي مُناصرةِ الحَقّ بالحقّ ، وصناعةِ الخيرِ ونشرِه في النّاسِ كلّ النّاس .

(١) لعلّ أعظم ما كان سببًا فيما صَارت إليْه الأمة الإسلامية من الاستضعافِ والاسْتخفاف أنـّها تهاونت في القيام بفَريضَةِ صِناعةِ الرجال على هدي من الكتابِ والسنة۔ فكانتْ على أهون خلقِ الله سُبْحانَه وَبِحمدِه الذي قال الله جَلَّ جَلالُهُ قِي شأنهم : ﴿ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴾ (المائدة:٦٠) وأنت اليوم تسمعُ أذنُك وترى عينك ويتفطرُ قبلك بما لم يكن قبلُ في هذه الأمَّة من هوانٍ ومذلّةٍ.

أنت واجدٌ ذلك في كلّ ما يقومُ فيه وإن كانْ دراسة الكلمة الشّعر .

ترَى الشّيخَ وهُو يدْرُسُ الشّعرَ ويتذوقُه وينشرُ درسَه وذوقَه فينا طلاَّبَ العلمِ ظاهرًا استِخراجه منْه مقوّمات الرّجولة ، وإن كانتْ الكلمة الشَّاعرة شِعرَ غزلٍ[١] .

هُو في كلّ ذلك له منهج ومذهبٌ في التَّصوّر والتّفكير واستنباط المكنون ، وتثوير المنكوز ، وتقويمِ العَوج ، وتسديدِ الخُلَل ، وتكميلِ النّقصِ وتبيينِ المُبهم ، وتفصيلِ المُجمل ، وتقويضِ المُفسِدِ ، وفِي مناصرةِ الحق بالحقّ وله منهجٌ في التّعبير عن كلّ ذلك .

---

(١) شِعرُ الغزلِ في الكلمة الإبداع في لسان العربية الماجد يوم كان أهله صناع مجدٍ شعرٌ لا يثورُ عوامل الحيوانية فِي الإنسانِ ، كان يلفته إلى ما في «المرأة» من عوامل استنباتِ الرجالِ والفرسان في أرحامهم ، كانَ يلفتُ إلى مقوماتِ فتوة الأنوثة التي تنبتُ في الأرحامَ فُتُوًا يصنعون المجد ويحمونه .
حديثُ الشاعر عن شعرها أو صدرها أو خصرها أو نحو ذلك إنما ليبين لك أنها فتاءُ لم يستهلكه العمر أو الحملُ وأنها منبت الفتْيانِ الفرسَان ، وكمثلها تكون المصطفاةُ لِصناعةِ الفرسان ، وهو غزلٌ يملأ نفسَ المرأة رضًا بتبصّر الرجل لأجلّ ما فيها وأجملها . ولذلك تطهَّر الغزلُ في شعر العربية مما تراه اليوم في شعر الهلكى كشعر نزارٍ وأحفادِه .
يقُول الشّاعر العربي لصَاحبته (زوجه) وقد لبست لَه ثوبًا قشِيبًا :

ألا حبّذا البُردَ الذى تلبسينه	**ويا حبذا من باعك البرد من تجر**
فَلَوْ كُنْت مَاءً كُنْت مَاءَ غَمَامَةٍ	**ولَو كُنْت دَرًّا كُنْت منْ درَّة بِكْرِ**
وَلَوْ كُنْت لَهْوًا كُنْت تَعْلِيلَ سَاعَةٍ	**وَلَوْ كُنْت نَوْمًا كُنْت إغْفَاءَة الفَجْرَ**
ولو كنْت ليلاً كنْت قمراءَ جُنّبت	**نُحوسَ ليالى الشّهرِ أو ليلةَ القدرِ**

من ذا التي تسمع ذلك من زوجها ثم لا تبتهج ابتهاجة تملأ الدنيا سرورًا وحبورًا؟
إنه الجمالُ المتولد من جلال الحياءِ والعفة

والشَّيخُ كما هُو شأن الكبار لا يـذكرُ لـك في مفتـتح أسـفارِه منهجـه فيمـا يكتبُ بل يدعك ـ وهذا غالبٌ على أمرِه ـ لتبصرَ بنفسِـك منهجـه ، وقـد أقـام عليْه ما قدَّمه إليْك ، فتستخرجَه بنفسِك ، فتأخذ حرًّا حكيمًا ما يروقك ، وتدع غيرَه لغيرِك[1].

وإذا ما كان للشيخ مقصدٌ عامٌّ رئيسٌ ، ومنهجٍ مُسْتتبٌّ وكان له في كلّ كتابِ مَقصدٌ خاصٌّ منسولٌ من المقصِد العامّ الرَّئيس ، وأدواتٌ يقيم بها منهجَه ، فإنّ مِن حقّه علينا قراءَه أن نتبصَّر ذلك في كلّ سفرٍ مِن أسفارِه لا لِنحملَ عنـه زادًا علميًّا من إنتاجه ، فحسبٌ بلْ لنتَعلّم منه كيف يسْتطعِمُ العلم ويَخدمه ، وكيف

(١) يقول الأستاذ الأكبر : محمود محمد شاكـر : «وببديهةِ العقلِ لَم يكـنْ مِنْ عَملِي ، ولا هُو مِن عَملِ أيّ كاتبٍ مُبينٍ عَنْ نفسِهِ أن يَبدَأَ أوّلَ كلِّ شَيْءٍ ، فيفيضَ فِي شَرحِ منْهجِهِ فِي القِراءةِ والكتابَةِ «وإلاَّ يفعلْ كان مُقصّرًا تقصِيرًا لا يُقبَلُ منْهُ ، بَلْ يُردُّ عَلَيْهِ «ثُمَّ يَكتُبُ بعدَ ذلكَ ما يَكتُبُ ، ليَقُولَ للنَّاسِ : هذا مَنْهَجِي ، وهَا أنَذا قَدْ طَبَّقْتُهُ ، هذا سّخفٌ مَريضٌ غيرُ معقُولٍ بَلْ عَكسُهُ هُو الصّحيحُ الْمعقُول ، وهُو أن يكتُبَ الكاتبُ مطَبقًا منْهجَه ، وعلَى القارئ والنَّاقدِ أنْ يَسْتشِفَّ الْمنْهجَ ، ويتبيّنَهُ ، مُحاولاً اسْتقصَاءَ وجوهِهِ الظاهرةِ والخفيّةِ ، ممَّا يجِدُه مطبقًا فِيما كتبَ الكاتبُ ، ولكنّ فسَادَ حياتِنا الأدبيّةِ هُوَ الَّذِي يُحِيلُ العُقُولَ أحْيانًا حتّى تَغفُلَ عَنْ أبسَطِ قَواعدِ البَديهةِ فِي العَقْلِ الإنسانيّ ، وكفَى بِهذا فسَادًا وَبِيلا . (المتنبّي : رسالةٌ في الطَّريقِ إلى ثقَافتِنا . مطبعة المتنبّي . نشر دار المدني ومكتبة الخانجيّ - القاهرة عام ١٤٠٧هـ . ص : ٢١،٢٢) ومن البيّن أن الذي ذهبُ إليْه الأستاذُ الأكبرُ مِن خطل تعيين المؤلّف منهجَه في مُفتتح كتابِه لا يجري في ما يعرفُ بالبحوثِ الجامعيّة من بحوث الماجستير والدكتوراه ، حيث تقضِي الأنظمة الجامعية بوجوب تعيين منهاج معالجة القضايا والمسائل ومذاهب العلماء وآرائهم ، ومناقشتهم في ذلك في مفتتح الرسالة ، فلا يدع الباحثون في مرحلة الماجستير والدكتوراه هذا لمقال الأستاذ الأكبر ، فذلك إنما يؤخذ به في الأعمال العلمية ، وليس في البحوث العلمية الجامعيّة .

يُبينُ عمَّا يجدُه منه في قلبِه ، فيُجريه على لسانِه . فالعالم صَانعُ الرِّجال إنَّما هُو عالمٌ في فهمِه وإفهامِه النَّاسَ بلسان حالِه ومقالِه . وهذا ما أحاول أنْ أُبِين شيْئا مِنه ، لعلّي أجدُ منه أعزّه الله تعالى بطاعتِه ورضوانه وسترِه - ما يُقوِّمُ ما زللْتُ فيه فهمًا وإفهامًا ، فما أحوجنِي إليْه مِنه ومِن كلّ ذي قلبٍ بَصيرٍ .

وكل مُتَّخذٍ العلم فَهْمًا وإفهامًا رسالة حياة . وطريقًا إلى مرضاة ربه تعالى لهو المستشرفُ إلى ما يُسدَى إليه من الأشياخ وطلاب العلم تصحيحًا لخطأٍ ، وتسديدًا لخللٍ ، واستكمالاً لنقص ، وتطهيرًا من ضلالةٍ ولَهُو المُصْغِي لما يجودُ عليه به أهلُ العلمِ وطلابُه كيما يأتي صنيعُه القادِمُ أجودَ عطاءً ، وأنفذ في قلوب متلقيه ، فيكون له بذلك من صناعة الخير ونشره ما يرفع قدره عند الله تعالى في عباده الصِّديقين ، وتلك طلبة كل مشتغلٍ بالعلم النافع تلقيًا وخِدمة ونشرًا .

وكلّ مَن يضيق صدره بنقدِ أو نقص مقالِه في العلم هو أقرب إلى من يتخذ العلم سبيلاً إلى شهرة بين الدَّهاءِ وإلى استلاب متاع الدنيا ومن كان كذلك كان ممن تسعر بهم نار جهنم يوم القيامة ، كما هدى بيان النبوة إن من حلية العلماء وطلاب العلم تبين الحق والصواب ومناصرته وإن كان ذلك في جانب غيرهم ، كان من حِلية الإمام محمد بن إدريس الشافعي (٢٠٤هـ) ما رواه الحافظ ابن حجر العسقلاني (ت : ٨٥٢ هـ) في كتابه «توالي التأسيس» عن الحسن ابن علي الكرابيسي يقول : سمعت الشافعي يقول : ما ناظرت أحدًا قطُّ إلا أحببتُ أن يوفَّق أو يسدّد ويُعان ويكون عليه رعاية من الله وحفظ ، وما ناظرتُ أحدًا إلا ولم أبالِ بيّن الله الحقَّ على لساني أو لسانه» .

وعن أبي الوليد بن أبي الجارود يقول : «سمعت الشافعي يقول : «ما ناظرتُ أحدًا قطّ فأحببت أن يخطِئ» .

إن طلبة الشافعي هي تبين الحق على أيِّ لسانٍ كان ذلك وفي هذا من الأدب ما نحن أحوج ما نكون إلى أن نتعلَّمه ونعلمه لطلاب العلم بلسان حالنا من قبل لسان مقالنا .

والله سُبْحانَه وَبِحمدِهِ أسأل أنْ يقيمَنا في ما يُرضِيه عنَّا ، وأن يحملَنا إليه حملَ الكرامِ عليْه ، وأن يُحسنَ خاتمَتَنا في الأمورِ كلِّها ، وأن يُصلِّي ويسلِّمَ ويباركَ علَى عبدِهِ ونبيِّهِ ورسُولِه سيِّدِنا مُحمَّدٍ وعلَى آلِه وأزواجِه وأصحابِه وورثتِه مِن أهلِ العلمِ وأمَّتِه أجمعين ، إنَّه وليّ ذلك والقادِرُ عليْه والمتفضّلُ به .

والحمدُ لله ربِّ العالمين .

القاهرة : مدينة الشّروق

وكتبه

مَحمُود تَوفِيق مُحَمّد سَعْد

almasry411@gmail.com

التَّمْهيد
مقاربات في مَنهجُ القراءة والتلقّي

مَوقِعُ المتلقّي ممّا يتلقّى

إنَّ تجدّدَ حياةِ البيان البشريّ في موقفِ المتلقّيهِ منه ، هُو بغير متلقٍ فتيّ أمينٍ تنضبُ الحياةُ منه ، وبقدر امتلاءِ المتلقي بمهاراتِ التلقّي وأدواته وأدبياته يكونُ حظُّ البيان البشريّ من تجدّد الحياة ، وتجدّد فاعليتِه . أمَّا بيانُ الوحْيِ قُرآنًا وسنة فإن الله تعالى قد كَفلَ له الحِفظَ وديموميَّةَ العطاءِ الكريمِ الوَفير ما بَقِيَتْ الحياةُ .

وشارحُ «البيان» إنّما هو سفيرُه ، بلْ سفيرُ صَاحبِه ، فليس «البيانُ» إلا صَاحبَه ، فأنت الكلمةُ الّتي تصنعُها في قلبِك ، وتجريها في لسانِك ، وأنت إذْ تحدِّثُ أحدًا فإنّما تريدُ أن تغزوَ قلبَه ، أنْ تنفذَ في صدرِه على مَتن الكلمةِ ، وليس عزيزًا مَن يفتحُ سمعَه لكلّ كلمةٍ مِن قَبلِ أن يعلمَ حقيقة مَن يقذفُها في سمعِه

﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَـٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولاً ﴾ (الإسراء:٣٦)

شارح «البيان» سفيرُ صاحبِهِ إليك ، وقيمةُ السّفارةِ تتحقّقُ بأمرَيْن رئيسَيْن :

- الأوّلُ : قيمةُ «البيان» في نفسِهِ .
- والآخرُ : قُدرةِ الشّارحِ على القِيامِ بِحقّ السّفارةِ

من يقومُ إلى شرحِ حديثِ رسولِ اللهِ صلّى الله عَلَيْه وعَلَى آلِه وَصَحبِهِ وسَلّمَ عليْه أن يقُومَ في قلبه قيامًا مكينًا أَنَّـه رسُولُ رسُولِ الله عَلَيْهِ وعَلى آلِه وصَحبِهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ إلى المتلقّين

عليْه أن يكونَ مليكًا لمهارةِ حملِ الرِّسالةِ وأدائِها .

عليْهِ أن يتّسِمَ فهمُه بالتغوّرِ والامتدادِ والضَّبطِ .

عَلَيْهِ أن يتّسِمَ بيانُه بالصّدقِ والأمانةِ والفُحولةِ .

عليْهِ أن يقومَ في قلبِهِ قيامًا مكينًا أنّـه يَحملُ إلى القُراءِ مِن رسائلِ رسُولِ الله صَلَواتُ اللهِ وسَلامُه عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ ما يَعجزُون هُم عَن حَمْلِه ، وإلاّ فَلِمَ التَّصدِّي لِما يُمكِنُ للنَّاسِ فعلُه بأنفُسِهم ؟

وعليْه أن يَظُنّ بحديثِ رسُول الله صلّى الله عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ وسَلّمَ الّذِي هُو أهدَى والّذي هُو أتقَى والّذي هُو أهنأُ

روى ابن ماجه في (المقدمة) مِنْ سُننه بسنده عَنْ أَبِى عَبْدِ الرَّحْمَنِ السُّلَمِىِّ عَنْ عَلِىِّ بْنِ أَبِى طَالِبٍ رَضِيَ اللهُ عَنه قَالَ : « إِذَا حَدَّثْتُكُمْ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِحَدِيثٍ فَظُنُّوا بِهِ الَّذِى هُوَ أَهْنَاهُ وَأَهْدَاهُ وَأَتْقَاهُ »[1].

فالفارقُ بيْن بيانِه عَليْهِ وَعَلَى آلِهِ وصَحبه الصّلاة والسّلامُ وأيّ بيانٍ بشريٍّ هو الفرق بيْنه محمّدًا نبيًّا رسولا علمه اللهّ سُبْحانَه وَتَعالَى ما لَمْ يكن يعلم . وأيّ مخلوقٍ مِن العالَمين[2].

---

(١) ورواه الإمامُ أحمدُ في مسنده . وابن ماجه في مقدمة السّنن ، وصححه الألباني في صَحيح وضعيف سنن ابن ماجه حديث رقم (٢٠).

(٢) يقُول الله تعالى لرسُوله ﷺ : ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ ۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَىْءٍ ۚ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾

(النساء:١١٣)==

وإذا ما كان أهلُ الدُّنيا يَتِيهُ أحدُهم هُو وأهلُه علَى النّاسِ أن جُعِلَ سَفِيرًا لِرئيسٍ أو مَلك من أهلِ الأرضِ ، فكيفَ بالَّذي هو سَفيرُ رسولِ اللهِ صلّى الله عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ وسَلّمَ ؟

سفيرُ رسُول الله ﷺ إلى النَّاس لا يَتيهُ ، بل يُفعَمُ قلبُه بالرّهبِ والخشيةِ مِن التَّقصيرِ فِي القيامِ بحقِّ ما يُناطُ بِه . وإنّه لحملٌ ثقيلٌ جليلٌ .

وهُو رَهبٌ حاملٌ على الاجتهادِ والمُجاهدةِ الفتيَّةِ فِي حُسنِ القِيام بالرّسالةِ إيمَانًا واحتسابًا . وعلى التَّواضعِ لله سُبْحانَه وَبِحمدِه .

وهو رَهَبٌ هازمٌ حضورَ النّفسِ في العملِ وَوَائدٌ الشُّعورَ بالذَّات ، فلا يبقَى إلا الشعوربعظيمِ فضلِ الله سُبْحانَه وَبِحمدِه أن هدَى ، وأعان وسدّد ، فهو منْه وإليْه .

==في قوله تعالى : (وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ) إعرابٌ عن أنّ ما علمه الله سُبْحانَه وَبِحمدِه لم يكن من شأنِه ﷺ أن يتعلمه بنفسِه مهما عظُم اجتهاده ، ومهما اجتمع إليه أهل العلم أجمعون يعلمونه ، فهو عِلمٌ إلهي ربّانيّ لا سبيلَ لأحدٍ من العالمين أن يعلمَه أحدًا أيّ أحد . ولذا قال : (لم تكن) ولم يقل : «وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَعْلَمُ » فكلمة« تكن» هذه تُعْربُ عمَّا ذكرتُه لك .

وإذا ما كان الله سُبْحانَه وَبِحمدِه هوالّذي عَلَّمَ نبيه ﷺ مَا لَمْ يكُنْ مِن شأنِه أن يتعلَّمه مِن غيرِ ربّه تعالى ، فإنه سُبْحانَه وَبِحمدِه قد تفضَّل على أمته ﷺ بذلك ، فقال : ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالاً أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ﴾ (البقرة:٢٣٩) وذلِك عَن طريق رسُولِه صلّى الله عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ وسَلّمَ : ﴿ كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِّنكُمْ يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَـٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ﴾ (البقرة:١٥١)

وهذا من خصائصِ هذه الأمّة ، لا سبيل لأمةٍ أخرَى مَهما عَظم علمُها وتنوَّع وتفرّد أن يكونَ لها شيْءٌ من ذلك ، فحقَّ عليها أن تجتهِدَ في شُكر هذه النّعمة بلسان الحال والمقالِ معًا . .

كذلك يَتبينُ لك عِظمُ مَسؤوليّة الشّارحِ بيانَ النُّبوة ، ويتبينُ لـك في الوقـتِ نفسِه عِظمُ قدرِ هذه النّعمةِ على مَنْ مَنَّ اللهُ سُبْحانَه وَبِحمدِه عليه بهـا ، فجعلَـه مِن أهلِها . واللهُ جَلَّ جَلالُهُ أعلمُ حيثُ يجعلُ جليلَ نعمتِه ، ونبيلَ عطيَّتِه .

ومِن يجتهدُ فِي حسنِ قراءةَ كتابِ « شَرحُ أحاديثَ من صَحيحِ مسلمٍ : دراسة في سَمتِ الكلامِ الأوّلِ » لشيخنا أَبِي أحمد ـ أعزّه اللهُ تعالى بطاعتِه ـ يُـوقنُ أنّ الله تعالى قَد مَنَّ عليْه بنعمةِ السّفارة الجليلةِ ، وبنعمةِ حُسنِ القيامِ بها ـ أَحسِبه كذلك ولا أزكّي على اللهِ تعالى أحدًا ، وإن كان شيخيَ الـذي غرستْنِي يمينُـهُ المباركة في رياضِ طلب العِلم بكتابِ اللهِ تعالى وسـنةِ رسُـوله صـلّى الله عَلَيْـهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ وسَلَّمَ وإذا ما كان مِن برّ التّلمـيـذِ بشيـخِـه أن يَعـرِضَ عليْه ما تلقَّاه منه لعلّه يقوّم عَوجه ، ويُسدِّد خلله ، ويأخذ بيدِه إلى الّـتي هِـي أقـومُ فإنّي ـ على استحياءٍ ـ لأرقُم شيْئًا ممَّا قامَ في صدرِي مِن قراءة كتابِـه : « شَـرح أحاديثَ من صَحيحِ مسلم : دراسةٌ في سَمتِ الكلامِ الأوّل » تبصَّرتُ فيـه مـنهجَ الشّيخِ فِي شرحِه أحاديثَ مِن صَحيحِ الإمام مُسلم رَضِيَ اللهُ عَنه .

المَأمُّ الأنفس للبلاغة فَنًّا وعلمًا

كلَّ من يعرفُ شيخنا أوْ سَمِعَ باسمِه يعرفُ أَنَّـه شيخُ البلاغيين العَـرب في زمانِه ، وجمهرةُ مَن يسمعُ ذلك يفهمُ في ضوءِ ما عُهدَ عندَ كـثيرٍ أنّ « البلاغـة فنًّا » غايتُها الكلمةُ الجمالُ ، وأنّـها أداةٌ لصناعةِ الكلمةِ السّـحر ، وأنّ « البلاغـة علمًا » أداةٌ لِتلقّي هـذه الكلمـةِ تلقّيًا يثقُبُ صَدَفـها ، أو يفتحُ أبوابَ خزائنِهَـا ، أَوْ يَكشِفُ أستارَها ، وكلّ ذلكَ حسَنٌ ، لكنّ الّذِي هو غـيرُ حَسـنٍ أن يَحسِـبَ أحدٌ أنَّ « البلاغة » فنٌّ يَصنعُ الكلمةَ الجمالَ أو علْمٌ يدرُسُها ، ثُمَّ تَنتهِي رسالَتُها ورِسَالةُ أهلِها عندَ ذلكَ .

لو أنّ الأمرَ كان كذلكَ ، لما شُغلَ بِها أماجِدُ من أهلِ العلمِ فِـي صُـدورهمْ قلوبٌ تفقَهُ لِـمَ خُلِقَـتْ ، وتفقَـهُ السَّـبيل إلى تحقِيـقِ رسَـالةَ وُجودِهـا ، وتفقَـهُ مَسؤُوليَّتها نَحو نَفسِها فِـي مسِـيرِها في هَـذِهِ الحيـاةِ الـدُّنيا ، وفي مَصـيرها في الحياة الأخرَى ، وتفقَهُ مسؤُوليّتها نَحْـوَ دينِهـا ونَحْـوَ قومِهـا ، ونَحْـوَ البشـرِيَّةِ جمعاء .

البلاغةُ فنًّا وعلمًا عِند أولى الألباب أداةً لغايـةٍ أجـلّ وأجمـل . الغايـةُ هِـي صِناعةُ الإنسانِ كائنًا جماليّا (آدميًّا) فإذا كان ثَمَّ مَـن يُعـرِّفُ «الإنسـان» بأنَـّهُ «حيوانٌ ناطقٌ» (مفكر) وهو تعريفٌ لا مَحالةَ كاشفٌ عـن جـوهرِهِ ، فَـإنَّ لـه عندي تعريفًا آخرَ هُو «الإنسانُ حيوانٌ جماليٌّ»

التعريفُ الأوّل ينظرُ إلى الإنسانِ من جهة الفعلِ (التَّفكير)

والتعريفُ الآخر ينظرُ إليْه من جهةِ الغايةِ من الفعـلِ (الجمـال) هُـو يفكّـرُ ليتحقّقَ هُو بالجمالَ وليُحقّقَه في الكونِ والحياةِ ، وأبو البَشر سيّدنا «آدم» عَليْهِ الصّلاةُ والسّلامُ خُلقَ ليكونَ كائنَا جماليًّـا ، ومِـنْ ثَـمَّ أُقـيم في بـاكر أَمـرِه في الجنةِ[1].

---

(١) كان من حكمة الله تعالى أن خلق «آدم»عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ من«الأرض»ولم يخلقه من السماءِ أو الجنةِ بل لم يخلقه بكلمة «كن» وخلق «حواء» رَضِيَ اللهُ عَنها من «آدم» ولم يخلقها من السماء أو الجنّة أو الأرض أو بكلمة «كن» في هذا إعلانٌ برسالةٍ كلّ من خلال علاقتِه بما خُلق منه :

أبونا آدم عَلَيْهِ الصَّلاَةُ والسَّلامُ خلق من الأرضِ لأنه خلق ليعمُرها بطاعة الله تعالى على وفقِ مرادِه الشرعي ، فكانت علاقته بالأرضِ علاقة الفرع بالأصل ، علاقة الشَّيءِ بأمِّه

وهذا يستوجبُ أن يكونَ بها بارًّا ، وبرُّه بأمِّه «الأرض» يتَمثل في فعله فيها تعميراً وإحيَاءً وفق مرادِ الله شرعًا إيمانًا واحتسابًا وهنا تكون علاقة الآدم (الرّجل) بالأرض عبادةَ .
==

مكثَ في تلك الجنّة لا يتلقّى إلا جمالاً حِسِّيًّا ومعنويًّا ، ولم يكن يَعرفُ القبحَ الحِسيّ أو المعنويّ قطّ ، فلمّا وقعتْ منه المعصِيةُ ، وهي رأسُ القُبحِ المعنويّ المُثمرِ قبحًا حسيًّا أهبطَ إلى الأرضِ ، لا ليفسِدها ، بَلْ ليستَبقي ما فيها من جمالٍ ، وليستثمرَه من بعدِ أن علِم عُقبَى «القبحِ» وأسبابَه ، ومن ثَم كان النّهي الإلهي : ﴿ **وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَـٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ** ﴾ (الأعراف:٥٦) [(١)]

== وعلاقة «حواء» بـآدم «هي علاقة الفرع بأصله ، وبرُّها بأصلِها أن تعمُره باستنبات ، واسْتِزراع ما هو مكنون فيه من بذور الرّجولة ومكارم الأخلاق .

ذلك عملها وتلك رسالتها ، وليست رسالتها مزاحمة (آدم : الرجل) في تعميرِ الأرضِ .

إنما أرضها (آدم : الرجل) فعليها استصلاحه واستزراعه وإحياء مواتِه .

وعلاقة «آدم» بـ« حواء» علاقة الأصل بفرعه رعاية وحماية .

كذلك تتبيْن العلاقة بيْن «الرجل : آدم» و«الأرض» وعلاقتِه أيضًا «بالمرأة : حواء»

وتتبيّن علاقة «المرأة : حواء » بـ« الرّجل : آدم» من خلالِ التبصر في وجه الحكمة فيما ما خُلق كلٌّ منه .

وفي الإعراب عنه بأنَّه «رجل» ، وأنّه« آدم» والإعراب عنها بأنّها «امرأة» وأنَّها «حواء» معنى جليل لك أن تتبصّره ، فأنا وأنتَ في عوزٍ بالغٍ إلى استحضاره في علاقتنا الأسرية والمجتمعية . وإذا غاب هذا المعنى عن وعيِنا ومن سلوكنا كان الذي تراه عينك وتسمعه أذنك صَباح مساء . .

(١) هل لك إلى أن تتدبر فاصِلة هذه الآية لتبصر شيئًا ممّا تفيضُ بِه من عواملِ التثقيف النفسيّ الحاملك إلى التسارعِ إلى أن تحوم حول مقامِ «الإحسان » لتدخله ؟ لِتتدبّر بناء هذه الفاصلة : (إنّ رَحمتَ الله قَريبٌ مِن المُحسنِين)

هل لك أن ترى ما في العدول في رسم تاء التأنيث في (رحمة) تاء مبسُوطة ، وما في هذا البسط من إفادةٍ ببسط الرحمت للمحسنين بسطًا غير ما عهدت الخلائق ؟ وتاء الرحمة لا تبسط إلاّ إذا أضيفت الرحمة إلى اسم الجلالة ، وهو بسط يلحظ قول الله تعالى : ﴿ **وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ** ﴾ (الأعراف:١٥٦) ﴿ **رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا** ﴾ (غافر:٧) ﴿ **رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ** ﴾ (الأنعام:١٤٧)

وهل لك أن تبصرَ في العدول عن مطابقة الصِّفةِ الموصوفَ في (قريب) واصطفاء التذكير ؟

لعلك إِن تلبثت علمت قدر الإحسان في إِصلاح الذات والكون والحياة .

وهو لا ريب ليس بنهي خاصٍ بأمّة سيدنا محمّد صلّى الله عَلَيْـهِ وعَلَـى آلِـهِ وَصَحبِهِ وسَلّمَ ، بل هو مُؤذّنٌ به في كلِّ أمّةٍ سبقتها ، وجاء النّبأ بأنّ الله تعـالـى لا يُحب المفسدين[١]

أبونا «آدم» عَلَيْهِ الصّلاةُ والسّلامُ رسالتُه فِي الحياةِ تَحقِيقُ الجمـال المتمَثّلِ فِي عِمارةِ الأرضِ والحياةِ بطاعةِ الله تعـالَـى . الإنسان إذن كـائـنٌ جماليّ بكـلّ ما تحتضِنه كلمة «جمال» من معانٍ .

وعلمُ البلاغةِ العربيّ علمٌ مهمـومٌ بِصِـناعةِ الإنسـان كائنًـا جماليًّـا ، «إنّ الله جميلٌ يُحِبُّ الجمال» (مسلم : الإيمان) [٢]

ومن شاء أن يدرك شيئًا من هذا الجمـال الـذي يحبـه الله تعـالى ، فعليْـه أن يستجمعَ الآيات القُرآنيّة ، والأحاديث النّبويّةَ المنْبِئَـةَ بـأنَّ الله سُـبْحانَه وَتَعـالَى

---

(١) أولي البصائر حين يسمعون قول الله تعالى (إنَّ الله يحب ...) يبتهجون فيسْعون إلى أن يبصروا ما يُحب سُبْحانَه وَبِحمدِهِ ليكونوا مِمَّن أحبه جَلَّ جَلالُهُ .... «فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِى يَسْمَعُ بِهِ ، وَبَصَرَهُ الَّذِى يُبْصِرُ بِهِ ، وَيَدَهُ الَّتِى يَبْطُشُ بِهَا وَرِجْلَهُ الَّتِى يَمْشِى بِهَا ، وَإِنْ سَأَلَنِى لأُعْطِيَنَّهُ ، وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِى لأُعِيذَنَّهُ...» (البخاري : الرقاق)
وهم حين يسمعونَ قَول الله جَلَّ جَلالُهُ : (إن الله لا يحب ...) ونحوها تكاد تنخلع قلوبهم من صدورهم رهبًا ، فنفي محبة الله تعالى عن أحدٍ هي الشقاء كلّه في الدنيا والآخرة . ومن يقرأ شيئًا من ذلك ثم لا يتبلث يفتش في نفسِه في جميع أحوالِه أفيه شيءٌ من ذلك الذي لا يحبه الله سُبْحانَه وَتَعالَى من يَقرأ ولا يتلبّث ما هو بقارئ على النّحو الذي يحبه الله تعالى ورسُوله صلّى الله عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ وسَلّمَ .

(٢) إذا تبصرت سياقَ هذا النّبأ النّبويّ الجليل ألفيت أنه قد قرنه ببيان معدن القبح : «الكبر» «الْكِبْرُ بَطَرُ الْحَقِّ وَغَمْطُ النَّاسِ» ورأيت أنّ هذا القبحَ هو عاملٌ مستوحش في إفساد الحياة ، وإفسادِ الرِّسالة التي خلق لها آدم عَليْهِ الصّلاةُ والسّلامُ وذريتـه ، ممَّا يهديك إلى أنّ هذا الجمال الذي يحبه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى إنّما هو الفعل المحقق عمارة الكونِ والحياة بطاعة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى .

يحبُّ كذا . . . ويتبصّر ما يُحبه الله تَعَالَى سيجدُ أنَّها أمورٌ هي الصَّانعة للجمال الحسيّ والمعنويّ .

علمُ البلاغةِ العربيّ هو علمُ تحقيقِ الجمالِ في الوجودِ الآدمِيِّ فِي هذا الكونِ ، وفقَ المفهوم الإسلاميّ (قرآنًا وسُنَّة) للجمالِ الَّذي أنبأ رسُول الله عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وصَحبه الصّلاة والسّلامُ أنّ الله تعالى يُحبّه .

مفهوم الجمال في الإسلام

وهذا يُعربُ لك عن حقيقةٍ فريدةٍ في مفهوم الجمالِ في الإسلامِ ، إنّه الجمالُ الَّذي يثمرُه جلالُ الأشياءِ ، هُو وليدُ الجلالِ ، ولذا كان الجمالُ في مفهوم الإسلام لا يحملُ على شيْءٍ من القبحِ الحسيّ أو المعنوي : المعرفيّ أو الاعتِقاديّ ، اللفظيّ أو السّلوكيّ .

من جلال الأشياءِ ينبثِقُ جمالُها .

ولذا جاءت الحكمةُ العربيةُ : إيّاكم وخضراءَ الدّمن : المرأةُ الحسناءُ فِي المنبتِ السّوء . ذلك أنّ حسنَها لم يُستَنبَتْ مِن جلالِها . فكان جديرًا بأن يُحذَّرَ منه . هذه هِي الحقيقةُ الإسلاميَّةُ للجمالِ .

العقلُ البلاغي العربيّ هو العقلُ الباحثُ عن ذلك الجمالِ المتولّدِ مِن الجلالِ في الكلمةِ سَواء كانتْ الكلمةَ الوحيَ (قُرآنًا وسنّة) أو الكلمةَ الآدمَ (الكائن الجماليّ) شعرًا ونثرًا .

يبحثُ العقلُ البلاغِيُّ العربيُّ عَن هذا الجمالِ لِيُغرِي بإقامتِه فِي حركة تَعمِيرِ الكونِ والحياةِ الذي هُو رسَالةَ أبينا آدم عَلَيْهِ الصّلاةُ والسّلامُ وذريتِه جمعاء .

ذَلِك جوهر «البلاغة» وفلسفتها (فنًّا وعلمًا) كما رأيتُها في ما رقَّنَتْ يمينُ شيخِنا أبي موسى مِن كتبٍ وبحوثٍ ، وفيما سبّح بِه لسانُه في محاضراتِه

ومجالسِ علمِه ، والّتي كان لِي شرفُ تلقيها قلبًا وقالبًا منذ أكثر من خمسة وأربعين عامًا تجري فيّ (١٣٨٩-١٤٣٨هـ) فتعلمتُ مِن لسانِ حالِه ومقالِه .

تعلمتُ حقِيقةَ الفعلِ البلاغيّ (فنًّا وعلمًا) ورسالته ، وأيقنتُ أنّ جوهرَ البلاغةِ وفلسفتها عنده ليس بالقائمِ في شقشقةِ ألسنةٍ جوفاء . فلسفة البلاغة وجوهرها في صِناعةِ الكلمةِ «النُّور» والكلمة «السَّيف» الكلمةُ البليغة عنده هِي الّتي تضيء طريقَ الحقّ والخيرِ للإنسانِ ، وهي التي تصُونُ الحقَّ والخيرَ وتحميه بكلّ ما تحملُه كلمة «الحق» و«الخير» ذلك أَمرُ الشَّيخِ فِي علاقتِه ببلاغةِ الفؤاد واللسان والحركةِ فنًّا وعلمًا . أي كتابٍ أنتَ تُخادِنُه من كتبِ الشّيخِ منذ أن كتب لنا مذكرته اللطيفة «تتمَّةٌ في أمورٍ مهمة» عام ١٣٨٩هـ ، ونحنُ في السَّنةِ الثانية فِي كلية اللغة العربيّة بالقاهرة ، ، إلى كتابه (شرح أحاديثَ من صَحيحِ مسلم)

* * *

أنت تبصرُهذا الذي قلته عن جوهر البلاغة وفلسفتها عنده ، إن كنت مِمَّن يُبصرِ الكُلياتِ ومنازعَها وغاياتِها ، ولا يَتقَوقعُ في الجُزئيَّات ، فشأنُ المُحصِّلين كمَا علمَنا أئِمَّة «علمِ البحثِ والمناظرة» أنَّهم لا ينشغلون بالبحثِ في الجُزئيَّات عن الكُليات والأصولِ .

ولمّا كان عسيرًا عليّ أن أحدّثك عن هذا في كلّ ما رقنت يمينُ شيخنا ، كنت أرغبَ في أن أريك شيئًا من هذا في كتابه (شَرحُ أحاديث من صَحيح مسلم : دراسة فِي سَمتِ الكلامِ الأوّل) ولما كان هذا الكتابُ مِن آخر ما قدَّم لنا شيخُنا كنتُ حفيًّا بأن أبصرَ منهجَه في قراءة بيانِ النُّبوّة ، وهدايتنا إلى ما تحملُه هذه البلاغةُ النَّبويّةُ ممَّا أسميه «عوامِلَ تهديمِ أركانِ مثالبِ الوُجود الإنساني ، وعوامل تشييد أركان مناقب الوجود الآدميّ»

الفرق بين الوجود الإنسانى والوجود الآدمى للعبد

هنالِك فرقٌ وسيعٌ عميقٌ بيْن الوُجودَين .

الوجود الإنسانيّ يغرقُ فيه المرءُ في مَعرّة الأُنسِ بالنّعمةِ ونسيانِ المنعم بها ، فيتلطَّخ بالقُبحِ ، ولذا كانت كلمة «الإنسان» في البيان القُرآني لاتكـادُ تـأتِي في غيرِ مساقِ المَذمَّةِ ، وكأنّـه لوحظ في الإعراب بها اشتقاقها من الإنس والنّسيان ، فصُنِعت الكَلمةُ من الأصلين الذي أوَّلـه سـببٌ وثانيـه مسـببٌ عنـه : لمَّـا أنـس بالتَّمتع بحظ نفسِه مِن النّعمةِ نَسِيَ حقَّ مُنعِمها عليْه شُكرانًا فكان «إنسانًا»

الوجود الآدميّ يتسنَّم مدارج القُربِ الأقدسِ مِن جلالِ الألوهيّة ومن جمـالِ الرُّبوبيَّة ، ولذا هُو الحالُّ المُرتحِل بـيْن مقـامِ الخَشـيةِ والرّجـاءِ والسّـنة البيانيـة للقرآن الكريم أنّـه يذكرُ في سياق التّكريم والبعث على العزة مصطلح «بـني آدم» تذكيرًا بالأصلِ الذي نُسلوا منه ، وهُو أصلٌ خلقه الله تعـالى بيـده وعلّمـه الأسماء كلها وأسجد له الملائكة ، وأسكنه الجنـة . . . فهـذه مِـنَنٌ علـى ذريتـه استحضارُها في حركتهم في هذه الحياة يُعينهم على أنْ تبقى المّنة غير شـاغلة لهم عن المُمتن بها سُبْحانَه وَبِحمدِه ، بـل تبقَـى حامِلَـة لهـم علـى المكـث في طاعته جَلَّ جَلالُهُ

هذا هوالفرقُ البيّن بيْن الوجودين : الوجودِ الإنسانيِّ والوجودِ الآدمـيِّ لكـلٍّ منّا ، فانظر أيّ الوجودين أليقُ بك ، وأحبُّ إليْك ؟ .

* * *

بواعث القراءة :

ليس العلمُ تعلمًا وتعليمًا ونشرًا غايةً في نفسِه تنتهِي مسؤوليةُ المرءِ بالفراغ من ذلك ، بل العلم بأبعاده : التَّعلم (فهمًا) والتعليم والنّشرُ (إفهامًا) وسيلة إلى غايةٍ تتمثلُ في حُسنِ القيام بحقوق تتعلقُ برقبة المرْءِ ، هُو مسؤولٌ عنهـا يـومَ الفصلِ الأعظم من تلك الحقوق حقُّ الأمّة المسلمةِ ، وحـقُّ الإنسـانيّة جمعـاء .

فالعلماءُ ورثة الأنبياء ، ورسالة الأنبياء جميعا إخراجُ النَّاسِ من الظُّلماتِ إلى النّور[1].

وإذا ما كانَ علماء هذه الأمة هم ورثَةُ سيّد الأنبياء صلّى الله عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ وسَلّمَ الذي أرسله الله تعالى للنَّاسِ كافة . وأرسله رَحمةً للعالمين ، فمَسؤوليّة ورثتِه العلماءِ تتّسع باتساع رسالته ﷺ وتتخذُ غايته غايتها : إخراج النّاسِ كافة من الظلمات إلى النّور .

ولذا كانت كلمة ورثة الأنبياء : العلماء « نوراً » تُضيءُ السبيلَ للنَّاسِ ، و« سيفًا » يُغمدُ في أعناقِ من يتعمّدُ منعَ النّاس من إبصارِ هذا النّور ، فهي الكلمةُ « النُّورُ » أولاً ، وهي الكلمةُ « السَّيفُ » ثانيًا[2].

---

(١) الظلمات التي يخرج الأنبياء ثُم العلماء العباد منها فسطاطها ظلمة « الكفر » ويتبع ذلك ظلمات عديدة متنوعة منها ما يرجعُ إلى علاقة العبدِ بالله سُبْحانَه وَتَعالَى ، ومنها ما يرجع إلى علاقته بنفسِه ومنها مايرجعُ إلى علاقته بالكونِ والحياة والإنسان كلّ الإنسان . .

(٢) أشيرُ بقولي : « من يتعمّدُ منعَ النّاس من إبصارِ هذا النّور». إلى ما أذهب إليه من أن الإسلام شرع مقاتلة من صدّ الإسلام عن أن يبلغ العبادَ ، ولم يشرع مقاتلة من أبى أن يدخله ، وقبل مسالمة أهله . فمن بلغه الإسلام وبقي على دينه لا يقتل ، بلْ ولا يقاتل . إنما يقاتل منْ اجتهد في منع المسلمين من تبليغ الإسلام إلى الناسِ ، أو من جهد في إيذاء المسلمين ، وذلك للحفاظِ على حق الآخرين في أن يسمعوا الهدَى ، وأن يقفوا على الإسلام ، ثُمَّ يكون لهم الخيار في أن يسلكوا ماشاؤوا ، ، وأن يتخذوا بأنفسِهم لأنفسهم ما يرونه دون أن تكون هنالك وصايةٍ من أحدٍ عليهم . ثُمَّ حسابهم على مختارهم على الله تعالى . ﴿ **لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ** ﴾ (البقرة:٢٥٦) ذلك ما أفقهه من مشروعية الجهاد في الإسلام .

هو جهاد لتمكين الآخرين من حقهم في أن يسمعوا الإسلام ، وأن يتخذوا منه موقفًا عن قناعة وحرية مسؤولة .

فالجهاد في الإسلام دفاعٌ عن حقِّ الآخرين في المعرفة والاختيارِ عن وعيٍ وتحرّرٍ . وليس إرغامًا للناس على أن يدخلوا فيه . هوأجلُّ من أن يُكره أحدًا على اعتناقه . .

وهذا ما تجده في بيان الشّيخ وإفهامِه . وهذا هو الذي تراه حاضرًا زاهرًا في قراءة شيخِنا أحاديث مِنْ صَحيح مسلم .

كان حفيًّا بواقع الأمّة ، وما يُحيط بها ، وما تساقُ إليْه من أعدائها ، وحفيًّا بكشف عواملِ الإفساد والتّهديم لخصائص الأمَّة في علاقتها بخالقِها وبالكون والحياة والإنسانِ كلِّ الإنسان ، ولذا كان يُكثِرُ من الالتفاتِ إلى هذا الواقع . وكانَ يدخلُه من بابِ فقه بيان النّبوة وما أقيمَ عليه من منهاج الإفهام الّذي كان فيه الشَّيخُ خبيرًا بصيرًا بِما حمله مِن أدواتِ العلم بلسانِ العربيّة قائمًا في بيان الوحي قُرآنا وسنةً وبيان الإبداعِ البشريّ شِعرًا ونثرًا ، وكانت له فيه مُمارساتٌ في القراءة المتغوِّرة ، والمثمرة والكاتبة المسكوتَ عنه ، والكاشفة ما ستر في أردانِه ، وما طوي في ثناياه ، يشهدُ لهذا ما سار في طلابِ العلمِ وأهله من أسفارٍ وبحوثٍ ومجالس علمٍ لم يكن لكثير من أقرانه ما يعطسُ بغبارها .

واقعُ الأمَّة ، وما يفرضُه عليه من القيام بحق إصلاحِه ، وحياطتِه وإيقاظِه وتثويرِه وتنويره بنور الوحي ، والعقلِ المنبثقِ من ذلك الوحي ، هو الباعثُ الرّئيس على هذه القراءة .

لم يكن التَّغوّر في قضايا علم الفهم للسان العربيةِ ومسائله : (علم البلاغةِ العربيّ) ومراجعة مقالات العلماء وتقويمها ، وتقريبها في ضوء بيانِ النبوة كما يفعل غيرُ قليلٍ من أهلِ العلم ببلاغةِ العربية ، هو الباعثُ الأعظمُ للشّيخ في قراءة صحيح مسلم ، وإن كان هذا في نفسِه عملا يُفتقرُ إليه إلا أنّ الأمّة اليوم أشدّ احتياجًا إلى القيامِ بحقّ حياطتها ، وحراستها وتطهيرها ، وإصلاح ما أُفسِد فيها [1].

---

(١) لا يعني هذا البتّة أن فعل الشيخِ خلاءٌ من هذا النّظر في قضايا البلاغة وأساليبها ، كلا ، فإن له من ذلك في هذا الكتاب ما لو جمعته لكان لك منه حملٌ جليلٌ ثقيل ، لكنّ هذا ليس هوالمَأَمّ الأنفس والمحجّ الأقدس .

وهذا هو الغايةُ العُظمَى مِن الإحسان في «علم البلاغةِ العربيّ» بما أنّه علم «فهمٍ» قبلَ أن يكون علم «إفهامٍ» متولِّد من الفهم . وهُو علم فهم بيان الوحي قبلَ كلِّ شيْءٍ ، وفهم بيان الوَحي سبيلٌ إلى حُسن فهم الحَياة المَسير (الدُّنيا) والغاية مِن الوُجود الآدميّ فيها ﴿ **وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ** ﴾ (الذاريات:٥٦) وإلى حُسن فهمِ الحياةِ المَصِير (الآخرة) تلك هي الغايةُ العظمى من (علم البلاغة العربيّ) كما أفهم .

وكلُّ جَهْدٍ يبذلُ في هذا العلم لا يُعينُ على التَّقدّم الكريم نحو هـذه الغايـة هُو جهدٌ عقيمٌ لا يشتغل به إلا غابنٌ نفسَه . ذلك هوالباعِث الحثيثُ الـرّئيس للشَّيخ إلى هذه القراءةِ الماجدَةِ .

* * *

تحقيقه جوهر البلاغة على وجهٍ آخر :

ممَّا يحملُه طلابُ العلمِ أنّ البلاغة مطابقة مقتضى الحال ، وهذا قولٌ مُجملٌ يجمعُ ضربيْ البلاغة :

الضّرب الأوَّل : بلاغة لسان المقال فهمًا وإفهامًا .

والضَّرب الآخر : بلاغة لسان الحال فعلاً وتركًا .

البلاغةُ الأولى معدنُها موهبـةُ الإبـداع في الفهـمِ والإفهـام وَالبلاغـةُ الأخـرَى معدِنُها موهبةُ الحكمة سلوكًا .

﴿ **يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ** ﴾ (البقرة:٢٦٩)

وبلاغةُ لسان الحال فعلاً وتركًا هي الأوجبُ مِن بلاغـةِ لسـانِ المَقـالِ فهمًـا وإفهامًا ، فما كلٌّ بمؤتَى تلك ، ولكنّها : بلاغةَ الحال واجبةٌ على كلِّ ذي عقلٍ ، فإِنّ من فسادِها فسادَ حياةٍ ، وإنَّ مِن تحققُّها تحققَ حياةٍ .

وشيخُنا في كتابه : « شرحُ أحاديثَ مِنْ صَحيحِ مُسلم » كان له من البلاغتين : بلاغةِ لسان المقالِ فهمًا وإفهامًا ، وبلاغةِ لسانِ الحال فعلا وتركًا ما لا يُطِيق المقامُ تفصيلَه . والإشارة إلى بعضٍ من معالم بلاغة الحال أوجبُ هنا .

الشَّيخُ معهودٌ عنايتُه البالغةُ ببلاغةِ اللّسانِ ، وقلما يلتفتُ متلقّو أسفاره ومحاضراته إلى بلاغةِ لسان الحال فعلا وتركًا قلما يلتفتُ طلابُ العلم إلى إدراك المقتضي الحاملِ للشيخِ إلى أن يقولَ في كذا وأنْ يدعَ القولَ في كذا ، فهو فيما عهدتُ مِن طول قُربى من عقله ولسانِه حفيّ بأن يَختارَ ما يتكلّم فيه وما يدعُ ، وكثيرًا ما يكونُ في هذا خارقًا أفقَ الانتظارِ والتوقُّع . وكأنّه يمتطِي صَهوة أسلوبِ الحكيم .

شيخُنا في هذا السِّفرِ كانت عنايتُه بأمرِ الواقع الذي يُحيطُ به هي الباعثه على أمورٍ في هذا السِّفر المُسفِر عن حقيقةِ واقعِ الأمّة ، وحقيقة المُثمرِ هذا الواقع ، وحقيقة ما يَجبُ على الأمّة لتخرجَ من هذا الواقع الذّليل الذي لا يرضى به ، بل ولا يسْكت عليه إلا مُسْتنعجٌ ، وهم اليوم جدٌّ كثير .

* * *

منهجه في اختيار الأحاديث وبناءِ القول في الكتاب :

بلغ احتفالُ شيخِنا واحتفاؤه بواقعِ الأمّة ، وجعله وكْدَه الأعظم ، وهمَّه الأجلَّ مبلغًا جدّ جليّ وفتيّ فِي هذا الكتابِ على نحو لم يكنْ ظهارًا لِي أنا ـ فيما أزعمُ ـ كمثله في ما سبقه مِن أسفارٍ أسداها إلى العقلِ المُسلم ذلك أنّ الواقعَ المُحيطَ بنا الآخذَ بخناقِنا والَّذي سنأخذ بخِناقِه إن شاء الله تعالى هُو الذي حمَل شيخَنا على عظيمِ الاعتناءِ بكشفِ أستارِه وإصلاحِ فسادِه ، وتلك هِي بلاغةُ لسانِ الأحوالِ والأفعالِ وهِي أصدقُ بلاغةٍ وأجلُّها .

احتفى الشَّيخُ في هذا الكتابِ بواقعِ الأمّةِ وبالوفاءِ ببعضِ حقِّها عليه ، مُستثمِرًا في هذا حُسنَ البَصرِ ببيانِ النّبوةِ وما له مِن مَهارةِ فهْمِ لسانِ العربيّة في

أسمَى صُورِه ، وما له من قُدرةٍ فتيةٍ على الإبانةِ عمّا يتوافدُ على فؤادِه مِن ثمارِ الفَهمِ عَن الله تعالى والفهمِ عَن رسُولِه عَليْهِ وَعَلَى آلِهِ وصَحبه الصّلاة والسّلامُ .

من هذا تراه في الجُزْء الأوَّلِ من الكتابِ حفيًّا بأحاديثِ الإصلاحِ لحالِ هذه الأمّة ، وإعادتِه على ثبج مضمارِها الَّذي خلقت له : مُخرجةً للناسِ من الظلمات إلى النّور .

﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ﴾ (آل عمران: ١١٠)

ترَى احتفاءَه بالأحاديث الكاشفة عن المُوبقاتِ المُبيراتِ وقراءتها في واقع الأمّةِ المشهودِ المُحيطِ بنا .

ترَى احتفاءَه بالأحاديثِ الكاشِفةِ عمَّا يُطارد الأمّةَ عَن مِضمارِها ـ مِضمار نصرة الحقِّ ، وصِناعةِ الخَيْرِ ونشرِه ـ الّذي يَجبُ أن تكونَ في ثبجِه تقدُمَ الأممَ جمعاءَ .

تراه يبسُطُ لك القولَ في بيان النُّبوّة المُصوِّر ما يُسوق الأمّة إلى مهلكِها [1]

وهذا ما يَتجلّى لك من الأحاديث الّتي شرحَها (ص : ١٧- ٢١٣)

ويُردفُه بالقولِ في بيان النّبوَّةِ المنقذِ هذِه الأمَّةَ مِن المضاءِ في طريقِ الهَلاكِ وما هو مُخرجُها مِن هذا الّذي يطاردُها عَن مقامِها الرِّياديّ في الأمَم ، ويُقيمُها على الجادَّةِ وفاءً برسالتِها الماجدةِ فِي هذِه الحياةِ . (ص : ٢١٣-٥٣٦)

---

(١) رَوَى أَبُـو دَاودَ فِي كِتاب (المَلاحم) من سُننِه بسَنده عَنْ ثَوْبَانَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:

« يُوشِكُ الأُمَمُ أَنْ تَدَاعَى عَلَيْكُمْ كَمَا تَدَاعَى الأَكَلَةُ إِلَى قَصْعَتِهَا » . فَقَالَ قَائِلٌ وَمِنْ قِلَّةٍ نَحْنُ يَوْمَئِذٍ قَالَ « بَلْ أَنْتُمْ يَوْمَئِذٍ كَثِيرٌ وَلَكِنَّكُمْ غُثَاءٌ كَغُثَاءِ السَّيْلِ وَلَيَنْزِعَنَّ اللَّهُ مِنْ صُدُورِ عَدُوِّكُمُ الْمَهَابَةَ مِنْكُمْ وَلَيَقْذِفَنَّ اللَّهُ فِى قُلُوبِكُمُ الْوَهَنَ » . فَقَالَ قَائِلٌ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَا الْوَهَنُ قَالَ « حُبُّ الدُّنْيَا وَكَرَاهِيَةُ الْمَوْتِ » .

ورواه أحمد في مسنده ، وصححه الألباني صحيح وضعيف سنن أبي داود . حديث رقم (٤٢٩٧) وفي سلسلة الأحاديث الصحيحة . حديث رقم : (٩٥٨)

أنت ترَى الجُزءَ الأول كلَّه شَريْجَين :

الأول : الدَّاءُ ، والآخرُ : الدَّواءُ .

وكأنـّي بِه أعزّه الله تعالى بطاعتِه أرادَ أن يجعلَ عُنوان هذا الجزء الأول مِن الكتاب (الدَّاء والدَّواء) فكان نعمًّا الحكيمُ .

أمّا الجُزْءُ الثاني فإنّي أرَى أنّ العنوانَ الأحقَّ به هُو (الكَهْفُ) فَجُلّ الأحاديثِ الَّتي جاءَ بِها إنّما هِي فِي بابِ تحصينِ الأمَّة وحمايتِها وحفاظِها مِن عواملِ الفُرقةِ والتَّهالُكِ .

جعلَ شيخنا هذا الجزْءَ أربعةَ أبوابٍ :

الأوّلُ : في أحاديثِ تحصينِ مال الأمّةِ (ص ٥٤٣-٦١١)

والثَّانِي : في أحاديثِ تحصينِها بالرّسالةِ المحمّديّة (ص ٦١٢-٦٥٤)

والثَّالِث: في أحاديثِ تحصينِها بالتآخِي والتَّراحُمِ والعَدل (ص٦٥٥- ٧١٦)

والرّابع : فِي أحاديثِ تحصينِها بالزُّلفى إلى اللهِ تعالَى (ص ٧١٧-١٠٨٤).

وقد بسط الشّيخُ القولَ في أحاديثِ التَّوبةِ والاستغفار على نَحو لا يَخفَى على ناظرٍ في كتابِهِ ، وكذلك احتفَى بأحاديث الذّكر والدعاء ، وكلُّ ذلك من الحصن المَنبع لِمن أحسن دخولَه إيمانًا واحتسابًا . ففي التزيه والاستغفار والذكر والدعاء تزكية وتقوية لمقام العبودية الذي هو أجل مقام يقوم فيه العبد بيْن يدي سيده ، ومن فَعَل فقد استحق ما تفضل به الله سُبْحانَه وَبِحمدِهِ فـي قوله :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٖ كَفُورٍ ﴾

(الحج:٣٨)

وقوله : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ ﴾ (النحل:١٢٨)

هذا وعدُ إلهيّ متحقق على كماله إذا ما حقّقَ المرْءُ القيامَ المكين في مقامِ العُبوديّة لله ربّ العالمين .

فأحاديثُ هذا الجُزْءِ الثَّانِي هِي الَّتي تُمثلُ (الكَهف) الحَصين لِهذِه الأمّة من بعد أن شخّصَّ لها الداء وبيّن الدواءَ في الجُزْءِ الأوّل . .

وبهذا يَتبينُ لك أنَّ نَسق الأحاديثِ فِي الكتابِ بجزْئيْه قدْ أقِيمَ علَى رُؤيَة مَوضُوعيَّة مَخرجُها حالُ الأمّةِ الآخذُ بخناقِها ، والّتي يَسمعُ كلَّ عاقِل استغاثَتَها بِعلمَائها وطلابَ العلمِ فيها وبِحُكمائِها وشرفَاء أبنائِها لإنقاذِها مِن سُوء المسير والمصير

كان لزامًا أنْ أحرصَ على الالتفاتِ إلى مَنهجِ الشَّيخِ في قراءةِ بيان النّبوّةِ ، واستنباطِه هذِه العَوامل الهادِمةِ للقُبح فينا والمُشيّدة للجمالِ فينا . فكان التفاتِي إلى منهجيّة «القراءة» وعنايتِها بفاعليَّة الكلمةِ «النُّور» والكلمةِ «السّيفِ» لِنعرفَ المَنهجَ الَّذِي سلكَ الشَّيخُ والأدواتِ الّتِي اتّخذَها لِتحقيقِ الرِّسالةِ ، فَتَسَنَّمَ مَدارجَ الإحسانِ إلي طُلابِ العِلم ببيانِ العربيّةِ عامَّة وببيانِ الوحي قُرآنًا وسُنةً خاصَّة ، واقتعدَ مقعدَ المَجْد في قلوبِنا .

* * *

منهج القراءة والبحثِ عند الشيخِ أبي موسى ومَرجعيتُه :[1]

منهج البحث : لَيس خفيًّا أنَّ للبحثِ عَن الحقيقةِ وتحريرِها وتقريرِها بالدَّليلِ الصَّحيحِ الصّريحِ في الدّراساتِ الّلغويّةِ على تنوّع مجالاتها ، وللدّراساتِ الإسلاميّة (عقيدةً وشريعةً) وللدّراسات الإنسانيّة العربيةِ على تنوعِ

(١) غيرُ قليلٍ من طلابِ العلم فِي الدراسَاتِ العليا لا يفرقونَ بيْن مَنْهجِ البحثِ العلمي ، ومنهج التطبيق ، ومنهج القراءة :

البحث العلمي له منهج واحد هو المنهج الاستقرائي ، ومنهج التطبيق له المنهج الاستدلاليّ ، ومنهج القراءة يتنوع فمنه البلاغي ومنه النفسيّ ومنه التاريخيّ ومنه الاجتماعيّ ، وهوالجهة التي يقرأ منها النصّ .

وعلى طلاب العلم أيضًا أن يفرّقوا بيْن المنهج باعتباره طريقة في الكشف عن الحقيقة ، وإجراءات المنهج التى يتخذها الباحث للكشف عن الحقيقة .

مجالاتها أيَضًا منهجًا واحدًا ، هو المنهجُ الّذي ينطلقُ من استقراءِ الجُزئيّات ثُمَّ تصنيفِها وتحليلِها واستنباطِ الحقيقةِ منها .

ذلك المنهجُ لا سَبيلَ لطالبِ العلمِ أن يغفل عنْه أو يتشاغلَ بِغيرِه عنْهُ في مرحلة البحث : (كشفِ الْحقيقَة واستخراجها ، أو إزالة الشبهة ، وحلّ الاشْتكال).

ولا يليقُ البتة أن يتهاون في الوفاء بِحقّ أيِّ ركنٍ من أركانِ هذا المنهج الأربعة :

استقراء الجزئيات ـ التصنيف ـ التحليل ـ استنباط الكلية أو الحقيقة .

التهاون في شيءٍ منها يُؤَدِّي إلى انتفاءِ الثقةِ في ما ينتهِي إليهِ الباحثُ من نتائج .

يقول السيد الشريف : « علم المعاني : هو معرفة قواعد مستخرجة من تتبع جزئيات من تراكيب البلغاء وتعرّف ما لها من الخواص المستفادة منها بحسب مقتضيات الأحوال ، مثلا : إذا تتبعت جزئيات كثيرةً من تراكيب الكلام المؤّكد ، وتعرّفت : أنّها تفيد دفع الشكّ أو ردّ الإنكار أو غيرهما ، وتبين لك : أن إفادتها لتلك المعاني لاشتمالها على التأكيد المناسب لها بوجه خطابي حصلَ عندك قاعدُة كليُة هي : أنَّ كلَّ كلام مؤكَّد من حيث هو مؤكّد صالح لإفادة تلك المعاني ، فهذه القاعدة مسألةٌ من علم المعاني دليلُها استقراء تلك الجزئيات .

وقس على ذلك تتبع جزئيات سائر أنواع التَّراكيب واستخراج القواعد منها ، فتكون الجزئيات التيُ استقرئت دلائل استقرائية للقواعد ، فيتوقف معرفتها على معرفة خواص تلك الجزئيات »[1].

---

(١) المصباح شرح المفتاح للسيد الشريف الجرجانيّ . تحقيق بوكسل جلبك (رسالة دكتوراه . إشراف : الأستاذ الدكتور أحمد طوران أرسلان) ط : استنبول ٢٠٠٦م ، ص٣٣، ٣٤ .

هذا المنهجُ الّذي يُمكنُ أن تُسمّية «المنهجَ الاستقرائيّ» على التوسّع فِي التَّسمية نظرًا إلى الخطوةَ الأُولَى والرَّئيسة من خطواته : (الاستقراء) . هُو المنهجُ المُقابلُ للمنهج «الاستِدلالِيّ» الّذي ينطلقُ مِن الكلّ إلى الجُزْء ، فلا يُؤدّي إلى اكتشافِ كلّيّةٍ ضابطةٍ للجزئياتِ .

وهذا المنهجُ «الاستدلاليّ» هو المُتّخذُ مِن بعد استنباطِ الحقيقةِ الكُليّة بالمنهجِ الاستقرائيّ ، وذلك لتطبيقِ هذه الحَقيقةِ الكُليّة على الجزئّيات وفي هذا بيان أنَّ المنهج «الاستقرائيّ» هو المقدَّم في البحثِ العلميّ لكشفِ الحقائقِ ، وأنّ المنهجَ «الاستدلاليّ» هُو المستعملُ آخرًا لاستثمارِ هذِه الحقيقةِ الكُليّة في التَّطبيقِ .

وأنت إذا ما نظرت في أيِّ كتاب بلاغي وقرأت مبحثًا من مباحثه من نحو أغراض الحذف أو الذكر أو التعريفِ أوأغراض التشبيه ونحو ذلك تجدُ البلاغيين يستنبطون هذه الأغراض وهي قواعد كلية من استقراء البيان البليغ ، وهم يحترسون فيقولون : ومنها كذا وكذا . . . مخافة أن يكون استقراؤهم البيان البليغ ناقصًا ، وهذا من إحكامهم النظر والعبارة عنه .

والشَّيخُ يتخذ المَنهجين معًا المنهج «الاستقرائيّ» في البحثِ ، والمنهج «الاستدلاليّ» فِي التّطبيقِ .

تراه يستعملُ المنهجَ «الاستقرائيّ» في كتابِه هذا يتتبّعُ الجزئيات للظّاهرةِ التّعبيريّة فِي بيانِ النّبوّة ، فَيستنبطُ لَكِ مِن هذا الاستقراءِ والتَّحليلِ قاعدةً كليّةً . على نحو ماتراه في قوله «ولم أَجد في الدّين شيئًا يرضاه ربُّنا إلا وهو خيرٌ لي ولك ، ولم أجد في الدّين شيئًا يكرهه ربنا إلا وهو شرٌّ لي ولك»[1]

هذا دالك على أنه ما قال ذلك إلا من بعدِ مراجعة واستقراء مرهون بطاقةِ المستقرئ ، مستنتجًا من هذا الاستقراء وتحليله هذه القاعدة الكلية .

---

(١) شَرْحُ أحاديثَ منْ صَحِيحِ مسلم ١/١٢٧

وتراه يستخدِمُ المنهجَ «الاستدلاليّ» وهُو يشرحُ لك تركيبًا أو صُورة، فيستدعِي قاعدةً استنبطُها العلماءُ بالمنهجِ «الاستقرائي» فيعمدُ إليها في تطبيقاتِه شارحًا بيانَ النّبوّة.

ترَى هذا فِي تلقِّيه قول النبيّ صلّى الله عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ وسَلّمَ: (وهُو مُؤمنٌ) في الحديثِ الأول: «لا يَزْنِي الزَّانِي حِين يَزْنِي وهُو مُؤمِنٌ . . .»

يقُولُ الشَّيخُ: «وجملةُ: (وهُو مُؤمنٌ) بُنِيتْ بناءً حيًّا، يتلاءَمُ مَع مكانتِها فِي الحديثِ الشَّريفِ، وقد بُنِيَ الحديثُ عليْها، لأنّها مَقصِدَ المَعنَى في الجُملِ المذكورة والمعبّرة عن الخطايا المذكورة . . . .»

ويمضِي الشّيخُ في تحليلِ بِنيةِ هذِه الجُملةِ، وبيانِ قيمةَ بنائها جملةً اسميّة، والإتيان بالضَّمير وبـ «واو الحال» ودلالة هذه «الواو» على أصلِ معناها: «العطف»، وبيانِ قيمةِ حُضورِها مَع الجملةِ الحاليّةِ.

ويمضِي قائلا: «والّذي اكتشَفَ هذا المعنَى الخَفِيّ الشَّيخُ عبدُ القاهر، وعبّرَ عنه عبارةً كريمةً، قال رحمَه الله: فمُحالٌ أن يكونَ هُنا جملةٌ لا تَصْلحُ إلاَّ مع «الواوِ»، وأخرَى لا تَصْلحُ فيها «الواوُ»، وثالثةٌ تَصْلُحُ أن تجِيءَ فيها «بالواو» وأنْ تَدَعَها فلا تجيءُ بها، ثم لا يكونُ لذلك سبَبٌ وعلَّة، وفي الوقوفِ على العلَّة في ذلك إشكالٌ وغُموضٌ، ذلك لأنَّ الطريقَ إليه غيرُ مسْلوكٍ والجهةَ الّتِي مِنها تُعرف غيرُ معروفةٍ، وأن أكتبُ لك أصْلاً فِي «الخبرِ» إذا عرَفْتَه انفتح لك وجه العلة في ذلك . . . .»[1]

---

(١) شرح أحاديث من صَحيح مسلم (م . س) ١/٣٣، ٣٤ ودلائل الإعجاز . تأليف عبد القاهر الجرجاني (ت: ٤٧١هـ) قرأه وعلّق عليْه محمود محمد شاكر . مطبعة المدني: القاهرة . نشر مكتبة الخانجي بالقاهرة ص: ٢١٢ وما بعدها فقرة: ٢٤٠

ثم يعرضُ الشيخ مقال الإمامِ عبد القاهر ، ويعقبُ قائلاً : « وَهذَا مِن الكلامِ الّذي لا أشبعُ مِنْ قَراءتِه ، لأنّه نموذجٌ يُواجِهُ فِيه واحدٌ مِن علمائنا مسألةً غامضةً لمْ يَتكلّمْ فِيها سلفُه مِن العلماءِ ، ولَم يرَ طريقًا مسلُوكًا ، ثُمّ يُحاولُ هو أن يَجدَ لَها طريقًا مسلوكًا ؛ لأنّه متأكّدٌ أنّ هُنا علّةً مسكُوتًا عنها ؛ لأنّ « الواو » لا تَجيءُ مرّةً ، وتذهبُ مرّةً إلاَّ لأمرٍ وراءَ مَجيئِها ـ وأَمرٍ وراءَ غِيابها ؛ فإنَّ يقينَ العلماءِ أنَّ العربيةَ مُنزّهةٌ عَنْ العَبَثِ ، ولا يُمكنُ أن يستَوِي كلامٌ جاءتْ فِيه « الواو » مَعَ كلامٍ لَمْ تأتِ فِيهِ « الواو » . وكلُّ هذا ممَّا أحبُّ أن أُراجعه . . . ».

وفي قولِ الشّيخ « وَهذَا مِن الكلامِ الّذي لا أشبعُ مِنْ قَراءتِه . . . إلخ » لفتٌ لنا إلى أمرين رئيسيْنِ :

الأمرُ الأول : أنَّه يسْتطعِم كلامَ الأعيانِ ، وهي كلمةٌ عاليةُ ، استمدَّها مِن الأثرِ الوارد في شأن القرآن : « لا يشبعُ منه العلماء » وفرْقٌ بيْن قراءةِ العلم قراءة تحصيلٍ واستحوازٍ على مقالاتِ أهلِ العلمِ وحملِها ونشرِها بالوكالة عَنهم ، واستطعام العلم .

استطعام العلم لا يُفضِي بصاحبه إلى أَن يقومَ مقامَ الحافظِ الحامل ، وإنّما يقُوم مقامَ الصّانع للمعرفةِ ، والمُخرج ممَّا كان من الأعيان ما لمْ يكنْ منهمْ ، وتلك هي المنزلة العليّة من منازل خدمة العلم وأهلِه وطلابِه .

والأمر الآخر : أنَّ هذا من النّصوص المنهجية المؤسّسة التي لا تخلق على كثرة النّظر فيها وتعمّقه ، وأنَّها كلّما زدتها نظرًا قَويمًا زادتك عطاء كريمًا ، فعطاؤها لك على قدرِ استقامةِ نظرِك وتغوره ، واتّساعِ وعائِك (قلبِك) فأنت الّذي يُحدِّدُ عطيَّته لك ، فأكرمْ نفسَك يكرمْك . إنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَستَغنيتم استُغنِيَ عَنكُم .

الشّيخُ إذن لا يشبَعُ مِن قراءة مثل هذا ؛ لأنّه لا يُحاولُ تحصيلَ ما فيه من قولٍ في متنِ العلم ، كلاَّ ، فمثلُ هذا تكفِي فيه قراءةٌ يَقظَى واحدة من مثلِه ، ولكنّه يعرفُ رسالتَه ورسالة كلّ عالمٍ ابتلي بهذه الرِّسالة التي سَيُسأل عنها يوم القيامةِ .

هو يقرأُ لِيبصرَ منهجَ الأئمةِ في الفهمِ والتَّأويلِ ، ومنهجَهم في تعليمِنا حُسنَ النّظر في العلمِ ، ومنهجهم في أن يقومُوا لما لم يُتكلّم فيه قبلُ ، ليفتحوا إلى فهمه بابًا أوْ لِيُطَرّقوا ما بدأ بِه أحدٌ ، فسلكه إلاَّ أنّه لم يطرّق ، فيستحيلُ بفعلهم ذلِك الشَّارعُ طريقًا ، وتطرِيقُ ما شُرّع ليسَ أمرًا سَهلاً .

هذه دعوةٌ مِن الشيخ لمثلنا أنَّ هذا هو منهاج خدمة العلم ، وليس اجترارُ ما شاع من مقالة العلماء والاكتفاءُ بـ « الترقيع » بيْن النّصُوص المُسْتلبة مِن الكتبِ ، وكأنَّ العلمَ أو البحث العلميّ مجرَّدُ القَرن بيْن قولٍ مِن هنا وقَولٍ مِن هناك ، ولا سيما إنْ كان هذا قولاً مِن كتابٍ من عطاءِ العقلِ العربي ، وكان الآخرُ قولاً من فتاتِ موائد العقل الأعجمي ، والكَتْبُ بينهما بكَلِم لا تعدُو أن تكون تلخيصًا لِلقولِ السِّباقِ ، وتهيئة للقوْل اللحاق .

منهاج القراءة : هذا ما يتعلَّقُ بمناهجِ البحثِ عَن الحقيقةِ وتطبيقاتِها ، أمّا مِنهاج القراءةِ : قراءة البيان (النّصُوص) فإنّه يتخذُ منهاجًا له مرجعيّته في أسفارِ الأعيانِ مِن الأئمةِ ، وعلى رأسِهم جميعًا الإمامُ عبد القاهرِ الجرجانيّ (ت:٤٧١هـ) في كتابيْه وهو جدّ حفيّ بهذين الكتابين من أنَّهما كتابان يُعلمان حُسنَ النّظر قبل أن يعلما قضايا البلاغةِ ومسائلها ، فشأنُهما في علم « البلاغة » شأنُ كتاب « الرّسَالة » للشافعيّ (ت : ٢٠٤هـ) في علم أصولِ الفقهِ ، وشأنُ كتاب سِيبَويْهِ (ت : ١٨٠هـ) في علم « النّحو » وشأنُ كتاب « البيان والتبيين » للجاحظِ (ت : ٢٥٥هـ) في علم الأدب ، وشأن كتاب « الخصائصِ » لابن جنّي

(ت : ٣٩٢هـ)». وشأن كتاب «مقاييس اللغة» لأَبِي الْحُسَيْنِ أَحْمَدَ بْنِ فَارِسِ ابْنِ زَكَرِيّا (ت : ٣٩٥هـ) في علم معاجم اللغةِ . . .

منهاجُ قراءةِ البيانِ عنْد الشَّيخ هُوالمَنهجُ البلاغِيّ (البيانيّ) وأصولُ هذا المَنهج تتمثلُ فِي نصوصٍ مؤسّسةٍ في كتابي عبد القاهر الجُرجانيّ . ولا يتّسِع المقام هنا إلاّ إلى الإشارة إلى بعضِ هذه النُّصوصِ ، أمّا تحليلُها ، ففوق طاقةِ هذا المقام[1].

النّصوصُ المنهجيّة المؤسِّسة :

النَّصّ الأوّل قوله : «لا يكفِي في علمٍ «الفصاحةِ» أن تَنْصُبَ لها قياسًا ما ، وأن تَصِفها وصْفاً مُجْملاً ، وتقولَ فيها قولاً مُرْسَلاً ، بلْ لا تكونُ مِن مَعرفتها في شَيْءٍ حتَّى :

١- تُفصِّل القولَ وتُحصِّلَ .

٢- وتضعَ اليدَ على الخصائصِ التي تَعرِضُ في نَظْم الكَلِم .

٣- وتَعُدُّها واحدةً واحدة .

٤- وتُسمّيها شيئًا شيئًا .

٥- وتكونُ مَعرفتُك معرفةَ الصَّنع الحاذق الّذِي يعلَمُ علمَ كلِّ خيطٍ مِن الإبْريسَمِ الّذي في الدِّيباج ، وكلَّ قطعةٍ منَ القِطَع المَنجُورة في البابِ المقطَّع ، وكلّ آجرّةٍ منَ الآجرِّ الّذي فِي البِناء البَديعِ»[2].

---

(١) حاولت في كتابِي «شَرح فصُولِ منْ كتابِ دلائلِ الإعجاز» أن أُبِين عن بعضِ مكنونِ هذه النّصُوص لطلاب الدّراساتِ العليا في جامعتي الإمام ، بالرياضِ وأم القرى بِمكةَ المكرمة . وما يزال فِي مسوّدته . ولعلّي أعمدُ إلى استْكمال نقصِه وتقويم عوجَه وتسديد خلله ، وتطهيرِه من الغفلةِ والجهالةِ ، ثُم تبييضه وإعداده للنشر والله المسْتعان على طاعتِه .

(٢) دلائل الإعجاز : ص : ٣٧ فقرة : ٢٩

نفَى ثلاثةً ليْست من فعلِ العقلِ البلاغي :

- أن تَنْصُبَ للفصَاحةِ قياسًا ما .
- أن تَصِفها وصْفاً مُجْملاً .
- أنْ تقولَ فيها قولاً مُرْسَلاً .

وأقام خمسة أصول كليّة يقوم عليها التفكيرُ البلاغيّ . وكلّ أصْلٍ من هذه الأصّول حملٌ ثقيلٌ جليلٌ .

وهي حاضرةٌ في صنيع شيخنا .

* * *

والنصّ الثاني قوله : «وجملةُ ما أردتُ أن أبينَه لك : أنَّه لا بدَّ لكلّ كلامٍ تستحسنُه ، ولفظٍ تستجيدهُ ، من أن يكونَ لاستحسانِك ذلك :

- جهةٌ معلومةٌ
- وعلَّةٌ معقولةٌ
- وأن يكونَ لنا إِلى العبارةِ عن ذاك سبيلٌ
- وعلى صحَّةِ ما أدَّعيناه من ذلك دليلٌ». (١)

هذه أرْبعةٌ لا يكونُ لا سْتحسانِك قيمةً علميةً إلا إذا ما حقَّقتها فِيه تحقّقًا لا يَخفَى .

وهو نسقَها نسقًا متراتبًا يبنَى الثَّاني على الأوّل والثَّالث على الثّاني ، والرابِعُ على الثَّالث ، ذلك أنّك لنْ تصلَ إِلَى العِلَّةِ المعقولةِ ، وأنت لَم تبصرْ جِهةَ الحُسْن ومَخرَجَه ، ولا قيمةَ لمعرفتِك الجِهة والعلَّةَ ، وأنتَ غيرُ مقتدرٍ عَلَى الإبانةِ والإفهامِ لِما عَرَفت ، وكلُّ ذلك لا قيمةَ له إذا لَم يكنْ في يمِينِك دليلٌ صَحيحٌ وبرهانٌ نصِيحٌ .

---

(١) دلائل الإعجاز : ص ٤١ فقرة ٣٣

كذلك يبنِي عبدُ القاهر عقولَنا ، ويضبطُ حركَتها . وكذلك يصنعُ العالمُ طلاَّبَ علمِهِ

* * *

والنَّصّ الثالث قوله : « وإذ قد عرفْتَ أنَّ مدارَ أمرِ « النظْم » على مَعاني النّحو ، وعلى الوجُوهِ والفُروق التي من شأْنها أَنْ تكونَ فيه ، فاعلمْ أنَّ الفروقَ والوجوهَ كثيرةٌ ليسَ لها غايةٌ تقفُ عندها ، ونهاية لا تجد لها ازدياداً بَعْدها .

ثم اعْلَمْ أنْ ليستِ المزيةُ بواجبةٍ لها في أنْفُسِها ، ومِنْ حيثُ هي على الإِطلاق .

ولكنْ تعرضُ بسببِ المعاني والأغراضِ التي يُوضعُ لها الكلامُ .

ثم بحَسَبِ موقعِ بعضِها من بعضٍ

واستعمالِ بعضِها معَ بعضٍ »[1] .

هذه الثلاثة التي يثوبُ إليْها وجوب المَزِيّة للفروقِ النّظمية نسقت نسقًا يبدأ من العامَّ إلى الخاصّ إلى الأخصّ .

بدأ بملاحظ المعانى الكليّة والأغراضِ الّتي يوضع لها الكلام . وهذا فيه لفتٌ إلى أهمية تحرير المعنى الأم ، الّذي تؤوب إليْه المعاني وصُورها ، وإن تباعدت منازلها من المركز في رحبة البيان الفسِيحة .

وهذا مما يغفلُ غيرُ قليلٍ عن الوفاء بحقّه .

وأنت سترى الشّيخ جدّ حفيّ بذلك الوفاء ، على نحو قد لا يتيسر لك رؤيتُه عند كثيرٍ مِن أقرانِه مِن أهلِ العلم ببلاغةِ العربيّةِ في زمانِه .

ثم يأتيك موقع الفروق بعضِها من بعضٍ .

---

(١) دلائل الإعجاز : ص ٨٧ فقرة ٨٠

افهم أنّ موقعَ الأسلوب من سائر الأساليبِ هو موقِع مكانة وظيفية ، وليس موقع مكان في سياق الإبانةِ .

وهذا الموقع الوظيفيّ يمنحه مزية خاصّة لا يكون له مثلها حين يقوم في موقعٍ آخر . فالأسلوب قد يكون موقعه من سائر الأساليب التي تعاونت على تصوير المعنى موقع الرئيس ، وسائر الأساليب كالمساعد له . وهو في صُورة أخرى يقع موقعه الأسلوب المساند

ألا ترى أن أسلوب «التقسِيم والتنسيق» في سورة «والضُّحى» و«الانشراح» هوالأسلوبُ العمدة ، وسائر الأساليب تخدمه على تنوع في تنسيق المعنى في كلٍّ ؟

في «الانشراح» مفتتح به : ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝٢ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ۝٣ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴾ (الشرح:١-٤)

وهو في «الضحى» ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ۝٦ وَوَجَدَكَ ضَآلاًّ فَهَدَىٰ ۝٧ وَوَجَدَكَ عَآئِلاً فَأَغْنَىٰ ﴾ (الضحى:٦-٨) تال للوعد :

﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣ وَلَلْأَاخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ ۝٤ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ﴾ (الضحى:٣-٥)

بينما الوعد في «الانشراح» :

﴿ فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴾ (الشرح:٥،٦) تال للتقرير : ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝٢ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ۝٣ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴾ (الشرح:١-٤)

وفي كل كان الختام بالتكليف :

﴿ فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۝٩ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ۝١٠ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ (الضحى:٩-١١)

﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ۝٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب ﴾ (الشرح:٧،٨)

ثم ختم عبد القاهر بقوله : «واسْتعمالِ بعضِها معَ بعضٍ»

أفهم أنه يلفتنا إلى تبصّر استعمال الأساليب مع بعضِها ، فليست هنالك صُورةٌ لمعنى مكونة من أسلوبٍ واحد ، بل كلّ صُورة هي نسيج من عدة أساليب كلّ أسلوب يمثل خيطًا في نسيج الصورة ، وهذا يستوجبُ علينْا إذا ما وازنا بيْن صُورتين لمعنى عام غيرِ مصوّر أن نرصد مكونات كلّ صُورةٍ من الأساليب ، ونوازن بيْنها ، فلكل أسلوب طبيعته وتأثيره في المعنى والنفسِ التي تتلقاه .

وعبد القاهر قد وضع أيدينا على شيْءٍ من ذلك ، وهو يوازن بيْن بعضِ الصور في كتابِه دلائل الإعجاز .

* * *

والنَّصّ الرَّابع قوله : « لا فضيلةَ حتى تَرى في الأمرِ مَصْنعاً ، وحتى تَجدَ إِلى التخيُّر سبيلاً ، وحتى تكونَ قد استدركْتَ صَواباً »[1].

هذه الثلاثَة : الصنعةُ والتخير وطلبة إِصابة الحُسن هي التي يحقق توفيتُها الفضيلة لصَانعها . فحيثُ لا يكونُ اختيارٌ لا يكون فضل يرجع للمتكلم ، وإن كان ثَمّ فضل يرجع إلى اللغةِ نفسِها ، وحيث لا تكون صَنعةُ لا يكون فضلٌ ، وحيث لا يقصَد إلى حسنٍ يُطلب ويُسعَى إليْه فلا فضيلة ، فمَن كان همه صحة القولِ وإن كان خشنًا متوحشًا متبرمًا ، فمثله لا تكون له فضيلة .

وهذا يهديك إلى أن تبحثَ عن قدرِ ما كان فِي البيان من الاختيار ، فتقيم البدائل المُمكنة مقامَ ما جاء به البيان ، فتتوهم أنه مكان المبِين ، فتبصَّرَ ما الذي يمكنك أن تأتي به غيرالذي جاء هو بِه ، ثم توازن ، لتعلم فضله في ما أخذ وما ترك . والشيخ حفيّ بهذا في سِفره الَّذي نحنُ بصددِه .

* * *

(١) دلائل الإعجاز : ص ٩٨ فقرة ٨٥ ، وانظر معه : ص ٢٨٦ فقرة ٣٣٥ ففيها مايقرره ويؤكده .

والنّصّ الخامس قوله :

« اعلم أن غرضي في هذا الكلام الذي ابتدأته ، والأساس الذي وضعته ، أن أتوصّل إلى بيان أمر المعاني :

- كيف تختلف وتتفق .
- ومن أين تجتمع وتفترق .
- وأفصل أجناسها وأنْواعها .
- وأتتبّع خاصّها ومُشَاعَها .

« وأبين أحوالها في كرم مَنْصبها من العقل ، وتمكُّنَها في نِصَابه ، وقُرْب رَحِمِها منه ، أو بُعدها حين تُنسب عنه ، وكَوْنِها كالحَلِيف الجارِي مجرى النَّسَبَ ، أوْالزَّنيم الملصَق بالقوم لا يقبلونه ، ولا يمتعضون له ولا يَذُبُّون دونه..... » [1]

عبدُ القاهر بهذه الخمسة يضع يدك على مقومات عملك بلاغيًّا في أيّ بيانٍ أنت تريدُ أن تكشفَ بلاغته وأسرارها . وكلّ دراسةٍ بلاغِيةٍ لا يكونُ نصيبُها مِن هذه الخمسة وافرًا لا تكون بلاغية في شيءٍ .

وتحقيق هذه الخمسةِ من أشقِّ ما يُعانيه العقلُ البلاغيُّ في تأمّل البيان البليغ . وهو ميدانُ مفارقةٍ وسيعةٍ بيْن العقولِ والأذواقِ . سواءٌ في نوع المُمارسة أوْ مُستواها أو اطرادها . . .

* * *

(١) أسرار البلاغة ، تأليف عبد القاهر الجرجاني ، قرأه وعلق عليه محمود محمد شاكر ، نشر دار المدني . جدة ، مطبعة المدني بالقاهرة . ط(١) عام ١٤١٢هـ ص ٢٦، ٢٧

هذه أهمُّ النُّصوص الكليّة المؤسّسة لمنهج قراءة البيان عند الشَّيخ ، وهنالك نصوصٌ أُخر تساندُها عند عبدِ القاهرِ وابن جنيّ والزّمخشري والجاحظ كلّ هذا يقُوم عليه منهاجُ القراءةِ البيانيّة عند الشيخ . وهو يصدُرُ عنها وتقوم في فعله ، وإن لم تقم كثيرًا في لفظِه ، وأنت إذْ تقرأُ بيانه عمَّا قام في صدرِه تشعرُ بأنفاسِ أولئك الأئمةِ في نفَسِه ، ولكلٍّ أرجُه وعَرفُه ومذاقُه ، فإذا أَنت في روضٍ مِعطار . لستُ هنا براكب مَتن الخيالِ ، ولكنّي مقتعدٌ مجلسَ الواقعِ الّذي لا يُمكنُ لذي نصفة أن يتوقف فضلا عن أن يتردَّد في أن يهتف : حقًّا حقًّا .

وحرِي بطلاب العلم ، ولاسيما العلم ببيان الوحي قرآنًا وسنَّة أن يكونوا أحرصَ على الجمع في قراءتهم ومدارستهم ما جاء به الأعيان في أسفارهم بيْن القضايا والمسائل العلمية ومنهج أولئك الأعيان في التفكير والتعبير وفي المدارسة لما جاء عن سابقيهم من العلماءِ ، وكيف أنَّهم كانوا أحرص على أن يتجاوزوا طور التحصيل والحمل الأمين إلى أفق استثمار ما حصَّلوا وحملوا وخدمته تقويمًا وتكميلاً وتفعيلاً .

كلُّ الأعيان من العلماء في كلّ الأعصار والأمصار المُسلمة كانت تلك صناعتهم ، فليس العالم من كان أمين خزائن علم سابقيه ، بل هو الصَّانع ممَّا جادوا به علينا ما لم يكن فيه ، فكان ذلك منهم إحياءً لما جاد به السابقون بالخبرات .

وإن العالم لا ينشرح صدرُه بعد تحقيق صفاء الإيمان بالله وتحرير طاعته من الابتداع وملاحظة الأغيار بمثل ما ينشرح بإنعام الله تعالى على علمه بطالب علمٍ ماجدٍ ينفرُ من أن يكون حامل أسفارٍ فحسب ، ويأبى إلا أن يكون شريك أشياخه في خدمة العلم وصناعته وتحقيقه وتحريره ونشره احتسابًا لرضوان الله العليّ العظيم فمثل ذلك الطالب أنفع للعالم من ولده لصلبه .

بمثل ذلك قامت الأمة في قرونها الأولى ، فلمَّا خلف من بعدهم خلفٌ عشقوا الاجترار ، وأدمنوا التكرار العقيم ، ورهبوا أن يعملوا عقولهم وقلوبهم كان الذي فيه غارقون من التبعية المقيتة لما يُنتجه غيرنا من المعرفة والثقافة ومناهج الحياة على الرَّغم من أن الله تعالى يقول لنا : ﴿ **وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا** ﴾ (الإسراء:٣٦) وكأنَّ هذه الآية جاءت لغيرنا ، وكأنَّا آمنَّا بأنَّا لسنا المخاطبين بها فلم تتجاوز حناجرنا . ولم يكن لعقولنا ولقلوبنا ولجوارحنا منها نصيب .

* * *

الفصل الأول

ضوابطُ قراءةِ بيانِ النّبوةِ ومعالمُها عند الشَّيْخ

لقراءةِ بيانِ النُّبوَّة عند الشّيخ ضوابطُ تتحكّمُ في حركةِ قراءتِه ، يدركُ هذه الضَّوابط من ينظرُ في حركةِ عقلِه حين تكونُ أمامَ سبلٌ يمكنُ أن يَختارَ منها في سعيِهِ ، فتجدُه ينصرفُ إلى طريقٍ ، فتنظرُ ، فتجدُه غير مختارٍ في ما اصطفي بل هو ملتزم بما أملته عليْه ضوابطُ القراءة لبيان النُّبوّة .

وهذه الضَوابطُ منها ما هو رئيسٌ قائمٌ في مرحلةِ التَّصوّر(الفهم والتلقّي) ، ومنها ما هو قائمٌ في مرحلةِ التَّصويرِ (الإبانَة والإفهام) من تلك الضوابط :

الضابط الأول :

- العلم بحال النبيّ صلّى الله عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ وسَلّمَ وبحالِ رسالتِه ووظيفتِه وخصائصِه الخُلقية والسّلوكيّة واستحضار ذلك عند قِراءةِ بيانِهِ .

وهذا الضابطُ مرجعيته ما رواه ابنُ ماجه في (المقدمة) مِنْ سُننه بسنده عَنْ أَبِى عَبْدِ الرَّحْمَنِ السُّلَمِىِّ عَنْ عَلِىٍّ بْنِ أَبِى طَالِبٍ رَضِيَ اللهُ عَنه قَالَ : « إِذَا حَدَّثْتُكُمْ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِحَدِيثٍ فَظُنُّوا بِهِ الَّذِى هُوَ أَهْنَاهُ وَأَهْدَاهُ وَأَتْقَاهُ »[1] .

---

(١) سبق تخريجه ص ١٦.

وهذا لا يكونُ إلاَّ مِن العِلم بعظيمِ شأنِ النبيّ صَلَواتُ اللهِ وسَلامُه عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ وعظيمِ قدرِه ، واستحضار أن الفرق بين حديثِه ﷺ وحديثِ غيرِه من العالمين هُو الفرقُ بينه محمّدًا نبيًّا رسُولاً رحمة للعالمين بالمؤمنين رؤوفًا رحيمًا وبين كلٍّ مِن العالَمين .

الشَّيخ يلحُّ كثيرًا على استحضار هذا الضَّابط وهو يحدّثنا عمّا في بيان النبيّ صَلَواتُ اللهِ وسَلامُه عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ ليحاجزَنا عنْ التوقّف فِي التّسليم بما حمله بيانه ﷺ .

وكأنَّ الشَّيخَ يَستشعِرُ أنّ من مسؤوليتِه أن يحوطَ القارئ بما يستبْقيه في مقامِ حُسنِ التلقّي عن النبيّ عَليْهِ وَعَلَى آلِهِ وصَحبه الصّلاة والسّلامُ .

وممّا قاله في هذا قولُه : « لا تهملْ ، ولا تغفلْ جانبَ الهدايةِ والرّحمةِ ، وأنت تقرأُ ما تقرأُ فِي كلام الله سُبْحانَه وَتَعالَى وكلام رسُوله صلّى الله عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ وسَلّمَ وكيف يتعهّدُ الإنسان؟

وكيفَ ينزعُه من مزالقِ الخساسَةِ ؟

وكيفَ يرتقِي بِه إلى مدارجِ القيمِ النبيلة ؟

وأنّ هذه رسالةُ الدّين ، ورسالةُ الخالقِ إلى خلقِهِ . . . » (١)

هذا الضَّابط إذا لم يكن قائمًا قيامًا لازمًا لا يغفلُ عنه البتّة انحرفتْ حركةُ التَّلقَّى إلى ما لا يلتقِي مع غاية بيان النّبوّة . ذلك أنَّ لبيان النّبوَّة غاية مَن لم يضعْ عينَه عليها في جميعِ حركةِ تلقيه وفهمِه يكادُ يقعُ في معرَّة التقوّل على سيّدنا رسُولِ الله صلّى الله عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ وسَلّمَ تلك الغايةُ تتمثلُ في تحقيق عزَّة المرءِ في كمالِ عبوديتِه لله تعالى واستسلامِه لأمرِه ونهيِه استسلامَ محبةٍ وتشرّفٍ .

---

(١) شرح أحاديث من صَحيح مسلم : ٥٢/١ .

ومن يُحسن البَصرَ في حركةِ الشَّيخِ وهُو يتلقّى بيانَ النّبوة يبصرُ هذه الغايةَ نصبَ عينيْهِ ، وهو يُسافر في منازلِ التلقّي والفهمِ .

من هذا ما تـراه في قولِـه : « لمَّـا اقتربـتُ مـن كـلامِ سـيِّدنا رسـول الله ﷺ بالتَّحليلِ وجدتُ كلامَه عليْهِ السّلامُ يقُولُ لنا بعد ما رأى الذي نحنُ فيه ، وأنّـه عليه السّلامُ كأنّـه يضعُ الدّواء لأدوائنا ، وكأنّـه بيْننا ، وينادِي فينا بِمـا يُخلصـنا مِن الأهوالِ المحيطةِ بنا ، رأيتـه عليْـه السـلامُ يـدعُونا إلى الحـبِّ بعْـد مـا رأى البغضاءَ تتوقّدُ فِـي صُدورنا يقُول لنـا : لا يـؤمـنُ أحـدُكـمْ حتّى يحب لأخيـهِ ما يُحبُّ لنفسِه ....

ولا تظنّ انّي أبالِغُ ؛ لأنّ مقامَ رسُول اللهِ ﷺ أجلُّ فِي نفسِـي مِـن أنْ أتزيّـدَ لَه... » (١)

ويقُـول مبينـا عـن باعثـه علـى مـا اختـاره مـن أحاديـث رسُـول الله ﷺ « والأحاديثُ الّتي كتبتُها فِي كتابِي هذا ، والكتابِ الّذي قبلَـه لَـمْ تكـنْ اختيـارًا لِفضلِ بعضِ كلامِهِ علَى بعضٍ عَلَيْهِ السَّلامُ ، وإنّمـا كنـت أختـارُ منهـا مـا هـو أقربُ إلى قضايانا ؛ لأنـَّهُ عَلَيْهِ السّلامُ تكلّم للأجيـالِ كلـها فِـي الأزمنـةِ كلّهـا ، وفِي الأمكنةِ كلّها ؛ لأنـّه عَليْهِ السّلامُ بُعثَ لِهؤلاءِ جميعًا ، ولكلِّ جيلٍ قضَـاياه ومشاكِلُهُ ، ولذلك كان كلامُه عَليْهِ السّلامُ ممسِكًا دائمًا بالجوهرِ الذي هوأقربُ إلَى فِطرةِ الأشياءِ ، وليْسَ مُمسِكًا بالْعرضِ المتغَيّرِ . . .

ويسْتطيعُ أهلُ البصِيرةِ ، وأهـلُ العلـمِ بِكلامِـه عَليـهِ السّـلامُ أن يَسْتخرِجُوا الشّفاءَ والعلاجَ والحلولَ لقَضَايا زَمانِهمْ مِن كلامِهِ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ ، وليسَ هذا « دروشةً » وَإنّما مَنْ عرفَ كلامَه عَلَيْهِ السّلامُ يَعرِفُ ذلِك ، ولَـو كـانَ غَـيرَ مسْلِم » (٢)

---

(١) شرح أحاديث من صَحيح مسلم : ١/٧، ٨ .

(٢) المرجع السابق :٦١٢/٢، ٦١٣ .

هذا بصر بحال رسُول الله صلّى الله عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ وسَلّمَ مبينًا عن الحق والخيرِ ، الذي تستقيم عليْه أمر الحياةِ كلها في كلّ عصرٍ ومصرٍ وجنسٍ من البشرِ ، فكان صَلَواتُ اللهِ وسَلامُه عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ يتخذ منهاجًا فِي تبيينه يجعل منه خالدًا لا تنبُو عن سياقٌ من سياقاتِ الحياة ، ولا يفتقد كل من الأحوال ما فيه صَلاحه .

وهذا من الشيخ بصر بحالِ رسُول الله صَلَواتُ اللهِ وسَلامُه عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ أعانه على أن يتخذ طريقه الأقوم فِي تلقّيه . في ضَوء واقعِ التّلقّي .

ويقُول : « إنّك لترَى جانبًا آخرَ من جوانبِ الحديثِ تبثّ في الشّعبِ روحَ المحبةِ والتساندِ والتآلفِ والتقاربِ حتّى إنّ حبّك للناسِ شرطٌ مِن شُروطِ الإيمانِ الصّحيحِ ، وأن تحبّ لأخيك ما تُحبُّ لنفسك ، وليس المرادُ بأخيك أخوةُ النّسبِ ، وإنّما الأخوةُ فِي الوَطن الذي يجمعُ غيرَ المسلمين ؛ لأنّ غيرَ المسلِمين الّذين بيْننا لهمْ ما لَنا ، وعليْهم ما عليْنا . . »

الشّيخُ يريد هنا المواطن مسلمًا أو مسالمًا غير مسلم ، ولا يريدُ المتواطئ مسلمًا وإن كان ابن أمك وأبيك أو غير مسلم ، وفرق شسيع بيْن المواطن والمتواطئ . هو الفرق بين التآخي والتعادي . المواطنةُ وحدها لا تحقق الأخوة ، بلْ لا بد معها من المسالمةِ ظاهرًا وباطنًا ، كلَّ من سَالمك من أبناء آدم عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ في أيّ بقعةٍ من الأرض هو أخوك في الآدميَّةِ . وهي الرَّحم الوثيق . « . . . النَّاس بَنُو آدَمَ وَآدَمُ مِنْ تُرَابٍ »[1] .

والتآخي على درجات :

تآخٍ في الدّين هوأعلاها

---

(١) رواه أبو داود في« الأدب» من سننه ، والترمذي في « المناقب» من جامعه ، وأحمد في مسنده من حديثِ أبي هريرة صَححه الألباني في صحيح وضعيف سنن الترمذي (رقم : ٣٢٧٠) وفي السلسلة الصحيحة (رقم : ١٠٠٩)

ثُمَّ تآخٍ في النسبِ القريب (الرَّحم)

ثمَّ تآخٍ في الوطن

ثمَّ تآخٍ في الإنسانية وأهو أعمّها .

ولكلِّ درجةٍ من هذه الدَّرجات حقّ لا يسقطه إلا الاعتداءُ على الدرجةِ الأعلى .

لا يَسقط حقٌّ «التآخي» في الإنسانية إلا إذا تحقق اعتداء على أخوة الوطن وما فوقها ، ولا يسْقط حقّ الأخوة في الوطن ، إلا إذا تحقق اعتداء على الأخوة في النّسبِ القريبِ وما فوقها . . . فإذا ما اعتدى مصري على مسلمٍ هنديّ ، سقط حق الأخوة في الوطن ، في مقابل حقّ الأخوة في الإسلام . فالإسلام هو الوطن الأعلى ، والإنسانية هي الوطن الأرحب . ذلك منطق العدل

هذا التراتبُ يضبطُ حركةَ الحياة ، فلا يكونُ اعتداءٌ على مسالمٍ ، وإن بَعُدَ به الدّين أو النسبُ أو الدّار .

على كلِّ مسلم أن يكونَ أحرصَ على أن يأخذ هو على يد أخيه المسلم الظالم نفسِه وقومَه ، وألا يبتهج بتولّي غيره من أعداء الإسلام الأخذَ على يد ذلك الظالم ، ، فذلك لا يليق بمسلم ، ذلك أنَّ غيرنا لا يأخذ على يد الظالمِ فينا من كبارنا من أنّه ظالمُ لنا بلْ لأنه ليس خاضعًا لهم ، وإلا لو كانوا كذلك فلم يستبقون من هو أشدّ ظلمًا لقومه ممن يقتلونه أو يسْلمونه ؟

الحقيقةُ التي يجب أن تبقَى نصب أعيننا وفي سويداء قلوبنا أنّه ما كان أعداء الإسلام والعروبة يومًا دافعين عنّا ظلم ظالمٍ لظلمه لنا ، بلْ لتمرده عليْهم ، ورغبتهم في إحلال من هو المستعذبُ ذلهم له ، المتزلف لهم على نحو ما ترى عينك وتسمع أذنك .

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا۟ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾ هَـٰٓأَنتُمْ أُو۟لَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَـٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ عَضُّوا۟ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۚ قُلْ مُوتُوا۟ بِغَيْظِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١١٩﴾ إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا۟ بِهَا ۖ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾ (آل عمران:١١٨-١٢٠)

* * *

ويقُولُ شيْخنا في شرحه حديث « لايزني الزّانِي حين يَزنِي وهُو مؤمنٌ ... »: « الغضبُ الذي في هذا الحدِيثِ هو غضبٌ يَحمي اللهُ بِهِ النَّاسَ من النّاسِ ، لأنّه كفٌّ وزجرٌ للفاجرِ المجترئ على أعراضِ النَّاسِ . . . .

وهذا الجانبُ من كلامِ اللهِ وكلامِ رسُولِه ﷺ يَجبُ أن يكونَ هناك تركيزٌ على بيانِه ؛ لأنّ الدّين حمايةٌ ورعايةٌ وصلاحٌ للجماعةِ ، وأمنٌ وأمانٌ في الجماعةِ ، وأمنٌ وأمانٌ للفردِ ، وليس تكاليف تعوقُ حركةَ الحياةِ ، وتحدُّ من حريّةِ الإنسانِ ، وتعودُ بِه إلى عُصُور التّخلّفِ والظلماتِ كما يُروّج أعداؤه ، وإنّما كلُّ أمرٍ فِيهِ جلبٌ لِمصلحةِ النّاسِ ، وكلّ نَهي فيه دفعٌ لِمضرةِ عَن النّاسِ »(١)

مجملُ الأمر أنّ العقلَ المُسلم خاصةً والعربيّ عامة لا يفصم بيْن الكلمة وصانِعها أو المُبين بها ، ولا يتشاغلُ عن حال المُبين بها العام وحاله عند الإبانة بها ، كما لا يبالغُ في الاستهتار بالعلم بحال المُتكلم عن الكلمةِ ، فإنَّ العرفان بحال المتكلم بها العام ، وحاله عند الإبانةِ بها إنّما هو مفتاح للفهم وضابطٌ

---

(١) شَرْحُ أحاديثَ منْ صَحيحِ مُسْلِمٍ : ١/٢٧، ٢٨ .

لحركته . فليست الكلمةُ في لسان النّبوّة هِي هِي في لسان غيرِه ، وهذا أصلٌ من أصول منهج التلقّي والفهم[1] .

* * *

الضابط الثَّاني :

انبِثاقُ البيان النبويّ من البيان القرآنيّ انبثاقَ المُبيّن من المبيَّن انبثاقًا قد تتجلَّى معالمه حينًا وقد تخفى ملامحه أحايين كثر .

يهدينا الشيخُ إلى ما بيْن بيان النبوة وبيان الله سُبْحانَه وَتَعالَى من علاقة تظهر حينًا ، وتخفَى حينًا ، وما يكونُ منه حين تتلبس العلاقة بالخفاءِ يقُول : « علاقةِ كلامِ سّيدنا رسول الله ﷺ بـ« الكتاب » الذي أنزلَه الله تعالى على قلبِهِ أراها تظهرُ وتختفِي ، فَإذا خفيتْ ولَحظتُها مِن بعيدٍ تلحُّ عليّ نفسِي أن أشيرَ إليْها ، وتقُولُ لِي : لو احتَمَلَتِ الخطأ مرّاتٍ ، فلعلّها تحتملُ الصوابَ مرّةً أو لَعلّها تنبّه مَن يستْطيعُ أن يجدَ لها منزَعًا فِي « الكتاب » غَيْرَ الذي وجدتَ »[2] .

والشيخ كلفٌ بإبرازِ هذا الانبثاقِ .

وكأنّي به يرمِي إلى أنّ مَن يحومُ حول حِمَى التَّوقفِ فيما يحملُه بيانُ النّبوّة إنّما هُو في الحقيقةِ مُتوقفٌ فيما يَحملُه البيانُ القُرآنيّ .

وتلك الّتي لا يُطيقُ مسلمٌ أن يحدِّثَ بها نفسَه فضلاً عن أن يتحدَّثَ بها مَهما انطلقت به أغربة التّحرّر وحومتْ . وكلّ مَن يلمزُ في بيانِ النّبوة هو لامحالة ينبذ في البيان القرآني سواءً بسواءٍ .

---

(١) الذين يأخذون بما يسمى بـ« موت المتكلم/ المؤلف » إنما ينسلون من القول بـ(موت الإله) بمفهومه العام : موت من له سلطان على الشّيْءِ ، وهذا منطلقٌ إلحاديّ ما يكون للعقلِ المسلم البتة أن يأخذ من ثمار شجرته الخبيثة شيئًا . .

(٢) شرح أحاديث من صَحيح مسلم : ٦٢٣/٢ .

وكلُّ من يتوقف في بيان النبوة بعد أن يبين له بيانا صحيحًا صـريحًا وثاقـة نسبة ما توقفَ فيه إلى سيّدنا رسُول الله صلّى الله عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ وسَلّمَ هو لا محالة متوقفٌ في بيان القـرآن دافـع لـه ، ومـن فعـل فقـد كفـر . كفـرًا يخرجه من الملّة إلا من تاب توبة صادقة صريحةً يجهر بها جهـرَه بـالتوقف ، وآمن بأن ما قاله رسول الله صلّى الله عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ وسَـلّمَ هُـو الحـقُّ الصَّريحُ ثُمَّ عملَ صالحًا .

فمَن يتلقّى البيانَ النبويّ في غفلةٍ أو تغافلٍ عن البيانِ القُرآنيّ هو لا محالـة يهوِى مِن حالقٍ . فكلُّ ما حملَه البيانُ النبَويّ له أصلٌ في البيان القرآني فحـين يدقّ هذا الأصلُ يبصرُه أصحابُ الفراسة البيانيّة . ولكل ميدانٍ فرسانُه .

وهذه الحقيقة جهَرت بها الحكمةُ في الكتـاب الأسـاس «رسـالة» الشـافعي إلى عبد الرحمن بن المهديّ الّتي نَسق فيها أصولَ الفهمِ عن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وعن رسُوله صلّى الله عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ وسَلّمَ وأصول إنزالِ بيان الـوحي على الواقعِ وضبطه به ، وإخراجه من حَرج حركة الحياةِ المُتجدّدة[١] .

---

(١) ينظر الرّسالة . تأليف الشافعيّ تحقيق : أحمد شاكر : مكتبه الحلبي ، مصر . ط(١) عام : ١٣٥٨هـ ـ : ص ٨٩-٩٣ ، فقرة ٢٩٣-٢٩٤ ، ٢٩٨-٣٠٥ ، ص ١٠٣-١٠٥ فقرة : ٣٠٧-٣٠٨ ، و ص ١٣٩ فقرة : ٣٩٧ ، و ص ١٤٦ فقرة : ٤١٩ ، ص ١٩٨ فقرة : ٥٣٧-٥٣٩ ، ص : ٢١٢-٢١٣ فقرة٥٧٠-٥٧١ ، ص٢٢٢-٢٢٤ فقرة ٦١٣

والموافقات في أصول الشريعة تأليف أبي إسحاق الشاطبي . تعليق وشرح عبد الله دراز ، خرج أحاديثه أحمد السيد سيد أحمد على . ط : الهيئة المصرية العامة للكتاب . سلسلة مكتبة الأسرة ، تراث . نشر سنة ٢٠٠٦م ، ٤/١٠ ، ٤٦ . ٤٨

وحجية السنة للعلامة عبد الغني عبد الخالق . ط(١) عام ١٤٠٧هـ ألمانيـا الغربيـة ـ شتوتغارت . المعهد العالمي للفكر الإسلامي . واشـنطن . أمريكـا . نشـر دار القـرآن الكريم . بيروت . ص ٤٨٥ وما بعدها .

والسنة بيانًا للقرآن للعلامة الأستاذ الدكتور إبـراهيم عبـد الله الخـولي الأسـتاذ قـي جامعـة الأزهر . .

وهذا ما تراه قائمًا في صنيع الشيخ . يقُول :

« كلُّ بيانِهِ ﷺ بيانٌ للكتابِ ، وراجعٌ إليْهِ ، وأنّـه ﷺ حين يَقُول : « لايَزنـي الزَّانِي حين يزنِي ، وهو مؤمنٌ » يقُولُ هذا ، وبيْن عينيْـهِ كـلّ الآيـاتِ المتعلّقـة بهذا الشّـأن ، وكلامُـه عليْـهِ السـلامُ والحـالُ كـذلك يعنِـي أنّ بيانَـه بيـانٌ لِكـلّ المتفرِّقاتِ القُرآنيّةِ ، وكلُّ الآياتِ القُرآنيةِ الّتي ذكر فيها هذا الموضُـوع ، وهـذا يجعلنا أمامَ بيانٍ له خُصُوصية خاصّة ؛ لأنّـه ليس تفسيرًا حرفيًّـا لآيـةٍ ، ولـيس تفسِيرًا بعيدًا ، ولا تفسيرًا مباشِرًا أو غيرَ مباشرٍ لآيةٍ ، وإنما هـو صَـفوِ الصّـفوِ وخُلاصة الخُلاصَةِ لِكثيرٍ مـن الآيـاتِ ، وغالبًـا مـا تكـونُ هـذه الآيـاتِ ليسـتْ إحداها نصًّا للّذي نصّ عليْهِ البيانُ النّبوي »[1]

وقد قال من قبلُ في شرحه أحاديث من صَحيح البخاري : « وارتباط كـلام رسول الله ﷺ بالمعاني الخفية فِي الآياتِ القرآنيةِ هو وحـده وجـه مـن وجـوه إعجاز هذا الدين ، لأنَّ تفسِيرَ النبيّ صلّى الله عَلَيْـهِ وعَلَـى آلِـهِ وَصَحبِهِ وسَـلّمَ وبيانه للقرآن بوحي »[2]

قوله أعزّه الله تعالى : « يقُولُ هذا ، وبين عينيْهِ كـلّ الآيـاتِ المتعلّقـة بهـذا الشـأن » يُمكـن أن يفهـم منـه العَجـلانُ أنَّ الشَّـيخَ يـذهبُ إلى أنّ بيـان النُّبـوَّة استخلصَه النَّبيّ ﷺ بنفسِه من القرآن . فيتسارعُ إلى فهم أنَّ الشَّيخ لا يقُول بـأنّ بيان النُّبوَّةِ وحيٌ ، أوحى الله تعالى إلى رسُوله ﷺ ما يحمله بيانه . فهـو نبـويّ من حيثُ ما يحملُه من معاني الهدى ، وينسب إلى النّبيّ ﷺ مِنْ جهةِ تصويره معاني الهدى التي أوحيت إليْه بطريقٍ غير الّذي وحى إليْه بِها القرآن ، فمعانيـه

(١) شَرْحُ أحاديثَ منْ صَحِيحِ مسلم : ١/١٤

(٢) شَرْحُ أحاديثَ منْ صَحِيحِ البخاري : دراسة في سمت الكلام الأوّل . لشيخنا . ط (٢) عام : ١٤٣١هـ . نشر مكتبة وهبة . القاهرة : ص ٧٧

وإن كانت حقًّا موحَى به إلا أنّ بيانَه عنها لا يَصلُح أن يُصلَّى به ، وليس له من المثوبة عند قراءته كمثل التي لقراءة القُرآن . . .

الشيخُ يرمِي بمقاله هنا إلى أنّ الذي في بيان النبيّ ﷺ في موضوعٍ ما ، هو حاضرٌ على وجهٍ آخر في البيان القرآنيّ ، فأنت تتلقى هذا المعنَى من معاني الهُدَى على نحوَين لكلّ عملُه فيك ، فهو معنى حقّ والبيانان القرآنيّ والنَّبويّ عنه متطابقان من حيثُ إنّهما وحيٌ . فلا يتعارضُ بيانٌ صَحيحُ النّسبةِ إلى مقامِ سيّدنا محمد ﷺ مع القرآن . وأنَّ عليك أن تقرأَ كلاًّ على نحوٍ يتواءَمُ معَ مقامِ قائلِه . فجلالُ الألهيّة وجمالُ الرّبوبيّة هو الطَّابع القائمُ في بيان القرآن ، و« الصّدق والأمانة » و« الرَّأفة والرَّحمة » هما الطابعُ القائمُ في بيان النّبوّة .

والشيخُ هنا يهديك إلى أنّ النبيّ ﷺ ، وهو يصرّفُ البيان عن المعنى الّذي أوحي إليْه والّذي هُو متآخ مَع ما في القرآن الكريم إنما يأخذُ بيانُه بيدك إلى المعنى القرآني .

هو يحملُك إلى القرآن ، لتقف على البابِ فَيُترعُ قلبك بِجلالِ الألوهية وجمالِ الرُّبوبية . هو مفتاح باب الدخولِ على ربّك سُبْحانَه وَبِحمدِه . هذا ما أفهمُه من قوله أعزّه الله : « وإنّما هو صَفو الصّفوِ وخُلاصة الخُلاصَةِ لِكثيرٍمن الآياتِ ، وغالبًا ما تكونُ هذه الآياتِ ليستْ إحداها نصًّا للّذي نصّ عليْهِ البيانُ النّبوي » وهو في كتابٍ سبق يهدِي إلَى أنّ بيانَ النّبوَّةِ ، وهُو وَحيٌ يُوحَى لَم يكنْ ذلك بمانِع أن يكونَ هذا البيانُ النَّبويُّ ذا وَسْمٍ يُعرفُ به وخُصوصيَّةٌ تدلُّ عليْهِ « لا مِنْ جهةِ طَابَعِ النّبوّةِ الّذي هو ظاهرٌ جدًّا في كلامِه صلّى الله عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ وسَلّمَ ، وإنّما مِن جهة ما يتميّزُ بِه الكلامُ وما يكونُ له بِه سَمتٌ وطريقٌ ومذهبٌ ؛ لأنّ الوَحْي مَعنًى يُلقَى فِي رَوعِهِ صلّى الله عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ وسَلّمَ كما تلقَى المعاني في الصّدورِ ، ثُمّ يُحدِّثُ

عَنه صلّى الله عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ وسَلّمَ ببيانِهِ وطريقِهِ ومذهبِه ، كما يحدّث كلّ مَنْ وَجد معنًى في نفسِهِ بحديثِهِ الذي فيه طابعَه ومذهبه

فمسألة الوحي لاتمنع في البحث عن المذهب والطريق»[1]

قوله : «، كما يحدّث كلّ مَنْ وَجد معنًى في نفسِهِ بحديثِهِ الذي فيه طابعَه ومذهبه» المشابهة في أصل الأمر ، وليس في مستواه . ففرق بيْن أفق الإبانة عمَّا في صدره صلّى الله عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ وسَلّمَ وأفق إبانة أعظم البلغاء في هذه الأرضِ عما في صَدرِهِ ، فقلب يعمرُه الوحي ليس كمثلِهِ قلبٌ يسكنه مفترًى من ذات صَاحبه ، ومقتصدٌ منه بشرًا مهما بلغ علمه وذكاءُ قلبه ، فمثله إنّما حِليتُه النقصُ والخطأُ والخطلُ ، مهما اجتهدَ في تصفْيته وحِياطته .

وهذا من الشيخِ إعْرابٌ عَنْ أن ما يلقَى في صدر رسُول الله صلّى الله عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ وسَلّمَ من الوحي إنما هو أصلُ المعنى ، ومادته ، وحقيقته ، أمَّا نظمُ المعنَى وترتيبُه وتأليفُه وتآخيه ، فذلك صَنعة رسُول الله صلّى الله عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ وسَلّمَ الَّتي مجلاها ما نسمَعُ من بيانِه ونقرأُ .

جوهرُ المعنى وحقيقتُه وحيٌ إلهيّ ، وصَنعتُه وتأليفُه ، وتصويرُه مِن النبيّ صلّى الله عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ وسَلّمَ

وكأنّـي بالشَّيخ أراد أن يدفَع الوهمَ عَنْ أن يذهبَ إلى أنّـه إذا ما كان كلامُه صَلَواتُ اللهِ وسَلامُه عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ وحيًا ، فليس له منْه شيْء ؛ لأنّـه لم يكن إلا حاملا ، وناقلاً ، فله شرف الصدق وأمانة الحملِ والنَّقل ، وليس له شرفُ صِناعة البيان[2] .

---

(١) شَرْحُ أحاديثَ منْ صَحِيحِ البخاري (م . س). ص : ٥٠، ٥١

(٢) ذهب أفلاطون إلى أنّ الشعراء كالأنبياء ليس لهم في ما جاءوا به ما يُنسبُ إليهم ، ولذا حاجزهم عن دخول المدينة الفاضلة ، فقد كان يذهبُ إلى أن ما يقوم في عقل الشاعر إلهامٌ من الآلهة وما يقوم في قلبِ النبيّ وحي منها ، وكلّ من النبيّ ==

كأنّي بالشَّيْخ يذهبُ إلى أن يُحاجز بين هذا الوهمِ وبيْن قلوبنا ، فَدلّنا على أنّ للرسُولِ صلّى الله عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ وسَلّمَ عملا في بيانِه ، هو النّظم والتَّأليف والصِّياغة والتَّصويرِ ، وأنّ الذي أوحي إليْهِ هو مادَّة المعنى وحقيقته وجوهره ، الَّذي هوأشبه بالمادَّة في يد الصّناعِ ، فكما أنَّ الصائِغ ليس له يدٌ في الذّهب الّذي يصنع منه بعبقريته ما يُدهشُ صَنعةً لا مادَّة ، كذلك رسُول الله صلّى الله عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ وسَلّمَ لَه من بيانه نظمُه وترتيبه وتأليفُه وتركيبه وصِياغته وتصويرُه ونسجُه وتحبيرُه .

يذهبُ بعضُ أهلِ العلمِ إلى الاستدلالِ على أن الحديث النبويّ وحيُ بقول اللهِ سُبْحانَه وَبِحمدِهِ : (بسْمِ اللهِ الرّحمنِ الرّحيم ﴿ **وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝٢ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ** ﴾ (النجم:١-٥) بناءً على أنَّ الضمير في قوله تعالى ﴿ **إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ** ﴾ (النجم:٤) للحديث النبوي ، وأن جبريل كان ينزلُ بالسنة كما ينزل بالقرآن . فعن حَسَّانَ بْنِ عَطِيَّةَ ، قَالَ : « كَانَ جِبْرِيلُ يَنْزِلُ بِالسُّنَّةِ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ كَمَا يَنْزِلُ عَلَيْهِ بِالْقُرْآنِ »[١].

==والشاعر ليس له من الأمر شيْءٌ ، فلا فضيلة لأيٍّ منهم على غيره إلا أنـّه اختير من الألهة لما هو له . (ينظر : النقد الأدبي الحديث تأليف محمد غنيمي هلال . نشر : دار نهضة مصر بالقاهرة ١٩٧٩م . ص٢٨، ٢٩)

وهذا من أفلاطون نظر فطير . لأنـّه لم يحدد مناط الإلهام للشعراء ، ومناط الوحي للأنبياء ، ولم يحدّد مناط الصنعة في الإبانة والإيصال والإفهام عند كل .

ولو أنَّ الذي ذهب إليْه أفلاطون في شأن الشعراء له نسبٌ ما من الصّحة ، أوحامَ حولَ حِماها لما كان لشاعرٍ قطُّ أن يأتي بخطإٍ أو ماهو خداعٌ . أوَ يكون من الألهة إلهامٌ بخطإٍ ؟!!!

(١) أما القَـرآن فليس لرسـولِ الله صَلَواتُ اللهِ وسَلامُه عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ منه شيْءٌ البتّة ، المعنى وصورته وأداؤه بل إن من أهلِ العلم من يذهب إلى أنّ رسمه ==

ضَمِنَ الوَحي لبيانه صَلَواتُ اللهِ وسَلامُه عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ ألاَّ يكون معناه مفترًى : (مُقتطَع ومُقتصَد) من ذات نفسِه البشرية صلّى الله عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ وسَلَّمَ ، وإن كانتْ هِيَ النَّفسَ الصَّفاءَ والنقاءَ والطُّهر الأكملَ ، وإن كانتْ أشرفَ نفسٍ خلقها الله سُبْحانَه وَبِحمدِهِ وأنقاها ، ضمِن له الوحيُ أن يكونَ المعنَى في بيانِهِ هُو المعنَى الحقُّ الصّرفُ والخيرُ الكمال . الذي لا يتأتّى أن يأتِيه الباطلُ قطُّ ؛ لأنه وحيٌ من العليّ الحكيم[1].

يقُول ابن القيم : « ثم قال : ﴿ **إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ** ﴾ (النجم:٤) فأعاد الضمير على المصدر المفهوم من الفعل أي ما نطقه إلا وحي يوحى وهذا أحسن من قول من جعل الضمير عائداً إلى القرآن ، فإنّه يعمّ نطقه بالقرآن والسنة وإن كليهما وحي يوحى »[2].

وإذا كان هذا شأن المعنى ، فإنه يقتضِي أن يكونَ نظمُه وتأليفُه وصِياغتُه وتصويرُه وتحبيرُه من هذا الباب شرفًا وكمالاً . فكلُّ معنًى يقتضِي صورتَه

==أيضًا توقيف ، وأنَّه أداة من أدواتِ الإبانة والإفهام . ومن ثَمَّ كانت القراءة نظرًا في المُصحف أفضل من القراءة غيبًا ، وكان النّظرإلى المُصحف عبادة ، وكانت الصُّحف التي يُرقَن فيها القرآن مقدّسة ، لا تمسّ إلا على طهارة . أكسبَ الرَّسمُ القُرآنيُّ الصحيفةَ الَّتي رُقنت فيها قدسيَّة مِن قدسيتِه ، فلَوْ لَمْ يكنْ ذلك الرَّسمُ ذا قدسيّة ، فكيْف تكونُ لما رُقن فيه . فكيف بقلبٍ رُقن فيه كتاب الله تعالى؟!!!

(١) الإبانة الكبرى . تأليف ابن بطة : عبيد الله بن محمد بن محمد بن حمدان العُكْبَري (ت:٣٨٧ هـ) تحقيق : رضا معطي ، وآخرين ، نشر : دار الراية للنشر والتوزيع ، الرياض ، ٣٤٦/١

(٢) التبيان في أقسام القرآن . تأليف : ابن قيم الجوزية : محمد بن أبي بكر بن أيوب ابن سعد (ت : ٧٥١ هـ) تحقيق : محمد حامد الفقي . نشر : دار المعرفة ، بيروت ، ص : ٢٤٥، ٢٤٧، وللتوسع ينظر : كتاب « الأم » تأليف الإمام الشافعي : أبي عبد الله محمد بن إدريس بن العباس (ت : ٢٠٤ هـ) نشر : دار المعرفة ـ بيروت ، عام : ١٤١٠هـ . ١٣٦/٥، ١٣٧

ومنهاجَ الإبانةِ عنه ، وهذا يتحقق إذا ما كان حاملُ المعنى عمودَ شخصيته هُـو الصّدقُ والأمانةُ في قولِه وفعلِه وحاله ، وكذلك كان صلّى الله عَلَيْهِ وعَلَـى آلِـهِ وَصَحبِهِ وسَلّمَ .

* * *

ممَّا حرصَ على بيان علاقته ببيان القرآن من بيان النبوة علاقة كلمة « وإنّي أنا النَّذيرُ العُريان» بآية فِي سورة « فاطر » يذهب إلى أن كلمة « نذير » هنا « تستْدعِي فِي نفسِي كلمة « النذير » في سورة « فاطر » وخُصُوصا أن « النذير » هنا نذيرٌ بالهلاك والاستئصال ، و« النذير » فِي « فاطر » جاءتْ وَهُمْ يصطرخون فِي النارِ ، وهُم المذكورون فِي الحديث .

قال سُبْحانه : ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ ﴿٣٦﴾ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ۖ فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴾ (فاطر:٣٦،٣٧)

قوله عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ : « وإنّـي أنـا النَّـذيرُ العريـان» هـو النـذيرُ الـذي جاءهمْ ، وقد عمّرهم اللهُ تعالَى بعد أن جـاءَهم النّـذيرُ عمـرًا يتـذكّرُ فِيـه مـن يتذكرُ ، فكذبوا ، وهذه الطائفة الـتي كـذَّبتْ في الحـديثِ الشـريفِ هُـم الّـذين يصْطرخون فيها ، وهذا ظاهرٌ عندِي »[1]

لعل الذي ساق آية سورة فاطر إلى نفسِ الشيخِ عند تدبـره قـول النّبي ﷺ ما في آية سورة (فاطر) من الاصطراخ ذلك الاصطراخُ الذي كان من النبيّ ﷺ ، وهو ينذرُهم في باكر الدّعوة على جبـل أبـي قبيس ، فكان من عمه ما كـان . ﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾ (المسد:١).

---

(١) شَرْحُ أحاديثَ منْ صَحِيحِ مسلم : ٦٢٣/٢، ٦٢٤ .

وهو في شرحِه قول سيّدنا رسولِ الله صَلَواتُ اللهِ وسَلامُه عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ : « وإذا عاهد غدر » يقُول : « وَمصدرُ هذه الجملةِ فِي الكتابِ مثل قولِه تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِأَمَـٰنَـٰتِهِمۡ وَعَهۡدِهِمۡ رَٰعُونَ ﴾ (المؤمنون:٨)

﴿ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ إِذَا عَـٰهَدتُّمۡ وَلَا تَنقُضُواْ ٱلۡأَيۡمَـٰنَ بَعۡدَ تَوۡكِيدِهَا وَقَدۡ جَعَلۡتُمُ ٱللَّهَ عَلَيۡكُمۡ كَفِيلاً ﴾ (النحل:٩١) وراجعْ ﴿ وَقَدۡ جَعَلۡتُمُ ٱللَّهَ عَلَيۡكُمۡ كَفِيلاً ﴾ (النحل:٩١) وكذلك راجعْ أنّ العهد يمينٌ ، ولو قلت عهد الله كأنك قلتَ يَمين الله ، ومن مصادرها قَولُهُ تَعَالَى : ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِأَمَـٰنَـٰتِهِمۡ وَعَهۡدِهِمۡ رَٰعُونَ ﴾ (المؤمنون:٨)

وقد جاء هذا مقترنًا بِواجبِ الصّلاةِ ، فأشعرَ أنّ أداءَ ذلِك يذكرُ مَعَ أداءِ الصّلاة »[١].

قوله : « وَمصدرُ هذه الجملةِ فِي الكتابِ . . . . » لا أفهمُ منه أنّ الشيخ يريد أن النبيّ ﷺ تدبّر القرآن ، فقام معنى (إذا عاهدَ غدر) كما يقوم المعنى في صدر أحدنا حين يتدبر آية ، فيكونُ رافدُ المعنى إلى قلبه هو الآية ، وأداة حضورها فيه التدبّر .

القولُ بهذا قد يفهم منه أن ما يقوله رسُول الله ﷺ هو فهمُه هو في سياقه الزَّماني والمكانيّ والحضاري ، وأنّه إذا تغيّر الزّمان والمكان والحضارة كان لنا أن نفهم ما يقوم مقام فهمه ، فتكون لنا سُنة كما كانت له سُنّة .

وهـذا ما ينغِق بِه « اللبراليّون » . يزعمُون أنَّ السّنة النّبويّة إنّما هِي فهمُ النبيّ ﷺ للقرآن ، في سياقِه الزَّمانيّ والمكانيّ ، فهُي لذلك غيرُ ملزمةٍ لِمَن كان في غيْرِ سياقِهِ الزّمانيّ والمكانيّ

---

(١) شَرْحُ أحاديثَ منْ صَحِيحِ مسلم : ٥٨/١ .

كـذلك يحتَـالون في نعومـة الأفعَـى إلى إبطـال السّـنة إيقَاعًـا للأغـرار مـن المسْلِمين[1].

الشيخ لا يمكنُ أن يكون هذا مأمّه ومقصدَه .

هُو يريدُ فيما أفهمُ أن يقُولَ لك إنّ ما قالَه سيّدنا رسُول اللهِ ﷺ له حضـورٌ في بيان القرآن حضور المَصدر ، ليلفتك أنـّهما متآخيان فـي تقريـرِ المعنـى . لأنهما من مشكاةٍ واحدةٍ هي الوَحْيُ وأنّ ما قاله صَلَواتُ اللهِ وسَلامُه عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ هو تبيين لمـا جـاء في القـرآن وِفـق منهجيّـة في التبـيين خـاصـة برسُول الله ﷺ لن يتأتّى لأحد من النّاس أجمعـين أن يـأتي في تبـيين القـرآن مثل ما جاء بِهِ صَلَواتُ اللهِ وسَلامُه عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ .

---

(١) من أصول أبي حنيفة رَضِيَ اللهُ عَنه (ت : ١٥٠هـ): قوله « آخذ بكتـاب الله ، فمـا لم أجد فبسنة رَسُول الله ، فإن لم أجد في كتـاب الله ولا سـنة رَسُـول الله ، أخـذت بقـول أصحابه ، آخذ بقول من شئت منهم ، وأدع من شئت منهم ، ولا أخرج من قولهم إلى قول غيرهم ، فَأَمَّا إِذَا انتهى الأمر ، أَوْ جـاء إلى إِبْـرَاهِيم ، وَالشَّـعْبِيّ ، وابـن سـيرين ، وَالحَسَن ، وعطاء ، وَسَعِيد بن المسيب ، وعـدد رجـالا ، فقـوم اجتهـدوا فأجتهـد كمـا اجتهدوا »

كتاب : الانتقاء في فضائل الثلاثة الأئمة الفقهاء مالك والشافعي وأبي حنيفة رضـي الله عنهم . تأليف : أبو عمر ابن عبد البر النمري القرطبي (ت: ٤٦٣هـ) نشر : دار الكتـب العلمية ـ بيروت . ص ١٤٢

وتاريخ بغداد . تأليف : الخطيب البغدادي (ت : ٤٦٣هـ) تحقيق : بشار عواد معـروف نشر : دار الغرب الإسلامي ـ بيروت . ط (١) عام : ١٤٢٢هـ . ١٥/٤٠٥)

وتهذيب الكمال في أسماء الرجـال ، تـأليف : أبـي محمـد القضـاعي (ت : ٧٤٢هــ) تحقيـق : بشـار عـواد معـروف . نشـر : مؤسسـة الرسـالة ـ بـيروت . ط (١) عـام : ١٤٠٠هـ . ٢٩/٤٤٣ .

الفرق بين التبين النبوي والتفسير

ليس تبيينُه صلّى الله عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ وسَلّمَ القرآن هو تفسيره . فالتّفسير أدنى من التبيين النبويّ فعلاً وأثرًا وأضيقُ مجالاً وأقرب سفرًا :

التبيين النبويّ إبصارٌ لجوهرِ الأشياءِ وحقائقِها .

التبيين النَّبويّ يُقيمُك في الشَّيْءِ ليقيمَه فيك .

والتَّفسيرُ عند غيرِه يكشفُ لك الغطاءَ ، وأنت على قدرِ بصرِك أو بصيرتِك .

لم يكن سيّدنا النبيّ صلّى الله عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ وسَلّمَ مفسرًا للقرآن . على نحو ما يفعل أهلُ العلم . كلاَّ كان مبيّنا . وقد بيّنت لك الفرقُ ، فالزم .

وهذا وجهٌ من وجوه معنى المِثلية في ما رواه أبو داود في كتاب (السَّنة) من سننه بسندِه عَنِ الْمِقْدَامِ بْنِ مَعْدِ يكَربَ رضي الله عنه عَنْ رَسُول اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ : « أَلاَ إِنِّى أُوتِيتُ الْكِتَابَ وَمِثْلَهُ مَعَهُ أَلاَ يُوشِكُ رَجُلٌ شَبْعَانُ عَلَى أَرِيكَتِهِ يَقُولُ : عَلَيْكُمْ بِهَذَا الْقُرْآنِ فَمَا وَجَدْتُمْ فِيهِ مِنْ حَلاَلٍ فَأَحِلُّوهُ وَمَا وَجَدْتُمْ فِيهِ مِنْ حَرَامٍ فَحَرِّمُوهُ .

أَلاَ لاَ يَحِلُّ لَكُمْ لَحْمُ الْحِمَارِ الأَهْلِىِّ وَلاَ كُلُّ ذِى نَابٍ مِنَ السَّبُعِ وَلاَ لُقَطَةُ مُعَاهِدٍ إِلاَّ أَنْ يَسْتَغْنِىَ عَنْهَا صَاحِبُهَا .

وَمَنْ نَزَلَ بِقَوْمٍ فَعَلَيْهِمْ أَنْ يَقْرُوهُ فَإِنْ لَمْ يَقْرُوهُ فَلَهُ أَنْ يُعْقِبَهُمْ بِمِثْلِ قِرَاهُ »[1] .

---

(١) يقول أبو سليمان حمد الخطابي : « قوله أوتيت الكتاب ومثله معه يحتمل وجهين من التأويل : أحدهما أن يكون معناه أنه أوتي من الوحي الباطن غير المتلو مثل ما أعطي من الظاهر المتلو ، ويحتمل أن يكون معناه أنه أوتي الكتاب وحياً يتلى ، وأوتي من البيان أي أذن له أن يبين ما في الكتاب ويعم ويخص وأن يزيد عليه فيشرع ما ليس له في الكتاب ذكر فيكون ذلك في وجوب الحكم ولزوم العمل به كالظاهر المتلو من القرآن » . ==

ليسَت مثلية في منهاجية إبانةٍ وتصويرِ معان وإفهام متلقين ، فيكون النبيّ صَلَواتُ اللهِ وسَلامُه عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ قد أتى بمثل سورةٍ من القرآن ، فيبطل التحدّي المطلق . كلاَّ ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَـٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَـٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ ۚ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآىِٕ نَفْسِىٓ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ (يونس:١٥)

هي عندي مثلية غاية ، ومثلية تشريعٍ ومثلية فعل فينا . وهي عندِي أيضًا مثلية إعجازٍ من غيرِ تحدٍّ بها . .

فهذه المثلية لَيْستْ مطلقة حتّى لا يهرف غِرّ بأنّ البيان النبويّ بهذا الوجه يُبطل أن يكون القرآن معجزًا .

ولو أنّه أحسن التلبث والفهم لقَول النَّبيِّ صلّى الله عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ وسَلّمَ : « أَلاَ إِنِّى أُوتِيتُ الْكِتَابَ وَمِثْلَهُ مَعَهُ » وفقه معنى (أوتيت) لأدرك أنه ليس له من الأمر شيءٍ : أوتي شيئين معجزين :

== معالم السنن ، : شرح سنن أبي داود ، تأليف : أبي سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم الخطابي(ت : ٣٨٨هـ) . نشر : المطبعة العلمية . حلب . ط(١) عام : ١٣٥١ هـ: ٢٩٨/٤

ويقُول الطيبي : « وقيل : « ومثله معه » أي أحكاماً ومواعظ وأمثالاً تماثل القرآن في كونها وحياً ، أو كونها واجبة القبول ، وتنزه نطق رسوله عن الهوى ، وأمر بمتابعته فيما يأمر وينهي ، فقال عز من قائل : ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴾ (النجم:٣) وقال الله تعالى : ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْ ﴾ (الحشر:٧) أو يماثله في المقدار ، ويدل على هذا قوله ﷺ في حديث العرباض التالي لهذا الحديث : (إنها لمثل القرآن أو أكثر) » .

شرح مشكاة المصابيح المسمى بـ« كشف عن حقائق السنن » تأليف شرف الدين الحسين بن عبد الله الطيبي (ت : ٧٤٣هـ) تحقيق : عبد الحميد هنداوي . نشر : مكتبة نزار مصطفى الباز ، مكة المكرمة ـ الرياض . ٦٢٩/٢ .

الأوّلُ : تحدي به وهو القرآن وجعله آيته على أنّه النبيّ المرسل من عند اللهِ سُبْحانَه وَبِحمدِه

والآخر : وهو حديثُه الشرِيف معجزٌ في نفسِه غير متحدٍّ بِه . ولكن لو أراد أحدٌ أن يأتي بمثل هذا الآخر غير المتحدَّى به لعجز عجزًا يفضَحه علَى رؤوس الأشهاد . .

* * *

الضابط الثالث :

« مراقبة السّياق القريبِ والبعيد للمقروء من بيانِ النّبوة .

تأصيل منهج الشيخ في مراقبة السياق :

نبت الشيخُ في رياضِ الأزهر الشّريف ، وكان أبناءُ الأزهر يُعلَّمون في باكر ما يتلقون أنّ حقيقة البلاغةِ من ثلاثةٍ أصُول كلية كلُّ واحدٍ منها يُقيم في قلبِ طالبِ العلم أنّ علمَ البلاغة العربيّ علمٌ سياقيٌّ بضربيه : سياق المقال وسياق المقام ، وليس علمًا معياريًّا مجرّدًا مِن ملاحظة السِّياق فِي جميع أمرِه :

الأول : البلاغةُ مطابقةُ الكلام الفصيح مقتضَى الحالِ .

والثّاني : لكلّ مقامٍ مقالٌ

والثالث : لكّلّ كلمة مع صَاحبتها مقام .

هذه الثلاثة مَن لا يُبصرُ حضورَ الاعتدادِ بالسّياق المقاليّ والمقَامي في البلاغة ، فهُو جديرٌ بأن يُطرد مِن أن يَحومَ حول حمِى هذا العلم .

فهذه الثلاثةُ مؤذِّنةٌ في النَّاس جميعًا أنَّ البلاغة إفهامًا وفهمًا رَبيبة سياقٍ مقاليّ ومَقاميّ .

لا يُمكن لناشئٍ في طلب هذا العلم أن يغفُلَ عن قولهم :« مطابقة » وقولهم : « مقتضى الحال » على اتّساع كلمة (الحال) المحيطة بِكلّ أركان الاتّصال الّلساني وسياقته :

حال المعنى وصانعِه وقصدِه من صِناعته وتصويرِه وإيصالِه .

وحال متلقِيه ومقصديةِ التلقّي .

وحالِ زمان صِناعته وصياغته وإيصاله وتلقيه ومكان ذلك .

ولا يُمكن لناشئٍ في طلبِ هذا العلم أن يَغفُل عن الاستحقاق الّلزوميّ الذي لا ينفكُّ القائم بيْن حال المقام والمقال .

وأن يَغفُلَ عَن وجوبِ البصرِ بهذا الحقِّ .

وأن يَغفُلَ عَن وجوبِ البصرِ بمنهجِ الوفاءِ بِهِ .

وأن يَغفُلَ عَن وجوبِ امتلاكِ أدواتِ التَّوفيةِ لِهذا الحَقِّ .

وأن يَغفُلَ عَن وجوبِ امتلاكِ مهارتِةِ إتقانِ هذه التوفية . . . .

كلّ هذا تجمعُه هذه (الّلام) في قولِهم (لكلّ) وفي هذا العمومِ الّذي يستعصِي على الحدِّ والتّخصِيصِ في (كلّ) .

كلُّ هذا مؤذِّنٌ بأنّه ما مِن مقامٍ يكونُ في هذه الحياةِ إلاّ وله مقالٌ يُتآخَى معه ويتناغَى ، وَيطمئنُّ إليْهِ وبِه ، ويأنسُ إليْهِ وبِه .

ولا يُمكن لناشئٍ في طلبِ هذا العلمِ أن يغفُلَ عن قولهم : «صَاحبتها» وما تحملُه من حقوقِ الصُّحبة من بذل مَا في الوُسعِ للصّاحب ، وما بينهما من تراحبٍ وترابح ، فَهذه الجمعية بيْن معاني الكلم جمعيةٌ محققةٌ للبيان حسن دلالتِه وتمامها وإحكامها (تبرجها) . وهي كلمةٌ تكادُ تستجمع كلَّ ما في «نظريّة النَّظم الجُرجانية» ، وما في «علم التناسب» من دقائق ولطائف ، فهي عَلَمٌ على إيجازِ القِصر الفياضِ بدقائقِ المعاني ولطائفِها .

ولا يُمكن لناشئٍ في طلب هذا العلم أن يغفُلَ عن قولهم : «لكلّ» على نحو ما أشرتُ إليْه قبلُ من دلالة : (اللام) و(كلّ) .

ولا يُمكن لناشئٍ في طلب هذا العلم أن يغفُلَ عن قولهم : « (مقام) بكلِّ ما تحمله هذه الكلمة من (اتساع) لا يضيق أفقه : مقام مكانةٍ وظيفيّةٍ ، ومقام موضع في نسيجِ المعنى على امتداداته المتراحبة ، وفي نسيج صُورته .

كلّ هذا هادٍ إلى حضور الوعي بفريضة ملاحظةِ السّياقِ بوجهيه المتمازجين : المقالي والمقامي حُضُوراً يحمِي القائم فيه والقائم به من أن يتخذَ موقفًا فهميّا أو إفهامًا دون أن يكون لهذا الحضور سلطانٌ فاعلٌ سابغٌ .

العبارةُ عن هذه الثلاثة الأصول هي نموذج أمثل لإيجاز القصر من جهة ، ونموذج أمجدُ وأكملُ لما استنبطَه علماء البلاغة بمنهج البحثِ العلمي الاستقرائيّ .

هذه ثلاثة أصولُ تُغرسُ في عقل النَّاشئ في طلبِ العلم ببلاغةِ العربية ، وتجري في لسانِه بما تقرّره مِن فريضة مُراعاة السّياق المقاليّ والمقاميّ فهمًا وإفهامًا

ومَن تبصَّر في مقالة « السّكاكيّ » (ت : ٦٢٦هـ) وتلاميذ مدرسته في باب كـ« باب حذف المُسْنَد إليه » وهو يذكر « مقتضِيات الحذف » مَثَلاً يُدرك أنَّهم قد أَسَّسوا مقالهم هذا على عظيم الاعتداد بالسّياق المقاميّ والمقاليّ .

يقُول السكاكي : « أمَّا الحالةُ الّتي تقتضِي طيَّ ذكرِ المُسندِ إليه فهِي إذا كان السَّامعُ مُستحضراً له عارفًا مِنك القصدَ إليه عندَ ذِكرِ المُسند .

والتَّركُ راجعٌ ، إمَّا لضِيقِ المَقامِ .

وإمّا للاحترازِ عَن العبثِ بناءً على الظّاهر .

وإمَّا لتخييلِ أنَّ في تركِه تعويلاً على شهادةِ العقلِ وفي ذكرِه تعويلاً على شهادةِ اللّفظ من حيثُ الظاهرُ وكم بيْن الشّهادتين ؟

وإمَّا لإيهام أنَّ في تركَه تطهيراً للسان عنه أو تطهيراً له عن لسانك .

وإما للقصد على عدم التَّصريح ليكونَ لك سبيلٌ إلى الإنكار إنْ مسَّت إليه حاجة .

وإمَّا لأنَّ الخبرَ لا يصلحُ إلاّ له حقيقةً كقولك : « خالقٌ لما يشاءُ ، فاعلٌ لما يريدُ ، أو ادعاءً .

وإمَّا لأنَّ الاستعمالَ واردٌ على تركه ، أو ترك نظائرِه كقولهم : «نِعمَ الرّجلُ زيدٌ» على قول من يرى أصل الكلام نعمَ الرجل هو زيد .

وإمّا لأغراض سوى ما ذكر مناسبة في باب الاعتبارِ بحسبِ المقاماتِ لا يَهتدي على أمثالها إلا العقل السليم والطبع المستقيم وقلَّما ملك الحكم هناك شيء غيرهما فراجعهما . . . » [1]

فمن قرأ هذه المقالة وما شاكلها ولم يبصر ما فيها من عظيم الاعتناء بمقتضياتِ السياق فهو جديرٌ بأن لا يُخاطب[2]

ذلك ما كان ينشّؤ عليه صغار طلابِ العلم ببلاغةِ العرب في الأزهر . وهوحاضرٌ فيهم لا يغيبُ ولا يغيمُ تصوراً وفهمًا وإفهامًا فكيف بأشياخهم وأساتذتهم ؟!! [3]

* * *

---

(١) مفتاح العلوم . تأليف أبي يعقوب السكاكي . (ت : ٦٢٦هـ) طبعة مصطفى الحلبي . القاهرة . عام : ١٣٥٦هـ . ص ٨٤

(٢) رغبت في أن أنقل لك نصًّا من كتاب (مفتاح العلوم) الذي لقي من الضيم من بعضِ المنتسبين إلى العلم ، ولم أنقل لك شيئًا من كتابي عبد القاهر أو الموازنة أو الوساطة وما شاكل تلك الأسفار لترى قدرعناية البلاغيين بالسياق

(٣) حرصتُ على بسطة القول في هذا لما أراه من بعضِ الذين لم يُحسنوا النظر في أسفارالبلاغيين زاعمين أن علم البلاغة عند العرب علم معياريّ . وأنه علم لا يُعنى إلا بالمقولِ دون العناية بسياقاته ومقاصدِه . . إلى آخرما به يتصَايحون . .

من الذي مضى تدرك مقدار اليقين عند الشّيخ بأنّ الاعتناءَ بالّسّياقِ بوجيهه فريضةٌ في علم البلاغة العربيّ . . وتدرك أنّه لذلك قائمٌ في كلّ موضعٍ من سفره بل أسفاره جميعًا ، ومجالس علمه .

أَمَّا السّياقُ المقاميّ السّابغ كلّ ما عدا «المقول» من أركان التواصل ، والذي استجلبَ البيان من أفق النّبوةِ فإنَّ له عند الشيخ أثرًا بالغًا في ضبطِ حركةِ التَّلقِّي.

وهذا السّياقُ المقاميّ في بيان النّبوّة إذا ما كانت له هذه الفضيلة في شأن التَّلقِّي فإنّه ليس بذي سلطان على امتدادِ حركةِ الهدايةِ للواقعِ المتجدّدِ المُتغيّر عبرَ الزّمان والمَكان المُمتدّ المُتراحبِ . إصلاحًا لمتهدّم ، وتأسيسًا لِمؤمَّلٍ .

ووجوب النّظر في السّياق المقامي أمرٌ متأصّل في قراءة بيان الوحي منذ تلقّى الصحابة بيانه .

روى أبو داود في كتابِه (الجهاد) من سُننه بسنده عَنْ أَسْلَمَ أَبِى عِمْرَانَ قَالَ : غَزَوْنَا مِنَ الْمَدِينَةِ نُرِيدُ الْقُسْطَنْطِينِيَّةَ وَعَلَى الْجَمَاعَةِ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ خَالِدِ ابْنِ الْوَلِيدِ وَالرُّومُ مُلْصِقُو ظُهُورِهِمْ بِحَائِطِ الْمَدِينَةِ فَحَمَلَ رَجُلٌ عَلَى الْعَدُوِّ فَقَالَ النَّاسُ : مَهْ مَهْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ يُلْقِى بِيَدَيْهِ إِلَى التَّهْلُكَةِ . فَقَالَ أَبُو أَيُّوبَ : إِنَّمَا نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ فِينَا مَعْشَرَ الأَنْصَارِ لَمَّا نَصَرَ اللَّهُ نَبِيَّهُ وَأَظْهَرَ الإِسْلاَمَ قُلْنَا : هَلُمَّ نُقِيمُ فِى أَمْوَالِنَا وَنُصْلِحُهَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى ﴿ **وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ** ﴾ (البقرة:١٩٥) فَالإِلْقَاءُ بِالأَيْدِى إِلَى التَّهْلُكَةِ أَنْ نُقِيمَ فِى أَمْوَالِنَا وَنُصْلِحَهَا وَنَدَعَ الْجِهَادَ .

قَالَ أَبُو عِمْرَانَ : فَلَمْ يَزَلْ أَبُو أَيُّوبَ يُجَاهِدُ فِى سَبِيلِ اللَّهِ حَتَّى دُفِنَ بِالْقُسْطَنْطِينِيَّةِ .

فهذا مِن سيّدنا أبي أيوب الأنصاريّ رضي الله عنه إنّما هو تأسيسٌ لمنهاج الأخذِ بالسّياقِ المقاميّ ، وأنّ قراءةَ السِّياقِ المقاليّ معزولاً عنه يفضِي إلى ضلالةٍ مبيرة .

والسّياقُ المقاميُّ سياقٌ مُعينٌ على الرُّؤية الثاقبةِ السَّابغة ، وليس مُعيِّنًا حاصرًا ، إنه سياقٌ حاملٌ على رؤية مركز المعنى ومرامِيه ، وغيرُ حاصرٍ فيه ومحاجز عمَّا هو منه بسبيل .

إنَّ ما كان له أثرٌ في صياغة الهدي النّبوي من الأحوال المحيطة بسياق القول لا يحاجزُ هذا القول عن أن يفعلَ في السّياقات المقامية المتلاحقة في أعصارٍ وأمصارٍ متعددةٍ متنوّعةٍ ؛ لأنّه بيانٌ صُنع لأمّةِ الدّعوةِ جمعاءَ إلى أن تقوم السّاعةُ .

والغفلةُ عن السِّياق المقاميِّ في فقهِ بيانِ النّبوّة قد يفضِي بالمرءِ إلى أن يقضِي بما لا يجوزُ القضاءُ به ، على نحوِ ما تراه فيما رواه البخاريُّ في كتاب (الصلح) و (المغازي) من صَحيحِه بسندِه في حديث طويل عن الْبَرَاءِ - رضى الله عنه - أن رسُول الله صلّى الله عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ وسَلّمَ قال : « الْخَالَةُ بِمَنْزِلَةِ الأُمِّ » (البخاري : الصلح) .

أو ما رواه أبو داودَ في كتاب (السّنة) من سننه بسنده عَنْ عَامِرٍ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ « الْوَائِدَةُ وَالْمَوْءُودَةُ فِى النَّارِ » .

فمثل هذا لا يُفهم إلاّ في ضوء السِّياق المقاميّ ، ومعرفة أسبابِ الورودِ[1] .

---

(١) إحكام الإحكام شرح عمدة الأحكام . تأليف : المؤلف : ابن دقيق العيد(ت : ٧٠٢هـ) نشر : مطبعة السنة المحمدية (د . ت) ٢/٢١. حديث رقم : ١٨٨ .

أو : رياض الأفهام في شرح عمدة الأحكام . تأليف : تاج الدين الفاكهاني (المتوفى : ٧٣٤هـ) تحقيق : نور الدين طالب . نشر : دار النوادر ، سوريا . ط(١) عام ١٤٣١هـ. (٥/١١٦)

أو : مصابيح الجامع . تأليف : بدر الدين بن الدماميني (المتوفى : ٨٢٧هـ) تحقيق : نور الدين طالب . نشر : دار النوادر ، سوريا . ط(١)١٤٣٠. ٦/١٢٩ .

فمن فهم هذا الحديث مستقِلاً عن سياقِه المقاميّ ضلّ فِي فهمه واستنباطه .
والشَّيخُ حفيّ باستحضارِ دعائم مكوِّنات الشَّخصيّة المحمّديّة النّبويّة ، وأَثرها في بيانه صلّى الله عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ وسَلّمَ

* * *

ترَى الشّيخَ يتلبث عندما يكون من أوضاعٍ حركيةٍ لسيّدنا رسُول الله صَلَواتُ اللهِ وسَلامُه عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ حين يُبين عن عظم ما يُحدثك عنه على نحو ما تراه في تبصر الشيخِ ما رواه مسلمٌ في كتاب «الإيمان» بسنده عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِى بَكْرَةَ عَنْ أَبِيهِ رَضِيَ اللهُ عَنه قَالَ كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ :

«أَلاَ أُنَبِّئُكُمْ بِأَكْبَرِ الْكَبَائِرِ ؟ ـ ثَلاَثًا

الإِشْرَاكُ بِاللَّهِ

وَعُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ

وَشَهَادَةُ الزُّورِ أَوْ قَوْلُ الزُّورِ» .

وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مُتَّكِئًا فَجَلَسَ فَمَازَالَ يُكَرِّرُهَا حَتَّى قُلْنَا لَيْتَهُ سَكَتَ».

يتلبث الشيخُ عن عطاء هيئة سيّدنا رسولِ الله صلّى الله عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ وسَلّمَ ، وهو يقول : «وَشَهَادَةُ الزُّورِ»

الانتقال من «الاتكاء» إلى «الجلوس» لم يكن أمرًا عفويًّا ، بل هُو وسيلةٌ من وسائل إيصال المعنى إلى القلب ، وتوطينِه فيه وتفعيله .

وكلُّ وسائلِ الإيصال والتفعيل اللغوية وغيرِ اللغوية يجبُ أن تكون سواءً في الاعتناء بُحسن فقهها . فليْست حركةُ اليدِ أو العينِ مَع حركةِ اللّسان بأقلَّ فعلاً دَلاليًّا من حركة اللّسان . فالمتكلمُ يوظِّفُ كلّ الوسائلِ التي تعينُه على حُسن إفهامِ مكنون صدرِه ، وفاءً بحقِّ المَعنَى (وليده) أوَّلاً ، ووفاءَ بِحقّ السّامع (ضَفيه) ثانيًا (إِنَّ الكلامَ مِن القِرَى).

من بَعد أن يُسجّل شيْخنا شيْئًا مِن واقع بعضِ « زُيوف الشُّيوخ » كما يَصفهم، ويصفُ السِّياق الاجتماعيّ والسّياسِيّ الّذي يجعلُ من أولئك الزّيوفِ مِن الشُّيوخِ فِي صدارةِ المَشهدِ .

يقُول : « قلتُ هذا لأكونَ فِي غِنًى عَنْ بيانِ لِماذا قالَ رسُولُ الله ﷺ « أنْ تجعلَ للهِ ندًّا ، وهُو خلقَك » ، و« عقوق الوالدينْ » ، وهو متّكئٌ ، ولم يكرّر هذا ، ثُمَّ جلسَ ، وقالَ : قولَ الزور أو وشَهادةَ الزُّور ، وكرّرَ هذَا حتّى قالَ الصّحابةُ ليْته سكتَ ، إشفاقًا عليْه صَلواتُ اللهِ وسلامُه عليْهِ .

وقولُ الزُّورِ ليْسَ أقلّ بشَاعةً مِن الشّركِ ؛ لأنَّ الشّركَ هُو نِهايةُ الشّوطِ الذي ينتهِي عنْدَه المبطِلون . ولكنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ لَمَّا جلَسَ ، وكرّرَ لَمْ يَكنْ يُنبّه إلى أنّ هذَا الزُّور أبشَعَ عِندَ اللهِ مِن الشركِ ، ولا منْ عقُوق الوالدينْ ، وإنّما يبيّنُ أنّه أسوأُ ما يواجِه الجماعةَ ، وأسْوأُ مَا يَهدمها ، وأبْشَعُ ما يردُّها إلَى الوراء ، ويقَضِي علَيْها بالتّخلفِ . . . .

وأهمُّ ما أريدُهُ هُو أنَّ الخطيئةِ الّتي تترتبُ عليْها مَفسدة أكثر فِي حياةِ الجماعةِ هِيَ الّتي نَرَى لِرسُولِ الله ﷺ إشارةً عندها تُشِيرُ إلى خطرها ، كأنْ يجلِسَ بَعدَ مَا كَانَ متّكئًا ، وكَأنْ يُكرّرَ الكلامَ ، وكأن يذكر قبلها أسوأ شناعتين ثُمّ يَخصُّها بإشارةٍ كما هنا ، فقدْ قرنَ قولَ الزّورِ بالإشركِ باللهِ ثُمَّ خصَّ بالجلوسِ بعدَ أنْ كانَ متّكئًا ثُمَّ خصَّ بالتّكرارِ .

وليْسَ عندِي فِيما أكتبُ أهمَّ مِن أنْ أبيّنَ كيفَ كان صَلاحُ الجماعةِ هُو الهدف الرشِيد مِن كلّ كلامه ﷺ ، وكيْفَ كانَ صَلاح دِنيانا هُو الهدف مِن كلِّ كلامِه ﷺ »[1]

---

(١) شَرْحُ أحاديثَ منْ صَحِيحِ مسلم : ١/١٥٤، ١٥٥ .

وممَّا يجعلُ قولَ الزُّور أهلاً لأن يُلفتَ إلى عظيم خطرِه بما كان مـن دلالـةٍ حركيّة من سيّدنا رسُول الله ﷺ أنــَّه مـع عظـيم خطـرِه في الأمَّـة ، هـو أكثـرُ حُضوراً في فعلها من الشّرك والعقوق ، فعُظم النّاسِ من لم يُصبْ من متنِ قول الزّور أصابه غبارُه ، فلا تكاد تجدُ إلا نزيراً ممّن لم يكـن لـه مـن قَـولِ الـزور نصيبٌ ، بل إنّك لتراه مِن أبرز مَا يقع فيه من يُحسبُ أنـّهم من أهـلِ الفضـل ، وأنـّهم الأسوة .

وكانت الدَّلالة على عظيم خطره بحركة لا تخطِئُ العين إدراكها ، وبتكـرارٍ لا تخطئُ الأذن تلقيـه لأنّ الحركـةَ مهمـا كانـت الغفلـة بـالمرءِ هـو يلحظهـا ، والتكرارُ يبطلُ أثر الغفلة عند الأولى والثانية ، فقلما كرّر الشيءُ فكانت الغفلـة مستوليةً على إدراك المُكرّر كلّه .

وكانت عبارة « الصحابة » فقلنا ليته سكت هاديـة إلى إبـلاغِ الـنبيّ ﷺ في تكرار هذه الكلمة . فلم تملأ أسماعهم فحسب بـلْ مـلأت أفئـدتهم ، وشـعروا بعظيم ما يملؤ فؤادَ النبيّ صَلَواتُ اللهِ وسَلامُه عَلَيْـهِ وعَلَـى آلِـهِ وَصَـحبِهِ مـن التّخوف من أن يكون هذا في أمته .

يلفتك الشيخ إلى أن من سنةِ رسُول الله ﷺ البيانية أنه أوفرُ اعتناء بما يقـعُ من مفاسدَ في المجتمعِ تستوجب هلكته ، فلا يكونُ فيـه مـن يحمــل كلمــة : « لا إله الله إلا الله » حملاً قويمًا ، ويدفعُ عنها دفعًا فتيًّا مستديما .

* * *

وكثيراً ما يلحُّ على أنـّه كأنـَّه يبصرُ سيّدنا رسُول الله صلّى الله عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ وسَلّمَ ينظرُ إليْنا ونحن فِي القرنِ الخامسِ عشر مـن الهجـرةِ يُخاطبنـا بما يُصلحُ فسادنا ، وإفسادَنا ، ويَهدينا إلى ما يرفعُ مقامَنـا فـوق مَـن حولنـا . وكثيرًا ما يُبصِر حالَ الصَّحابةِ وهم يخاطبون الرَّسولَ صلّى الله عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ

وَصَحبِهِ وسَلّمَ مُستعلِمين أو متلقّين هديه صَلَواتُ اللهِ وسَلامُه عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ .

يستحضرُ كلّ ذلك وهو يتلقّى بيانَ النّبوة ، وبيان الصّحابةِ ، وكانت عنايته بتبصُّر بيان الصَّحابة في نسيج الخبر تغوراً في أَحوالِهم في تلقّيهم ، ليرَى أثرَ الهدي النّبويِّ فيهم ، وليُرينا نحنُ صُورةً مِن صُورِ التلقّي الفطريّ لهذا الهَدي الغَيْثِ ، الهَدي النّور .

هذا الاستحضارُ له أثرٌ بالغٌ في القراءةِ والفهمِ ، يَستشعِرُه مَن يُحسِنُ الإصغاءَ لما يقولُ الشَّيخُ . مِن مشاهد هذا ومجلاه ما تراه مثلاً مِن قولِ الشَّيخِ في مبحث « لا تقتُله » وهو يتبصَّر ما هو مكنون في حديث المقدادِ بن الأسودِ رضي الله عنه ، وما في حديثِ أسامةَ بن زيدٍ رضي الله عنهما[1] .

وكان للشَّيخ في مناظرة الرّوايات وفي استحضار السِّياق المقاميّ ما لا يصلُحُ فيه التَّخليصُ أو الاقتباس ، لأنّ كلاًّ هُوَ إلى الغَبن أقربُ . ونعوذ بالله تعالى أن نَغبنَ أحدًا ، فكيفَ بشيخِنا ؟!!

كلُّ بصرٍ في أثناءِ القراءةِ والتلقّي بحالِ سيّدنا رسُول الله صَلَواتُ اللهِ وسَلامُه عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ وحال صَحابتِه رَضِيَ اللهُ عَنهم في أثناء الإبانةِ والإفهام ، وفي بواعثِهما منه أومنهم .

وكلُّ بصرٍ بحالِ زمان الإبانة والتلقّي ومكانِهما ، وما يكتنفُ هذه الإبانة وتلقّيها . . .

كلُّ هذا إنّما هو من الاعتناءِ الحكيمِ والمُحكَم بالسّياق المقامي :

السّياق الفاتح لخزائن معانِي الهُدَى في السياق المقاليّ ، والسِّياق الحاملِ إلى ثبج البيانِ المثوّر لمكنونه .

---

(١) شَرْحُ أحاديثَ منْ صَحِيحِ مسلم : ١/١٦١-١٨٤ .

وما هذا من الشّيخ ـ كما قلتُ قبلُ ـ إلا استثمارٌ لما تلقاه من أشياخِه في رياضِ الأزهر .

* * *

إنَّ السّياق المُمتدّ المُحيط بكلّ ما جادت به الحَضرة النّبويّة ، وما جاء في البيانُ الإلهي : القُرآن الكريم لهذه الأُمّة ، التَّشاغلُ عنه أوعدم الاعتناءِ البالغ بالوفاءِ بحقِّهِ ممّا يوقِعُ المَرءَ في ضلالِ الفهمِ عن رسُول الله صَلَواتُ اللهِ وسَلامُه عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ .

وأهلُ العلم بكتابِ الله تعالى وسنة رسُوله صلّى الله عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ وسَلّمَ يؤكّدون وجوبَ الالتزام بهذا السّياق على امتدادِه في بيان الوحي بأفقيه : قرآنًا وسنّة .

يقول ابنُ دقيق العيد : « السياق طريق إلى بيان المجملات ، وتعيين المحتملات وتنزيل الكلام على المقصود منه ، وفهم ذلك قاعدة كبيرة من قواعد أصول الفقه »

ويقول ابنُ القيم مفصّلا إجمالَ ابن دقيق العيد : « السّياق يرشِدُ إلى تبيين المُجمل وتعيينِ المحتملِ والقطعِ بعدم احتمال غيرِ المراد وتخصيصِ العام وتقييدِ المطلق وتنوّع الدَّلالة . وهذا من أعظم القرائن الدَّالة على مُراد المتكلم ، فمن أهمله غلط في نظرِه وغالطَ في مناظرتِه[1] »

---

(١) إحكام الإحكام شرح عمدة الأحكام . تأليف : ابن دقيق العيد(ت : ٧٠٢هـ) نشر : مطبعة السنة المحمدية (د . ت) ٢/٢١. حديث رقم : ١٨٨ .
وبدائع الفوائد تأليف ابن قيم الجوزية . (ت : ٧٥١هـ) تحقيق على محمد العمران . إشراف بكر بن عبد الله أبو زيد . نشر دار عالم الفوائد . مطبوعات مجمع الفقه الإسلامي بجدة . ١٣١٤/٤ ==

وهذا ممَّا يستوجبُ مراجعةَ البيانِ في سياقِهِ المُمتدّ في مدونةِ السّنة كلِّها ، وفي البيان القرآنيّ .

والشَّيخُ لا تكادُ تجدُه في هذا الكتاب يغفُلُ عن الالتفاتِ إليه ، لينيرَ له ذلك السَّبيل بقدرِ ما يُقيمك في البيانِ النّبويّ متلقيًا أولا ـ وليقوم هذا البيانُ الجليلِ فيك فاعلاً ، لا يُفارقك ثانيًا .

وهُوَ لا يكتفِي بفريضة جمع الرّوايات القائمة في موضوع واحد ليفهَمَ بعضها في ضوءِ بعض ، بل يتجاوزُ هذا إلى ما هو أوسعُ وأرفعُ ، يتجاوزُ العنايةَ بامتداداتِ السّياق المقاليّ للحديثِ لِيضبطَ حُسنَ الفهمِ عن سيّدنا رسُول الله صلّى الله عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ وسَلّمَ إلى أن يحقّقَ لهذا البيانِ النّبويّ حُسنَ فاعليتِه في الأمّة ، فانتقل مِن أهميةِ مُراعاة السِّياق عونًا على الاتساع فِي الفهم إلى أهمية ذلك في تحقيق حُسن الاستفادةِ من هذا البيان وتحقيق مقاصِده .

يقُول : « ومراجعَةُ كلامِ سيّدنا رسُول الله ﷺ ووضعُ ما تشابَه منه في الغرضِ في مواضع ، وما تعارضَ منه في موضِعٍ ، ثُمَّ ملاحظةِ المعاني المتضادة والمتقابلة ، ووضع بعضِها فِي مقابلةِ بعضٍ أعني تصنيف الأحاديثِ على وفق الأغراضِ تصنيفًا يُلاحظُ أحوالاً إنسانيَّةً ، كأنْ أضعَ المكفرات للذّنوبِ بعد ذكر المُوبقاتِ منها ليجدَ المسلمُ الذي زلّت بِه القدمُ ، فوقعَ في كبيرةٍ فسْحةً فِي الحديثِ الثّاني الذي يفتحُ له بابًا من أبوابِ الرَّحمةِ حتّى

== وينظر رياض الأفهام في شرح عمدة الأحكام . تأليف : تاج الدين الفاكهاني (ت : ٧٣٤هـ) تحقيق : نور الدين طالب . نشر : دار النوادر ، سوريا . ط(١) عام ١٤٣١هـ. (١١٦/٥)

أو : مصابيح الجامع . تأليف : بدر الدين بن الدماميني (ت : ٨٢٧ هـ) تحقيق : نور الدين طالب . نشر : دار النوادر ، سوريا . ط(١) ١٤٣٠ . ١٢٩/٦.

لا يظلَّ محبوسًا فِي سِرداب العذاب الذي اشتدّ عليْهِ فِيه حديثُ التَّهديدِ والوعيدِ .

أقولُ هذا اللونُ من التّصنيفِ أكثرُ فائدةً من قراءةِ أحاديث رسُول اللهِ ﷺ معزولاً بعضُها عن بعض ، لأنَّ هذا التّكامل يَكشِفُ لَنا أسرارًا جلِيلةً فِي دينِ الله . . .»[1]

أرَى فِي ذَلِكَ بيانًا لشأن بيان سيّدنا رسول الله صَلَواتُ اللهِ وسَلامُه عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ وما يتسمُ بِه من التلاحظِ والتَّساندِ والتَّعاضدِ ، وإنّ تباعدتْ المحالُّ والمنازل لا يعيقُ ذلك التباعدُ عَن الوفاءِ بحقِّ المُناصرةِ والمُساندة والمؤازرةِ ، فَيكون للأمة نوراً تهتدي به في علاقتها ببعضها .

فإذا ما كان ببيانه ﷺ يتساندُ ويَترابحُ على تباعد المنازل فذلك ما يجبُ أن يكونَ حالُ أبناءِ الأُمَّةِ ، لا يُحاجزُهم تباعدُ منازلِهم عَن تسَانُدِهم وتآزرهم وتناصُرِهم ، وتراحمِهم وترابُحهم .

كأنّي بالشّيخ يكشفُ لنا عن بعضٍ من هذا الذي هو قائمٌ في بيانِ النّبوة مِن أنّ تحصيل الخير على النحو الأمثل يستوجبُ تلاحظًا للمتشابهات ، وللمتقابلات ، فالأشياءُ يُبين بعضُها بعضًا .

وفوق هذا أراه يرسم لنا معالمَ منهج حُسن الفهم لما في بيان رسُول الله صلّى الله عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ وسَلّمَ .

وهو أعزّه الله تعالى يتغوَّر في ما بيْن يديْه من الهدي النبويّ كأنّه يعلمنا السّبح في هذا القاموسِ المحيط بِمعاني الهدى .

وتراه حينًا يستثيرُكَ بأنّ في البيان ما يتحرّك في صدره ، ولا يطيقُه لسانُه ، وحينا يحثك على ألا ترضَى بما بلغَه ، وأنَّ عليك أن تتجاوزَه ، لأنّه يستشعرُ أنَّ من وراءِ ما قال فضاءً ، كأنّه يحثنا على أن نسعَى لنسبحَ فيه[2].

---

(١) شَرْحُ أحاديثَ منْ صَحِيحِ مسلم : ٢١٣/١.
(٢) المرجع السابق : ٣٠/١، ٦٦، ١٥٠ .

وأنت تقرأُ ما كتبتْ يمينُه في هذا تدرك جليًّا أنّ الشَّيخ يحتاطُ في ضبطِ حركة قلبِه في التلقّي ، حتى لا يتوافد عليْه خاطرٌ في سياق ما لا يتآخى معه .

هذه الحيطة مخرجها عند الشّيخِ التَّورع من أن يتقوَّل علًى رسُول الله عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وصَحبه الصّلاة والسّلام

ومخرجها كما قلتُ قبلُ مقالة أمير المؤمنين علي رضي الله عنه « إذَا حُدِّثْتُمْ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حَدِيثاً فَظُنُّوا بِهِ الَّذِى هُوَ أَهْدَى وَالَّذِى هُوَ أهناه وَالَّذِى هُوَ أَتْقَى . »

وتحقيقُ هذا الظّن الأهدى والأهنأ والأتقى يتجلّي في إتقانِ منهج التلقّي ، وحياطته من كلّ ما يُمكن أن يعطف حركته عن الصراط القويم ، ومن أن يقيم المرْء مقام الضاربِ بيان النّبوة بعضِه ببعضٍ على نحو ما تراه في صنيع ثلة ممن ليست لهم قدم في طلب العلمِ بكتابِ الله سُبْحانَه وَتَعالَى وبسنةِ رسوله صَلَواتُ اللهِ وسَلامُه عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ .

مراجعة السّياق المقاليّ من أقوى الضَّوابط لحركة الفهم والتلقّي عن رسُول الله ﷺ .

وجمهرة العلماء الَّذين يُعنَون بتعليم حُسن النَّظرِ في البيان يؤكِّدون أهميَّة هذا الضَّابطِ على نحو لا يفتقر طالبُ علمٍ إلى أن ننقل له نصوصًا من مقالاتهم في هذا الشَّأن .

والكتابُ مفعَمٌ بهذه المراجعة لأنَّها الأداةُ الفاعِلة في استنباط معاني الهُدى مِن جهةٍ وفي إيصالها إلى قلبِ القارئ ، فمنهجيّة الاستنباط وأدواته وحركته كلُّ ذلِك له أثرٌ بالغ في الإيصال والإفهام كمثل ماله أثر في الحَمل من المكنون في البيان النّبويّ .

ولا يغني اقتباسٌ من نصٍّ للشَّيخ عن أقرانه وأترابِه وما نذكرُ إلا إغراءً بالمتابعة .

* * *

ومن الاعتناء باستحضار السّياق في القراءةِ والتلقّي استحضارِ النظائر في المعنى أو في منهج الإبانة .

هو يرى في التصاقب التركيبيّ مفاتحَ أبوابِ خزائن لطيفِ المعاني ، وكأنّ هذا التصاقبَ ينادي علينا أَلا عوجُوا إلى ما ناظره وشاكهَه ، فإن لكم في استحضارِه مِن العَون على إدراك لطيف المعنى ما قد لا يتحقّقُ لكم بغيرِه .

في تفهمه بيان النُّبوّة الذي رواه أبو ذرّ عن النبيّ صَلّى اللهُ وسلّم عَلَيْه وَعلَى آلِهِ وصَحبِهِ أنه قال :

« ثَلاَثَةٌ لاَ يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلاَ يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ وَلاَ يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ، قَالَ فَقَرَأَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ثَلاَثَ مِرَارٍ .

قَالَ أَبُو ذَرٍّ : خَابُوا وَخَسِرُوا مَنْ هُمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ

قَالَ : « الْمُسْبِلُ وَالْمَنَّانُ وَالْمُنَفِّقُ سِلْعَتَهُ بِالْحَلِفِ الْكَاذِبِ» .

يَستهلُّ الشَّيْخ بيانه بأن طريقة بناءِ هذا الحديثِ هي طريقة بناءِ حديث : « أربع من كنّ فيه» مع اختلافٍ في المعنى .

ولهذه الطريقة نظائر كثيرةٌ في كلامه صلّى الله عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ وسَلّمَ ، ويهدينا إلى أن نجمعَ الأحاديث التي بُنِيت على حذوٍ هي أخوات لأبٍ وأمٍ .

ويهدِي الشيخُ إلى أن ما جاء على حذو واحد في بنائه تجد فيه ما يقاربها جدًّا وما يقاربها فقط وما يأخذ في البعد عنها شيئًا فشيئًا[1]

هذا التشبيهُ من الشيخِ (هي أخواتٌ لأب وأم) يشير إلى أنّك لابدَّ واجدٌ فيها ما يجمعها ، وما يميّز بعضًا عن بعضٍ تمييزًا لا يؤدي إلي المفارقة ، فخروج الأخوة لأب وأم من صلبٍ واحدٍ ورحمٍ واحدٍ يقيمُ في كلٍّ ما يجمعُه إلى مَن شاركه في المَخرج .

---

(١) شَرْحُ أحاديثَ منْ صَحِيحِ مسلم : ١/٦٦ .

وكَأَنَّ شيخنا يقُول لنا إنَّ رسُولَ الله صَلَوات اللهِ وسلامُه عَلَيْه وَعلَى آلِهِ وصَحِبهِ يلفتُنا بهذا التناظرِ في بناءِ المعنى إلَى أن نُعمل فراستَنا البيانيّة ، فنُبْصِرُ ما بيْن المتناظراتِ مِن وجوهِ التَّلاقِي ووجوه التّمايز ، ومدَى أَثر التّمايز في وجوهِ التلاقِي :

أهو تمَايزٌ يَمدُّ التّلاقِي بقوةٍ وتمكّنٍ وحيويّةٍ عطاءٍ؟

وهو يوجبُ دراسة هذا كلّه ، وفاءً لِحق بلاغتِه عَليْهِ وَعَلَى آلِهِ وصَحبه الصّلاة والسّلامُ ، ويهدي إلى أنَّ النَّظر النَّافذ السَّابغ انتهى إلى أنَّه ﷺ لم يفعل ذلك استعذابًا لطريقٍ ، فما هو بالمتعمل والمتكلف ، إنّما النَّازل على ما يقضِي به المعنى .. ويشير إلى أنَّه سعَى لإبصارِ الباعثِ والمقتضِي ، فكاد أن لا يذكرَ مخافة أَلاَّ يكون هو . ثم مضَى ذاكرَه رغبةً في أن يطَّلع عليه ذو بصيرة ، فيُقوِّي أو . . . ، فلا يبقَى في صدرِه غير مقضي له أو . . .

يُرينا الشَّيخُ « أنَّ كلّ معنًى من المعاني له نهجٌ أعلى فِي الإبانةِ عنه يُشبه هذا النّهجُ أن يكونَ متلائمًا مع فطرة هذا المعنى ، وأن هذا النهج يَتراءَى لأهلِ البيانِ مِن بعيدٍ ، وكلٌّ منهم يسعَى لِيقاربه ، وكلٌّ منهم يصلُ إلى ما يصلُ إليْهِ مِن هذه المقاربةِ بِمقدارِ ما تُعينه موهبته البيانية .

وبيانُه عَليْهِ وَعَلَى آلِهِ وصَحبه الصّلاة والسّلامُ أسبقُ بيان النّاسِ ، وأَقربهم إلى هذه الفطرةِ الّتِي هي النَّهجُ الأعلَى فِي التَّعبِيرِ عَن المَعنى أَيّ معنًى ؛ لأنه عليه السّلام أفصح مَن كانوا ، وأَفصح من سيكونُ إلى يومِ القيامة . . . . » [١]

إذا ما كانت معانيه ﷺ وحيًا من ربّه سُبْحانَه وَتَعالَى وليست من صَنعة عقلِه الزّكيّ الطَّهور ، وكان هو المُصورَ لذلك المعنى وفق رؤيته ما يحمله هذا المعنى من الخَصائصِ ، وما يتلاقَى بِه مَع معانٍ أُخر أوحيتْ إليه ، فيراها ببصيرة النّبوّة تنتسبُ إلى غايةٍ ، وإن تمايزت موضوعاتُها ومجالاتها ، فهدته

---

(١) شَرْحُ أحاديثَ منْ صَحِيحِ مسلم ١/٦٦، ٦٧ .

بصيرته النّبويةِ وفطرتُه المُحمَّديَّة إلى أنّ المسلك الأحمدَ أن يلفتَ إلى توحُّد الغايات أو تقاربها من خلالِ تسَاقب أبنية الصّور الدَّالة على المعاني المتقاربة الغايات ؛ ليكون منهاجُ بناءِ الدّالِ ومنهاجُ الدَّلالة آيةً على تلاقِي الغاياتِ والمقاصدِ .

وهذا يحملُ المتلقّى هذا البيان إلى أن يستجمِعَ صُورَ ما تقاربت غاياته في بابٍ من خلالِ تصاقب أبنية صُورِ المعاني أو تقاربِها لِتَرِدَ الغاياتُ والمقاصدُ على القلب المعافى ، وفي كلّ ورودٍ شيءٌ جديدٌ يُضيف إلى الورود السّابقه ، فيكون ذلك أمكنَ له في القلبِ ، وأقوى فاعلية فيه .

وفي هذا استجابة لما أمره الله سُبْحانَه وَتَعالَى به في قوله تعالى : ﴿ **وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا** ﴾ (النساء:٦٣) أي قولا بليغًا في أنفسهم : يبلغ سويداءها[1] .

---

(١) إنّي لعلى ذُكر من أنَّ قوله تعالى : ﴿ **وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا** ﴾ (النساء:٦٣) سباقُه قول الله تعالى : ﴿ **أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُ ٱللَّهُ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ** ﴾ (النساء:٦٣) بيْد أنَّ هذه الفاصلة : ﴿ **وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا** ﴾ (النساء:٦٣) صالحةٌ لأن تكونَ كالمثل ، إذا فصلت من سباقها ولحاقها صلحت أن تعطى معنى أوفر سبوغًا ، وأبسط قطرًا .

وهذا شأن ما يكون بمثابَة (الأمثال) و(الحكم) ذات السياقات ، ولها قدرة على عطاء آخرخارج سياقها ، وما يكتنفها من سباق ولحاق . وغيرُ قليلٍ من آياتِ القرآن ومن جمل البيان النبوي لها في سياقها معنى وعطاء ، ولكنها إذا أقيمت في سياق أرحب لم تكن عقيمًا بل أعطت ما يتواءم مع هذا السياق الأرحب .

والعرب كانتْ تستعلي بيت الشّعرالذي إذا استدعي خارج سياقه كان له عطاء ، ولا يكون سياقُه محاجزَه عن أن يفعل في النّفسِ خارجه ، بل استعلت العرب أن يكون شطر البيت ذا عطاء إن أخذ في مساق بياني مفصُولا عن لفقه في الأبيات .

وهم بذلك لا يَستعلون أن تكون القصيدة أشطرًا متفاصلة بلْ يذهبون إلَى أن يكون للبيت أو الشّطر عطاءٌ عليّ في سياقه مع أقرانِه ، وله أيضا عطاء وإن كان أدنى ، ولكنه أوسع مجالاً حين يكونُ مأخوذا عن قبيلته . وكأنّي بهم ينظرون إلى ==

وكأنّ الشيخ يلفتنا إلى أمريْن كليين في علمِ البلاغةِ العربيّ :

« الأمرِ الأولّ : أنّ المعنَى هوالّذي يختار صُورته ، وليس المتكلّم حراًّ في أن يوردَ المعنَى في أيّ صُورة أراد .

بلاغةُ المتكلم في أن يكونَ المقتدرَ المطيعَ البارَّ بالمعنى ، إذا استوجبَ المعنى صُورة يتجلّى فيها لا يكونُ من المتكلم عجزٌ ، ولا يكون منه توقف فضلاً عَن تردّد أوتمنّع ، بل هو يؤذّن بشعار الأبرار : سمعنا وأطعنا .

فإذا ما كانتْ البلاغةُ مطابقة الكلامِ الفصيح مقتضَى الحالِ ، فإنّ من أهمّ الأحوالِ حالَ « المعنى » . فريضة أن يخضعَ المتكلمُ لما يقتضِيه ذلك الحال .

وهذا ممَّا لا يكثرُ التَّنبِيهُ عليْهِ عند بيان الأحوال ومقتضِياتها . وهوالجديرُ بأن يُعْتنى بالتنبيه عليْه .

فإذا ما تقاربَت المعاني في ذاتها ومخرجِها ومقصدِها كان ذلك داعيًا فتيًّا إلى تقاربِ صُورها .

في تشاكل السَّمتِ المَشهود آيةٌ على تآخي المعانى المكنونة .

وإذا ما كان علماءُ اللغة ، قد تجلّت عنايتُهم بتصاقبِ الألفاظ لتصاقب المعاني في باب الكلم ، فجديرٌ بالبلاغيين الاعتناء ببيان تصَاقبِ النّظم لتصاقب المعاني التركيبيّة .

ولمَّا كان إدراكُ تصاقبِ الصّورِ أيسرَ وأقربَ من إدراكِ تَصَاقبِ المعاني ، كان تقاربُ نظم الصّور هاديًا إلى ما بيْن المعاني من رحم موصول ، ممّا يحققُ للبيان تماسكه ، ويحقق للمتلقّي قدرتَه على أن يبصر طريقَه إلى المعنى .

==الشّطر أو البيت في القصيدةِ نظرهم إلى المَرء منهم في القبيلة ، وهو في سياق أسرته وقبيلته : (قصيدته) ذو عطاء ، وإذا ما أخذ خارجه لم يكن عاطلاً عقيما . فقوله تعالى : ﴿ وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلاً بَلِيغًا ﴾ (النساء:٦٣) صالح أخذه من سياقِه وسباقه وإقامته في سياقات أُخر . .

والأمرُ الآخر : أنّ تصاقبَ الصُّور عاملٌ من عوامِلِ تماسك البيان وتلاحُظِه، ممَّا يَعصِمه مِن التّشارُد من جهة ، ويعصِمُ المتلقِّي مِن أنْ يَجري في القراءةِ التَّجزِئيَّة للبيانِ ؛ لأنّـه إِذَا ما تَوافدَتْ عليْه صورٌ متصاقِبةٌ حملَه ذلك على أن يُبصر ما بيْنَ محمولاتِها من رحم ، فيسعَى إلى الاسْتِحصاءِ ، والاسْتقراءِ .

وأنّ تَصَاقبَ الصّور هادٍ إلى الإعرابِ عن أهمية المعنى الذي تسَاقبت صُورُه . ممَّا يجعلُ المتلقّي يوفّيه حقه في تلقّيه نظير توفية المتكلم حقه في الإبانةِ والإفهام .

وأنّ تَصَاقبَ الصُّور هادٍ إلى أن يلتفت المتلقّي إلى ما بيْن محمولات هذه الصُّور من فروقٍ ، وما اقتضاها ، وما يسعى إليْه بها . فيدرك حركة المعنى إلى القلبِ في كلّ صورة ، لأن اللجوء إلى تسَاقبِ الصُّور دون تكرارها هادٍ إلى الالتفاتِ إلى ما اجتمعا فيه ، وما امتاز كلّ عن الآخر .

فمن فرائضِ العقلِ البلاغي بيان أمرِ المعاني كيفَ تختلف وتتفق ، ومنْ أين تجتمع وتفترق كما يقُول عبد القاهر . وأن تساقبَ الصور هادٍ إلى معالم السُّنة البيانية للمتكلمِ ، فكما أنَّ لكل امرئ سمته الظاهر في هيئة جسدِه ، له أيضًا سمته في بيانه عن معانيه ، فهو لا يتميزعن غيرِه في صورته الحسية فَحسْبُ بل هو أشدّ تمايزًا في صُورتِه الجوانية على ما يتجلّى فيه من البيان اللساني والسلوكي .

ومن الجليّ الذي لا يخفَى على من له ببيان النبوة صُحبة أن لبيان رسولِ الله صَلّى اللهُ عليه وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ وسلّم خصائصَ وسننًا بعضُها اقتضتهُ المعاني التي يبثّها في النّاسِ ، وبعضها اقتضته خصوصيته الذاتية (البشرية) . فمعالمُ المُحمدية (البشرية) في بيانه لا تخفَي في جانب معالم نبوّته ، ويملك من يَتفرسُ بيانَه أن يُشيرَ إلى ما ينتمِي إلى بُعْدِ النّبوَّةِ فيه ، وما ينتمِي إلى البُعد المُحمّديِّ فيه

* * *

المهمّ أن الشَّيْخَ يحملُنا إلى أن نستحضرَ ما تصاقبت أبنيتُه حال التَّفهُّم والتَّدبر ، لِما في ذلك من العونِ على حسن التَّدسُّسِ ، وحُسن العرفان بعلاقاتِ المعاني ، ومآلاتها ومقاصدها . وهو بابٌ من الفهم جدّ دقيقٍ وعميقٍ .

وهو أكرمه الله تعالى بسترِه لا يكتفِي بهذا بل تراه يمتدُّ نظرُه إلى ما تصاقب من بيان النُّبوّة مع البيان القرآني ؛ لأنّـه يـرَى السّياقين سياقًا واحدًا مخرجًا ومقصِدًا [1].

وهو يتبصر قول رسُول الله صلّى الله عَلَيْه وعَلَى آلِه وَصَحبِهِ وسَلّمَ : « ثَلاَثَةٌ لاَ يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلاَ يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ وَلاَ يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ »

يلفتنا إلى أنّ هذه الجملَ الثلاث منقولةٌ من القرآن ، وأنـَّها جاءت في سياقِ عقابِ الَّذين يكتمُون ما أنزلَ الله تعالى من الكتابِ ، ويشترون به ثمنا قليلا ، وسِيقتْ في بيانِ عِقابِ هؤلاءِ الّذينَ لايزالون بيننا بقوله تعالى :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَشۡتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ مَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (البقرة:١٧٤)

وفي آل عمران مثلُ ذلك في شأنِ الـذين يشترونَ بِعهـدِ اللهِ وأيمـانهم ثَمنًـا قليلا :

---

(١) الذهاب إلى أنّ بيان الوحي كلّه قرآنًا وسنة سياقٌ واحد مهيع الأعيان من أئمة أهل العلم بكتابِ الله تعالى وسنّة رسُوله صَلَوات اللهِ وسلامُه عَلَيْه وَعلَى آلِهِ وصَحبِهِ ، على نَحو ما تراه في كتاب « الموافقات في أصولِ الشريعة » لأبي إسحاق الشاطبيّ .
وهذا المذهبُ يتسع لصناعة بحوثٍ في بلاغة الـوحي لا تتنـاهَى قضـاياها ولا تخلـق دقائقها ولطائفها . والانصراف إلى هذه الصناعةِ احتسابًا إنّما هـو مـن بـابِ النصـيحة لكتابِ الله سُبْحانَه وَتَعالَى ولسنةِ رسوله ﷺ ثم هو من بـاب النصـيحة لِخاصـة الأمّـة وعامةِ الإنسانيّة . والأمّة أحوجُ ما تكونُ إلى هذه الصناعة . .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَـٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلاً أُوْلَـٰٓئِكَ لَا خَلَـٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْأَخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (آل عمران:٧٧)

هذا القرن بيْن السِّياقين كَأنَّ الشَّيْخ يلفتُنا إلى أن نتصوَّرَ فداحة الـذَّنب الـذي جاء البيان عـن عقابـه في الحـديثِ (الإسـبال والمـن وإنفـاق السـلعة بـالحلف الكاذب) بمناظرته بالذَّنب الـذي جـاء العقـابُ نفسـه عنـه في البيـان القرآنـي : (كتمان ما أنزل الله سُبْحانَه وَتَعالَى ، وأن يُشْتَرى بِهِ بعهد الله تعـالى وبالأيمـانِ ثمنًا قليلاً)

وظاهرُ النَّظرِ يذهب بك إلى أن الآثام التي جاءت في البيان القرآنيِّ ليس في درجتها الآثام التي جاءت فِي بيان النُّبوّة ، ولا سِيّما الإثمُ الأوَّلُ (الإسبال) فدلَّنا التلاقي في العقوبة على أنّ ثَم تلاقيًا بـين الآثـام المـذكورةِ في القـرآن والآثـام المذكورة في البيان النّبويّ .

والشّيْخُ يلفتنا إلى أثر استصحابِ بيان القُرآن عند التَّبصُّـر في بيـان النُّبـوّة ، يلفتـنا إِلـى أنَّ هـذه الجملَ الَّتي صورَّت عقوبة الآثام المذكورة في بيـان النُّبـوّة لم تفرغ مِن شُحنةِ الغضبِ الّتي أفرغها فيها سِياقُ سُورة البقرة ، وسِياق سُـورةِ آل عمران « لأنَّ المفرداتِ لا تَعرُو أبدًا مِن أحـوالِ السّـياقِ الّـذي جَـرتْ فيـه ، وكذلك الجملُ »[١]

كانّي بالشَّيخ يهدِي إلى أمرٍ مهمٍّ جدًّا في شأنِ أثرِ السّياق في دَلالة الكلمةِ ، أوالجملة ، فكما أنَّ الوضعَ الأوّل للكلمةِ له أثرٌ بالغٌ في المعنَى الَّتي تسـتعملُ فيه بعدُ ، فلا تتخلَّى تخليًا تامًّا عنْ كلِّ ما وُضِـعت لـه ، علـى مـا هـدَى إليْـه سِيبويه في « الكتاب » مِن أنَّ حروفَ المعاني إذا استعمِلتْ في غيرِ ما وضـعتْ

---

(١) شَرْحُ أحاديثَ منْ صَحِيحِ مسلم : ٦٩/١، ٧٠ .

له ، فإنَّ شيئًا من معناها الموضوعة له يصحبُها في السّياق الذي تحلّ فيه ، فـ(الباء) يبقى فيه معنى «الإلصاق» حيثُ حلَّ ، فإذا استعملَ في الظرفية ، فظرفيتُه ليست هي ظرفية (في) : ظرفية (الباء) بطعم ونكهة (الإلصاق) وظرفية (فِي) خلاءٌ من ذلك .

كأنّي بشيخَنا يهدينا إلى أنّ الكلمة ، والجملةَ إذا استعملت في سياقات متنوعة ، فإنّها تحملُ مِن كلّ سياقٍ بعضَ ما كان لها منه ، فعلى قدر تنوّع السّياقات الّتي تستعملُ فيه وتعدّدها يكون اجتماعُ المعاني فيها ، وكأنَّها لما حلَّتْ في سياق حملتْ من عطائه ، فلمَّا ارتحلتْ عنه إلى قرينِه حملتْ شيئًا من العطاء . منيحةً لا تردُ : والسِّياق يُنشدُ :

وَنُكْرِمُ جَارَنَا مَا كَانَ فِينَا ۝ وَنُتْبِعُهُ الْكَرَامَةَ حَيْثُ مَالا

وهذا يَهْدِي إلى أنَّ كثرةِ استعمال الْكَلِمِ وَالجُمَلِ في سياقاتٍ مُتَنَوِّعَةٍ يَمنحُها جِدَّةً وحَيويَّة وفُحولَة وامتلاءً . وهذا يضعُ على كاهل المُتلقّي المُتفهّم حِملاً جدَّ ثقيل : عليْه أن يَسْتَحْضِرَ السّياقَاتِ الّتِي حلَّت فيها الكلمةُ ، والجملةُ ، لِيعلم محمولَها من كلِّ سياقٍ حتى يَتفهم معناها في السّياقِ الّذي هو قائم لفهم البيان الجاري في لاحِبِهِ[1].

وهذا ممَّا لا يطاق بعضُ الوفاءِ به ، فكيف بتمامِه ، فكيف بكماله ؟!!!!

---

(١) إذا ما جعلتَ المرء في وجودِه المجتمعي بمثابة الكلمة في وجودها البيانيّ السّياقي ، وكانت الكلمة تحمل من سياقات استعمالها ما تضيفه إلى موروثها الوضعيّ من المعاني فإنّ المرء كمثل ذلك فِي عيشه في سياقات حضارية يعيش فيها ، فيحمل منها أشياء يَضيفها إلى موروثِه الذي اكتسبه من منبته ومرباه الاجتماعي ، وهنا تأتي خطورة المقام في سياقات اجتماعية يغلبُ عليها الطابع المعاند لما فُطر عليه السّياق الاجتماعي المسلم .

وهذا يجعلُني قارئـا ومتفهمًـا في مقـامِ الشّـعور المُسـتفحل بـالعجزِ الفـتيّ المُتغوّل ، وحينئذ يجتثّ هذا الشّعور منا داءَ العُجبِ وتَوَهم التميز .

وهذا عطاء لو لمْ يكن لنا غيره لكفى ، وأغنَى . كلُّ متلقٍّ متفهم للبيان عاليًا بديعًا أو عليًّا معجزًا هو مقصّر في حقّ هذَا البَيانِ ، غيرَموفٍ ما عليْه لَهُ ، ممّا يجعلُ هذا البيان ما يزالُ مُسْتَشْرِفًا إلى مَقدَمِ مَن يستكمل بعضَ حقّه .

إنَّ التَّلقي والقراءة والتَّفهم عملٌ جِدُّ جليلٍ وثقيل

* * *

وممّا يَحسُنُ أن ألتفتَ إليه في قراءة الشَّيْخ أراه جليلاً في هـذا المقـام : هـو عنايتُه أعزه الله ببيان أثر بيان النُّبوة في سامعِيه ، ولا سيّما الصَـحابة رضـي الله عنهم أجمعين فهو ممّا نحن بسبيله : « سياق البيان المقاليّ والمقامي بشقيه :

- شِقِّ الإبانةِ والإفهامِ .
- وشِقِّ التلقّي والتَّفهم .

هو لا يكتفي بأن يتبصَّر الشقّ الأوّل : بل يتبصّرُ أثر هذا البيانِ النّبـويّ في مَن سَمِعَه أولاً من رسُول الله عَليْهِ وَعَلَى آلـِهِ وصَحبه أفضـلُ الصّـلاةِ والسّـلام وليبيّن لنا كيف أنّ صحابته رَضِيَ اللهُ عَنهم كانوا في مقام الاستماع آذانًا واعية ، وقلوبا منفعلةً تتعطل منهم كلّ وسائل الإدرك إلا السّـمع بـالأذن والقلـب ممّـا يحملهم ذلك إلى المبادرة بالسّؤال عَن شيْءٍ هم على يقينٍ أنّ سيّدنا رسُول اللهِ صلّى الله عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ وسَلّمَ لو صبروا لقال الَّذي عنه سألوا ، ولكنّ أنَّـى لهم أن يصبروا تحت سطوة فتوةِ أثر بيانه ﷺ فيهم؟!! فـإذا هـم خـارجون عمَّا يقتِضِيه ظاهرُ المقام من الصّمت حتى يفرغ ﷺ ، فإذا هم سـائلون . مـن هم يارسول اللهِ ؟ ونحو ذلك ممَّا أنت تـراه شـائعًا في مُدونـة السّنـَّة النّبويّـةِ ، والرَّسول ﷺ عليمٌ بأنـَّهم لم يفعلوا مـن سـوء أدب في الإصـغاءِ ـ حاشـاهم ـ أنّـي لهم وهم مريدوه وصنيع هديه وأدبه ﷺ .

علم أنّهم ما بادروا بالسّؤال عمَّا هو لا محالة قائلُه ، وإن لم يسألوا علم أنّ ذلك أطرَهم عليه أطرًا أثرُ بيانِه فيهم . فكانوا كالمُكرَهين على ذلك التّسارعِ إلى السّؤالِ عمّا هو آتٍ لا محالةَ .

لك أن تنظرَ إلى التفاتة الشّيخِ إلى أثرِ نسق بيان النّبوّة في سيدنا أبي ذرّ رَضِيَ اللهُ عَنه ، فلم ينتظر من قوة أثره فيه .

نظر الشَّيْخُ إلى أثر النّسق في السَّامع من بعدِ أن تبصر هو هذا النَّسق وما حمَل من معاني الهدى ، فأشار إلى قيام مقالةٍ لسيّدنا أبي ذرٍّ في ثبج بيان النّبوة ، ليبيّن لك صنيع بيانِ النّبوة في أبي ذرٍّ رَضِيَ اللهُ عَنه من جهةٍ ، وليبيّن لك موقع مقالته من بيانِ رسُول الله عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وصَحبه أفضلُ الصّلاةِ والسّلام :

عَنْ أَبِى ذَرٍّ رَضِيَ اللهُ عَنه عَنِ النَّبِىِّ ﷺ قَالَ :

« ثَلاَثَةٌ لاَ يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلاَ يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ وَلاَ يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ » قَالَ : فَقَرَأَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ثَلاَثَ مِرَارٍ .

قَالَ أَبُو ذَرٍّ : « خَابُوا وَخَسِرُوا . مَنْ هُمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ »

قَالَ : « الْمُسْبِلُ وَالْمَنَّانُ وَالْمُنَفِّقُ سِلْعَتَهُ بِالْحَلِفِ الْكَاذِبِ » .

بعد أن يكشفَ لك شيئًا من معنى قول النّبي ﷺ : « لاَ يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلاَ يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ وَلاَ يُزَكِّيهِمْ » يقول :

« أدرك سيّدنا أبو ذرٍّ كلّ هذا ، فقال بتلقائيّته المعهودة : « خَابُوا وَخَسِرُوا مَنْ هُمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ » ولا حظْ أنّ سيّدنا رسولِ اللهِ كان سيقُول من هم؟ لأنّه يستحيلُ أن يقُول : ثلاثة لا يكلمهم الله إلى آخره ثُمّ يسكتُ ، ولكن الذي وعاه أبوذرّ ممّا قلناه وأعمقُ ممّا قلناه أثاره ، فاعترضَ بجملة اعتراضيةٍ بيْن الخبرِ والمبتدأ .

وهذا اعتراضٌ آخرُ غير الاعتراضِ المتعارفِ ؛ لأنّـه اعتراضٌ دخل في الكلامِ مِن متكلّمٍ آخر ، وهو لا يكونُ إلاّ إذا كان في الكلامِ الذي قبلَ هذا الاعتراضِ ما يُثيرُ السّامع إثارة لا يصبرُ على السّكوت معها ، فيدخلُ بكلامٍ يشقّ بِه وحدة الكلامِ الأوّل ، ويغرسُ ما اعترضَ به بيْن قسمي كلامٍ لا يفصلُ بينهما كما هو شأنُ الاعتراضِ[1].

ولِذلك كانت جملُ الاعتراضِ المعروفِ من أقوى المعانِي ، ومـن أرقَاهـا ، وتراها بيْن الكلامِ الذي وقعتْ اعتراضًا فيه كأنّـه لؤلوة متميزة بيْن لآلـئ ، كمـا تراها أحيانًا كأنّـها ومضةُ إضاءة[2].

---

(١) يشيرُ الشّيْخ إلى أن ما يُعترضُ به بين قسمي الكلام ، سـواء كـان مـن متكلمٍ واحـدٍ أو من مُتكلميْن،لا يُحدث في البيان وَهَنًا في التأثير مثلما لا يحدثُ في نظمه شرخًا . إن هوإلا خيطٌ من نوع آخر من خيوط النسيجِ يحدث تماسكًا في التلقّي ذلك أن قيام ما يُعترضُ به هو خارج عن أفق المتوقع ، فالمتوقع أن يستكمل القول ، فإذا السّامع للبيان يجدُ غير ما يتوقع،فيزداد بصره أولاً بما سبق؛لأنه هوالذي استدعى ما اعترض به ، فيتبين له فيما سبق الاعتراض ما لم يكن قد تبيّن له ، فكان هذا الاعتراض (الخيط المتفرد في نوعه) من رقعة النسيج عاملا من عوامل منح ما سبقه فاعلية في النفسِ المتلقية ، وهذا من خدمةِ المعنى ، والبرّ به .
وهذا لا يصلح إلا حين يكون البيان فتيًّا لا يؤثر في تماسكه ، وتلقيه ما يقوم فيه اعتراضًا ، ولا يقدم عليْه المعترِض إلا إذا كان عليمًا بأنّ ما سيعترضُ فيه مقتدر على أن يمضي إلى غايته في فتوةٍ أشد ممّا كانت له .
ولذا كان الاعتراض صورة من صور شجاعةِ العربية .
وحقيقة الشجاعة تتمثلُ في الإقدام على ما يتوقع منه الخطر ثقة في القدرة على إبطال ذلك الخطر . فالمعترض لا يقيم اعتراضه إلا من علمِه بما لهذا الكلام الذي يعترضُ فيه من قوة التماسك والتلاحم ، والتلاحظ والتنادي وفتوة في الـتأثير . .

(٢) استشعرُ من مقالة الشّيْخ هذه حفزًا لنا طلابَ العلم إلى أن نقوم إلى هذا الأسلوب بحثًا فيه عن عوامل قوته وتأثيرِه ، وكيف أنَّ موقعه بين متماسكين بحـجـز بعضهـما لا يحدث نبوة بينهما ، ولا يحدث له هو شيْءُ من قبح التطفّل ، ذلك أنّه في الحقيقة استجابة لحاجة في ما وقع فيه ، فأوله استدعاه ، فاستجاب ، فلم يكن متطفلاً ، ==

وقـد أفلح أبو الفتحِ في بيان هذا ليس بحديثٍ نظريّ ؛ لأنــّه لم يـتكلّمْ فِـي هذا ، وإِنّما شواهد أضافها للاعتراض أصاب في اختيارها ؛ لأنها كانـت جمـلاً مضيئة جدًّا .

وسيّدنا أبو ذرّ باعتراضِه هذا علّمنا شيْئًا ، وهُوأنّ الجملةَ السّابقة للاعتراض لأبُدّ أن تكون مستفزّة أوحالةً مستفزّة ، كحالة رسُول الله صلّى الله عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ وسَلّمَ وهو يقرأ هذا الخبر ثلاث مرات »[1]

* * *

الضَّابِطُ الرَّابع :

عمق البصيرة بمنهج العربية في الدّلالة على المعاني : في أوَّل سورة (الفاتحة) قد عرفنا الله سُبْحانَه وَتَعالَى بنفسه لعلمه أنـّا عباده عاجزون عن أَنْ نعرف صفته بأنفسنا غير معلَّمين بالوحي ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝١ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ (الفاتحة:١-٣)

فكان ذلك جماع ما يجبُ على العبد أن يسْتحضره في قلبِه من شأنِ ربّهِ

==بل كان المُستجدَى مقدمُه ، ليحقق لما وقع فيه معترضًا ما يحتاج إليه ، فكان في هذا الاعتراض المستدعَى من الإفضال على ما اعترض فيه ما لا يستغنى عنه .

فإذا لم يكن في أسلوب الاعتراض هذه الخصائص ، فهو المنبوذ المدحـور ، وهـذا ما لا يمكن أن تجده في البيان العَلِيّ : بيان الوحي قرآنـا وسـنة ، ولا في البيـان العـالي : بيان الإبداع شعرًا ونثرًا

الشَّيْخُ بإعرابه هنا عن القيمة الوظيفية للاعتراض يلفتنا إلى وجـوب البحـث عـن هـذه القيم التي ربّما غرّ بعضـنا تسـميته اعتراضًـا بضـعف فوائـده وقلـة عوائـده . وهـو في حقيقته المستنجَد به المتفضِّلُ بالإحسان .

وهذا من الشَّيْخ انتصارٌ لأسلوبِ الاعتراضِ ودفعٌ لمظلمة قد تلحقُه من بعضِ الناشئة ، وإرشادٌ لنا ـ طلاب العلم ـ أن نعرف أقدار الأشياء بأفعالها وآثارهـا . فأنت بحسبك لا بنسبك ، وأنت بجدّك لا بِجَدك .

(١) شَرْحُ أحاديثَ منْ صَحِيحِ مسلم : ١/٧٥، ٧٦

سُبْحانَه وَتَعالَى فكلُّ حديثِ القرآن عن منزّله تعالى راجعٌ إلى ما استهلّ بِهِ سورة (أمّ القرآن)

وفي أوّل سورة (البقرة) عرفنا بكتابه الذي أنزله على خاتم رسله صلّى الله عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ وسَلَّمَ :

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿ الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ﴾ (البقرة: ١، ٢)

وكل حديثِ الله تعالى عن القرآن فيه راجعٌ إلى هذه الثلاث الّتي استْهلّ بِهِ سُورة (البقرة) : (ذلك الكتابُ) ، (لارَيْبَ فِيهِ) ، (هُدًى للمتقين) .

فإِذَا مَا كان قوله تعالى **﴿ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ ﴾** هادٍ إلى كمالِه وعلوه في نفسِهِ ، وفِي ما أنزل من أجلِه . وكان قولُه تَعَالَى : **﴿ لَا رَيۡبَ ﴾** هادٍ على كمال تنزهه مِنْ كل نقصٍ ، فهو كلمةُ الله سُبْحانَه وَتَعالَى فإنّ قَولَه تعالى : **﴿ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ﴾** بيانٌ لشرط الانتفاع بهذا الكتابِ العليّ الكامل المنزه عن كل نقصٍ ، بيانٌ لما يجبُ أن يكونَ عليْه حال المتلقينَه السَّاعينَ إلى الفهمِ عن الله تعالى :

أن يكونوا متقين صراطَ (المغضُوب عليهم) : الذين يعلمون الحَقَّ ولا يعمَلون بِهِ وأن يكونوا متقين صِراطَ (الضَّالين) الّذين يعمَلون على غير علمٍ ، فمن لم يتق هذين الصّراطين لن يكون ذلك الكتابُ الذي لا ريبَ فيه هدًى لهم ، ولن ينتفعُوا بما فيه ؛ لأنهّم لن يُحسنُوا التلقّي عنه وفهمه[1] .

فشرطُ الانتفاعِ بالقرآن أن يتقِيَ العبدُ هذين الصِّراطين . وعلَى قدر اتقاء هذين الصّراطين يكونُ نصيبُ العبدِ من الانتفاع بالقُرآن . فبصّرنا سُبْحانَه

(١) تأويل «المغضوب عليهم» بأنهم اليهود ، وتأويل «الضّالين» بأنهم «النصارى» إنما هو بيان نبويّ وثيق النّسب إليْهِ صَلَواتُ اللهِ وسَلامُه عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ (جامع الترمذي : كتاب : تفسير القرآن . من حديث عدي بن حاتم) .

وَبِحمدِهِ من أين يؤتى القارئُ حرمانًا مِن الانتفاعِ بالقرآن ، ومِنْ أيْن يُؤتى عطاءً وافرًا متكاثرًا .

وكلُّ هذا مِن فيضِ رُبوبيَّته ورحمانيَّته ورحيميَّته الَّتي أنبأنا بِها في مستهَلِّ سُورة «أمِّ القرآن» فالحمْدُ لله ربِّ العالمين .

وجاء البيان أن القرآن عربي ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَـٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ (يوسف:٢) ﴿ إِنَّا جَعَلْنَـٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ (الزخرف:٣)

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَـٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴾ (طه:١١٣)

﴿ كِتَـٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَـٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ (فصلت:٣)

وبأنه بلسانٍ عربيٍّ مبين : ﴿ وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ (الشعراء:١٩٢-١٩٦)

أمّا نعتُه القرآن بأنّه «عربيّ» فليس نعتًا لمصدره فهُو إلهِيّ المصدرِ إنساني الغاية ، بل هو نعتٌ لمنهجِه في الإفهام ، فهو يكشفُ لنا عن ما يجبُ أن يكون عليه منهاج تلقيه .

ونعته بأنَّه بلسانٍ عربيٍّ مُبينٍ كذلك تقريرٌ لأنّ منهاجَ بيانِه عَن معانِي الهُدَى إنّما هُو مِنْهاجُ اللسانِ العربيّ فِي الإبانةِ والإفهام .

المنهجُ الأمثلُ في التلقّي والفهم لأيّ بيانٍ إنّما هُوَ هُو منهج الإفهام ، حتى يتحقَّقَ التَّواصلُ بين المتكلم البيان ومتلقِيه .

فإذَا ما كان الإفهامُ بلسان ما ومنهج ما ، فلن يتحقق لك أن تتلقاه وتفهمَه إلاَّ على وَفق مِنهاج هذا اللسانِ الّذي كانَ به الإعرابُ والإبانةُ والإفهامُ .

هذا يستوجبُ على المُتلقِّي أن يكونَ البصيرَ بالسُّنة البيانيَّة لمن يتلقّي عنه ، بكلِّ ما تحملُه كلمة «السّنّة البيانيّة» مِن بصر بالمُعجم الكلمِي ، وبِدلالتِه ، وبِمنهاج الدَّلالة ، وبِمُستوياتِها ظهوراً وخفاءً ، وإحكامًا واحتمالاً ، وقربًا وبعدًا . . إلخ ومِن بصرٍ بمنهاجِ التّركيب والتصويرِ . والبصرِ بمقاصدِ الإبانةِ ومغازيها . وضوابط تلقيها[1].

ونعته بأنَّه (مبين) هاد إلى الأساس العمدة في هذا البيان :

المفاصلة بين المعاني واتقاء تداخلها وتعاجنها بحيثُ لا تعرف حدود المعاني ومراحلها في حركتها . . .

(المبين) لا يدلُّ على الواضح ، ومن فسّر الإبانة والبيان بالوضوح فقد فسَّر الكلمة بلازم معناها .

الإبانة : مفاصلة بيْن حدود الأشياءِ مفاصلة تكشف عن حقيقة الأشياءِ وجوهرها وسماتِها ومعالمها ، ويترتَّبُ على ذلك أن تصير الأشياءُ المبانةُ معلومةَ المعالمِ والملامحِ ، وهذا لا يعنِي البتّة السُّفورَ بحيثُ يتساوَى النّاس في العِرفان بِها ، فهذا أمرٌ لا يكون ، والواقع يدفعه دفعًا .

* * *

تتجلّى لك قيمة هذا الضَّابطِ من جهةٍ ، وثقل القيام بالوفاءِ بحقه من جهةٍ أُخرى إِذا ما نظرت في ما قاله الإمام الشّافعيّ :

« ولسانُ العربِ : أوسعُ الألسنةِ مذهباً ، وأكثرُها ألفاظاً ، ولا نعلمُه يحيطُ بجميع علمِه إنسانٌ غيرُ نبيٍّ ، ولكنَّه لا يذهبُ منه شيْءٌ على عامَّتها ، حتَّى لا يكونَ موجوداً فيها مَن يعرفه .

---

(١) ينظر : الرسالة للشافعي ، تحقيق شاكر(م . س) . ص : ٤٩-٥٣، والموافقات(م . س) ٦٥/٢

والعلمُ به عند العربِ كالعلم بالسُّنة عند أهلِ الفقه ، لا نعلمُ رجلاً جمَعَ السُّنن فلم يذهبْ منها عليه شيءٌ »[1]

هي مقالة خبير بهذا اللسان خبرةً بلغتْ به حدًّا اتخذه فيه أهلُ العلمِ بهذا اللسان مصدرًا تؤخذ منه اللغة ، لا راوية لها[2] .

قوله : « أوسعُ الألسنةِ مذهباً ، وأكثرُها ألفاظا » جعل الاتساع للمذهب ، والكثرة للألفاظ ، وفي هذا ما يهدي إلى أنَّ اتساع المذهبِ (منهج الإبانة) يجعل هذا اللسان قادرًا على أن يجرِي في مضماره كلُّ ذي معنًى وإن دقّ ولطف ، فهو لا يضيق على ذي عقلٍ ينتج من دقيقِ المعاني ولطيفها ونادرها وبديعها ، فهو متسعٌ لكل معنًى صَحيح أنتجه عقلٌ نصيح ، فإذا عجزأحد عن أن يعربَ عمّا في قلبه من المعاني ، فمرجع ذلك إليْه هو ، لا إلى اللسان الذي يتكلم بِه ، ألا ترى أنّه اللسانُ الذي وسع معاني الهدي التي جاء بها القرآن ، فحملها إلينا ووسع معاني الهدَى التي أوحاها الله سُبْحانَه وَبِحمدِهِ لنبيه صلّى الله عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ وسَلّمَ فجرت على لسانه بيانا حكيما؟ فمثل هذا اللسان كيف يعجزُعن أي معنًى أنتجه أيُّ عقلٍ ، وإن عظُم واستفحل ؟

فالذين يتكلمون بكلم أعجمي ويقولون لا نجدُ لمعانينا في العربية ما يعربُ عنها ، إنما هذا دالٌّ على جهالتهم بهذا اللسان ، فلوأنَّهم قالوا لا نعرف في العربية ما يُعربُ عنه لكان ذلك أصدق في وصف حالهم ، لا وصف شأن اللسانِ نفسِه .

وكثرة الألفاظ مع قلة عدد الحروف ، وأصول الكلم (المواد) هاد إلى ما لهذه العربية من فضيلة الاشتقاقِ والتوليد مما يمنح المتكلم قدرة على أن يستولد

---

(١) الرسالة للشافعي (م . س) ص ٤٣ .

(٢) آداب الشافعي ومناقبه ، تأليف ابن أبي حاتم الرازي (ت: ٣٢٧هـ) تحقيق : عبد الغني عبد الخالق . نشر : دار الكتب العلمية ، بيروت . ط(١) عام : ١٤٢٤هـ ص ١٠١

من الأصل وفق منهاج العربية كلمة تتسع لمعناه . فلفتنا الشافعي إلى هاتين الفضيلتين في هذا اللسان مما يستوجب علينا أن نتعلم أولاً ، وأن نعلم أبناءنا ثانيا مهارتين :

مهارة العرفان بمذاهب الإبانة واتساعها ، والتطهر من التحجر في مذهبٍ من مذاهب النحاة ، فلسان العربية أوسع من عقل أي مذهب نحوي ، (علينا أن نقول وعليكم أن تتأولوا) أي تبحثوا لها في لسان العربية عن مذهب يتسع لما نقول . ، فالشعراء أمراءُ البيان كما قالها الخليلُ[1].

والمهارة الأخرى : القدرة على الاشتقاق والتوليد من الأصول وفق منهج العربية في التوليد والاشتقاق . ومهارة التوليد على مستوى الكلم تفضى بصاحبها إلى القدرة على التّوليد على مستوى المعاني والكلام .

اتساعُ لسان العربية منهاج إبانةٍ ومذهب إِفهام ، وكثرة ألفاظها وتنوعها في منهجِ دلالتها على معانِيها ، وفي مستوياتِ هذه الدّلالةِ من القربِ والبعد والظّهور والخفاء والإحكام والاحتمال . . . كلّ ذلك يجعلُ الإقدامَ على القيام لبيان بيان رسُول الله صلّى الله عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ وسَلّمَ حملاً ثقيلاً ، لا ينجُو المرءُ من معرة التَّقصير فيه إلا أَن يكون له من الله سُبْحانَه وَبِحمدِهِ عون وتسديدٌ ثم يكون للعبد من اتخاذِ الأسبابِ وامتلاكِها والاقتدار على استثمارها الكثيرُ .

---

(١) حفظت عن شيخي« عبد الكريم شعبان» رحمه الله تعالى أستاذ النّحو في كلية اللغة العربية عام ١٣٨٩هـ ، وأنا طالب في السنة الأولى كلمة مازلت أحملها عنه أحسن الله إليْه ، قال في المحاضرة الأولى : «النحوي لا يُخطئُ إذا تكلم ، ولا يُخطّئُ إذا سَمع »(اهـ)

وهذا من علم النحويّ باتساع مذاهب العربية في الإبانةِ والإعرابِ عن المعاني ، فله من القدرة على أن يجد لما سمع مَخرجًا في العربية ، فأدَّبنا أحسن الله تعالى إليه .

وشرحُ لسان الوحي يشترطُ فيه أن يكونَ القائمَ له قد بلغ في العلم بأسراره مبلغًا يبلغ فيه مبلغَ المجتهدِ بحيث يصيرُ فَهْمُ خطابه له وصفًا غير مُتكلّف ولا متوقف فيه في الغالب إلا بمقدار توقف الفطن لكلام اللبيب[1].

* * *

هذا الضابط بلغ فيه الشَّيْخُ مقامًا لا يخفى البتةَ على أحدٍ من تلاميذه وأقرانِه وكلّ من قرأ شيئًا ممَّا رقَّت يمينُه ، فإنَّ له من العلم بهذا المنهجِ ما جعله محطَّ أنظار أقرانِه قبل تلاميذه ، فهو ذو فراسة بيانيّة نافذة في أغوار الكلم وتراكيبها ، وكأنّي به قد بلغ في تمكنِهِ من هذا الأمرِ ما حمل الكلم وتراكيبها على أن تفتح مغاليقها ، وتلقِي أستارها متحببة .

ولذا يُدهشك وقد أبصر في الكلمة أو التركيب معنى استلَّه من منهج العربية في الدَّلالة على معانيها ، ولذا لا تكاد تجدُ عنده ما يُمكنك أن تتوهم أنّه قد حمله على الكلم أو التَّراكيب .

مِن هذا ما تراه في مثلِ قوله وهو يتدبّر بناء قول رسول الله صلّى الله عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ وسَلَّمَ : « مَنِ اقْتَطَعَ حَقَّ امْرِئٍ مُسْلِمٍ بِيَمِينِهِ فَقَدْ أَوْجَبَ اللَّهُ لَهُ النَّارَ وَحَرَّمَ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ » . ويهدينا إلى ما في بناءِ هذا البيان على قوله : (من اقتطع) وكيف أَنّ(مَن) هنا تحتمل أن تكون « اسمَ موصول » ، وأن تكون « شرطيّة » ثم يذهبُ بك لتبصر الفرق بين الاحتمالين ، وأيّهما هو الأعلى مقامًا ، وأوفرعطاءَ .

يقُول : « الحدِيثُ كما ترَى جُملةٌ واحدةٌ ، ولَكَ أن تعتَبرَ كلِمةَ (مَنْ) الّتي بُنِيَ عليْها الحديثُ « اسم موصول » ، وما بعدها صلةً ، وقولَه : « فَقَدْ وَجَبَتْ لَهُ النّارُ » هُوَ « الخبرُ » ، و« الْمَعطُوفً » داخلٌ فِي « الْمَعطوفِ عَليْهِ » ويكونُ الكلامُ

---

(١) ينظر الموافقات : ٥/٥٣-٥٧

الّذي فعلَ كَذَا أو يَفعلُ كَذَا ، فَلَهُ كَذَا وكَـذَا . ولَـك أَنْ تَعُـدّهَا شَـرطًا وقولَـه : « فَقَدْ وَجَبَتْ لَهُ النّارُ » جوابَ الشّرطِ ، وبيْنهما فرقٌ غامِضٌ جِدًّا .

وَأَصلُ الفرقِ أنَّ الصّلَةَ يَجبُ أَنْ تَكونَ قِصّةً مَعلُومةً لِلمخاطبِ حتَى يَصِحّ بِها تَعرِيفُ الْموصُولِ ؛ لأنَّ الأصلَ فِيهِ أَنَّهُ نكرةٌ ، وهذا يَقتضِي أن يكونَ حَدَثُ اقتِطاعِ الْحقُوقِ بِالأيْمَانِ حَدَثٌ مَعرُوفٌ عِندَ كلِّ مَنْ يَسْمَعُ هَذَا الْحدِيثِ

وَلَيسَ هذا داخلاً فِي دَلالةِ « مَنْ الشّرطِيَةِ » وَإِنّما هِي أداة تربِطُ حدثًا بِحدثٍ أعنِي وُجوبَ النّارِ وَحرمةَ الجنّةِ علَى الاقتِطاعِ .

وَهذا فِي رأيي أنسبُ لدلالةِ الحديثِ ، وأنَّ كلّ مَنْ كانَ أو يَكونُ مِنه اقتطاعٌ كَانَ ذلكَ مَعلُومًا أو غيرَ مَعلومٍ ، فَقدْ وَجَبتْ لَه النّارُ ، وحرّمتْ عَليْهِ الجنّةُ »[1]

يستهلُ الشّيخُ ببيانِ أنَّ بناءَ العِبارةِ جاء علَى نَحوٍ يَضعُ بيْن عَيْنيـك طَـريقينِ وأنّـك أنت الذي عليْه أن يُعمل كلَّ مدركاتِه لِيبصرَ أيّ الطريقين أرفعُ مقامًـا ، وأوفرُ نوالاً ، وأكرمُ عطاءً .

يقول : لَكَ أن تعتَبرَ كلِمةَ (مَنْ) اسم موصولٍ ، ولك أن تعدّها شرطًا .

وهو يقدّم لك في الذكرِ ما انتهى إلى أنّ غيرَه الأعلى ، وأنت تلحظ أنّـه قال فيه : (ولك أن تعتبرَ . . .) ، وأخَّرَ فِي الذِّكر ما سينتهِي إلى أنّـه الأعلَى ، وعبَّر بقولِه (لك أن تعدّها) فكأنّـه أشار بقولِه : (تعدُّها) أنّـه أولَى بالاعتداد .

وَهُو يسلُك هذا المَسلك : البدءُ بما لَيس هو الأَوْلَى ، لِيقيمَك عنـده لعلّـك تبصرُ فيه ما هُو لطيفٌ طريفٌ أو للتوثّق خلاءَه ممّا هُو الطَّريفُ اللَّطيفُ ، ثُـمَّ إذا ما فرغتَ من استفراغ وُسعِك حَمَلك إلى الوجهِ الآخرِ الأعلَى ، فأقَامك فيه تُبصِرُ ، وحينئذٍ يتَأتَّى لك فرقٌ بيْن الذي كان قبل ، والّذي كان الآن .

---

(١) شَرْحُ أحاديثَ منْ صَحِيحِ مسلم : ١/١٢٨، ١٢٩

التّرقّي من الأدنَى إلى الأعلَى فيه فتحُ بابِ التّطلعِ إلى الأسمَى وعدمِ الاكتفاءِ بما قُدّم ، فالقناعة في المعرفة ليست كنزًا لا يفنى[1]

ولو أنّـه قدّم الأعلَى ثُم تلاه بالأدنَي لَتوَهَّمَ القارئ أنَّ له أنْ يكتفي بـالأول ، وأن يُعرِض عَن الَّذي بعدَه ؛ لأنّـه أدنَى ، فكان في هذا صرفًا له عَنْ أن يتبصّـر بنفسِه أوَّلاً ، وأن يستشرفَ العطاءَ الأعلَى ثانيًا ، وهذا نهْجٌ مِن أنْهاج التَّربيةِ في القِراءةِ والتَّلقّي ، وهو مسلكٌ من مسالك صِناعة الرّجالِ الـذين لا يـأكلون إلا من عملِ أيديهم في زمنٍ يستعذبُ فيه الاسـتجداءَ والانتهـابَ والاسـتلاب مـن نصَّبوا أنفسهم بِحدِّ السّيفِ سادةً على شُعوبهم

وهو يهديك إلى أنَّ بيْن الاحتمالين والتقّديرين فرقًا غامضًا .

ونعته الفرقَ بالغُموض إغراءٌ لك بأن تَجتهد في أن تفتحَ أكمامَه بحُسنِ بصرك ، وَأَنَّ هذا ليس بالعسير عليك ، وأنَّ الذي سيقدمه لك بمَلكِك إنْ رغبتَ في أنْ تأكلَ مِن عملِ يدك أنْ تأكلَ ، ولذا يقدّم لك نهجًا فـي هـذا يؤوب فيـه ـ أحسن الله تعالى إليه ـ إلى الأصولِ الَّتِي حَمَلَها فِي باكر عمرِه مِن العلم

---

(١) روى الحاكم فـي المسـتـدرك بسنـده عَنْ أَنَـس ، قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « مَنْهُومَان لا يَشْبَعَان : مَنْهُومٌ فِي عِلْمٍ لا يَشْبَعُ ، وَمَنْهُومٌ فِي دُنْيَا لا يَشْبَعُ ». هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِ الشَّيْخَيْنِ ، وَلَمْ يُخَرِّجَاهُ وَلَمْ أَجِدُ لَهُ عِلَّةً» ورواه الطبراني في المعجم الأوسط والكبير ، والبيهقي في شعب الإيمان ، وصححه الألباني في صَحيح الجامع الصّغير وزياداته .

هذا الحديث قائمٌ على أسلوبيْن : الأول الإجمال والتفصيل ، والآخر : أسلوب المقابلة ، والعمدة هو أسلوب = المقابلة ، فهو الذي يقيم المرء أمـام هـذين المـذهبين : منهـوم في علم ، فلا يزداد إلا شرفًا وتحرراً من سطوة الجهلِ ، الـتي تتولـد منهـا كـلّ مـبيرةٍ مهلكة ومنهوم في الدنيا ، فلا يزداد إلا فقراً نفسيًّا وخضوعًا لمهانة الجشع التي تتولـد منها كل مذلةٍ

وهذان لا يجتمعان البتة : لا ترى طالبَ علم طالب دنيا . بيْن الطلبيْن عداءٌ مستحكم فمن استفحل منهما محق الآخر محقًّا . فانظر أين أنت .

بلسانِ العربيَّةِ ومَا غرسَه الأشياخُ الأعيان في طُلاب العلمِ مِن البَصرِ بطبائعِ الأساليبِ ، وما بيْنها من فروق ، كلُّ ذلك هُو بِه يسلُكُ بك مسلك التّربيةِ على الفتوَّةِ في القراءةِ والتَّلقّي والفَهم واستثمارِ مخزون عقلِك وقلبِك ، وأنْ لا تكونَ حامل علمٍ لغيره ، بل تكونُ صانعًا ممَّا هو موجودٌ منه عندك ما ليس بموجودٍ عند غيرِك ، وذلك جوهرُ النَّصيحةِ للعلمِ وطلابِه وأهلِه ، كذلك يصنعُ الشيخ الرّجال .

يُريك الفرقَ الجوهري بين طبيعة الدَّلالة في(مَن) الموصولة ، و(من) الشّرطية . يُريك أنَّ بناءَ أمرِ(مَن الموصولة) على أن يكون مُكسِبُها التَّعريف (جملة الصّلة) قد بلغ من الشّهرة حدًّا بالغًا يكونُ بملكه إكساب (من) التَّعريف ، فالشّرطُ في جملة الصّلة أن تكون أعرف أحوال المتكلم عنه . وأنَّ بناء أمر(مَن الشَّرطية) على الرَّبط بيْن حدثين[1].

---

(١) من أهل العلم مَنْ يفسّر هذا بأنَّ الثَّاني لا يكون إلا إذا كان الأوّل . تقول : مَن يزرْني أكرمْه ، فإكرامك له متوقفٌ على زيارته لك . والذي أراه أقرب أنَّ مبنى الشَّرط على أنّه إذا كان الأوَّل كان الثَّاني ، وليس الثَّاني لا يكون إلا إذا كان الأول ، لأنَّ الثَّاني قد تَكون له أسبابُ كَوْنٍ غير الأول ، فقد يتحقق إكرامُك له من غير زيارته لك . وما قولك : من يزرني أكرمه» إلاَّ إعرابٌ عن أنّه إذا تمت الزيارة فإنه لامحالة يتحقق الإكرام . ولا يلزم من هذا أنك تحقق أنه لن يقع منك الإكرام البتة إذا لم تتحقق منه الزيارة .

وما جاء في الحديث : «مَنِ اقْتَطَعَ حَقَّ امْرِئٍ مُسْلِمٍ بِيَمِينِهِ فَقَدْ أَوْجَبَ اللَّهُ لَهُ النَّارَ وَحَرَّمَ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ» . ليس الأعلى أن نقول يتوقّف وجوب النّار والحرمان من الجنة على اقتطاع حق امرئ مسلمٍ بيمينه ، لأنَّ وجوبَ النَّار قد يكون بغير هذا الذّنب . والأولى أن نقول إذا وقع الأول(الاقتطاع) وقع الثاني(وجوب النار والحرمان من الجنة)

لا أغفل عن أنّ السياق قد يحملُ إلى تأويل الشرط على أن الثاني لا يكون إلا إذا كان الأول ، كما في (من شهد أنه لا إله إلا الله وأن محمدًا رسُول الله دخل الجنة) ==

وبعدَ أن يقيمَ في بصيرتك مابيْن الضَّربين مِن فرقٍ ، يذهبُ بك فيُوقِفُك على مِعيار المفاضلة .

يُريك أنَّ الآنسَ بالسِّياق والقصدِ: سياقِ القولِ وسياقِ القراءةِ والتَّلقِّي والفهمِ، والقصد من الإفهام النبويّ أولاً والقصد من التلقِّي والفهم ثانيا أنّ الأخذ بأنّ (مَن) شرطية هو الأعلى مقامًا والأوفرُ عطاء والأكرمُ نوالاً ، ذلك أنّك إنْ جعلتَ الأعلى (مَن الموصولة) لَتَشَبَّثَ مُتشبّثٌ أنَّ هذا الجزاء : (وجوبُ النَّار والحرمانُ مِن الجنّة) متوقفٌ على صَيرورة الجريرة مشهورةً عَن فاعلها ، وأنّه مِمَّن مَرَدَ عليها ، فمَن فعلها مرّة ومضَى فلا عليْه ، كما تراه في مسلك غيرِ قليلٍ مِمَّن ترى في عصرك ومصرك

فهذا المذهبُ في التّأويل مفسدٌ لحركةِ الأمَّة ، ومعُينٌ على انتِشارِ جريرةِ الاقتطاعِ والانتهابِ والاستلابِ .

والبيانُ النّبويُّ مبنيٌّ على التَّرهيبِ مِن أنْ يَحومَ المرءُ حول هذِه الجريرةِ مجرَّد حَومٍ ، ومَن ثَمَّ كان الأسلوبُ الَّذي لا يفهمُ مِنه الاعتدادُ بتكرار الجريرةِ واشتهارِها هو الأعلى في بابِ التأويلِ ، وهو الأوفقُ بمنهج النُّبوَّة في الإبانة والتّربية والأخذِ باليدِ علَى طريقِ الصَّفاءِ والتَّزكِيَةِ .

كذلِك يعلِّمُنا الشَّيخُ كيف نجعلُ الواقعَ : واقعَ مِنهاجَ الإبانةِ النّبويّة وِمنهاج التَّربيةِ مِن جِهَةٍ ، والواقعِ الَّذِي هُو سِياقُ القِراءةِ وَالتّلقّي والفهمِ عيارًا للتأويل والترجيح .

== دخول الجنة لا يكون إلا من تحقق الشهادتين ، فإن لم تتحققا لا يتحقق الدّخول .
والسياق هنا سياق مقالي أي طبيعة مادة القول ، وليس السياق التركيبيّ ، فكثيرًا ما تكون طبيعة مادة القول أو المُتكلّم فيه له حكمُ السلطان على طبيعة التركيب . ممَّا يوجب على المتفهمِ البيانَ أن لا يمارس تفهمه بطريقة تطبيقية صمّاء للقواعد الأغلبيّة . علينا أن نفرق بين ما يؤخذ من طبيعة مادة القول ، وما يؤخذ من طبيعة النظم . فليس النَّظم وحده هو رافد الإفادة . وإن كان هو سيّد روافدها .

وهذا يُقررُ في قلوبنا نَهجًا قويمًا في التَّأويل والتّرجيح : ليس كلُّ ما أمكنَ عربيّة أو عقلاً صحَّ الأخذُ به في التأويلِ والتّرجيح ، فإنَّ من وراء ذلك ما هو أحكمُ وأمجدُ وأحمدُ .

* * *

واسمعه يكشفُ لك عن حكمة الإبانة بقول النبيّ ﷺ : « وَحَرَّمَ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ ». من بعد قوله : « فَقَدْ أَوْجَبَ اللَّهُ لَهُ النَّارَ » . ووجوب النَّار دالٌّ على الحِرمان من الجنّة .

يقول الشَّيخ : « وجملةُ : (وَحَرَّمَ الله عَلَيْهِ الْجَنَّةَ) فيها دقائقُ منها الطباقُ بيْن (أوجب) و(حرّم) وهوطباقٌ خفيٌّ ؛ لأنَّ (أوجب) توجبُ الفعلَ ، و(حرّم) توجبُ نفي الفعلِ ، ثمَّ فيه الطباق بيْن « النارِ » و« الجنّةِ » ثُم المقابلة بيْن الجملتينِ[1] .

(١) كأنّي بالشيخ يشيرُ بقوله بعد(ثُمَّ المقابلة بيْن الجُملتين) إلى أن المقابلة واقعة بيْن مضموني الجملتين فوق وقوع الطباق بين بعض مكوناتهما ، وكأنَّه يشير إلى أنّ المقابلة لا يكفي أن يكون الطباق بيْن بعض مكونات الجملة الأولى ومكونات الجملة الثانية دون أن تكون مطابقة بيْن المضمون الكلّي لكل جملة .
أنت إذا قلت : « سافر الرّجلُ وابنه وكلمت المرأة وبنتها » لم يكن من قبيل المقابلة بل من قبيل الطباقِ المتعدد بين (الرجل/ ابنه) و(المرأة/ بنتها) ؛ لأن مضمون كلّ جملة ليس ضد مضمون الجملة الأخرى . على الرغم ممّا بين (الرجل ، وابنه) من تقابل بالإضافة كذلك بين(المرأة وبنتها) وما بين (الرجل ، والمرأة) من تقابل ، وبين(الابن والبنت) من تقابل إلا أن ذلك لا يجعل من الجملتين مقابلة ، لأن مضمون الجملتين غير متقابلين ، بلْ هو عندي من الطباق المتعدد المناظر لما يعرف بالتشبيه المتعدد الذي جمع فيه بين المشبهات ثم جمع بين المشبه بها . كما في محمد في كرمه وشجاعته وحزمه كالبحر والأسد والسيف .
و« المقابلة » عندي ضربان كالتشبيه المركب :
الضرب الأول : تكون بين مضمون الجملتين من جهة ، ومطابقة بيْن مفردات ==

وهذا كلّهُ تحليلٌ للعبارةِ اللغويّةِ ، أمَّا المعنَى ، فإنّ وجوبَ النارِ يسْتلزِمُ

== الجملة الأولى ، ومفردات الأخرى ، فهي منهجًا كمثل ضرب التشبيه المركب حين يكون تقارب بين أجزاء المشبه المركب،وأجزاء المشبه به المركب. كما في قول الله تعالى :

﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ ثُمَّ لَمۡ يَحۡمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلۡحِمَارِ يَحۡمِلُ أَسۡفَارَۢاۚ بِئۡسَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ (الجمعة:٥)

والضرب الآخر : تكون بين مضمون الجملتين دون أن يكون بين مفرداتِ كلٍّ مطابقة ، كالمقابلة بيْن سورة «النصر »و« المسد»

والذي تجده في الحديث القدسي من قول الله سُبْحانَه وَتَعالَى فيما يرويه عنه رسوله صلّى الله عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ وسَلّمَ :

« إِنَّكُمْ تُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا . . . » . (مسلم : البر والصلة والأدب) بين قوله : « إِنَّكُمْ تُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ » وقوله «وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا» مقابلة بين حال العبادِ وشأن الله سُبْحانَه وَتَعالَى . وهي مقابلة تصور عظيم رحمة الله تعالى ورأفته بعبادِه ، وتصوير عظيم ترغيب الله تعالى عباده في الهودِ إليْه والإنابة وفي هذا من تثقيف النفسِ ما فِيه . .

فإن صحَّ الذي فهمتُ ـ وأرجو أنْ يكون صَحيحًا ـ يكونُ تعريف المقابلة « أن يؤتى بمعنيين متوافقين أو معانٍ متوافقة ، ثم بما يقابلهما أو يقابلها على الترتيب والمراد بالتوافق خلاف التّقابل» يفتقرُ إلى شرط هو التقابل بين مضمون الجملتين أيضًا كما في قول الله تعالى : ﴿ فَلۡيَضۡحَكُواْ قَلِيلٗا وَلۡيَبۡكُواْ كَثِيرٗا ﴾ (التوبة:٨٢)

فشرط المقابلة تحققها بين المضمونين وهذا يُمكن أن نمده فنجعلُ المقابلة كائنة بيْن سورتين ، وعلى هذا يكون عندنا طباقٌ مفردٌ وطباقٌ متعدّدٌ وطباقٌ مركب هو الذي نسميه (مقابلة) ولا نسمي غيره به ، وإفراده باسم من أنّه أعلى من حيثُ الصّنعةُ حيثُ التركيبُ أحوج إلى الصنعة ، لا نفرده باسم من حيثُ مطابقته لمقتضى الحال ، فقد يستوجبُ الحال طباقًا مفردًا ، فكل في موقعه بليغ ، والطباق المركب في القرآن أكثرُ حضورًا .

ونحن في حاجة إلى دراسات جادة فيه تكشف عن مقتضياته وعن صوره ومقتضى كل صورة ، وموقعه من الغرضِ المرحليّ والمحوري للسورة والفروق التركيبية بين كلّ صورة ، وأثر ذلك في المعنى ، وفي نفس المتلقّي .

تَحريمَ الجنّةِ ، فلِماذا ذكرتْ جملة : «وَحَرَّمَ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ» ما دام مدلولاً عليْها بالتِي قبلها؟

والذي عندِي فِي هذا أنَّ الحديث بُنيَ على التّشديدِ والتّغليظِ حتّى ينكفَّ النّاسُ عَن حقُوق غَيرِهم [(١)] وحتّى تُقطع ألسنتهم ، ولا يَحلِفونَ يَمينًا فاجرةً بالألسنةِ الّتي خلقها مَن يَحلِفونَ بِه ، لِيقتطعوا حقّ غيرِهم ، وحتّى لايكونَ فِي نفسِ أحدٍ أن يطمعَ فِي قَضيبِ أراكٍ فِي ملك غيرِه .

وكلّها معانٍ جليلة يدعُو إليها الحديثُ ، ويكفُّ عن أضدادها كفًّا زاجرًا حاسمًا .

وسيّدنا رسُول الله صَلَواتُ اللهِ وسَلامُه عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ يعلمُ أنَّ الله تعالى لا يغفرُ أن يُشرك بِه ، ويغفرُ ما دونَ ذلك لِمنْ يشاءُ ، وأنَّ المقتطعَ حقّ غيره باليمين الفاجرةِ داخلٌ فِي هذه المشيئةِ ، ولذلك يُحملُ كلامُهُ علَى أنـه تحرّم عليْهِ الجنة ، فلا يدخلَها بدون سابقةِ عذاب ، وتجبُ له النّارُ ما لَم تتداركُه المشيئةُ ، فهذا التَّشديدُ ، وهذا التَّنفيرُ وراءه القاعدةِ التّي قلتُ : إنها تَزولُ الرّاسِيات ، ولا تزولُ ، وإنّها ممَّا أجمعَ عليْه مَن يُعتدُّ بإجماعهم مِن علماءِ السُّنة رضوان الله عليهم» [(٢)]

---

(١) قوله : «والّذي عندِي فِي هذا . . . » كأنـّه يلفتك إلى أنّ لك بل عليْك أن تجتهد في أن تبصر وجهًا آخر ، وألا تستغني بما قال عن أن يكون لك ما تقول ، وأن في الأمرِ متسعًا .

وهذا من حملِه القارئ على ألا يكون إمّعة واضعًا في عنقه ربقة التّقليد؟ فالتقليدُ غير المؤسس على مراجعة نافذة واعية هو ضربٌ من العبودية .

وقول الشيخ «بني على التشديد ...» لا يُفهم منه أنَّ بيان النّبوّة قائمٌ على المبالغة المتجاوزة حدّ الحقِّ في التصوير ، معاذ الله تعالى أن يكونَ ، بل هذا التَّشديدُ هو المستوجبه واقعُ الإثم والجريرةِ الَّتي يُتكلمُ فيها .

(٢) شَرْحُ أحاديثَ منْ صَحِيحِ مسلم : ١٣٢/١، ١٣٣.

جاءت جملة « حَرَّمَ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ» . ومنطوقها مؤكّدًا مفهومَ سابقتها « أَوْجَبَ اللَّهُ لَهُ النَّارَ» . وكان مقتضَى الظاهر ألا تأتي معطوفة بـ(الواو) كما هو ظاهرٌ قاعدة الفصلِ لكمالِ الاتصالِ عندَ البلاغيين .

عدَل بيانُ النّبوّة هنا عَن المعهودِ في هذا ، فأتى بـ(الواو) لا لتحققَ وصلاً بيْن الجُملتين ، فهُو مُتحقّقٌ على كَمالِه مِن غيرِها ، بلْ لِتحقّقَ لفتًا إلى عُنصرِ المُغايرة بيْن الجُملتين .

نزع (الواو) مِن مِثلِ هذا يكونُ فيه نظرٌ إلى ما بيْن الجُملتين من اتفاق واجتماع ، ويكونُ الإتيان بـ(الواو) مَنظوراً فيها إلى ما بيْن المُعنَيين مَن تغايرٍ يُرادُ أن يَمنحَ حقّه مِن التلقّي والفَهم ، وكأنَّ هذا « المُقتطع » عُوقب بأمرين : بالتَّعذيبِ في النَّار وبالحِرمان مِن الجنَّة فاجتمعَ عليْه الأمران .

أمَّا دُخولُه النَّار فَبعدلِ الله تعالى استوجبَه العَبدُ على نفسِه بفعله ، وكان يُمكنُه أن يَقيها ذلك إن لَم يقتطِع وإن لم يجترئ على ربّه سُبْحانَه وَتَعالَى فأقسمَ باسمِه كاذبًا ، وأمّا عَدمُ دُخولُه الجنة فهُو مِن حِرمان الله تعالى له مِن فضلِه .

وكأنَّ اللهَ تعالى يَمنح فضلَه لِمن وفَّى نفسَه المخلوقة لله تعالى حقَّها عليه ، فيجعلُ في مقابل حفاظِه على حقِّ نفسِه المخلوقةِ لله تعالى عليه تفضل الله تعالى عليه بإدخالِه الجنة . وكأنّه سُبْحانَه وَتَعالَى ينادِي علينا : « أكرمُوا أنفسَكم يكرمْكم خالُقها .

وخروجُ البيان عمَّا هو مقتضى الظَّاهر في عطفِ المؤكِّد على المؤكّد غيرُ قليلٍ في بيان الوحي وبيان الإبداع ، وهذا يكونُ فيه منظوراً إلى السِّياق والقصدِ ، وأنَّ عُنصرَ المُغايرة هُو المقدّم بالعِناية تلقيًا .

وهذا يَهديك إلى أنَّ السُّلطان في العقلِ البلاغيّ ليس للقواعدِ الأغلبية بل للسّياق والقصدِ قبلَ القاعدةِ الأغلبية ، فالقاعدة يُعدل عنها أمّا السِّياق والقصد فلا يُعدلُ عن مقتضاهما .

والشّيْخُ فِي قولِه : « فهذا التشديدُ وهذا التنفيرُ وراءه القاعدةُ التي قلت : إنها تزول الراسِياتُ ولا تزول . . . » وهي أنّ الكبائر التي تقع من المسلم وإن مات ولم يتب منها لا توجب عليْه الخلود والتأبيد في النار كما عليه الخوارج ، بل من قال « لا إله إلا الله » مصدقًا بها قلبُه مؤذنٌ بها لسانُه ومات على ذلك هو من أهلِ الجنة في مآل أمرِه ، وإن فعل ما فعل ما لم تنقض الشّهادة .

وهو يلحُّ على تقريرِ هذه الحقيقة في أكثرَ من موضع من سِفرِه في قلب القارئ لما يُحيط بالأمَّة من نعيقِ التَّكفير بالكبائر . وقد ابتليت الأمة بأمرين فادحين :

الأوّل : المسارعة بالحكم بالكفر ، قد بات التّكفيرُ أيسرَ على ثلةٍ من التّفسيق بل ثمّ نابتة من طلابِ العلمِ الخلاء من الحكمة يتهمون غير قليل من العلماء بفساد العقيدة وإن لم يجترجوا كبيرة لمجرد أنّه خالفه في تأويل آية ، أو حكم شرعيّ .

الآخر : الامتناع عن تكفير من يجب تكفيره . فكثيرًا ما نسمعُ من بعض الشيوخ في وسائل الإعلام يقول إنه لا يكفر أحدًا . بل ويترحم على من مات نصرانيا أو يهوديًّا .

هذا عجيبٌ ، كيف لا تكفر من يكفره القرآن والسنة ، أيمكن أن تقول عن غيرِ المسلم إنه ليس بكافرٍ إن مات على كفره كان من أهلِ النار خالدًا فيها.؟

الحق الذي نلقَى الله تعالى عليه أنّا نكفّر من لم يشهدْ بقلبِه ولسانه معًا أنّه لا إله إلا اللهُ وأن محمدًا رسول الله ، ولم يتبرأ من كل دين يُخالف دين الإسلام . لأن من لم يكفر من كان كفره صريحًا هو مثلُه . لأنّه إقرارٌ منه بأنّه على حقٍّ ، وهذا يُخرج صَاحبه من الملَّة .

الشيخُ حفي بالتَّرهيب من خطر التَّكفير ، وإخراج من يشهدُ أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسُول الله من الإسلام بالكبائر .

* * *

واسمعه يتدبَّر ما رواه مسلمٌ من قول سيّدنا رسول الله صَلَواتُ اللهِ وسَلامُه عَلَيْهِ وعَلى آلِهِ وَصَحبِهِ : « خِيَارُ أَئِمَّتِكُمُ الَّذِينَ تُحِبُّونَهُمْ وَيُحِبُّونَكُمْ وَيُصَلُّونَ عَلَيْكُمْ وَتُصَلُّونَ عَلَيْهِمْ وَشِرَارُ أَئِمَّتِكُمُ الَّذِينَ تُبْغِضُونَهُمْ وَيُبْغِضُونَكُمْ وَتَلْعَنُونَهُمْ وَيَلْعَنُونَكُمْ » . قِيلَ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَفَلاَ نُنَابِذُهُمْ بِالسَّيْفِ فَقَالَ « لاَ مَا أَقَامُوا فِيكُمُ الصَّلاَةَ وَإِذَا رَأَيْتُمْ مِنْ وُلاَتِكُمْ شَيْئًا تَكْرَهُونَهُ فَاكْرَهُوا عَمَلَهُ وَلاَ تَنْزِعُوا يَدًا مِنْ طَاعَةٍ » .

يتلبث عند قول النبي ﷺ « الَّذين تُحبونَهم ويحبونكم » ، واصطفاؤه فعل المحبة ، وصيغته ، وتقديمه (تحبونهم . . .) يقول : « قولُه عليْه السَّلام : « الّذين تُحبونهم ويُحبونكم » فيه نفحةٌ من البيانِ العالِي ، وذلك ؛ لأنـّه عليْهِ السّلام لم يقلْ الذين يعدِلون فيكم أو الّذين يقُومون علَى رعايتكمْ ، ورعايةِ المُحتاجين فيكم ، ومثل هذا هو المتوّقعُ عند ذكرِ الولاةِ وإنّما قال « يُحبُّونكم » فاستوعبُ كلّ ما يفعلُهُ لَكمْ مَن يُحبّكم منْ رعايةٍ رشِيدةٍ لَكم ولأولادكم ، ولأحفادكمْ من تعليمٍ وَصِحة وتقدّم في البلاد .... إلى آخرِ ما يزرع الحبّ فِي قلوبِ المواطنين.

وقدّم قولَه : (تُحبُّونَهُم) على قوله (ويُحبّونكم) ليشير إلى أنـّهم يقُومون ، وهم صَادقون على خدمتكم ، فتحبونهم ، ولم يصنعوا ذلك اجتلابًا لمحبتكم ، وإنما أداءً لواجبٍ ، لابدَّ أن يكونَ .

ولو قدّم (يُحبونكم) لربّما أفادَ أنّـنا نُحبّهم ، لأنـّهم أحبّونا ، ولـيس هـذا بِمرادٍ ، وإنّما نُحبهم لِصدقِهم ، وجِدّهم ..

وقوله عليْه السّلام : (وتصلّون عليْهم ويصلّون عليكم) الصلاة معناها الدعاء والفعلُ المضارع من هذا الذي قبله معناه أنـّه حبٌّ يَتجدّدُ ، وصَلاةٌ تتجدّدُ ، وذلك بتجدّد إنجازاتهم النّاهضَةِ بالبلادِ ، وبتجدّد تجردهم ، وبعدِهم عن الرِّيبةِ ، وأنـَّهم لا يقدِّمون إلا أصحابَ الكفاءاتِ . . . » (١)

---

(١) شَرْحُ أحاديثَ منْ صَحِيحِ مسلم : ١/١٠٢، ١٠٣ .

مقالُه هذا نفتقر إلى شيْءٍ من المكثِ فيه ؛ لنتبين بعضًا ممّا هو مكنونٌ فيه من الجوانب التَّربويَّة ومنْ جمالِ البيان النّبويّ :

قوله : « لأنّـه عليْهِ السّلام لم يقلْ الّذين يعدِلون فيكم أو الّذين يقُومُون علَى رِعايتكمْ ، ورِعايةِ المُحتاجين فيكم ، ومثلُ هذا هو المتوّقعُ عند ذكرِ الولاةِ »

هذا من بابِ ما يعرفُ بالسّياق التبادليّ الذي يناظرُ ما هـو قـائمٌ في البيـانِ بما يُمكن عربية أن يُقالَ .

وهو نهجٌ حثَّ عَليهِ الأعيانُ من الأئمةِ ، وهو يُبِينُ لنا عن قيمةِ الاختيارِ بيْن البدائلِ المُمكنةِ ، ومـا يقتـضِـي وجـهًا دون آخـر مُمْكـنٍ عربيّـة لا سِياقًا ، وعبدُ القاهر قد أكّدَ هذا : « واعلمْ أنَّـه إذا كان بيِّناً فِي الشَّيْءِ أنَّـه لا يَحتمِلُ إلاّ الوجْهَ الّذي هو عليه حتَّى لا يُشْكِلَ ، وحتَّى لا يُحْتاجُ في العِلم بأنَّ ذلك حقُّه وأنّـه الصَّوابُ ، إلى فكْرِ ورويّةٍ ، فلا مَزيَّةَ[1] .

وإنّما تكونُ المزيّةُ ويجِبُ الفضلُ إذا احتمَلَ في ظـاهِر الحـالِ غـيرَ الوجـهِ الَّذِي جاءَ عليه وجهاً آخرَ ، ثمَّ رأيـتَ الـنفسَ تَنْبـو عـن ذلـكَ الوجـهِ الآخـرِ ، ورأيتَ للذي جاء عليه حُسْناً وقبولا تعدمهما إذا أنتَ تركْتَه إلى الثاني »[2]

بل يُمكن أن يكون للوجه المتروك قيمة إلا أنها من دون المذكور ، فيكـون في اختيـارِ الأحسـنِ وتـركِ الحَسـنِ دِقّـةً تعلُـو دقّـة اختيـارِ المَقبـول وطَـرح المرفوضِ .

وممَّا يَحسُـن بكـلّ شيخٍ أن يُحسـنَ بـه إلى تلاميـذِه أن يقيـمَهم في سياقِ اكتساب مهارة الاستبدال ، ورؤية الفروق بيْن ما جاء به البيان ومـا يقـام مقامَـه

---

(١) أي فلا مزية للمتكلم في هذا ، وإن تكن هنالك مزية ترجع إلى اللغة نفسِها ، فهنالك ضربان من البلاغة : بلاغة ترجع إلى اللغة نفسِها ليْسَ للمتكلم في ذلك فضل كتقديم أدوات الاستفهام أوالنفي ، ونحوذلك ، وفي كتاب « الخصائص » لابن جني فيض من ذلك . وبلاغة ترجع إلى المتكلم بها ، وهذ ما يلتفتُ إليْه البلاغيون . .

(٢) دلائل الإعجاز : ص ٢٨٥ فقرة : ٣٣٥ .

على مستوى الكلم في سياقها ، ومستوى النَّظم ، في سياقِه فيجعلُ كـلّ طالـبٍ من طلاب العلم يُقيمُ مقامَ الحاضر في البيان ما يُقاربُه ثُم يوازنُ بيْن الأمـرين ، فيرَى ما بيْنهما مِن مفارقة في المعنـى ، وفي الدَّلالـة عليْـه مَـع السّـعي إلى أن يضعَ يده على موضعِ الحُسن أو غيرِه ، وأن يُـبينَ عـن العلـة بعبـارة كاشـفة . فبِمثلِ هذا يكون لعلمِ البلاغةِ العربيِّ في قلب طالبِ العلمِ حضورُ الملكة الـتي لا تفارقِه .

وهذا فيما أذهبُ إليْه أنفعُ لطالـب « علـمِ البلاغـةِ العربـي » مـن أنْ يكتفِـيَ بحفظِ كلّ مذاهبِ العلماء وآرائهم في كلّ قضية ومسألةٍ من قضايا علم البلاغة غيرَ آخذٍ بمسلك الموازنةِ بين ما هوقائمٌ وما هو محتملٌ .

* * *

الأهم هنا أنّ شيخنا يلفتنا إلى ما في البيان من العدول عمّـا يقضـية ظـاهر سياقِ القول ، والعدولُ عن ظاهر الحال هو الغالبُ على البيانِ البليغ ، فلِخروجُ الكلام على نحوٍ لا يتوقع فيه من الفجاءة الخالقة لمتعةِ الدَّهش ولذته ما فيـه ، وكلُّ ما هو معهودٌ مبذول قلّما تلتفت النفسُ السَّوية الماجدة إليْه ولذا كان من جمال مثوبة أهل الجنة فيها أن ما فيها من النّعيم لا يخطر على بال أحد منهم البتة ، وأنه متجدّدٌ ، لا يشعر أهل الجنة أنـّه قد سبق لهم به لقيا فكل يوم كأنـه أول يوم يدخلها .

وفي هذا العدولِ عن المتوقع أثرٌ بالغ في تقريرِ المعنى في نفسِ السّـامع ، وهـذا مـن بِرّ المـتكلم بمعانيـه ورعايتـه وحياطتـه أولاً حيـثُ يمكّـن لهـا في القلوب ، ومِن البرّ بسامعِيه أيضًا ، فهو يعينُهم على أن تبقى المَعرفةُ نافـذة في قلوبِهم مَكينة ومَحفوظة مِن عَوادي الغفلة فضلا عَن النِّسيان .

وقول الشّيخ : « وقدّم قولَه : (تُحبُّونَهُم) على قوله : (ويُحبونكم) ليشيرَ إلى أنـّهم يقُومون ، وهم صَادقون على خـدمتكم ، فتحبـونهم ، ولم يصـنعوا ذلـك

اجتلابًا لمحبتكم ، وإنّما أداءً لواجبٍ ، لا بُدَّ أن يكونَ .» فيه التفاتٍ إلى تدبر خصائص الترتيب بيْن ما كان تقديمه لأمر لا يرجع إلى معنى من معاني النحو، وحكم من أحكامه ، بل إلى أمرٍ يرجع إلى حالِ المتحدث عَنه ، والمتحدثِ إليْهم ففي ذلك ما يهدِي إلى أنَّ أسرار النظم ليست بمنحصرة في توخِي معاني النحو وأحكامه فيما بيْن معاني الكلم في بناء الجملة أو فيما بيْن معاني الجمل الواقعة موقع الكلم في بناء الفقر ، بلْ منها ما يرجعُ إلى ما وراء ذلك .

عبدُ القاهر حين أبان عن أنَّ النّظم توخي معاني النّحو فيما بيْن معاني الكلم على وفق الأغراضِ والمقاصد لم يكن بذلك محاجزًا عمَّا وراء ذلك ، بل هو هادٍ إلى المبدأ والأساس الذي يبنى عليه .

والوقوف عند ما وقف عنده عبد القاهر في هذا البابِ ، وغيرِه عقوق بمنهج الرّجل . فحقه علينا ـ طلاب العلم ـ أن نفعل فيما ورَّثنا ما فعله هو فيما ورَّثَه أسلافه من العلم . ﴿ **هَلۡ جَزَآءُ ٱلۡإِحۡسَٰنِ إِلَّا ٱلۡإِحۡسَٰنُ** ﴾ (الرحمن: ٦٠).

تبصّرُ أسرار بلاغة التقديم أمتع في باب تقديم ما ليس له رتبة إعرابيّةٌ

والتشاغلُ عن ذلك فيه من الغبن للنفس ما فِيه ، وعُظم ما في بيانِ الوحي قُرآنا وسنة من هذا البابِ الذي ليس له رتبة إعرابية . وهو أوفر عطاءً وأوسع ميدانًا ، وأعمق غورًا ، ألا ترَى أنَّك بحاجة بالغة جدًّا إلى فيضٍ مِن الفراسة البيانيّة ومهارة التدبّر والتّذوّق لتتبصر أسرارَ بلاغةِ تقديم سورة « الفلق» على سورة « الناس»

ما يزال في باب التقديم في بيان الوحي قرآنًا وسنة ما لم يستزرع ، يحتاج إلى

أخي عزماتٍ لا يريد على الذي	**يهم به من مقطع الأمر صاحبا**
إذا همّ لم تردع عزيمةُ همه	**ولم يأت ما يأتي من الأمر هائبا**
إذا هم ألقى بين عينيه عزمهُ	**ونكب عن ذكر [العَوائق] جانبا .**

يلفتنا الشَّيْخُ إلى أنَّه إذا ما كان لوليّ الأمر حقٌّ على شعبِه ، فإنَّ لهم عليه حقًّا ، وهو مكلّفٌ بأن يبدأ بأداءِ ما عليْه ، ثم يطلبُ حقه من السَّمع والطّاعة في المعروف ، ومِن التَّقويم إن أخطأ . . . فوليُّ الأمر حقّ شَعبه عليه مقدمٌ على حقّه عليهم ، لأنّه صاحب سّلطان وقوة ، فالأقوى هو الأولى بأن يبدأ بأداء ما عليه لمن هو دونه ، فعلى وليِّ الأمرِ أن يبدأ بإكرامِ شعبِه ورعايتِه وحمايتِه وهدايتِه إلى الَّتي هي أقومُ ، وحينئذٍ يكونُ مِن شعبِه محبتُهم له .

وفي هذا العدولِ عن المتوقعِ أثرٌ بالغٌ في تقريرِ المعنى في نفسِ السّامع ، وهذا من بِرّ المتكلم بمعانيه ورعايتِه وحياطتِه أوَّلاً حيثُ يمكّنُ لها في القلوب ، ومِن البرّ بسامعيه أيضًا ، فهو يُعينُهم على أن تبقَى المعرفةُ نافذةً في قلوبِهم مِكينَةً ومحفوظةً مِن عوادِي النِّسيان أو الغفلةِ .

* * *

وفي قول الشيخِ : « ولو قدّم (يُحبونكم) لربّما أفادَ أنّنا نُحبّهم ، لأنَّهم أحبّونا ، وليس هذا بِمرادٍ ، وإنّما نُحبهم لِصدقِهم ، وجِدّهم » بيان أنّ بيان النّبوة يهدِي إلى أنّ ولي الأمر يستحق المحبة من شعبِه بصدقِه في رعايته ، لا مكافأة لهم بمحبته لهم ، فهو مكلفٌ بالصّدق والإتقان في ولايته وإن لم يتحقق له محبتهم له ، لأنه إنما يعامل الله سُبْحانَه وَبِحمدِه في شعبه ، ، فشعبه ليس طرفًا في التعامل ، بل هو محلّ التعامل مع الله سُبْحانَه وَتَعالَى ، فعليْه أن يفرقَ بيْن طرف التَّعامل ، ومحلِّ التَّعامل ، فإذا فعل حمله ذلك الفهم القويمُ إلى أنْ يبدأ بالصِّدق فيلقي الله سُبْحانَه وَتَعالَى المحبة في قلوب شعبه .

والله تعالى يقُول لرسُولِه صلّى الله عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ وسَلّمَ : ﴿ **هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٦٢ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ** ﴾ (الأنفال:٦٢،٦٣)

أمّا أنهم يحبونه لأنه يُحبُّهم وإن لم يقمْ بما عليه لهم من تقرير الحق ونصرِه وصناعةِ الخير ونشرِه، فليس هذا هو النهجُ الأقوم. وفي هذا رسمٌ لمعالم العلاقة بيْن السُّلطان وشعبِه[(١)].

وبقوله: «وإنّما قال «يُحبُّونكم» فاستوعبً كلّ ما يفعلُهُ لَكمْ مَن يُحبّكم» يلفتنا إلى ما في اصطفاء كلمة (يحبّونكم) من تحقيق بلاغة إيجازِ القصر، فهو مِن جوامع كلمِه صَلَواتُ اللهِ وسَلامُه عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ، فهو يَصطفِي من الكلم ما هو فتيٌّ مقتدرٌ عَلى أن يحملَ في رحمِه فيضًا مِن دقيقِ المعانِى ولطيفِها وطريفِها، فيُغنِي عن ذكر كثيرٍ، وهذا من عناية رسُول الله صَلَواتُ اللهِ وسَلامُه عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ بالوقتِ، فلا ينفقُه في بسط يُغني عنه إيجازٌ، وفيه أيضًا إقراءٌ لسامعيهِ: يَصطفِي لهم ما يحملُهم إلى التّبصُّرِ والتَّفكُّر في تَثويرِ كلمه وكلامه عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وصَحبه الصّلاة والسّلامُ، فيَسْتطعِمهم لذَّةَ التفكيرَ والتدبّر والتذوّق، فيشعرون بنعمة اصطفاء الله تعالى لهم وتكريمهم بنعمةِ الفهمِ، فيقبلون على ربّهم عَزّ وجلَّ إقبالَ المُحبِّ لِمن أنعمَ عليهم، ويعرفون لله تعالى فضله. فكلُّ من ذكَّرك بنعمة الله تعالى عليك فقد أحْسن إليك وذكَّرك أيضًا بمقامك عند ربك سُبْحانَه وَبِحمدِه، فتقومُ مقامَ العُبوديّة بيْن يديه سُبحانه وتعالى.

---

(١) محبةُ الشَّعب لولي أمرِه ملكًا أو رئيسًا أو مادون ذلك لا تمثلُها محبةُ طائفة من حولِه ينتفعون بقربهم منه أو ينتفعون بمسلكه المخالف لمرادِ الله الشرعيّ على نحو ما تراه من محبة طائفة من الناس لحاكم غشوم ظلوم، فمثل تلك المحبة لا يعتدُّ بها هنا، بل المعتدُّ به هو محبة أهل الفضل والعقلاء، والضعفاء من شعبِه الذين يحبونه عن بصر بما يحبونه منه، وليس محبةً تولدت فيهم مما ينفثه في أسماعهم صباح مساء سحرة إبليس. ﴿ **وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَـٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا** ﴾ (الإسراء:٣٦).

وقوله : « وقوله عليْه السّلام : (وتصلّون عليْهم ويصلّون عليكم) الصلاة معناها الدُّعاء والفعلُ المُضارع من هذا الّذي قبله معناه أنّه حبٌّ يَتجدّدُ ، وصَلاةٌ تتجدّدُ . . . . . .)

يشير الشَّيخ إلى أنّ الواجب على وليِّ الأمر أن يكونَ فعله لشعبِه متجددًا لا ينقطع ، ولا يكفِي بأن يصنعَ لهم مرة أوْ مرات في أول عهده ليمكِّن لنفسِه وبطانته ، فإذا ما استولَى على مقاليدِ الأمر قلب لهم ظهر المِجنِّ .

وفي اصطفاء كلمة (صلاة) مرادًا بها أصل وضعها اللغوي : « الدّعاء » إبلاغٌ في أنّهم إذ يفعلون ذلك الدّعاء إنّما يتقربون به إلى الله سُبْحانَه وَتَعالَى ، فيرون في الدُّعاء لولِيِّ أمرهم زلفَى لربِّهم الذي أكرمهم بذلك الوليّ ، وكأنَّ في هذا الدُّعاء شكرًا لله تعالى على هذه النّعمة ، وفي هذا ما يفهم منه أنّهُ ﷺ يلفتنا إلى أنّ الله سُبْحانَه وَبِحمدِه إذا أكرمنا بذلك الوالي الذي يحبنا ونحبه لأنّه أقام أمرَه وأمرنا على مراد الله الشرعي إنما هونعمة من اللهِ سُبْحانَه وَبِحمدِه عليهم ، ولك أن تتصور حال شعبٍ يرَى في وليّه أنّه مِن نعم الله عليهم أيُّ سلام اجتماعي يقيم فيهم ، وأيُّ تراحب نفسيّ يكون فيهم . ؟!!!

ولك أن تتصور أيضًا كيف يكون حال شعبٍ يشغل سُجوده بيْن يدي ربه تعالى بالدعاء على حاكمه ، ولا سيما حين يكون ذلك من علماء الأمة وحكمائها ، وعقلائها ، وفقرائها وضعفائها والمهمشين منها وساكني المقابرِ وملتقطي طعامهم من نفاياتِ أكابرِ القومِ على ما ترَى عينك وتسمع أذنك في مصرِك .

وفي الصلاة (الدُّعاء) المتبادل من الوالِي وشَعبِهِ دلالة على ما يقُومُ في قلبِ كلّ من رغبةٍ فِي أن يكونَ كلّ على الوجه الأفضل الأكملِ الأجمل ، وأنّ كلاًّ يلجأُ إلى الله سُبْحانَه وَبِحمدِه المقتدر على أن يُحقق لكلّ ما يَعجزُ الدَّاعِي عَنْ تحقِيقِهِ للمَدعوّ لَهُ ، وكأنَّ فيه شائبةَ اعتذار من الدَّاعي أنَّه قد استفرغَ جهدَه في

النَّصيحة له ، وفي أن يُحسنَ إليه ، وبقي له مِن الحقِّ عليْه ما لا سبيلَ له إلى تحقيقه إلاّ بأن يضرعَ إلى الله تعالى أن يتولّى ذلك عنه ، وفي هذا إعلانٌ من كلّ للآخر أنّـه مقصّرٌ في الوفاءِ بكمالِ حقّه ، وأنّ حقه أكبرُ ممّا بذله له ، وهنا يتلاشَى الإحساسُ بالمنّ على الآخر ، والإحساس بأنّـه المتفضل عليْه .

مثلُ هذه المعاني حين تقومُ بيْنَ وليّ الأمرِ وشعبِه لا يكونُ سبيلٌ لأيٍّ من الأعداء أن يَمَسّ هذه العلاقة الحصينة بأيّ ضُرٍّ مهما بالغَ في المكرِ .

كذلك يهدينا سيّدنا رسُولُ الله صلّى الله عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ وسَلّمَ إلى ما يجبُ أن تكونَ عليْهِ العلاقةُ بيْن وليّ الأمر ومَن استرعاه الله تعالى ، فإذا قرأت واقع عصرِك ومصرك في مرآة هذا علمت أين نحنُ .

* * *

ومن احتفاء الشيخُ بمواقعِ الكلم واصطفائها في سياقاتٍ لا تأنس بغيرها ما نراه في تذوقه كلمة (حلاوة) في قول سيّدنا رسُول الله ﷺ : « ثَلاَثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ بِهِنَّ حَلاَوَةَ الإِيمَانِ . . . » . يهدي إلى أنّ « كلمةَ (حلاوة) أوقعُ من كلمةِ (طعم) لأنّ الطّعم قد يكون حلوًا ، وقد يكون مرًّا ، وقد يكونُ أحلى ، وقد يكون أمَرّ مع أنَّ طعم الإيمانِ لا يكونُ إلاَّ حلوًا ، وتبقَى كلمةُ (حلاوة) أوقعَ ؛ لأنَّها نصٌّ على المقصُود ، وإضافة الحلاوة والطعم إلى الإيمانِ أدخلُ فِي تصويرِ المعنَى ؛ لأنها أسبغتْ علَى كلمةِ الإيمان معنًى جديدًا ؛ لأَنّ الحلاوةَ والطعمَ لا يكونانِ إلا فيما يذوقُه اللسانُ ، والإيمانُ حقيقةٌ معنويّةٌ ، وكأنّ صَاحبَ الإيمانِ الحيّ ، والمذكور فِي الحديثِ وجدَ الإيمانَ قد استحالَ فِي يِقينِه إلى شيْءٍ مَحسُوسٍ يَجدُ له لذةً فِي قلبِهِ ، كالَّذي يجده اللسان فِي حلاوةِ الطعوم . . . » [1]

---

(١) شَرْحُ أحاديثَ منْ صَحِيحِ مسلم : ٢٣٨/١ .

يقيمنا الشّيخُ أولاً مقامًا يثيرُنا ، ثمَّ يحملُنا إلى ما يقينا من هذه الإثارة : قال أولاً إنَّ كلمة : (حلاوة) أوقعُ من كلمة (طعم) ، مِنّ أن كلمةَ (طعم) أعمُّ من كلمة (حلاوة) .

هذه نظرةٌ إلى حالِ الكلمة خارج السّياق ، وهذا يثيرُ القارئ ، فَيجدُ في نفسِهِ قبلَ أن يمضِي في القراءة ما يهمسُ في قلبِه : أليست كلمة (طعم) في هذا السّياق تجرَّدت عَن عمومِها بالإضافة ، فكانت إضافتُها إلى (الإيمان) قد أحدثتْ تخصيصًا في عمومها ، فلم يبق الطَّعم بهذه الإضافة إلا طعم حلاوةٍ ؟

هذا الذي يُهمسُ بِهِ في قلبك قبل الُمضِيّ في القراءة ، ثُمَّ يأتي قول الشَّيْخُ ، (مع أنَّ طعمَ الإيمانِ لا يكونُ إلاَّ حلوًا) مطفئًا هذا التساؤل المهموسِ به في قلبك .

وكان بملك الشّيخ أن يسلك طريقًا مباشرًا ، فيقول بدءًا : ليست كلمة (الحلاوة) هنا لتنفي عنك ما هو قائمٌ في كلمة (طعم) لأنّ الإضافةَ في (طعم) أقامت (طعم) في مصافّ (حلاوة) ولكنّه أراد إثارةَ التَّساؤل في قلبك ليأتي بيانُه وأنت في هذا التَّساؤل ، فيخرجك منه ، فيكون أَوقع في قلبك . وهو نهجٌ من أنهاج التثوير والتَّهيئة ليتحقّقُ حسن التلقّي .

وهو يلفِتك إلى أن الفرق بيْن البيان بكلِمة : (حلاوة) هنا وكلمة : (طعم) المضافة إلى الإيمان ليس مناطه التَّخصيص ، بل لأنّ النَّصّية في كلمة : (حلاوة) نصّيةٌ ذاتيّةٌ : لم تأتها من الإضافةِ ، بينما كلمة (طعم) نصيّتها إضَافيّة : جاءتها من الإضافةِ إلى كلمة (الإيمان) وما كان ذاتيًّا هو الأحكم والأقوى ممّا كان إضافيًّا .

والإضافة في : (حلاوة الإيمان) جاءتْ لبيان نوع هذه الحلاوةِ . لبيانِ أنّها حلاوةُ إيمان ، وليست مطلقَ حلاوة ، فإنْ تكن (الحلاوةُ) على عمومِها أيًّا كانت هي ممّا يُحببُ إلى النّفس ، فإنّها حين تَكُونُ حلاوة إيمانٍ يكونُ وقعُها

أعظمَ ، فالإضافةُ هنا إضافةُ تصوير عظيم فضلِ هذه الحلاوةُ على سائر صنوفِ الحلاوةِ وفنونِها .

ويَبقَى قول الشّيخ : « لأنّ الحلاوةَ والطَّعمَ لا يكونان إلا فيما يذوقه اللسان.... » ومخرجه إحالةُ الحقائق العقليّة إلى حقائق حسية ، والنّفسُ أسرعُ تلقيًا وأقوى تأثرًا بما هو حِسيّ .

هذا مسلمٌ عندِي من وجهِ سرعة التَّأثر وقوته ، أمّا أنَّ ما هو معنويٌّ فرعٌ عن ما هو حسيّ وأنّ المعنوي علاقته بالحسي علاقة المجاز بالحقيقة ، كما يذهبُ إليْه بعضُ أهلِ النظرِ فلي فيه نظرٌ : إنّي لا أذهبنَّ إلى أنَّ أصلَ الكلم التي لمعانيها وجهان : حسيّ ومعنويّ أنَّها موضوعة للحِسيّ ، ثم يتفرعُ منه في مرحلة تالية الوضع المعنوي .

وليس كلُّ كلمة موضوعةً لمعنى واحدٍ أو وجهِ واحد من المعنى ، بل ثَمّ كلمات وضعت لمعنى ذي وجهين : الأول حسيّ والآخر معنوي ، وليس أحدهما أصلاً للآخر ، بل هما توأمان مُنقسِمان من أصلٍ واحدٍ .

لا أذهبُ إلى أنَّ الحلاوة والطَّعم وضعا أوَّلا لما هو حسيّ مذاقٌ باللسانِ ، ثُمَّ ينقلُ بطريق المشابهةِ إلى المعنوي .

الَّذِي أذهبُ إليْهِ أنّ مثلَ هذه الكلمِ موضوعٌة ابتداءً للمعنيين معًا من غير مُفاضلةٍ ولا تقديم أحدِهما على الآخر في الوُجود ، وإن كان هذا التَّقدمُ قد يكونُ في الحُضورِ في النَّفسِ المستقبلة ، وهذا يختلفُ مِن شخصٍ إلى آخر ، ومن سِياقٍ إلى سِياقٍ ، فأمرُه غيرُ راجعٍ إلى الوضعِ ، بل إلى حال التلقي وصانعِه .

والقولُ بأنَّ التّبادر أَمارةُ الحقيقةِ غيرُ مسلَّمٍ ، فإنَّ عواملَ التَّبادُر ليس مرجعُها إلى أسبقيةِ الوضع ، فكثيرًا ما يتبادرُ إلى الفهمِ ما يعدّه كثيرٌ من أهلِ

اللغةِ مِن المجازِ . فالقولُ بالتَّبادُرِ أمارةُ الحقيقةِ قولٌ غيرُ مُنضَبِطٍ ولا مطّرد ، وما كان كذلِك لا يصلحُ أن يكونَ ممَّا يُستأنسُ بِهِ فضلاً عَنْ أن يسْتدلّ بِه . .

والمعاني تتبادرُ إِلَى الذّهن وفقَ عواملَ عديدة منها القرائنُ المُحيطةُ بالاستعمالِ ، وهذه القرائنُ لازِمةٌ لكلّ كلمةٍ مستعملةٍ ، فلا تُوجدُ كلمةٌ في سياقِ الاستعمال إلاّ وهِي مصحوبةٌ بالقرائنِ الهاديةِ إلى معناها ، والكلمة المُجرّدة عن صُحبة القرائنِ إنْ لفظيّةً أو حاليةً إنّما تكونُ خارجَ السّياق الاستعماليّ ومعناها غير منضبِطٍ ، وكلامنا إنّما هُو في الكلمةِ في سِياقِ الاستعمال . والالتفات إليها خارجه لا وزنَ له ، و الاشتغالُ بها ليس من عملِ العقلِ البلاغيّ في شيْءٍ .

مجملُ الأمرِ أنَّ كلمة (حلاوة) تدلُّ على الجانِبين معا الحِسيّ المذاق بالجارحة ، والمعنويّ المذاق بالطَّبع . وليس استعمالُ الكلم في المعنويّ مجازًا عن معناه الحسيّ ، بل هِي استعمال لأحد وجهي ما وضعت له ، والقرينةُ هِي الّتي تهدِي إلى استعمالِها في أحدِ الوجهين ، فهي قرينة مُعينة على حُسن الفهم .

* * *

ومن هذا التفات الشّيخ إلى تغايرُ نظم الجُمل وإن تقارنت لتَغاير معانيها ، وإلى دلالة العُدول في استعمال حروفِ المعاني وهو يتبصر معاني الهدى في قول رسُول الله صَلَواتُ اللهِ وسَلامُه عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ « ثلاثة لا يُكلّمهم اللهُ يَوم القيامةِ ، ولا ينظرُإليهم ، ولا يزكّيهم ، ولهم عذابٌ أليم ».

يلتفتُ أولا إلى استمرارِ الجُملِ الثلاث : « لا يُكلمهم الله يَوم القيامةِ ، ولا ينظرُإليهم ، ولا يزكّيهم » على نسق واحدٍ أمَّا الجملة الرّابعة : « لَهُم عَذابٌ أليمٌ » فكان لها نسقٌ آخرُ ، مِن أنـَّها في معنَى غيرِ الّذي كانت له الجُمل الثّلاث ، ويُبِينُ لك عن أنّ هذِه الثلاثُ تدورُ حولَ أصلٍ واحدٍ ، وهُو أنَّ الله سُبْحانَه وَتَعالَى الّذي هومالكٌ يوم الجزاءِ أهملَ شأنَهم غاية الإهمالِ ، فلا كلامَ ،

ولا نظرَ ولا تَزكيةَ ، أقول إذا كانت الجُمل الثّلاث تدورُ حول أصلٍ واحدٍ ، فإنّ هذه الجُملَة تدورُ حول أصلٍ آخرَ . وفي مقامٍ آخرَ .

وهنا معنًى مسكوتٌ عنه ، وهو أنّهم بعدَ الموقف الذي تُجزى فيه كلّ نفسٍ بِما كسبتْ ، وكان من اللهِ تعالى معهم ما كان ودخل أهلُ الجنّةِ الجنّةَ ، وأَهلُ النّارِ النّارَ ، وهؤلاء لهم عذابٌ أليم .

وراجع الكلامَ فِي قولِهِ (لهم) وكأنه استحقاقٌ استحقوه ، وكسبٌ اكتسبوه ، وملك امتلكوه ، وفيه شوب السُّخريةِ بِهم .

وهي جملةٌ حاليّة جاءتْ معها «الواو» لتشِير إلى أنّ مضمونَها يوشكُ أن يكونَ معنًى مستقلاًّ تقُومُ بِه جملةٌ مستقّلةٌ ، وليْستْ جملة فضلةٌ تابعةً لغيرها ، وأن معنى الاستئنافِ المستكِنّ في «واو الحالِ» يتحركُ ويومئُ ويذكر بالاستئناف»[1]

يشير شيْخُنا بقوله : (وهُؤلاء لَهم عذابٌ أليم) إلى أنّ هذا زائدَ على ما كان لغيرِهم من أصحابِ النَّارِ لما كان منهم من كبائرَ استزرعت في الأمّة فسادًا مستطيرا .

الخيلاءُ والعُجب فيه تطاولٌ على الآخرين ، فيزرعُ في القلوب الشَّحناء والبغضاء وتلك الحالقة ، والمنّ فيه ادعاء ما لله تعالى من أنَّه هوالمُنعِم المنَّان ، وهذا من الذّنوب المُبيرة ، لأنَّه لم يشرك غير الله تعالى معه ، بل أشرك نفسَه مع الله تعالى .

والحلفُ بالله تعالى كذبا ليحوز دنيا فانية فيه من الجراءَةِ على الله سُبْحانَه وَتَعالَى ما فيه وفيه من استحقار ما عند الله تعالى في جنب ما يريد اكتسابه بيمينه الفاجرة ، فآثرَ متاعَ الدّنيا الفانِية على نعيم الآخرة الباقِية فهذِه الآثام

(١) شَرْحُ أحاديثَ منْ صَحيحِ مُسْلِمٍ : ١/٧٤، ٧٥ .

ظاهرُها أنَّها صغيرةٌ وهي في حقيقتِها الحالقة ، فكان أصحابُها أحقَّاء بمزيد عذاب أليم لهم عليها فوق ما يكونُ لهم من العذابِ على غيرِها . وفوق ما يكون لهم من عدم تكليمهم وعدم النّظر إليهم ، وعدم تزكيتهم .

ويلفتنا الشَّيخُ بقوله : (وراجع الكلام في قوله : لهم . . .) إلى ما في العُدول إلى هذه (اللام) من تصويرٍ لحقيقةِ أصحابِ هذه الكبائرِ ، فقد سَعَوا بأفاعيلهم إلى أن يمتلكُوا في الآخرة عذابًا أليما ، وكأنَّهم كما كانوا في الدُّنيا شَغُوفين بأن يكونَ لهم من متاع الدُّنيا ما يزيدُهم على غيرِهم تميزًا ، هم يحرصُون على أن يكونَ لهم من العذاب ما يمتازون بِه على غيرهم من أهلِ النار ، فعمادُ شخصيتِهم حبُّ التّفرُّد ، ولو بما هو العذاب الأليم ، ومن كان هذا عمودَ شخصيته أفيكون ثَمَّ عاقلٌ يُمكن أن تكونَ له بهم مقاربةٌ ؟!!!

هم بهذا أحقاءُ بأن يحاجزهم المجتمع وأن يعزلَهم عن حركة الحياة ، فـ(اللام) صوَّرت لنا سعيهم في الدنيا أن يكون لهم هذا الضربُ من العذاب .

وفي الإعراب عن العذابِ بأنّه « أليم » ما يهدِي إلى أنّ أفاعيلَهم كانت تُوقعُ بالنَّاسِ مِن الألم ما لا يُطاق ، كانوا مَصنع إيذاء بأفاعيلهم للنّاس فحقّ عليهم أن يكونَ عذابهم من جنس أفاعيلهم .

ويهدينا الشَّيْخ بقوله : (وهي جملةٌ حاليّة جاءتْ معها « الواو » لتشِير إلى أنّ مضمونها يوشك أن يكونَ معنًى مستقلاً تقُومُ بِه جملةٌ مستقلّةٌ . . .) إلى أثر هذه « الواو » في الجملة الحاليّة الَّتي الشَّأنُ أن تكونَ تابعةً لجملةِ صَاحب الحالِ ، فترفعُها (الواو) من هذا المقامِ التَّبعيّ إلى مقام الاستقلال ، واستحقاق العناية المستقلة في التلقي والفهم .

فما في (واو) الحال من معنى (العطف) لم يقتدر على أن يحرمها من الاستقلال ، بل أبقاها موصولة بالتي قبلها وجردها عن التبعيّة . ومن ثَمَّ لا يكونُ العطف دائمًا يجعلُ المعطوف تابعًا للمعطوفِ عليْه تبعية تامة ، فهوإن تبعه إعرابًا قد لايكون دونّه في قدر الأهميّةِ .

وإذا ما كان هذا في عالم البيان فإنّه في عالم صانع البيان (الإنسان) كذلك ليس المعطوف على إخوانه لابد أن يكون تابعًا ، بل له من الاستقلالِ ما يطلقُ قدرته على أن يبدعَ وأن يكونَ له في الحياةِ موقعٌ متفرّدٌ ، وإن كان معطوفًا ومعطوفًا عليه ، فالعلاقة بيْن النّاس يجبُ أن تقومَ على التّواصُلِ الّذِي لا يُدمَغُ فيه أحدٌ بالتَّبعيّة علَى نَحوِ ما تُريدُ الأحزابُ السِّياسيَّة والتَّنظيماتُ الثَّقافية والدَّعوية . . . من أتباعها الالتزام بمبدأ الولاءِ والبراءِ والنزول على رأي الأغلبية وإن كان خطلاً براحًا بواحًا . وإلا وجب طرده من الحزبِ أو الجماعة .

هذه (الواو) تأتي حينا ، فتكون سببًا لاستحقاق ما بعدها التبعية لما قبلها وتأتي حينا فترفع عمَّا بعدها هذه التَّبعيّة التي تستحقُّها بحكم وظيفتها وموقعِها من الجمل وتكسبها استقلالاً وندّيةً ومضارعة للجمل الأُخر .

وبهذا يلفتنا الشيخُ إلى أن لا نتلقّى البيان تلقيًا حرفيًّا نُنزل القواعد على البيان ، فنجعل السُّلطان للقاعدةِ ، كلاَّ ، للسياقِ والقصدِ أثرٌ بالغٌ في مكان القاعدة من فقه البيان .

وملاحظةُ السّياقِ والقصدِ في التلقّي والفهم مهارةٌ لا تكون عند كثيرٍ ، وهذه تفتقر أولاً إلى طبعٍ وقريحةٍ ثمَّ إلى ثقافةٍ ودُربةٍ ومُمارسةٍ وحنكةٍ . وإلا كان السّامع في تلقِيه أسِيرَ القاعدة ، والقواعدُ العلمية إنما يَبعثُ فيها الحياة والفاعلية السَّياق والقصدُ .

وأنت إذا ما تتبعت مقالة الشّيخ في شأن الجملة الحالية في بناءِ المعنى وتشكيله رأيتَ ما إنْ أحصي في أسفارِه لكانَ زادًا وافرًا غَنيًّا مغنيًا في العرفان بالخصَائصِ البلاغية للجملة الحالية في بيان الوحي ، وفي بناء الإبداعِ .

* * *

الضَّابط الخامس :

« تجاوز النَّظر المَوضِعيّ إلى أُفق الرُّؤية الموضوعية لا يُضيرُ نعمة الفهم والتلقّي كمِثل النَّظرة التَّجزيئية في قراءة البيان البليغِ معنًى ومبنًى ، وكمثلِ التقوقعِ في الموضِع ، والتّحاشِي عن امتداد الحَركة في جنباتِ الموضوع والتعبّد بالقراءة « العِضين»

فالشَّأنُ في البيانِ العالِي البديعِ وفوقه البيانُ العليّ المعجز أنّ بعضَه يفسّر بعضًا ويُكملُه ويفعّله ، وإنارتِه من داخلِه لا من خارجِه ، وهذا يحمل القارئ المُتفهم على ألا يتسارع إلى تعيين المعنى ممّا بيْن يديه حتى يستوفي النَّظر في مَا جرى في موضوعه كلّه ، لِتَتَحقّق له الرُّؤية المَوضوعيّة السَّابغة المقابلة للنظرة الموضِعيةِ التجزيئيّة ، لأنَّ البيانَ العالي إنّما يخرجُ مِن نفسٍ واحدةٍ سويَّةٍ ، فلا يُمنَى هذا البيان بشيْءٍ مِن التّخالف والتعاند ، وإن اتَّسم بشيءٍ من اختلاف بعضِه عن بعض في تصريفِ المعنى اختلافَ تكاملٍ ، فكما أنَّ اختلاف الثّلةِ الواحدة مِن النّاسِ في أقوالهم وأفعالهم في أمرٍ واحد إنّما هو فطرةٌ ، وكلُّ ما كان من الفطرةِ مخرجُه هو إلى الإصلاح والتكامل أقربُ ، فالعُقم في التّناسخ ، فإنَّ الأمرَ كذلك في عالم البيان ؛ لأنَّ التقاربَ بيْن عالم الإنسان وعالم البيان في هذا جد فتيّ .

وهذا تراه بينًا جليًّا في صنيع الشّيخ وهو يفقه بيان النبوة في حديث « لا يزني الزَّانِي حين يَزني وَهو مُؤمن» في صحبة فقه حديث « أربعٌ مَن كنَّ فيه ، كان مُنافقًا خالصًا» ، وحديث « آية المنافق ثلاث» وفي صُحبة « ثلاثة لا يُكلمهم الله»

وكذلك صنيعه في فقه : حديث « إنه سَتكونُ هناتٌ وهنّات . . .» في صُحبةِ حديث « إنّه يُستعملُ عليكم أمراء ، فتعرِفون وتنكرون» وفي صُحبةِ حديث : « خيار أئمتكم الذين تُحبونهم و يُحبونكم . . .» فيجمع الأشباهَ والنَّظائرَ في

الموضوع لِينيرَ له كلَّ واحدٍ من هذه الأحاديثِ ما حمله كلٌّ من دقيق المعـاني الإحسانيَّة التي لا تتبينُ لأيٍّ إلا حين تُستنارُ الأحاديثُ ببعضِها ، لأنــّها جميعًـا تخرج مِن مشكاة ، وتجري في سياقِ موضوعٍ واحدٍ ، وإلى غايةٍ واحدة ، فهذه الاستنارةُ تمنحُ الأحاديث ترابحًا ، وتمنحُ القـارئَ رحابـةَ رؤيـةٍ للمكنُونـات في تلك الأحاديثِ وعمقَها .

والشّيخ يرقَى إلى ما هو أسمَى من ذلك منهجًا ، فَيضمُّ إلى ذلك نظرَه لما كان في البيانِ القُرآنيّ مِن آياتٍ تجرِي في سياقِها في الموضوعِ نفسِه ، وهذا مِن عنايته بالفهم المَوضوعيّ للبيان .

وإذا ما كان جمعُ نصوص البيان في موضُوع واحدٍ من غيرِ كلام الوحي قرآنًا وسنة يكشفُ ما فِي هذا البيان من تخالفٍ وتباينٍ قد يبلغ حدّ التَّناقض ، فإنَّ ذلك في بيانِ الوحي قُرآنا وسنة يبصّرنا ما في هذا البيَان الوَحيِ مِن اتساقٍ وتناسبٍ موضوعيّ على امتدادِ سياقِه الكليّ المديد ، لا يقلُّ البَتَّة عن ما فيه مِن تناسبٍ واتساقٍ وتآخٍ أسلوبي في السّياق القريبِ ، وهذا وجهٌ مِن وجوهِ إعجاز البيان الوَحيِ قرآنًا وسنّة[1]

وهـو يعمَدُ إلى ما تقاربت أو تطابقت فيـه صُور العقابِ من الآثام ، فينظرُ ما هو قائمٌ في هذه الآثام يجمعُها ليجعل عقابها متقاربًا أومتطابقًا . وهذا يعنِي أنَّ الآثامَ وإن تنوَّعَتْ في صورِها ، وأدواتِها وكان فيها معنًى جامعًا هُو المَعنَى الأكثرُ خطرًا في كلّ إثم دلَّ البيانُ على ذلِك بأنْ يَجعلَ جزاءَ هذِه الآثامُ متقاربًا

---

(١) ينظر شَرحُ أحاديثَ مِن صَحيح مُسلِمٍ : ١/٤٠، ٤١، ٥١، ٦٣، ٦٦، ٦٩، ٧٢، ٨١، ٨٣، ٨٤، ٩٣، ١٠١ .

يلاحظ أن بيان النّبوة عَبّر بـ« شرب الخمر » (ولا يشربُ الخمرَ حين يشربها) ولم يعبر بالسّكر ، ليهدينا إلى أنّ شرب الخمر ولو لمرة واحدةٍ وإن لم يتحقق منه السّكر هو محرمٌ ، فلا يعلل محدثٌ أنه لا يسكر حين يشربُ الخمر ، فعلة التحريم في حقه منتفية ، فلا يكون واقعًا فيما حرّم الله تعالى . فَسَدَّ بيان الوحي الطريقَ عليْهِ .

أو متطابِقًا ، وهذا مِن نهجِ الإبانةِ الدَّقيقِ ، والشَّيخُ كلفٌ بدلالتِنا علَى ذلِك ، بلْ وإبرازِه لنا ، حتَّى لا نَغفُلَ عَنِ المَعنَى الجَوهَريّ في كلّ إثمٍ ، فيَتبيَّن لنا مِن فِقهِ هذا المَعنَى مَا يَستحِقُّه مِن العقابِ .

لا ريبَ في أنَّ الآثامَ جميعَها يجمعُها معنًى واحدٌ من ذلك أنها علـى غيرِ مُراد الله الشرعِي ، وأنَّـها ذات أثر سيئ في الحياةِ . . . ، فمثل هذا فيها أشبهُ بما يجمعُ البشرَ فِي انتسابِهم إلَى سيّدنا « آدم » عَلَيْهِ الصّلاة والسّلامُ ، وهذِهِ العلاقةُ العامّة ، لا يسْتغني بِهَا العقلُ البلاغيُّ ، بل هُو يَسْـعَى إلى استكشـافِ علاقـاتٍ أُخر لها خصُوصِيّة ، وإلا لكانَ كلّ العالَمِين تجمعُهم علاقةُ عامَّة هي أنـَّهم مِن خلقِ الله سُبْحانَه وَتَعالَى ، ومثلُ هذا لا يُكتفَى به ، ومِن ثَـمّ فـإنَّ فِـي مُلاحظـة اتفاقِ الآثـامِ في العقُوبـة أوتقارِبها مـا يهـدِي إلى أهميّـة البحـثِ عَـن المَعنـى الخاصّ الّذي يجمعُها لتختصّ بتلك العُقوبةِ .

وهـذا تجدُه في القرآن كثيراً حين يُعبّـر عـن بعـض الآثـام بـأن لأصـحابها عذاب مقيم ، وبعضهم له عذابٌ شديدٌ ، وبعضهم عذاب مهين وبعضهم عـذاب أليم .... إلخ ، أويعرب عن النّار باسم خـاص : جهـنَّم ، الجحـيم ، الحُطمـة ، سقر . . . فهذا التَّنوع في نعتِ العـذاب أو النـارِ فيـه دَلالـة علـى أنّ مـا كانـت عقوبته العذاب المهين فيه معنًى ليس فيما ما كانت عقوبته عذاب أليم . فلـيس كل مهين إليمًا ، وليس كلّ أليمٍ مُهينًا . وفيه دَلالة على أنَّ مَـن كـان مصـيرُهم « الحُطمة » كانَتْ أعمالُهم الَّتي عُوقبُوا عليْهـا بهـا فيهـا خُصوصـية تـتلاءمُ مَـع مدلول النَّعت بـ« الحُطمة » لا يكونُ في أعمالِ مِن كانتْ عُقُوبتهم « الجَحيم »...

في هذا هدايةٌ إلى ان نسـتجمعَ الآثـام الـتي توحّـدت عقوبتهـا أو تقاربـتْ ، ونبحث عَنْ أَمرٍ خاصٍّ يجمعُها ، لنتوصلَ إلى أسبابِ الوقوعِ في هـذه الآثـام ، ولنتبصَّرَ عواملَ اتقاءِ الوقـوعِ فيهـا ، وهـذا مِـن فضـلِ جمـالِ ربانيّتِـه سُـبْحانَه وَبِحمدِه

* * *

وتـراه ينظـرُ إلى مـا بـيْن « الزّنـا » والسّـرقة « وشـربِ الخمـر » والانتهـاب والغلول ، فيهدينا إلى أنَّ في تغليظ النَّهي عنها معا وجمعها في سياق لفتًا إلى أنـَّها فاعلة في المجتمع ما يدمره ، ويُبيره ، فَفي النَّهي عنها حمايةُ الله سُبحَانَهُ وتَعالَى النّاسَ من النّاسِ وحماية المرءِ من نفسِـه « لأنّ الـدّين حمايـة ورعايـة وصلاح للجماعةِ وأمنٌ وأمانٌ في الجماعة ، وأمنٌ وأمان للفرد ، وليس تكاليف تعوقُ حركةَ الحياةِ ، وتحدّ حرية الإنسانِ وتعود به إلى عصورِ التخلف ... »[1]

وكتاب الشَّيْخ ملآن بهذه النظرة الموضُوعية السَّابغة الجامعـة لأقطـار القـولِ في الموضوع الواحد .

ومخرجُ هذا اليقين بأنّ هذا البيانَ النّبـويّ إنّمـا هـو متنـزّلٌ معنـاه مـن أفـقِ الوحي ، وخارجةٌ صُورته من نفس محمّدية صنعها القـرآنُ لا تعتريهـا الأغيـارُ المثبّطة فضلاً عن الأغيار المُفسدة . فإذا جاء البيانُ عنْ شيْءٍ في سياقٍ زمانـيّ أو مكـانـيّ أو حـالـيّ ثـم جـاء أخرَى في غير الزّمان والمكان والحال ، فإنـَّـه لا يكونُ إلا متآخيًا مع سابقه ، تآخي لاحقِه بـه . ولا يـأتى إلاّ أنْ يكـونَ في اللّحاق إضافةٌ إلى ما في السّباق ، ممّا يُغرِى المُتلقي ويَحمله إلى الاجتهادِ في جمع هذه التَّنزلات ، والنَّظر فيها جمعاء .

وأهلُ العلم بالبيان قديمًا نصُّوا علـى أنَّ هـذه النَّظـرةَ المَوضُـوعيَّة السّـابغة فريضة في صَنعةِ العقل المتلقّي محاسن البيان[2] .

* * *

(١) شَرْحُ أحاديثَ منْ صَحِيحِ مسلم ١/٢٧، ٢٨ .

(٢) ينظر في هـذا الموافقـات فِـي أصـول الشـريعة . للشـاطبي كتـاب : الأدلـة الشـرعية . الكتابِ الثاني في الأدلة على التفصيل . المسألة الثالثة عشر : لابد من ردّ الكلام ليعلم المقصُود (م . س) ٣/٣٥٠ .

الضابط السادس :

« العنايةُ بتعيين المقصِد من البيان وضبطِ حركةِ الفهم لما يجرِي في سبيله إلى هذا المقصد .

مِن شأن كلّ بيان بليغ أنّ له مقصِدًا أعظم يسوق كل أمرِه لتحقيقه ممَّا يجعل هذا المقصِدَ هو الضَّابط لكلّ مكوناتِ البيان في صورتِها ومحمولِها ، وموقعِها ، وعلاقتِها بسباقِها ولحاقِها .

ومقصديّةُ البيانِ عاملٌ رئيسٌ من عوامل تحقيق تماسُكه تماسكًا يقيمُه في أفق التَّناسبِ والتَّآخي .

وهذا أمرٌ قد عُني بِه أهلُ النَّظر في البيان ، وقد أُثر عَن أهل العلم بالشّعر قولُهم « بيتُ القصيدِ » أيْ البيتِ الّذي يقومُ فيه المعنى الأميرُ والمعنى الأمُّ . فهو بيتُ القصيدة ، وكلّ ما سِبقِه أو لحقه عَلى امتداد القصيدة هو في سلطانِه ، ومن رحمه خرج ، وإليه تنتهي حركته .

وأهلُ العلم بالقرآن يعينون لكلّ سورةٍ مقصودًا أعظم ، بل يجعلون للقرآن كلّه مقصودًا أعظم ، فقول الله تعالى : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ (الفاتحة:٥) هو الآية الأمّ التي لا تجد في القرآن آيةً إلا وهي خارجةٌ منها ، وراجعةٌ إليها .

والشَّيْخُ جدّ حفيّ بهذا الأمر ، فمن يقرأ صنيعه في ما كتبه من تدبر (آل حم) وما رقنه في تذوّق قصائد من الشّعر الجاهليّ يدرك أنّ هذا الضّابط قائمٌ في صنيع الشيخ ، فهو كلفٌ بتحرير هذا المعنى وربط موضوعات البيانِ وصُوره به . والأمر كذلك في قراءته بيان النّبوة .

هو الحفيّ بتعيين الجملة أو الكلمة التي تكون تكثيفًا لمحورِ القصد الذي يبنى عليه البيانُ بحيثُ يكونُ هذا القصدُ المتجسّدُ في هذه الجملةِ أو الكلمةِ أو السَّاكنُها كما يقُول الشَّيخُ حاضرًا في كلّ معاقد البيان وفِقرِه حضورًا ضابطًا

حركة المعنَى في تمدُّدِه حينًا وتصاعدِه حينا واستطرادِه حينا وارتدادِه حينا إلى آخر ما تكون عليه حركة المعنى في البيان

* * *

وهو يُبيِّنُ لنا عن أهميَّة الكشفِ عن الجُملة الأمّ في البيان وقيمتها الوظيفيَّة في التلقي والفهم : « وحين نقُولُ هذه الجملةُ هِيَ رأسُ الْمعنَى ، كأننا نَقُولُ هِيَ العقلُ الموجّهُ لِكلِّ جزيئِات الْمعنَى الواردِ بعدها ».

ثم يُبيّن لنا عن خصائص هذه الجُملة وما تتسم به في صناعتِها وصِياغتِها : « وأهمّ ما يلفتُ فِي الجملِ الرُّؤوس هذه أنّها بُنيتْ على الشُّمول المُتَّسعِ جدًّا ، والمُنضبط جدًّا .. » [١]

والوقوفُ على هذا الأمر الكليّ إنّما هُو ثمرةُ استقراءٍ وتحليلٍ وتأويلٍ ومراجعةٍ ، ثم يُستخلصُ هذا الأمرُ الكليّ ، كما يقضى المنهجُ الاستقرائِي للبحثِ العلميّ على ما أبنتُ عنه في موضعٍ مُتقدم مِن هذه الأوراق .

ولو أنَّا استقصينا النَّظر في ما كتبه الشَّيخُ هنا ، وفيما سبقه من أسفارٍ لجمعنا غيرَ قليلٍ مِن الكُلياتِ المَنهجِيّةِ والأسلوبيةِ الَّتي استنبطَها الشَّيْخُ بالاستقراءِ .

* * *

وهذه الجملة التي يتوطّنها القصدُ المحوريّ للبيان لا يلزمُ أن تكونَ جملة رئيسة إعرابيًّا ، فقد تكون جملة من جهة المنزل الإعرابي لها قيدًا لغيرِها . وهذا يلفتُ إِليْه الشيخ كثيرًا ممّا يعنِي أنّ القول بأنّها جملة (فضلة) أي ليست نسبيةً في قبيلتها (البيان/ النّص) لا يصفُ قيمتها الوظيفيّة ومنزلتها في بناء

---

(١) شَرْحُ أحاديثَ منْ صَحِيحِ مسلم ٣٩٦/١ .

المعنى وضبط حركته ، فليست الجُملُ بمنازلها الإعرابية بل بأقدارها الوظيفية في ضبط حركة المعنَى . وهذا له في عالم الإنسان صانع البيان شبيه : ليس كلُّ شريف النَّسب هو المقتدرُ على أن يضبطَ حركةَ الحياةِ في قومِهِ ، بل قد يفعلُها من هو خادمُه من حيثُ النّسبُ ولكنّه الأميرُه من حيثُ الحسب .

ألا ترى أنَّ سَيّدَنا رسُول الله عَليْهِ وَعَلَى آلِه وصَحبِه الصّلاة والسّلامُ قد أمَّر أسامة بن زيد رضي الله عنهما على أعيان الصحابة في إحدى الغزوات؟

ألا ترَى أنّ عمرَبن الخطاب رَضي الله عنه حين أراد أن يستخلف قال لو كان سالمٌ مولى أبي حذيفة رضي الله عنها لاستخلفته .

الجملةُ والكلمةُ باقتدارها لا بموقعها الإعرابيّ كما الإنسانُ قيمته بحسبه (ما يُحسبُ له أو عليه : أعماله ومهاراته واقتداره) وليس بنسبِه ، فالمقصدُ قد يسكنُ جملة هي عند النّحاة فضلة (ليست قرشية النَّسب) والشَّيْخُ يبحثُ عن هذه الجملةِ مَسكنِ القصدِ في كلِّ حديثٍ يقوم إليه متفقهًا متلقيا .

هُوَ الحفيّ بلقيا شيخ القبيلة أولاً وتفرسهِ عظيمَ قوْمٍ ، ليُحسن البصرَ بعدُ بأحوال أبناءِ قبيلته ، فالنّاس على دين ملوكهم . وكذلك الأمر في عالمِ البيان . أنتَ تبصرُ صَنيعَ الشّيخِ هذا فِي كلِّ حديثٍ تقريبًا .

من هذا ما تراه في فقهه الحديثِ الأول في كتابِه : «لا يزني الزاني حينَ يَزني وهو مؤمنٌ» تسمعه يقول :

«وقَولُه علَيْهِ السّلامُ» «لا يزني الزّانِي حينَ يَزنِي وهوَ مؤمنٌ» المعنى في هذه الجملة مَعقُودٌ كلّه في الجملة الْحالية (وهُوَ مُؤمِنٌ) والجُملةُ الأمُّ وِطاءٌ وَمِهادٌ لهذه الجملةِ ، وهذا كثيرٌ جدًّا في الكلامِ ، تَرَى الْمَعنَى الأمّ ليْسَ مُتعلّقًا بالجملةِ الأمّ ، والحديثُ كلُّه من هذا الباب ، وقد تكرّرَتْ هذه الجملةُ بلفظِها

خمسَ مراتٍ فِي هذا البيانِ العالِي لتأكيدِهَا ، وتثبيتِها فِي النّفوسِ لِتحفظَها ؛ لأنّها هِي موطِنُ الزّجرِ وَالوَعِيدِ والغضَبِ وأنَّ مَن يُزاول مُنكراً مِن هذه المنكراتِ المُهلِكةِ لِلجماعَةِ لا يزاولُ وقد بقيَ إيمانٌ في قلبِه ... »[1].

ويقُول : « وجملة (وَهُو مُؤمنٌ) بنيتْ بِناءً حيًّا ثَرِيًّا ، يتلاءمُ مَعَ مَكانَتِها فِي الحديثِ الشّريفِ ، وقد بُنِيَ الْحديثُ عَليْها ، ؛ لأنها مقصِد المعنى فِي الجملِ المذكورةِ ، والمعبّرةِ عن الخطايا المذكورة »[2]

ومن ثَم عُني الشيخ بتحليل بناءِ هذه الجملةِ ، وهي على وجازتها زاخرةٌ بطلبةِ النّظرِ البّلاغي ، وما تمتازُ به عن أترابها من صِيغِ الحال فِي العربيّة .

وتسمَعُه يقرأُ في ما رَواه مسلم بسنده من أنّه دَخَلَ عُبَيْدُ اللَّهِ بْنُ زِيَادٍ عَلَى مَعْقِلِ بْنِ يَسَارٍ رَضِيَ اللهُ عَنه وَهُوَ وَجِعٌ فَسَأَلَهُ ، فَقَالَ : إِنِّى مُحَدِّثُكَ حَدِيثًا لَمْ أَكُنْ حَدَّثْتُكَهُ :

إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ « لاَ يَسْتَرْعِى اللَّهُ عَبْدًا رَعِيَّةً يَمُوتُ حِينَ يَمُوتُ وَهُوَ غَاشٌّ لَهَا إِلاَّ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ » . قَالَ أَلاَّ كُنْتَ حَدَّثْتَنِى هَذَا قَبْلَ الْيَوْمِ قَالَ مَا حَدَّثْتُكَ أَوْ لَمْ أَكُنْ لأُحَدِّثَكَ .

فيقُول : « الأصلُ الذي يدورُ عليْهِ هذا الحديثُ بروايتيه هو كلمة (وهُو غاشٌ لرَعيّتِه) وما قبلَ هذه الكلمةِ هُو طريقُ سيْر المعنى المُتوجه إليْها ، وما بعدَ هذه الكلمةِ هُو تعقيباتٌ وتعليقاتٌ عليْها . وهذا طريقٌ فِي بناءِ المعانِي ظاهرٌ ومتميّزٌ .

(١) شَرْحُ أحاديثَ منْ صَحِيحِ مسلم : ٢٩/١ .
(٢) المرجع السابق : ٣٢/١

وأنا مولعٌ باكتشافِ الجملةِ أوالكلمةِ الّتي هي القلبُ أو التِي هـي العمـودُ الّذي عليْه الاستقرارُ ، والَّذي عليْهِ المَدَارُ . وهذا مِنْ كلامِ العلماءِ .

وَهذِه الكلمَةُ الّتِي هِي القلبُ إذا فتحتَ معانِيها وجدتَ فيها الكثيرَ أو أكثـرَ مَا في الحديثِ . . »[1]

ومجملُ الأمرِ أنَّ الشَّيخ حفيّ بأن يقيمَ في قلوب القُّـراء أنـّه لا علاقـة بـيْن القيمةِ الوظيفية للجملة والقيمة الإعرابية لها ، فليس بلازمٍ أن تكونَ الجملة التي يسكنُها المعنى الرئيس جملة هي الرّئيس إعربًا ، بـل قـد تكـون جملـة قيـدًا إعرابيًّا ، ولكنّها مُسكن المَعنى المليك ومعدنه . يقُول :

« وقوله عليْهِ السّلامُ (يَموتُ حينَ يَموتُ وهو غـاشٌّ لهـا) أولاً أُنَبّـه إلى أنّ الجُملةَ التي قلتُ إنّها جَذرُ هذا الحديثِ وعمودُهُ الَّذِي عليْـهِ المَـدارُ هِـيَ كلمـةُ (وَهُوَ غاشّ لَها) وَهِيَ جملةٌ حاليّةٌ مِنْ فَاعِل « يَموتُ » ثُمّ هِيَ جملـةٌ اسْـمِيّةٌ ، جاءتْ بـ(الوَاوِ) لأهميّةِ المَعنَى ، والْعِنايَةِ بِه .

وَإنّما أردتُ أنْ أنبّـه إلى حالـةٍ تَكثُـرُ فِـي بنـاءِ المعـانِي ، وهِـيَ أنَّ الجملَـةَ الحاليّة كثيرًا ما تكـونُ هِـي الوعـاءُ الُّلغويُّ الّذِي فِـيـهِ خُلاصَةُ المعنَـى وَصَـفوُهُ أوْ كثِيرًا ما تكونُ هِيَ اللؤلؤةُ الأمُّ ، ومُجتَمَعُ الْخيُوطِ الْمُضِيئةِ الّتي حينَ تَجتمعُ تُشرِقُ بالمَعنَى الأصلِيّ .

وَلِذلِكَ كُنتُ ، ولا زِلْتُ أُفكّرُ فِي دراسَةِ مَواقع المعانِي فِـي الجُمـلِ التّوابـعِ فِي ديوان شَاعرٍ ، وأنْ يُستقصَى ذلك فِي دووايِنَ كثيرةٍ أو في كـلِّ الـدّواوين ؛ لأنَّ العجيبَ أنَّ الجملةَ الّتِي هِيَ مَسْكنُ أصْـلِ الْمَعنَـى نُسَـمّيها فِـي الإعـرابِ « فَضْلَةً » ونَقُولُ فِي تعريفِ « الحالِ » : الحـالُ فَضْـلَةٌ مُنْتَصِـبٌ» وَهَـذَا تَبَاعُـدٌ

---

(١) شَرْحُ أحاديثَ منْ صَحِيحِ مسلم : ١/١١٥ .

شَـديدٌ بَـيْنَ مُصـطلح «الإعـرابِ» وَالمعَـانِي الْمـدلولِ عَلَيْهـا دَاخِـلَ هَـذَا الإعراب...»[1]

وليس بلوغُ حِمَى هذ بأمرٍ ميسورٍ أنتَ بالغُه مِن أوّل الأمـر ، بـل لا بـدّ أن تتّخذَ منهجَ «الحالّ المُرتحِل» تطوّفُ في البيـان سبعًا أو سبعين ، ثُم تلـزم متعلّقًا بالأستارِ تسكبُ العبرات ، وحين إذِن يَنفتحُ لك البابُ إلى مركز البيان ، فتلجُ[2] .

رؤيةُ المعنى الأُمّ لا يُمكنُ التَّحقّق منها إلاَّ بالتَّدسُّسِ في كلِّ جُملةٍ مِن جُملِ البيانِ وفِي كلّ فِقرةٍ وفي كلِّ نجمٍ من نجومِه ، وفِـي كـلِّ مَعقـدٍ مِـن معاقِـدِهِ ، حتَّى تتوثّقَ مِن حُضُـورِهِ ، وتتوثّـقَ مِـنْ أنَّ جميـعَ مُكونـاتِ البيـانِ اتّفقـت في حضورِ هذا المعنى فِيها ، وتفاوتْ فيه ظهوراً .

وهذا الأمرُ يشتدُّ حين يمتدُّ البيانُ وتتسعُ أقطـارُه وتَتَنـوَّعُ معاقِـدُهُ ، فيكـونُ لِكُلّ مَعقِدٍ غـرضٌ مَرْحَلِـيٌّ خاضِـعٌ لِغـرض مِحْـوَرِيٍّ هُـوَ العُمـدَةُ ، والمَحَـجُّ الأقدَسُ ، هُو شَيْخُ القَبِيلةِ الَّذِي تُقبِلُ عَلَيْهِ كُلُّ أَبناءِ القَبِيلَةِ[3]

(١) شَرْحُ أحاديثَ منْ صَحِيحِ مسلم : ١٢١/١ .

(٢) يفتح الشيخُ بهذه العطيةِ بابًا وسيعًا لمشروع علميّ يتلاقَى فيه طلاب الدراسـات العليـا الجادون سنين عددًا إذا ما نصحوا كان لهم ولكلياتهم وجامعاتهم ثم للعلـم مـن قبـلُ ومن بعد من الخير الوفير ما لا يُسْتحصَى . ومثل هذا لا يقـوم بـه إلا مـن لا يرضـى لنفسِه وكليته وجامعته وقومه ودينه إلا بأن ينحت من الجبال بيوتًا ، أمّا أولئك الـذين يبنون بيوتا هم ومشرفوهم من الرّمل على شواطئ البحار فسحقًا سحقًا .

(٣) سُميت القبيلة كذلك مِن أنّ لها شيخًا هو كعبتها ومأمّها ومحجّهـا ، يقبلـون عليـه في أمورهم الجسام ، فيربط بين كل رباط مشدود إلى ذلك الشيخ .
وكذلك القصيدة العربية بنيت على منهاج بناءِ القبيلة . في كلِّ قصيدة عربية شـيخ هـو المأمُّ .
بنيت القصيدة العربية على أنّها من معاقد وصور وجمل كما بنيت القبيلـة علـى أنهـا من بطون وأفخاذ وأسر ==

والشيخ لا يكتفِي ببيان الجملة الأمّ ، بل ينظر في هذه الجملة فيرى في بعض كلمها مركزية دلالية ، فتكون هذه الكلمة هي العمدة في الجملة الأم .

تراه في تدبره ما رواه مسلم في كتاب « الفضائل » من صَحيحه بسنده عَنْ أَبِى مُوسَى عَنِ النَّبِىِّ ﷺ قَالَ « إِنَّ مَثَلِى وَمَثَلَ مَا بَعَثَنِىَ اللَّهُ بِهِ ، كَمَثَلِ رَجُلٍ أَتَى قَوْمَهُ فَقَالَ : « يَا قَوْمِ ، إِنِّى رَأَيْتُ الْجَيْشَ بِعَيْنَىَّ ، وَإِنِّى أَنَا النَّذِيرُ الْعُرْيَانُ ، فَالنَّجَاءَ » فَأَطَاعَهُ طَائِفَةٌ مِنْ قَوْمِهِ ، فَأَدْلَجُوا ، فَانْطَلَقُوا عَلَى مُهْلَتِهِمْ ، وَكَذَّبَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ ، فَأَصْبَحُوا مَكَانَهُمْ ، فَصَبَّحَهُمُ الْجَيْشُ ، فَأَهْلَكَهُمْ ، وَاجْتَاحَهُمْ ، فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ أَطَاعَنِى وَاتَّبَعَ مَا جِئْتُ بِهِ وَمَثَلُ مَنْ عَصَانِى وَكَذَّبَ مَا جِئْتُ بِهِ مِنَ الْحَقِّ » .

فيذهبُ إلى أن قولَه : « وَإِنِّى أَنَا النَّذِيرُ الْعُرْيَانُ ، فَالنَّجَاءَ » هو جذر الحديث الشريف ، وكلمة « فالنجاء » هي جذرُ هذا الجذر ، فلمْ يكن المقصُود من الإنذار والوعيد والتهديد والجيشً والنذير العريان إلاَّ النّجاء ، ولا يزالُ صَوتُ رسُولُ اللهِ ﷺ يُصَافِحُ قُلوبَ أمّته بحبٍّ ورفْقٍ وَوُدٍّ ، ويقُولُ لَهم : النجاء النجاء »[1]

أبصرَ الشيخ في كلمة « النّجاء » تخليصًا محكمًا لرسالةِ كلّ رسولٍ ، ومركزًا لخطاب كلّ نبيّ قومه ، فليس ثَمَّ رسولٌ إلا أُرسلَ تحقيقًا لذلك « النجاء » فما من مقالةِ انبعثتْ من قلب كل نبيّ ، ومن قلبِ رسُول الله صَلَواتُ اللهِ وسَلامُه

== الجملة في القصيدة هي الأسرة في القبيلة ، ولا حظ العلاقة الدّلالية بين مصطلح (الجملة) ومصطلح (الأسرة) وكما أنَّ كلَّ أسرة من مسند إليه (الزوج) و(مسند) الزوجة ، وغالبًا ما تكون متعلقات (الأبناء) كذلك الجملة .

بناء عالم البيان هو على منهاج بناء عالم الإنسان صانع هذا البيان . .

(١) شَرْحُ أحاديثَ منْ صَحِيحِ مسلم : ٢/٦٢٥ .

عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ خاصة إلا ومنتهَى الغاية هو «النّجاء» النجاء في الدنيا منْ كُلِّ مضَرَّة وَمعرّة ، و«النجاء» في الآخرة من كلّ شَقوةٍ .

الشَّيخ لا يقصِرُ مجال «النَّجاءِ» الّذي يحثّ عليه سيّدنا رسُول الله صلّى الله عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ وسَلّمَ أمَّته ويُغريهم به في النَّجاء مِن أهوالِ الآخرة ، وإن تكن هي الأعظم والأنكَى والأفدح ، إلاَّ أنّ من قبل ذلك أهوالاً في الدّنيا هو ﷺ يُغري أمته بالنّجاء منها باتباعِ ما أوحي إليْه من ربه سُبْحانَه وَبِحمدِه .

فإذا ما كانت طاعة ما أوحي إليْه ﷺ منها المنجاةُ مِن أهوالِ الآخرة ، فهي الأجدرُ بتحقِيق النَّجاءِ من أهوالِ الحياةِ الدّنيا ، وفي هذا يلفتنا الشَّيخُ إلى أنّ طاعتنا سيّدنا رسول الله ﷺ لا تحقّق لنا السَّلامة في الآخرةِ ، فحسب بل تحقق لنا السَّلامة في هذه الحياةِ الدُّنيا أيضًا ، وبغيرها لا تكونُ سلامة ، ولا سلام ، ولا عزة ، ولا منعة ، ولا أيُّ خيرٍ مقيمٍ في هذه الدّنيا ، فكلُّ ما قد يتراءَى من سلامٍ ومُسالمةٍ ومنعةٍ ، ومتعةٍ بمتاع الحياةِ الدّنيا ، ولم يكن مؤسَّسًا على طاعة ما أوحاه الله سُبْحانَه وَبِحمدِهِ إلى سيّدنا رسُول الله ﷺ إنّما هُوسَلام زائف ، ومسَالمةٌ زائلةٌ ، ومُتعة هالكة .

وأولى النّاسِ بالأخذ بهذا هُم من ابتلاهم الله تعالى فأقامهم مقام ولاية أمورٍ الآخرين ، ولا سيَّما الولاية العامة من الملوك والرّؤساء ونحوهم ، فمَن شاء منهم النَّجاء لشعبِه منْ مضارِّ الدُّنيا صَغيرِها وكبيرِها ، ففِي هذا البيانِ النَّبوّي هداية إلى الصّراط القويم لِتحقيقِ ذلك .

وإذا كان أولو الولاية العامّة في الدّول يستهلّون أمرَهم بالقسم على الحفاظ على الوطن وسلامة أراضيه وسلامة شعبه ورعاية مصالحهم رعاية كاملة ، فإنّهم إذا لَم يأخذوا بما أوحاه الله سُبْحانَه وَبِحمدِهِ لرسُولِه صلّى الله عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ وسَلّمَ فأنّهم الحانثون فيما أقسموا بِه ، ومن فعل فَقَدْ فَقَدَ شرعيته «القرآنية» و«الدّستوريّة» . وكان غاشًّا لأمته .

روى مسلم في كِتاب : « الإيمان » وكتاب « والإمارة » « في صَحيحه بسنده عَنْ معْقِل بْنِ يَسَارٍ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ « مَا مِنْ أَمِيرٍ يَلِى أَمْرَ الْمُسْلِمِينَ ثُمَّ لاَ يَجْهَدُ لَهُمْ وَيَنْصَحُ إِلاَّ لَمْ يَدْخُلْ مَعَهُمُ الْجَنَّةَ ».

فكلُّ والٍ لم يُقم أمرَ شعبَه على ما جاء به رسُول الله صلّى الله عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ وسَلّمَ هو فاقدٌ شرعيّته في ذلك الأمر خاصّة .

وفي إيراد « مسلم » هذا الحديث في كتاب « الإيمان » وكتاب « الإمارة » دلالة على أنَّ من لَم يُحقق الاجتهاد لأمتِه والنّصحَ لهم كان إيمانُه مدخولاً . فقيامُ الوالي على رِعاية شعبِه وفق ما جاء به الوَحي هُو مِن صميم إيمانِه . فليس ذلك واجبًا وظيفيًّا ، بل هومِن قبل واجبٌ إيماني .

ويؤخذ مِن هذا أنَّ مَن حقق الاجتِهادَ لِشعبه والنّصح لهم كان ذلك ممّا يحقق له أن يكون ِمن أهل الجَنّة في الآخرة ، مثلما يُحقق له أن يكون في جُنّة ومَنعة وحِفظٍ ورعاية في الدّنيا . بل أمنُه وجُنته فِي أنْ يجتهد لشعبِه والنَّصح لهم ، ولا نُصحَ إلا فيما جاء بِه الوحي . فمن كانت رعايته لشعبه غير قائمةٍ من كتاب الله تعالى وسنة رسُوله صلّى الله عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ وسَلّمَ ، فهو الظّلوم الغشُوم[1] .

* * *

(١) يتبين لطالب العلم من هذا أهمية النّظر في الباب الذي يورد فيه الحديث ، ولا سيّما ما في الصحيحين : ففي هذا التصنيف وترجمة الأبواب فقه الشيخ المحدث ، ومن ثَمَّ كان حسن التصنيف من العمل العلمي الذي لا يحققه إلا فاقهٌ ما يصنفه وهذا التصنيف بمثابة شرح للحديث ، ولفت لمكان العبرة منه ، في كل باب .
ولذا كان « البخاري » رَضِيَ اللهُ عَنه في هذا أفقه من « مسلم » رَضِيَ اللهُ عَنه فهو الذي يكثر من إيراد الحديثِ الواحد من عدة أبواب سواء أورده كله ، أو أورد في كل بابٍ بعضه المتعلق بالبابِ ، فكان بهذا « البخاريّ » هو الشارح المفسر الأوّل لصحيحه ، وكان في تصنيفه وتراجم أبوبه بيانٌ لمذهبه الفقهيّ .
وكان مسلم من دونه في هذا ولذا قلما يكرر مسلم إيراد الحديث الواحد في أكثر من باب ..

في الاعتناء باستخلاص «المعنى الأم» لكلّ بيان إنما هو تحقيق لبيان أمر المعاني وعلاقة بعضها ببعض، وهذا خارجٌ مِن الأصلِ الّذِي صرَّح به عبدُ القاهِرِ فِي كتابِه «أسرارُ البَلاغةِ» قائلاً: «واعْلَمْ أنَّ غَرضِي فِي هذا الكلامِ الَّذي ابتدأْتُه، والأساسِ الَّذِي وضعتُه، أنْ أتوصّلَ إلَى بيانِ أمرِ المعانِي كيْفَ تَختَلِفُ وَتتفِقُ، وَمِنْ أيْنَ تَجتَمِعُ وَتفتَرِقُ، وأفصِّلَ أجناسَها وأنْواعَها، وأتَتبّعَ خاصّها ومُشَاعَها...»[1]

وهذا البابُ من الدَّرسِ البلاغيّ هوالعُمدة، وماعداه هو قائمٌ في خدمتِه، فكلُّ نظرٍ في سَنَنِ تركيبِ العبارةِ ومنهاج تصويرها وتحبيرها لا يفضي بك إلى الوقوف على علاقتها بأترابها هو نظر خِداجٌ.

* * *

الضابط السابع:

«المُراوحة بين البيان والواقع:

البيانُ النَّبويّ هو في عُظمه تقريبٌ للبيان القُرآني الجامعِ لحاجات البشريّةِ جمعاء في باب الهداية: هداية إبانة وإعانةٍ، وهدايةِ إصلاح وتحصين وترقيةٍ في مقامات القربِ الأقدس من رِضوان ربّ العالمين.

والبيانُ القرآنيُّ لم ينصّ على كلِّ شيْءٍ من ذلك، كما لم يفصّل كلَّ شيْءٍ تكلَّم فيه، فهو بيانٌ يتّسمُ بغلبةِ الإحكام، وبغَلبة التّلويح إلى المعانِي الإحسانيّة التي لا تتناهَى، ولا تخلق على كثرةِ الرّدّ، ولا يشبعُ منها العلماءِ، ولذا كان بيانُ النُّبوّة بيانًا فاعلا في هذين: تفصيل الإحكام وتجليةُ التلويح، وفوق هذا تصريفُ ما جاء به القرآنُ إحكامًا وتفصيلاً.

---

(١) أسرارُالبلاغةِ، قرأه وعلّق عليه محمود محمد شاكر. (م. س) ص: ٢٦.

ومِن ثمَّ كان هذا البيان النبويّ ملتفتًا إلى واقع التَّنزيل فهمًا تطبيقيًّا ، في كلِّ عصرٍ ومِصْرٍ وجِنسٍ ، فصِيغ هذا البيانُ على نحوٍ مَن يُحسنُ التَّبصّر فيه في أيِّ عصرٍ أو مِصرٍ أو جنسٍ يُوقن أَنّ هذا البيانَ يُخاطبه مباشرة ، وكأنَّ النبيّ صَلّى اللهُ وسلّم عَلَيْه وَعلَى آلِهِ وصَحبِهِ وهو ينشئُ بيانه هذا ينظرُ إليك : حالِك وسياقاتِ مقامك ، وما أنت فيه .

وإذا ما كان من الحِكمة أن تُضبطَ حركةُ الواقع بما حمله البيانُ من مِعاني الهُدى ، فإنّه لمن المُحكِمِ لحسن الفهم بيانِ النُّبوّة أن تكون هناك مُرواحة بين «البيان» والواقع : فكما يقرأ الواقع في ضوءِ «النّصّ» ليقوم عَوجه ، ويسد خلله ، ويعالج أدواءه كذلك يقرأ النّصُّ في ما هو قائم في واقع كلِّ عصرٍ ومصرٍ وجنسٍ ، كلٌّ بحسبِه ، وهذا وجهٌ مِن وُجوه مَعنى قوله عَليْهِ وَعَلَى آلِه وصَحبِه الصّلاة والسّلامُ : «بعثتُ بِجوامع الكلم» . روى الشيخان : البخاري في كتاب(الجهاد) ومسلم من كتاب (المساجد) من صَحيحهما بسندهما عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ ـ رضى الله عنه ـ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ عَلَيْهِ وعلى آلِهِ وصَحبه الصَّلاةُ والسَّلامُ قَالَ «بُعِثْتُ بِجَوَامِعِ الْكَلِمِ ، وَنُصِرْتُ بِالرُّعْبِ ، فَبَيْنَا أَنَا نَائِمٌ أُتِيتُ بِمَفَاتِيحِ خَزَائِنِ الأَرْضِ ، فَوُضِعَتْ فِى يَدِى» . قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ وَقَدْ ذَهَبَ رَسُولُ اللَّهِ صَلّى اللهُ وسلَّم عَلَيْه وَعلَى آلِهِ وصَحبِهِ وَأَنْتُمْ تَنْتَثِلُونَهَا .

فهي جوامع لما فيه الهدى لكلّ نازلة في الأمّة كلها في كلّ عصرٍ ومِصرٍ وجنسٍ .

في فقه الواقع مفاتحُ لفقه البيان النبويّ ، ومَن غفلَ عَن فِقهِ واقعِ أمتهِ وما يمُوجُ فيها كان أبعدَ عَن أن يفهمَ بيانَ النّبوةِ فهمًا فيه إصلاحُ ما فسدَ من واقعِه ، فحليةُ أهلِ العلم بكتابِ الله سُبحانه وتعالى وسنة رسُوله عليْهِ وعلى آلِهِ وصَحبه الصّلاةُ والسّلام هي أنّهم يُصلِحُونَ مَا أَفْسَدَ النَّاسُ مِنْ بَعْدِه مِنْ سُنَّتِهِ . فمن إحكام الفهم أن يكون القائم لذلك حالاً مرتحِلاً بيْن البيانِ والواقعِ .

وهذا يتجلَّي لك في مواطن عديدة جدًّا في الكتابِ بجزئيه ، فما يَعنُّ له أمرٌ يرَى له ما يُقاربُه في واقعنا ، ولا سيّما واقع الظُّلم والطُّغيان إلا ونبَّهنا إليْه ، كأنّـه يستثيرُ عزائمَنا أن ترفضَ الظلمَ ، فإن الله سُبحانهُ وَتَعَالَى لا يرضَى منا أن نرضَى بأن نُظلمَ ، وقد استعاذ رسول الله صلّى الله عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ وسَلَّمَ من أن يُظلم مثلما استعاذَ من أن يَظلِمَ غيرَه ، وهذا هاد إلى أنّ الأثرَ السّيّئ على المَرْءِ حينَ يُظلم لهو عديلُ الأثر السيئ عليه حين يَظلِم هو غيرَه ، فإذا كانَ بيانُ الوحي قد بالغَ في تصوير نكالِ الظالمِ وسُوء عقباه في الدَّارين ، فإن عاقبةَ المظلومِ الّذي لا يدفع الظلمَ عن نفسِه وهو قادرٌ عديل عقابِه وهو ظلومٌ .

﴿ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

(المنافقون:٨)

روى أبوداود في كتاب (الأدب) من سننه بسنده عَن الشَّعْبِىِّ عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ قَالَتْ مَا خَرَجَ النَّبِىُّ ﷺ مِنْ بَيْتِى قَطُّ إِلاَّ رَفَعَ طَرْفَهُ إِلَى السَّمَاءِ فَقَالَ : « اللَّهُمَّ إِنِّى أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَضِلَّ أَوْ أُضَلَّ أَوْ أَزِلَّ أَوْ أُزَلَّ أَوْ أَظْلِمَ أَوْ أُظْلَمَ أَوْ أَجْهَلَ أَوْ يُجْهَلَ عَلَىَّ »[1].

وهذا الالتفاتُ إلى الواقع وربطِه بما جاء في بيان النُّبوة تجدُه حاضرًا زاهرًا في فقه الشيخ ومن ذلك ما تراه في فقهه حديث « لا يَزنِي الزَّانِي حين يَزنِي وهُو مُؤمنٌ» وقد عرض قول النّبيّ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِه وصَحبِه الصّلاة والسّلامُ : « ولا ينتهبُ نهبةً ذات شرفٍ يرفعُ النّاسُ إليه فِيها أبصارَهم حين ينتهبُها ، وهو مُؤمن» ، فيقولُ ، وقد ملأ الواقع قلبه ولسانه ألمًا وغضبًا : « وليس ببعيدٍ أن

(١) صححه الألباني في صحيح وضعيف سنن أبي داود . حديث رقم (١٥٤٤) وفي سلسلة الأحاديث الصحيحة . حديث رقم (١٤٤٥) .

تدخلَ في هذه العِصابة المسؤولين الّذين يَستبيحون أموالَ الشّعوبِ : يَعدُّون خزينةَ بيْتِ مالِ الدّولةِ كخزينتِهم ، ولا يفرِّقُون بيْن مالَهمْ فِيه حقٌّ وما لا حقَّ لهمْ فيه ، ويُصبحونَ بذلِك مَعدودينَ من أغنياءِ العالمِ ، ويشتغلُ أولادُهم بالأعمالِ ويَنهبُون ، وينشأُ ناشِئُ الفتيانِ منّا علَى ما كان عوّده أبوه ، كلّ هؤلاءِ يدخلون فِي هذه الجملةِ »[1]

وتسمعُه وهو يقرأ قول رسُول الله عَليْهِ وَعَلَى آلِه وصَحبِه الصّلاة والسّلامُ : « أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا خَالِصًا وَمَنْ كَانَتْ فِيهِ خَلَّةٌ مِنْهُنَّ كَانَتْ فِيهِ خَلَّةٌ مِنْ نِفَاقٍ حَتَّى يَدَعَهَا إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ » . ناظِرًا فِي أثر الكذب فيِ الأمّةِ حين يشيعُ فيها : « أمَّا الكذبُ ، فهو يَهدِي إلى الفجور ، والفُجور يهدِي إلى النارِ ، وهِدايةُ الفاجرِ إلى النارِ نتركُها له ، وإنّما المهمُّ فِي حياتِنا أنّ الفجورَ الّذي يهدِي إليْهِ الكذبُ هُو فُجُورٌ فِي واقِعِ حياةِ الجماعةِ .

والحياةُ مع الفُجُرِ والفجرةِ هِي جَحيمٌ فِي الدّنيا ، والمجتَمعُ الذي يَكْثُرُ فيه الكذِبُ والكَذَبَةُ لا يَصلُحُ له حالٌ ، وخصُوصًا إذا امتدَّ الكذبُ حتَى يدخلَ أجهزةَ الإعلامِ ، وأُذن لأصحابِ المالِ الحرامِ المنهوبِ من الشعبِ فِي ظلِّ أنظمةٍ فاسِدةٍ من امتِلاكِ وسائلَ إعلاميّةٍ متنوعةٍ ، وأغدقُوا أموالَهم على منْ لا يتورّعُونَ عَن الكذبِ من النّساءِ والرّجالِ ، ودخلَ الكذبُ أيضًا المنابرَ الثقافيةَ والمؤسّساتِ الثقافية ، وصارَ في الشّعبِ إعلاميون كذبة ومثقفون كذبة ، وسياسيون كذبَةٌ ، ووزراء كذبة ، وذرّ قرنُ الكذبِ في السّدةِ العليا ، أو ممّن يُخادعُ ليصلَ إليْها ، ولك أنْ تتصورَ الكوارثَ المترتبةَ على ذلك؟ »[2]

---

(١) شَرْحُ أحاديثَ منْ صَحِيحِ مسلم : ١/٣٩، ٤٠ .

(٢) المرجع السابق ١/٥٦ ، وانظر : ١/٦١، ٦٢ .

وأنت تقرأُ هذا الكتابَ تكادُ تقرأُ الواقعَ المحيطَ بك ، فتزداد برؤية واقعك فهمًا لما أنبأ به رسُول الله عَلَيْهِ وَعَلَى آلِه وصَحبِه الصّلاة والسّلامُ . وتزدادُ بصرًا بما يحيطُ بأمّتك وما ينتظرها من مستقبلٍ أليم مهين إذا لم يقم أهلُ العلم والحكمة بواجبهم في الدِّفاع عن الأمّة ، وبيان الصّراطِ المستقيم إلى العزَّةِ والمَنعة مِن كلِّ مَعرّة في الدُّنيا ، وعذاب مُهين في الآخرةِ .

وأنت تنظرُ في ما يُحيطُ بك من أفاعيلِ بعض السّياسيين وسحرة إبليس تفهمُ جيدًا مَخرجَ الكذبِ والفُجور فِي الخُصومةِ حتَّى تستحلّ الدّماء وتحرقَ الموتى ، وتنتهكَ الأعراضَ . . . عمودًا من أعمدةِ النّفاقِ ، فيتجاوز صاحبَه طورًا لم يكن يرتضيهِ كفار مكَّة مع أعدائهم وكيف أنّ هذا النّفاق قادنا إلى جاهليّة سلوكيّة أنكى من الجاهليّة الأولى فِي هذا البابِ ، تلك كانت جاهليّةَ معتقدٍ ، ولم تكُ قطُّ جاهليّة سُلوك اجتماعيّ .

أرأيت كيف تحاجزَ أبو سفيان عن أن يكذبَ على رسُول الله صلّى اللهُ عليْهِ وعلَى آلِهِ وصَحبِهِ وسَلّم وهُو كافرٌ بِه وعدوٌّ لدودٌ له ولدعوتِه حين سُئل عنه ؟

أرأيت كيف حاجزَ خلق الرجولة أبا جهلٍ من أن يقتحم على بنات رسول الله صلّى الله عَلَيْهِ وعَلى آلِهِ وَصَحبِهِ وسَلّمَ بيتهن ليلة هجرة النبي صَلَواتُ اللهِ وسَلامُه عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ ، حفاظًا على العرضِ والشرف والرّجولةِ .

قارن هذا الأفق العليِّ الذي تسامى إليْه أبو جهل ، وما يجري من حولك من تساقط وتهالك ثلة في مستنقعاتِ الخِزي والمَعرة[1] .

---

(١) هل لك أن تتبين أثر الرجولة في مواقف الخصومة مما بيْن أبي لهب وأبي جهل في خصومته مع سيدنا رسُول الله صلّى الله عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ وسَلّمَ .
أبو جهل كانت خصُومته عصبية لقومه من بني مخزوم خوفًا من أن يعلو بنو عبد المطلب على بني مخزوم إن سلّم بنبوة سيدنا محمد عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ ، ولو كان من مخزوم لناصره ودافع عنه ، ولربما كان منه كما كان أبو طالب من رسُول الله ==

إنَّ قراءة البيان النّبويّ في ضوءِ الواقع مَعلمٌ رئيسٌ من معالم منهاج قراءة الشّيخِ بيان النّبوَّة ، وهو لا يدعُنا نستنبطُ ذلك من فعله بأنفسنا ، بل هُو يجهرُ بذلك لِعظيم أهميَّته . يقولُ مِن بعدِ أنْ عرَض لصورِ مِن واقعِه الَّذي يُحيطُ به : « وإذا استخرجتَ مِن كلامِي هذا حرفًا واحدًا لا يدخلُ فِي صُلبِ معاني كلامِ رسُول الله ﷺ ، فاطرحْ كتابِي ، ولا تقرؤه ، وحسبي منك أن تستغفر الله لي »[1]

* * *

==صَلَواتُ اللهِ وسَلامُه عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ . أما أبو لهبٍ ، وهو الأشرف نسبًا : ابن عبد المطلب أخو أبي طالب والعباس والحمزة ، فما الذي حاجزه عن أن ينصر؟ ما الذي دفعه إلى أن يفجر في الخصُومة ، وهو الأوحد الذي لم يناصر قومه زمن الحصار في الشعب؟

إنها الخسة وفناء الرجولةِ ، وكأنّي بأم قبيح زوجه هي التي غرستْ فيه تلك الخسة . ولعلها لما كانت صَانعة هذه الخسة فيه ذكرت معه في سورة « المسد » (وامرأته حمّالة الحطب) وكأن هذه العبارة كناية عما كانت تصنعه من إيقاد أوار الخسة والدناءة في زوجها ، ولم تذكر زوج كافر أو منافق معه ، أرأيت رأس النفاق في المدينة لم تذكر زوجه في آية أو حديث . قلت هذا لأبين لك أثر الخسة في الناسِ ، وأن غيابَ الرجولة أنكى وأضر من غيابِ الإيمان في حياةِ الأمة ، فرب كافر ليس بخسيس خير ممن ينتسب إلى الإسلام وهو أنموذج للخسة والمهانةِ والضّعة .

(١) شَرْحُ أحاديثَ منْ صَحيحِ مُسْلِمٍ ٤١٨/١ .

يلفتنا الشيخ في مواضع عدة إلى أن لا نتوهم أن ما يجري في قولِه من بيانِ واقعِ الأمَّة أنه مباعد ما يجري فيه بيان النّبوّة ، فيستفزك لترى وثيق الوشائج بيْنَ مَا يجرِي فيه كلامُه وما يَجري فيه بيان النّبوّة .

وهو بهذا يهدينا إلَى أن لا نكونَ قاصرين بصائرنا على أن لا ترَى إلاَّ ما كانت علاقته ببيان النّبوة علاقة مباشرة ، كأنّه منطوق البيان ، بل علَيْنَا أن نمُدَّ بصائرَنا لترى ما له بذلك البيان رحمٌ غائرٌ متينٌ ، فالشأنُ في طالب العلم أن يكونَ حديدَ البصيرةِ ، ليدركَ طَلبته التي قد تكون من الشوارد والأوابد . وملاحقة النوافر والشوارد والأوابد صنعة الأماجد

الضابط الثامن :

« ضبطُ سلطانِ العَقلِ في التَّأويل :

إن يكن العقلُ الرَّاشدُ هُو الحاضرُ في تلقّي البيانِ وفهمِه ، فإنّ حضُورَه هذا لا يمنحُه السُّلطانَ المُطلقَ والحقَّ في أن يتولّج في تأويل كلّ بيانٍ ، فثَمَّ آفاقٌ في البيانِ هُو عنها مُحاجزٌ مراجعةٌ وتأويلاً ، وهو المكلّفٌ بالتّسليمِ والإذعانِ لما جاء به الوحيُ ، وكان فوقَ طاقاتِه ، فما كلُّ ما يَسمعُ القلبُ يكونُ للعقلِ أن يتولّجه مُراجعًا ومؤّولاً وقابلاً ورافضًا . وهذا ما يقضِي به منطِقُ العقلِ الفطريِّ . والذين يريدون أن يجعلوا للعقلِ سلطانًا على كلِّ شيْءٍ وعملاً في كلّ شيْءٍ هُم أنفسُهم يتمرَّدون على هذا العقلِ ، لأنّ مَنطقَه قاضٍ بأنَّ ذلك مِن الجَوْرِ ، ومن التّكليفِ بما لا يُطاقُ وبما لم يُخلق له ، فهوأشبَهُ برجلٍ يحرثُ الأرضَ بقلمِه ، ويكتبُ بفأسِهِ ، وذلك هو الحُمقُ المَكين .

والشَّيخُ هو الحفِيّ بتقرير هذا ، والاستمساكِ به في مجالات بيان الوَحْي عَنْ غَيبٍ طليق ، ولا سيّما ما يتعلّقُ بأفعال الله تعالى وصِفاتِه ، وهُو يَجري فِي تلقي هذَا البيانِ وفهمِه على الحقيقةِ الصّرفة المَعصُومة مِن التَّأويل والنَّسخ والتَّخصيص ، فهي من البيانِ المُحكَم الذي تأويلُه وقوعُه لا صرفُ معناه عن ظاهره [1].

وهُو في مواضعَ رأى فيها أعيانًا من العلماءِ يَسلكون فيها مسلكَ التَّأويل لِما هُو من الغيبِ لا يذهبُ إلى تسفيهٍ أوْ يجهرُ بتخطِئةٍ ، كما يفعلُ بعضُ النَّابتة ، بل يذكرُ مذهبَهم ، ويذهبُ هُو إلى غيره ، ليقيمك أنتَ مقامَ المختارِ طريَقَه ،

---

(١) لا أُريد بالظّاهر هنا ما سَفر ، بل أُريدُ به ما عَلا على ظهر العبارة من قوتِه فكان ظهيرًا ، وهذا غير « الظاهر » في مصطلح الأصوليين . .

لأنّـه يريدُ أن يُحرّر القارئ مِن التَّبعيةِ الجرداءِ مِـن التّبصـرِ واتخـاذِ الموقـف ، وهذا نهجٌ فَتِيٌّ فِي صِناعة الرّجال[1].

في شرحه قولَ رسُول الله صلّى الله عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ وسَلّمَ : « إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ الْخَلْقَ حَتَّى إِذَا فَرَغَ مِنْهُمْ قَامَـتِ الـرَّحِمُ فَقَالَـتْ : هَـذَا مَقَـامُ الْعَائِـذِ مِـنَ الْقَطِيعَةِ . قَالَ : نَعَمْ ، أَمَا تَرْضَيْنَ أَنْ أَصِلَ مَنْ وَصَلَكِ ، وَأَقْطَـعَ مَـنْ قَطَعَـكِ ؟ قَالَتْ : بَلَى . قَالَ : فَذَاكَ لَكِ» ذكـرَ أنَّ ممّـن يؤخـذُ عنـه العلـمُ ذاهـبٌ إلى أنَّ الرَّحمَ قرابةٌ ونسبٌ ، وليست إِنسانًا يقومُ ويستعيذُ ويخاطـبُ ، وأنَّ كـلّ ذلـك تمثيلٌ وتصويرٌ [استعارة تمثيليّة] وأنَّ المعنَى والمغـزى هُـو بيـانُ عظـيمِ شـأنِ الرّحمِ وعظيمِ الثَّوابِ في وصلِها ، وعظـيمِ العقـاب في قطعِهـا ، ومِـن أولئـك الأعيان القاضِي عياضٌ رحمه الله تعالى وتأييد النَّوويّ مقالَه .

ويلفتنا الشَّيخُ إلى أنّ المجازَ والتَّمثيلَ هنا ليس في آياتِ الذّات والصِّـفات ، وأنّـه ممَّا يقلُّ التَّنازعُ فيه ، وكثيرٌ من أهـلِ السّـنة يقُولـون بِـه مـا دام لـيس في الذّاتِ والصِّفات[2]

---

(١) كان من منهج الإمام أبي حنيفة أنه لا يقوم في تلاميذه مقام الملقن الشاحن صدورهم بما فِي صدره ، فيحيلهم إلى أوعية يحفظ فيها علمه من بعده ، كلا ، لم يرهم صناديق حفظ ، رأى فيهم مصانع معرفةِ ، فلم يكن يُملي عليهم ما عنده ، كان يجلس فيهم ، ثُم يطرح مسألة يطلب منهم أن يتكلموا ، وأن يتناظروا ، وهو يسمع ، فإذا ما فرغوا عقب على كل ، ثم أبان الأعلى والأولى .
كذلك صَنعَ أبو حنيفة تلاميذه . .
ينظر جامع مسانيد الإمام الأعظم . تأليف أبي المؤيد محمد بـن محمـود الخـوارزمي (ت:٦٦٥هـ) ط : الهند ، نقلا عن بحـث : الإمـام أبـو حنيفـة رَضِـيَ اللهُ عَنـه وجهـوده المؤسسة للفكر الأصولي ، للأستاذ الدكتور : محمد إبراهيم الحفناوي . نشـر : مجلـة دار الإفتاء المصرية . العدد ((٢٤) ربيع الأول ١٤٣٧هـ) ص٣٠ .

(٢) مصطلح «أهل السّنة» من المصطلحات التي لم يجمع العلماء على تحرير مدلولها تحريرًا جامعًا مانعًا . فمنهم من يدخل في أهلِ السنة جماعة الأشاعرة ، ومنهم من يدخل فيهم الماتريدية . . . ==

ثم يلتفتُ إلى الوجه الآخـر قـائلاً : « ولـك أن تقُـول : إنّ صـرفَ هـذا إلى التمثيلِ يجعلُ قوله سُبحانه وتَعالى للرّحمِ : « أصِـل مَـن وصـلك وأقطـع مـن قطعك» من باب «التَّمثيل» الّذي يُرادُ بِـه تعظِـيمُ شـأنِ الـرّحمِ وتَعظـيمُ أجـرِ واصِلِها ، وتعظيم عقابِ قاطِعها ، وهذا شيءٌ يَضعفُ به المعنى ؛ لأنَّـه لا شَكَّ أنّ المرادَ أنّ الله يصلُ واصلها ويقطع قاطعها حقيقةً ، وليست مجازًا»[1]

فهُو لمْ يَشأ أدبًا مَع الأعيانِ مِن العلماءِ أنْ يصرِفَ وجهك عن مقالهم ، ولم يشأ أن يقول لك إنّ هذا منهم جَرأة على اقتحامِ الغيبِ ، ولكنّه لفتك إلى أنّ الذي قالوه فيه إضعافٌ للمعنى ، أي أضعاف أثرِه في قلوبنا ، وكأنّـه يقول لك هذا أقلّ ما فيه ، وإذا كان ثمرة مقالِهم إضعافًا للمعنى في صدورِنا ، فإنّ الرَّغبة عنه أوفقُ ، كلّ ذلك في تلويحٍ لطيف ليعلّمنا أدبَ الحوارِ مع من نختلف في ما ذهب إليْه . وكذلك شأنُ العلماء وطلبة العلم .

ثمَّ لا يَدعُك ، بلْ يُبيِّنُ لك قدرَ الذّهابِ بالكلامِ على الحقيقةِ ، ويعرضُ لك بعَضًا ، ثم يقُول : « صَرفُ كلّ ذلك إلى التَّمثِيلِ يذهبُ بكثيرٍ مِن هذِه المعانِي الجليلةِ فِي هذا الحديثِ الذي هُوَ مِن عَطاءِ اللهِ لنا جميعًا ...»

يُرشدُك إلى أنَّ القولَ بالتَّمثيلِ فِي مثلِ هذا مَخرجُـهُ عـدمُ المُحـاجزةِ بـيْن

== والَّذي أذهبُ إليْه أنَّ أهلَ السنة والجماعة هم من كانوا على ما كان عليه أهل القرون الثلاثة الأُول الذين يؤكّدون أنَّـهم يصفون الله تعالى بما وصف به نفسه في كتابِه أو في سنة رسوله صَلّى اللهُ وسلّم عَلَيْه وَعلَى آلِهِ وصَحبِهِ ، وأنهم يتخلون في إثبات الصفات والأفعال عن أمرين :

الأول : أنّ معناها مفوضٌ علمه إلى الله تعالى وحده . ذلك عندهم غيرُ قويم ، بل علمها ممّا هو مُحصلٌ للعبادِ . ولا يقولون بالتفويض في المعاني بل في الكيفياتِ .

والآخر : التمثيل والتكييف ، ولا يقـول في مثـل حـديثِ «الـرحم» هـو مـن التمثيـل والتّصوير ، أو ما يسميه البلاغيون «الاستعارة التمثيلية» . . .

(١) شَرْحُ أحاديثَ منْ صَحِيحِ مسلم : ٢/٦٦٣، ٦٦٤ .

رُؤية خلقِ الرَّحم وخلقِ الأرضِ مثلا وأنّهما معًا ممّا لا يُخاطب دون التفاتٍ إلى أنَّ المخاطِب إنّما هو الله تعالى ، فخلقُهما : الرّحمِ والأرضِ خارق للعادة (عِند البَشرِ) وكذلك خطابُه سُبحانه وَتَعالَى لهما خارقٌ للعادة (عند البشر) فكلٌّ على الحقيقة لا التمثيل .

من قال بـ« التمثيل » فرَّق بين الفعلين : الخلقُ والمخاطبة من جهةٍ ، وقارب بين خطابه سُبحانه وَتَعالَى لهما وخطابنا لها ، فجعلهما معًا على التَّمثيل ، وهذه مقايسة مَع الفارق ، فالشَّيخُ لفتنا إلى مَخرج المُجاوزة ، وكأنَّه يبصّرنا كي نتعلمَ ، فلا نسلكُ مثل هذا المسلك . وهذا من صِناعة الرّجال . .

ويجهرُ لك بالذي هو فيه قائم : « ما دُمنا قَبِلْنَا أنَّ الله خلقَ السّمواتِ والأرض ، وقالَ لَهما ائتيا طوعًا أوْ كرهًا ، فقالتا أتينا طائعين ، فلا بدّ أن نقبلَ أنّه قالَ ذلك على وجهِ الحقيقةِ ، وقالتْ له على وجه الحقيقةِ . . . . وحمل خطاب الخالق علَى خِطابِ الخلقِ أقُول هذا ليسَ بواجبٍ ؛ لأنّ أمرَ الله فِي خلقِه يتجاوزحُدودَ المألوف ؛ لأنّ الخالق نفسه مُتجاوز حدود المألوف ...

وهذا ممَّا لم أقرأه في كلامِ مَنْ يُؤخذ عنهم العلمُ ، فخذْ ما تراه ودع ما لا تراه ، ولا حرج عليْك ، وأرجو أن أكونَ أيضًا مِن الذين لا حرج عليهم »[1]

الشّيخُ يلفتك إلى مَخرجِ ما قام فيه : أبان لك أنّ منطقَ العدلِ والإنصافِ قاضٍ به : لا تجعل للعقل فيما هو خارجٌ عن مألوفِه سلطانا ، ولا تكلْ بمكيالين :

تجعلُ خلق الرَّحم والأرض ... خارجًا عن سلطان العقل ، وتجعل خطابهما خاضعًا لسلطانِه ، دون أن يكونَ هنالك حاملٌ صحيحٌ على تلك التّفرقة . هذا مجاوزةٌ في منهجيّة التّفكير . الخللُ هنا خللٌ في المنهج الفكريِّ .

---

(١) شَرْحُ أحاديثَ منْ صَحِيحِ مسلم : ٢/٦٦٤، ٦٦٥ .

هو يقول لي إنّ الخلل في منهج التفكير لا يستوجبُ تفسيقَ من ابتلي به تفسيقًا عقديًا ، وإن كان تفسيقًا منهجيًّا في التفكيرِ ، لأن الفسُوق العقديّ مخرجٌ من مِلّةِ الإسلام ، والفسوق المَنهجي تفكيرًا داخلٌ في الخطأ ، وكلُّ ابن آدم خطاءٌ وخيرُ الخطائينَ التّوابون ، فأقصَى ما يُمكن أن يُوسمَ به أنَّه أخطأ في اختيار السَّبيل الأوفقِ في تقديسِ الله سُبحانه وَتَعالَى ، وكذلك الفسوق السلوكي لايُخرجُ من الملة[1]

ولذا تجد الشّيخ يقول : وحملُ خطاب الخالقِ على خِطابِ الخلق أقول ليس بواجب . . .

لم يقل إنّه خطأٌ أو ضلالٌ ، أو جائز بل قال : « ليس بِواجبٍ » ، فلفتني بهذا إلى أنّ الَّذي قال بِه لم يكن ثَم ما يَحمله عليْه ، وكان لمن سلكه مندوحةٌ عنه ، وهذا من عظيمِ إجلالِه لأهلِ العلمِ الّذين يقُولون ما لم يذهبْ هو إليْه ، وهذا مِن مسلكِه في تربيتنا ، كذلك نتعلَّم منه أعزَّه الله تعالى بطاعتِهِ .

ثم انظر قوله : « وهذا ممَّا لم أقرأه في كلامِ مَنْ يُؤخذ عنهم العلمُ ، فخذْ ما تراه ودعْ ما لا تراه ، ولا حرجَ عليْك ، وأرجو أن أكون أيضًا مِن الذين لا حرج عليهم ».

هو بقولِه : « وهذا ممّا لم أقرأه . . . » لا يريدُ فيما أفهم أن يقول لك إنّه أوّلُ من قال بِه ، وأنّه أبو عذرته ومن اجتهاداته الّتي سبق بها الأعيان . ليس هذا

---

(١) للفسوق ثلاثةُ أنواع :

« فسوقٌ عقديٌّ مُخرجٌ من الملَّة وهوبِحمد الله تعالى قليل في المسْلمين ».

« فسوقٌ منهجيّ في التفكيرِ لا يُخرجُ من الملة ، ويُدخل صَاحبه في دائرة الخطأ ، وهو غير قليلٍ في من لا يتثبتون من النابتة في العلم ، وغير قليلٍ في من يُوسَمون بالمفكر الإسلامي »

« فسوق سلوكيٌّ أخلاقيّ لا يُخرج من الملة ، ويدخل صَاحبه في الخطيئة وهو الكثير في الناسِ »

من أدبه أعزه الله تعالى ، بل هو يريد أن يقول لي إنّي أنا أحملُ مسؤولية هذا إن كان فيه ما يؤاخذ . فلا تتحرّج في أن ترغبَ عنه إن رأيتَ غيرَه الأعلى .

تبصّر كيف أنَّه يقدِّر عقلك وقدرتك على أن تُبصرَ بنفسِك السّبيل ، وأن تختارَ الذي ترَى أنت لا الذي يراه غيرك فقد أنعم الله تعالى عليك ببصر وبصيرة كمثلِ غيرك .

هُو لا يحملُك على أن تجرى كمثل ما جرَى ، لأنّه هو لم يجرِ على ما جرَى عليْه القاضِي عياضٌ رحمه الله تعالى ، فكيف يَحرم قراءَه ممَّا أباحه لنفسِه؟ لا يكونُ . كأنّي به يقول : سمعنا وأطعنا لوصية رسُول الله صلّى الله عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ وسَلّم َليَزِيدَ بْنِ أَسَدٍ رَضِي الله عنه ولكل عاقلٍ : «أَحِبَّ لِلنَّاسِ مَا تُحِبُّ لِنَفْسِكَ» .

كلُّ ذلِك مسلكٌ من مسالك صِناعة الرِّجال ، والشيخُ هو الحفِيّ بهذه الصّناعة الثَّقيلة النَّبيلةِ .

* * *

الفصلُ الثاني

آلاتُ القراءة عند الشّيْخِ

إذا ما كانَ المنهاجُ هو المُنطلق والضـابط حركـة القلـبِ في الفهـم وحركـة اللسانِ في الإفهامِ ، فَإنّ هذا المنهجِ تتوقفُ فاعليتُـه وإثمـارُه علـى الآلات الـتي يتخذها القارئُ مطيته إلى تفعيل منهجه ليقُوم برسالته ، فيبلغ غايته من القراءة . هذه الآلات (الأدوات) جدٌّ كثيرة لكن يُمكن أنْ أجعلَها في ضربَيْن كُليينِ :

الأول : ما هو فطري وهبيّ ويَتمثل في أمر كليّ هـو (الطبع) أو القـريـحـة أو الذَّوق ، وفي حياطةِ هذا الأمرِ الكليِّ أنواعٌ عديدةٌ .

والآخَر : ما هُو عِلميٌّ كسبيٌّ هو العلم أوالثقافة أو الدُّربة وفي حياطـة هـذا الأمرِ الكليّ ـ أيضًا ـ أنواعٌ عديدةٌ .

وما استهل به الوحي نزولاً فيه ما يُفْهم منـه أنّ التلقّـي لـه سبيلان : سـبيل وهبي ، وسبيلُ كسبيّ .

يقُول الله سُبْحانَه وَبحمدِه : **بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾** (العلق:١-٥)

في قوله : ﴿ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ (العلق:٤،٥) لفتٌ إلى ضربين من التعليم : الأول : كسبيّ (علم بالقلمِ) والآخر : وهبيّ ﴿ عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ (العلق:٥) [(١)]

وفي تقديم الكسبيّ (علّم بالقلم) ما يُفهم منه أنّ من أخلصَ واجتهد في هذا واستثمر ما اكتسبه كان من مثوبته أن يعلمه الله تعالى ما يعلم ، وفي هذا من الإغراء للعبد بأن يؤُمّ إلى اكتساب العلم ، ولا يشغله عن ذلك شاغلٌ ، فإذا أدّى ما عليْه كان له من الفضل من ربّه ما لا سبيل إلى اكتسابه إلا منه سُبْحانَه وَبِحمدِهِ ، ومنْ إذا اجتمعا فيه كان لاجتماعهما فضلُ تميزٍ فالكسبي وحده لا يفضَي بصاحبِه إلى أن يكونَ له فِي صِناعةِ العلم وخدمتِه قدم ، فللوهبي في ذلك أثرٌ بالغٌ .

وقد تبيّن لي أن الأدواتِ الفطريّة الوهبيّة في قراءة الشيخِ بيان النبوة لها حضُور ظاهرٌ في قراءته ، بل ولها كبيرُ أثرٍ في فاعلية أدواته العلمية واقتدارها .

وهو فيما أحسبُ ذو حظ وفيرٍ منها جعل له مزية باهرة مُدهشة على أَقرانه من أهلِ العلم ببلاغةِ العربيةِ ، وببيان الوحي قرآنا وسنة ، لذا كانت عندي أولى بتقديم القول فيها على ما هو كسبي[(٢)] .

* * *

أولا : الأداوتُ الفطرية الوَهبية للقراءة عند الشيخ .

لدَى كلِّ عالمٍ وطالبِ علمٍ في تلقيه أدواتٌ بعضُها هو فطرةٌ وعطية من الله سُبْحانَه وَبِحمدِهِ بغيرها لايتأتَى له أن يثبت في طريقِ طلب العلمِ لأنه مدرج

---

(١) ينظر : شَرْحُ أحاديثَ منْ صَحِيحِ البخاري (م . س) ص٧٨

(٢) في ما مضَى من الأوراق حملت إليك فيضًا من مقالات الشّيخ فيها مجلَى لما سأذكره من أدواته الوهبية والكسبية وفيما سيأتيك إن شاءَ الله تعالى في الفصل الثالث المعقود لأبعاد المنهج ، ممَّا يحملني إلى أن لا أبسط الحمل من مقالاته هنا على النَّحو الذي كان قبلُ والذي يكون بعدُ .

وعر ، ومرتقى صَعبٌ لا يصبر عليْه إلا من يكون له ما يذوقُ به ثمره ، فمن حرم هذه الفطرة ، ليس من سبيلٍ إلى أن يُجعل طالبًا للعلمِ ، لذلك لم يكن كل أهلاً لأن يكونَ طالبَ علمٍ ليخدمه . أما طلب العلم باستخدامه في الحياة ، فذلك متيسر لكثير ؛ لأنّـه لا يتطلبُ ما يستوجِبُه طلبُ العلم لِخدمةِ العلمِ .

ولـذا يغلبُ على الصنـف الأول : طالب العلـم ليستخـدمـه فـي حياته أنّـه لا يعدو أن يكون حاملا هذا العلم . أمَّا الصّنف الثاني فهوالّذي يرتقِي من ذلك الطّور إلى أن يطلب العلم ليستثمره في حياته وحياة قومه ثُم لِيخدمَ العلم وأهلَه : « يَحْمِلُ هَذَا الْعِلْمَ مِنْ كُلِّ خَلَفٍ عُدُولُهُ يَنْفُونَ عَنْهُ تَحْرِيفَ الْغَالِينَ وَانْتِحَالَ الْمُبْطِلِينَ وَتَأْوِيلَ الْجَاهِلِين »[1].

في هذا الحديث بيان للأصول الكلية لرسالة العالم :

« يَنْفُونَ عَنْهُ تَأْوِيلَ الْجَاهِلِينَ .

وَيَنْفُونَ عَنْهُ انْتِحَالَ الْمُبْطِلِينَ

وَيَنْفُونَ عَنْهُ تَحْرِيفَ الْغَالِينَ ».

هذه الثلاثة هي مفسِدات العلمِ : وهو صَلَواتُ اللهِ وسَلامُه عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحِبِهِ قد أسند كل مفسدةٍ إلى سدنتها :

أسند التأويل إلى الجاهلين ، وأسند الانتحال للمبطلين ، وأسند التحريف للغالين ، ممّا يفهم منه أنها أفعالٌ متغايرة ، وأن صناعها متغايرون منهجًا وأدوات ، وإن يكن المقصد واحدًا . .

والعملُ على انتفاء هذه الثلاثة عن العلم حمـلٌ ثقيـل لا يقـوم لـه إلا عـالمٌ عدلٌ ، والعدل في شأن العالم ، لا ينحصرُ في صدق قَولِه والثقـة في مـا ينقـلُ

---

(١) رواه الطبراني في معجم الشاميين مرفوعا والبيهقيّ في السنن الكبرى في « بَابُ : الرَّجُلُ مِنْ أَهْلِ الْفِقْهِ يُسْأَلُ عَنِ الرَّجُلِ مِنْ أَهْلِ الْحَدِيثِ ... (حديث رقم : ٢٠٩١١) وصَحـحه الألباني في تعليقه على « مشكاة المصابيح » نشر : المكتب الإسلامي ، بيروت ، ط(٣) عام : ١٩٨٥م ـ حديث ٢٤٨ [٥١] ١/٨٢)

ويحملُ ، بل هو أمرٌ قائم في فعلِه الظاهر والباطن . يعني انتفاء العِوج في جميع أمرِه ، فلا يرى منه إلا ما كان على جادّة الصراط المستقيم .

وإذا ما وزن كثيرٌ ممّن ينسبون إلى العلم في ما حولك رأيت غير قليلٍ منهم لا يتحققُ فيه ذلك الشَّرط . وإن كان ممن إذا تكلم لا يكاد يسْكت أو يُسْكتْ لكثرةِ مخزونه ، أو لحلاوة ملفوظِه في آذان الدَّهماء ، إلا أنَّ أهل البصيرة لا يرون في ما يقولُه نورَ الحكمة ، وجلال العلماء ووقارهم[1] .

* * *

أحسِب أن شيخَنا كان له النصيبُ الأوفر من الأدوات الوهبية التي سقيت بغيثِ الكسبِ فكان الذي جاد به على أهل العلم وطلبته من أسفار لا يغفل عمَّا فيها من دقائق العلم ناصح نفسَه وقومه ودينه .

والمواهب الرّبانية من أدوات تلقي العلم وخدمته جدّ عديدة نذكر بعضًا منها هي الأبرز حضوراً في كتاب « شَرْحُ أحاديثَ منْ صَحِيحِ مسلم » .

• الأداة الأولى : الذوق :

لهذه الأداة أسماءٌ عدة كلٌّ منها ينظرُ إلى جانب من جوانبها : من أسمائها الذّوق والطَّبع والقريحة .

أمّا الطبعٌ وهو الأقدم والأكثرُ حضوراً في مدونة قراءة البيان البليغ عند أجدادنا فإنّه ينظرُ فيه إلى أصلِ حضورِه في الذّاتِ القارئة (المتلقية) وأنّه كسبيّ وهبيّ فُطرَ عليه كلّ سَوِيّ مِن أبناء آدم عليْهِ السّلام ، وكما أَنَّ النّاس لا يحرمُ سويٌّ منهم مِن شيْءٍ منه فضلا من ربّك سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هم فيه جدٌّ متفاوتين حضوراً وفاعلية ، وكذلك دلّت تسميتُه طبعًا على أنّه لا يمكن لم حرمه ـ إن

---

(١) هذه الأصول الثلاثة لرسالة العالم يُحتاجُ إلى تفصيل القول فيها تفصِيلا لا يأذن به المقامُ والجهدُ والوقتُ . ولعلّ الله سُبْحانَه وَتَعالَى يعينُ على ذلك على أن أعين من طلاب العلم من يفعل على وجهٍ يُرْضِيه جل جلاله .

كان ـ جزاء وفاقًا أن يستطيع أحدٌ أن يُؤسّسه فيه . فكلُّ ما هو فطريّ ، لا سبيلَ إلى تحصيله إلا بعطيةٍ ربانيّة .

وتسميتُه طبعًا تهدِي إلى أنّـه إن ابتلي ما يُضعفه فإنّه لا يزولُ بتمامِه منه إلا غضبةً من ربّك سُبحانهُ وَتَعَالَى ، وفي هذا تلويح إلى سبيل الحفـاظِ عليـه حَيًّـا في النّفس بالتحاجز عما يثتثير غضب الله سُبْحانَه وَبِحمدِه . .

وفي تسميته ذوقًا التفاتٌ إلى سبيلِ الإحساسِ به ، وأنَّـه في ما هو غيرُ حسيّ من مطعوم النّفسِ والعقلِ والقلبِ والـرُّوح كمثـل مـا هـو حسـيٌّ مـن مطعـوم الجسدِ .

وإذا ما كانت أداة الذَّوق لِما هو محسوسٌ قد غلب على أنّـها اللسان ، فـإنَّ الَّـذي هـو حقّ أنَّ كلّ مَحسوسٍ مِن مَسموعٍ أو مَنظورٍ أو مشمومٍ أو ملمـوسٍ أو مطعومٍ له أداته ، وإدراك هذه الأداة حال ما هـي أداة فيـه هـو ذوق أي خـبرٌ وعلم بهذه الحال ، فالعينُ تذوقُ ما ترى ، والأذنُ تذوقُ ما تسمَع . . . أي تخبر وتعلم حال ما هي آلةٌ فيه .

وعلى هذا فلكلّ نوعٍ من المُدركات غـيرِ الحسـيَّةِ أداة تذوقُـه بهـا أي تعلـم أمرها على حقيقتها وتخبرُ به على ما وجدته .

فالتذوق طريقٌ إلى إدراك الأشياء محسُوسِها ومعقولها ، وهو أسَاسٌ مكـينٌ لأن يحيى المَرْءِ في الأشياءِ وبالأشياء ، فبغيرِه ، يكون وجودها من حوله وعدمُ وجودِه فيها سواءٌ ، على الرَّغم من أنّـه الكـائنُ الأوحـدُ الّـذي جعلـتْ الأشـياءُ مُسخَّرًا له : قابلةً لأنْ يفعلَ بها ما يريدٌ إذا كان فعلُه فيها وبها عَلى هَـدي مـن المرادِ الشَّرعيّ لله سُبْحانَه وَبِحمدِه ، فبغير هذا التذوق لا يتحقّقُ تفعيلُ التسخير المنةِ والعطيةِ الرَّبانيّةِ للإنسان ، فيكونُ هذا من ضُـروبِ الكفـر بالنّعمـةِ وردّهـا على منعمها جَلَّ جَلالُهُ .

وللأستاذ الأكبر محمود شاكر رحمَه الله تعالى رؤية للتَّذوق في حقيقَتِه وفاعليتِه وأهَميته ، يجعلُ منه روحَ الوجود الآدميّ للإنسان معمرًا للكونِ والحياة : « كلّ حضَارةٍ بالغةٍ تِفقدُ دقةَ « التذوّق » تفقدُ معها أسبابَ بقائها .

و« التّذوّق » ليْسَ قوامًا للآدابِ والفنونِ وحدَهَا ، بلْ هُو قوامٌ لِكلِّ عِلْمٍ وَصِناعةٍ علَى اختلافِ باباتِ ذَلِكَ كلِّهِ ، وتبيانِ أنْواعِهِ وَضُرُوبِهِ .

وكلُّ حضَارةٍ ناميةٍ تريدُ أن تفرضَ وجودهَا ، وتَبلُغَ تمامَ تكوينها إذَا لَمْ تَسْتَقِلَّ بتَذَوّق حسّاسٍ حادٍّ نافذٍ تَختصُّ بِهِ وتنْفَرِدُ لَمْ يكنْ لإرادتها فِي فرضِ وُجُودِهَا مَعنًى يُعقلُ ، بلْ تكادُ هّذِهِ الإرادَةُ أنْ تكونَ ضَرْبًا مِن التّوهمِ والأحلامِ لا خيرَ فِيهِ .

فحسْن « التّذوق » يعنِي سلامةَ العقلِ والنّفسِ والقلبِ من الآفاتِ ، فهو لبُّ الحضَارةِ وقوامها ، لأنّه أيضًا قوامُ الإنسانِ العاقلِ الْمُدرِكِ الَّذي تقُومُ بِهِ الحَضَارةُ .

وهذا شَيْءٌ لا يَكادُ يَختَلِفُ عَلَيْهِ اثنانِ فِي ما أظنّ »[1].

كأني بالأستاذ الأكبرأبي فهرٍ لما رأى أن الذي هو مبدأ كلّ فعلٍ يُنسبُ لفاعلِه وروحُه إنّما هو « التذوق » من أنه إدراك ذاتيّ للأشياء لا يسْتعارُ ولا يُرفدُ ، ولا يشْتبه بشيْءٍ عند الآخرين ، فهو عنوان فاعلِه ، ومرآة حقيقته ، وكان لابد أن يكون حاضراً في كلّ مراحل الفعل ومستوياتِه آثر أن يطلقه على الفعل الآدمي للأشياء وفِي الأشياء وفي الكونِ والحياة جمعاء . فليس ثَم فعلٌ آدميّ إلاَّ وجُرثومته « التذوّق » الذي لا يتناسخ مع الآخرين . وبمقدار خصوصية هذا التّذَّوق ، ومقدارِ فتوَّته وفاعليتِه تكون الأشياءُ على تنوعها وتعدّدها .

---

(١) أسمار وأباطيل . تأليف : محمود محمد شاكر . ط(٢) ١٩٧٢م ، مطبعة المدني بالقاهرة ص ١٣٤ .

وعلامة تحقّق الذّوق هُو انفعال صَاحبِه بالأشياءِ التي وقع عليها الذّوق محسوسًا أو غيرَ محسوسٍ .

وفي تسمية هذه الأداة « الذَّوق » إشارة إلى المباشرة في التّواصل بيْن المتلقِّي والبيان ، وأنَّه ليس هنالك وسيطٌ من خارجِ متلقّي هذا البيان ، كما أنّه ليس بيْن المطعوم واللّسان واسطةٌ في إدراك اللّسانِ حالَ ما يُطعم . وهذه المُباشرة تحقّق صدقَ العِلمِ بالخبرِ أيْ خبرَ الحالِ الّتي عليْها المَطعوم ، وهذه معانٍ مُهمةٌ جدًّا في تلقّي البيان .

وفي تسميته (قريحة) إشارة إلى فاعليتِه ، وأنّه يقترح ما ليس له حضورٌ من قبلُ من المعارفِ والإدراكاتِ الجماليّة في الذّاتِ الحاملته .

* * *

وإذا ما كان الأجدادُ في مُدوناتهم ذوي احتفاء بالذوق ، فإنّهم لم يحتفوا بتعريفِه ، وإن أشاروا إلى مخرَجه ، وأَنّه عطاءٌ ربانيّ ، وإلى أهميته وفاعليته . وكان لحازم الأنصاريّ القرطاجنيّ (ت : ٦٨٤هـ) فضلٌ في تعريفِه أداة من أدوات صِناعةِ الشعر ، وما كان كذلك في إبداع البيان هو كذلك في تلقيه ، يَقول : « الطَّبعُ هو استكمالٌ للنَّفسِ فِي فهمِ أسرارِ الكلامِ ، والبَصيرة بالمذاهبِ والأغراضِ الَّتي مِن شأنِ الكلامِ الشّعري أن يُنحَى به نحوَها ؛ فإذا أحاطتْ بذلك علمًا قَوِيت على صَوغ الكلام بحسبِه عملا ، وكان النّفوذُ في مقاصد النَّظم وأغراضه وحُسن التَّصرفِ في مذاهبِه وأنحائِه إنّما يكونان بقوَى فكريّة واهتداءات خاطريّة تتفاوتُ فيها أفكارُ الشُّعراء »[1] .

---

(١) منهاج البلغاء . تأليف حازم القرطاجنّي . تحقيق محمد الحبيب بن الخوجة . دارالغرب الإسلامي . بيروت . ص١٩٩ وينظر في مفهومه أيضًا : مقدمة ابن خلدون . ضبط محمّد الإسكندراني . نشر دار الكتاب العربي ط(١) عام ١٤١٧هـ. ص٥١٥)،==

والذَّوق هو الأقدرُ على معرفة مناطِ الحسنِ والقبحِ في البيان ، فبغيره لا يتأتي للمتلقّي أن يضعَ يده على موضعِ الحُسن أو القُبح أو التّميز أو الفرق بيْن حُسنٍ وحُسن . . . . إلى تحقيق المناط أو خطوةٍ في القراءة المثمرة .

الذَّوقُ إذن هو أداة تحديد مناط الحُسنِ والقُبح ، وليس أداة استخراجهما ، فذلك أداة أخرى مترتبة عليْها .

ولستُ هُنا بصددِ بيان قيمة الذّوق في القراءة مطلقًا ، لأبسط فيه القول ، بل بصددِ مقامِه في أدوات الشَّيخ في قراءته بيان النُّبوَّة خاصّة .

وللشّيخِ أبي موسى رؤيةٌ في حقيقةِ الذّوق والتّذوق وطبيعته وفاعليته ، تتمثلُ فِي « أنَّ التّذوّقَ غايةُ مَا يُدْرِكُه ذُوالطّبع مِن الشّيّءِ الّذِي يروزُهُ ، ويلْتبسُ بِهِ ، ومنْهُ تذوّقُ البيانِ ، وهِي تَعنِي التّغلغُلَ الواعِي الْبصِيرُ فِي خفَايا البيانِ تَغَلْغُلاً يُفْضِي إلَى مَعرفةِ دقائقِهِ وأسرارِهِ مَا ظَهرَ مِنْهَا وَما بَطنَ ، فَإذَا كان بَيانًا إنْسَانيًّا أَفْضَى هذّا التّغَلْغُلُ إلى معرفَةِ مَا وراءَهُ مِن أحوالِ النفسِ وَهواجسِ النّفسِ ، وأهواءِ النّفسِ الّتِي انتهتْ إلَى اللسانِ البصِيرِ بِوسَائلِ البيانِ ، فأفضَى بِهذِهِ الهواجسِ والأهواءِ والغرائزِ ، وأنطقَ بِهَا الّلفْظَ والتّركيبَ والرّنينَ نُطقًا يَظهرُ ويَخفَى عَلَى وَفقِ أحْوالِها فِي النَّفسِ مِن ظهور وخفاءٍ ، وأنْ مَا يَهمِسَ بِه ، ويُوحِي بِهِ هو سرّهُ الأعْلَى ، وهو الأنفسُ والأسنَى ممَّا يَجهرُ بِه ويُسْمعُ »[1] .

* * *

== وكتاب « التذوق الأدبيّ » تأليف إبراهيم عوض مكتبة الثقافة . الدوحة . قطر . عام ١٤٢٦هـ . ص٧ ، وما بعدها ، وكتاب « التذوق الأدبِي : طبيعته . نظرياته . مقوماته . معاييره . قياسه . تأليف ماهر شعبان عبد الباري . ط(٣) دار الفكر . عمان . الأردن . سنة ٢٠١١م . ص ٨٢-٩٣ .

(١) شَرْحُ أحاديثَ منْ صَحِيحِ مسلم : ٢٣٦/١ .

والشّيخُ جدٌّ حفّي بالذّوق الرّشيدِ في تلقيه بيان النّبوّة ، فهو حاضرٌ فيه حضوراً لا يكادُ قارئٌ ما رَقنت يَمين الشّيخُ أن يغيمَ عنه شيءٌ منه سواء في بصرِه المعنى ، وسياقه ، وحركته ، وتصاعدِه والالتفات إلى مركز القصد ، أوفي بصرِه بحالِ صُورةِ المعنى : مكوناتها وتكوينها ، وقدرتها على حَملِ القارئ المتذّوق إلى المَعنى والقصد ، فكلُّ ذلك حاضرٌ فيه الذّوق الفتيّ الرَّشِيد لدَى الشَّيخ ، ولا أحسبُ أنّ منْ يقرأُ صَحفةً من كتابه في قراءتِه حديثًا من أحاديثِ النّبوّة إلاّ وهُو مبصرٌ ذوقه قائمًا في ما يقرأُ . وما سنشير إليه من مقالاته أنت تبصرُ فيه حضورَ الذَّوق وفاعليته .

والذوقُ عنده يمتطي صَهوةَ العلم والثقافةِ والخبرةِ والدّربةِ فمهما بلغت هذه الأشياءُ فتوتها ، فإنَّ الذَّوقَ لا يخضع لسلطوتِها ، بل هي الخاضعة لسطوتِه ، فهو أمُّ القرَى . ولكنَّ هذه لها فيه أثرٌ حاضرٌ غيرُ متسلِّطٍ : فمن العلم والمعرفة غذاؤه ، ومن الثَّقافة تهذيبُه وتشذيبُه وتثقيفُه ، ومن الخبرةِ والمرانِ والدّربةِ صَقلُه وتجليتُه وتفعيلُه .

ولستَ ترَى أيّ موقفٍ من مواقف تلقيه بيانَ النُّبوّة في هذا الكتاب إلا و «الذوق» الرَّشيد المثقف النَّافذ في أغوارِ البيان حاضرٌ ظاهرٌ ، ممَّا يجعلُني في حَيرةٍ مِن أمرْي أيّ أُنموذج أحملُه إليك هنا لِتبصرَ فيه حضورَ ذَوقِه الرَّشيد المثقف المُتغور في ما يتلقاه من بيانِ النّبوّة .

ولمّا كان «الذوق» لا يفعلُ إلا بأداة أخرى هى تفؤد القلبِ وذكاؤه رأيت أن أجمع بيْن مجاليْهما في موضعٍ ، وأن أغدو إلى القول في الأداةِ الأخرى «ذكاء القلبِ وتفؤده» ثم أرتحلُ بك إلى مايتجليان فيه من مقالات الشيخ .

* * *

الأداة الثانية : ذكاء القلب وتفؤده

أقوى أدواتِ القراءة المثمرةِ بيان الوحي قُرآنًا وسنة هو ذكاءُ القلبِ .

و«القلبُ» هو الأداة الفاعلة في مراحل التلقّي الخمس ، وهي على الترتيبِ تصاعدًا : الإدراكُ ، فالعقلُ ، فالفقه ، فالعلمُ ، ثُمّ الفهم .

مبدأُ الأمر (الإدراك) ومنتهاه (الفهم) وأداة ذلك كله (القلب) وله في كلِّ مرحلة حالٌ ، والمراحل الثلاث الأُول ، يكون الفعلُ الكسبيّ هو الأقوى في تحقيق هذه المراحل ، والمرحلة الرَّابعة (العلم) يكونُ حضور ما هو وهبي ممزوجًا بما هو كسبيّ ، فليس كلُّ فقيه عالمًا ، وإن أَحاط بكلّ دقائق قضايا العلم الذي هو فيه فقيه أو الفقيه ، لن يجعله ذلك (عالمًا) فالعالمُ وارثٌ النبيّ - صلّى اللهُ عليْهِ وعلَى آلِهِ وصَحبِهِ وسَلّم - في إخراج النّاسِ من الظلمات إلى النور بلسان حالِه ولسانِ مقالِه وهذا لا يكون إلا إذا غلبت (الحكمة) فيه (الفقه)

أما المرحلةُ الخامسة (الفهم) في شرف الأمرِ وذروة سنامه ، ولا تكونُ إلا لخاصّة الخاصة ، لأنَّ الفهم لا يقع إلا على شَرفِ المعاني الإحسانية من معاني الهدَى وهذا لا يكونُ إلا لنزيرٍ من العلماءِ

ذكاءُ القلبِ هو قدرته على إنضاجٍ ما تلقاه من بيان الوحي قُرآنًا وسنة . هذا الإنضاجُ هو الَّذي يجعلُ ما تلقاه فاعلاً في الأمّة ، لأنّه أضحى غذاءً قابلاً لأن يتلقّى وأن يفعلَ في القلوبِ ، فيمنحها ما تحتاجه من غذاءٍ أو داوء ، فتضبطُ حركة الجوارح ضبطًا محكمًا وتسوسها سياسةً حكيمةً .

ذكاء القلبِ عندِي ليْسَ هو «الذّوقُ والتذوقُ» بل هو أمرٌ من وراء ذلك ، الذّوق كما مضى إدراك الأشياء على حقائقها والمعرفة بأحوالِها وأقدراها ، أمّا ذكاء القلْبُ وتفؤده فمرحلة تاليةٌ لمرحلة «التذوقُ» بغيرها يكون أثر «التَّذوق» خداجًا ؛ لأن الاستفادة إنما تحقق بهذه الأداة : أدلة «ذكاء القلبِ وتفؤده»

ذكاءُ القلبِ إذن ليس هو عقلُ المعرفة وحفظها ، وترديدها ، هذا من فعل من يحملون العلم والمعرفة ، فهم أوعية ما يُنتجه غيرُهم ، ولا يملكون منه شَيْئًا ، : هم حرسٌ عَلَيْهِ ولا يملكونه ، ولا يحرثونه ولا يستزرعونه[1].

الشيخُ يملك هذه الأداة ، بل هي أقوى ما يملك فيما أحسِبُ ، فهولا يفضُلُ كثِيرًا من أقرانه باتساع علمه ، ومعرفتِه وتنوع ثقافتِه فَحسبُ ، بل ما يفضلهم به في ذكاء قلبه ، وإنضاجه ما تلقاه ، فكنّا وما زلنا ، نسمع عويصَ المسألة من شيخٍ من شيوخنا ، فنتلقاها إدراكًا ووعيًا ، ولا يكادُ يتحرك القلبُ بها ، فتبقى من محفوظِنا ، ثم نسمعُها من شَيخنا أبي أحمد فأشعرُ بأنَّ شيئًا بَدَأَ يتقاطرُ في قلبِي ، فأدرك أنّ قلبِي بَدَأ يطعمُ ما سَمع . فيستحيل من بعدُ شيئًا مِن مكونِه المعرفيّ الفاعل .

تلك حقيقةٌ أدركتُها في الشيخ ، وأنا أقرأُ ما كتب ، أو أسمعُ ما يقُولُ في مجالسِه العلمية ، ممّا يجعلني قليلَ المُداخلَة والسّؤال وهو يُعلمنا . لأنّي مشغولٌ بالتلقّي ، ثم إذا ما فرغتُ بدأتُ مرحلة هضم ما تلقيتُ ومُراجعتِه ، وتثويرِه واستثمارِه . .

ومعالم ذكاءِ قلبه في ما كتبه في « شرح أحاديث من صَحيح مسلم » قائمة في كلّ حديثٍ ، ولا سيّما الأحاديثُ التي يركزُ فيها على أمرين رئيسين :

الأولُ : علو شأنِ رسُولِ الله ﷺ في الأخذ بيد أمّته إلى النّورِ والعزةِ أخذًا فتيًّا رؤوفًا عطوفًا . فيصوّر لك من بيان رسول الله صَلّى اللهُ وسلّم عَلَيْه وَعلَى

---

(١) يتوهم كثيرٌ أن « الذكاء » هو القدرة على الإمساك بالمعرفة حين يدركها سمعًا أو قراءة أو مشاهدة . واسترجاعها عند طلبها . هذا غيرُ دقيق . الذّكاء مأخوذ من ذكت النارُ أي اشتد أوارها ، يقال : « ذَكَتِ النارُ تَذْكُو ذُكُوًّا وَذَكًا ، مَقْصُورٌ ، واسْتَذْكَتْ ، كُلُّه : اشْتَدَّ لهَبُها واشْتَعلت . . . والذكاء : شدة وهج النارِ ومنه سُميت الشمسُ ذُكاءَ . ، فذكاء القلبُ هو قدرته على إنضاج ما يتلقاه كما تنضح النار الذاكية ما توقد عليه من طعام ونحوهِ .

آلِهِ وصَحبِهِ صُورة الحاني عليك العطوف ، فلا تملك إلا أن تهتف بالصّلاة والسلامِ عليه ، وبالدعاء للشيخ برفع ذكرِهِ في عباد الله الصالحين . يقُول الشيخ هاديًا : «لا تُهملْ ، ولا تُغفلْ جانبَ الهدايةِ والرَّحمةِ ، وأنت تقرأُ ما تقرأُ في كلامِ الله تعالى وكلام رسوله ﷺ وكيف يتعهّدُ الإنسان ؟

وكيفَ ينزعه من مزالقِ الخساسةِ ؟

وكيفَ يرتقِي بهِ إِلى مدَارِجِ القِيمِ النّبيلةِ؟

وأنّ هذِه رسالةُ الدينِ ، ورسالةُ الخالقِ إلى خالقِهِ ، وأنها الصّالحاتُ ، وأنّهَا هي البُعدُ عن السّيئات ثُمّ تذكّرْ كيفَ يُعارضُ مَن يُعارضُ هذا التوجِيهَ إلى الحياةِ الأفضلِ والأكرم ؟» [1]

والآخر : أنّه لم يكتفِ بأن يثوّرَ ما في بيانِ النُّبُوة من خصائصِ التّراكيبِ وأنماطِ التَّصوير التي هي كلُّ طَلبةِ كثيرٍ من طلابِ العلم ببلاغةِ العربية ، بل هو يتجاوزُ إلى ما يَجعلُ تثوير هذه الخصائصِ التركيبيّة وأنماطِ التَّصوير وسيلةَ إلى غاية أجلّ وأجملُ : العرفانُ القلبيّ بمنهجِ النّبوّة في إخراجِ النَّاسِ من الظلماتِ إلى النور ، واكتساب مهارةِ الاقتداء بذلك في حركتنا العلمية والدَّعوية والسُّلوكيّة ، كلُّ ذلك وقبلُه إفعام القلب بجلالِ النّبوّة وجمالِها .

* * *

نراه يستطعم كلمةً في سياقٍ يرى أنّه قد تفسّر بكلمةِ أخرَى ، فيرى فرقًا فسِيحًا عميقًا بين الكلمةِ وما تفسر به ، فممّا يهدي إلى أنّ تفسير البيان لا يقُوم مقامِه ، فقرقٌ بين ما اقتضاه السياق ، وما يلجأ إليه المفسر مقربًا .

من ذلك ما كان من تذوقه ما رواه مسلم في كتاب «الإمارة» من صَحيحِه بسنده عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنه قَالَ : قَامَ فِينَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ فَذَكَرَ

---

(١) شَرْحُ أحاديثَ منْ صَحِيحِ مسلم : ٥٢/١

الْغُلُولَ ، فَعَظَّمَهُ وَعَظَّمَ أَمْرَهُ ، ثُمَّ قَالَ : « لاَ أُلْفِينَّ أَحَدَكُمْ يَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رَقَبَتِهِ بَعِيرٌ لَه رُغَاءٌ يَقُولُ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَغِثْنِى . فَأَقُولُ لاَ أَمْلِكُ لَكَ شَيْئًا قَدْ أَبْلَغْتُكَ . . . . » الحديثَ .

يتلبث الشَّيخُ عند قول سيّدنا رسُول الله صلّى الله عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ وسَلّمَ : « لاَ أُلْفِينَّ أَحَدَكُمْ يَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ . . . » فيسعَى إلى تذوق البيان بهذا الفعل الذي يفسر بالفعل « لا أجدنَّ » فيبدأُ ببيانِ دَلالة النّهي في هذه الجملة الذي عدل به عمَّا هو المتوقع ، فيبصرُ أنّ النَّهي دخل على المُضارعِ « ألفى » مُسندًا إلى ضمير المتكلم ﷺ ، فيدركُ أنّه إذا « قيل لا أُلفينك ههنا » فليس القصدُ إلى النَّهي عمَّا دخل عليه النَّهيُ : الفعل المُضارع ، بل ما استوجبَه ، وهُو الوجودُ ، فَوجودُ المخاطَبِ في المكان يترتبُّ عليْه الفعلُ المُضارعُ الَّذي هُو مدخولُ النَّهي ، عَدَل عَن أنْ يقالَ لا تكنْ هَهُنا ، إلى ما يلزمُ هذا ، هذا العدولُ عن إدخال النَّهي عن الملزومِ الَّذي هُو مناطُ القصدّ إلى الّلازم هُو مِن سُبل توكيدِ النَّهي ، لأنك إذا ما نهيْت عَن الّلازم فأنْت لا مَحالة ناهٍ عَن ملزومه ، لأنَّه حيثُ كان اللازمُ كان الملزومُ ، وهذا سبيلٌ من الدلالة الكنائية ، وفيه فَيضٌ من التَّوكيد ، لايكون مثله حين يكون التوكيدِ بأداةٍ من أدواتِه .

من بعدِ أنْ أبان عَن تركيبِ صُورة المعنى ، وعَنْ طريقِ دلالتها على المقصُود عَمَد إلى بيان ما في اصطفاءِ الفعل « ألفين » وهُو الَّذي يُفسَّر بالفعل : (أجدنَّ) ومن ثَمَّ قد يَرِدُ كلٌّ في سياقٍ يَقتضيه ، وليسا سواء على ما جاء في كتاب الله تعالى :

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلۡ نَتَّبِعُ مَآ أَلۡفَيۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوۡ كَانَ ءَابَآؤُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ شَيۡـًٔا وَلَا يَهۡتَدُونَ ﴾ (البقرة:١٧٠)

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُواْ حَسۡبُنَا مَا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوۡ كَانَ ءَابَآؤُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ شَيۡـًٔا وَلَا يَهۡتَدُونَ ﴾ (المائدة:١٠٤)

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلۡ نَتَّبِعُ مَا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوۡ كَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ يَدۡعُوهُمۡ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ (لقمان:٢١)

يذهبُ الشَّيخ إلى أنّـه «ليس مِن الْمقبولِ أنْ نقُول إنّهما سواءٌ وأنَّ قوله عليه السلام: «لا ألْفينَّ أحدَكم» هو قولُنا: «لا أجِدنّ أحدَكم» ؛ لأنَّ هـذا يُوجِبُ العبثَ فِي اللغةِ، وقدْ أجمعُوا علَى أنَّ هذِهِ العربيّة الشَّريفةَ منزّهةٌ عن العبثِ

ووجهُ العبثِ أنْ تكونَ فيها كلمتان متساويتين فِي الدلالةِ، لأنَّ وجودَ الثّانيةِ عبثٌ واللغةُ فِيها كثيرٌ من الكلماتِ الّتي تفسّر بعضُها ببعَضٍ، كما هنا، وقد صَادفنِي كثيرٌ منْ ذلِك فِي دراستِي لـ«آل حم» ولم أجدْ كلامًا لِمَنْ يُؤخذُ عَنهم العلم يُعينني علَى أنْ أفرّقَ بيْن الكلمتين، وكنتُ أجتهدُ «ويخطئُ في الحدسِ الفتَى، ويُصِيبُ»

وطريقِي في ذلك إلى الرّجوعِ إلَى أصلِ المادّةِ في الاشتقاقِ الصّغير أو الكبيرِ.

وكلمة «ألفاه» فيها معنى زائد عن كلمةِ «وجدَه» ؛ لأنَّ فِيها شوبًا من الألفةِ، وألفينّا عليْهِ آباءنا، أي وجدناه وألفناه، و«لا أُلفين أحدكم» أيْ لا أجده وجودًا على حالةٍ قد ألِفها، لأنّ البَعيرَ الَّذي على الرَّقبةِ يبقى يَومَ القيامةِ، وهو يومٌ عند ربك كألفِ سنةٍ ممَّا تعدُّون، وهو كذلِك حتّى يُساقُ الناسُ بعد الحساب إمَّا إلى جنةٍ، وإمَّا إلى نارٍ.

وكلمة «وَجدنا عليْهِ آباءنا» فِيها شَوبٌ من الميلِ إلَى الّذي كانَ عليْهِ الآباء، وهذا الميلُ يرشَحُ علَى الكلمة من أختِها الّتي هِي «الوجد» وهِي أخت «الوجود» فِي الاشتقاقِ..» [1].

---

(١) شرح أحاديث من صَحيحِ مسلمٍ. ص ٢/٥٤٨، ٥٤٩

في هذا البيان من الخير ما نفتقرُ إلى تبيينه ، لعلنا نهتدِي به فيما قد يعنّ لنا في تلقّي مثل ذلك البيان :

منطلق شيْخِنا متمثّل في مذهبِهِ إلى أنّـه ليسَ في العربيةِ كلمتـان متطابقتـان في « المعنى » و« الدَلالة » ؛ لأنَّ ذلك يلزمُه العبثُ .

والقول بانتفاء « الترادف » : (التطابق بَيْن كلمـتين معنًـى ودلالـة) نـاظر إلى أصُول مذهبيّة منها ما قررته نظرية « الـنظم الجُرجانيـة » في مسـتوى التركيـب فقد قضَى الإمام بأنّـه إذا ما تقاربتْ جُملتان تقاربًا جدَّ عظيم ، وكان ثَـمّ فـارقٌ ما فإنَّ هذا الفارق يقضي بأن بيْن النَّظمين فرقًا في المعنى والدّلالة .

يقُولُ الإمام « لا يكونُ لإِحدى العِبارتين مزيّةٌ عَلَى الأُخرى ، حتى يكونَ لها في المعنى تأثيرٌ لا يكونُ لصاحبتها[(١)] .

فإنْ قلتَ : فإذا أفادتْ هذه ما لا تُفيدُ تلكَ ، فليسَتا عبارتَيْنِ عَنْ معنى واحدٍ ، بل هُما عبارتان عن معنَيَيْن اثنيْنِ .

قيل لكَ : إنَّ قولَنا « المعنى » في مثل هذا ، يُـرادُ بـه الغَـرضُ ، والـذي أرادَ المتكلمُ أن يُثْبته أو يَنْفِيَه ، نَحْو إنْ تَقْصد تشـبيهَ الرجـلِ بالأسـد فتقـولَ « زيـدٌ كالأسد » ، ثم تريدُ هذا المعنى بعينهِ فتقولُ : « كأن زيداً الأسدُ » ، فتُفيدُ تشبيهَهُ أيضاً بالأَسدِ ، إلاَّ أنك تَزيدُ في معنى تشبيهِهِ به زيادةً لم تَكُنْ في الأوَّلِ ، وهي

---

(١) قولهُ « مزية على الأخرى » يفيد في سياقِه أن« المزية » هو الخصُوصـية النظميـة الـتي في العبارة من نحو تقديم أو تعريف أو نحـو ذلـك ، فالمزايـا هـي الظـواهر النظميـة القائمة في البيان . ولعل هذا يدفع قول من قال إن الخصائص ما كان ظاهرة تركيبيـة فهي إلى علم المعاني ، والمزايا ما كان ظاهرة دلالية فهي إلى علم البيان .
قد يكون هذا مقبولا إذا اجتمعا فقال الخواص والمزايا أما إذا أفردا فيدل كـل عليهمـا معا : الظـاهرة النظميـة والظـاهرة الدلاليـة . فهمـا يفترقـان معنـى إذا اجتمعـا لفظـا ، ويجتمعان معنى إذا أفردا ، وهذا كمثل كلمة (سبحان) و(تعالى) في البيان القرآني إذا اجتمعا تميزا معنًى ، وإذا أفردا التقيا معًا .

أنْ تَجعله من فَرْط شَجاعته وقوّةِ قَلْبه ، وأنَّـه لا يَرُوعُه شيْءٌ ، بحيْث لا يتَميَّـزُ عن الأسدِ ، ولا يُقَصِّر عنه ، حتَّى يتوَّهَم أنّـه أسدٌ في صُورة آدميٍّ .

وإذا كان هذا كذلك ، فانظرْ هـل كانـتْ هـذه الزّيـادةُ وهـذا الفـرقُ إلاَّ بمـا تُوَخِّيَ في نظمِ اللفظِ وترتيبهِ ، حيثَ قُدِّم «الكافُ» إلى صَدرِ الكلامِ ورُكِّبتْ مع «أنَّ» ؟ وإذا لم يكنْ إلى الشَّكِّ سبيلٌ أنَّ ذلكَ كانَ بالنَّظم ، فاجعلْه العِبْـرَة في الكلام كله ، ورُضْ نَفْسَك على تفهُّم ذلكَ وتَتبُّعه ، واجعلْ فيها أنك تزاولُ منه أمْراً عظيماً لاَ يُقادَرُ قَدْرُه ، وتَدخُلُ في بحرٍ عَميقٍ لا يُدْرَك قعرُه»[1].

عبد القاهر لم يقل إنَّ الجملتين اختلفتا في الغرضِ العام الذي هـو التشـبيه بالأسد ، لكنهما تفاوتا في المعنى البياني والأثر النّفسِـي وفي دلالـة كـلّ علـى ذلك المعنَى ، فالغرض الذي اختلفتا فيـه عنـد عبـد القـاهر هنـا هـو الغـرضُ الخاصّ (وهو يشمل المعنـى المقصُـود المكنـون في صـدر المـتكلم والمعنـى المدلول الحاملته صورة المعنى المقصُود) ، وليس مجرّد التشبيه العامّ .

هنالك ثلاثة أنواع من المعنى :

«المعنى المقصُود» وهوالمعنى النفسِي القائم في صدر المتكلّم .

و«المعنى المدلول» وهوالذي تحمله العبارة من مقصود المتكلم المصـنوع في صَدرِه .

و«المعنى المفهوم» وهو الذي يتلقاه السّامع من العبارة . في سياقها المقالي والمقامي .

لا تتطابق هذه الأنواع الثلاثة في البيـان الإنسـانيّ ، ولكنهـا في بيـان الـوحي يتطابق المعنى المقصُود والمعنى المدلول ، أمّا المعنى المفهوم ، فهُو لا يتطابق البَتة مَع المعنى المقصُودِ والمعنى المَدلول ؛ لأنـّه راجعٌ إلى «المتلقي» وليس

---

(١) دلائل الإعجاز(م . س): ص ٢٥٨ فقرة : ٣٠٠

هنالك متلقٍ يكونُ فهمُه مِن الكلام متطابِقًا تطابقًا كامِلا مع المعنى المقصُود الرَّاجعِ إلى المتكلِّم ، ومَعَ المعنى المَدلول الرَّاجع إلى دَلالة الصُّورة على المعنى في سِياقها .

وإذا كان هذا في ما بيْن الجُملتين بيْنهما فرقٌ يَسير في الصُّورة ، فإنَّ عبدَ القاهر يذهبُ إلى أنّه ليس هنالك كلمتان هُما سواءٌ فِي كلّ نظمٍ وسِياقٍ فلكلّ معنًى لفظه الخاصّ . يقولُ وهُو يحقق القولَ في البلاغة والفصاحةِ والبيانِ والبراعةِ وما شاكل ذلك : « ومِنَ المَعلومِ أنْ لا معنَى لهذه العباراتِ وسائرِ ما يَجْري مَجراها ، ممّا يُفردُ فيه اللفظُ بالنَّعتِ والصّفةِ ، وينسبُ فيه الفضلُ والمَزيَّةُ إليه دونَ المَعنى ، غيرُ وصْفِ الكلام بِحُسْنِ الدَّلالة وتمامِها فيما له كانت دَلالةٌ ، ثم تَبرُّجِها في صورةٍ هي أبهى وأزْيَنُ وآنَقُ وأَعْجَبُ وأَحقُّ بأنْ تستوليَ على هَوى النفس ، وتنالَ الحظَّ الأوفرَ من مَيْل القلوب ، وأولى بأن تُطْلِقَ لسانَ الحامدِ ، وتُطِيلَ رغْمَ الحاسد .

ولا جهةَ لاستعمال هذه الخصال غيرُ أنْ تأتي المعنى من الجهة هي أصح لتأديته . وتختارُ له اللفظُ الذي هو أَخصُّ به ، وأَكْشَفُ عنه وأَتمُّ له ، وأَحرى بأن يَكسبه نُبلاً ، ويظهر فيه مزية . » [1]

عبد القاهر كما ترى نعت اللفظ الذي هو صُورة المعنى بخَمسة نُعُوت ، وهي ليستْ بِمنسوقة على سبيل التَّرادف لتحسين العِبارة ، بل هِي منسوقةٌ نسقًا يكشفُ عن خصائص اللفظ .

ترى أوَّل خاصة هي أن يكون اللفظ أخصّ بالمعنى وهذا يقضِي بأنَّه ليس هنالك ترادف لا على مسْتوَى الكلم أو الكلام . فصورة المعنى في المفرد وفي الجملة ، إذا اختلفت اختلف المعنى . وهذا الذي جاء بِه عبدُ القاهر حمله من سلفه ومن حمله عنهم أبو سليمان حمد الخطابيّ (ت : ٣٨٨هـ) يقُول :

---

(١) دلائل الإعجاز . ص : ٤٣ فقرة : ٣٥

« اعلم أنَّ عمودَ هذه البلاغةِ التي تجمع لها هذه الصفات هو وضعُ كلِّ نوعٍ من الألفاظِ الّتي تشتملُ عليها فصول الكلام موضعه الأخص الأشكل به ، الذي إذا أُبدل مكانه غيره جاء منه : إما تبدل المعنى الذي يكون منه فساد الكلام ، وإما ذهاب الرّونق الذى يكون معه سقوط البلاغة ، ذلك أن فى الكلام ألفاظًا متقاربة في المعاني يحسب أكثر الناس أنها متساوية في إفادة بيان مراد الخطاب . . .

والأمرُ فيها وفي ترتيبِها عند علماء أهل اللغة بخلاف ذلك ، لأنَّ كلَّ لفظةٍ منها خاصيَّة تتميّزُ بها عن صاحبتِها في بعض معانيها وإن كانا قد يشتركان في بعضها »[1]

وهذا الذي أقام عليْه « الخطابي » أمره كان « أبو هلال العسكري » (ت:٢٩٥هـ) قد قرّره بقولِه : « الشَّاهِدُ على أَنَّ اخْتِلافَ الْعبارَاتِ والأسماءِ يُوجبُ اخْتِلافَ الْمعَانِي أَنّ الاسْم كلمةٌ تدلُّ على معنى دلالَة الإِشَارَة وَإِذا أُشير إِلَى الشَّيْء مرّة وَاحِدَة فَعرف فالإشارة إِلَيْهِ ثَانِيَة وثالثة غير مفيدة وواضع اللُّغَة حَكِيمٌ لا يَأْتِي فِيهَا بِمَا لا يُفِيد فَإِن أُشير مِنْهُ فِي الثَّانِي وَالثَّالِث إِلَى خلاف مَا أُشير إِلَيْهِ فِي الأول كَانَ ذَلِك صَوَابًا ، فَهَذَا يدلُّ على أَنَّ كلَّ اسْمَيْنِ يجريان على معنى من الْمعَانِي وَعين من الأَعْيَان فِي لُغَة وَاحِدَة ، فَإِنَّ كلَّ وَاحِدٍ منْهما يَقْتَضِي خلافَ مَا يَقْتَضِيهِ الآخرُ وَإِلا لَكَانَ الثَّانِي فضلاً لا يحْتَاجُ إِلَيْهِ وَإِلَى هَذَا ذهب الْمُحَقِّقُونَ من الْعلمَاء »[2]

---

(١) بيان إعجاز القرآن ، تأليف : أبي سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم الخطابي (ت:٣٨٨هـ) تحقيق محمد خلف الله ، دكتور محمد زغلول سلام ، نشر : ضمن كتاب : ثلاث رسائل في إعجاز القرآن (سلسلة : ذخائر العرب عدد ١٦) دار المعارف . مصر . ط(٣) سنة : ١٩٧٦م . ص : ٢٩

(٢) الفروق اللغوية . تأليف أبي هلال الحسن بن عبد الله بن سهل العسكري (ت : نحو ٣٩٥هـ) تَحقيق : محمد إبراهيم سليم . نشر دار العلم والثقافة للنشر والتوزيع ، القاهرة . ص : ٢٢

فهؤلاء الثلاثة الأعلام في العلم بلسان العربية إفهامًا وفهمًا لا يذهبون إلى القول بالترادفِ (التطابق بَيْن كلمتين معنًى ودلالة) [1] لما يترتَّب عليْه من العبثيّة .

والقولُ بأنَّ العبثيّة لازمٌ القولَ بـ« التَّرادف » إنّما مخرجُه الذَّهاب إلى أنّ الوضع اللغوي للألفاظ كان من واضعٍ في زمان ومكان واحد ، وليس من واضعَين اختلفا زماناً ومكانًا ، كأنْ تكون قَبيلةٌ قد وضعت لأداة الذّبح اسم « الْمُدية » وقبيلة وضعت لها اسْمَ « السِّكين ».

ومن جعل الوضع واحدًا كأنّه يذهب إلى أنّ الوضعَ اللغويّ توقيفٌ أوتوفيقٌ وإلهامٌ كالتوقيف . وهو أقرب .

والأهمّ أنَّ العقلَ البلاغيّ لا يُعنَى بشأنِ اللغَةِ خَارجَ سِياق الاستعمال في غالبِ الأمر ، وإنّما مناط عنايتِه بها داخل سياق الاستعمال .

والقولُ بتعدّد الواضعين الّذي لا يلزمه القول بعبثية « التَّرادف » عندَ مَن يقُولُ بِه لا يضرُ لأنَّ مَردَّ « البلاغة » الَّتي هي مجالّ التّفاضل بيْن المتكلمين جعله إلى ثلاثة : الاختيار والصَّنعة واستدراك صوابٍ .

---

(١) فسَّرت « الترادف » بتطابق الكلمتين معنًى ودلالة ، لكيلا يدخل فيه ما إذا كان هنالك تقاربٌ بيْن المعنيين أو الدلالتين وإن عظم هذا التقارب .
هذا التقاربُ البالغ قد يقع بيْن كلمتين ، وحينذاك يكون مناط عناية البلاغي ما بيْن الكلمتين المتآخيتين معنًى أودلالة أو فيهما معًا ما بيْنهما من فروق خفيّة .
أنا لا أومن أن هنالك كلمتين متطابقتين معنًى ودلالة تطابقًا تامًّا ، بحيْث لا يكون أدنى فرق بينهما ، ومخرج هذا أنّهما إذا ما اختلفتا في صُورة المعنى (اللفظ) فلا محالة أنّ هذا التغاير في« الصورة» لا بدَّ أن يهدِي إلى فرق دفين ، لا تدركه إلا بصيرة نافذة .
وكلمة « ترادف » دالة على أنهما ليسا سواء لأن الترادف يقتضي أن يكون أحدهما أوّلاً والآخر تاليا ، فليس سواء في كلّ شيءٍ ، فالمصطلح هادٍ إلى أنّ ثَم فرقًا ما . وذلك هوطَلبة الخاصّة ومأمُّهم الأنْفس .

روى البُخَاري في كتاب « أحاديث الأنبياء » وكتاب « الفرائض » بسنده عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ ـ رضى الله عنه ـ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ :

« كَانَتِ امْرَأَتَانِ مَعَهُمَا ابْنَاهُمَا ، جَاءَ الذِّئْبُ فَذَهَبَ بِابْنِ إِحْدَاهُمَا فَقَالَتْ لِصَاحِبَتِهَا إِنَّمَا ذَهَبَ بِابْنِكِ . وَقَالَتِ الأُخْرَى : إِنَّمَا ذَهَبَ بِابْنِكِ . فَتَحَاكَمَتَا إِلَى دَاوُدَ ـ عَلَيْهِ السَّلاَمُ ـ فَقَضَى بِهِ لِلْكُبْرَى ، فَخَرَجَتَا عَلَى سُلَيْمَانَ بْنِ دَاوُدَ ـ عَلَيْهِمَا السَّلاَمُ ـ فَأَخْبَرَتَاهُ فَقَالَ ائْتُونِى بِالسِّكِّينِ أَشُقُّهُ بَيْنَهُمَا . فَقَالَتِ الصُّغْرَى : لاَ تَفْعَلْ يَرْحَمُكَ اللَّهُ . هُوَ ابْنُهَا . فَقَضَى بِهِ لِلصُّغْرَى » .

قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ وَاللَّهِ إِنْ سَمِعْتُ بِالسِّكِّينِ قَطُّ إِلاَّ يَوْمَئِذٍ ، وَمَا كُنَّا نَقُولُ إِلاَّ الْمُدْيَةَ .

من سمى أداة الذبح « سكينًا » نظر إلى ما تفعله في الذبيح ، فهي تُسكن حركتَه ، أو من شأنها أن تفعلَ ذلك ، فهي سكين على زنة « فعّيل » أيْ تحدث السّكون لما يذبح بها .

ومن سماها « مدية » نظر إلى أنّها تجرى الدّم وتسيله . والعرب تسمّي الحوض الذي ليس له ما يمنع سيلان الماء منه ؛ المدِيّ على زنة « فعيل » والمَدِيُّ أَيضاً : جَدْوَلٌ صَغِيرٌ يَسِيلُ فِيهِ مَا هُرِيقَ مِنْ مَاءِ الْبِئْرِ .

فكلٌّ ينظرُ إلى فعلٍ من أفعاله ، وليس يخفى أن تسميتها « سكينا » مترتبٌ على تسميتها « مدية » فهي « مدية » تسيل الدّم فيسكن الذبيح فتكون سكينًا . وعلى هذا ليس كل ما يدمي سكينًا ، فقد يقع الإدماء ، ولا يقعُ بِها السكون (الموت) وكلّ ما يُسْكنُ بسبب الإدماء « سكين » . فافترقا .

العقلُ البلاغيّ ينظرُ إلى بلاغة اختيار كلمة « سكين » حين يقتضي السياقُ والقصد ما في هذه الكلمة من معنى السكون والإفضاء إلى الهلكة .

وينظرُ إلى بلاغة اختيارِ كلمة « مدية » حين يقتضي السّياق والقصدُ مافي كلمة « مدية » من معنى إسالة الدّم ـ فلا تصلح كلمة « مدية » في النّظر البلاغي « موضع كلمة « سكين » فلكلّ موضعه الذي هوأخصّ به ، وآنس .

جاء اختيارُ كلمةِ « سِكّين » دون « مدْيَة » فِي قول اللهِ تعالَى : ﴿ **فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَـٰشَ لِلَّهِ مَا هَـٰذَا بَشَرًا إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ** ﴾ (يوسف:٣١) وظاهِرُ الحال أنْ تكونَ كلمةُ « مُديَة » أوفقَ وآنَسَ ؛ لأنَّ امرأة العزيزِ ما أرادَتْ أن يُحدثْنَ بها ما يقعُ بِهِ سُكونُ الموتِ ، بلْ إسالةَ الدَّمِ .

والنَّظرُ المُتَثبِّتُ يرَى أُنْسَ السِّياق بكلمة « سِكّين » .

الإعرابُ بِكلمَةِ « سِكّين » يهدِي إلى أنـّها لَم تؤتِ كلَّ واحدةٍ ما يُمكنُ به مُجرّد الإدماءِ ، بلْ آتَتْ كلَّ واحدَةٍ مِنهن ما من شأنِه أن يقعُ بِه الإدْماءُ الذي يُمكن أن يتحقّق بِه السّكون موتًا ، ولذا قال « قطّعن » فلَو قال « مُدية » لما تآخَى مَع قوله « قطَّعن » فما يقعُ به التَّقطيعُ لا القطعُ فَحسبُ هُوَ يَكونُ سِكّينًا .

لا يسْتطيعُ أحدٌ لَه نصيبٌ من ذوق البيانِ أن يقُولَ إنّ كلمتيْنِ سَواءٌ فِي اقتضَاءِ السِّياقِ القصدَ إليْهما ، وأنَّ البليغَ لَهُ حرية الاختيارِ ، هذا لا يكونُ .

لم يكنْ البليغُ قطُّ ذا حرية مطلقةٍ في الاختيارِ بيْن البدائل .

البليغُ خاضِعٌ لِسُلْطانِ السّياقِ والقصد ، ، هما اللّذان يَحملانِه على أن يَختارَ الكلمَ ومنهاج الإبانة ، ومستوى الدلالة . . . . فيَخضَعُ لذلك خضُوع المُحبّ المتبتّل . وقِيمة البليغ فِي علمِه بِحالِ الكَلِم ومناهجِ الإبانةِ وأحوال المخاطبين ومقتضِياتِ السّياق والقصد ، وفي قدرتِهِ علَى أنْ يسْتجيبَ لتلك المقتضياتِ .

* * *

والشّيخُ دلنا على طريقته في ذوق الفروقَ التي ما بيْن الكلمتين المتقاربتين والتي تفسّر إحداهما بالأخرى . يهدينا إلى أنّه يرجع إلى الأصل الذي اشتقتْ منْه كلّ كلمةٍ ، فيتبصّر ما يكونُ فِي مشتقاتِ كلِّ أصلٍ من مَعانٍ حاضرةٍ فِي عظمِ هذه المشتقاتِ حضورُ معنى في عظم المشتقات من أصلٍ هادٍ إلى أن ذلك المعنى هو المعنى المركزيّ لهذه المادة .

وهذا قد اتخذه أعيانٌ من أهلِ العلم على نحو ما تراه من صَنيع أحمد ابن فارس الرّازي (ت : ٣٩٥هـ) عصري أبي هلال العسكري ، في كتابه الفريد « مقاييس اللغة » فقد كان مهمومًا في تبيين المعنى الأم الذي تدور عليه معاني المُفردات المشتقة من ذلك الأصل ، وقد كان للبقاعي (ت ٨٨٥هـ) عناية خاصة بهذا المذهب ، فأفسح له صفحات كثيرة في تفسِيره ، لأنَّ هذا ما يتواءَم مع « علم التناسب » الذي أخضعه برهان الدين البقاعِي لـ« علم المقاصد » ، فكان بذلك واضعًا لبنة عظيمة في متن العلم . وأضحى « علم التناسب » على يديه في شأن غيرِ الذي كان من قبلِه . وكذلك يَصْنعُ الرّجالُ .

المُهمّ هنا أن شيخَنا التفت إلى تبصّر ما يكون قائمًا من معنى المشتقات من أصلِ الكلمة ، فيرَى أنَّ في أصل كلِّ كلمةٍ مِن الكلمتين المتقاربتين معنًى ليس في أصل الأخرَى ، فيجعلُ ذلك منطلقه في تذوق كلّ في سياقها الذي جرت فيه .

نظر في الفعل « ألفى » فألفى في مشتقات أصله معنى « الألفة » فجعل ذلك حاضراً في الإبانة بالفعل « ألفَى » فلا يقال « ألفيت كذا إلا إذا كان هذا فيه شوبُ الألفة بذلك ».

ووجد في الفعل « وجد » معنى في مشتقاتِ أصل هذا الفعل هو معنى « الميل » فجعل ذلك حاضراً في الإبانة بالعقل « وجد » دون « ألفى » فلا يقال « وجدت » إلا إذا كان هنالك ميل إلى ذلك .

ذلك سبيل الشيخ في ذوق الفروق الدلالية بيْن الكلمات التي تتقارب في المعنى والدلالة .

ذاق الفعل (ألفى) في قول رسُول الله ﷺ (لا أُلفين أحدكم . . .) فرأى أنّ فيه تحذيراً بالغًا من أن يلفى المرء على ذلك الفعل لأنـَّه لا يليقُ بعاقلٍ أن يفعله ، فكيف بأن يُؤلف وجوده عليْه . . ؟ فاصطفاء الفعل (ألفى) آنسُ بمقامِ الإبلاغِ في التَّحذيرِ من الاعتداء على المالِ العامّ . فالاعتداءُ عليْه أَشدَّ ضُراًّ على الأمة من الاعتداء على المال الخاصِّ ، فإذا ما كان الاعتداءُ على المال الخَاصِّ شُرع فيه قطعُ اليدِ ، فإنَّ الاعتداءَ على المالِ العام لم يُشرعْ فيه حدٌّ معينٌ ، وتُرك أمرُ العقُوبة في الدّنيا لتقديرِ القاضِي العدلِ الخبير الحكيم البصير بحال الأمة ، الطّهور من التبعية لهوى السلطان ، والمتزكّي من أيّ شائبة تعيقه عنْ أن يقيم العدل على كل من نظر فِي أمرِه غير هيَّابٍ ولا وجلٍ ولا مجاملٍ ولا طامعٍ في غيرِ رضوانِ اللهِ تعالى ، ـ وأنَّى لنا بمثلِه ـ فله أن يبلغَ في تعزيره مبلغًا أشدَّ من قطع اليد ، وفقًا لما يقدِّره من الضُّرِّ الواقِع على الأمَّة ، ولِما يُقدّره مِن مَنعةِ الأمَّة بتغليظِ العُقوبةِ أوْ تخفِيفِها ، فالأمرُ متروكٌ فيه لِمراعاةِ المَصْلَحةِ العامّةِ

وممَّا يجبُ أن نكون على ذكرٍ منه أنّ الاعتداءَ علَى المالِ الخاص يمكنُ لصَاحبِ المالِ المعتدَى عليْه أن يعفُو عَن المعتدِي احتسابًا ، أمَّا المال العام فليس لأحدٍ البتةَ أن يعفو عن المعتدِي ، ولوكان ولي الأمر العامّ ، فليس من حق ولي الأمرِالعام رئيسًا أو ملكًا ولا لمجلس النّواب أوأي مجلسٍ كان أن يتصالح مع المعتدِي على المال ، ولو وافق على ذلك كلُّ الشعب إلا واحدًا أيًّا كان ذلك الواحد من المواطنين صغيراً أو كبيراً عالمًا أو جاهلاً مسلمًا أو غير مسلم ، لأنّ له حقًّا في هذا المال العام . فإن تصالح ولي الأمر العام أو مجلس الشعب أو القضاء مع من اعتدى على هذا المال العام بغير موافقة جميع

الشعب بغير استثناء فهو المعتدى الظلوم الغشوم ، وهذا يسْقط عدالته ، ويوجب نهيه عن المنكر ، فإن انتهى فنعما ، وإلا وجب خلع ولايته بالحسنى .

الشَّريعةُ الإسلاميّة نصَّتْ على عُقوبة آثامٍ وجرائمَ ولمْ تنصَّ على عقوبة جرائِم أشدَّ منها ، وليس ذلِك إلا إطلاقًا ليد العدالة في أن تعملَ بما فيه صِيانة الأمّة في كل عصرٍ ومصرٍ وفق ما يراه القضاءُ الشَّريف الطَّهور .

* * *

وكذلك تجدُ الشَّيخ يتذوق الإعراب بالفعل (أدلجوا) من دون ما يُمكنُ أنْ يُحسب أنّه يُمكن أن يقُوم مقامه ما يقاربه من نحو (غَدوا) (ارتحلوا) في ما رواه مسلم في كتاب (الفضائل) من صَحيحه بسنده عَنْ أَبِى مُوسَى عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : « إِنَّ مَثَلِى وَمَثَلَ مَا بَعَثَنِىَ اللَّهُ بِهِ كَمَثَلِ رَجُلٍ أَتَى قَوْمَهُ فَقَالَ يَا قَوْمِ إِنِّى رَأَيْتُ الْجَيْشَ بِعَيْنَىَّ وَإِنِّى أَنَا النَّذِيرُ الْعُرْيَانُ فَالنَّجَاءَ . فَأَطَاعَهُ طَائِفَةٌ مِنْ قَوْمِهِ فَأَدْلَجُوا فَانْطَلَقُوا عَلَى مُهْلَتِهِمْ وَكَذَّبَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ فَأَصْبَحُوا مَكَانَهُمْ فَصَبَّحَهُمُ الْجَيْشُ فَأَهْلَكَهُمْ وَاجْتَاحَهُمْ فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ أَطَاعَنِى وَاتَّبَعَ مَا جِئْتُ بِهِ وَمَثَلُ مَنْ عَصَانِى وَكَذَّبَ مَا جِئْتُ بِهِ مِنَ الْحَقِّ ».

تبصَّر الشيخُ مختارَ بيان النّبوّةِ ، فرأى في مُختاره معنًى لا يكون فيما تَركه من أقران الفعل « أدلج » ، رأى في هذا الفعلِ مِن الحثّ على أن يتخذَ المرءُ موقفًا خاصًّا حين يَعرفُ الحقّ ويتبيّنه ، لا يليق به إلاّ أن يكونَ عليْه .

يقول : « أفهمُ مِن هذا السَّطر : « فأطاع طائفةٌ من القومِ ، فأدلجوا ، فانطلقُوا » أنّها تقول لِي ولك : إذا عرفتَ الحقَّ فسارعْ إلى الطَّاعةِ والحركةِ السَّريعةِ في أول الليل وآخره المفهوم من كلمة « فأدلجوا » وانطلقْ مَع مَنْ معكَ مِمّن عرفَوا الحقَّ ، وسَارعُوا فِي نُصرتِه ، ودفع الباطلِ وحزبِه حتّى تتكونَ منكم الْعصبَةُ الّتي لا تزالُ قائمةً علَى الحقِّ تحمِيه حتَّى يأتيَ يوم القيامةِ .

وأفهمُ من كلمة « فأدلجوا » أنَّهم ارتحلوا عمّا كانوا عليْهِ من وثنيةٍ وجهلٍ وضلالٍ وباطلٍ إلى التوحيد . . . وباختصار « الإدلاج » يعني الخُروجَ من الظلمات إلى النور »[1]

دلنا الشّيخُ على أنَّ هذا الفعل لا يصلحُ مكانَه الفعلُ (بادروا) وفيه معنى الإسراعِ ؛ لأنّ في الإدلاج معنًى ليس في كلمةِ « بادروا » :

المبادرةُ قد تكون من حَسن إلى أحسنَ ، بل مِن أحسنَ إلى حسنٍ ، بل من حَسن إلى أسوأ . . . بينما « أدلجوا » لا تكونُ إلا من الأدنى إلى الأعلى من ظُلمة إلى نورٍ ؛ لأنَّ الإدلاج حركةٌ خاصَّة بالليل ، وليس فِي كلِّ زمان كالمبادرة في أيِّ وقتٍ . كذلك يتذوقُ الشيخ خصُوصية الفعل . « أدلجوا » . ويضيف الشّيْخُ توكيدًا وتبيينا : « ومن الجيدِّ البالغ أن رسول الله ﷺ قال : « فأدلَجوا » وما كان يُمكنُ أن يقُولَ « فاغتدوا » أي ساروا غدوةً ؛ لأنَّ المرادَ أنّه جاءَهم النّذِيرُ صَلَواتُ اللهِ وسَلامُه عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ وهم فِي ليلٍ مُظلمٍ ، فتحرَّكوا لِيخرجوا مِنْ هذا الليلِ .

وكلمةُ « فأدْلَجوا » تشبه كلمة « الليل » فِي قَولِه عليه السّلامُ : « لَيَدْخلنَّ هذا الدين ما دخلَ عليْه الليلُ » أي ظلمات الجهلِ والتخلفِ ، وما يُمكنُ أن يقول ليدخلنّ هذا الدّين ما دخل عليْهِ النهار »

روى الطبراني في المعجم الكبير بسنده عَنْ تَمِيمٍ الدَّارِيِّ ، أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ : « لَيَبْلُغَنَّ هَذَا الدِّينُ مَا بَلَغَ اللَّيْلُ ، حَتَّى يَدْخُلَ بَيْتَ الْمَدَرِ ، وَبَيْتَ الْوَبَرِ ، حَتَّى يُعِزَّ اللهُ بِهِ الإِسْلامَ ، وَيُذِلَّ الْكُفَّارَ »

---

(١) شَرْحُ أحاديثَ منْ صَحِيحِ مسلم : ٦٢٨/٢، ٦٢٩

قَالَ تَمِيمٌ : « قَدْ عَرَفْتُ ذَلِكَ فِي أَهْلِ بَيْتِي قَدْ أَصَابَ مَنْ أَسْلَمَ مِنْهُمُ الْخَيْرُ ، وَالشَّرَفُ ، وَالْعِزُّ ، وَأَصَابَ مَنْ ثَبَتَ مِنْهُمْ عَلَى الْكُفْرِ الذُّلُّ ، وَالصَّغَارُ ، وَالْجِزْيَةُ » (حديث رقم ١٢٨٠)

يقُول الرافعي معلقا : « في الحديث الشريف : « ليدخلن هذا الدين على ما دخل عليه الليل » . وكأن العبارة نص على أن الإسلام يعم حين تظلم الدنيا ظلامها الشعري . . . إذا طمست الإنسانية بلذاتها ، وأظلمت آفاقها الروحانية ؛ فيجيء الإسلام في قوة أخلاقه كشباب الفجر ، يبعث حياة النور الإنساني بعثًا جديدًا . وهذا هو رأينا في مستقبل الإسلام : لا بد من انحلال أوربا وأمريكا ، كما يصفر النهار ، ثم يختلط ، ثم يظلم ، ثم تطلب الطبيعة نورها الحي من بعد »[1].

يريد الشيخ أنّ كلمة « النهار » ليس فيها ما يفيد الانتقال من ظلمة إلى نور ، كالتي في كلمة « الليل » غير أن حديث : ليبلغن هذا الدين ما يلبغ الليل . القصدُ الرَّئيس منه هو عُمومُ الرسالة وبلوغها كلّ مكانٍ ، فذلك هو المسوق له الكلام سوقًا رئيسًا ، وهو ما يُسمّى عند علماء أصول الفقه الحنفي بـ« دلالة العبارة» ولا يمنع هذا أن يُفهم بطريق « دلالة الإشارة» ما ذهب إليْه شيخنا .

قد تقُولُ : ما سيق له الحديث سوقًا أصليا لا يمنع أن يقال : « ما بلغ النهار » لأن هذا المعنى الرئيس متحقق بهذه العبارة .

قلتْ : إنْ الذَّهابَ إلى ما يكونُ عطاؤه أوفرَ وفسطاطه أوسعَ وأرحبَ ، وغيثُه أسكبَ وأطيبَ هو الأوجبُ في منهاجِ الإبانةِ إفهامًا .

---

(١) من وحي القلم : تأليف مصطفَى صادق الرافعي .. نشرالهيئة المصرية العامة للكتاب . سلسلة مكتبة الأسرة سنة ٢٠٠٣هـ . ٨/٣

لو قال (النهار) وحده لكان عطاؤه مقصُوراً على ما سِيق له البيان سوقًا أصليًّا ، ولا يهدي إلِيْنا ما يُهديه البيان بكلمة (الليل) والأليَقُ بمقامِ النّبوّةِ أن يكونَ عطاؤه أوفرَ .

وفي مسند أحمد ، والمستدرك للحاكم عَنْ تَمِيمٍ الدَّارِىِّ قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ « لَيَبْلُغَنَّ هَذَا الأَمْرُ مَا بَلَغَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَلاَ يَتْرُكُ اللَّهُ بَيْتَ مَدَرٍ وَلاَ وَبَرٍ إِلاَّ أَدْخَلَهُ اللَّهُ هَذَا الدِّينَ بِعِزِّ عَزِيزٍ أَوْ بِذُلِّ ذَلِيلٍ عِزًّا يُعِزُّ اللَّهُ بِهِ الإِسْلاَمَ وَذُلاًّ يُذِلُّ اللَّهُ بِهِ الْكُفْرَ » . وَكَانَ تَمِيمٌ الدَّارِىُّ يَقُولُ قَدْ عَرَفْتُ ذَلِكَ فِى أَهْلِ بَيْتِى لَقَدْ أَصَابَ مَنْ أَسْلَمَ مِنْهُمُ الْخَيْرُ وَالشَّرَفُ وَالْعِزُّ وَلَقَدْ أَصَابَ مَنْ كَانَ مِنْهُمْ كَافِراً الذُّلُّ وَالصَّغَارُ وَالْجِزْيَةُ .

فهذه الرِّواية جمعتْ بيْن الليل والنهار ، وهذا يشير إلى مجالين :

الانتقال من ظلمةٍ إلى نور (الليل) .

والانتقال من نورٍ إلى ما هو أكثر نوراً منه (النهار) .

فليس أوّل النَّهارِ أوْ آخره كوسطِه إضاءة ودفْءُ ، فهذه الرّواية أشارتْ إلى أَن الإِسلامَ سيحلُّ في كلِّ مكان ، وسيحدثُ تغيراً إلى الحَسن مهْما كان شأنُ المنتقلِ منه . ممَّا يعنِي أنَّ كلَّ أهلِ عصرٍ ومصرٍ وجنسٍ وثقافةٍ وحالٍ وشأنٍ هُم أحوجُ إلى هذا الدّين ، فليس هنالك أَحدٌ يُمكن أنْ يكونَ فِي غَناءٍ عنه . حتى وإنْ كان ما حوله وما في داخله مضيئًا ، فهو بحاجة إلى نورِ هذا الدّين . كحاجةِ مَن كان ما حوله ، وما في داخله ظُلمة حالكةُ .

وإذا ما كان قول الشيخ : « ومن الجيّد البالغ » قد يفهم منه العَجِلُ أنه نعت بيان النبوة بأنه (جيد) وهو نعت هنالك ما فوقَه الأليق ببيانِ النُّبوَّةِ فإن الأمرَ عندي على غيرِ ذلك .

لو تبصّر هذا العَجلُ لعلم أن كلمة « جيّد» لا تعنِي هنا الجَودة التي هي الخلو من المعابة ، بل تعني فوق هذا الجُود والإحسانِ ، يقال فلان جيّد أيْ

جوادٌ ، فقوله « الجيّد البالغ » أي الذي يجودُ عليك بالمعاني ، فيبلغُ بك ما يحسنُ بك أن تبلغه إن أنتَ أحسنت التلقّي ، وانصرفت إليه وأعرضتَ عمَّا سِواه .

ويلفتنا قوله : « وما كان يُمكنُ أن يقُولَ « فاغتدوا » » إلى أن البليغ ليس حرًّا في أن يختار بيْن البدائل اختياراً مُطلقًا بل السِّياقُ والمقامُ والقصدُ يحمله إلى وجهٍ لا سبيلَ له إلى غيرِه . فلو أنَّك رفعت من بيانِه كلمةً ووضعت مكانها أخرى تقاربها ، لاستوحش السّياق من الأخرى ما أقيمت فيه ، واستوحشت هي مما أقيمت فيه وهذا يستشعره الذوق الصفاءُ ، وبهذا يستطيع أصحاب اللقانية والفراسة البيانية أن يتبينوا من خلال « المتن » مدى صِحة انتساب البيان إلى رسُول الله ﷺ ، فيكون منهم بذلك عونٌ لأعيان الأئمة في علم « السند » . فعلم البلاغةِ العربي يُمكنه أن يكون عونًا لعلم الحديثِ سندًا ومتنًا إنْ قام لذلك رجالٌ عُصِمُوا بإيمانهم وإخلاصِهم وزهدهم مِن فتنة المَسيح الدّجال و « بلاطجته » وبغيِهم وفجورهم في هذا الزَّمان الهَوان .

ألا ترى أنَّ النُّقاد الكبار يستطيعون أن يُميّزوا بيْن ما هو من مذهب الشاعر ، وما أقحم عليه ، أو استلبه من غيرِه على نحو ما هو معلوم عند الناشئة من طلاب العلم بالعربية ما كان من شأن الفرزدق مع ذي الرمة ، حين استرفد ذوالرمة جريرًا فأرفده بأبيات يهجو بها هشام بن قيس المرئيّ ، فلما سمع الفرزدق قصيدة ذي الرمة علم الأبيات التي خرجت من نفس جرير ، فقال له : والله ، لقد علكهن من هو أشد لحيين منك ، هذا شعر ابن المراغة[1] .

---

(١) ينظر : بيان إعجاز القرآن ، تأليف أبي سُليمان حَمد الخطابي(م . س) ص ٢٥
أو : الأمالي ، تأليف : أبي علي القالي ، إسماعيل بن القاسم (ت : ٣٥٦هـ) عُني بِه محمدُ عبد الجواد الأصمعيّ . نشر : دار الكتب المصرية . ط(٢) عام : ١٣٤٤ هـ ، ١٤١/٢

وانظر كتابي : قطرات الندى : معالم الطريق إلى فقه المعنى الشعري في سياق القصيدة . ط١، عام١٤٢٢هـ مطبعة النعمان الحديثة . / شبين الكوم . مصر ص ٥٣

إذا كان هذا في شأن الشعر ، فكيف بشأن بيان النبوة الذي يبصر أهل الحكمة النور فيه ، ويسْتشعرون فيه جلال النّبوة والرحمة المحمديّة . ؟

ومن بعدِ أن يتذوق الشَّيخ ما في قول النبيّ ﷺ « فأدلجوا ، فانطلقوا على مهلتهم » يعقبُ قائلا : « وهكذا تجد الكلمات محسُوبةً بِحسابٍ دقيق ؛ لأنّه عليه السلام يُبلّغ دينًا ، والدين عقيدةً وشريعة وسلوكٌ ، فإذا لم يكن البلاغُ غاية في الدقةِ اضطرب علينا أمرُ اليقين وأمرُ السلوك ، ولم يكنْ منْ هذا [أي الاضطراب] شيْءٌ ؛ لدقة بلاغه عليْه السّلامُ ودقّة لغتِه ودقة بلاغتِه .

ولا تزالُ الأمة على المحجّةِ البيضَاءِ ليلُها كنهارِها ، وهِي اليومَ وغدًا ، وإلى أن تقُوم الساعةُ كيوم كان فِيها صَلَواتُ اللهِ وسَلامُه عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ .

وأعجبُ جدًّا من أن يكونَ هذا الضبطُ الرائعُ عفو الخاطرِ ، وعفو البديهةِ ، وليس ثَمرةَ مراجعةٍ ورويّةٍ ، ويذهبُ العجبُ حين أذكرُ أنّه توفيق اللهِ الذي لا يزالُ يُصِيبُ كثيرًا مِن علماءِ الأمّةِ الَّذين لَهم نصيبٌ مِن ميراثِ النبوة »[1] .

الشَّيخُ يحملنا بهذا إلى أنّ نؤمن أن تبليغ الدِّين لا يكفِي فيه أن يكون صَاحبه محيطًا بدقائقِ العلم جامعًا لها في صدره ، بلْ عليه أن يكونَ اجتهادُه في هذا يعْدِلُه اجتهادُه في امتلاك أدواتِ إيصالِ هذه الدَّعوةِ إلى قلوب العبادِ فِي أحسنِ صورةٍ مِن اللفظ ، ﴿ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا ﴾ (النساء:٦٣) ومِن وجوه معناه : وقل لهم قولاً بليغًا في أنفسِهم ، فهو على التقديم والتأخير أيْ قلْ لهم قولا يتوغّل في نفوسهم ليقيمَهم في سياقِ الصِّراع النَّفسيّ بين الحق الذي حمله بيانك إليها ، وباطلهم الذي مَردوا عليه . وهو

---

(١) شَرْحُ أحاديثَ منْ صَحِيحِ مسلم : ٢/٦٣٠

صورة من صور الجهاد في سبيل الله تعالى : « جَاهِدُوا الْمُشْرِكِينَ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَأَلْسِنَتِكُمْ »[1].

وإتقان إبلاغ كلمة الحق في نفوسِ أهل الباطل ليشتعل الصراع بينهما في نفوسِهم ، هو من فرائض العلماءِ والدُّعاة ، وطلابِ العلم . وهذا يستوجبُ أن يكونَ أهلُ الدَّعوةِ أقدرَ على المُجاهدة بالكلمةِ الحقِّ تحقيقًا ، وتوثيقًا ، وفهمًا ، وإفهامًا . فمن قضى من جُهده وعمره ليتعلم الجهاد بالكلمة الحق ، وليقتدرَ على أن ينفذَها في النُّفوسِ لتنيرَها ولتزهق ما فيها من الباطلِ والشَّر هو بهذا مِن الغزاة المجاهدين في سبيل الله تعالى .

رَوَى مسلم في كتاب « الإمارة » عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ « مَنْ مَاتَ وَلَمْ يَغْزُ وَلَمْ يُحَدِّثْ بِهِ نَفْسَهُ مَاتَ عَلَى شُعْبَةٍ مِنْ نِفَاقٍ ».

و« مَنْ جَهَّزَ غَازِيًا فِى سَبِيلِ اللَّهِ فَقَدْ غَزَا ، وَمَنْ خَلَفَ غَازِيًا فِى سَبِيلِ اللَّهِ بِخَيْرٍ فَقَدْ غَزَا» . (متفق عليه)

وإذا ما كان من أصُولِ القِرى والجود عند أهله أنَّه ليس المُهمّ وحده أن تبالغ في إعداد القرى لضيفك ، بل الأهمّ معه أن تحسن تقديمه إليه وإغراءه بأن يَطعم ، وأن يتضلع من قراك ، فإنَّ الاعتناءُ بعلم التبليغ الفاعل قرينُ

---

(١) رواه أبو دواد والنسائي في كتاب « الجهاد » من سننهما ، وأحمد في مسنده ، والدَّارمي في سننه والحاكمُ في المستدرك ، والبيهقيُّ في السّنن الصُغرى والكبرى ، وابن حبان في صَحيحه ، (وصَححه الألباني)

ذِكري أكثر من مصدر للحديث حين لا يكون في أحد الصحيحين : للبخاري ومسلم ليس من قبيل التكاثر ، معاذ الله تعالى أن يكون .

إنما هو إبلاغٌ في الدّلالة على أنّ جمهرة من أهل العلم بالحديث على وثاقة نسبته إلى سيّدنا رسُول الله صلّى الله عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ وسَلّمَ ، وهذا من خدمة العلم وطلابِه ، وكذلك ليتيسر لمن لم يكن عنده واحد من هذه المصادرإن اكتفيت به أن يجده في غيرِه . (يسروا ولا تعسروا) (البخاري : العلم ، والأدب)

الاعتناء بعلم ما يبلِّغ ، لأنّ علم التبليغ والإيصال والتوطين والتفعيل في القلوب هو الذي يمنح ما يُبلغ الحياة والفاعلية .

التّبليغُ الفتيّ هو رُوح العلم ، وعالمٌ بلا لِسانٍ فتيٍّ حكيمٍ لا ينتفعُ به الانتفاع الأتمَّ

عَجِبْتُ لِمَنْ لَهُ قَدٌّ ، وحَدٌّ وَيَنْبُو نَبْوَةَ القَضِمِ الكَهَامِ

وَمَنْ يَجِدُ الطَّرِيقَ إلى المَعَالِي فَلا يَذَرُ المَطِيَّ بِلا سَنَامِ

وَلَمْ أَرَ في عُيوبِ النَّاسِ شَيْئاً كَنَقْصِ القادِرِينَ على التَّمامِ .

الشَّيخُ مُحْتَفٍ بهذا لأنا قد ابتلينا في زماننا هذا بمن قاموا لتبليغ الدَّعوة ، وإرشاد العباد ، وليس لهم من اللسان ما يعدل ما لهم من العلم ، فلم ينتفع بهم الناس . فقد بات غير قليلٍ ممن ينسبون إلى أهل العلم لا يتكلمون وهم على منابرهم ، وفي منتدياتهم ، وقاعات تدريسهم إلا كمثل ما يتكلم الدَّهماء في الأسواق ، وهم بذلك لا يدركون أنهم يبطلون أعمالهم ، وأنّهم بذلك كالرَّاغبين فيما نهى الله تعالى عنه : ﴿ **وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّتِى نَقَضَتۡ غَزۡلَهَا مِنۢ بَعۡدِ قُوَّةٍ أَنكَـٰثًا** ﴾ (النحل:٩٢).

﴿ **يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبۡطِلُوٓاْ أَعۡمَـٰلَكُمۡ** ﴾ (محمد:٣٣) (١)

من هنا كانت عناية شيْخنا ببان منهاج النبوة في الإبانة إفهامًا ، ومن هنا حرصت على أن أحمل إليك كلامه في هذا .

---

(١) إذا كان كل عاقل هو الحريص على أن يصنعَ الخير وأن يبني المجد ، فهو الأولى به أن يكون الأحرصَ علَى أن يحمي صنيعه وما بنى مما يبطله .

وعواملُ إبطال الأعمال الصالحة جد كثيرة ، متنوعة ، وحرى بأهل العلم أنْ يكونوا أحرصَ على بيان تلك العوامل للنَّاسِ ، ولا سيما ما يتعلق بالأرزاق الحسية والمعنوية ، وما يتعلق بحقوق العباد ومناصَرة الزورِ وأهلِه فِي أي مجالٍ من مجالات الحياة ، ولا سيما المجالات السياسية ذات الأثر العام النافذ .

أراد الشيخ منا أن نحيي سنة سيّدنا رسول الله ﷺ في منهاج الإبانةِ عَن المعاني ، منهاج التَّمكن والإتقان الّذي يُبرز العليّ المُدهش من البيان دقةً ونفاذًا في صُورة الفطري الذي لا يحتشدُ له . وهذا مبلغ لا يبلغُه الدّاعية إلا إذا بالغ في الاجتهاد تعلماً وتدربًا وممارسةً .

هذه السُّنة من السنن الموات ، على الرغم من أنها أعظم أثرًا في الأمّة من سنن يتمسك بها غير قليل هي في نفسِها جليلة الأثر في صاحبها ، ولكن غيرها أعظم نفعًا للأمة ولصاحبها ، فهي الأولى بالتمسك ، وهي المقدمة على غيرِها .

ويسلك الشَّيخُ مسلكًا يعالجُ به ما قد يتسلل إلى بعضِ النّفوس : يبرز لنا أنَّ هذا الَّذي كان من النبيِّ ﷺ كان فطرة ، وكان توفيقًا من الله تعالى ، وهنا قد يحتج المتهالكون بأنه نبيٌ وليسوا بأنبياء ، فإذا بالشيخ يُبين أنَّ للعلماء الذين هم ورثة الأنبياء نصيبًا من التوفيق الذي كان لمن هم ورثته ، إذا ما عَملوا على أن يكونوا بحقٍ أهلاً للوراثةِ ﷺ ، فإن اللهَ تعالى لن يَحرمَهم ممَّا منحه لرسُوله ﷺ من التوفيق والتَّسديد . وفي هذا حملٌ لأهل العلم والدَّعوة على الاجتهاد في امتلاك مهارة دقة البيان وفتوته ، وملاحته في النفوس .

ولا يتوقف الشَّيخُ عن حملنا إلى أن نحْمِل من عطاءِ قول النّبيّ صَلَواتُ اللهِ وسَلامُه عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ : « فأدْلَجوا ، فَانطلقُوا على مهلتهم » فيستأنف لفتنا إلى ما فيه قائلاً : « هذا يدعونا إلى إعادةِ مراجعةِ هذه الكلماتِ الثلاثِ التي هِي » « فأدْلَجوا ، فَانطلقُوا على مهلتهم » لأنّ هذا وصفٌ لأتباعِه عَليْهِ الصّلاة والسّلامُ ، وأنَّ الإدلاجَ الَّذي هو خروجٌ من الظلمةِ شأنٌ مِنْ شؤونِ المتبعينَ لِسُنّتِهِ عَليْهِ الصّلاة والسّلامُ ، هم قومٌ مُرتحلون مِنْ الْجهلِ إلى العلمِ ، مِن كلّ ما يشْبِه الظُّلمةَ فِي حياةِ البشرِ إلى كلّ ما هو نُورٌ وضِياءٌ . . . .

وكلمة « الإدلاج » فِي وصف أتباعِه عليْه السلام تفتحُ أبوابًا من المعاني لا حدودَ لها ، ومنْ وراءِ هذا « الإدلاجِ » الَّذي لا يقرُّ الذين هو (إي الإدلاج)

شأنهم علَى شَيْءٍ يُعارضُ الحياة الأكرمَ والأفضلَ وفرةُ النَشَاط وصدقٌ، وحزمٌ، وعزمٌ تشيرُ إليْه كلمة «فانطلقوا»

ومن وراء هذ الانطلاقِ عُقُولٌ تفكر وتخطّط على رويةٍ وأناةٍ، وكمَا ينهَضُونَ إلَى الصّلاةِ والزكاةِ والحجّ ينهضُونَ إلى مجالسِ العلم . . . . .

هذا شيءٌ مَّا أراه فِي وصفِه عليه السلام لأتباعه» [1]

كأنّـي بالشيخ يقولُ لنا إذا لم تكن كذلك فلست من أتباعه حقًّا، وإنما أنت من أتباعه اسمًا ورسمًا، وقد جاء في بيان النّبوة: «إِنَّ اللَّهَ لاَ يَنْظُرُ إِلَى صُوَرِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ» (مسلم: كتاب البِرّ والصلة والأدب. باب: تحريم ظلم المسلم وخذله)

كذلك تَرى حركـةَ الشّيْخِ فِـي تذوقِـه، وفِـي إيضَـاح المعـانِي فِـي قَلْبِـهِ، واسْتخراجِ مكنوزها، وكلّ هذا هوعندِي أقربُ إلى المواهبِ من المكاسِب.

* * *

ومِمّا يحسن أن ألتفت إليه إيراد مسلم هذا الحديث: «إِنَّ اللَّهَ لاَ يَنْظُرُ إِلَى صُوَرِكُمْ . . . .» (في باب تحريم ظلم المسلم وخذله، ففي هذا الإيرادِ إعرابٌ عن أنّ على المسلم أن لا يتخذَ ممَّا ترَى عينه مـن صُـورة أخيـه منفـذًا إلى أن يتخذَ منه موقفًا، ولو كان موقفًا جوانيا نفسيًّا، يرَى من هيئته ما قد يرغبه فيه أو عَنه، بل عليْه أن يتخذَ موقفه من أمرين رئيسين: أن يحسِن الظـنّ بـه أولاً فهذا حقه عليْه، ثم يتبصر حالَه ليرى أيبقَى علـى إحسـانِ الظـن بِـه أو يتخـذ موقفًا آخر يستمده من نفاذ بصيرتِه فِي ما يمارسُه أخـوه مـن أعمـالٍ هـو لهـا مصاحب، فذلك أقربُ إلى العدل. فربَّ رجلٍ يفخُم في عينك، وهوعنـد الله

---

(١) شَرْحُ أحاديثَ منْ صَحِيحِ مسلم: ٢/٦٣٣، ٦٣٤

تعالى لا يَسْوَى جناح بعوضة ، وربّ رجلٍ تتقحمُه العين هو صَناع خيرٍ وناشره ، ونصير حقٍّ بالحقّ[1] .

روى التّرمذي في كتاب «المناقب» من جامعه بسنده عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : «كَمْ مِنْ أَشْعَثَ أَغْبَرَ ذِى طِمْرَيْنِ لاَ يُؤْبَهُ لَهُ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لأَبَرَّهُ مِنْهُمُ الْبَرَاءُ بْنُ مَالِكٍ». قَالَ أَبُو عِيسَى هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ حَسَنٌ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ .

وليس في هذا دعوةٌ إلى أنْ يهمل المرء حسن هيئته ما أمكنه ذلك ، ولم يشغله عن حق ينصُره أو خيرٍ ينشره ، فإن شغله الاعتناء بهيئته عن أي منهما كان الاعتناء بهيئته مرغوبًا عنه . حتى يجد له وقتًا .

يقُول الله سُبْحانَه وَبِحمدِهِ ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴾ (الأعراف: ٣١)

وهذه الآيةُ تفهمُ في صحبةِ قولِ الله جَلَّ جَلالُهُ : ﴿ قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ قُلۡ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا خَالِصَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ﴾ (الأعراف: ٣٢)

تبصر قوله (زينة الله) وما في هذه الإضافة من محاجزة كلمة (زينة) من أن تستصحب عجبًا وخيلاء ، وأن يتفهم أيضًا في صُحبة ما رواه البخاري في كتاب «التيمم» و «الصلاة» من صَحيحِهِ بِسندِهِ عَنْ جَابِرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ أَنَّ النَّبِىَّ ﷺ قَالَ «أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ قَبْلِى نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ ، وَجُعِلَتْ لِىَ الأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا ، فَأَيُّمَا رَجُلٍ مِنْ أُمَّتِى أَدْرَكَتْهُ الصَّلاَةُ

---

(١) كلمة (يَسْوى) بِسكون السين وفتح الواو ،هي من معجم الإمام الشافعي،فهو يستعملها مع كلمة (يُساوِى) فأحببت إحياءها محبة في الشافعيّ خلقًا وعقلاً ولسانًا .

فَلْيُصَلِّ ، وَأُحِلَّتْ لِيَ الْمَغَانِمُ وَلَمْ تَحِلَّ لأَحَدٍ قَبْلِي ، وَأُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ ، وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً ، وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً».

فالأرض كلها مسجد فيه يأخذ المسلم زينته الخاشعة لله تعالى حيثُ حلّ مستصحبًا شرف عبوديته لله تعالى وأخوته النّاسَ أجمعين

* * *

ومما تلبث عنده الشَّيخُ يتذوقُه في هذا الحديث أيضًا التَّذكير والتَّأنيث في الأفعال ، كما في قول رسُول الله صَلَواتُ اللهِ وسَلامُه عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ «فَأَطَاعَهُ طَائِفَةٌ مِنْ قَوْمِهِ فَأَدْلَجُوا فَانْطَلَقُوا عَلَى مُهْلَتِهِمْ وَكَذَّبَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ».

جاء فعل الطاعة مذكرًا ، وفعل التَّكذيب مؤنثًا ، وجاءَ الفاعل «طائفة» مؤنثًا فما وراءَ العدول عن التَّذكيرِ أوَّلاً ، والعُدول إلى التأنيث ثانِيًا . ؟ ومن البيِّن أنَّ العدولَ تذكيرًا وتأنيثًا هو بابٌ من أبواب الحَمل على المَعنى الَّذي هو ممّا يُعرف بـ« شجاعة العربية »[(١)]

يبصِرُ الشّيخُ في تذكير الفعل (أطاع) والفاعلُ مؤنّثٌ مجازيٌّ : «طائفة» ما في التذكير من معنَى الرّشد وكمال العقلِ وكمال المَسؤوليةِ وكمال القوامة ، وهؤلاء هم الحكماء ، وهم الكرماءُ ، وهم العقلاءُ الذين لا تلعبُ بهم الأهواءُ والعواطفُ .

ويبصرُ في تأنيثِ الفعلِ «كذّب» ما في الكَذبِ مِن نقصِ وعيِهم بما جاءَ به النَّذيرُ العُريان ، وهُو يُشيرُ إلى أنَّ شيوخَ العربيَّةِ قد أشاروا إلى ما في التأنيثِ مِن لينٍ ورخاوةٍ ، فالتأنيثُ هنا أَفْهمَنا أنَّ هذه الطائفةَ لَم تقدحْ عقولَها ما سمعتْ قدحَ العقلاءِ الحكماءِ للخيرِ[(٢)] .

---

(١) الخصائص . تأليف أبي الفتح عثمان بن جنّي (ت : ٣٩٢هـ) تحقيق محمد على النجار . نشر : الهيئة المصرية العامة للكتاب . القاهرة سنة ١٩٩٩م ، ١٣/٢

(٢) شَرْحُ أحاديثَ منْ صَحيحِ مسلم : ٦٣١/٢

تأنيث الفعل وتذكيره ليس مرده إلى نوع الفاعل فحسب ، بل مرده كذلك إِلى طبيعة الفعل حين يكون الفاعل غير واجبٍ تذكيرِ الفعل معه . فالمتكلم ، إِذَا ما أفسحت له العربية أن يؤنِّثَ الفعلَ ويُذكرَه ، فما هذا الإذنُ منها بالذي يمنحُه الحريَّة المُطلقة في الاختيار بلْ من وراءِ ذلك ضابطٌ هو ما يتلاءمُ مَع حالِ الفعلِ ، ومعَ حالِ القصدِ ، وهذا هو مأمّ العقلِ البلاغيِّ ومَسْعاه .

وفي القرآن جاء قوله تعالى :

﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۚ وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ كُلَّمَآ أَوْقَدُوا۟ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ ۚ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا ۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾

(المائدة: ٦٤)

﴿ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (الحجرات: ١٤)

﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ (الشعراء: ١٠٥)

﴿ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴾ (هود: ٩٤)

﴿ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِى ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ ۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ۖ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ (يوسف: ٣٠)

﴿ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴾

(هود: ٦٧)

التأنيث في ما جاء فيه كان فيه إشارةٌ إلى أنَّ هذا الفعلَ من الضَّعفِ والبُعدِ عن الحقِّ ما فيه .

والتَّذكيرُ جاء للدَّلالة على قوَّة الحدثِ ونفاذِه ، فالصَّيحةُ في شأن قوم صالح جاء أخذها مذكرًا تناسبًا مع حال ثمودَ ، فهم قومٌ أشداءُ جابوا الصَّخر بالواد ، ونحتوا من الجبال بيوتا ، وجاء مؤنثًا مع قوم شعيب من أنهم تجارٌ ليسوا في قوة ثمود فكانت الصيحة التي أهلكتهم أقل قوة من التي أهلكت ثمود ، فدل عَلى القوة بِتذكير فعل الأخذ ودلَّ على ضعف الصيحة بتأنيث الفعل .

ومن هذا «قالت الأعراب» لأنه قول كذب ، و«قالت اليهود» لأنَّه قول ضال ، أما «قال نسوة» فإنّه قول نافذ في النّاس منتشر فيهم ، صانع لفتنة بينهم ، فدل على هذا بتذكير فعل القول .

ومن هذا تدرك الفرق بين قولنا : طلعت الشمسُ وطلع الشمس ، نقول الأول إذا أردنا الإعراب عَن أنَّ حرارة الشمس ليْست محرقة ، ونقول (طلع) إذا ماأردنا أن نشير إلى أنَّ حرارتها بالغة الشدة .

وهكذا ننظر حينًا إلى ذات الفعل وحينا إلى أثرِه ، وحينا إلى حال إيجاده سهولة وصعوبة فنبني الفعل على التذكير إن كان في نفسِه حقًّا أو كان أثره نافذًا عميقًا ، أو كان إيجاده عصيًّا ، ونبني الفعل على التأنيثِ إذا ما كان الفعل في نفسه باطلاً أو كان تأثيره ضعيفًا أو كان إيجاده ميسورًا على فاعلِه ، فأنت في كلٍّ نازلٌ على ما يقضِي بِه الحال ، وهو يدلّك على أن علم البلاغة العربيّ ليْس علمًا معياريًّا ، بل هو علمٌ سياقيّ مقاصدي .

* * *

ممَّا ترى «الذَّوق» الرَّشيد عند شَيْخنا ظاهرَ الحضور ، وذكاءَ قلبِه متوقّدًا ما تراه في تدبره ما رواه مسلم في كتاب الطهارة من حديث نُعَيْم بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْمُجْمِرِ قَالَ رَأَيْتُ أَبَا هُرَيْرَةَ يَتَوَضَّأُ ، فَغسَلَ وَجْهَهُ ، فَأَسْبَغَ الْوُضُوءَ ، ثُمَّ غَسَلَ يَدَهُ الْيُمْنَى حَتَّى أَشْرَعَ فِى الْعَضُدِ ، ثُمَّ يَدَهُ الْيُسْرَى حَتَّى أَشْرَعَ فِى الْعَضُدِ ، ثُمَّ مَسَحَ رَأْسَهُ ، ثُمَّ غَسَلَ رِجْلَهُ الْيُمْنَى حَتَّى أَشْرَعَ فِى السَّاقِ ، ثُمَّ غَسَلَ رِجْلَهُ الْيُسْرَى حَتَّى أَشْرَعَ فِى السَّاقِ ، ثُمَّ قَالَ : هكَذَا رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَتَوَضَّأُ .

وَقَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « أَنْتُمُ الْغُرُّ الْمُحَجَّلُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ إِسْبَاغِ الْوُضُوءِ ، فَمَنِ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ ، فَلْيُطِلْ غُرَّتَهُ وَتَحْجِيلَهُ » .

يعمدُ شَيْخُنا إلى أنْ يُقيمَ شيئًا مكان شيْءٍ جاء به البيانُ النَّبويّ لِيُريك فرقَ ما بين ما عليه البيانُ النّبوّي وما يُحسبُ أن غيرَه أولَى وأمكن .

يتبصّر (ثم) في قول سيّدنا «نعيم» : « ثُمَّ غَسَلَ يَدَهُ الْيُمْنَى » ، « ثُمَّ يَدَهُ الْيُسْرَى » ، « ثُمَّ مَسَحَ رَأْسَهُ ، ثُمَّ غَسَلَ رِجْلَهُ الْيُمْنَى » ، « ثُمَّ غَسَلَ رِجْلَهُ الْيُسْرَى » وظاهر الأمر أن يؤتى بـ« الفاء » لوجوب التعاقب في غسل الأعضاء . يقُول الشيخ : « وقَفتُ أيضًا عندَ تِكرارِ كلمةِ « ثمّ » ولَمْ أجدْ لَها المَغزَى الذي هوظاهرٌ فِي تكرارِ « أشرع » ، ووجدتُها وقعتْ فِي مفاصلِ ترتيبِ غسل الأعضاءِ ، وترتيبِ غسلِ الأعضاء على التَّوالي ، وليس على التَّراخِي ، وهذا يَجعلُ « الفاء » أولَى بالموقع منها[1] ، فوضعتُ « الفاء » مكانها ، ثمَّ حاولتُ أن أتذوقَ الكلامَ ، فوجدتُ البيان قدْ نبا بِهذه الفاءِ التِي يظهرُ لِي أنَّها الأوْلَى بالموقِع ، ثُم بدا لِي أنّ (ثُمَّ) جاءت لا لِتدعَ مسافةً زمانيةً بيْن غسلِ الأعضاءِ ، وإنّما لِتنتجَ مددًا نفسيًّا لإشباعِ الإسباغِ فِي الذي قبلَها »[2] .

---

(١) شيْخنا تلقَى المذهب المالكي تعلّمًا في الأزهر ، والمذهبُ المالكيّ يجعل « الموالاة » من الفرائض السبع لصحة الوضوء ، وتحقق الموالاة بأن يغسل المتوضئُ العضو . قبل أن يجف العضو الذي قبله بحيث لا يصبر مدة يجف فيها الأول عند اعتدال المكان والزمان والمزاج .

ينظر : الذخيرة . تأليف : شهاب الدين القرافي : أبي العباس أحمد بن إدريس ابن عبد الرحمن القرافي (ت : ٦٨٤هـ) تحقيق محمد حجي ، وآخرَين . ط(١) عام ١٩٩٤م ، نشر : دار الغرب الإسلامي ـ بيروت . : ٢٧٠/١

أو « الفقه على المذاهب الأربعة » تأليف : عبد الرحمن بن محمد عوض الجزيري (ت : ١٣٦٠هـ) ط(٢) ١٤٢٤هـ ، نشر : دار الكتب العلمية ، بيروت ، ٥٦/١

(٢) شَرْحُ أحاديثَ منْ صَحِيحِ مسلم : ٣٠/١

تبصّرْ قولَه : « فوضعتُ « الفاء » مكانها ، ثمَّ حاولتُ أن أتذوقَ الكلامَ » تجده يرسُم لك منهجًا في تلقّى عطاءات البيان ، تقيم ما يُمكن عربية أن يكون مقام ما أَوْجَبَهُ السياقُ والقصد فجاء عليْه البيانُ لترَى فرقَ ما بيْن العطاءين ، لا ريْب أنك لن ترى مناط الفرقِ الصّحة اللّغويّة في أحدهما دون الآخر ، فلسنا هنا في التحرُّز منَ اللحن وزيغ الإعراب ، أو معاظلةٍ أو تعقيد لفظي ، كلا » وإِنّما نحن في أمورٍ تُدرَك بالفِكَر اللطيفةِ ، ودقائقَ يُوصلُ إِليها بثاقِب الفهمِ ، فليس دركُ صوابٍ دركًا فيما نحنُ فيه حتَّى يَشْرُفَ موضعُه ، ويَصعُبَ الوصولُ إِليه ، وكذلك لا يكونُ تَرْكُ خطأٍ تَرْكاً حتى يُحتاجَ في التحفُّظِ منه إِلى لُطْف نظَرٍ ، وفَضْل رويّةٍ ، وقوَّةِ ذهنٍ ، وشدّةِ تيقظٍ .

وهذا بابٌ يَنبغِي أَن تُراعِيَه وأن تُعْنى به ، حتَّى إِذا وازنْتَ بيْنَ كلامٍ وكلامٍ ودريْتَ كيفَ تَصْنعُ ، فضمَمْتَ إِلى كلِّ شَكْلٍ شكْلَه ، وقابلْته بما هُو نظيرٌ له ، وميَّزْتَ ما الصَّنعةُ منه في لفظِه ، ممَّا هُو مِنه في نظمِه »[1] .

أبرز لنا الشَّيخُ أثر السياقِ في صرف (ثم) عن ما وضعت له من الدلالة على « التراخي » الزّماني والرتبي ، لتحمل معنى آخر اقتضاه السياق هو الإسباغ في صناعة الفعل (الغسل) وكأنَّ ما في الإسباغ من تمهلٍ يَقْتضِيه الوفاء بحق الفعل، ما يتلاحظ مع « التراخي » الذي هو أصلُ موضوع « ثُمّ » فهي لم تَنفصم عن « التَّراخي » انفصامًا كاملاً ، ولكنّها حملتْ منه نوعًا آخر غيرَ الذي عهد حملها له ، وهكذا يهدي إلينا السياق اتساعًا في مجالات فاعلية « الكلم » ، ومِثْلُ هذَا هُو ثَمرَةُ التّذَوّقِ وذَكاءِ القلبِ معًا .

* * *

وممّا أبصرته من ذكاء قلبه وإنضاجه المعرفة إنضاجًا قام أثره فيَّ وأنا أتلقّى ما رقنت يمينه ما قاله في تبصره ما رواه الإمام مسلم في كتاب « التوبة »

---

(١) دلائل الإعجاز . ص ٩٨ فقرة ٨٦

من صحيحـه بسنـده عنـد عبد الله بـن مسعـود رَضِـيَ اللهُ عَنـه قَـالَ : سَـمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يقول :

« لَلَّهُ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ الْمُؤْمِنِ مِنْ رَجُـلٍ فِـى أَرْضٍ دَوِيَّـةٍ مَهْلَكَـةٍ مَعَـهُ رَاحِلَتُهُ عَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ ، فَنَامَ ، فَاسْتَيْقَظَ ، وَقَدْ ذَهَبَتْ ، فَطَلَبَهَا حَتَّى أَدْرَكَـهُ الْعَطَشُ ، ثُمَّ قَالَ : « أَرْجِعُ إِلَى مَكَانِى الَّـذِى كُنْـتُ فِيـهِ ، فَأَنَـامُ حَتَّـى أَمُـوتَ » فَوَضَعَ رَأْسَهُ عَلَـى سَـاعِدِهِ لِيَمُـوتَ ، فَاسْـتَيْقَظَ ، وَعِنْـدَهُ رَاحِلَتُـهُ ، وَعَلَيْهَـا زَادُهُ وَطَعَامُهُ وَشَرَابُهُ ، فَاللَّهُ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ الْعَبْدِ الْمُؤْمِنِ مِنْ هَذَا بِرَاحِلَتِهِ وَزَادِهِ » .

ينظرُ في قول رسول الله ﷺ : « فَنَامَ فَاسْتَيْقَظَ وَقَدْ ذَهَبَتْ فَطَلَبَهَا حَتَّى أَدْرَكَهُ الْعَطَشُ ثُمَّ قَالَ أَرْجِعُ إِلَى مَكَانِى الَّذِى كُنْتُ فِيهِ » فيرَى ما في استيقاظ الرّجـل وإدراكه ذهابَ راحلتِه إعرابًا عنْ حالِ التّائب الّذي يستيقظُ مـن غفلتـه ، فيجـدُ دنيـاه وأخراه قـد ذهبـا ، يقـول : أنـا أفهمُ مـن هـذا ، ـ ولك أنْ تقـرّ فَهـمِـي أو لا تقرّه ـ أنّـه لـم يـدرك أنَّ الرّاحلة الّتي عليها زاده ومزادَه فِي رحلتِـه سَـواء كانتْ الرّحلة الحقِيقية المعروفةَ أوْ فِي رحلتِهِ الّتي هِي رحلةُ الحياةِ بِتقلباتِها لَمْ يُدركْ أنَّ الرّاحِلةَ ذَهبَتْ إلا لَمَّا استْيقَظَ ، وأنّـه لَمَّا كان نائمًا كانَ لايدري ....[1]

ولا أستطيعُ أنْ أدفعَ عَنْ نفسِي ، وأنا أقرأُ قَولَه عليْه السّلامُ : « وقـد ذهَبَـتْ فطلبها حتّى أدركه العطشُ »... معنًى أنّه لمَّا ذهبتْ راحلتُه ، وعاشَ فِي مَهْمَـهٍ ، لا يدرِي فِيه طريقَ الهُدَى ، واستنفرتْ نفسُهُ كلَّ طاقاتِ فُجورها كانَ ، وهو فِي هذه المَعمَعةِ من الضلالِ [والهذل] واللعب والزينةِ والتفـاخرِ يجـد صَـوتًا فِـي أعماقِهِ يبحثُ عن الزادِ والمزادِ ، ويبْحثُ عن الرَّاحلةِ التي ترحلُ بِه إلى موطن الأمن والأمان ، وأنَّ الشَّرف والشَّرفينِ والثَّلاثة كلّ ذلك كانتْ لَه صُـورةٌ حسـيَّةٌ لاشكَّ فيها ، وكانتْ تُصَاحبُه صُورة نفسيَّةٌ هي أيضًا توشِـك أن تكـون لاشـك فيها »[2].

(١،٢) شَرْحُ أحاديثَ منْ صَحِيحِ مسلم : ٢/٧٤٤

ثم يمضي الشَّيخُ في لفتنا إلى ما في كلمة « حَتَّى أدركه العطش » وأبان أنَّها مع دلالتها الحسية دالةٌ على عظيم شوقِه إلى غيثِ الهدايةِ والفطرة ، ثم يتلبث عنْدَ دلالة رغبة الرّجل وقد يئس في أن يرجع إلى المكان الذي كان فيه ليموتَ فيه .

هنا يُنضج قلبُ الشّيخ لنا دلالة ذلك على ما في ذلك من الحَنين إلى المعنى الرُّوحيّ الَّذي يُفهم مِن الرَّغبة في الرّجوع إلى المكان الذي كان فيه ، فهو رمز للفطرة التي كان عليها ليموت فيها غير مفارقها .

هذا المعنى الذي أبصره الشَّيخ في رغبة الرجل في الرجوع إلى مكانه الأول لا يبلغه المرءُ إلا إذا توقد قلبه وافتأد لينضج هذه العبارة : « أرجع إلى مكاني الذي كنت فيه حتى أموت »

والشّيخ يلفتنا بقولِه : « لما كان نائمًا كان لا يدري » إلى حال العاصي الغافل قبل توبته ، لندرك حالنا ونحنُ في المعصية ، وكأنَّ هذه الحال تحاجزُ المَرْء عن أن يُدرك الحقيقة ، فهو في غيْبة عمَّا يجرِي فيه .

ومثل هذا لا يرضاه عاقلُ لنفسِه .

ولَو لم يكنْ في المَعصية إلا هذا لكنَّا أحقّ بأن نحاولَ الفرارَ منها حين نقعَ في قبضتها ، فليسُ جلال الله تعالى وحده هوالذي يحاجز عن المكث في المعاصي بل جعل الله جَلَّ جَلالُهُ للمرءِ السوي من نفسِه أيضًا ما يجعله يفرُّ من المعصية حين يقع في أسرِها . فيكون ثَمَّ حاملان عظيمان على أن يخرج من قبضة المعصية :

الأول : الأعظم شأن الله تعالى الجليل .

والآخر : ما يجب أن يكون المرء عليه من الوعي بحاله وما يُحيط به ، وما يجري فيه .

ولذا كان في الجاهلية رجالٌ لا يشربون الخمر إجلالاً لأنفسهم من أن يقيموها فيما تقيمُ فيه الخمر شاربها ، وتلك هِي الرُّجولة التي نفتقدها . والّتي يجبُ أن نغرسَها في أبناءنا عامَّةً وفِي طلاب العلم خاصَّة .

وحين أقيم في معصية أستشعرُ بعدها صغاراً من أنّي لمْ أصبر على الحفاظ على مقتضَى الرُّجولة ، فبقدر مقامي في المعصية يكون خلائي من استحقاقاتِ الرُّجولة ، فلا يُقيم العبدُ في المعصية وهو رجلٌ .

* * *

ومن هذا أيضًا ما تراه في تدبّرِه ما رواه مسلم في كتاب «التوبة» من صَحِيحِه بسنده عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ رَضِىَ اللهُ عَنه أَنَّ النَّبِىَّ ﷺ قَالَ «لَمَّا خَلَقَ اللَّهُ الْخَلْقَ كَتَبَ فِى كِتَابِهِ فَهُوَ عِنْدَهُ فَوْقَ الْعَرْشِ إِنَّ رَحْمَتِى تَغْلِبُ غَضَبِى».

يتلبث الشيخ عند الإعراب بقوله (تغلب) فرأى ببصيرتِهِ مغالبة بين صفتين من صِفاتِ الله سُبْحانَه وتَعالَى «رحمته وغضبه . فتلبث يستطعم الإعراب بفعل المغالبة وما فيه من تنافسِ بيْن الصفتين في الحلول بالعباد ، فرأى أن فهم هذه المُغالبة يقتضي أن نكون على وعي بمن يسْعَى الغضبُ الإلَهِيّ إلى أن يَحلّ بِه .

نظر في أحوال العباد فرآهم لا يخرجون عن خمسةِ ضروب :

١- غيرمكلف لصغر .

٢- كبير غير مكلّفٍ لانتفاء عقلٍ .

٣- مكلّف مسلمٌ متلبسٌ بصغيرةٍ لم يتبْ منها .

٤- مكلفٌ مسلمٌ متلبسٌ بكبيرةٍ لمْ يتب منها .

٥- مكلفٌ متلبسٌ بشرك .

ما تقع فيه المغالة ضربٌ واحدُ لا غيره : مكلف مسلمٌ متلبسٌ بكبيرةٍ لَمْ يتبْ منها .

وضربٌ هو من خصائصِ غضب الله تعالى لا تغالب فيه الرحمة الغضب وبذلك تضيق دائرة من يسعَى الغضبُ ليحلّ به .

ليْس في دائرة المغالبة من لم يكن مكلَّفًا ، لصغرأوغيرِه ومن كان مكلفًا متلبثًا بصغيرةٍ ، ومن كان مكلفًا وقد تاب من كبيرة اقترفها .

لم يبق في دائرة المغالبة إلا ذلك المكلف المقيم على كبيرة لم يتب منها ، أما من كان مكلفًا متلبسًا بشرك فذلك هو نصيب الغضب خالصًا .

وبرغمٍ مِن ذلك لا تكفّ الرَّحمة من مغالبة الغضبِ لتشاطر الغضب فيما هو شاركها فيه . تسعَى إلى أن تقتنص منه ذلك المسلم الذي على كبيرةٍ لم يتب منها ، وتدع له ذلك المشرك ، فكفاه محلا له ، ليكون ذلك المشرك هو المختص بكلّ ما لله تعالى من الغضبِ ، وفي هذا من التنفير من الشِّرك ما فيه .

كذلك يقيم الشيخُ في قلوبنا اليقين بعظيم سِعة رحمةِ الله سُبْحانَه وَتَعالَى حتى لا نقع بذنوبنا في دائرة القنوط ، لأن في القنوط سوءَ ظنّ بالله تعالى ، وهذا ممَّا لايليقُ بالعبد مع ربّه سُبْحانَه وَتَعالَى ، فليس لله تعالى حاجة في أن يعذّبنا . ﴿ **مَّا يَفۡعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمۡ إِن شَكَرۡتُمۡ وَءَامَنتُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا** ﴾ (النساء:١٤٧)

وفي إقامة الشيخِ في قلوبنا اليقينَ بعظيم سِعةِ رحمةِ الله سُبْحانَه وَبِحمدِه حث لنا وإغراء بأن نُسارعَ إلى ما تسارعُ الرَّحمةُ إليْه ، وَأَنْ لا نخذلَها ، وهي تغالبُ الغضبَ كيما لا يَحلّ بنا ، فنسْتفرغَ جُهدَنا أنْ لا نكونَ من الذين يغالبُ الغضب أن يحلّ به : المسلم المقيم على كبيرةٍ ولم يتبْ منها .

هذان التفصيلُ والمفاصلة لا سبيل إلى تحقيقهما إلاّ بأن يبلغَ تَفـؤّد القلـبِ مبلغًا ينضجُ به المعرفة ، ويجعلها مسْتطعمًا شهيًّا مدهشًا . وقد فَعـل الشـيخُ ، فأدهشنا ، ولم أكنْ من قبلُ قـد التفـتُ إلى هـذه المعـاني القائمـة في قولـه الله

تعالى (إن رحمتي تغلب غضبي) لما يَرين على قلبي من متكاثر المعاصِي ، فبَجّحَنِي ـ أعزّه اللهُ بطاعته ـ بسِعةِ رحمة ربيّ سُبْحانَه وَبِحمدِه وشَوقها لأن تحلَّ بي ، فتبجحت وتأدَّبتُ ، وازْدَدْتُ ـ بحمدِ اللهِ تعالى علمًا بشأن ربّي سُبْحانَه وَبِحمدِه .

* * *

محصل القول أنّه إذا ما كان «الذَّوقُ» أداة إدراك مكان الخبيْء ووضع اليد عليْه ليستخرجَ فإنّ ذكاءَ قلبِ العالِم هو الأداةُ الرَّئيسةُ الَّتي يقتدرُ بها على أنْ ينفُذَ في أغَوار البيانِ ، هو أداةُ ثقبٍ وحفرٍ وتغور في البيان يستنبطُ بها ما هو مكنونٌ مكنوزٌ في أعماقِه .

والعلماءُ متفاوتون في هذا تفاوتًا جدّ وسيع وعميقٍ ، فأنت إذا ما نظرْت في صَنيع الشَّيخين ابن تيمية وابن القيم رَضِيَ اللهُ عَنهما وهما ينفذان في البيان ويستخرجان مِنه ما لا يتصوَّر لك قبلَ أنْ تنظرَ في ما أخرجا من دَرَره ، تدركُ ما لهذيْن الرَّجلَيْن مِن ذكاءِ القلبِ على نحوٍ لَم يكنْ لكثيرٍ مِنْ أقرانهما ، فهُما لم يتميَّزا عندي على أقرانِهما بِوفرةِ معلوماتِهما ومَحفوظهما مِن المَذاهب والآراءِ فِي القضايا والمسائلِ ، وإن كانا في ذلك على شَرفٍ سامق ، إنّما كان مناطُ التَّميز عندي أنّهما يَملكان قلبًا ذكيًّا نافذا في أغوار البيان ، فكانا من أعظم من يغوصُ على الدّر في أعماقِ البحار في زمانهما وفيما جاء من بعدهما .

كذلك الشيخ كان له من ذلك بين أقرانه من أهل العلم هذه المزيَّة التي هي في أصلها عطية ربانيّة أذكى أورها ما كان منه من مجاهدة في طلبِ العلم وخدمتِهِ .

* * *

الأداة الثالثة : عظيم محبته للبيان وصاحبه .

هذا عاملٌ جدٌّ عظيم من عوامل فَتَاءِ قراءة الشيخِ بيان النُّبوّة ، والعلاقةُ بيْن القارئِ وصَاحبِ البيان سواء كان بيانَ وحْي أو بيانَ إبداعٍ لَه أثرٌ بالغٌ في هذه القراءة .

ذلك أنّ هذه العلاقة حين تبلغ درجةَ المُخادنة بيْن القارئ والبيان تفتَحُ مغاليق هذا البيانِ ، ويتكشف له ما لا ينْكشِف لغيره ، فالبيانُ البليغ أشبهُ بالمرأة المسلمة الحَصان ـ وكلُّ مسلمةٍ حصَانٌ ـ لا تبذل خفيّ محاسنها إلا لمن أصدقها الوُدّ ، وسلك إِليها مشروعَ السُّبل،وبلغ من أمنها له مبلغًا التوحّد، فهو عندَها بمنزلة نفسِها ﴿ **لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً** ﴾ (الروم:٢١) ، فمخادنة البيانِ وجعل مسكنَه الفؤادَ هو الذي يأذن له أن يلقَى أستاره ، ويفتح مغالِيق خزائنه .

وبيان الوحي قُرآنا وسنة ، لا يمنح دقيقَ معانِيه الإحسَانية لكلّ من عرضَ له ، بل لمن أقامِ وألحّ وبذل صادقًا متقنًا كلّ ما له من قدرات ومهاراتِ التلقّي ، ومنها اتقاءُ سبيل المغضُوبِ عليهم الّذين يعلمون الحَقَّ ويَبطرونَهُ ، ولا يخضعُون له وسبيلُ الضّالين الذين يعملون بغيرِ علمٍ[1].

---

(١) يدخل في سبيل المغضُوبِ عليهم ثُلة من المشتغلين بعلوم الإسلام الذين تفقه ألسنتهم وتجهل قلوبهم وجوارحهم ، وإن حملوا في أيديهم أعلى الدرجات العلمية ، واستولوا على أعلى المناصب . ويدخل في ثلة الضّالين ثلة ممن يسمون أنفسَهم الصوفية ، فهم يتعبدون ربهم بالبدعة ، وعجيب أن يعبدَ العبدُ ربّه تعالى بما لا يُرضيه أوبما لم يشرّعه ، وكأنّ لسان حاله يقول له : أنت أيها الرَّب لا تعلم ما يليق بك لنعبدك بِه ، فنحن نخترع لك عبادة تليق بك .
كذلك ينطق لسان حال كل مبتدع يَسُبُّ من يعبدُه ، وإن كان لا يقصد إلى ذلك بعقله فإنه إن قصده كفر ، وفرق بيْن أن يدل لسان الحالِ على شيْءٍ ، ولاينطق بِه لسان المقال ، ولا يقصِده الجنان .
مدلول لسان الحال يجعل صَاحبه في ضلالة ، ومنطوق اللسان ، ومقصد القلب يجعل صَاحبه في كفران ، فافترقا .

هذه الأداة : أداةُ المحبَّة الصَّادقة لِلْبيَان وصَاحبِهِ ، أداة وهبيةٌ في تأسيسها ، كسبيّة في تفعيلها واستثمارها ولها أثرٌ جدُّ عظيم في قراءة بيان الوحي .

وأنت تقرأُ ما كتب الشَّيْخ في كتابه هـذا ، تكـادُ تُبصـرُ عينيـه ملآنـة بـدمع المحبّة ، وهو يتلقّى هدي النّبوة ، ترَى هذا في عبارته ، بل تراه في أثر عبارتـه فيك ، فينفعلُ قلبُك وعقلُك ، ويرتجفُ جسـدُك ، ولا سيّما وهـو يـتكلمُ في رحمةِ رسُول الله صَلّى اللهُ وسلّم عَلَيْه وَعلَى آلِهِ وصَحبِهِ بالأمّة ، وحرصِه علـى السَّلام الاجتماعيّ بيْن مكوِّنات المُجتمع ممّن آمن به وسـلك نجـدَه ، ومَـن لم يُؤمن به ، وسالمَ الأمّة ، فكان مواطنا لا متواطئًا .

وهذا هُو مُنطلقُ الشّيْخ في موقفه من الآخر مواطنًا أو متواطئًا . هو موقـفٌ استمدَّه مِن وعيه النّافذ ببيان النُّبوّة ، وما يَذخرُ به من الحِرص على وحدة الأمّة وتماسك بنيتها الوطنيّة ، فيجعلُ للمواطن الذي لم يُؤمن برسُـول الله صَـلّى الله عليْهِ وعلَى آلِه وصَحبِه وسلّم تسليما كثيرًا ما هو للمواطن الذي آمن بـه عَلَيْـهِ وعلى آله وصحبِه الصَّلاةُ والسَّلامُ في شأنِ المواطنةِ أي في حقه في الوَطن[1] .

---

(١) لما كان الجهادُ في الإسلام دفاعًا عن حقه في أن يبلغ كـلَّ مكـان وإنسـانٍ ، كـان مـن العدلِ أن لا يكلَّف المواطن غيرُ المؤمن به أن يقومَ بذلك الدِّفاع عن حقِ دينٍ لايؤمن به ، ومن ثَمَّ لم يشـرع اشـتراك المـواطن غـيرِ المسـلم بالجهـاد دفاعًـا عـن الإسـلام . وفرض عليه أن يؤدِّي قدرًا من المال كل عام بضـوابط سمـاه القـرآن جزيـة أي جـزاء الدِّفاعِ عنه هو وحمايته ، وليس جزاءَ عقوبة له على كفره بالإسلام .

وليُّ الأمر ليس من حقه أن يعاقب من لم يرتض الإسلام دينا له ، فذلك لله تعالى وحده

وحـين لا تكـون الحـروب دفاعًـا عـن حـق الإسـلامِ في أن تبلـغ دعوتـه كـلَّ أذن ، ولصاحبها بعد إبلاغه أن يقبل وأن يرفُض وجزاؤه عنه اللهِ تعالى ـ كان للمواطن غـير المسلم أن يشارك في تلك الحرب ؛ لأنَّـها دفاع عن أرض هومولودٌ بها ومقيم عليها ، وشريك فيها . ==

تبصر هذا وأنت تقرأ ما توافد على قلبِ الشّيخ من بيان رسُول الله صَلَواتُ اللهِ وسَلامُه عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ هاديا إلى وحدةِ الأمّة ، وإلى عزها في مسيرها ، وسعادتها في مصيرها .

هذه الأداة كان ظهورُها في هذا الكتاب أقوَى من ظُهورها في كتبه الأخرى .

ولعلّي أكتفِي هنا بما تراه مِن مقالِه مُتذوِّقًا ما رواه مسلمٌ في كتابِ الذِّكر والدُّعاء والتَّوبة بسندِه عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنه قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « لأَنْ أَقُولَ سُبْحَانَ اللَّهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ وَلاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَاللَّهُ أَكْبَرُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ » .

وقف الشَّيخُ عند قول النَّبي ﷺ : « أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ ». فيثوِّرُ لنا ما فيها ، وينْفُثُه في قلوبنا ، وقد لفتني إليه وكنتُ عنه غافلا . يقُول : « أَقولُ رسُولُ اللهِ ﷺ يرْشِدُنا إلى ضَربٍ مِن الذِّكر خارجٍ عَن حساباتِ التِّجارةِ ؛ لأنَّ الحُبَّ فِيه لا يعدِلُه شيْءٌ ، والغِبطة بِه لا تعدِلُها غِبطة ، وأنَّك لوذقت منْه ذوقة لوجدته أحبّ إليك ممَّا طلعتْ عليْهِ الشمسُ ، والشمسُ تطلعُ على السمواتِ والأرض ، وعلى كلِّ ما فِي الأرضِ ، وهو لاحصرَ له .... »[1]

كأني بالشيخ يلفتني إلى أنَّ إعراب رسول الله صَلَواتُ اللهِ وسَلامُه عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ بكلمة « أحب » إلى أن الاشتغال بذلك الذّكر صار محبوب الذاكر ، فالأمر هنا تحول من مجرد حركة لسانٍ بكلماتٍ إلى فعل قلبيّ يملأ جنباتِه فلا يدع لغيرِه محلاًّ .

== علينا أن نفرق بين حربٍ هي دفاعٌ عن حق الإسلام في الدعوة وحربٍ هي دفاعٌ عن الأرض أو المالِ أو العرض . الأولى خاصة بالمسلم ، والأخرى عامّة كل مواطن .

نقول هذا بيانًا للحقّ كما نراه ، وليس استرضاء لأحد كائنا من كان في كلّ عصرٍ أو مصر ، فإنّ المسلمَ لا يسترضي إلا ربه سُبحانهُ وَتَعَالَى

(١) شَرْحُ أحاديثَ منْ صَحِيحِ مسلم : ٢/٨٧٥

استحالة الذِّكر إِلى حبٍّ للمذكور المعرب عنه بجريه من القلبِ على اللسانِ إنما هو هادٍ إِلى أنّ الذكر لا يستحيل كذلك إذا ما كان ذلك فعل لسان والقلب عنه غافل . فالـذكر في حقِيقَتِـه وأصـله حضـور المـذكور في القلـب ، وإن لم يتحرك اللسان بِه . فما تحرك اللسان بِه إلا إعرابًا عمًّا في القلـب وإلا إِشـراكًا للسان في التمتع بهذه النِّعمة الكبرى .

لا يسْتحيلُ الذِّكر مَجلي حُبٍّ في القلبِ إلا إذا ما كان ذلك الذكر باللسـان منبعثًا من القلبِ المفعم بحُبّ المذكور . فمنْ أحبَّ شيْئًا أكثرَ مِن ذكرِه وتبادرَ على لسانِهِ .

ولفتني الشَّيخُ بقوله : « وأنك لوذقت منْـه ذوقـة لوجدتـه أحـبّ إليـك ممَّـا طلعتْ عليْهِ الشمسُ » إلى أَنّـي حين أرجـع إلى نفسِـي فأجـدها منشـغلة عـن الذِّكر بشيءٍ من الدنيا أعلم علم يقين أنها حينئذٍ لم تذق تلك الذوقـة ، وأعلـم علم يقين أني قد غبنتُ نفسي ، وليس أحمق ممن يغبن نفسَـه ، فَـإِذَا مـا كـان غَبْني غيري قميئًا في شرعة الرِّجالِ ، فكيفِ بغبني نفسِه؟!!!

كذلك يبعثني الشيخ إلى أن أجاهد لأذوق تلك الذوقة .

ويمضِي الشيخ يبين لنا أن رسُول الله صَلَواتُ اللهِ وسَـلامُه عَلَيْـهِ وعَلَـى آلِـهِ وَصَحبِهِ يبعثنا إِلى أن نطعـم مـا طعـم وحينـذاك سـتتغير الآمـال ، والمقاصـد والمشاغل ، وستتبدَّلُ الحياةُ من حولنا ، وستكونُ الدنيا في أيدينا ، محرمٌ عليها حِمَى قُلُوبنا وإن جاهدتْ ما جاهدتْ ، وسَيكونُ بذلُها أحبّ إلينا مـن أسْـرها في خزائننا ، ثمَّ يقول : « عجيبٌ أن يكونَ تحتَ لسانِي وفي نفسِي شيْءٌ ساكنٌ إذا آثَرْتُه ثَارَ وإذا اسْتحضَرتُه حضرَ ـ ثُم يكـون أحـبّ إلـيَّ ممَّـا طلعـتْ عليـه الشمسُ » ويمضي ينشر لنا عجائب ما طلعت عليْه الشـمس ، والـنفس بـه جـد متعلقة وإليه متشوفة ، ثم يكونُ هذا الذِّكر حين يمسّ القلبَ أحبّ إلينا من كل ذلك الذي ملأ الأرض . وتعلقت بِه النفسُ حين لا تقُومُ مقام الذّكر .

كأنّي بالشّيخ يقولُ لي إذا كانتْ نفسُك حين تباشر شيئًا من متاع الدُّنيا تتعلقُ به ، وتجهدُ في تحصيلِه وتوثِيقه ، فإنَّ نفسَك هذه إذا أخذتها ، فأقمتها في الذِّكر ، وشغلتها به ، وحاجزتها عن سَطوةِ متاع الدنيا عليْها ، سيكونُ شغفُها بالذِّكر أعظمَ مِن شغفِها بكلِّ ما طلعتْ عليْه الشمس فالنفسُ إِذا ذاقت متاع الدُّنيا ، ثم ذاقت الذّكر ذوقًا صَادقًا لن تعدلَ بذوق الذِّكر شيْئًا .

أنتَ المسؤولُ عمَّا تتعلقُ به النفسُ وما تعشق . إن تركتها تخادن الدّنيا وتتعبدْ ، فأنت الّذي أوردتها المهلكة ، وهي القابلةُ أن تقيمها في مقامِ الذكر إن عزمت وأخلصت وأتقنتَ ، فلمْ تفضّل هِيَ عَليْه غيره . فعجيبٌ أن لا يجهدَ المرءُ في نُصح نفسِه ، فمن فعل ، فكيف يمكنُ أَن يوثقَ بأنه سيجهد وينصَح لغيرِه؟!!!

كأني بالشيخ يقُول لي إذا رأيت من يجهد لنفسِه ليقيمها في قبضة الدنيا فإياك إياك ، فما أنْت عليْه بأعزَّ من نفسِه ، هُو لم ينصحْ لها فيقيمها في مقامِ الذكر وأقامها في مقام الغفلة والذل . أتتوهم أن يفضلك عليها ، فَيجهد لك وينصح ؟!!!!! . لا يكون .

* * *

الأداة الرَّابعة : الواقع النَّفسِيّ إزاء الواقع الخارجيّ :

تَقُوم دعوة الإسلام على دعامتين :

الأولى : تبيينُ الحقِّ ونصرِه .

والأخرى : تبيينُ الخير ونشرِه .

وبيانُ الوحي قُرآنًا وسنَّة ليس فيه إلا هَذان متمازجين . وإن تنوعت سُبل الدَّلالة عليهما والبصيرةُ النافذة لا تفتقدُ أيًّا منهما في أي آي من آياتِ القرآن

أو حديثٍ من بيانِ النبوةِ . ومِعيارُ موقعِ المَرْءِ مِن الإسلامِ معتقدًا وسلوكًا هو مقدارُ تحقّقِ هذيْن في حياتِه .

وكلُّ عالمٍ بكتابِ الله سُبْحانَه وَبِحمدِهِ وسنَّةِ رسُولِهِ صَلَواتُ اللهِ وسَلامُه عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ عمود رسالتِه هُو حملُ العبادِ بالحكمة والموعظةِ الحَسنةِ إلى تحقيقِ هذين في حياتهم .

ومن يقرأُ ما كتب شيخنا في أسفارِه ، ولا سيّما سفره : « شَرْحُ أحاديثَ مِنْ صَحِيحِ مسلم » يستشعِرُ قُوة ما هو آخذٌ به من الإحساسِ بعظِيم مسؤوليته إزاء دينِهِ وقومِهِ ووطنِه ، فهو مهمومٌ بكلّ ذلك ممَّا يجعلُ استفراغَ جهدِهِ في القيام بحقّ هذه المسؤولية سِمة من سماته ، فهو لا يَكفُّ عن البحث والتَّحقيقِ والتّقريبِ لحقائقِ الإسلام ، وتثوير قِيم العِزَّةِ والكرامة ونبذِ الظلم ، ونشرِ العدلِ ، والحُريّة المسؤولة . وهذا الإحساسُ يجعلُه مِن أكثر أقرانِه إنتاجًا وأحكمهم نظرًا لواقعِ أمته في ضوءِ بيانِ الوحي قُرآنًا وسُنة . فالواقع النفسيّ له مرتهنٌ بالواقعِ الخارجيّ المحيط به ، فهُو لايَعِيشُ في نفسِه ولنفسِه بمقدار ما يعيشُ في قومه ولقومه ولا سيّما لطلابِ العلمِ وأهلِه ، ومَن كان كذلك كان همُّه بدينه وقومه ووطنِه همًّا متكاثرًا .

ترى ذلك جليًّا في قوله : « وليغفرُ الله لِي لأنّي أكتبُ هذا فِي نفَسِ السّاعةِ التّي هِيَ سَاعتِي ، ومن ماتَ فقد قامتْ قِيامتُه ، وإنِي لأرى قِيامتِي تقتربُ ، وأردتُ براءة الذمّة ، وليغفرُ اللهُ لِي ؛ لأنّي أجتهدُ وليسَ فِي قلبِي مثقالُ ذرةٍ من الشّحناءِ والبغضاءِ لأحدٍ ، وإنّما همّي هو أمّتي ، وما هِي فيه من عَجزٍ وتسلّطٍ ليسَ مِنْ أعدَائِها ، فحسبُ ، وإنّما مِنْ حُكّامِها الّذينَ تَغلّبُوا عَليْها ، وامتلَكُوا لَيسَ الحُكْمَ ، فَحسْبُ ، وإنّمَا امتلَكُوا الأرضَ ، وامتلَكُوا رِقابَ النّاسِ »[1]

---

(١) شَرْحُ أحاديثَ منْ صَحِيحِ مسلم : ١/٤٠

جعلتُ ارتهان الواقعِ النفسيّ بالواقع الخارجيّ من أدواتِ القراءة ، وقد يُحسب عَجلٌ أنّه لا يكون منها ، ولكنّي أجعلُ الواقعَ النّفسيّ أداةً من أدواتِ القراءة ، فهو عندِي عديلُ الواقع العقليّ بما يُفعم بِه من فيوض العلمِ والثقافة والمعرفةِ .

إنَّ حضُورَ مثل هذا في قلبِ صَاحبِه وهو يقرأ بيانَ النُّبوة يكونُ عاملاً في تَحقِيقِ أمورٍ كثيرة من أهمها الإتقانُ في فقه معاني الهدَى وتغوّره ، وفي تثويرِ كلِّ ما هو مكنونٌ في هذا البيان ، ليكون سبيلاً إلى استخراج الأمَّةِ من ظلماتِها .

والإتقانُ في صِياغة البيانِ القادرِ على إيصال المعاني إلى القلوبِ وتقريبها وتمكينها وتفعيلها ، فالقلبُ إذا ما خلا من هذا الشُّعورِ الصّادقِ لا يكون على صَهوة المجاهدة في القيامِ بحقِّ الفهم والإفهامِ .

وغيرُ قليلٍ ممَّن يملكون فتوّة عقليّة في بابِ العلمِ والمعرفةِ والثَّقافةِ ، لا يكونُ لهم هذا الحُضورُ فهمًا وإفهامًا في قراءةِ البيانِ النّبويّ الّذي هو للشّيخ ، ومِن ثَمَّ لا تجدُ في أعمالهم ما تجدُ في ما كتب الشيخ أو في ما سبّح به في مجالسِه العلمية .

وهذا يهدينا إلى أن يكونَ اعتناؤنا بالحُضور النَّفسيّ لواقعِ الأمّة ونحن نقرأُ بيان الوحي قُرآنًا وسنّة ، ذلك أنَّه بيانٌ جاء لِيُخرجَ النَّاسَ من الظُّلماتِ إلى النُّور ، فمن قرأ بيان الوحي ، ولم يُعن في قراءته بالعِرفان المُحكَم بمنهج هذا البيان في إخراجِ النَّاسِ من الظُّلمات إلى النُّور ، ولم يُعن بفهم هذا وإفهامه ، وتفعيله في نفسِه أولاً ، ثُمّ في أمّتِه عامّة ثانيا ، وفي طلابِه خاصّة ثالثا ، فخيرٌ له أن يتخذ مجالاً آخرَ غيرَ هذا ؛ لأنَّه مهما قرأ وكتب ونشر ، فإنّه لن يغرسَ في قلبٍ فسيلة خيرٍ . وما كان كذلك فالاشتغال بغيرِه أنفعُ .

وقد كان الشيخُ حريصًا على أنْ يلفتنا إلى أنَّ من أدوات استنباط معانٍ لم تستنبط من بيان النُّبوّة استحضار قضايا زمان الاستنباط . يقول : « وملاحظةُ أمرٍ

مُهِمٍّ ، وهو استحضارُ قضايا الزمان ، ونحنُ نقرأ الكتاب والسنةَ يُنبهنا إلى أشياءَ فِي الكتابِ والسّنةِ لَمْ يتنبّه إليْها مَن قَبْلَنا ؛ لأنَّ قَضَايانَا لَمْ تكنْ حاضِرةً عندهمْ ، وإنّما كانتْ لَهمْ قَضَاياهم ، فَنبّهتهمْ قَضاياهمْ إلى ما استخرجُوهُ .

وَطولُ مُمارسَتِي لِتحلِيل كلامِ اللهِ تعالى وكلامِ رسُولِه ﷺ دلّتني عَلَى أنّ هذه الآيات ، وهذه الأحاديثُ نزلتْ لَنا كما نَزلتْ لِغيْرنا ؛ لأنها علاجٌ وَشفاءٌ للأجيالِ كلّها فِي الأَزمِنَةِ وَالأَمْكِنَةِ ، وكلٌّ ظاهرعلَى الحقِّ ، كمَا فِي الحديثِ يُخيّلُ إلَيْهِ ، وهُو يدرسُها أنّها نزلتْ لَهُ ، ولِمنْ حَولَهُ فِي زمانِهم هذا ، وفِي مكانِهم هذا ، وهذا ظاهرٌ جدًّا ، وهو أعظمُ وُجوه الإعجازِ الّتي لَم نستوفِها حقّها »[1].

هذا الاستحضارُ للواقع ليس عندي ممّا يُعلّم ، لأنّه أمرٌ نفسيّ جُوانيّ ، وكلّ عامل داخليّ نفسيّ هُوَ مِن العَواملِ الوَهبيةِ لا الكَسبية ، لأنّه وإن علمتْ أهميته وطريقته ، فإنّ استحضاره في سياقِ القِراءة والتلقّي والفهمِ لا يُعلّمْ ، بلْ هُو هِبةٌ ربَّانيةٌ ، وإن خالفني في ما ذهبتُ إليه مخالفٌ ، فلكلٍّ وجهةٌ هو مُوليها .

والعلم النافع هو ذلك العلم المرتبطُ بالواقعِ يحدث فيه ارتقاءً من طورٍ إلى طورٍ أعلَى حتّى يبلغ به مقام الإحسانِ .

وإذا ما كنا نشترطُ في كلِّ بحثٍ علميٍّ أن يكونَ له قيمتان :

الأولى : قيمة علمية متعلقة بالقضايا والمسائل التي هي محل البحث عن الحقيقةِ العلمية الغائرة أو عن المشكلة وحلّها .

والأخرَى : قيمةٌ مجتَمِعيّة متعلقة بما يفيده ذلك البحث للمجتمع الذي يصنعُ فيه هذا البحث . فعلم لاينتفع به في تزكية حركة الحياة وتنميتها علمٌ لاينتفع به ، وقد استعاذ سيّدنا رسولُ الله ﷺ مِن علمٍ لاينفع .

---

(١) شَرْحُ أحاديثَ منْ صَحِيحِ مسلم : ٣٨٩/١

رَوى مسلم في كتاب «الذكر والدعاء والتوبة» من صَحيحِه بسندِه عَنْ زَيْدِ ابْنِ أَرْقَمَ قَالَ لاَ أَقُولُ لَكُمْ إلاَّ كَمَا كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ كَانَ يَقُولُ : «اللَّهُمَّ إِنِّى أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْعَجْزِ وَالْكَسَلِ وَالْجُبْنِ وَالْبُخْلِ وَالْهَرَمِ وَعَذَابِ الْقَبْرِ .

اللَّهُمَّ آتِ نَفْسِى تَقْوَاهَا وَزَكِّهَا أَنْتَ خَيْرُ مَنْ زَكَّاهَا أَنْتَ وَلِيُّهَا وَمَوْلاَهَا .

اللَّهُمَّ إِنِّى أَعُوذُ بِكَ مِنْ عِلْمٍ لاَ يَنْفَعُ وَمِنْ قَلْبٍ لاَ يَخْشَعُ وَمِنْ نَفْسٍ لاَ تَشْبَعُ وَمِنْ دَعْوَةٍ لاَ يُسْتَجَابُ لَهَا».

واستعاذة النبيّ صلّى الله عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ وسَلّمَ من شيْءٍ فيه دلالة على عظيم خطرِ هذا المسْتعاذِ منه ، لأنّ اللجوءَ إلى الله تعالى في دفعِه يفهم أنَّ طاقةَ المُستعيذِ مهما بلغتْ لا تقومُ وحدَها بالوفاء بدفعه ، فلا سبيلَ إلا إلى اللجوءِ إلى مَنْ بيدِه الأمرُ كلُّه سُبْحانَه وَتَعالَى .

وهذا من تقريرِ فحولةِ خطر ما استعِيذ باللهِ جَلَّ جَلالُهُ منهِ وشمول ضَرّه ونفوذِه ممَّا يستوجبُ على كلِّ ناصِح نفسَه وقومَه أن يعملَ على أن يكونَ فِي منعةٍ بالله عزَّ وعلا منه .

من العلم الذي لا ينفع ما لم يكن من فريضة الوقت ، وإن كان في وقت آخر نافعًا ، فالنفع مرتهن بحاجة الأمة زمانًا ومكانًا وجنسًا ، فالفقير الذي لا يشتغل بتعليم الآخرين حين يستفرغُ جهدَه في تعلم أحكام الزَّكاة ، ومذاهب العلماء وآرائهم وينشغلُ عن ما هو أهمُّ من ذلك هو في علمٍ لا ينفعُه، وإن كان اشتغال غيرُه به فريضةً . فلنفعُ العلم وعدمِه ضوابطُه .

وهنالك ضروب من العلمِ لا تنفعُ في كلِّ عصْرٍ ومصْرٍ وجنسٍ والاشتغال بها اشتغالٌ بما هُو إلى الّلهو أقرب .

من هذا الاشتغال بتعيين محلّ رسو سفينة نوح ، وأسماء فتية الكهفِ ، وزمان تكليم الله سُبْحانَه وَتَعالَى سيدنا موسَى عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ ، ونحو ذلك . .

وكلُّ علم لا يعملُ به عالمُه هو من العلم الذي لا ينفعُ أي لا ينتفعُ به صَاحبه ، فعلة عدم نفعه هي عدمُ العمل بِه .

وأُسند عدم النّفعِ إلى العلم إعرابًا عن أنّه لمَّا أعرضَ صَاحبُه عن استثماره كأنَّ العلم أبَى أن يكونَ منه نفعٌ لصاحبِه الذي أهمل العمل به غضبًا منه عليه لما أهمله . فكلُّ علمٍ يزكّيه وينمّيه العملُ بِه .

وكأنَّ حقَّ العلم على كُلّ من علمه أنْ يعملَ بِه ، فمن ترك العمل عن غيرِ عجزٍ بعلم في أصلِه نافع فقد ظلم العلم ، فكان جزاؤه أن يمتنعَ العلمُ عن نفعه جزاء وِفَاقًا .

وكذلك من العلم الذي لا ينفعُ العلم الذي يجتهدُ صاحبه ليكون معدودًا في عداد كبار العلماء في قومه أو ليجادل به السُّفهاءِ أَوْ ليصرف به وجوه القَوْمِ إليه ، أوليسبي به قلوب العباد إليه أو إلى مبتغاه . ليكتسبَ به متاع الدُّنيا .

هذا علمٌ لا ينفع صَاحبَه لأنّ ما سيكتسبه من متاع الدّنيا بهذا العلمِ هو من خسرانه في الحقيقةِ هو قد استعمل هذا العلم في غير ما هو له ، وكلّ ما استعمل في غير ما هو له كان غَيرَ نافعٍ ، فإن استعمل في ما هو له كان أنفعَ ما يكون . .

وهذا يُبيّن لك خطلَ أولئك الذين ينفقون أعمارهم وجهدهم وأموالهم في اكتساب علومٍ هي أفسد لمسيرهم ومصيرِهم ، ويبيّن لك أيضًا ضلالة من يحتفون بأولئك ، ويجعلون منهم صفوة المجتمع ، والنخبة المثقفة ، وتوكل إليْهم أمور الأمةِ ، وهم الأحق بأن يُتحاجز عنهم ، بل الأحقّ بأن يُحجزوا عمّا هم فيه ، أو يُحجزوا عن المُجتمع : « فِرَّ مِنَ الْمَجْذُومِ كَمَا تَفِرُّ مِنَ الأَسَدِ» .

(البخاري : الطب)

* * *

• ثانيًا : الأداوتُ الكسبيّة للقراءة عند الشَّيخ

في استهلالُ الوحي بقـول الله سُبْحانَــه وَبِحمْـدِهِ : ﴿ بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ﴾ (العلق:١-٥) دعـوةُ إلـى أن لا يكتفِي العبدُ بما منحه الله تعالى من أدوات التلقّي الوهبية ، بلْ عليْه أن يسْعَى جاهدًا إلى اكتسابِ أدواتٍ هي التي تستبقِي للأدواتِ الْوَهْبِيّةِ حياتها ، وتحقق لها نماءها وفاعليتها .

وفي هذا الاستهلالِ إعرابٌ عن أنّ الله سُبْحانَه وَبِحمدِه قد يسَّر للعبدِ اكتساب هذه الأدوات . ﴿ عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ﴾ فحرى بكل ناصِحٍ نفسَه وقومه أن يكونَ له من التعلّم بالقلمِ نصيبٌ موفورٌ يستثمرُ به نعمة أدواتِ التلقِي الوهبيّة ، وإلا كان هذا تعطيلاً لنعمةِ الله تعالى ، وتعطيلها من الكُفر بِها .

عمادُ هذه الأدوات الكسبيّة «الثقافة» على اتساع في مدلوها : ففيها يدخلُ العلمُ بكل مايُمكن العلمُ به والمعارفُ والتّقاليد والأعراف الاجتماعية والدّربة والمذاكرة والخبراتِ المكتسبة من الآخرين . . . إلخ

جمهرةُ أهلِ العلم بالبيان على أنَّ الذّوقَ على الرّغم من عظيم أهميته في تلقّي البيانِ البليغ ، فإنّهم أيضًا على أنّـه وحده لا يُجدي بل لا بدَّ له من العلم والمعرفة والمثاقفة والمدارسة ، والدّربة والخبرة . . . .

ذلك أنّـه إذا ما كان الذَّوق هو الذي يقُوم بتعـيين منـاط الحُسـن أو القـبح ، ويضعُ اليدَ على موضع الفُـروق بـيْن الأشـياء ، فـإنَّ العلـم والمعرفـة والثَّقافـة والخبرة . . . هو الذي يهديك إلى علّة الحُسنِ والقُبح .

والعلمُ والمعرفةُ والتّحصيلُ بغير الذّوق هُو إلى الجُمودِ والتَّحجُّر أقربُ منه إلى المَرونةِ ، فالذَّوقُ يَمنحُ العلمَ والتّحصيلَ والإحاطةَ بالقَواعدِ والقوانين مُرونةً واقتدارًا .

هذا العاملُ الكَسبيّ مِن العلمِ والدُّربةِ كان عبدُ القاهر جدّ حفيّ بتوكيدِه ، يقُول : « أنّه لا بدَّ لكلّ كلامٍ تستحسنُه ، ولفظٍ تستجيدهُ ، من أن يكونَ لاستحسانِك ذلك جهةٌ معلومةٌ وعلَّةٌ معقولةٌ وأن يكونَ لنا إلى العبارةِ عن ذاك سبيلٌ ، وعلى صحةِ ما ادَّعيناه من ذلك دليلٌ »[1].

* * *

وآيةُ تحقُّق العلم على تنوّعه في هذا البابِ أنّه إذا ما نظر فيما استحسنه أهلُ العلم بالبيان وما استقبحوه أو ما فضلوا بعضه على بعض علمَ مَخرج حكمهم ، فكان بذلك مالكًا مِن العلم ما يكونُ أداة له في قراءةِ البيان البليغ .

فالَّذي لا يعلمُ مخرجَ حُكم من حكم بحسنٍ أوقبح أو علو بيان على بيان هو ليس بأهلٍ لأن يقرأَ البيان قراءة نافعةً ، لأنّه فقد الأداةَ التي تضع يدَه على علة التمييز بيْن الأشياءِ . فالحكم الفطريّ لا يُجدي وحده ، بل لا بدَّ من الترقّي إلى الحكم العِلمي المؤسس على حسن التأويل والتعليل .

* * *

ومن ينبتُ في رياضِ الأزهر ويورق ويزهِر ويثمر ولاسيما في القرن الرَّابع عشر الهجريّ وما قبله يَحملُ مِن العلم المُتعدد المجالات فيضًا بالغًا ، فما مِن علم من علوم الإسلام وأدواتها إلاَّ وهو آخذٌ منه بنصيبٍ موفور ، ومكونٌ من مكوناتِ شخصيَّتِهِ العِلميّة والمَعرفيّة .

كان طالبُ العلم في ما قبلَ التعليم الجامعي يدرسُ من علوم العقيدة ، وعلوم الشّريعةِ وعلوم القرآن من تفسير وتجويد وعلوم السنةِ ، والفرق الإسلامية أصولها العقدية وما بيْنها من اتفاق وافتراق . وعلوم العربية نحواً وصرفًا وتاريخ أدب ونصوصًا أدبية شعرًا ونثرًا وقراءة ، وإنشاء أدبيًّا ، والإملاء والخطّ بفنونه الثلاثة ، وتاريخ الرسالة والإسلام .

---

(١) دلائل الإعجاز . قرأه وعلق عليه محمود شاكر . ص : ٤١ فقرة : ٦٣ .

ومِن وراء ذلك علوم الإنسان مِن تاريخ وبيئة (جغرافيـة) ، وفلسفةٍ ومنطـق واجتماعٍ وإحصاء وجولوجيا ولغة أجنبية ، ونحو ذلك .

كلُّ ذلك تراه مكونًا مِن مكوناتِ أيِّ نابتٍ في فسطاط الأزهرِ مُتشربٍ غيثه ، متنفسٍ نسائمه .

وقدْ كان الأشياخُ في مرحلة ما قبل التعليم الجامعيّ مُنذ نصفِ قرن مضـى إذا سمعـتَه يتكلّمُ في فنٍّ مـن فنـون علـومِ الإسـلامِ ظننْت أنـَّه متخصِّص فيـه لا يعرفُ غيرَه ، فإذا انتقلَ إلى غيرِه داهمك الظَّن الأوَّلُ ، وهكذا حتى لا يبقَى إلاّ أن تُسلم أنـّه مِـن الأعيـانِ فـي كـلّ ذلـك ، فكيـفَ بالأعيـان في التعليـم الجامعيّ ؟!!!

مِثلُ أولئك تلقّى عنهم شيْخنا وحمل عنهم وبهـم فيضًـا مـنْ هـذا المـيراثَ العلميّ والثقافيّ ، وهو ينضحُ في فكرِهِ وبيانه .

وكذلك ترى الشّيخَ يقرأُ بعناية وبصـرٍ مـا ينشرُ في المعـارفِ والثقافـات الأخر ، وإنَّ كانت على غير مناهجِ صِناعةِ الإنسان الصَّالح المُصلح لِيَقفَ علـى بَواعثهم ، وغاياتهم وأدواتِهم على منهاجهم لِبلغوهم ما يطمحون إليْه .

وقد كان يحثنا على أن لا ننْكفِئَ على علوم العربية وحدَها ، ونعرضَ عمّا يَجري من حولِنا من الثقافاتِ الأُخر ، بل عليْنا أنْ نتبصَّرَ مـا فيهـا مـن خـيرٍ ، فنحملَه ، وما كان غيرَ ذلك ندفعُه ونقضُه بالحجّة والبُرهان القويم[1] .

---

(١) إنّي لَعلَى ذُكر أنـّه حين أصدرت الهيئة المِصرية العامَّة للكتاب العددَ الأول منْ مجلـة « فصول في النّقد الأدبي » حثنا الشّيخُ على أن نتابعها ، وأن نقرأ بوعي ما يأتي فيها ، وبقيـتُ أفعـل إلى أن باتـت ممّـا لا طاقـة لمثلـي بتلقيـه ممّـا تسكبه مـن عجمـةٍ في صَفحاتها فَخشيت على عقلي منه وذوقِي ولساني ، فأعرضتُ إلى أن تعرض هي عـن عجمتها إلى عروبتها .
وقد سمعت شيخنا يعجبُ من أنَّ كلَّ الأحزاب السّياسة في مصر ليس لها مجلة تعنى بالشعروالنقد والثقافة إلا الحزب الماركسي المسمى بحزب التّجمع ، فقد كانت له مجلة شهرية « أدب ونقد » وسائر الأحزاب لم تكنْ تلتفت إلى ذلك . فدلّنا هذا على أنّ السياسة قد تتحذ من الثقافة ومن الأدب أداة تنفثُ منها أفكارها وعقائدها . .

وهو حَفيّ بالعلم بقدرة البيان على كَشف ما هو غائرٌ في النَّفسِ ، ولذا كان التفاته إلى دخائل النفوسِ من خلالِ البيان ، ولا سيّما في الشِّعرِ .

وفوقُ هذا ما له من ثقافةٍ ومعرفةٍ سابغةٍ نافذةٍ بكثِيرٍ مِن شؤون الحياةِ مِن حولِه ، وهُو الحَفيّ بالتواصلِ بكلّ ما يَجرِي مِن حولِه من شؤون قومِهِ . وهذا يظهرُ جليًّا في هذا الكِتابِ الَّذي ترَى الواقعِ المُحيط بالشّيخ وقومِه حاضرًا حضورًا فتيًّا ، وكان له من احتفالِ الشيخ له ، وقراءته حقيقةَ هذا الواقع وأسبابه ومآلاته في ضوءِ بيانِ النّبوةِ .

الشّأنُ في العالمِ والمعلم والدَّاعية أن يكونَ ابن عصرِه ومصره وقومه وجنسِه ، فهو لا يخادن الأسفارَ تلهيًا بها ، بل يُخادنها مَطية إلى القيام برسالته آدميًّا ، خلقه الله سُبْحانَه وَبِحمدِه ليستعمر الأرض بمرادِ الله تعالى الشّرعيّ .

وتلك رسالةُ أبي البشر سيّدنا «آدم» عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ «وسماه «آدم» إنّما هو مُشتقّ من «الأدمْ» : الإصلاح

* * *

وإذا ما كانت أداوته الكسبية في التلقّي والفهم جدَّ عديدة ومتنوعة بحكم نشأتِه الأزهرية ، فإنَّ رأسُ الأدواتِ الكسبيّة عنده العرفان بالعربيَّة ومنهاجَها في الإفهام فذلك هو المدخل الكريم .

أذهب إلى أنَّه لوشاء القائمون في الأزهر على خدمة علوم الإسلام ، ولا سيما علم العقيدةِ والشريعة واتخذوا الأمر عبادة وجهادًا في سبيلِ الله تعالى ، وليس عملا يقتاتون منه الدنيا كمثل ما يفعلُ الدّهماء ذوي الحرف اليدويّة لكان حرًى بهم أن يوجبوا على مَنْ شاء أن يلتحق بكلية أصول الدين ، أو بكلية الدَّعوة أَوْ بكلية الشّريعة أن يتخرّج بتفوقٍ أولاً في كلية اللغةِ العربية ، ثم يُؤذن له بأن يكون ذا اختصاص بعلومِ القرآن والسنة والعقيدة والشريعة ، والدعوة ، أمّا أن يأتي الطّالب من المرحلة الثانوية ، وهو لا يكاد في عصرنا

هذا يجيدُ الإملاء ، ولا يكادُ كثير منهم يكتب سطرًا واحدًا صوابًا ، ثم يُقذف به في هذه الكلياتِ الثلاث ، فذلك أقلّ ما يقال فيه إنّه من التهاون بحق العلم أو من الشّفقة المُهلكة ، ومن فعل فليس بأهل أن يؤتمن على العلم وتعلِيمه . إن استرضاء الناسِ وطلاب التّوظيف في دولاب العمل الحكومي لا يعملُ له من أقام نصب عينيه أنّه المسؤول عمّا استرعاه الله تعالى .

روى مسلم في كتاب «الإيمان» من صَحيحه بسنده عَنْ مَعْقِلِ بْنِ يَسَارٍ رَضِيَ اللهُ عَنه قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ «مَا مِنْ أَمِيرٍ يَلِى أَمْرَ الْمُسْلِمِينَ ثُمَّ لاَ يَجْهَدُ لَهُمْ وَيَنْصَحُ إِلاَّ لَمْ يَدْخُلْ مَعَهُم الْجَنَّةَ»

وكل من تولّى عملاً فهو أمير فيه . أي آمرٌ بما يصلِحه فيه .

وهذا الحديث يجب أن يكون مكونًا من مكونات كل مسلمٍ ، وأن يُكتب في القلوب ، لعله يتذكر فيَخشى .

* * *

للشّيخ كما يجهر به كلُّ سِفرٍ من أسفارِه مِن العلم بلسان العربية ومنهاج الإبانةِ والإفهام ، وأدبياتِ تلقيه ما جعله يقتعد مقعد الصّدارة ، فأعانَه على أن يبصرَ لطيفَ المعاني في البيان لبصرِه بخصائصِ كلم العربيّة ومنهاجِ بناءِ صُورة المعنى ، ومسالك دَلالتها على ما تحملُه من المعاني ، وبصرِه بمقتضياتِ الإبانة بهذه الصُّورة عن هذا المعنى في هذا السّياق . . . . .

علمُه بلسان العَربية لم يكن قطًّ علمُ الحاملِ المؤتمَن على وديعةٍ في عقلِه ، بلْ هُو علم الصَّانعِ ممّا علم ما يجبُ أن يكونُ .

اتخذَ الشيخ العلمَ بلسان العربية أداة لا غاية ، وكانت عنايته بالأداة من عِنايتِه بالغاية ، التزامًا بأصلٍ إسلاميّ يتمثل في أن شرف الغاية يوجب أن تكون الأدوات والسبلُ إليها على قدرها شرفًا .

ومن ثَمَّ كان احتفاءُ الشَّيخ بالكلمةِ الشَّاعرة على نحْو لَم ألحظ عديله عند أقرانِه وأشياخه . ولا سيّما احتفاؤه بفقه الكلمةِ الشّاعرة فيما قبل عصر البعثة ، وفي عصرها ، وما قاربها . كانت له مخادناتٌ واسعةٌ عميقةٌ لهذه الكلمة . ومعالمُ حضور الوعي النّافذ السَّابغ بخصائصِ العربيّة من حيثُ هي ومن حيث حضورها في بيان الوحي قرآنًا وسنة ، في بيانِ الإبداعِ شعرًا ونثرًا جدّ عديدة ومتنوعة ، لا سبيلَ إلى استحصائها ، وهي مما لا تغيم على من نظرَ في هذا الكتاب وإن كان نظرًا عجلاً لزفرة حضورِ ذلك فيه .

وَأيُّ حديث أنت قارئ ما جاء بِه الشّيخ في شَرحه يكون بملكك أن تستخرج منه معالم العلوم التي شكلت عقلَه وذوقَه ولسانَه .

* * *

الفصلُ الثالث

أبعادُ قراءتِه في صَحيح مُسْلمٍ

لكلّ قراءة مثمرةٌ أبعادٌ ترسُم حركتها ، وقراءة الشيخ هنا لها أبعادٌ عديدةٌ أهمها ثلاثةُ أبعادٍ :

- البعدُ الإصلاحِيّ .
- البعد التّربويّ .
- البعد البيانيّ (الجمالِي) .

يُمثل البُعدُ الإصلاحيُّ والتَّربويُّ عمودَ الأمرِ ، ويمثل البُعدُ الثَّالث (البياني) الوِعاءَ الحاضِن البُعديْن الأوّلَيْن : الإصلاحِيّ والتَّربويّ ، ذلك أن البيان مجلَى المقاصد ومرآتها ، فالبعد الأول والثاني بعدٌ مقاصدي ، والبعدُ الثالث (البياني) بعدٌ أداتي .

ومن ثَمَّ فإنَّ هذِهِ الأبعادَ لا تتجاوَرُ وَلا تَتَوازى ولا تتقاطعُ . هِي أبعادٌ تتمازجُ ، مِنها ما يَكونُ أظهرَ فِي موضع ، دون مَوضعٍ ، هي تتفاوتُ ظُهوراً لاحُضوراً ، مَا مِن موضِعِ إلا وَأنت مُبصِرٌ فيه الثَّلاثة على دَرجةٍ سَواء فِي الحُضور .

ويندرجُ في كلِّ بُعدٍ من هذه الأبعادِ الكليّةِ أبعادٌ أُخرَى جزئية ، وقد حرصتُ على العناية بهذه الأبعادِ الكليّة لِضيقِ المقامِ عَن تفصيلِ القولِ فيما وراءها من أبعادٍ . فلو أَنَّا أردنا استقراء القولِ فِي هذه الأبعاد الثلاثة في هذا السّفر ، واستحصاء عُظم ما جاءَنا به شيخُنا في شَأنها لكان هذا مُقتضِيًا سفرًا كاملاً ، وجُهدًا فتِيًّا أعجزُ اليومَ عن بذلِه .

﴿ لِيُنفِقۡ ذُو سَعَةٖ مِّن سَعَتِهِۦۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيۡهِ رِزۡقُهُۥ فَلۡيُنفِقۡ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُۚ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَاۚ سَيَجۡعَلُ ٱللَّهُ بَعۡدَ عُسۡرٖ يُسۡرٗا ﴾ (الطلاق:٧)

ولمّا كان البعدُ الإصلاحيّ هو القائم بفريضة الوقتِ ، في عصرنا ومصرنا ، كان البدءُ بالقول فيه ، وكان من بعدِه ما يقومُ مقام التّحلية من بعد التخلية والاستصلاح ، فكان القول في البعد التربويّ ، ولا سيّما تربية طلابِ العلم فهم الذين سيحملون المسؤولية : مسؤوليّة الإصلاحِ والتَّزكية وتثوير مكارم الأخلاق في علاقة الإنسان بربه سُبْحانَه وَبِحمدِه وبنفسِه وبالكون وبالحياة وبالإنسان كلّ الإنسان ، فكان حسنًا الاعتناءُ بشأن تربيتهم ، فأردفتُ القولَ فيه من بعد البعد الإصلاحي ، ثم ختمتُ الفصلَ بالبُعد البيانيّ الذي هو الوعاء لهذين البعدين ، ومجلاهما ومشهدهما .

* * *

أولاً : البُعدُ الإصلاحيّ

ممَّا يستوجبُ على العلماء والدُّعاة وخبراءِ التَّربية وحكمائها أن يعملوا جادّين على إصلاح النّفوسِ من داخلها ، حتى لا يكون فيها أمثال أولئك الذين يضعون من الأنظمة والقوانين المكبلة للعدالة ، والمؤيّدة لِلفساد وإدارته وتعليمه وتَكريم صُنَّاعِهِ وفُرسانِه . .

الأمّةُ اليوم أحوجُ ما تكونُ إلى جهودٍ تربويَّة ودعويَّة جادَّة متجدّدة حكيمةٍ تُبصرُ الواقعَ بعيْن الصَّقر ، وتضع الدواء الناجع موضعه من الداء ، فيؤتي به الله تعالى البراءة والعافية منه أكثر من حاجتها إلى بحوثٍ أدبية ونقدية وفنية هي إلى الإمتاع الأجرد أقربِ .

* * *

الصَّلاحُ والإصلاحُ هو المقوّم الرَّئيسُ من شخصية الإنسان السّوي عامّة ، والمسلم خاصّة ، فالسلوكُ الإنسانيّ قائم على هذا أن يكون صَالحًا مصلحًا ، ولعلّ أبا البَشر سيدنا « آدَم » إنّما سُمي « آدم » من الفعل (أَدَمَ) أي أصلَح ووفق ، تقول العربُ : أَدَمَ : لأَمَ وأَصْلَح وأَلَّفَ ووفَّق ، وكَذَلِكَ آدَمَ يُؤْدِمُ ، بِالْمَدِّ ، وكُلُّ مُوافِقٍ إِدامٌ »[1] (آدم) اسمٌ دالٌّ على رسالته ووظيفته في الحياة .

---

(١) في معجم لسان العرب لابن منظور : (باب الميم فصل الهمزة) فاشتقاق اسم (آدم) من هذا الفعل هو الأوفق .
هو اسْم ممنوع من الصرف للعلمية ، ووزن الفعل كـ(أحمد) و(يزيد) و(يَشْكر) وليس للعلمية والعجمة ، كما يشيع في كتبِ النَّحو .

روى الترمذي في كتاب «النكاح» من جامعِه بسنده عَنِ الْمُغِيرَةِ بْنِ شُعْبَةَ أَنَّهُ خَطَبَ امْرَأَةً فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : «انْظُرْ إِلَيْهَا فَإِنَّهُ أَحْرَى أَنْ يُؤْدَمَ بَيْنَكُمَا» . . . قَالَ أَبُو عِيسَى (الترمذي) هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ . . . وَمَعْنَى قَوْلِهِ «أَحْرَى أَنْ يُؤْدَمَ بَيْنَكُمَا» قَالَ أَحْرَى أَنْ تَدُومَ الْمَوَدَّةُ بَيْنَكُمَا[1] .

وكان من دعاء العرب للمتزوجين : «آدم اللهُ بينكما» أيْ جَعَلَ بَيْنَهُمَا الْمَحَبَّةَ وَالاتِّفَاقَ[2] . فـ«آدم» على زنة (أَفْعَل) كـ (أَحْمد) : صيغة تفضيل .

وهذا عندى أعلى من القول بأنَّه مأخوذٌ من الأَدَمة الّتي هِي «السّمرة» أو من أديم الأرض أَيْ ترتبها ؛ لأنّه خلق منها ، فالتّرابُ للأرض كمثل الجلد (الأديم) للإنسان .

ما ذهبتُ إليْه من أنّ (آدم) مأخوذٌ من الفعل (أَدَم) بمعنى أصلح وألف ووفق هو الأعلى ، فكلمة (آدم) على زنة (أفعل) . هي ناظرةٌ إلى رسالته في الحياة ، إلى مسلكه ، وليس إلى لونه ، فما قيمة الّلون للإنسان حتّى يشتق اسمُه منه ، ولا إلَى ما خلق منه ، فليست قيمة الشَّيءِ في ما خلق منه ، إنّما مردُّ القيمة إلى الفعلِ والسّلوك . من هنا قلت أن كلمة : (آدم) معناها أنّه خلق لِيصلح ما أفسد ، فتلك رسالتُه ، وكأنّ في اصطفاءِ الله تعالى هذا الاسم له ردًّا على ما قالت الملائكة حين أنبأها الله تعالى بأنّه جاعلٌ في الأرضِ خليفة :

---

(١) ورواه في كتاب «النكاح» ابن ماجه ، والنسائي ، والدارقطني والدارمي والبيهقي كلٌّ في سننه ، وأحمد في مسنده وابن حبان في صَحيحه ، الحاكم في المستدرك ، والطبراني في المعجم الكبير ، وصححه الألباني .

(٢) شرح مشكل الآثار . تأليف : أبي جعفر الطحاوي : أحمد بن محمد بن سلامة ابن عبد الملك بن سلمة الأزدي (ت : ٣٢١هـ) تحقيق : شعيب الأرنؤوط . نشر : مؤسسة الرسالة . ط(١) عام ١٤١٥ هـ . ٢٨٨/١١

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (البقرة: ٣٠)

فسيُّدنا (آدم) عليْه الصّلاةُ والسّلام وبنوه رسالتهم في هذه الحياة عمودها الإصلاح العام السابغ ، ولن يكون المرْءُ مصالحًا إلا إذا ما كان صَالِحًا في نفسِه ، من هنا كان هذا البُعد هو الأولَى بالابتداءِ به .

وقد كانت كلمة سيّدنا «شُعيب» عَلَيْهِ الصّلاةُ والسلام لقومِه : ﴿ . . . يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ (هود: ٨٨) هي شعار كلّ نبيّ .

الإصلاحُ رسالة الرُّسل ، ورسالةُ ورثتهم مِن العلماءِ ، وإذا ما كانَ كلُّ رسُولٍ على كمالِ صلاحِهِ في نفسِهِ وجميعِ أمرِه ، فالشَّأنُ أن يكونَ كذلك ورثتُهم مِن العلماءِ علَى تمامِ صلاحِهم فِي أنفسِهم وجميعِ أحوالِهم ، لِيكونَ إصلاحُهم بلسانِ حالهم أسبقَ وأفعلَ من إصلاحِهم بلسان مقالِهم ، فيُغنِيهم فعلُ لسانِ حالِهم عن الاجتهادِ والمبالغةِ بلسانِ مقالِهم .

ومن ثَمَّ كان الأمر بالمعروفِ والنهي عن المنكر بلسان الحال والسلوك فريضة عين على كل مُسْلمٍ ، وبلسان الحال والمقال معًا على كلّ عالمٍ . والعالمُ إذا وجدَ نفسَه مُضطرًّا إلَى أن يُجاهدَ ويبالِغَ في القولِ ليحقِّقَ الإصلاحَ في أهلِه وقومِه ، فعليه أولاً أنْ ينظرَ في نفسِه ، لعلّ العائقَ عن تحقُّقِ الإصلاحِ إنّما هُو فيه هو لا في أهلِهِ وقومِه ، لعله هُو عَيَّيَ لسانِ الحالِ وإن كان طليقَ لسان المقال .

إنَّ الضَّرَرَ مِن عِيٍّ لسانِ المقالِ مَع طلاقةِ لِسانِ الحالِ أيسرُ مِن الضّررِ مِن عِيّ لسانِ الحالِ مع طلاقةِ لسانِ المقال . بل إنّ عِيّ لسانِ الحالِ لَيَئِدُ أثرَ لسانِ

المقالِ مَهما بلغَ طلاقة وبلاغةً ، فَحقٌّ علَى كلِّ عالِم أن يُفتشَ فِي حالِهِ لِيعلمَ مِقدارَ طلاقةِ لسانِ حالِهِ وفَصاحتِه واقتدارِه على أن يَنفذَ فِي الصّدورِ .

وكم من رجل اهتديْنا إلى الحق والخير بلسان حالِه أكثر من لسان مقالِه ، وهم اليوم في الناس قلّ ، وكمْ من رجلٍ منتسبٍ إلى أهلِ العلمِ يفسِدُ بلسان حالِه ما يبِنيه صباحَ مساء بلسان مقالِه .

﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّتِى نَقَضَتۡ غَزۡلَهَا مِنۢ بَعۡدِ قُوَّةٍ أَنكَـٰثًا ﴾ (النحل:٩٢)

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبۡطِلُوٓاْ أَعۡمَـٰلَكُمۡ ﴾

(محمد:٣٣)

من هنا تظهر أهمية الدَّعوة إلى تَحقِيقِ هذه الفضيلة : فضِيلة الصّلاحِ والإصلاحِ .

هذا البعدُ الإصلاحيّ هو الأعظمُ والأكثر حضوراً في كتاب الشّيخِ ، وهو المَأمّ الأعظمُ منه ، فالتغييرِ إلى الأسمَى والأمجد رسالته ، ومَن ينظرُ في ما غلب على اختيارات الشّيخ من أحاديث صَحيحِ مسلم يجدُ أنّها الأحاديثُ الّتي تبيّنُ لنا المُفسداتِ هذه الحياةِ ، ولا سيّما الكبائرُ ، ولذا كثرَت هذه الأحاديثُ في اختيارات الشّيخِ ، فهو اختيارٌ منهجي تَربَويّ في المقامِ الأول والأجلّ ، ولم يكن اختياراً مَبنيًّا على ما كثرتْ فيه الخَصائصُ التّركيبيّة والأنماطُ التّصويريّة والفنون التّحبيريّة الدّقيقةُ اللّطيفة الطّريفةُ عَلى نحوِ ما يفهمُ ذلك طلابُ علم البلاغةِ العربيّ وينشغلون بِه ، فهُو يستهلّ كتابَه بالأحاديث الّتي صوّرت لنا الكبائِر المُتفشيّة فينا في زماننا هذا أكثر من تفشيها في زمن المبعثِ ، وكأنَّ النبيّ صَلّى اللهُ وسلّم عَلَيْه وَعلَى آلِهِ وصَحبِهِ قالها لنا نحنُ في المقام الأوّل .

فالحديث الأول من اختيارات الشيخ مثلاً يحدثنا عن الزّنا والسّرقة وشُرب الخمرِ وعن الغلول والانتهاب ، وهي كبائرُ يندرُ وقوعها في القُرون الأوَل .

وقد بسط الشّيخُ القول في هذه الأحاديث بسطًا لم يبسطُه في غيرها ، لأنّه رأى ببصرِهِ وبصيرتِهِ مدَى استشراءِ هذه الموبقاتِ في عصرِنا ، وكيف أنَّ سَحرة إبليس يبالغون في نشر هذه الكبائرِ في الأُمَّة ، ويُبالِغون فِي تصوير أنَّها مِن ضَرورات الحياة ، ومن معالم التّحرّر .

وكنت قد أدركتُ أن الكتاب قائمٌ على هذا البُعد الإصلاحيّ من الصفحات الأولى من الكتاب ، فلما بلغت الصَّفحة الخامسة والخمسين بعد المئة سمعتُ الشيخ يُؤذّنُ :

« ليس عندِي فيما أكتب أهمّ مِن أنْ أبين كيفَ كانَ صلاح الجماعةِ هو الهدفُ الرشيد من كلامه صَلّى اللهُ وسلّم عَلَيْه وَعلَى آلِهِ وصَحبِهِ وكيف كان صَلاح ديننا هو الهدفُ من كلّ كلامِهِ عليْهِ الصّلاةُ والسّلامُ . . . إلخ »

فالكتابُ ليس في بيان بلاغة النّبوة على نحو ما يعهده طلابُ العلم فيما يكتبه لهم أساتذتهم « الأكاديميّون » في علم البلاغة العربيّ .

لم يكنْ مِن وكدِ الشّيخ أن يخبرك عن أسلوبِ التقديم أو الفصل أو الوصل أو الاستعارة . . . في بيان رسُول الله صَلّى اللهُ وسلّم عَلَيْه وَعلَى آلِهِ وصَحبِهِ ، على النَّحو الذي يكون في أسفارِ البلاغيين وإن كان هذا في نفسِه طَلبةً جليلةً ، بل وكدُ الشيخ وهمّه أن يُبين لك عن منهج بيان النُّبوّة في إصلاح الحياة من خلالِ بصرِه بمنهجه في تصويرِ معاني الهدَى . فالنّظر البلاغيّ في الأساليب وسيلة إلى غاية أجلّ ، والاكتفاء بالنّظرِ في الأساليب وتدقيقات العلماءِ ومراجعاتهم ومناقشاتهم،وإنْ كان هُو الأهمَّ في مرحلةٍ من مراحلِ طلبِ العلم، فإنَّ الإخلادَ إليه والمكثَ فيه إلى أن تنقَضِي حياة طالبِ العلمِ من العقوقِ بالعلم وطلابِه وبأنفسنا الفاعلةِ أيضًا .

غيرُ قليلٍ من طلابِ العلم وأهلِه ينكفِؤون على ما تخصصوا فيه من علومِ العربيةِ ، فلا يكادُ الرجلُ منهم يَعرفُ إلا ما تخصَّص فيه مِن نَحو أو نقدٍ

أو بلاغة . . . ولا يستثمرُ هـذا العلم فـي إصـلاح الأمّـة . فتنقضِـي حيـاتـه ، ولا يعرفُ له إلا مجاهدته في تتبع مذاهب النّحاة في عويص النحو ومتهالـك المذاهب الأدبية والنقدية ، وسفساف أخبار الشّعراء . . . وكـأنّ هـذا هـو الـذي يدخل به على ربّه سُبْحانَه وَبِحمدِه .

ما هذه العلوم إلا أدواتٍ لا غايات . فمن استغنى بجمع الأدوات فقد ضلّ ، وغبن نفسَه وقومه .

الإصلاح عند الشيخ هو الهَمُّ الأكـبرُ ، ومخـرج هـذا الهـمّ يقينـه بأنّـه لـيس الفريضة اللازمة اللازبة أن تكون أنت صَالحًا وكفى ، كلا ، بـل أن تكـون أنـت صَالحًا مصلحًا . وبيان النُّبوّة يتوافد فيه كثيرٌ من الهدَى المنادي بأن يكون المرءِ لنفسِه وقومه ودينه ووطنه وللإنسانية جمعاء أمّا ما يحرصُ عليْه أعداء الإنسان كلّ الإنسان من رفع شعارهم (خليك في حالك) فإنّهم يريدون أن يكـون هـذا هو عماد شَخصية كلّ مسلم ليتمكنوا من المسلمين ، وهم يرفعون هذا الشعار ولا يأخذون به ، بل هم يدسون أُنوفهم وأقلامهم وسيُوفهم في كل صَغيرٍ وكبيرٍ من شأن المسلمين .

ومن منطلقاتِ هذا البُعد الإصلاحيّ عند الشيخ القيام بما فرضَ على العـالمِ أولا وعلى كلّ مسلم ثانيًا من أن يجاهد كلّ فسادٍ في الأرضِ بكل ما أوتي من نعمِ الله تعالى . نفسِه ومالِه وعلمه . . . .

وإذا ما كان أبو داود قد روى في كتاب (الجهاد) من سننه بسنده عَنْ أَنَـسٍ أَنَّ النَّبِىَّ ﷺ قَالَ : « جَاهِدُوا الْمُشْرِكِينَ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِـكُمْ وَأَلْسِـنَتِكُمْ » . فـإنّ ذكر « المشركين » غير حاصر الجهاد فيهم ، فهم رأس من يجبُ جهاده بالمال والنّفس والألسنة وكلّ ما يملك العبـد مـن نعـمِ الله تعـالى عليْـه ، وجهـاد رِدْءِ المشركين وخدنتِهم وحفدتهم من أبناءِ جلدتنا هـو مـن جهـاد المشـركين لأنّ الغايةَ عند كلٍّ واحدة .

نحن إنّما نجاهدُ مناهجَ وبرامجَ ومخططاتٍ ومآرب ، لا نجاهد أشخاصًا بأعينهم . ما هكذا تُورَد ياسعدُ الإبلُ .

لو أنّ علمانيًّا قال كلمة الحق لناصرناها ، كأنّها خرجتْ من فم عالم ربّانيّ ، ولو خرجت كلمةُ الباطلِ من فم شيخ الإسلامِ وإمام المسلمين ـ إن كان للإسلام والمسلمين اليوم شيخٌ وإمامٌ !!!ـ لعارضناها وخاصمناها حتى نزهقَها بالحقّ ، وحتّى يؤوب إلى كلمة سواء ، فنُنْقذه من قبضة الشّيطان ، فذلك حقه علينا : (لا يظلمُه ولا يُسلمُه) ...

البُعدُ الإصلاحيّ هو المقدَّم في حاضرنا لأنّ السِّيَاقَ القائمَ هو سياقُ فسادٍ وإفسادٍ وصناعَته وإدارته وحياطته ، وهذا يستوجِبُ أن يكونَ الأهمّ الأكبر لكلِّ ما نمارسُه مِن العلمِ والعملِ هُو إصلاحُ هذا الفسادِ وكشفِه وبيان مخاطره ، وكشفِ أستارِ سدنتِه فِي المجتمعِ ، والمجاهرة بكشفِ ما يدبّرون للأمَّة والإنسانيّةِ في عزمٍ فتيّ ، وإصرارٍ أبيّ لا يُجامل ، ولا يهادِن ولا يدارِي البتة .

والشيخُ يؤذِّن فينا كاشفًا عن وجه عنايةِ البيانِ النبويّ ببيان المفسداتِ لهذه الحياة ، يقُول « نجدُ أحاديثَ الكبائر تَتَغلْغلُ في صَميم حياتنا ، وتستمدُ حجمَها وكبرَها وأكبرها مِن خلالِ ما نعانيه نحنُ منها .

ولا أحبُّ أنْ أحدّثَ الناسَ فِي دينِ اللهِ بِحديثٍ أفضلَ من هذه الأحاديث الّتي أرَى فِيها دين اللهِ يَحرسُ حياتنا من الفساد والإفساد ، ويَحدو عِبادَ اللهِ المُخلصين إلى مزيدٍ من الإحسانِ ، فبمِقدارِ ما يقدم العبدُ الصّالح لحياتنا من الصّلاح والإصلاح تكون مرتبته عند الله . . . » [١]

وهو ينادي على من يظنّ أنّ كلامه في شأن الأمة وإصلاح ما فسد منها ، والدَّفع عنها ليس من بابِ شرح الأحاديث ـ من يظن أنَّ « هذا الكلامَ ليس

---

(١) شَرْحُ أحاديثَ منْ صَحِيحِ مسلم : ١٥٨/١ .

لازمًا لشرحِ الحديثِ فاترك كتابي ؛ لأنّ الأمر بيْني وبيْنك مختلفٌ جدًّا ومتّسعٌ جدًّا . وقد قلتُ في هذا الكتاب وفِي غيرِه إنّني لا أتكلّم فِي آيةٍ ، ولا فِي حديثٍ إلا عندما أشعرُ أنّها نزلتْ الآنَ ، ونزلتْ للأحداث التي أعيشها »[1].

هذا الاستحضارُ لبيانِ النُّبوّة في أحداثِ الواقع هو من قبيل النَّصيحة لبيان النُّبوّة أولاً ، وللأمّة ثانيا ، لأنَّ بيانَ النّبوّة لم يكن لزمان المبعث وحده ، بل هو لكلّ عصرٍ ومِصرٍ وجنسٍ ، ولكلّ حادثةٍ تحدثُ في هذه الحياةِ إلى يوم القيامة ، من أنّه صَلَوات اللهِ وسلامُه عَلَيْه وَعلَى آلِهِ وصَحبِهِ بُعث رحمة للعالمين وللنَّاسِ كافة ، فوجبَ أن يكونَ هذا البيانُ لهذا الزَّمان ولكلّ زمان ، فأنت تقرأُه وكأنَّك أنت المخاطب به أولاً ، وكأنَّ رسول الله صَلّى اللهُ وسلّم عَلَيْه وَعلَى آلِهِ وصَحبِهِ قائمٌ بيننا يهدينا إلى المخرج ممّا نحن فيه ، ولكن أكثرَ النّاس لايعقلون أو لايريدون أن يعقلوا هذه الحقيقة .

فقراءة بيان النّبوّة في سياق الواقع الذي يَعيشه القارئُ هُو من النَّصيحة لهذا البيانِ ؛ لأنَّه ضربٌ من إحيائِه وتفعيلِه ، ومَن أحيا سُنة من سنتَه صَلّى الله عليْهِ وعلَى آلِه وصَحبِه وسلّم تسليمًا كَثيرا كان له فضلُ من أخذَ بها إلى يوم القيامةِ . فكيف بالّذي يجعلُ سنَّته هي السُّلطان على هذه الحياة ، وهي المخرج والمنجا ؟

وهو أيْضًا من النَّصِيحةِ للأمّة ، لأنّ دلالتَها على الخيرِ القائمِ بيْن يديْها يحمِيها أولاً من استجداءِ ما يُخرجُها مِن محنتِها ، وما يرسُم لها طريقَها إلى العِزّةِ ، وما يقيم على جنبات الطَّريق معالمَ الهُدى .

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ (الحجرات: ١).

---

(١) شَرْحُ أحاديثَ منْ صَحِيحِ مسلم : ١/١٦١ .

روَى الترمذيّ في كتاب (صِفة القِيامةِ) من جامعهِ بسنده عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : كُنْتُ خَلْفَ رَسُول اللَّهِ ﷺ يَوْمًا فَقَالَ : « يَا غُلاَمُ إِنِّى أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ احْفَظِ اللَّهَ يَحْفَظْكَ احْفَظِ اللَّهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللَّهَ وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ وَاعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَىْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلاَّ بِشَىْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ وَلَوِ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَىْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلاَّ بِشَىْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ رُفِعَتِ الأَقْلاَمُ وَجَفَّتِ الصُّحُفُ ».

قَالَ أَبُو عِيسَى هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ[1] .

وكلُّ ذلك البدءُ به فريضةٌ لازمةٌ لازبةٌ على كلّ مُسلمٍ إزاءَ أمته فكيف بعلمائها؟!! ومَن حسِبَ أنَّ العقلَ البلاغيّ مهمومٌ بالكلمة الجمالِ الأجردِ فقد ضلَّ فهمًا .

العقلُ البلاغيُّ لايُعنى بجَمالِ الكلمةِ إلا إذا كان هذا الجمالُ وليدَ جلالِ المَقصد . فالجمالُ الحقُّ ما كان وليدَ الجلالِ . وليس ثَم جمالٌ إلا وهو مزيجٌ من النّفع والمُتعة ، والمُتعة نفسُها عند الأسوياءِ نفعٌ مثلما النَّفع في نفسِه عند العقلاءِ مُتعة فالعاقلُ السّويّ إنّما يستمتعُ بما ينفعُه إن عاجلا أو آجلاً ، ويتألم ممّا لا ينفعُه إن عاجلاً أو آجلاً ، فليس ثَم متعةٌ خلاءٌ من منفعةٍ إلا متعة الشَّيطان .

كلُّ مُتعةٍ حقَّةٍ تنشرحُ بها النّفسُ فَإِذَا ما انشرحَتْ النَّفسُ السَّوية للحياةِ عمَّرتْها بنصرِ الحقِّ وصناعةِ الخيروإشاعتِه فيها

وليس نفعٌ حقيقيّ خلاءً من المُتعة الحقّةِ إلا عند من فقد الإحساس

---

(١) ورواه أحمد في مسنده ، والطبراني في الأوسط والكبير ، والحاكم في المستدرك ، والبيهقي في شعب الإيمان صحّحه الألباني في تعليقه على مشكاة المصابيح ، رقم (٥٣٠٢) وفي صَحيح وضعيف سنن الترمذي . رقم (٢٥١٦)

الصَّحيح بالجمال[1] فكانتْ قراءة البيان النبوي في واقعِ الأمة ضربًا من ضُروب الإصلاحِ المنهجيِّ في تلقّي البيانِ .

وإصلاحُ منهج التلقّي والقراءة والفهم مقدمٌ على كل إصلاح لأنّه يبنى عليه كل صُنُوف الإصلاح وضروبِه مهما تنوعت مناطاته وتعددت .

واستجداءُ مناهجِ الإصلاحِ قبْل النّظرِ فيما بيْن أيدِينا مِن مناهجِ الإصلاحِ فِي الكتابِ والسُّنّة إنّما هُو مَعرّة أعظمُ مِن معرَّة استجداءِ المَطعَمِ والكساءِ والدّواءِ .

* * *

مَن أهمِّ ما عُنِيَ الشَّيخُ بإصلاحِه منهجُ القراءةِ والتَّلقِّي والفهْمِ ، فإصلاحُه هُو الخطوة الرَّئيسةً إلى إصلاحِ كثيرٍ مِن موقفِ الإنسانِ مِن الكونِ والحياةِ والنَّاسِ جميعًا ، لأنّ الضَّلالَ في الفهْم أو التَّقصِير فيه يترتبُ عليْه مِن المَضارِّ ما لا يُطاقُ ، والتَّميُّزُ فِي التَّلقِّي والفهْم يفتحُ آفاقًا رَحبة للتَّسامح والإعذار والأخذِ بيدِ الآخرين إلى الجادَّة .

إنّ سُوءَ الفَهْم مِن أشدِّ الأشياءِ ضَررًا ، وإذا ما كانَ علمُ البلاغة العربيّ إفهامًا يُحقّقُ لأهلِه الأوفياءِ بحقِّه فضيلةَ الاحترازِ عَن الخطأ في مطابقةِ بيانِهم مقتضى الحالِ معنى وصُورةً ودَلالةً ، فإنّ علمَ البلاغةِ العربيَّ (فهمًا) مِن أُصولِ رسالتِه تحقيقُ الاحترازِ مِن سُوءِ الفَهم لِمنْ أحسنَ النَّظرَ فيه بقلبٍ سليم ، وعقلٍ قويمٍ . ولعلّ مقالة سيّدنا عليّ بن أبِي طالبٍ رضِيَ الله عنه : إذا أتاكم الحديثُ عن رسُولِ الله صَلّى اللهُ وسلّم عَلَيْه وَعلَى آلِهِ وصَحبِهِ فظنوا بِه الذي هُو أهدَى والذي هوأهنا والذي هوأتقَى . لعل هذه المقالة تؤكد وجوب الاحتراز عن

---

(١) بسطتُ القول في هذا لأني رأيت كثيرًا من طلابِ العلم يحسبون أن المتعة الحقة يُمكن أن تكون من غير نفعٍ ، وأن النَّفع قد يخلو من المتعة الحقة ، وهذا حُسبان ضالٌّ أثمره نظرٌ عابر في حقائقِ الأشياءِ ، ومن سافرتْ بصيرتُه في أغوارِ الأشياء علم الذي قلتُ .

نقيصة سوء الفهمِ لما جاءنا من البيانِ النّبوي . وعلم البلاغةِ العربيّ هو الذي يحقق هذا الاحتِرازَ عَن نقِيصةِ سُوء الفهم .

* * *

من ذلك الإصلاح في التلقّي والفهم ما نراه في تصحيحِهِ ما تداولته الفهوم مِن حرفية في فهمِ بيانِ النُّبوَّةِ ممَّا جعلَ الرُّؤيةَ ضيّقًا أفقُها ما تراه في بيانه معنى قول سيّدنا رسُول الله صَلّى اللهُ وسلّم عَلَيْه وَعلَى آلِهِ وصَحبِهِ : (وأن تُزانِي حليلةَ جارِك) فيلفتنا إلى أنَّ «الحليلة» تطلقُ غالبًا على الزَّوجة ، ويكونُ أصلُها من حلّ يحِلّ بكسر «الحاء» كضرب يضرِبُ ، فتكون من «الحلالِ» الذي هو ضِدُّ «الحرام» ، ويلفتنا إلى أنـّك إذا جعلتها من حلّ يحلّ بضم «الحاء» من باب قعد يقعُد كانت من «الحلول» الّذي هو ضدُّ المقام والمُكث ، فيدخل في هذا الفهم كلّ مَن كانتْ بحوزةِ جارك من أُمٍّ وأختٍ وبنْتٍ وخادمةٍ وضيفةٍ . . . . فتتسعُ الرُّؤية ويتسعُ الحفاظ ويشتدُّ النَّهيُ .

وهذا التَّصحيحُ للفهمِ هُو الأليقُ بحالِ الأمّةِ ، فقد بات استحلالُ العبثِ بمن هِي في الجوار من الأمهاتِ والأخواتِ والزَّوجاتِ والبناتِ والخادماتِ . . . أمرًا كأنـّه المعهودُ المعروفُ الّذِي لا يُنكرُ عند وجهاءِ القومِ مِن «أبناءِ الذوات» ، فأوّلُ مَن يتجرّأ الغلامُ فيهم عليه ليَعبثَ في أخلاقِه هُو جارتُه ، وهذا أمرٌ يسعَى سحرةُ إبليس إلى تقريرِه في نفوس الشبيبةِ ، وإلَى تقريرِ أنَّ ذلك قدْ مارسَه الكبارُ والأجدادُ والوجهاءُ والأسوةُ والرُّموزُ الوطنيون ، فإن فعلت أيها الغلامُ فأنت المتّبع لا المبتدع ، فلا ملامة ولا عتبى . كذلك يفعلون مِن خلالِ ما ينفثونه من برامج ، وأفلامٍ ومسرحياتٍ وروايـاتٍ وأغانٍ يعدها ويخرجها رضيعُ الشّيطانِ وينفق عليها في عَصْرِنا ومِصْرِنا من بيت مالِ المسلمين .

الشَّيخُ كما ترَى يذهبُ إلى أنّ منطقَ الواقعِ ومَنطق الرّسالة النَّبويّة يحملُ إلى أن يكونَ التأويل لكلمة (حَليلة جارِك) جاريًا على الاتساع الدَّلالي

المنضبط بالشَّرع وبالعقلِ وبالواقعِ ، وفي هذا النّهج من إصلاح الفَهم نهجٌ من إصلاح السُّلوك المُجتمعيّ الذي يَسعَى سحرةُ إبليس إلى إفسادِه .

عمَد إلى إصلاح الفهم فاتسعت الرُّؤية وترتَّب عليها اتساعُ مناطِ النّهي ، وكان هذا أليَقَ بحال الهَدْي النّبوي فهو هدْيٌ سابغٌ لايَحدّه زمانٌ أوْ مكانٌ أو مجتمع . ﴿ **وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ** ﴾ (الأنبياء:١٠٧).

وقد يقُول قائلٌ : إن تأويل الحليلة بالزّوج مبني على مذهب النّهي عن أبشعِ صور المَنهي عنه إبلاغًا في التَّنفير مِن الأدنى ، فيكونُ من بابِ قول الله تعالى : ﴿ **يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضۡعَٰفٗا مُّضَٰعَفَةٗۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ** ﴾ (آل عمران:١٣٠) وقوله تعالى : ﴿ . . . **وَلَا تُكۡرِهُواْ فَتَيَٰتِكُمۡ عَلَى ٱلۡبِغَآءِ إِنۡ أَرَدۡنَ تَحَصُّنٗا لِّتَبۡتَغُواْ عَرَضَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ وَمَن يُكۡرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعۡدِ إِكۡرَٰهِهِنَّ غَفُورٞ رَّحِيمٞ** ﴾ (النور:٣٣)

قد يقال . بيْد أنَّ المذهبَ الأوَّل أصرحُ وأقربُ وما لا يَحتاجُ إلى تأويل مقدمٌ على ما يحتاجُه ، ولا سيما في مثل هذا البابِ الَّذي بِهِ صِيانةُ الأعراضِ الَّتي هِي عَديلُ الأرواحِ ، ولا سيّما عِندَ العَربِ خاصَّة والمُسلِمين عامّةً .

* * *

ومن هذا ما لفتَ إليه من سوء فهم كلمة (رعيّة) في قول رسُول الله صَلَوات اللهِ وسلامُه عَلَيْه وَعلَى آلِهِ وصَحبِهِ « مَا مِنْ عَبْدٍ يَسْتَرْعِيهِ اللَّهُ رَعِيَّةً يَمُوتُ يَوْمَ يَمُوتُ وَهُوَ غَاشٌّ لِرَعِيَّتِهِ إِلاَّ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ ».

فهم بعضٌ من استعمال كلمة « الرّعية » في الخطابِ السّياسيّ معنًى رأى أنَّ كلمة (مواطن) أدلّ على الأولى منها ، فكتب كتابا جعل عنوانه (مواطنون لا راعيا) ولا ريب أنّ المؤلف لم يَردّ كلمة (الرّعية) في بيان النُّبوّة ، ، فالمؤلف رحمه الله تعالى أجلُّ مقامًا من ذلك ، هو نظرَ إلى المعنى الاجتماعيّ والسّياسيّ المعاصر لكلمة (رعيّة) الحامل شيئًا من الإهانة في الخطاب

السّياسيّ والاجتماعيّ ، ولكن شيخنا أصلح لنا فهم هذه الكلمة ، فقرأها في سياقها النّبويّ ، فهدَى إلى أنّ كلمة الرَّاعِي والرّعية من الكلمات الحاضرة في بيان النُّبوّة ولها فيه معنى كريمٌ وزاكٍ ونبيلٌ وطهور ، غيرأنَّ تداولَها في ألسنةِ السَّاسةِ لوثّها في أذهان النَّاسِ . والصّواب أن يبقى المعنى النّبويّ للكلمة هو الحاضرَ المتداولَ ، لأنَّ كلمة الرّاعي تحملُ معنى الخادِمِ والحامِي ، ولا تعنِي معنى المالِك والمتسلطِ ، فهي قرينُ كلمة (قوَّامون) في قول الله سُبْحانَه وَبِحمدِه ﴿ ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٍ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡۚ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلۡغَيۡبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُۚ وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهۡجُرُوهُنَّ فِي ٱلۡمَضَاجِعِ وَٱضۡرِبُوهُنَّۖ فَإِنۡ أَطَعۡنَكُمۡ فَلَا تَبۡغُواْ عَلَيۡهِنَّ سَبِيلًاۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيّٗا كَبِيرٗا ﴾(النساء: ٣٤)

«القوَّامون» هم من قاموا على رعاية المرأة وحمايتها ، وليس تسلطًا وتجبرًا ، فذلك لا يتواءم مع مفهوم كلمة «الرِّجال» ولا مع لِحاق الجملة : ﴿ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٍ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ ﴾ ولا مع سياق سورتها (النّساء) : هو سياقٌ قائمٌ بتقرير منهاجِ بناءِ الأسرةِ المسلمة على دعامتي العدلِ والرّحمة .

وما كان كذلك لا يكونُ فيه الرّجل متسلطًا ، وفي بيانِ النُّبوّة من الأحاديث مَا يقرِّر وجوب الإحسان إلى المرأة وحرمة التسلطِ عليها . كذلك كلمةُ (الرّاعي) «لأنّ كلمة الرّاعِي هُو القائمُ علَى خدمةِ الرَّعيّةِ ، وهُو المَسؤولُ الأوَّلُ عَن أشياءَ لا تتيسّرُ إلا لَهُ ، ولا يقدِرُ عليْها إلا هُو . . .» [1]

ويلفت أيضًا إلى ما حلّ بكلمة (أهلِ الذمة) من سوء فهم يستوجب إصلاحه ، فلفت إلى المعنى النَّبيل الذي تَحمله الكلمةُ في سياق حضُورِها في بيان النُّبوّة ثُمَّ في بيان الفقهاء .

---

(١) شَرْحُ أحاديثَ منْ صَحِيحِ مسلم : ١/١٢٠ ، ٤٠٧ .

ليس صحيحًا أنّ هذه الكلمةَ تنفِي حقَّ المواطنة ، وتجعلُ أصحابها دون طبقةِ الأكثريةِ في الحقوقِ ، فمثل هذا حين ينشرُه العلمانيون والليبراليون في آذان النَّاس وغير قليلٍ من النَّاسِ عقلهم في آذانهم ، كما قال أحمد شوقِي إنما ، يرادُ بِه التّشويهُ والتشويشُ على أصُولٍ فقهيّةٍ جليلة جدًّا ؛ لأنَّ هذه الكلمةَ لا تنقصُ مِن حقُوق المواطنة مثقالَ حبةٍ من خردلٍ ؛ لأنَّ هذه الحقُوق مضمونةٌ بِقوله عَلَيْهِ السَّلامُ « لَهُم ما لنا وعليهم ما علينا »

وهي كلمةٌ تكادُ تنصُّ نصًّا مباشرًا على ما نسميه حقّ المواطنة . . .

ثُمّ يُضافُ إلى هذه الجماعةِ التي تعيشُ بيْن المسلمين وليست منهم عهدٌ هو زيادةٌ لهم حتى لا يستفزهم جاهلٌ أو أحمقٌ أو متعصّبٌ ، هذا العهدُ زيد في احترامه ومهابته وتقديرِه ، فسمّي ذمة الله ورسُولِه ، فمن خاشنهم أو قاربهم بسوءٍ فقد اعتدَى على عهدِ اللهِ ورسُولِه ، واعتدَى على ذمة اللهِ ورسوله .... »[1]

ولوأنّ الناس نظروا في ما شرعه الله تعالى من إباحةِ نكاح نساء أهلِ الذمة لكفوا اللغط في مفهومِ أهل الذمة ، وإذا ما كان الله تعالى يَقُول :

﴿ ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ۖ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ ۖ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ (المائدة:٥)

فهذا هادٍ إلى أنّ أهل الكتاب (أهل الذّمة) فيما يتعلقُّ بالحقوق الاجتماعية غير منقوصين . فقد جعل طعامهم ونساءهم حلالاً . وهو سُبحانهُ وَتَعَالَى ما أحل لنا إلا الطيبات .

وحقوقُ الزَّوجة الكتابية في شَريعة الإسلامِ عديل حقوق الزوجةِ المسلمة إلا ما يتعلق بالميراث ، فهما لايتوارثان .

---

(١) شَرْحُ أحاديثَ منْ صَحِيحِ مسلم : ١٢٠/١ .

روى الشيخان في كتاب الفرائض من صَحيحيهما بسنديهما عَنْ أُسَامَةَ ابْنِ زَيْدٍ ـ رضى الله عنهما ـ أَنَّ النَّبِىَّ ﷺ قَالَ «لاَ يَرِثُ الْمُسْلِمُ الْكَافِرَ ، وَلاَ الْكَافِرُ الْمُسْلِمَ»[1].

والقرآن حين وصى بالإحسان إلى الجار الجُنب والصاحب بالجنب ، لم يخص هذا بالجار المسلم . ﴿ وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴾ (النساء:٣٦).

---

(١) الكافر في الحديث يشمل كل من كان غير مسلم ، وإن كان من أهل الكتاب .
وهذا الحديث عام لا يدخله التخصيص ، وهو قطعيّ الدلالة ، فهو من النصُوصِ المحكمة .
وفي بناء صورة المعنى في الحديث فوائد .
انظركيف أنه سوّى بينهما في عدم التوارث ، ولم يجعل المسلم وهو الأعلي دينا وارثًا للكافر ، بل قدم نفي وراثته الكافر في البيان ، ممّا لو سكت عند قوله(لا يرثُ المسلمُ الكافر) لكفَى ؛ لأنه سيفهم اقتضاء أنّ الكافر الأدني لا يرث المسلم الأعلى .
ولوأنَّه قدم قوله (لا يرثُ الكافرُ المسْلِمَ) لتوهم أنّ المانع هو دنو منزلة دينه ، وعدم اعترافِ الوارثِ بدين الموروث على غرار النكاح ، ينكح المسلمُ الكتابية ، ولا ينكح الكتابي المسلمة ، لعدم اعترافه بدينها ، ولكنه قدم (لايرثُ المسلمُ الكافرَ) ليؤكد عدم إرث الكافرِ المسْلِمَ .
وثم بعضٌ من أهل العلم على القول بوراثة المسلمِ الكافر ، وقد نقده الأعيان من أهل العلم . وقرروا علو القول بعدم التوارث .
وهنا قد تثور ثائرة الأعلاج من العلمانيين والليبراليين وسحرة إبليس بأن هذا تفرقة بين الناسِ تناقض الدستور الحاكم على كلّ شيءٍ .
ولكنهم لايسْتطيعون أن ينبسوا ببنت شفة إزاء تحريم الكنيسة الزواج بين نصرايين أحدهما أرثوزكسي والآخر كاثولوكي أو بروستانتي ، وهما على دين الصليب ، فلم كان هذا شأنًا كنسيًّا سياديا ، لا يتدخلون فيه ، وكان عدم زواج النّصراني مسلمة ، وعدم توارث المسلم وغير المسلم كلأً مباحًا لكل راتع وناعق . ؟!!!!!

والرسول صَلّى اللهُ وسلّم عَلَيْه وَعلَى آلِهِ وصَحبِهِ حين وصّى بالنساء ، وبالجار لم يجعل هذا خاصًّا بالمُسلم .

إنَّ سوءَ الفهمِ آتٍ من قِبل القراءةِ التجزئيّة التي تفصِم العبارة عن سياقها الخاص والعام ، فتسقط عليها من العقل ما ليس فيها ، وهو بابٌ من تحريف القول عن مواضِعه .

ومن هذا البابِ الإصلاحي للتلقّي والفهم ما جاء بِه في شرح قول النبيّ صَلَوات اللهِ وسلامُه عَلَيْه وَعلَى آلِهِ وصَحبِهِ : « ليسَ الغِنَى عَنْ كثرةِ العرَض . ولكنّ الغنى غِنى النفسِ».

خشي الشَّيخُ مِن سُوء فهم الجملة الأولى في هذا الحديث ، والذهابُ به إلى أنّ الهدي النبوي يقدح في كثرةِ العرضِ أو يزهد فيه ، فمثلُ هذا إذا جرَى في النُّفوسِ كانت آثاره في تعمير الحياةِ بطاعةِ الله تعالى جدَّ خطيرة ومبيرة ، لأنّ هذا سيدعُ المالَ في أيدي السّفلة السفهة ، فينفقونه فيما يحاربون بِه الله تعالى ، وما يفسدُون به الحياة ، وما نحن فيه من بلاءٍ في عصرنا ومصرنا وطننا العربي والإسلاميّ من أسبابه أنّ وفيرَ المال في أيدي أسافلنا وسفهائنا في غالبِ الأمر ، وأنّ الصالحين ليس في أيديهم إلا ما يكفيهم ، والله تعالى يقُول :

﴿ وَلَا تُؤْتُواْ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَـٰمًا وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَٱكْسُوهُمْ وَقُولُواْ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴾ (النساء:٥)

ومن سبل عدم إتيان الأموال السُّفهاء أن لا تخلى لهم الطرق إلى استلابِه واكتنازه واستهلاكه فيما يفسدُ الحياة ، بل تجب مزاحمتهم ومطاردتهم من تلك السبل ، فلا يبقَى في أيديهم إلا ما يكفيهم حتى يهودوا إلى رشدهم .

ومن فهم أنَّ البيان النَّبويّ يزهد في كثرةِ العرضِ فقد اقتطع الحديث من سياقِه العام ، فقد جاء في مسند أحمد بسنده عن عَمْرَو بْن الْعَاصِ أن رسول الله صَلّى اللهُ وسلّم عَلَيْه وَعلَى آلِهِ وصَحبِهِ قال له في سياق ممتد :

« يَا عَمْرُو نِعْمَ الْمَالُ الصَّالِحُ لِلْمَرْءِ الصَّالِحِ ».

هذا الهدي النبوي هو القاعدة العظيمة التي تبنى عليها علاقة المسلم بالمال ومتاع الحياة الدنيا . وبه يفهم المعنى الصحيح للزّهد المشروع . وقول رسول الله صَلَوات اللهِ وسلامُه عَلَيْه وَعلَى آلِهِ وصَحبِهِ : « ليس الغنى عن كثرةِ العرضِ » « ليس فيه لفظةٌ ولا إشارةٌ تومئُ إلى شيْءٍ من التَّزهيد في المالِ » وإنما العجلةُ فِي الفهمِ هي التي تفضِي إلى ذلك ، وإنما يقُول إن الشّبع الحقيقيّ والغنَى الحقيقيّ هو غِنى النفسِ ؛ لأن هذا الغنى إذا وجد تَجدُ النفسَ قد غَنيتْ عند فقد العرضِ ، وقد غَنيتْ أيضًا عند كثرة العرض ؛ لأنَّ غناءها لَم يأتها من خارجها ، وإنّما يأتيها من داخلها . . . » [1]

* * *

والشّيْخُ يلفتُنا إلى أنّه حين عمَد إلى أحاديثِ دَعت إلى التّحاجز عن آثامٍ عدّت في الشرعِ كبائر ، إنّما عمد لبيان وجه وَصمها بأنّها كبائرُ ، فالمرءُ مفطورٌ على أن يُذنب ، والسَّوي مفطورٌ على أن يستغفرَ ، بيْد أن من الذنوب ذنوبًا لا يطيقُ الكونُ والحياةُ والإنسان أثرَها لِما لها مِن فحُولة في الأذى وسُبوغ في الإفساد ، وَصْمُها بأنَّها كبائرُ غيرُ راجعٍ إلى ذاتِها ، ولا إلى صانِعها ، بل إلى أثرِها فحولةً وسبوغًا . هي « ما كانت أكبرَ الكبائر وأعظمَ الذُّنوبِ إلا لأنّها تُصِيبنا نحنُ بأكبرِ الضّررِ ، وأعظمه وأنَّ الله سُبحانهُ وَتَعالَى ما غضبَ مِن عبدٍ كان مِنه شيْءٌ إلا شيئًا يَضرُّنا نَحنُ . . . .

ولم أَجد في الدّين شيئًا يرضاه ربُّنا إلا وهو خيرٌ لي ولك ، ولم أجد في الدّين شيئًا يكرهه ربنا إلا وهو شرٌّ لي ولك . . . » [2]

---

(١) شَرْحُ أحاديثَ منْ صَحِيحِ مسلم : ٢٧٢/١ .

(٢) المرجع السابق ١٢٧/١ .

يتجلي البعدُ الإصلاحي في لفتنا إلى أنّ إلحاق الضرر بالآخر أَيًّا كان الآخرُ وأيًّا كان الفعل هو مناط الوَصم للفعل بالكبيرة :

لا تنظر إلى فعلك ، وإلى من فعلته معه ، وانظرإلى أثر فعلك ومجاله ومقداره ، وانظر إلى باعثك على اقترافِه ، فلست مفتقرًا إلى أن يُقال لك هذه كبيرة ، وهذه صَغيرة .

أنت المرجع بنظرك في أثر فعلك . هنا يقال : « استفت قلبك » وليس كلُّ بأهلٍ لأن يَسْتفتي قلبه ، فثم قلوبٌ أشربت المنكر فاستحال عندها معروفًا . فأنّى لِقلب لا ينامُ صَاحبُه إلا على معصية ، ولا يستيقظ إلاّ على مثلها أن يُستفتى ؟!!!!

ومن ثمَّ كان ذنبُ العلماءِ والأمراءِ في ما يتعلق بحقوقِ العباد أعظم جرمًا وإفسادًا من ذنب غيرهم ، لأنهم الأوسع أثرًا ، ولأنَّهم محل النّظر والاقتداء .

إذا أقيم هذا العيارُ الإصلاحي في حياتنا تحقّق لهذه الأمة سلامها الاجتماعي على نحو يُعينها على أن تتبوّأ مكانتها التي خلقت لتتبوّأها .

* * *

من معالم هذا البعدِ الإصلاحي في قراءته أنّه يلفتُ إلى أنّ استِقامة الحياة في الناسِ لا تكونُ بكثرةِ القوانين بل بِإقامةِ النَّفسِ الإنسانيّة على مبدأ الخُلق النّبيل ، والأخذ به وأنّ هذا الضابِط الخلقيّ إذا قام في نفوسِ جمهرة الأمّةِ ، استقامت حركة الحياة ، ولم تكن بحاجةٍ إلى قيام مجالس تشريعية تصطنع القوانين وتصطنعُ ثغراتها لينفذ من خلالها صانعوها ، ولتطبق على من لا يحسنون رؤية هذه الثغراتِ واستغلالها ، فكثرةُ قوانينِ العقابِ في أيِّ أمَّة آيةٌ بينةً صريحةَ الدَّلالة على انتشارِ الفسادِ فيها ، وليْسَ لقومِها من الأخلاقٍ ما يردعُهم ، ممّا يسجل على القائمين على تربية أبنائها أنهم أضاعوا من تولوا

أمـرهم بـدْءًا بالوالـدين والمعلـم والإمـام في المسـجد والداعيـة والإعلامـي والسياسيّ . . . . إلخ كلُّ أولئك مسؤولون عن افتقارِ النّاس إلى ما يردعُهم عن الشَّرِّ من داخلهم .

يقُول في مفتتح الجزء الثاني وهو يشرح قول الـنبي صَـلّى اللهُ وسـلّم عَلَيْـه وَعلَى آلِهِ وصَحبِهِ : « لا ألفين أحدكم يجيء يومَ القيامةِ علـى رقبتِـهِ بعـيرٌ لَـهُ رغاء ... إلخ » : « إنَّ العربَ كانُوا فِي جاهليتهم يمتدحون بـبراءةِ سَـاحتِهمْ مِـن الخزايا كالغدر والخيانةِ والغلول،وكانوا في هذه الجاهلية الّتي ليس فيها قانونٌ، وليس فيها حكُومـةٌ ، ولا سُـلطانٌ ، كـان تضـبطُ حيـاتهم مجموعـةٌ مـن القـيم الملزمةِ منها التبرئُ من الخزايا . وكانوا يُخـاطبونَ صَـواحباتهم بِهـذه الـبراءةِ ، وكأنّـها مِن أسبابِ القُربِ والحبُّ والصّبوةِ . وكانـت المـرأةُ الجاهليـة تُحبُّ صَاحبَ القيمةِ الإنسانية . وكانوا يرفَعونَ لِواءً للغادرِ تشهيرًا بحساسته .... »[(١)] .

هو بهذا يبرز مفارقةً جد وسيعةٍ بين القيم الخلقيّة في المجتمع الجاهليّ منذ أكثرمن خمسة عشر قرنا ، والقيم الخلقية في المجتمع العصريّ ، وكأنّـه يهتف في ولاة الأمر على تنـوع مسـتوياتِ ولايـتهم عمومـا خصُوصًـا : أنـتم الـذين حملْتم أحفاد هؤلاء إلى ما تعانون منـه اليـوم . إِنهـم غـرس شمـائلكم ، فهـم يهتفون في آذانكم :

﴿ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهۡتَدُونَ ﴾ (الزخرف:٢٢)

﴿ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقۡتَدُونَ ﴾ (الزخرف:٢٣)

لَيْس صلاحُ حركةِ الأمَّة واستقامتُها بكثرة التَّشريعاتِ والقـوانين والمَحـاكم والسُّجون والمُعتقلات وسراديبِ التَّعذيب . صلاحها في القيام بحركـة تعليميّـة تربويّة أداتها لسانُ الحال قبلَ لسان المقال .

---

(١) شَرْحُ أحاديثَ منْ صَحِيحِ مسلم ١/٥٥٠، ٥٥١ .

مجمعُ الأمر أن حضور هذا البعدِ الإصلاحيّ في هذا السّفر متعدّدةٌ لاسبيل إلى إيجازِ القولِ فيها ، فضلاً عن بسطِهِ ممَّا يحملُ إلى أهميّة رؤيتِها في موطنِها من الكتاب[1]

* * *

(١) مِن تلك المواطن : ١/٥٦، ٥٩، ٦١، ٩١، ١٥٥، ١٥٨، ١٥٩، ١٦٦، ٢٣٣، ٢٦٨ .

ثانيا : البعد التّربوي

الرّبانية سَمْتُ كلّ عالمٍ وداعية ، فهي رسالة الأنبياءِ والرّسلِ وهي مهمةٌ يفتقرُ صاحبها إلى أن يكون نصيبه من الحكمة والحلم والصبر لايقلّ عن نصيبِه من دقائقِ العلم ، جزئياتِه وكلياته ، فقليلٌ من العلمِ مع كثيرٍ من الحكمةِ والحلمِ والصبر أجدى نفعًا في هذا البابِ ، والله تعالى يُقُول :

﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُواْ عِبَادًا لِّي مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُواْ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴾ (آل عمران:٧٩)[١].

للعلماء في هذه الأمّةِ رسالة منسولةٌ من رسالة الأنبياءِ المتمثلة في إبلاغِ العبادِ مرادَ الله تعالى الشرعيّ منهمْ ، يكشفون لهم بِلسانِ الحال ولسانِ المقال ما يُحبّه الله سُبْحانَه وَتَعالَى لهم ، وما يسخط ، فالعلماء يحملون العلمَ ويستثمرونه لهذه الغاية ، ومن ثَمَّ كانوا ورثة الأنبياءِ .

العالمُ ليس بالَّذي يحملُ العلم فحسبُ ، وليس بِالَّذي يستخرج ما ليس بموجود من العلم ما هو موجود ، فحسب ، بل العالم هو الذي يُرَى العلمُ القائمُ في لسانِ مقالِه ، وفي صفحاتِ أسفارِه قائمًا في لسان حالِه حاضرًا في

---

(١) قوله تعالى : ﴿ رَبَّٰنِيِّـۧنَ ﴾ أعرف له وجهين من المعنى :
الأول : الرَّبانيّ العالم بربّه سُبحانهُ وَتَعَالَى المطيع له .
الآخر : الّذي يربّي الناس ويصلحهم .
وهما وجهان لا يتعارضان ، بل الأول شرط في الثاني لأنّهُ لن يكون معلمًّا النَّاس ومصلحهم إلا إذا كان عالما بربه سُبحانهُ وَتَعَالَى مطيعا له ، فمن قال بالأول نظرإلى الشجرة ، ومن قال بالآخر نظر إلى الثَّمرة

سلوكه ، وفي علاقته بالله تعالى ، وبنفسِه وبالكون والحياةِ والإنسانِ ، فتكون ثمرة رياضِ علمِه تربية وتزكية .

البُعد التربويُّ بلسانِ الحال ولسانِ المقالِ في عِلم العالم هو الغاية التي يجبُ أن تكونَ كلُّ جهود العالم مساقة لتحقيقها .

ومن أنعمَ الله تعالى عليه بِصحبة الشيخ كتابًا ومجلسَ علم ، وبصحبته في حياته يدرك أنَّ الشَّيخَ مهمومٌ جدًّا بتحقيقِ هذا البُعدِ ، والوفاءِ بكثيرٍ من حقّه . وأنت تقرأ سفره : (شرح أحاديثَ مِن صَحيحِ مسلم) تجدُ معالمَ ذلك وملامحَه تَتَوافدُ في بصرك وبصيرتك . ممَّا يجعلُ التسليم بعظيم حضور هَذا البُعد في هذا السِّفر أمرًا لا يحتاج أحدٌ أن يُدلّ عليْه . وما أذكره هنا إنْ هو إلاَّ نزيرٌ من كثير لا يُطيقُ المقام الوفاءِ بحقه .

كان الشيخ حفيًّا بتربية طلاب العلم في مجاهدتهم في طلبِ العلم ذلك أنَّ طلب العلم له أصولٌ وضَوابط وآدابٌ بغَيرِ العلمِ بها واستحضارِها في أثناءِ الطَّلب ، والتَّمسك بها ، لا يكونُ لطلبِ العلم قيمةٌ البتة .

والإعراب عن صنيع القائمين للعلم بأنَّه (طلبُ علم) يهدِي في دقّةٍ وإحكام إلى طبيعة هذَا الفعل ، وتكاليفه واستحقاقاته ، فالطلبُ في لسان العرب يكثر إطلاقه على ملاحقة الجيش أوملاحقة الصائد فريسته ، وكلُّ هذا لا يتحقَّقُ إلا بخبرةٍ فِي الطّلب وبعزيمةٍ وبامتلاكِ الأدوات وبامتلاك مهارة استعمالِ هذه الأدوات ، ثُمَّ بالصّبرُ على ذلك . وبالإصرار على تحقيق هذه الغاية .

كلُّ ذلك أفهمُه من الإعراب عن هذا الفعل بأنَّه (طلب) وأنَّ فاعله (طالبٌ) ثم أنظرُ فِي المطلوبِ ، فإذ هو (العلم) .

لوشئتُ أن أترجم هذه الكلمة لضاقت عليّ لغتى ، ووقتي ، وجهدي .

ولو شئتُ أن أَقول هو (الحياة) فبغيره لا قيمة للحياة أوْ شئتُ أن أقول

ـ وهذا عندي أجلّ ـ العلم هو (الآدمية) التي هي مناط التكريم المختصّ به آدم عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ وذريته .

ولو شئتُ أن أقولَ طالبُ العلم إنّما هو طالبُ وراثة النّبي صَلّى اللهُ وسلّم عَلَيْه وَعلَى آلِهِ وصَحبِهِ لكنتُ المستدركَ الصّواب . ولكنتُ على الحقِّ المبين فأيُّ فعل هوأكرم من هذا؟!!! وأيّ مسؤوليّة هي أثقلُ من هذه المسؤوليّة ؟!!!

من هنا تجد مجالات تربية طلاب العلم خاصّة والمسلم والإنسان عامة في صنيع الشّيخ أسفارًا ومجالسَ علمٍ جدًّ كثيرةٍ ومثيرةٍ أيضًا .

الشَّيْخ جدّ حفيٍّ بأن يجعلَ طلابَ العلم يقيمون سنةً من جليل السّنن : أن تطعم من عملِ يدك ، ففي هذا من الانعتاق من العوزِ للآخرين ربقة التبعية المذلة ، ومن غلّ التقليد الأجرد من التبصر ، فيدعو طلاب العلم أن لا يكتفوا بما يقولُ هو في فهم البيان ، فهذا صنيعُه هو ، وعَليهم أن يمارسُوا هم صِناعة طعامِهم بأنفسِهم ، كيما لا يحرموا أنفسَهم مِن نعمة التَّلقّي والفهم ، فإنّهما عنوان الآدميّة ، ولهما لذَّةٌ لا يزهَدُ في تحصيلِها والإحاطة بها إلاَّ مَنْ كره أن يكونَ من ولائد أبي البشرِ سيدنا آدم علَيْه الصلاة والسّلامُ . ومن استغنَى بعقلِ غيرِه فقد كفرَ بنعمتِ الله تعالى عليه ، وكان صنيعُه هذا أقربَ إلى أن يتهم الله تعالى بأنّه وضع نعمتَه في من ليس لها بأهلٍ ، وتلك التي لا يحوم حولها عاقل .

إنّه على قدر ما في أن يفْهَمَ لك غيرُك من الذُلَّ أنت واجدٌ من الَّلذة والعِزة فِي أن تفهَم لنفسِك بجوار فهم غيرك .

إن استجداء الفهم أذلُّ بكثير من استجداء المَطعم ، والمشرب ونحو ذلك . وتسولُ الفهوم أدخَلُ في معرَّة الدَّهر ، فكيف بقومٍ يَتفاخرون باستجداء فُهوم غيرِهم . !!!

روى البخاري في كتاب (البيوع) بسنده عن الْمِقْدَامِ ـ رضى الله عنه ـ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ «مَا أَكَلَ أَحَدٌ طَعَامًا قَطُّ خَيْرًا مِنْ أَنْ يَأْكُلَ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ، وَإِنَّ نَبِيَّ اللَّهِ دَاوُدَ ـ عَلَيْهِ السَّلاَمُ ـ كَانَ يَأْكُلُ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ».

وأولى النّاس بالتخلق بهذا الهدِي النَّبويّ هم أهلُ العلمِ وطلبتِه، وأولى الطعام بأن يصنعُه المرءُ بنفسِه هُو طعام القُلوب والعُقول والنُّفوسِ والأرواح والألسنة. وليس أذل مِمّنْ يستطعمُ طعامَ عقله على موائد الأعاجمِ لسانًا وعقلاً وخلقًا فيَزدَرِدُ فتاتهم ورجيعهم.

يقُول الشيخ: «أحاولُ أن أتذوق المعانِي وحدِي، وأن أنصحَ مَن أخاطبهم بِقلمي ولِساني أن يتذوقُوا المعانِي وحدهم.

وألا يجلسُوا جلوسَ المساكين على قارعة الطريقِ حتّي يَتصدّقَ عليْهم متفيهِق، ويُحدثهم بأسرارِ البيان. وَعليْهم أن يتأكدوا أنّ فطرتهم التي فطرهمْ الله عليها يُدركُ أسرارَ البيانِ الأفضل.

وأنا لا أحدثك عن أسرارِ البيانِ؛ لأنه لا طاقة لِي بذلك، وإنّما أُحدّثك بِما وقع فِي نفسِي مِن الكلامِ الذي لا أقرؤه لك، وإنما أقرؤه معك»[1] استطعم قوله «... مِن الكلامِ الَّذي لا أقرؤه لك، وإنّما أقرؤُه معك» لا يقوله إلاّ ربانيٌّ: يربّي العقولَ والنفوسَ، لِتنهضَ مِن طورِ الطُّفولةِ إلى طور الفتوّة والفحولةِ.

ويقُول: «وراجع أنتَ؛ لأنّ مراجعتك لك أجدرُ بِك مِن مراجعتي لك، وأجدرُ ما فِي البيانِ ما يذوقُه الطبعُ، وليس ما يكتُبه الغيرُ»[2]

---

(١) شَرْحُ أحاديثَ منْ صَحِيحِ مسلم: ٢/٦٩١.
(٢) المرجع السابق: ١/٣٩٥.

« وقلتُ كثيراً : إنّه ليسَ أنجعَ ، ولا أقربَ فِي إدراك أسرار البيانِ مِن مراجعة النّفسِ ؛ لأنّ هذا الإدراك مِن الفطرَةِ ، والمرجِعُ الأوَّلُ فِي الَّذِي يتعلّقُ بالفطرة هوالنفسُ »[1]

وليس هذا دعوة إلى أن يقوم كلٌّ ولم يتخذ الأسبابَ المحقِّقة له حسنَ الفهم والتذوق ، فيقتحم البيان ويَقول فيه ما يخطر على قلبِه .

مثل الشيخ لا يقُولُها . هُو يَدعُو طُلَّابَ العِلمِ أن يُحيطُوا بِما قالت العلماءُ فِيما هُم قائِمون للنَّظرِ فِيهِ ، أَن يُبصِروا مناهِجَ تَفكيرِهم وتَعبيرِهم ، وأَن يُبصِروا مَداخِلِهم إلى الفَهمِ ، ومَا اتَّخذُوه مِن أدواتٍ لِتحقيقِ القيامِ لفريضةِ الفَهمِ . فإذا مَا فَعلُوا وجبَ عليهم أن يقومُوا ، لِكيما يُمارسُوا بأنفسِهم تفعيل نِعمة الفهمَ الرَّشيد .

ترى هذا حاضراً أيضًا في شَرْحُه أحاديثَ مِنْ صَحِيحِ البخاري . تسمعه يقول : « وراجعْ سبك الكلامِ وتأمّلْ ، وتفقد وضَعه على لسانك ، وذقْ الكلمات ومواقعها ؛ لأنَّ كلَّ شَيءٍ فِيه بِحسابٍ ، وكانت « عائشةُ » رَضِيَ اللهُ عَنها من أعلم الناسِ بما يخرجُ من رأسِها ، ومن أعلم النَّاسِ بمواضعِ الكلام »[2]

وأنت ترى غير قليلٍ من الكاتبِين ، يقولون : انظر ، وتأمل ، وراجع ، ثُمَّ يمضي غير متخلّقٍ بما أمر القارئ به ، ولكن شيْخنا ، لم نعهد فيه ذلك البتة ، عهدناه أعزه الله تعالى لا يقول لك ذق وتأملْ إلا مِن بعد أن يفرغَ مِن النّظر والتأمل والاستطعام والذوق والإبانة عن ذلك ، ثم بعدها يقول لك تأمل ، وذق .

وكأنّي به يقول لي : إيَّاك إيّاك أن تستغني يما سمعت مني ، بلْ إيَّاك أن تستكفِي بما قلتُه ، إن من وراء ذلك ما أنت أجدرُ بأن تأخذه بيمنك من مكنونه ،

---

(١) شَرْحُ أحاديثَ منْ صَحِيحِ مسلم : ١/٤٠٠ .

(٢) المرجع السابق : ١/٨١، ٨٢

فما أنا إلا منار على جنبات الطريق ولست بالحمالك إلى الغاية . . كذلك أدَّينا الشَّيخ

* * *

وأنت ترَى هذا واقعًا عيانًا في صَنيعِ الشّيخِ فيما بيْن يدَيْك : ما قام لِقراءتِه مِن أحاديثِ صحيحِ مُسلم وفهمِه ونشرِ ما فهمَه قد سبق لكثيرٍ من أهل العلم النّظر والتَّفكير والتَّعبيرِ ، وهُو قد قرأَ وأحاطَ وتبصَّر ، كما تراه قائمًا في فهمه وبيانه ، ثم عمَد إلى أن ينظرَ مِن غير الجهةِ الَّتي نظرَ مِنها الآخرون ، أن يثوّر من البيان ما لم يثوره الآخرون ، فكان صنيعه إضافة لما كان من العلماءِ قبلُ ، صنع ممَّا هُو موجودٌ ما ليس بِموجودٍ ، لأنَّ الشَّيْخ لا يبغض في طلب العلم كمثل اجترار ما كان قبلُ ، وما عهدتُ الشَّيْخ قد اعتمد على كتاب غيرِه يدرّسه لطلابه طيلة قرابة نصف قرن صحبت فيها عقله وقلمه ولسانه . ولم يكن ينقلُ لنا ما هُو قائم في أوراقِ السَّابقين عليه ، كان يُعمل عقله ولسانه ، فيقول ما يُنعمُ الله تعالى به على طلابه ، فيجريه في قلبه وعلى لسانه .

وهذا كان له عظيمُ الأثر في ثلّة من تلاميذِه ، يجاهدون في أن يسلكوا كمثل مسلكه ، تحدثًا بنعمت الله تعالى عليْهم ، وبرًّا به أن يرَى لصنيعه فيهم أثرًا حسنًا قائمًا بيْن عينيه . فكأنَّها عاجل بُشراه .

* * *

ومن هذا الباب ما تراه وهو على مائدة ما رواه مسلم في كتاب «الإمارة» من صحيحه بسنده عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ رَضِيَ اللهُ عنها أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ «سَتَكُونُ أُمَرَاءُ فَتَعْرِفُونَ وَتُنْكِرُونَ فَمَنْ عَرَفَ بَرِئَ وَمَنْ أَنْكَرَ سَلِمَ وَلَكِنْ مَنْ رَضِىَ وَتَابَعَ» . قَالُوا أَفَلاَ نُقَاتِلُهُمْ قَالَ «لاَ مَا صَلَّوْا».

يستطعم قوله ﷺ : « فتعرفون وتنكرون » فإذا هي « كلمةً من أجلّ الكلمات وأصفاها وأحلاها ، وأنقاها وأوجزها »[1] .

وهنا يستشعرُ أن ما أعربَ به عن هاتين الكلمتين ربّما يحسب القارئ أن فيه من التّجوز ، فيؤكِّد أنَّه إنّما ينطقُ بما أدرك .

وهذا مسلك من مسالك الاستنفار إلى إعمال القلبِ في الكلمتين ليستطعم ما فيهما مما أنبأ الشَّيخ عنه فيهما .

وهذا مسلكٌ تربويّ إغرائيّ يلجأ إليه الأشياخ حين يعزّ عليهم أن لا يكون لطالبي العلم منه نصيبٌ .

وكأنَّي بهم حين يغدون في ذلك السبيل يستحضرون في قلوبهم ما رواه الشيخان في كتاب « الإيمان » من صَحيحيهما بسندهما عَنْ أَنَسٍ عَنِ النَّبِىِّ ﷺ قَالَ : « لا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ »

العلم الذي نقوم له وفيه « علم البلاغة العربي » علمٌ لا يقوم فيه إلا من مأمّه توطين الإيمان وتفعيله في حركة الحياة . فهو علمُ سلوكيّ أي الغاية من إنفاق العُمر والجهد فيه هو حسن السلوك إلى الله سُبْحانَه وَبِحمدِه ومن طلبه لغير ذلك فقد غبن نفسَه ، وليس أحمق ممن يغبنها . فمن طلب هذا العلم ليستمتع بطلبه بما فيه من لطائف جمال الكلمة وسحرها وكفى ، فهو في خُسرٍ ، فكيف إذا ما طلبه لِيُجَارِىَ بِهِ الْعُلَمَاءَ أَوْ لِيُمَارِىَ بِهِ السُّفَهَاءَ أَوْ يَصْرِفَ بِهِ وُجُوهَ النَّاسِ إِلَيْهِ أَدْخَلَهُ اللَّهُ النَّارَ

* * *

وممّا هو حريصٌ عليْه في تربية طلاب العلم تثويرُه العزم إلى دراسةِ بيانِ الوحْي دراسةً علمية ، وتسجيلِ ذلك ورقنه بالقلمِ ، والرَّغبةِ عنْ الاستغناءِ

---

(١) شَرْحُ أحاديثَ منْ صَحِيحِ مسلم : ١/٩٤ .

بتذوّق ذلك قراءةً أوسماعًا ، فإنَّ لتحليلِ البيانَ بالقلمِ مَا ليْس لغيرِه ، فالرَّوِيَّـةُ الَّتي هِي خَدين التَّحليل بالقلم ، والمُراجعة والمُفاتشةِ أقدرُ على النَّفاذِ والضَّبطِ والإحكامِ .

يقُـولُ الشيخ : « الّـذِي جرّبْتُهُ هُو أنَّ تحليلَ البيانِ بالقلمِ يُظهرُ مـن خفَايَـاه مَا لا تُظهِرهُ القِراءَةُ ، ولا يُظْهِرُه السّماعُ حتَّى إنّنِي كُنْتُ أرَى أنَّ تَحليـلَ البيـانِ بالقلمِ فِي الحديثِ والقُرآنِ والشّعرِ يَكشِفُ منْهُ مَا كانتْ تَكْتشِـفهُ الأذنُ الواعيَـةُ الّتِي نَزلَ القُرآنُ عليْها ، وأنّـهمْ لَمْ يَكونُـوا فِـي حاجـةٍ إلَـى تفسِيرٍ ، بَـلْ ، ولم يَكونُوا فِي حاجةٍ إلَى مَنْ يَسْتخرجُ لَهمْ الأحكَامَ مِـن الآيـاتِ الّـتي سَـمعُوها ؛ لأنّـهُمْ كَانوا يَعقِلون كلّ مَا فِيها مِن أحكامٍ ، وكَانُوا إذَا حَفِظُوا آيَةً لَـمْ يَحفَظُـوا غَيْرَها إلاَّ بعدَ العملِ بِها ، وكانَ العملُ بِها لا يَحتاجُ إلَى بيانٍ »[1]

كأنّـِي بالشّيخ يحملُنا طلاَّبَ العلمِ إلى البصر بأمريْن رئيسيْن :

الأول : هو العملُ بما جاء به بيانُ الـوحي . فلـيس كمثلـه مُثـوّرًا لِمكنونـه ، ومستجمعه ومسْتنميه . فمن عَمِلَ بما علم تأطَّد ، وتمدّد ، وكان له بعمله بابًـا لمزيدٍ من البصر بما هو غائرٍ فيه من دقائقِ العلم ولطائفِه .

وهذا يبين الفرق بيْن حال ما نعلمُ الآن في قلوبنا ، وحال ما كـانوا يعلمـون في قلوبهم .

ما نعلمه كأنَّـه بذرةٌ في أرضٍ سَبخة ، ومـا يعلمونَـه هـو البـذر في الأرضِ النّقية الفتية خصُوبةً :

﴿ وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْآيَـٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴾ (الأعراف:٥٨)

---

(١) شَرْحُ أحاديثَ منْ صَحِيحِ مسلم ١/ ٨ .

القرنُ بيْن العلم والعمل هو الفريضة الغائبة في منهاج التَّعليم في عصرنا ومصرنا ، حرصنا على تكثير المعلومات والمعارف واستجمعنا في قلوبنا فيضًا بالغًا من دقائق ما جاء عن الأعيان،ولكنَّا لا نكاد نقيم عُظمه في سلوكنا. هنالك مفاصلة بيْن العلم والعمل . مع أَنَّ كلَّ علمٍ يقتضِي العمل بِه . والعملُ غيثُ العلمِ[1] فقول الشّيخ : « وكَانُوا إِذَا حَفِظُوا آيَةً لَمْ يَحفَظُوا غَيْرَهَا إلاَّ بعدَ العملِ بِها ، وكانَ العملُ بِها لا يَحتاجُ إِلَى بيانٍ» بيانٌ بالغٌ لطريق تنمية العلمِ وتقريره وتثويرِه ، لو أنّا تعلمْنا أَن نعدلَ في خدمة العلم بيْن تلقيه وتفعليه ، :

---

(١) لعلماء الحديثِ رواية موقف من عمل الراوي بما روى ، أو عدم عمله به أو عمله بما هو نقيضه . وجعلوا من ذلك عاملا من عوامل تقوية السّندِ وتضعيفه .

(ينظر : تدريب الراوي في شَرْحِ تَقريب النواوي . تأليف جلال السيوطي : تحقيق : عبد الوهاب عبد اللطيف . ط(٢) ١٣٩٢هـ نشر : المكتبة العلمية بالمدينة المنورة . ٣١٥/١)

وممَّا يؤثر في شأن الإمامِ الشّافعيّ ما أنبأ بِه البخاري : « سَمِعْتُ الْحُمَيْدِيَّ يَقُولُ كُنَّا عِنْدَ الشَافِعِيِّ فَأَتَاه رَجُلٌ فَسَأَلَهُ عَنْ مَسْأَلَةٍ فَقَالَ قَضَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ كَذَا وكَذَا فَقَالَ رَجُلٌ لِلشَّافِعِيِّ مَا تَقُولُ قَالَ : سُبْحَانَكَ تَرَانِي فِي كَنِيسَةٍ تَرَانِي فِي بِيعَةٍ تَرَى عَلَى وَسَطِي زُنَّارًا أَقُولُ لَكَ قَضَى رَسُولُ اللَّهِ : ﷺ وَأَنْتَ تَقُولُ لِي مَا تَقُولُ»

(ذم الكلام وأهله ، تأليف : أبي إسماعيل عبد الله بن محمد بن علي الأنصاري الهروي (ت:٤٨١هـ) تحقيق : عبد الرحمن عبد العزيز الشبل . نشر : مكتبة العلوم والحكم ـ المدينة النبويّة . ط(١) عام : ١٤١٨هـ . ١٣/٣، ١٤)

والله تعالى نعَى علي من علم ولم يعمل ، ومن قال ولم يفعل ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ﴾ (الصف:٢،٣) ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ ثُمَّ لَمۡ يَحۡمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلۡحِمَارِ يَحۡمِلُ أَسۡفَارَۢاۚ بِئۡسَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ (الجمعة:٥)

المفاصلة بين العلم والعمل هو الدّاء القاتل والعقبة الكؤود أمام تأثير الدَّعوة في النَّاسِ

نَمنحُ تفعيله فينا بالعمل به عديلَ ما ننفقه في تحصيله من الوقت والجُهد والاعتناء لكان لنا في هذا شأن آخر غير الذي نحنُ فيه .

والعملُ بما عُلم لا يمنحُه هذا فحسبُ بل يمزجُه بالحكمةِ وسياسةِ العلم وهما لا حياةَ لفاعليةِ العلمِ في الأمّةِ بغيرهما ، فأنت لا تجدُ البتة ذا فيوضٍ من العلم والمعارف ذا حكمة وسياسة وهو غير مقيم ما عمل في حالِه ومسلكه . إنَّ العملَ بالعلم لسانُ إبانة جدّ نافذٍ وجدّ مُحيطٍ .

الآخر : التَّحليل بالقلم . ذلك أداة حفر في البيان وسبيلُ مراجعةٍ وتفتيشٍ وضبط ، وتحرير . وكأن شبا القلم يتغورُ في بنية البيان ، فيستخرجُ ما هو مكنوزٌ فيه . ومخرجُ هذا التؤدةُ والرَّويّةُ ، والمراجعة ، والمناظرةُ . كلُّ ذلك مُعين على أنْ ينثرَ شبا القلم ما يَعجزُ غيرُه عن أن ينثرَه[1] .

---

(١) عظم العلماء تجد مرقونُهم أعلى من ملفوظهم ، فالبيان بالقلم أوفرُ عطاءً وأحكم تحريرًا من البيان باللسان وقليلٌ أولئك الذين يكون بيان أقلامهم عديله بيان ألسنتهم . وكان الإمامُ الشافعيّ إذا حاور وحاضر تلاميذه كان يحلق بيانُه في سماوات الإبداع ، فإذا كتب كان يميلُ إلى الإيضاح والتنزل على أحوال القراء .

« كان الرّبيعُ يقُول : « لَو رأيتمْ الشّافعيّ وحسن بيانِه ، وفصَاحةَ ألفاظِه لتعجبتم ، إلاّ أنّه كان يجتهدُ فِي مصنفاتِه فِي الإيضاح ، وتقريبِ المعاني إلى الأفهام ، فكان يترك الفصَاحة »

(مناقب الإمام الشافعيّ ، تأليف الفخر الرازي (٦-٦هـ) تحقيق : أحمد حجازي السقا . ط(١) ١٤٠٦هـ نشر : مكتبة الكليات الأزهرية . القاهرة ص : ٣٦٣) .

الشافعي كان يراعي مقتضى حال تلاميذه وهم في الطبقة العليا من التلقّي والفهم ويراعِي حال منْ سيقرؤون كتبه ، هو يعلم أنّه سَيأتي زمان ستقعُ كتبه في أيدينا فكان مراعيا لحالنا في الجهلِ والضعف ، فـ« ال » في قوله : « الفصاحة » هِي لام العهد الذكري أى النصاحة العليَّة المدهشة في التى محاوراته اللسانية لتلاميذه . ومن يقرأ بيان الشّافعيّ في كِتابه « الرّسالة » وكتابه« الأم » يدرك علو بيانه ودقته ، وهو الذي قال عنه الربيع « كان يترك الفصَاحة » فكيف كانت فصَاحته وهو يحاور تلاميذه ويُحاضرهم ؟!!! .

وكأنّي بالشّيخِ يغرينا بأن لا نَخرجَ على النَّاسِ إلا بما كان نِتاج مُدارسةٍ وتقييدٍ بالقلم قبل نفثِه في أسماعِ النَّاسِ ، فلا يكلّم المرءُ النَّاسَ في العلم إلا مِن بعدِ بحثٍ وتفتيشٍ ومُدارسة ومُراجعة ثمَّ يرقِنُ بقلمِه ما انتهت إليه مراجعتُه ومفاتشتُه . فلسْنا في عصرٍ يكونُ منتَجُ البديهةِ وعفوِ الخاطر ممّا يُطْعَمُ ، فقد فاتَ عصْر ذلك فوتًا وسيعًا .

* * *

وممَّا هو قائمٌ في مجال التَّربية لطلاب العلم ، ولا سيّما طلابُ علم البلاغة العربيّ القائم لحسنِ الفهمِ عن اللهِ سُبْحانَه وَبِحمدِه ، ولحسن الفهمِ عن رسُولِه صلّى الله عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ وسَلّمَ تبيينه مناط العناية العظمَى في دراسة بيان النّبوة ، وأن لا يتخذ الاشتغالَ بتحليل الفنونِ البلاغيّةِ في ذلك البيان غاية تحطّ الرِّحال عندَها . فبيان النّبوّة ليست الغاية منه كمثل الغاية من كثير من بيانات البشر عند أهل العلمِ بهذه البيانات ، وهذا يجعلُ المسؤولية الرَّئيسة لطالبِ العلمِ ببيان النبوةِ أنْ يبْحث عن منهاجِ النبيّ صلّى الله عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ وسَلَّمَ في تسْكينِ المعاني في القلوب لا في العقول .

ممّا اتخذَه الشَّيخُ همًّا يُقيم أمرَه على إحسانِ حملِه ، وعَلَى الوفاءِ بِبعضِ حَقه على قَدرِ الطَّاقة ، وعلَى قَدْرِ العَوْنِ الإلهيِّ ، أن يتَجاوزَ بالعِلْم بكِتابِ اللهِ سُبْحانَه وَبِحمدِه وبسُنة رسُولِه صلّى الله عَلَيْهِ وعَلَى آلِه وَصَحبِهِ وسَلّمَ مِن تسكينِه العُقول ، فإذا هُو مَخْزُونُها ومكْنُونُها ، يبذلُه على الألْسنةِ في الأسماعِ ، لا سبيلَ إلَى بذلِه إلاَّ ذلِك ، بلْ الهمُّ الأعظَمُ لِلعالِم وللمُبينِ أنْ يَجعلَ مَسكنَ مَعانِي الهُدَى القلوبَ ، وأن يَكونَ سبيلُ إخراجِها وسلْكها في قلوبِ الآخرين هو لسان الحال ، ولسانُ المقالِ معًا ، فلا يُستغنَى بلسانِ المقالِ عَن لِسانِ الحال ، فإنَّ لسان المقالِ إذا أُفردَ بالمسؤولية عجزَ عَنْ حملِها بلْ ربّما أفسدَها ، بيْنا

لسانُ الحال إذا لَم يكنْ سبيلٌ إلى أنْ يُؤاخِيه لسانُ المقالِ ، قالَ لسـانُ الحـالِ : أنا لها . .

يقُول الشّيخ : « إنّ تسْكينَ المعانِي ، والقيمِ المتضمّنةِ فِـي بلاغـةِ النُّبـوّةِ فِـي الطّبعِ الإنسانيّ ، وليْسَ فِي الذَّاكرةِ الإنسانِيّةِ أمرٌ مهمٌ جداًّ[1]

وهذه المعانِي مِنْ شَأنِها لا محالةَ أنْ تنتقلَ بِالإنسان مِن طورِ إلَى طَوْرٍ ، بلْ ، وأنْ تقْذِفَ بِهِ إلى مرْحلَةٍ أرْقَى ، وأعلَى ، وأكْرَمَ ، وأنْـبَلَ .

إنَّ تسْكينَ هّذِهِ المَعانِي فِي سُويْداءِ القُلُوبِ كانَ مِنْ أَهدَافِ بَلاغةِ النّبوّةِ وإننَا ندرسُ بلاغَةَ النُّبُوّةِ مِنْ جِهَةِ مَا بُنِيتْ عَلَيْه منْ فنون بَلاغِيةٍ ، وهَذا جَيّدٌ جداًّ ـ ولكنّنَا أغْفَلْنَا الْغَايةَ مِنْ هّذِهِ الفُنُونَ ، والْغَايَةَ مِنْ أنّـه كانَ أفْصَحَ العَرَبِ ، وكانَ لِسَانُهُ أَقدَرَ أَلْسِنةِ النّاسِ فِي قّذفِ الْحقِيقةِ الدّينيةِ فِي سُويداء الرّوحِ الإنسانيّةِ ؛ لأنَّ المسْألةُ ليْسَتْ خِطابًا مألوفًا ، وإنّما هُو خِطابُ تغيير .

والفَرقُ كبيرٌ جدًّا بيْن خِطاب أو تعَليم يبْقَى بِه الحالُ عَلَـى مَـا هـو عليْـهِ ، وخِطَـابٌ أوْ تعلـيمٌ يَكـونُ رِيحًـا تَقْتَلِـعُ الفَسَـاد والإفسـادِ ، وتغـرسُ الصّـلاحَ الإصْلاحَ ...

واعْلَمْ أنّ البلاغَةَ لَمْ تكنْ خاصّةً بِرسُول اللهِ صلّى الله عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ وسَلّمَ ، ومَا بعثَ اللهُ نبيًّا إلا وهُو أبلغُ قَومِهِ ، وأفصَحُ قومِهِ ؛ لأنَّ مِنْ أهمّ

---

(١) أفهم من كلمة « مهمٌّ جدًّا » أن هذا الشَّيءَ يقيم في القلبِ همًّا لا يدعُ صَاحبه تقرُّ عينه بنوم من قبلِ أن يوفيه حقه ، فهو الأمر المستفزّ الباعث على خالِصِ القصد ، وصَادق العزم ، وفتِيِّ الفعل ، ومتقن الصنعة . ذلك هو « المهم » ومنه « الهمة » و« همام » وهو من أسماء « الأسد » وقوله « جدًّا » من الجد الذي هو الإعظام ، يقُول سيّدنا أنسُ ابن مالك رَضِيَ اللهُ عَنه : « كَانَ الرَّجُلُ مِنَّا إذا حَفِظَ الْبَقَرَةَ وَآلَ عِمْرَانَ جَدَّ فِينَا » أي عظم قدره ومنزلُه فِي أَعيننا وجلَّ قَدْرُهُ فِينَا فقوله « وهذا مهم جدًّا » أي مقيم الهم والاعتناء بِه في القلبِ قيامًا عظيمًا يقطع عمّا عداه .

صِفاتِ الرّسُلِ التّبليغِ ، والفِطنةُ ، وهَذَانِ هُما جمَاعُ البلاغةِ فِي كلِّ أُمّةٍ ، وفِي كلّ لُغةٍ »[١]

يهدِي الشَّيخُ إلى أنّ الانشغالَ بتفحّصَ الفُنونِ البلاغية فِي بيانِ النبوةِ عمَّا يحملُه هذا البيانُ ، والانشغالَ عن منهجِه في تسكينِ معانيه في القلوبِ وتفعيلها لتحدث تغييراً من حالٍ إلى حال أسمَى وأجدَى حتى تبلغَ بصاحبِ تلك القلوبِ الحيّة المعافاةِ من داءِ الشُّبهةِ والعَصبية الحمقاء والهوَى الأكمَه إلى ما يرضاه الله تعالى منها . فيرضَى عنها ، الانشغالُ بذلك وحده هُو مِن التَّقصِير في النَّصيحة لرسولِ الله صلّى الله عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ وسَلّمَ الَّتي هِي الدِّينُ كَما جاءَ بِهِ بيانُ النّبوّةِ .

وهذا يحمِلنا إلى أنْ نَعبُر مِن الوفاء بحقِّ تلك الفنون البلاغيّةِ مِن النَّظر والتَّحْليلِ والتَّذوّق إلى ما تحملُه وإلى مِنْهاجِها في الوفاءِ بحقِّ ماتحمِلُه من معاني الهدي مِن حسن الاستطعامِ الذي تَزكُو بِه القلوبُ ، وتذكُو ، فتفْتَئِدُ . فمناط السُّموّ البيانيّ لكلّ نبيّ في قومِه ليس في أنَّه يأتي بصُورٍ وكلمٍ وتَراكيب ليس من مِعهود قومِه لطرافتها ولطافتها بل مناطُ السُّموُّ الأعظمً هُو ما تحملُه هذه الصُّورُ والتَّراكيبُ ومَساقاتُها مِن عَلِيِّ المَعانِي وجليلِها ومقتدرِها علَى التَّغيير إلى الأصْلحِ والأفلحِ . فَمَنْ لَمْ يَبْحثْ في بَيانِ النُّبُوَّةِ السّخاءِ فِي مناطِ هذَا السُّموّ البيانيّ ، كان قدْ ضلّ السَّبيلَ ، وكان عملُهُ فِي غيرِ مَعملٍ ، وكأنّي بالشَّيخِ يَحملُنا إلَى أن نجتهدَ أوَّلاً في تَحْقيقِ مَناط عملِ العقلِ البلاغيِّ ، ثُمَّ مِنْ بعدِ هذا التحّقيقِ والاطمئنانِ إليْه نَعمد إلى الاجتهادِ في فقه ما يَحمل هذا الَّذي هُو مَناطُ العملِ .

ولكلِّ بيانٍ مناطُ عملٍ ، فمناطُ عملِ العقلِ البلاغِيِّ في الشِّعر غَيْرُه مناطُ عملِه في بيانِ الوَحْي ، لأنَّ المحمولَ فِي الصُّورة ومَساقاتها فِي كلّ غيْر

---

(١) شَرْحُ أحاديثَ منْ صَحِيحِ مسلم : ١/٢٣٤، ٢٣٥ .

محمولِه في غيرِه . قدْ تتقاربُ الصُّورُ فِي مُكوّناتِها ، وفِي بعض تكويناتِها ، بيْن بيان الوحي وبيان السّحر ، ولكنَّ الَّـذي لا يتقاربـان فيـه هُـو محمـول الصُّـورةِ وفاعليتُه ، ومنهاجُ هذه الفاعليّة والتَّأثير والتَّغيير الّذي هـو منـاط عمـل العقـل البلاغيّ أولاً . في مقالةِ الشيخ تأسيسٌ لأصلٍ منهجيٍّ في صِناعة العقلِ البلاغيّ ، إذا لم يكن قائمًا فيه قيام وجود وإيجادٍ كان ذلك العقلُ عاملاً في غيرِ مَعملٍ وكان مُنْتَجُهُ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاء حَتَّى إِذَا جَاءهُ لَـمْ يَجِـدْهُ شَـيْئاً . وتلك التي يفرُّ منها أولو الألباب .

*   *   *

ومما يحسن بِي أن ألفت إليه هنا أنّـه كان من عطـاء أبـي الحسـن الرمـانيّ (ت:٣٨٦هـ) تعريفه البلاغَة في رسالته « النكت » بقوله : « إيصالُ المعنَـى إلى القلبِ فِي أحسنِ صُورة مـن اللفـظ » فكـان تعريفـه هـذا لافتًـا إلى أن البلاغـة وظيفتها تسكينُ المعاني في القلـوب ِوتوطينهـا فيهـا ، وكيمـا تفعـل في تلـك القلوب ما يرادُ لها أن تفعلَ فيها وبها جعل السبيل إلى ذلك الإيصال والتوطين الصورة الُحسنى ، فهذه الأحسنية لصورة المعنى تنفثُ في القلبِ ما يحملـه إلى أن يخضع ويقنت لما استقر فيـه مـن المعـاني ، فالصـورة الحُسـنى ، لا تفـتحُ أبواب القلوب للمعاني ، فحسـبُ بـل تُفعِّـل هـذه المعـاني في تلـك القلـوب . وعلى قدر جلال المعنى تكونُ أحسنيّة الصُورة .

وإذا حسنت الصورة ولم يحسن المعنى كانت خضراء الدمن ، ولذا كان من دعاء رسول الله صلّى الله عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ وسَلّمَ : « اللـهُمَّ كَمَـا حَسَّـنْتَ خَلْقِي فَأَحْسِنْ خُلُقِي »(١)

*   *   *

---

(١) رواه البيهقي في شعب الإيمان . رقم (٨١٨٤) ، والطبراني في« الدعاء» رقم (٤٠٤ ، ١٤٠٧) وصَححه الألباني في « إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل» رقم : (٧٤) وفي صحيح الجامع الصغير وزياداته . رقم (١٣٠٧)

ومن هذا ما تراه في قوله : «ولم أجد في الدّينِ شيئًا يرضَاه ربنا إلا وهو خيرٌ لِي ولك ، ولَمْ أجدْ فِي الدّين شَيئًا يكرهُهُ ربّنا إلاَّ وهُو شَرٌّ لِي ولك»[1]

قال : (ولم أجد في الدّين) ولم يقل (وليس في الدين شيْءٌ يكرهه ربنا إلا وهو شرٌّ لي ولك) ولو أنّه قالَ ذلك ما نقضَه شَيْءُ ؛ لأنَّه حقيقةٌ مَخْرجُها العقلُ الصّريحُ قبلَ البَحثِ العلميِّ الاستقرائيّ في النَّقلِ الصّحيحِ ، ذلك أنّه لنْ يكونَ دينًا حقًّا إلاّ إذا كان كلُّ ما فيه مِن مأمورٍ بِه هُو ممَّا يرضاه الله سُبْحانَه وَبِحمدِه ، ولا ينهَى عَن شيْءٍ إلا وهُو ممَّا يسْخطه الله جَلَّ جَلالُهُ . ذلك منطقُ العقل ، ولكنَّ الشَّيخَ نسبَ الأمرَ إلى نفسِه ، فقال (لا أجدُ) تعليما لنا أن لا نجعلَ من أنفسنا حكمًا لا يردُّ ، بل علَيْنا أن نَصِفَ أفعالنا وألاَّ نقيم حجازًا بينْ الآخرين وأفعالهم .

هو من بابِ الاعتراف للآخر بحقّهِ ـ وإنْ كان معاندًا ـ في أن يفتِّشَ ، وأن يدقق ، فإنْ فعلَ ، فإنّه لا مَحالة مُنتهٍ إلى ما انْتهَى إليْه تفتيشُ الشّيخِ ، وحينئذٍ يُدرك المُعاندُ أنّ ما سَمعَ مِن الشّيْخِ حقيقةٌ علميّة ، فأقلُّ ما تُحدثه هذه الحَقيقةُ عندما يواجه بها مِن قِبله صِراعٌ نفسيّ ، وهذا مُهمٌّ جدًّا أنْ تُحدِثَ فِي الآخر المُعانِدِ صِراعًا بيْن الحَقِّ الّذي وَقَف عليْه بنفسِهِ والهَوي المُتَغَلْغِلِ في نفسِهِ .

ومثل هذا يجعل طالبَ العلم وقّافًا عندَ طاقتِه لا ينسبُ إليْها ما لا طاقة لها بِه ، يتنفج ويتبجبج : يفخر بما ليس له ، فيكونُ كلابس ثوبَيْ زُورٍ ، وهذا ليْس مِن حِليةِ طالبِ العِلم ، ولا مِنْ حِلية عاقلٍ .

* * *

ومن باب تربيته طلاب العلم ما تراه في تدبره ما رواه مسلم في كتاب (البِرّ والصّلة والأدب) مِنْ صَحِيحِهِ بسَنَدِه عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ :

---

(١) شَرْحُ أحاديثَ منْ صَحِيحِ مسلم : ١٢٧/١ .

« إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ الْخَلْقَ حَتَّى إِذَا فَرَغَ مِنْهُمْ قَامَتِ الرَّحِمُ ، فَقَالَتْ : هَذَا مَقَامُ الْعَائِذِ مِنَ الْقَطِيعَةِ .

قَالَ : نَعَمْ ، أَمَا تَرْضَيْنَ أَنْ أَصِلَ مَنْ وَصَلَكِ وَأَقْطَعَ مَنْ قَطَعَكِ ؟

قَالَتْ : بَلَى . قَالَ : فَذَاكَ لَكِ ».

ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « اقْرَءُوا إِنْ شِئْتُمْ ﴿ **فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ ﴿٢٣﴾ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا** ﴾ » .

(محمد:٢٢-٢٤)

ويعرض مذاهب العلم في تأويل الرَّحم ، وأنَّ البيانَ على سبيل التمثيل والتَّصوير وما يذهب هو إليْه من أنَّ البيانَ على الحقيقة ، ثُم يقول :

« ما دُمنا قَبِلْنَا أنَّ الله خلقَ السّمواتِ والأرض ، وقالَ لَهما ائتيا طوعًا أوْ كرهًا ، فقالتا أتينا طائعين ، فلا بدّ أن نقبلَ أنّه قالَ ذلك على وجهِ الحقيقةِ ، وقالتْ له على وجه الحقيقةِ . . . .

وحَملُ خطابِ الخالقِ علَى خِطابِ الخلق أقُولُ هذا ليسَ بواجبٍ ؛ لأنّ أمرَ الله فِي خلقِه يتجاوز حُدودَ المألوف ؛ لأنّ الخالقَ نفسه مُتجاوز حدود المألوف . . .

وهذا ممَّا لم أقرأه في كلامِ مَنْ يُؤخذ عنهم العلمُ ، فخذْ ما تراه ودع ما لا تراه ، ولا حرج عليْك ، وأرجو أن أكونَ أيضًا مِن الذين لا حرج عليهم »[1]

أفتقرُ إلى أن أقف وقفاتٍ في فقه مقالِ الشّيخِ :

قوله : « ما دُمنا قَبِلْنَا أنَّ الله خلقَ السّمواتِ والأرض ، وقالَ لَهما ائتيا طوعًا أوْ كرهًا ، فقالتا أتينا طائعين ، فلا بدّ أن نقبلَ أنّه قالَ ذلك على وجهِ الحقيقةِ ،

---

(١) شَرْحُ أحاديثَ منْ صَحِيحِ مسلم : ٦٦٥/١ .

وقالتْ له على وجه الحقيقـةِ » علمنـا كيـف نـبني مـذهبنا ـ ولاسـيّما إن كـان مخالفًا لجَمهرةٍ ـ على مسلمة لا سبيلَ لأحدِ أن ينقضَها ، ابتدأ قائلا : « ما دُمنا قَبِلْنَا أنَّ الله خلقَ السّمواتِ والأرض ، وقالَ لَهما ائتيـا طوعًـا أوْ كرهًـا ، فقالتـا أتينا طائعين » هذه مسلمة ، فرتب عليها مذهَبَه : « فلا بدّ أن نقبلَ أنّـه قالَ ذلك على وجهِ الحقيقةِ ، وقالتْ له على وجه الحقيقة » فإذا مـا سـلَّمتَ بالمُقدّمـة ، فلاسبيل لك إلا إلَى أن تسلّم بالمذهب (النَّتيجة) ، فأنت محمولٌ بمنطقِ العقلِ المُعافَى من داء الشُّبهة والعصبيّة حملا فتيًّا على أن تسلم بِمذهبِه . ذلك منهاجٌ حِجاجي في الإبانة إفهامًا وإلزامًا .

ومنهجُ الشَّيخ في الإبانة والإفهام في هذا السّـفر نحتـاج إلى دراسـته ، ولكـنّ جُهدي الآنَ لا يُطيقُ الوفاء بِحقِه لوفرتِه وعمقِه ودقتِه ، ولعلّي أعين مـن يُريـدُ ويُطيق إن شاء الله تعالَى

وقوله : « وحَملُ خطابِ الخالقِ علَى خِطابِ الخلقِ أقُولُ هذا ليسَ بواجبٍ ؛ لأنّ أمرَ الله فِي خلقِه يتجاوز حُدودَ المألوف ؛ لأنّ الخالقَ نفسه مُتجاوز حدود المألوف . . . » فيه ما قد تحسب أن الأعلى أن يقول (هـو الواجـب) ولكنّـه لم يشأ أن يُصادر عليْك ، ويرغمك على أنْ ترفع يديك مسْتسلمًا ، هـو لا يريـد من طلابِ العلم أن يخضعوا عقولهم لغيرهم تقليدًا أجردَ .

ومخرج هذا ما أثر عَنْ سيّدنا عبْدِ اللهِ بن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنـه أنـه قـال :
« اغْدُوا الأَمْرَ مِنْ تَدَبُّرٍ ، وَلا يَكُونَنَّ أَحَدُكُمْ إِمَّعَةً
قَالُوا : وَمَا الإِمَّعَةُ ؟
قَالَ : الَّذِي يَجْرِي بِكُلِّ رِيحٍ . . » [(١)]

---

(١) الزهـد . تـأليف أبـي داود سـليمان بـن الأشـعث بـن إسـحاق الأزدي السِّجِسْـتاني (ت:٢٧٥هـ) تحقيـق : أبـي تميم ياسـر بـن إبراهيم بـن محمـد ، وأبـي بـلال غنيم ابن عباس بن غنيم . ط(١) عـام ١٤١٤هــ . نشـر : دار المشـكاة للنشـر والتوزيـع ، حلوان . ص٤٠،٤١

وفي رواية للطبراني في المعجم الكبير بسنده «لا يَكُونُ أَحَدُكُمْ إِمَّعَةً» .

قَالُوا : وَمَا الإِمَّعَةُ يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ؟

قَالَ : يَقُولُ : «إِنَّمَا أَنَا مَعَ النَّاسِ إِن اهْتَدَوُا اهْتَدَيْتُ ، وَإِنْ ضَلُّوا ضَلَلْتُ ، أَلا لِيُوَطِّنُ أَحَدُكُمْ نَفْسَهُ عَلَى إِنْ كَفَرَ النَّاسُ أَنْ لا يَكْفُرَ» (رقم : ٨٧٦٥) [1]

والشيخُ بقولِه : «لأنّ أمرَ الله فِي خلقِه يتجاوز حُدودَ المألوف ؛ لأنّ الخالقَ نفسه مُتجاوز حدود المألوف . . .» تبيين لوجه مقاله (ليس بواجب)

أفهم من هذا أنّه أراد أن يقول لك إنّه ليس بواجبٍ أوجبه أنا عليك ، بل انظرْ مخلصًا متقنًا ، فإنك ستنتهي بنفسِك لنفسك أنَّه واجبٌ عليْك ، لأنّ أمرَ الله فِي خلقِه يتجاوز حُدودَ المألوف ؛ لأنّ الخالقَ نفسه مُتجاوز حدود المألوف . . .»

أراد أن يُخرجَ الإيجابَ عليك من نفسِك ، لا منه هو ، كيما يكونَ انبعاثك إلى التّسليم فتيًّا .

---

(١) وفي جامع الترمذي في كتاب (البر والصلة) بسنده عَنْ حُذَيْفَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ «لاَ تَكُونُوا إِمَّعَةً تَقُولُونَ إِنْ أَحْسَنَ النَّاسُ أَحْسَنَّا وَإِنْ ظَلَمُوا ظَلَمْنَا وَلَكِنْ وَطِّنُوا أَنْفُسَكُمْ إِنْ أَحْسَنَ النَّاسُ أَنْ تُحْسِنُوا وَإِنْ أَسَاءُوا فَلاَ تَظْلِمُوا».
قَالَ أَبُو عِيسَى هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ لاَ نَعْرِفُهُ إِلاَّ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ .
ورفعه إلى سيدنا رسُول الله ﷺ ضَعيفٌ ، . ضعفه الألباني في ضعيف سنن الترمذيّ . رقم : (٦٤) وفي ضعيف الجامع الصغير . رقم (٦٢٧١) وضَعيف التَّرغيب والتّرهيب رقم : (١٤٩٤)
ومن ثَمَّ لم أشأ أن أرفعه ، واكتفيت بالموقوف ، وإنْ كان جمهرة أهل العلم على الأخذ بالضعيف في مثل هذا المقام التهذيبيّ ، ولا سيما إن كان له من موقوف الصحابة ما يؤازره ، أمَّا بابُ العقيدةِ وبابُ الحلالِ والحرام فلا نأخذُ بالضعيف ؛ لأنَّ في ما فوقه غناءً أيَّ غَناءٍ .

وهذا نهجٌ في التقريرِ والتَّوطين والتفعيل في النّفسِ بيّنُ الفِحالةِ . وهو من باب العناية البالغة بالمعنَى مِنْ جهةٍ ، ومن يُقريه ذلك المعنَى من جهة أخرى . وتلك شِيمة صُنَّاع الجُود والإحسان .

وقول الشيخِ « وهذا ممَّا لم أقرأه في كلامِ مَنْ يُؤخذ عنهم العلمُ ، فخُذْ ما تراه ودع ما لا تراه ، ولا حرج عليْك »

الذي قال الشيخ إنه لم يقرأ ليس هو الذهاب إلى الحقيقة لا المجاز ، فهذا نهج أهلِ السنةِ ، بل الاستدلالِ الذي أبداه الشيخ على نحو ما بيّنتُ .

وقوله : « فخذْ ما تراه ودع ما لا تراه ، ولا حرج عليْك » حثّ لِطالِبِ العلمِ على أن لايتخذ موقفه إلا بناءَ على رؤيته ما يختارُ ، لا تقليدًا عن غيْر علمٍ بحقِيقةِ ما يَختارُ ، وهذا الحثُّ إذا ما أخذَ به طالبُ العلم كان حامِلاً له على أن يتفتَّشَ في ما بيْن يديْهِ وَيسبرَ غورَه ويُحيطَ بأبعادِه وموقعَ ذلك كلِّه مِن مُرادِ الله الشرعيّ ، ولا سيّما في بابِ العقيدةِ ، فإنّ الخطأ فيها من تهاونٍ أو غفلةٍ أو تعصبٍ مهلكة .

وفي هذا الحثِّ حملٌ إلى أن لا يستصغِرَ الطالبُ نفسَه ، فيسلمَها لشيخِه فيكونَ كما يقولُ بعضُ المُضلِّين من المبتدعة عن السّبيلِ السّواء : « كنْ بيْن يديْ شيْخِك كالميّتِ بيْن يدَي مغسّله »[1] فمثلُ هذا لا يخلقُ إلا شعبًا عقله في أذنيه . ومثله لا تقوم به حياة عزيزة .

---

(١) من المؤلم أن هذا الذي يقول لتلميذه أو مريده : « كن بيْن يدي شيخِك كالميّتِ بيْن يديْ مغسّله » هو لا يأخذ بذلك مع رسُول الله صلّى الله عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ وسَلّمَ ، وهو الأولَى بذلك ، فليس أحد من البشر يسلم العاقلُ أمره إليه إسلامًا مطلقًا سِوى سيّدنا رسُول الله صلّى الله عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ وسَلّمَ .

أفيجعل أولئك المبتدعون حقهم على مريديهم فوق حق رسُول الله صَلَواتُ اللهِ وسَلامُه عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ عليْهم أنفسِهم . ==

وشيخُنا حفيّ بتأسيس شخصية المسلم ولا سِيّما طالبُ الْعِلمِ علَى العزة والمنعة من الضّيمِ . وكذلك أعيان العلماء يفعلون .

أمّا قَوْله : «ولا حرج عليك» فإنّي أفهمه على أنـّه هو أعزه الله تعالـى لا يحرّج عليك أن تدع ما ذهب إليْه هو أيْ لاحرج عليك منّي ولا أَمنعك من أن تختار الذي تراه أنت الأعلى ، فلا سلطان لي عليك في الاختيار من بعدِ أن يتبيّن لك المذهب ومخارجه وأدلته .

ويبقَى بعدُ حكم الله تعالى فيك ، لا حكم العباد . فنفَي الحرجَ من جهته أعزّه الله تعالى أمَّا من جهة الله تعالى فأمرُه إلى الله سُبْحانَه وَتَعالَى .

هو يقرّر فينا مبدأ حرية الاختيار المسؤول انطلاقًا من قول الله تعالى ﴿ **وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ** ﴾ (البلد:١٠) ﴿ **لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ۚ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ** ﴾ (البقرة:٢٥٦)

* * *

ومن هذا أيضًا ما تراه في تدبره قول رسول الله صلّى الله عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ وسلّمَ «إِنَّ الْمُقْسِطِينَ عِنْدَ اللَّهِ عَلَى مَنَابِرَ مِنْ نُورٍ عَنْ يَمِينِ الرَّحْمَنِ عَزَّ وَجَلَّ وَكِلْتَا يَدَيْهِ يَمِينٌ الَّذِينَ يَعْدِلُونَ فِى حُكْمِهِمْ وَأَهْلِيهِمْ وَمَا وَلُوا» .

(مسلم : الإمارة)

يذهب الشيخ إلى أنـّه على الحقيقة لا المجاز ، ويشيرُ إلى أنَّ من أهل العلم من رآه تمثِيلاً وتصويرًا ، فيقول :

== لو أنهم أسلموا أنفسَهم لهدي رسول الله صَلَواتُ اللهِ وسَلامُه عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ لما قالوا لمريديهم الذي قالوا لأنه مخالفٌ لهديه ﷺ . ولقالوا لهم الذي قاله شيخنا المجد لنا : «خذْ ما تراه ودع ما لا تراه» .

« وإذا أخذنا بِظاهرِ الحديثِ ، وهو الأَوْلَى قُلنا : إنَّ الغائبَ الِّذي هو شَأنُ الآخرةِ لا يُقاسُ علَى الشّاهدِ الذِي أَلفناه فِي الدُّنيا .

ولك أنْ تَقُولَ : إنَّ هذا مِن المَجازِ ، والمقصُودُ ليسَ ظاهرَ الّلفظِ ، وإنّما المقصُودُ المنزِلةُ الرَّفيعةُ والمقامُ المحمودُ لِهؤلاءِ المُقسِطين . . . . » [١]

يعرضُ الشيخ هنا على سمعك ما يذهبُ إليْه غيرُه وفاءً بحق الآخرِ في أنْ يُعرض رأيه ، ولا يُقصَى ، وإن لم تأخذ برأيه .

وهذا سنة بيانية للقرآن يَعرضُ علينا رأي المخالف ، ويُبينُ عمَّا فيه من ضلالةٍ وهذا تجدُه في السُّورة التي ترسُم مَعالم منهاج الدّعوة إلى الله : سُورة « النّحل » على نحو يلتفتُ إليْه كلُّ قارئ من شدَّةِ ظهورِ ذلك فيها . .

وقد عهدْنا هذه السّنةَ في منهاجِ التَّعليم في الأزهر الشريف رسالة وغاية ، فقد كانت تُعرضُ علينا مقالات أهل العلم في القضية في علم الفقه أو علم التَّوحيد وغيرهما على ما بينها من تخالفٍ ، ويُعرضُ دليلُ كلٍّ ، ثمَّ يعرضُ نقد أو نقضُ كلِّ دليل وما كان يُفرض على طالب العلم الأخذ برأيٍ ، فقد كان بعضُ من درّس لي « علم التوحيد » يَعرضُ مذهبَ أهل السُّنة ، ومذهب الأشاعرة ، ومذهب الماتريدية ، ومذهب المعتزلة في المسألة الواحدة وكان يقُولُ إنّه هو يأخذُ بمذهب المعتزلة ، وكان يجهر أمامنا بذلك ، بلْ كان يقول لنا لولا المعتزلة لارتد كثيرٌممن دخلوا في الإسلامِ من الأعاجم لقوة الشُّبهات العقلية الّتي كانت تثار في وجوههم ، وماتزال صُورته في عينيّ قائمًا أمام « السّبورة » يجهر بذلك ، وكان غيرُه من أقرانه يجهرُ بأنَّه على مذهب السّلف ، وأكثرهم كان على مذهب تلاميذ أبي الحسن الأشعري .

---

(١) شَرْحُ أحاديثَ منْ صَحِيحِ مسلم : ٤١٩/١ .

كلُّ ذلك تلقيناه في باكر طلب العلم ، ممَّا أكَّد فينا ـ طلاب العلم في الأزهر ـ أنَّ منهاج العلم أن يُستمع لكلِّ ذي رأي ودليله وأنْ يناقشَ فيه ، ثم يتركُ طالبُ العلم يأخذُ في حياته الخاصّة ما يقتنع به .

﴿ كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾ (المؤمنون:٥٣) ، (الروم:٣٢)

* * *

وممّا تراه سالكًا فيه مسلك التربية الخلقية في طلب العلم ، والوفاء ببعض حق العلم على من يطلبه ما تراه في تدبره ما رواه الإمام مسلم في كتاب « التوبة » من صحيحه بسنده عند عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنه قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ :

« لَلَّهُ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ الْمُؤْمِنِ مِنْ رَجُلٍ فِى أَرْضٍ دَوِيَّةٍ مَهْلَكَةٍ مَعَهُ رَاحِلَتُهُ عَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ ، فَنَامَ ، فَاسْتَيْقَظَ ، وَقَدْ ذَهَبَتْ ، فَطَلَبَهَا حَتَّى أَدْرَكَهُ الْعَطَشُ ، ثُمَّ قَالَ : « أَرْجِعُ إِلَى مَكَانِى الَّذِى كُنْتُ فِيهِ ، فَأَنَامُ حَتَّى أَمُوتَ» فَوَضَعَ رَأْسَهُ عَلَى سَاعِدِهِ لِيَمُوتَ ، فَاسْتَيْقَظَ ، وَعِنْدَهُ رَاحِلَتُهُ ، وَعَلَيْهَا زَادُهُ وَطَعَامُهُ وَشَرَابُهُ ، فَاللَّهُ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ الْعَبْدِ الْمُؤْمِنِ مِنْ هَذَا بِرَاحِلَتِهِ وَزَادِهِ» .

ينظرُ في قول رسول الله ﷺ : « فَنَامَ فَاسْتَيْقَظَ وَقَدْ ذَهَبَتْ فَطَلَبَهَا حَتَّى أَدْرَكَهُ الْعَطَشُ ثُمَّ قَالَ أَرْجِعُ إِلَى مَكَانِى الَّذِى كُنْتُ فِيهِ» فيرى ما في استيقاظ الرجل وإدراكه ذهاب راحلته ، إعرابًا عنْ حالِ التائب الذي يستيقظ من غفلتِه ، فيجد دنياه وأخراه قد ذهبا ، يقول : أنا أفهمُ من هذا ، ولك أنْ تقرّ فَهمِي أو لا تقرّه أنه لم يدرك أنَّ الرّاحلة الّتي عليها زاده ومزاده فِي رحلتِه سَواء كانتْ الرحلة الحقِيقية المعروفةَ أو فِي رحلتِهِ الّتي هِي رحلةُ الحياةِ بِتقلباتِها لَمْ يُدركْ أنَّ الرّاحِلةَ ذَهبَتْ إلا لَمَّا استْيقظَ ، وأنّه لَمَّا كان نائمًا كانَ لايدري .... [1]

---

(١) شَرْحُ أحاديثَ منْ صَحِيحِ مسلم . ٢/٧٤٤

أرأيت إلى شَيْخنا كيف يُعلن حق القارئ أيًّا كان مقامُه في طلبِ العلم في أنْ يتبصَّرَ ما قال شيْخُه ، وأنْ لا يبيعَ له عقلَه وذوقَه على الرّغم من ثقته في نُصح شيْخه وبذله جُهدَه في خدمة العلم وطلابِه على الرغم من ذلك كلِّه فللقارئ أنْ يذهبَ إلى غير ما ذهبَ إليْه الشّيْخُ .

وانظر كيف أنه دفع بهذه الجملة : « ولك أنْ تقرّ فَهمِي أو لا تقرّه» أولاً وأقامها مقام الاعتراض وهو من أقوى عوامل استنفار العقول وتوطيد المعاني وتأكيدِها وتوطينِها ، إعرابًا منه عن أمرين فيما أفهم :

الأول : أنّ ما سيأتِيك لم تعهدْ العقول سماعَه ، فتأنسَ إليْه ، ففيه شيْءٌ ممّا قد يستفزك ، للطافةٍ وطرافةٍ فيه .

والآخر : أن تفزع ممّا أنت فيه لتتلقّى ما هو سيأتيك ، فقدم العبارة لتقع في قلبك أولاً ، فتمنحها حقها ، فيكون لك منها ما أنت أجدر أن لا تحرمَه ، وليكون لها منك ما هو أحقُّ بأن لا تبخل به عليها من حسن النّظر والتأمل والمراجعة والتفتيش ، وكأنّي استْشعرُ أنَّ الشّيخَ يُريدُنا أن نتعلمَ كيف وفد هذا المعنى الذي فهمه على قلبِه ، ليكون لنا من هذا ما يجعلنا أهلا أن نسلكه حين نقرأ البيان العالي ، والبيان العليّ .

وهو بهذا ينتزعُ أيضًا مهابة مخالفتِه من قلوب طلابِ العلم ، فغيرُ قليلٍ منهم من يتهيبُ أن يذهب إلى غيرِ ما ذهب إليْه شيخُه ، وأن يعربَ عن ذلك ، فكان من إحسانه إلى طلابه أن يقيمهم مقامًا لا يحتقر فيه أحدهم نفسَه ، وأن يبذل ما قد يمن الله تعالى به عليه وإن كان قليلا .

« يَا نِسَاءَ الْمُسْلِمَاتِ لاَ تَحْقِرَنَّ جَارَةٌ لِجَارَتِهَا ، وَلَوْ فِرْسِنَ شَاةٍ» . (متفق عليه : البخاري في كتاب الهبة ، وكتاب الأدب ، ومسلم في كتاب الزكاة) أي لا تحتقر أن تهدي لأخيك شيئًا وإن كان قليلاً ، فقِيمة الأشياء ليس بحجمها بل بما بعث على بذلها من المودة والتراحم ، فقليلٌ من نفس رضية محبة ،

يخرج العطاء منها قبل أن يصل إلى يد من أُعطِي خيرٌ من كثير وفير أُخرج عنوةً من نفس كزة تتبعه ولا تنساه .

حين يربّى طلاب العلم على هذا كيف يكون حالهم في غيرِ طلب العلم أتراهم يسحبون من آذانهم كما تسحب النعاج ، أتراهم يساقون إلى غير ما يسْترضون ، أتراهم يهتفون أنا عبد المأمور ، أيقالها عاقل ، كذلك يريد الطواغيت لنا ومنا أن يكون هذا شعارنا . (أنا عبد المأمور) وليس أحقر ممن يرضى أن يكون عبداً للمأمور ، فكيف أنت مع الآمِر إذن ؟!

أرأيت كيف يربّي الطواغيت النَّاس ، وكيف يربّي الأعيان من العلماء وفي مقدمهم شيخنا أعزه الله تعالى النّاسَ عامة ، وطلاب العلم خاصة ؟

﴿ قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ ۚ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (المائدة:١٠٠)

﴿ مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ ۚ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ (هود:٢٤)

* * *

وممّا تراه من باب العنايةِ بتربيةِ طلاَّبِ العلم ، وهم أحقُّ مَن يُعنى العلماءُ بتربيتِهم ، لأنـّهم إنْ صلحوا صلحَ كثيرٌ من أحوالِ الأمّة ، ما تراه في قولِه ، وهو يريدُ أن ينقلَ مقالةً للإمام النَّوويّ في التوبةِ : « وللإمامِ النّوويِّ كلامٌ مفيدٌ ومختصرٌ فِي « التّوبَة »، وقدْ أحسَنَ تَلْخيصَهُ ، والنّوويُّ يؤخذُ عَنْهُ ما اسْتخرجَهُ ، ومَا لَخّصَهُ مِنْ كلامِ شُيوخِ الإسلامِ الذينَ يؤخذُ عَنهمْ العلم ، كالقَاضِي عياض وابن عبدِ البرّ وغَيْرِهمْ مِنَ الْكَمَلَةِ رِضوانُ الله عَلَيْهِمْ ، وألْحقَنا بِهمْ كَرامَة نَفسٍ وقرّة عيْن .

وحيْنَ أنقلُ كلامَ هؤلاءِ فِي كتبِي أقصِدُ إِلَى أنْ يتعرّفَ الجيلُ علَى كلامهِـمْ وفَضل بيانِهمْ ، وإلى أيِّ حَدٍّ تَخلّفنَا عَنْهُمْ ، ثُمَّ وَهُوَ مُهمٌّ أَيْضًا أنْ أُسْمعَ الجيلَ ألسِنةَ هؤلاءِ الكرامِ ، وهِيَ تُخاطبُهم حتّـى تَكـونَ ألسِـنتُهُم وَأقلامُهـم لا تـزال ناطقةً فينا .

وكلّما قرأَ قارئٌ كلِمةً مُشرِقةُ لِواحدٍ مِنْ هؤلاءِ الّذين هُمْ وَرثَةُ النّبُوّة رفَعَ الله بِها هذَا العالِمَ درجةً ، ورفعَ القارئَ بِها درجةً ، ولا حرجَ علَى فضلِ اللهِ .

ولَو قلتُ لك : إنّي أدخلُ السّرورَ علَى قلـبِ قُـراء كتـابِي بِنُصـوصِ هـؤلاء لأصبت»[1]

هـذا الّذي سمعتَ مِـن شَيخنا يقُوم فيـه مـن كريمِ التَّربيةِ لنـا طلابَ العلـم ما أفتقرُ إلى أن أشير إلى ما توافد منه على قلبِي ، ويقُوم فيه ما يُبرزُ لك عظيم محبَّة الشّيخ طلابَ العلم ، ووَافر رَغبته في أنْ يبذلَ لَهم الخيرَ مـا اسـتطاعَ إلى ذلك سبيلا :

قوله : « وللإمامِ النّوويِّ كلامٌ مفيـدٌ ومختصـرٌ فِـي « التّوبَـة » ، وقـدْ أحسَـنَ تَلْخيصَهُ « يهدِي إلى أنّ كلام النَّووي المفيد لم يكن فيـه مفتقـرًا إلى أن يبسـط العبارة ليحقق الإفادة ، بل كانتْ له ملكة في أن يقيم لك جليلِ الفوائد في عبارة وجيزة ، فيكون عطاؤه ممّا سهل سمعُه وحفظه ، وتكاثر مكنوزُه ، فيكون لـك خيرُ زادٍ ، خفة حِمل ، ووفرة عطاءٍ ، ولعلَّ ذلك من بركة اصطحابه بيان النبـوة واصطبارِه على حُسنِ الأدب معه فهمًا وتخلقًا ، ومن هدي النّبوّة الإحسـان إلى الصَّاحب فمن صَحب بيان الّنبوّة كان له من ذلك مزيدٌ من إحسان هـذا البيـانِ إليْه . فنِعِمّا هو .

---

(١) شَرْحُ أحاديثَ منْ صَحِيحِ مسلم : ٧٣٦/٢

وكأنَّ الشَّيْخَ يقولُ لي ـ وكأنّي عصيته عجزًا لا سوءَ أدب ـ لا تجعلَ عبارتك أوسعَ من كريمِ فوائدِك ، بلْ لا تجعلها عديلها ، لِتكنزْ في وَجيز العبارة عزيرَ الإفادة .

غيرُ قليلٍ منا ، وأنا ـ إقرارًا بواقعٍ ـ في المقدمةِ مِن ذلك نَحسِبُ جهالة أو عجزًا أنّا لنْ نوفِّي الإفَادةَ حقّها إلا إذا بَسطْنا وثرْثَرْنا وشقّقنا وتفيهقنا .

وقوله أكرمه الله تعالى : « والنّوويُّ يؤخذُ عَنْهُ ما اسْتخرجَهُ ، ومَا لَخّصَهُ مِنْ كلامِ شُيوخِ الإسلامِ » يهدِي إلى أنَّ النَّوويَّ بمنزلةٍ لا يؤخذُ عنه ما حمله عَن غيرِه فحسبُ بلْ يؤخذ عنه ما اسْتخرجه ، فهو لا يقُومُ مقامَ الحمَّال الحافظ ، المؤتمَن ، بل يتجاوزُ ذلك إلى أنْ يسْتخرجَ بنفسِه مِن العلم ما لم يسْتخرجْه سلفُه ، وفي قوله : « اسْتخرجه » إشارة كريمة إلى أن ما يأتيك به النَّوويّ إنّما هو مكنونٌ في رَحم العلم ، ولم يُمارس النّوويُّ الإسقاطَ والتقولَ ، إنّما هُو المستولِدُ مِن العلمِ علمًا . فثقتك بولائدِه تكونُ من جنس ثقتِك بما اسْتَوْلَدَ منه .

وقوله : « وحيْنَ أنقلُ كلامَ هؤلاءِ فِي كتبِي أقصِدُ إلَى أنْ يتعرّفَ الجيلُ علَى كلامهِمْ وفَضل بيانِهمْ ، وإلى أيِّ حَدٍّ تَخلّفنَا عَنْهُمْ ، ثُمَّ وَهُوَ مُهمٌّ أَيْضًا أنْ أُسْمعَ الجيلَ ألسِنةَ هؤلاءِ الكرامِ ، وهِيَ تُخاطبُهم حتّى تَكونَ ألسِنتُهُم وَأقلامُهم لا نزال ناطقةً فينا » يصور لك شيئًا من عظيم محبته الخيرَ لطلابِه ، وكيف أنّه الرَّغوب في أن يتخذوا أمثال أولئك الأعيانِ قدوة وأسوةً ، ، فهُم الأحقُّ بذلك ،

وهو يريد لمسامعنا وافئدتنا أنْ تكونَ مسكنًا لبيان أولئك ، حتَّى لا تكونَ فارغة لسُكنَى ساقطِ القولِ وعقيمِه ممَّا يحاصرُنا في كلِّ مكانٍ طَوعًا وكُرهًا ، فليس أشقَّ على المرْء مِن أنْ يُبتلى بسماع ما يُجبُ عليه ـ إنْ كان حرًّا ـ أن يسدّ مسامِعَه ، ويستغشي ثيابه ، حذرا مِن أنْ يلامسَ سمعَه ممّا أنّه يُصدئُ القلبَ ويُعميه ، ويَطمسُ البصيرةَ ، ويكدّ القريحةَ . كما يقول القاضِي الجُرجانيّ في وساطتِه .

وإذا ما كان السّمعُ من جليل نِعم الله سُبْحانَه وَبِحمدِه ، فشكر هذه النّعمة أن تُحفظَ ممَّا يلحق بها الأذَى ، وأن تُطعمَ ما يزيدُها فضلاً ونفعًا .

وقوله ـ أعزَّه الله تعالى : « وكلّما قرأَ قارئٌ كلِمةً مُشرِقةً لِواحدٍ مِنْ هؤلاءِ الّذين هُمْ وَرثَةُ النُّبوّة رفَعَ الله بِها هذَا العالمَ درجةً ، ورفعَ القارئَ بِها درجةً ، ولا حرجَ علَى فضلِ اللهِ ». ممَّا يؤدّبني بأنْ قراءتي كلام الأعيانِ والانتفاع بِه ممّا يزيدُ في منزلتهم عند ربّهم ، لأنَّه من الثلاثة التي لا ينقطع نفعُه بعد موت صَانعُه ، كما هدتْ السّنة النبويّة ، فمَن أحبَّ عالمًا كان الحريصَ على أن يقرأ علمَه ليكونَ لذلِك المحبوبِ مِن المثوبةِ ما يكُونُ شُكرًا من القارئ له ، فكيف إذا ما اجتمعَ إلى ذلك ما ينالُه القارئُ من المنفعةِ ومِن المَثوبةِ الأخرويّةِ .

وفي هذا حثٌّ لنا طلابَ العلم أن نجتهدَ ليكونَ لِنَا من العلم ما ينفعُنا بعد رحيلنا ، كلّما قرأ أحدٌ هذا العلم وانتفعَ بِه . فيكونُ ذلك العلم جامعًا بيْن الثلاثة الباقي نفعُها بعد الرَّحيل : يكون صدقة جاريةً ، وليس أجلّ نفعًا من صدقة العلمِ ، ويكون القارئ كالولد الصالح لك يسْتغفر لك ، فهُو وإنْ لم يكنْ ولدَك من صُلبك ، فإنّه ولدُك من عقلك ، وولدُك من عقلك أنفَعُ لك من ولدِك من صلبِك ، ولذا كان مِيراثه منك علمَك ، بينا ولدُك مِن صلبِك مِيراثُه منك الدّرهمُ والدينارُ اللذان ربُّما أفسدا أمره ، ولا يُصلحانه ، إلامن رحم ربك سُبْحانَه وَبِحمدِه .

كلُّ ذلك يتوافدُ إلى قلبي حين قرأتُ مقالةَ الشَّيخِ ، فكنتُ كأني أسمعُه يحدّثني بذلك .

وقوله : « ولَو قلتُ لك : إنّي أدخلُ السّرورَ علَى قلبِ قُراء كتابِي بِنُصوصِ هؤلاء لأصبت» لا مزيدَ عليْه في تصويرِ عظيمِ من يَعتلج في صدرِ شيْخنا مِن محبتِه لنا ، كيف تكونُ إزاءَ شيخٍ كمثلِه ، يحبُّ أن يدخلَ السّرورَ على قلبك .؟

أليس مِن حقّ بره أن نسعَى إلى أَن نكونَ حيثُ يُحبُّ لنا أن نكونَ رجالاً يصنعونَ المَجد ويحمونَه احتسابًا . وألا يستنعجنا الطُّغاةُ الجبابرةُ بما في أيديهم من قوةٍ غشومٍ وأن لا نخشَى على دنْيانا وما وقع في أيدينا من لُعاعتها أكثر من خشيتِنا على دِيننا فلا نجهرُ بالحقّ في سمْعِ الطواغيتِ وبصرهم(١).

هذا أقلُّ ما يجبُ له علينا ، وأخشى إذا لم نفعلْ أن يخاصمنا يوم القيامة ، ولكني أكادُ أوقنُ أنّه من حبه لنا طلاّبُ العلم يقومُ فينا مقام أبي ضمضم في قومه يتصدق علينا بتقصيرنا في الوفاء بحقّه(٢)

* * *

ومن مَعالمِ البُعد التَّربويّ في شرحه ما نراه من عنايتِهِ بحالِ الرَّواي في كلامِه ، يتبصّره ، فيستنبط منه معانِيَ لطيفة تُعين على حُسن تربيتِنا .

من ذلِك ما جاء في ما رواه مسلم في كتابِ (الإمارة) من حديثِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ شُمَاسَةَ قَالَ : أَتَيْتُ عَائِشَةَ أَسْأَلُهَا عَنْ شَىْءٍ ، فَقَالَتْ : مِمَّنْ أَنْتَ؟

(١) روى أحمد في مسندِهِ بِسَنَدِه عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ « إِذَا رَأَيْتُمْ أُمَّتِى تَهَابُ الظَّالِمَ أَنْ تَقُولَ لَهُ إِنَّكَ أَنْتَ ظَالِمٌ فَقَدْ تُوُدِّعَ مِنْهُمْ». (صححه أحمد شاكر ، وقررأنّ محمد بن مسلم أبا الزبير قد لقي ابن عمرو ، وليس كما قيل إنه لم يلقه . ينظر مسند أحمد ، تحقيق أحمد محمد شاكر . ط(١) دار الحديث بالقاهرة ، حديث رقم (٦٥٢١)

في قوله صَلَواتُ اللهِ وسَلامُه عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ : (تودع منهم) ممّا تنخلع منه قلوب العقلاء ، لما فيه من الإعراب عن فقد الأمل فيهم ، وأنهم صاروا إلى حال لا يرجى صلاحه ، ومن كان كان إلى سوء العُقبَى التي تَرْجُفُ منها القلوب .

(٢) ينظر سنن أبي داود كتاب «الأدب» أو البيهقي في شعب الإيمان (حديث رقم : ٧٧٢٧) ٤١٨/١٠ ، وعمل اليوم والليلة لابن السني حديث رقم (٦٥) ص : ٦٠

فَقُلْتُ : رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ مِصْرَ . فَقَالَتْ : كَيْفَ كَانَ صَاحِبُكُمْ لَكُمْ فِى غَزَاتِكُمْ هَذِهِ؟ فَقَالَ : مَا نَقَمْنَا مِنْهُ شَيْئًا . إِنْ كَانَ لَيَمُوتُ لِلرَّجُلِ مِنَّا الْبَعِيرُ ، فَيُعْطِيهِ الْبَعِيرَ ، وَالْعَبْدُ ، فَيُعْطِيهِ الْعَبْدَ ، وَيَحْتَاجُ إِلَى النَّفَقَةِ ، فَيُعْطِيهِ النَّفَقَةَ . فَقَالَتْ : أَمَا إِنَّهُ لاَ يَمْنَعُنِى الَّذِى فَعَلَ فِى مُحَمَّدِ بْنِ أَبِى بَكْرٍ أَخِى أَنْ أُخْبِرَكَ مَا سَمِعْتُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ فِى بَيْتِى هَذَا :

« اللَّهُمَّ مَنْ وَلِىَ مِنْ أَمْرِ أُمَّتِى شَيْئًا ، فَشَقَّ عَلَيْهِمْ ، فَاشْقُقْ عَلَيْهِ . وَمَنْ وَلِىَ مِنْ أَمْرِ أُمَّتِى شَيْئًا ، فَرَفَقَ بِهِمْ ، فَارْفُقْ بِهِ ».

لهذا الحديثِ علاقةٌ وثيقة بالواقعِ المُحيطِ بالشَّيخ وقومِه ووطنِه وأمتِه المُسلِمة ، فيه مِنْ معانِي الهُدَى المُتعلِّقة بحالِ الوالِي بِرَعِيَّتِهِ ، وموقفنا ممن يعدِل في أمرٍ ما وبيْننا خُصُومة في أمرٍ آخر ، كيف يكون الأدب موقفًا وبيانا .

يصوّر لنا الشَّيْخُ العَلاقة بيْن أمّ المؤمنين عائشة رَضِيَ اللهُ عَنها ، وراوِي الحديث : عبد الرحمن بن شُماسة رضيَ الله عنه وهو الّذي شارك في الجيشِ الّذي قتلَ أخاها : « محمد بن أبي بكر الصّديق » رضي الله عنهم ، وموقفها من الوالِي « معاوية بن خديج النّجيبيّ » الذي كان على رأس الجيشِ الذي قتل أخاها . فتبصّر الشّيخُ هذه العلاقة وما يكونُ لها مِن حُضُورٍ في نفسِ كلّ ، وما لها من أثرٍ في منهج الفِعل والقَولِ .

كلُّ ذلك ليعلمنا كيف يكون المُسلم ، وكيف لا تحملُه الخصُومة في أمرِ ما مع آخرعلى أن يجاوزَ الحقّ والعدل ، وكيف أنَّه يكبح زمامَ ما يعتلج في صدرِه من الألم ، فلا ينزله من فوقِ صَهوةِ الحقّ والعدلِ والأدبِ في الفعلِ والقول .

وكلّ ذلك هو الَّذي اغتالته أفاعيل ثلَّةٍ من العلمانيين والليبراليين وحيل سحرة إبليس ومكرُ السّياسيين عبدةُ المنصِب والسّلطة من أخلاق النّاسِ فِي زماننا ، فغرقُوا في مستنقعِ استفحال الخُصومَةِ على أمرٍ من أمورِ الدُّنيا .

جعل الشَّيْخ لبيانِ «ابن شُماسة» ولبيان أمُّ المؤمنين عائشةُ رضِـي الله عنهـا من الاعتناء بتحليلِه وتذوُّقه واسْتنْباطِ ما فيهِ مِن جليلِ القِيمِ التَّربويّـة السّـلوكية وكريمها ما يليقُ به .

والشّيْخُ يستهلُّ بيانَه بقولِه : «هذا الحديثُ عامرٌ بالمعـانِي الجليلـةِ ، والّـتي يتعيّنُ عَلينا أنْ نُنَبهَ الأمّةَ إليْها ، وهَذِهِ الْمعانِي ليْسَتْ فِي مـتنِ كـلامِ رسُـولِ اللهِ صَلّى اللهُ وسلّم عَلَيْه وَعلَى آلِهِ وصَحبِهِ ، وإِنّما فِي سِياقِ الخَبرِ»[1]

هذا من الشيخِ لفتٌ لنا ـ طلاب العلم ـ إلى أن لا نرغبَ عن ما يُحيط ببيان رسُولِ الله صَلّى اللهُ وسلّم عَلَيْه وَعلَى آلِهِ وصَحبِهِ من بيان الصّحابة ، رضـيَ الله عَنهم ، ففي بيانهم من المعاني ما لا يرغبُ عنها أو يتشاغلُ عنها إلا غابن نفسَه

يُصوّر الشَّيْخُ لنا حال «ابن شُماسة». وهو حالٌ لـو كـان لأحـدِنا نزيـرٌ مِنْـهُ لآثر أن لا يحومَ حول محلّ أم المؤمنين عائشة رَضِيَ اللهُ عَنهـا فضـلاً عَـنْ أنْ يذهبَ إليْها يسألُها عن شيْءٍ بنفسِه على أقل تقديرٍ .

سيدُنا ابن شُماسة لم يجْعل ما كان منه مِن مشـاركة في الجـيشِ الـذي قتـل أخـا أمّ المؤمنين رَضِيَ اللهُ عَنها مانعًا له عن الذهابِ إليها لا لأنّـه حسب أنهـا لا تعلم اشتراكه أوْ حِسب أنها نسيت ما كان ، بلْ ثقةً في عظيم عقلها وعلمهـا وأدبها رَضِيَ اللهُ عَنها،فكان موقفه هذا آية بينة جليلة على معرفته بأمّ المؤمنين، وأنّ ما كان منه بشأنِ أخيها غير مُحاجزها عن الوفـاءِ بحقّـه فِـي حُسـن لقيـاه وخِطابِهِ .

هذا شأنٌ إذا ما أُقيم فِي حياةِ الأمَّة تمكَّـنَ في مـا بيْنهـا السَّـلامُ الاجتمـاعيّ الّذي يجعلُ من قلوبِ النّاسِ فُسطاطًا للأمنِ النَّفسيّ ، وهو شَطرُ ما يَفتقِرُ إليـه الإنسانُ كلّ الإنسانِ .

---

(١) شَرْحُ أحاديثَ منْ صَحِيحِ مسلم : ٤٣٠/١

الشيخُ يتبصَّرُ حالَ سيدنا «ابن شُماسة» رَضِيَ اللهُ عَنه ومقالَه وموقفَ أمّ المؤمنين رَضِيَ اللهُ عَنها ، فيستنبطُ من ذلِك قيمًا أخلاقيَّةً عليّة .

ويستنبِطُ قدرتَهم على مُحاجزةِ الخلافِ السِّياسيّ عن استبقاءِ حقوقِ الأخوَّةِ الإسلاميّة ، والإنسانيّة .

ويستنبطُ كيف أنَّ الواقعَ النَّفسيّ المُؤلِمَ لسيّدتنا أمِّ المؤمنين رَضِيَ اللهُ عَنها لم يمنعْه من أن تُحدّث بِحديثٍ سمعته من رسُول الله صَلَوات اللهِ وسلامُه عَلَيْه وَعلَى آلِهِ وصَحبِهِ يفتح معناها باب البشارة لِقائدٍ قتل جيشه أخاها .

ويَستنبطُ مِن سُؤال سيّدتنا أمّ المؤمنين رَضِيَ اللهُ عَنها لابن شُماسة «رَضِيَ اللهُ عَنه وصِياغته : (كَيْفَ كَانَ صَاحِبُكُمْ لَكُمْ فِى غَزَاتِكُمْ هَذِهِ) كيف أنّها كانت مهمومة بالأمرِ العامّ، وبعلاقةِ الأميرِ برعيّتِه في موقفٍ كان مِن آثارِه قتلُ أخيها . لَم تَقلْ له : لِم قتلتم أخي أو من الّذي باشر قتله ، أو كيف قتلتموه؟ إلى آخر ما يُمكنُ أن يُبادرَ أمثالُنا إلى السُّؤالِ عنه ، لكنَّها أمُّ المؤمنين زوجُ رسُول الله صَلَوات اللهِ وسلامُه عَلَيْه وَعلَى آلِهِ وصَحبِهِ .

يتلبث الشَّيخُ عند إعراب أم المؤمنين رَضِيَ اللهُ عَنها بقولها (صاحبكم) ولم تقل : أميركم ، وقولها (لكم) ثُمّ في (غزاتكم) كلّ هذا الكلم تحملُ في اصطفائها تصويراً لِما هو قائمٌ في صدرِأمّ المؤمنين من الأدبِ واستحضار أنّها أمُّ المؤمنين زوج رسول الله صَلّى اللهُ وسلّم عَلَيْه وَعلَى آلِهِ وصَحبِهِ .

وهذا يؤدِّبنا أن لا نَنْسى في سياق ما يعتمِلُ فِي صدورِنا مِن الأسَى والألمِ موقعَنا الاجتماعيّ والعِلميّ .

وكَمْ مِنْ عالمٍ وإمامٍ في النّاسِ يغفُلُ في بعضِ المواقع حقّ ذلك عليْه ، فيتعاملُ مع الآخرين بما يستحقّون ، ولا يتعامل معهم بما يليق به هو عالمًا يحملُ كتاب الله سُبْحانَه وَتَعالَى في صدره ، أو إمامًا يحملُ بلسان حالِه قبلَ لسانِ مقالِهِ النَّاس إلى بابِ ربهم جلّ جلاله .

ومنطقُ العقل الفطري والعلمي المسلم قاضٍ بأنْ نعامِل النَّاس بما يليقُ بِنا ، ولا نعاملهم البتة بما يليقُ بهم مُجترئين على معصِية الله تعالى في عبادِه . فمَن لم يفعلْ فعامل الناس بما يليقُ بِهم ، لا به فقد حامَ حَول حِمَى الكفران بنعمة الله تعالى عليْه ، فإنعامُ الله سُبْحانَه وَتَعالَى عليه بالعلم أو الإمامة يستوجبُ شكرَها ، ومِن شكرِها وحقّها عليْهِ التَّصرُّفُ مَع الآخرين بِما يليقُ بهذِه النّعمةِ وبما يليقُ بجلالِ مَنْ أنعمَ بِها عَليْه تفضّلا . .

كلُّ ذلك وكثيرٌ غيرُه ممّا غام عنّي يُستنبط من موقفِ سيدتنا الجليلة أمّ المؤمنين عائشة رَضِيَ اللهُ عَنها ، ممَّا يكشفُ لك عن عظيم قدرِها ، واستحقاقِها أن تكونَ الأقربَ إلى قلبِ سيدنا رسُول الله صَلَوات اللهِ وسلامُه عَلَيْه وَعلَى آلِهِ وصَحبِهِ .

* * *

الشَّيخُ يسلك في نظره إلى القضايا مسالك مغايرةِ لما يسلكه الآخرون ، ظاهرها أنه يسلك من جهةِ بلاغةِ البيان ، ولكنه فيما أفهم يتخذ البيان مطيته إلى أن يلج القضيةَ أو المسألة ، لم يكن منتهى سفر الشَّيخ في أي قضية الاكتفاء بالنَّظر في صور المعاني ، فلا يعشقُ المرآة إلا المفتوناتُ بحسنهن . الرّجالُ لايفعلون ، الرّجالُ مشغُولون بحقائق الأشياءِ لا بصورِها . وهُم لما فِيهم مِن فراسةٍ ينفذون مِن الصُّورة إلى الحقيقةِ ، فاشتغالُهم بالصُّورة على مقدار إعانتِه إلى بلوغِ الحقيقةِ ، والشَّأنُ في الصّورة في البيان الحَقّ والصِّدقِ أنْ تكونَ مجلّى الحقيقةِ[1] .

---

(١) لما كان عالمُ البيان وعالم الإنسان على تلاحظٍ وكان في عالم الإنسان من يقُولُ ما لا يفعل ، نعى القرآن على أولئك ، وهددهم : ﴿ **كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ** ﴾ (الصف:٣) ==

ومخرجُ هذا في سَنَن الرِّجال وخلقهم ما رواه مسلم في كتاب (البر والصلة) بسنده عن أبي هُرَيْرَةَ يَقُولُ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ « إِنَّ اللَّهَ لاَ يَنْظُرُ إِلَى صُوَرِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ » .

لا يُفهمنَّ مِن قوله ﷺ : « إِنَّ اللَّهَ لاَ يَنْظُرُ إِلَى صُوَرِكُمْ ... ». أنَّ الله سُبْحانَه وَتَعالَى يدفعنُا عن أن نُحسِّن صورنا إذا ما أحسنا أفعالنا ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ ﴾ (الأعراف:٣١) والأرض كلها جعلت لنا مسْجدًا (اسم مكان) ، وحال المُسلم كلّها سجود (مسَجد : اسم مصدر) والله جميل يُحب الجمال ، ولكنَّه ليس جمالُ خضراءِ الدّمن .

الجمال الذي يُحبه الله تعالى هو الجمالُ المتولّدُ من جلالِ الحقّ والخيرِ . فهذه الثلاثة : « الحقّ » و« الخيرُ » و« الجمال » متقارنات ، إلا أن الجمالَ وليد الحق والخير ، ولا يكون حقٌّ وخيرٌ ، ولا يكون مجلاه ومشْهدُه جمالاً ، فإنْ كان جمالٌ غيرُ متولدٍ من حق ، فهو الجمالُ الزَّائفُ أو ما يعرفُ بجمالِ خضراءِ الدّمن .

قلت : إنَّ الشَّيخَ يَفضُلُ كثيرًا من علماءِ البلاغةِ في عصرِه أنّه الرغُوب في أن يدخلَ إلى بعضِ القضايا دخولاً يجعلك كالمفاجَئ بما يأتيك منه . وكأنّه يركب متن « خرق أفق الانتظار » الذي تعلمه من دقيقِ نظرِه في صنيع عبد القاهرِ وبيانه ، ولا سيّما في كتاب « أسرار البلاغة » فعبد القاهر حفيّ بِهذه المهارة .

والذي أفهمه أنَّ من أقوى عواملِ التَّفاضلِ بين العلماءِ الذين يَتَوارَدُون على

== وكلمة « كبر مقتًا عند الله » مما تنخلع له قلوب أولو الألباب ، وكان في عالمِ الإنسان أيضًا مَن صورتُه نقيضَ حقيقته . كان ذلك أيضًا في عالم البيان : بيان سَحرة إبليس . تجد بيانهم هو خضراءُ الدّمن .

قضيةٍ أو مسألةٍ ، أَو « نصٍّ » علمي أوْ بيانيّ حُسنَ اصطفاءِ العـالِمِ الجِهـةَ الـتي يَدخلُ منها إلى القضيةِ أوْ المسألةِ أو « النّصِّ » .

هذا المدخلُ هُو الذي يَحاجزُ العالمَ مِن أن تقعَ قدمُه علَى ما وقعَت عليـه قدمُ غيرِه في الطّريقِ إلى تَثويرِ ما فِي القضِية أو المسألة أو « النصّ » .

وهذا ما يستوجبُ على طالبِ العلمِ أن يجتهدَ في تعلُّمـه ، وفِـي أن يَتـيقن أنَّـه لم يدخلْ إلى القضيةِ أو المَسألةِ مِـن حيثُ دخـلَ الآخرون ، وإلا فإنـّه لا محالةَ سائرٌ على وقع أقدامهم ، ولن يكونّ له من الأمرِ شيْءٌ يحملُ عنه .

وهـذه المهـارةُ تحتاجُ إلى مثابـرةٍ ومصـابـرةٍ فـي تتبُّـع صنيـع العلمـاء ، ولا يُعنيك على هذا كمثلِ أن تجمعَ مقالات الأئمة في قضيةٍ أو مسألة واحدة ، لا لتقول لنا ماذا قال فلان وماذا رَدَّ بِه عليه فلان . بل لتنظر في مقالة العالم ثم تحاول أنْ تبصر مدخله إليها ، ثم تناظره بصنيع الآخر .

ولو زدتَ على ذلك فبيَّنت لنا دوافع كلّ عالم إلى مدخلِه سواء كانت دوافعَ ذاتيَّةً أو موضوعيَّةً ، وهبيّة أوكسبيّة كنْتَ قد زدتَ في العطيّة .

ولو أنك مثلا أخذت مسـألة قامـتْ فيهـا محـاورة « أبـي بكـر الجصـاصّ » (ت:٣٧٠هـ) للآخرين ، وحرصتَ على أن تبصرَ بواعثَ الاخـتلاف في الفهـم والاستنباط ، لتـبين لـك أنَّ الأمـرَ لـيس مرجعُـه في غالـبِ الأمـرِ إلى أنَّ هـذا يستشهدُ بنصّ لا يعتدُّ به الآخـر ، بـل يرجـعُ إلى مـدخلِ كـلٍّ إلى فهـم الـنّصّ الواحد المتفق على الاستدلالِ به .

هذه المهارةُ من أنفع المهارات في طلب العلم الذي ينتهي بصـاحبِها إلى أن يكون يومًا ممن يصغى إليه ، ويؤخذ منه ويردّ عليْه .

هذا ـ فيما أحسِبُ ـ هُو مِـنْ أقـوى عوامـل التَّفاضـل بـيْن العلمـاء في فقـه المسألة الواحدة من مسائل العلم . ولو أننـا تعلمنـا ثـم علَّمنـا طلابنـا منـاهج العلماء في الدخول في القضية أو المسألة لكنا أكثر رعاية لأنفسنا ، وأقدر على

أن نصنع من أنفسِنا ومن طلابنا من هو الجدير بأن يُصغى إليه فكرًا وتعبيرًا ، وأن يؤخذَ منه ويردّ عليه ، فذلك شعارُ أهلِ العلمِ وطلبتِه ، أمّا غيرهم فإنّه يرد عليهم ، ولا يؤخذ منهم ، بل ولا يؤخذ عنهم .

* * *

ومن معالمِ البُعدِ التَّربويّ في قراءته أحاديثَ من صَحيحِ مسلمٍ احتفاؤه بحثّ طلابِ العلمِ وإغرائهم بأن لا يحتقرنَّ أحدُهم نفسَه ، فيرى أنّ مثله ليس بأهلٍ إنِ اتَّخذَ الأسباب وأُتقن توظيفها لن يأتي بما يؤخذ عنه ويُحملُ منه ، فتراه يحثنا ـ نحن طلاب العلم ـ على أن نُعيد النَّظر فيما جاءنا عن أعيان أجدادنا من صَحيحِ العلم ودقِيقِه ، فلعلنا نستثمره ، فنستخرج منه ما لم يكن قبلُ .

تراه وهو يبين لنا عن معالم بناءِ المعاني ، وتآخيها ، وتلاحظها في حديث (تضمّن الله لمن خرج في سبيله ...) يبين لنا أنّ أول جملةٍ فيه هي أصل المعنى ، وأنَّ مقطع الحديثِ هو مِنْ ثمرة هذه الجملة ، وأنَّ هذا من باب « ردّ العجزِ على الصّدرِ » وأن هذا وجهٌ آخر من وجوه هذا الأسلوب ، يُمكن أن يُضافَ إلى الصُّورِ التي ذكرها البلاغيون .

ومن غيرِ المعقولِ أن نعتقدَ أن أوائلنا قالوا كلّ شيْءٍ ، وأنهم لَم يُبقوا لنا شيئًا نقولُه ، وهذا كلامٌ جيدٌ للذين يريدون أن يناموا ، أمَّا المشتغلونَ بالعلمِ ، فإنّهم يعلمون أنّ كلّ علمٍ تكلّمَ فِيه أوائِلُنا فِيهِ بَقايَا أكثرَ ممّا قالوا ، وأنَّ كلّ مسألةٍ تكلّموا فِيها فِيها زوايا أَغفلوها . وَيبدو أنَّ بَعضنا نقلَ ما يوصَف به الكتابُ العزيزُ ، وأنَّ الله سُبحانه وتعَالَى ما فرّط فِيه مِن شيْءٍ من العلومِ ، وأَنَّ أوائلنا فِي النّحوِ والفقهِ والبلاغةِ وغيرِها ما فرطوا فِي هذا كلّه مِن شيءٍ ، وهذا حديث خرافةٍ[1] .

---

(١) شَرْحُ أحاديثَ منْ صَحِيحِ مسلم : ١/٣٢٦ .

مخرج هذا أمران :

الأول أنّ من زعم أن الأوّل لم يدع للآخر شيئًا كأنّه يحومُ حول «سوء الظنّ بالله» ، فالله سُبحانه وتعالى لا يحرم أحدًا من عباده تهيأ لأن يكون محلاًّ لعطائه . ﴿ **كُلاًّ نُّمِدُّ هَـٰٓؤُلَآءِ وَهَـٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا** ﴾ (الإسراء:٢٠)

والآخر : ما رواه الشيخان من حديث أَبِى هُرَيْرَةَ ـ رضى الله عنه ـ عَنِ النَّبِىِّ ﷺ قَالَ :« يَا نِسَاءَ الْمُسْلِمَاتِ لاَ تَحْقِرَنَّ جَارَةٌ لِجَارَتِهَا ، وَلَوْ فِرْسِنَ شَاةٍ». (البخاري : كتاب الهبة ، وكتاب الأدب ، ومسلم كتاب الزكاة)

هذا الحديث هادٍ إلى أن لا يستحقر المرء ما عنده ممّا ينفع الناسَ ، فيمتنع عن العطية لهم إذا لم تكن عظيمة ، فلو أنَّ الناس سلكوا ذلك لما رأيت كثيرا يجود ، فالمرء مرغَّبٌ في أن يبذل مافي يده أيًّا كان ، فيكون المجتمع معطيًا ومعطًى ، فيتحقق التكافل والتآخي . .

طالبُ العلم عليْه أن لا يستحقرَ ما عنده من العلم ، ومن العقلِ والفهم ، فقد يُجري الله تعالى في قلبِه وعلى لسانه من الفهم ما لم يُجرِه على لسان أشياخه ، على نحو ما كان من سيّدنا عبدِ الله بن عمر بن الخطاب رضيَ الله عنهما حين استحيى من أن يقول ما أجراه الله تعالى في قلبه من العلم في صحبة الأشياخ .

روى البخاري في كتاب (العلم) من صَحيحه بسنده عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ « إِنَّ مِنَ الشَّجَرِ شَجَرَةً لاَ يَسْقُطُ وَرَقُهَا ، وَهِىَ مَثَلُ الْمُسْلِمِ ، حَدِّثُونِى مَا هِىَ». فَوَقَعَ النَّاسُ فِى شَجَرِ الْبَادِيَةِ ، وَوَقَعَ فِى نَفْسِى أَنَّهَا النَّخْلَةُ .

قَالَ عَبْدُ اللَّهِ فَاسْتَحْيَيْتُ.فَقَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ،أَخْبِرْنَا بِهَا.فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ « هِىَ النَّخْلَةُ» .

قَالَ عَبْدُ اللَّهِ فَحَدَّثْتُ أَبِى بِمَا وَقَعَ فِى نَفْسِى فَقَالَ لأَنْ تَكُونَ قُلْتَهَا أَحَبُّ إِلَىَّ مِنْ أَنْ يَكُونَ لِى كَذَا وَكَذَا . .

تبصر موقف سيدنا عمر رضي الله عنه ، وكيف أنه يغري ولده بأن يكون الفقه والعلم أحب إليه من الدنيا وما فيه . وهذا يهدينا إلى أن تكون رغبتنا في أن يكون أبناؤنا رجال علم وعمل صالح ومنصبٍ في الدعوة إلى الله تعالى بلسان الحال ولسان المقال أحب إلينا أن يكونوا رجالَ أموال ومناصب ومصائب

* * *

ومن ذلك ما تراه في مَعرض بيانِه ما بيْن بيانِ النّبوّة وبيان الله سُبْحانَه وَتَعالَى من علاقة تظهر حينًا ، وتخفَى حينًا ، وما يكونُ منه حين تتلبس العلاقة بالخفاءِ يقُول :

« علاقةِ كلامِ سّيدنا رسول الله ﷺ بـ« الكتاب » الذي أنزلَه الله تعالى على قلبِهِ أراها تظْهرُ وتختفِي ، فَإذا خفيتْ ولَحظتُها مِن بعيدٍ تلحُّ عليّ نفسِي أن أشيرَ إليْها ، وتقُولُ لِي : لو احتَمَلَتِ الخطأ مرّاتٍ ، فلعلّها تحتملُ الصوابَ مرّةً أولَعلّها تنبّه مَن يسْتطيعُ أن يجدَ لها منزَعًا فِي « الكتاب » غير الذي وجدتَ . »[1]

مقالةُ الشّيخ هنا ليْست خبرًا أجردَ ، بل هي نورٌ يبسطُه بيْن أيدينا لنتعلمَ منه أن نجتهدَ في تبيين ما يخفَى ، فإذا ما استفرغْنا جُهدَنا وحيطتَنا في التَّبيين ، ولم يكنْ على الوجهِ الَّذي تطمئنُّ إليه النَّفسُ وتسكنُ ، ولم يكنْ في طوقِنا أفضلَ منه ، فلا نطوِي ما في أيدينا متهيّبين أن نعرضَه على النّاسِ ، بل نعرضُه لا ليحملوه عنّا حقيقةً علميّةً ، بلْ ليَنْظروا فيه ، لعلّ فيهم من يتفضّل الله تعالى

---

(١) شَرْحُ أحاديثَ منْ صَحِيحِ مسلم : ٦٢٣/٢ .

عليْه ، فيبصرُ ما فيه من عوج أو خطأ ، فيسدِّدُ ويقاربُ ، ولعلّ فيهم من يضيئ له ما فيها من خطإٍ طريقًا إلى استدراك الصّواب . فربّ خطإٍ هدًى إلى صوابٍ خيرٌ من صوابٍ أوقعَ في خطإٍ .

وَهذا من الشَّيخِ نفثة في صدورِ طلابِ العلم أن يدركوا أنـَّهم لن يكونوا دائمًا على جادة الصَّواب الصَّفاء ، وعلى متن الحقيقةِ النَّقاءِ ، فكلّ خلا المعصُومَ ﷺ يؤخذُ منه ويردّ عليه ، ويصيبُ ويخطِئُ . وحين يقُومُ ذلك في قلبِ طالبِ العلم ، يكونُ فرحُه بمن يقوِّم خطأه عديلَ فرحِه بمن يَحملُ عنه صوابَه أو أكثر ، فَلا يُعنى بتبصّرِ بواعثِ دَلالة الآخرين له على خطئِه ، فيصرفَه ذلك على أن يُفيدَ منهم ، بل عليْه أن يصرفَ قلبَه إلى ما في دلالتهم له على ما في صنيعه من الخطإِ من الخيرِ له ، فالكلمةُ الحكمة ضّالة المؤمن هو أحق بها حيث وجدها ، كما هدى إلى ذلك بيان النّبوّة . كذلك يصنعُ الشيخُ طلاب العلم ..(١)

* * *

ومن معالم البُعدِ التّربويّ في قراءتِه أحاديثَ من صَحيحِ مسلم لفتُنا إلى أن لا نفتن بقدرة العقلِ مهما بلغت فتوتُه في التَّلقّي والتحصيل والتدسّس والفهم ، فإنّه برغم كلّ ما قد يتحقق له مِن الفُتُوةِ والفحولَةِ فِي هذا فإنّ له حدًّا يَجبُ ألا

---

(١) بعضُ طلابِ العلم يضِيقُ صدرُه حين يدلّه قرينه بلْ شيخه على ما في مقالِه من مجاوزة ، فيتوهم أن ذلك ما كان منه إلا تنقصًا منه ، واستنزالا لقدره ، أو حسدًا له ، فلا يلتفتُ إلى ما في مقالة قرينه من خير له ، فيكون هو الخاسر ، وما ضرّ بهذا إلا نفسَه . وقد كان من أدب الإمام الشافعي رَضِيَ اللهُ عَنه أنّه يقول : ما ناظرت أحدًا إلا رجوت أن يظهر الله تعالى الحقّ على لسانه . فإذا كان هذا حال الشافعيّ ، فأولى بنا طلاب العلم أن نحب من يهدِي إلينا عيوبنا ، وإن فعل في جمع محشود .

يتجاوزَهُ في التأويل تجاوبًا مَعَ طاقاتِ العقلِ ، فلا يستقيمُ إطلاقُ سُلطانه فِيما هو العاجزُ عَن إدراكِه فضلاً عن تأويلِهِ .

ترى شيئًا من معالم هذا فيما عرضَ له الشيخ في تأويل قول النبيّ ﷺ : « لاَ أُلْفِيَنَّ أَحَدَكُمْ يَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رَقَبَتِهِ بَعِيرٌ لَهُ رُغَاءٌ يَقُولُ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَغِثْنِي . فَأَقُولُ لاَ أَمْلِكُ لَكَ شَيْئًا قَدْ أَبْلَغْتُكَ .... » .

هو يهدينا إلى أن لا نُوظِّفَ العقل في فهمَ ما هوغيبٌ ، وأن لا نقحمه في محاولة تصور كيفية ما أُنبئنا به من الغيب . فالعقلُ أقدر على فهم المعنى ، وأعجزُ عن تصوّر كيفيته . واستعمالُ النّعمةِ فيما خلقت له ، وصِيانتُها عن استعمالها فيما لم تخلق له هُو عيْنُ شكرِ هذِه النّعمةِ .

منفعةُ العبْدِ في العرفانِ بالمعنَى ، وليس في تصوّر الكيفية ، لأنَّ تصوّر الكيفيّة ينفعُ مَن يريدُ أن يصنعَ مثله ، وهذا ليس ممّا في طاقة عبدٍ من العالمين ، لذا منح لنا العلم بالمعنى ، وطوى عنا تصور الكيفية . صرفًا لنا عما يَشغلنا ولا ينفعنا ، في هذا ما ينفعنا في تربيةِ أبنائنا وطلاَّبِ العلم ، لا نشغلُهم بالقولِ فيما لا ينفعُهم ، فمثلُ هذا ذو ضُرٍّ بالغٍ في تحقيقِ العلم بِما ينفعُ .

وما اشتغلَ عبدٌ بما لا ينْفَعُه إلا ضيَّع بمِقدارِه أوْ أَكثرَ مِنه ممَّا ينفعُه . وتلك آفةُ كثيرٍ مِن طلاَّبِ العلمِ

هذا اللفتُ مِن الشَّيخِ يربّينا به نحْنُ طلابَ العلمِ أن لا نضلَّ في استعمال النّعمة ، وأن نكونَ على بصَرٍ بحُسن استثمار نعمةِ العقلِ والوقتِ ، فهما ممّا يُغبن فيه طالبُ العلم ، وكأنّي بالشَّيخ يهتفُ فينا : إرشادُك تلميذك إلى حُسن التَّعامل مع النِّعم ومَع الوقت والأدوات مقدمٌ على تلقينه مسائل العلم .

أنت إذا ما أحسنت تربيته وتأديبه في باب حسنِ استثمار نعم الله تعالى عليه ، فقد أعددته لأن يَنتفعَ بقليلٍ ما يمكن أن تضَعه بين يديه من العلم ،

فيستحيل القليلُ كثيرًا . وهذه مهارةٌ إذا ما اكتسبها المرْءُ وأحسن استثمارها لن يشعر بالعوز قطُّ[1].

إنَّك إنْ ملأت وعاءه (قلبه) بفيضِ الحكمة وقليلٍ من العلمِ فقد أحسنت إليه أيّما إحسان ، فَكثيرٌ من الحكمة مع قليلٍ من العلم هو الأوفرُ عطاءً وأنجع ارتحالاً ، أما إن ابتليْتَ تلميذك بكثرة حمل دقائقِ العلمِ وهو الخلاء من الحكمة ، فإنك قد ألقيت بِه من حالقٍ في مستنقع الضَّلالِ والإضلال .

هذا يفسر لك شؤم تقصير الأشياخ في تعليم تلاميذهم الحكمة ، وتربيتهم فخرج علينا طَغامةٌ من شُيوخِ الفتنة والفحشاء يملؤون وسائل الإعلام بزبد القول وحُثالته ، تشقشق ألسنتهم بكلّ ما أبصرت أعينهم على صفحاتِ الكتب ، فحملوا بغيرِ عقلٍ ونشروه بغيرِ حكمةٍ في العامة ، فزادوا النَّاسَ فتنة وضلالا . وإنّي لأخشى أن يحملوا أوزارهم وأوزار من فتنوهم وأضلوهم . فسفكوا الدماء وانتهكوا الأعراض وسلبوا الأموال ، بل وتجرَّؤُوا على الله تعالى وعلى رسوله صَلّى الله عليه وعلى آله وصَحبه وسلّم .

* * *

ومن معالم تربية الشَّيخ لنا ـ طلاَّبَ العلم ـ أنَّه أحيانا يصفُ لنا حالَه وهو يبحثُ عن الحقيقةِ ، ويكشفُ أستارَها ، ويزيلُ عنها غلالتها ، فيرسُمُ لنا بعضَ معالمِ منهجِه في الفهمِ والتَّأويل ، ما تراه وهو يحدّثك عمَّا كان ، وهو ينظرُ في أثرِ الغُلول والنَّهي ، وفِي أثرِ منع الزَّكاة ، وما واجهته به المفارقة بين حالِ

(١) لَوْ أننَا أحسنَّا قياس منازل طلاب العلم في مراحل التعليم بقياسِ قدرتهم على حسن توظيف ما معهم من العلم ، بدلاً من قياسِ مقدارِ ما معهم من العلم لكان هذا أ جدى، فبدلا من أن نسأله عن مذهب فلان في مسألة كذا نذكر له مذهبه ثم نطلب منه أن يبيّن لنا كيف يمكنه أنْ يستثمر هذا المذهب فيما ينفع .
مثل هذا يحملُ طلاب العلم على أن يجمعوا إلى حمل العلم مهارة استزراعه وإحياء مواتِه . .

أصحابِ كلٍّ ، أثارَ استغاربَه أن الغلولَ والانتهابَ وهو في مرأى العقل أشدُّ ، فيلتفتُ أولاً إلى ما بيْن الفعلين وما وقعا عليْه من مفارقة ، فالغلولُ والانتهابُ واقعٌ على مكتسبٍ من حرامٍ ، ومنعُ الزَّكاة واقعٌ علَى مكتسبٍ مِن حلالٍ . وينظرُ إلى أثرِ كلٍّ ، وكَيف أنَّ قليلاً مِن الحَرام المتمثل في مقدارِ ما مُنع من الزَّكاةِ كيف اجتاحَ ما بقي ، وكيف أنَّ أثرَ اثنين ونصف من كُلّ مئة اجتاحَ سبعًا وتسعين ونصفًا .

وكأنّ الشَّيخ يلفتنا إلى أن لا نستخفّ أثرَ القليلِ من الحرامٍ ، فإنّه ليغلبُ أضعافَ أضعافِه من الحلال ، وأنت إذا ما نظرته معادلا في واقعِ حركةِ الحياةِ ألفيْتَ أنَّ قليلاً من أحفادِ أبي لهب في الحياة يفسدُ الحياة على أضعافِ أضعافِه من غَيرهم ، فعلينا أن نبطلَ أثرَ هذه الثلة ، وإن قلَّتْ ، فالاعتدادُ بالأشياءِ ليس بكثرةِ عددِها ، وإنما بفاعلية عُدَدِها .

وهذا ملحظٌ تربويّ نبيلٌ من شيخِنا ، لأنّا قد نستكينُ حين نرَى نسبةِ الشَّرّ أقلَّ بِكثير من نسبة الخير فينا ، دون أن نلتفتَ إلى فحولةِ الشَّرّ وإن قلّ ، واغتررنا بقلّة عددِه وعددِ صَانعيه ، فلا اغترار بكثرة ، ولا استخفاف بقلة ، فيكون لسانُ حالنا يصيحُ : لنْ نُغلب اليوم عن قلة ، فيقال لنا قد أعجبتكم كثرتكم .

فإذا ما التفتنا بهذا الملحظ التَّربويّ في تلقينا البيان البليغ ، فإنّا لَنبصرُ أنّه ليْس الاعتداد في بلاغةِ البيان بكثرة الأساليب التي اتخذت في تصوير المعنى ، بل بمدى فاعلية هذه الأساليب في قلوبنا .

والّذي يفاضلُ بين الأساليب في تصوير معنى من المعاني بكثرة أساليب هذا وقلتها في هذا ، وبسطة الصُّورة هنا ، ووجازتها هناك . . . فإنّه لمْ يأخذ القسطاس المستقيم في المفاضلة .

الذين ذهبوا إلى علوّ بلاغة قول الله تعالى ﴿ وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ ۖ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ (هود:٤٤)

بوفرة الأساليب التي اشتملت عليها الآية على نحو ما ذهب إليه ابن أبي الأصبع في كتابه «بديع القرآن» في باب : «الإبداع» لم يضعوا أيديهم على معدن الحسن .

معدن الحسن ما في الآية من معالم جلال الإلهية وجمال الرَّبانية .

جلالُ الإلهية وقهرُها وسطوتُها ظاهرٌ جدًّا في الآية ، وكذلك جمالُ الرّبوبيّة . ولولا ذلك لما كان لهذه الأساليب الّتي هي مجلى هذا الجلال والجمال الكاملين قيمة في ذاتها .

ولو أنّ شاعرًا جمعَ هذه الأساليب كلها التي في الآيةِ ، وعلى المنوال نفسِه في معنى افتراه من نفسِه الشّاعرة لما رأيت فيها شيئًا ممّا أنت تراه فِي الآية من الجلالِ والجمال .

ليس مرجع الإعجاز في بلاغة القرآن إلى النَّظم من حيثُ هو ولا من حيثُ وفرة الأساليب البلاغية وتنوعها بل مرجع ذلك أيضًا إلى ما يحملُه النّظم بدءًا من بناء الجملة وانتهاء ببناءِ السورة من معاني الهدَى الممزوجة بجلال الإلهية وجمال الربوبية ، هذه المعاني هي مَعدِن البلاغة المعجزة ، وما النَّظمُ إلا مجلاها ومشهدها ومرآتُها .

والحقّ سُبْحانَه وَبِحمدِه لم يطلب منهم في التحدي الإتيان بنظم يحملُ مثل هذه المعاني بل طلب منهم الإتيان بنظم مثله يحمل معاني مفتراة (مقتطعة مقتصدة) من أنفسِهم وحياتهم ومعارفهم كالتي تجري في أشعارهم .

وهذا من التخفيف عليهم ، وبرغم من ذلك كله خاسوا وأبلسوا . فكيف إذا ما طلب منهم أن يأتوا بنظم يحمل معاني كمثل التي يحملها القرآن؟!!!

أنف الأمرِ ورأسُه أن يعتدّ بمدَى فاعلية الأسلوبِ في المعنَى وفي النَّفسِ المستقبلة ذلك الأسلوب . فقد يسبق درهم ألف درهم .

الأهمُّ هنا أنّ الشَّيخَ يقُول في تأويل مفارقة بين تصوير جزاءِ الغلولِ والانتهاب ، وجزاء منعِ الزّكاة « وقفتُ عندَ هذا الشيءِ الغريبِ ، ولم أجد له إلا تفسِيرًا واحدًا وهو محاماة ربّنا عن هذه الطَّبقة المطحونة التي تصرفُ لها أموالُ الزَّكاة . .

قلت : إنَّ السّؤال الذي عَنَّ ، وكان لا بدَّ أن يعنَّ : لماذا كانت الإبلُ المنهوبةُ مُسالمةٌ لِمن نهبها ، إذا قيسَ حالها بحال إبل مانعِ الزكاةِ التي كانتْ تطؤه بأخفافها ، وتعضه بأفواهها ؟

ولم أقرأ جوابًا لهذا . وإنما استخرجتُه . وأُضيف أنَّ الَّذي ساعدِني على ذلك هو اقترانُ الزّكاةِ بالصّلاة فِي الكتاب العزيز ، والصّلاةُ عَمودُ الدّين ، من هَدمها فقد هَدم الدّين وليس هذا أردتُ ، وإنما أردتُ أنَّ الصّلاةَ تكررتْ فِي القرآن ؛ لأنها تتكررُ فِي اليومِ خمسَ مراتٍ ، بالإضافةِ إلى السّننِ والنَّوافل ، والزّكاةُ التي تكررتْ معها لَم تتكرَّر ، وإنّما هِي كلّ حولٍ . . . فكان الذي وراءَ هذا التّكرارِ هو التذكير بِحقوق هذه الطبقةِ المطحونةِ .

إغفال هذه الطبقة وراء غضبِ الله على مانعي الزكاةِ ، ووراء تكرار لفظ « الزّكاة » واقترانه بعمود الدينِ . هذا والله أعلم . »[1]

أول ما يلقانا قوله : « وقفتُ عندَ هذا الشيءِ الغريبِ ، ولم أجد له إلا تفسِيرًا واحدًا »

تبصر دقته في عبارته : « ولم أجد له إلا تفسيرًا واحدًا » هو لم يقل وليس له إلا تفسيرٌ واحدٌ ، فهذه لا يقولها مثله .

---

(١) شَرْحُ أحاديثَ منْ صَحِيحِ مسلم : ٥٦٤/٢، ٥٦٥

هو لم ينفِ أن يكون هناك تفسيرات أخرى هو لم يجدها ، برغم أنَّها موجودة ، هو يصفُ لك حاله لا حال التفسيرات ، وفي هذا من إغراء طلاب العلم أن يبحثوا عن تفسيرات أخر وهذا يعلمنا الأمانة والموضوعيّة ، والصّدق والتواضع ، وهي من أركان أخلاقِ طالبِ العلم ، وأدبه في طلبِ العلم وفقهه ونشره ، وهو من أنفعِ ما يفتقر إلَيْه طلَّابُ العلم ، وهوالمقدم على تحصيل دقائقِ العلم ، وهو المستدام حضورُه طيلة رحلة طلب العلم التي لا تنتهي إلا بانتهاء حياة المرءِ ذي القلبِ السليم .

ويلقاك قوله : ولم أقرأ جوابًا لهذا . وإنما استخرجتُه « هو بهذا يغريك أنْ تنظر في مقالِه ، وأن لاتسلم عقلك له ، بل عليك أن تنظر فيه وتفتشه ، فإن رأيت هو الصواب فحذ وإلا فابحث عن الصواب حيثُ حلّ .

مثل هذه العبارات في كتاب الشّيخ ليس مَخرجها التفاخرُ ، معاذ الله تعالى أن يكون ، بل مبعثُها بعثُ طلاّبِ العلم ألا يأخذوا ما اجتهد فيه مأخذ الحقائق المسلّمة التي لا محيدَ لهم عنها .

ثمَّ يعمدُ الشّيْخ إلى بيانِ ما أعانَه على هذا الَّذي ذهب إليه فيقول : « الَّذي ساعدنِي على ذلك هو اقترانُ الزّكاةِ بالصّلاة فِي الكتاب العزيز . . . . « فدلنا على طريقته في استخراج المعاني مِن خلالِ النَّظر في سُنة البيانِ في استعمال المعاني واقترانها ، فهذه السُّنةُ فيها ما يُعِينُ على البَصرِ بمواقِع المَعاني بعضِها مِن بعضٍ .

ثم يأتيك بيان المفارقة بين جزاء الغلول والانتهاب ، وجزاء منع الزكاة :

الغلول والانتهابُ إنما هو من مالٍ عامٍّ فِي أصحابه من هو القويّ القادرُعلى أن يردّ الغالّ والمنتهب ، وأَن يسمَه علَى خُرطومِه ، وفوقَ هذا هُو فعلٌ ظاهرٌ ، إمَّا في أثناء مباشرةِ الغلول والانتهاب ، وإما فيما وراء ذلك . أمَّا مانعُ الزَّكاة ، فإنّه آخذُ حق فقيرٍ ضعيفٍ غير مُتعيّن ، فهُو لا يملِك القدرةَ الماديّةَ على

المطالبةِ بحقِّه ؛ لأنَّـه قد يقولُ له الغنيّ قد أعطيتُ الزّكاة لآخـرين ، وهوأيضًـا يستحيي أن يطالبَ به .

وفرقٌ آخرُ : قد يكونُ الغالُّ أو المنتهبُ محتاجًا إلى ما غلّ وانتهب ، فأخطأ الطريق إلى اكتساب ما يحتاجُ ، أمّا مانع الزَّكاة ، فإنه المستغني عن هذا القـدر الضئيل مـن المـالِ ، فلـم يسـدّ شرهه ما بقي له ، فطمِع في ما للفقير ، وتلـك لا يقدم عليها إلا مَن توغَّلت الحقارة فيه أيّما توغُّل ، فكان الجديرَ بأن يكـونَ جزاؤه كذلك .

وفرقٌ آخرُ : هذا المانع الزّكاة ليس له في نصيبِ الفقـير أدنَـى حـقّ ، فهـذا القدرُ الذي عيَّنه الشرعُ هُو ملك خالصٌ لفقيرٍ غـيرِ مُتعـيّن شَخصُـه ورسمُـه ، وأمّا ما يغلُّه الغالُّ أوْ ينتهبه المنتهبُ له فيه بعضُ حق ، ففيه شبهة ملكيّـة مـا ، كالّذي يأخذُ مِن المالِ العـامِ بغيرحـقّ ، فإنّـه لا يُسـمًّى في اصـطلاحِ الشـريعة « سارقًا » ولا يُقامُ عليه حدّ القطع ، لِما في فعلِـه مِـن شُـبهةٍ ، وإنْ كـان لـوليِّ الأمرِ العادِل أن يعاقبَه بما فوقَ القطع .. فكان مانعُ الزّكاة أحقّ بتفظيع العقوبةِ .

وفرقٌ آخرُ : مانع الزَّكاة قد أساءَ مقابلةَ نِعمةِ الله سُبْحانَه وَبِحمدِه بإكرامِه أن يكونَ هُو المؤتِي المَادَّ يمينه بالإحسَان ، وكان اللهُ جَلَّ جَلالُهُ هُو المقتدرُ علَـى أن يجعلَه هُو المؤتَى (بالفتح) ، فقابل الإكرام بقبِيح الفعل .

وفرقٌ آخرُ : مانعُ الزَّكاة أقام مَن منع عنهم حقوقِهم مقامًا فيـه مـن الهـوان والمذلة ، والألم ما فيه ، فكان عقابُه من جنسِ عملِه .

وفرقٌ آخرُ : ما منعَه المانع حسبَ ـ جهالةً ـ أنَّـه نافعه ، وأنّـه المحقـق لـه شيئا من المكانة في قومِه مهما اتسـعت رقعـتهم ، فجعلـه الله تعـالى هوالمذلَّـهُ والمهينهُ على رؤوس الأشهاد أجمعين يوم القيامة .

تتوافد عليك فروقٌ غيرُ قليلة من المفارقة بيْن الفعلين إنْ أدمْت التبصّر ممَّا يترتبُ عليه مفارقة بين الجزاءين .

* * *

ومن البُعد التَّربويّ في قراءته بيان النّبوّةِ ما يمثلُ لنا معلمًا من معالمِ شَخصيَّتِه في بَحثِه أنّه يقفُ عند ما هو متيقِّنٌ من صحةِ ما يقُولُ في تأويلِ البيانِ ، ولا يقتحمُ ما لا يقينَ عنده أنّه منسُولٌ مِن بيان النُّبوَّة ، فتراه في مواطنَ عِدّة من «سِفرِه» يؤذن فينا أنَّه لا يتبيَّن له وجهُ البيان بكذا ، أو وجه مناسبة كذا لكذا ، ولا يستحضرُ مقامَه بيْن طلابِه وأقرانِه في حجزه ذلك عن أن يؤذِّن بما أذَّن ، بل استحضارُه مقامَه فيهم يحملُه إلى أن يجهرَ بما جهرَ . فهو في تأويلِ المناسبِ بيْن آكل الرّبا والقيام من القبرِ ، وهو مصروعٌ يجهرُ بأنَّه لم يفهم المناسبةَ ، ويعلن أنَّه يَبحثُ دائمًا عن المُناسبة التي تسكن إليها النفسُ ولو سكونًا قليلاً [١]

تبصّر مقالَه هذا وكيف أنّه يعلمنا أنّ القول في العلم لا يؤخذ فيه بأوَّل خاطر ، ولا يكره النُّفوسُ والعقول والقلوب أن تأتيَ بما تسكنُ إليه . فليس المُهمّ أن تتكلَّم ، ولكنَّ المُهمّ أن يكون كلامُك ممَّا تسكن إليه النُّفوس الزَّكية . وهذا يُعلّمنا ـ نحن تَلاميذه ـ أن هنا ما يجبُ الاجتهادُ في تحقيقِ الأسبابِ الّتي تهيئنا لكشفِ وجه من وجوه هذه المُناسة ، لأنَّ المناسبة لا محالة قائمة ، بيْدَ أنَّه وهُومَن هُو لم يَجد ، فلعلَّ أحدًا من تلاميذه هوالذي يجد ، كذلكَ يحملُ الشَّيخُ تلاميذه على أن يركب متن المجاهدة من بعد أن يُحسنوا التَّهيُّئ لِذلك .

وإِعلانُ العالمِ عجزَه عن أن يُبصرَ شيئًا موجودًا حاول هو أن يبصرَه ، هو استحضارُ لعجزِه عَنه ، أن الذي يقوله إنّما يقوله بالله تعالى ، وأن الله تعالى لو خُلّيَ بينه وبين عقلِه ولسانِه لما تُحرّكا بشيْء البتة أو لما تحركا إلا بما لا تحمدُ عقباه ، وذلك صورة من صور التَّرقّي في مقام التَّسليم والعبودية لله ربّ العالمين .

---

(١) شَرْحُ أحاديثَ منْ صَحِيحِ مسلم : ٢٠١/١

وإذا ما كان أهلُ التّربية والإرشادِ في الطريقِ إلى الله تعالى يقولون : ربَّ ذنب يورث المرْء ذلاًّ وانكسارًا خيرٌ له من طاعة تورثه عجبا واستكبارًا ، فكذلك ربّ عجزٍ من العالم أو طالبِ العلم عن أن يفهم في العلم شيئًا أو أنْ يُبصرَ ما يُمكن أنْ يبصرَه مَن هُو دُونه في المقام العلمي هو أنفع له من بصرٍ بدقيقةٍ ولطيفة وغريبةٍ وشاردةٍ وآبدة قد يلقيه في مستنقع العُجب وغمط الأقران .

يعلمنا الشيخ أن يستجني من عجزنا حين نعجز زادًا في رحلتنا إلى ربنا سُبْحانَه وَبِحمدِه كذلك الشيخ يقوم فينا مرشدًا في الطريقِ إلى الله سُبحانه وَتعالى .

* * *

ومن هذا الباب ما تراه عند نظرِه في اصطفاءِ سيّدنا عبد الرحمن بن شُماسة رَضِيَ اللهُ عَنه كلمة (نقمنا) دون (كرهنا) حين سَألته سيّدتنا أمَّ المؤمنين عائشة رَضِيَ اللهُ عَنها عن أميرهم : « كيف كان صَاحبكم لَكُم في غزاتِكم هذه ؟ . فقال : « ما نقِمنا مِنه شيئًا »

يقُولُ الشّيخُ : « سألتُ نفسِي : لماذا لَمْ يَقُل ما كرِهنا مِنْهُ شيْئًا؟ ولِماذا آثرَ « النّقمة » هُنا؟ والكرْه أقل درجةً من النقمةِ ، والنقمةُ منها الانتقامُ ، وهي الكُرهُ المَشُوبُ بالغَضبِ والغيظِ والرّغبةِ فِي المعاقبةِ .

قلتْ : لِماذا آثرَ هَذِهِ الكلمة معَ أنّ قوله ماكرهنا منْه شيئًا أبينُ فِي أَنَّهمْ لم يجدوا شيئًا يكرهونه .

وَلَم أقرأ فِي كلامِ مَنْ يؤخذ عَنهمْ العلمُ ماأكتبه لك ، وليسَ أمامِي إلا أنْ أكتبَ لَك ماأراه ، وإنْ كنتُ ممّن لايؤخذ عنهم العلم . « ويمضي الشَّيْخ في بيان ما رآه من مقتضيات اصطفاء كلمة « نقمنا » دون كلمة « كرهنا » فيذهب

إلى أنه قد يكون ذلك من أنَّ السياق في حقِّ أم المؤمنين رَضِيَ اللهُ عَنها سياق حنقٍ على قتل أخيها فاصطفى أن ينفي عنهم ما هو قائمٌ فيها هي رَضِيَ اللهُ عَنها قبل أميرهم .

وقد يكون فيه إلماح من ابن شُماسة رَضِيَ اللهُ عَنه إلى أم المؤمنين رَضِيَ اللهُ عَنها أنّه وإن كان غيرنا يجد ما ينقمه عليه لأمر ما ، فإنا أصحابه في هذه الغزاة ما نقمنا منه شيئًا .[1]

هذا من الشَّيْخ يحملُ إلينا زادًا تربويًّا في تلقّي العلم يتمثل في أنّ ميراث العلماء لم يسدَّ الطريقَ أمامنا إلى أن نجتهدَ في التّبصّر فيما لم يعرضُوا له ، وأن منطق حال موروثِهم يؤذن فينا صباح مساء : كم ترك الأوَّل للآخر . فليس من أدب طلبِ العلم وخدمته أن نكتفي بحمل ما قَالوا وباجترارِه ، والسّكوتِ عما سكتوا ، بل من أدبِه أن ننظرَ في ما قالوا ، فنحمل خيرَه ونشكرَهم عليه ، وأنْ ندعَ غيره ، ونستغفرَ لهم ، وأنْ نعملَ في ما سكتوا عنه وَهُوَ غيرُ قليلٍ .

ويحملُ إلينا مقالُ الشّيخِ أهميَّة الوقوفِ على ما قالت العلماءُ أولاً مِن قبلِ أن نُعمِل قلوبنا ومهاراتِنا في الفهم والتَّأويل ، لعلّنا نجد في ميراثهم لنا ما يحسنُ أن نحملَه ، وأن نتخذه منطلقًا إلى الإضافةِ إليه ، أو نجد في مقالاتهم ما نفتقرُ إلى تفصيل مجمله ، أو تبيين مبهمه ، أو إكمال نقصِه ، أو تسديد خلل فيه ، أو إنزاله على الواقع ، أو إنزال الواقعِ عليْهِ .

أما ما أوّل به شيخنا وجه اصطفاء سيدنا ابن شُماسة رَضِيَ اللهُ عَنه كلمة (نقمنا) دون (كرهنا) فهو نظرٌ في حال أم المؤمنين رَضِيَ اللهُ عَنها من جهة ونظرٌ إلى موقفِ ابن شُماسة رَضِيَ اللهُ عَنه من حنقها لما كان رعايته حقها في أن تنقم ، ورعاية حق الوالي في أن لا ينقموا منه ما لم يفعل معهم .

---

(١) شَرْحُ أحاديثَ منْ صَحِيحِ مسلم : ٤٣٦/١

سيدنا ابن شُماسة رَضِيَ اللهُ عَنه يهدِي بما اصطفاه إلى أنَّ نقمة أمّه رَضِيَ اللهُ عَنه على أميرهم لا يحملهم على أن ينقموا منه كلَّ شيءٍ ، فذلك من الحيفِ على أميرهم ، فاصطفى كلمة (النقمة) مشاكلة لما استشعره من حال أمه رَضِيَ اللهُ عَنها ، فلفت إلى أنّه إذا كان من حقها رَضِيَ اللهُ عَنها أن تنقم منه قتل جيشِهِ أخاها ، فإن من حقِّه هو أن لا ننقم عليه شيئًا لم يفعله معهم في غزاتهم .

وهذا يعلمنا مبدأ العدل في العلاقة بالآخرين ، وألا نخلط الأمور بعضها ببعضٍ ، فإن نقمت من أحدٍ شيئًا ، فلا يجوز أن أنقم منه كلَّ شيءٍ ، فكلٌّ شيء له حكمه .

ويُمكن كذلك أن يكون سيدنا ابن شُماسة رَضِيَ اللهُ عَنه اصطفى كلمة (نقمنا) دون (كرهنا) ليكون أعظم صدقًا في وصفه الواقع ؛ لأن نفي النقمة ، لا يلزم منه نفي الكره ، فهو لم يزعم أنّهم ما كرهوا منه شيئًا ، فذلك لا يكاد يتحقق ، فليس ثَم مَنْ لا يرد عليه شيءٌ أو يكره من حاله أو قوله أو فعله شيْءٍ خلا سَيّدنا رسولَ الله صَلَوات اللهِ وسلامُه عَلَيْه وَعلَى آلِهِ وصَحبِهِ . فلو قال : ما كرهنا منه شيئا ، لكان هذا أقربَ إلى ادعاء أنَّه كان معصُومًا ممّا يُكره وإن دقّ . وهذا لا يقال ، فكان من الحيطة في البيان أن ينفي النقمة ، لأن هذا يُمكن أن يتحقق . فهو باصطفاء كلمة (نقمة) لاحظ حال الوالي ، وأنه قد يقع منه ما يكره ، ولكنه لم يقع منه ما ينقم .

وفيه أيضًا أن وقوع ما يكره من الوالي لا يدعو إلى تركه ، أمّا وقوع ما ينقم ، فقد يستوجبُ الاعتراض عليْه بالحسنى .

*   *   *

ومن معالم شخصيته التي تمثل بعدًا تربويًّا عَلِيًّا لنا اعتصامه بالحيطةِ في بحثِه عن الحقيقة وبالخشية من التقوّلِ هو حين يتبصّر حديثًا ، فيبرز له أثر الحديث في من سمعه من رسول الله صَلّى اللهُ وسلّم عَلَيْه وَعلَى آلِهِ وصَحبِهِ

أوممن رواه عن رسول الله صَلَوات اللهِ وسلامُه عَلَيْه وَعلَى آلِـهِ وصَـحبِهِ يسـعى إلى أن يعرفَ مخرج هذا الأثر وموطـنـه ، ولكنّه حينًا يستشعرُ الخشيــة مـن أن لا يكون قد نفذ ، فيحتاط .

تراه في قراءته الحديث القدسيّ:« ياعِبادِي إنّي حرمتُ الظلمَ علَى نَفسِي ... » يقف عند ما جاء من الخبر بأنَّ أبا إدريس الخـولانيّ إذا حـدّثَ بِهـذا الحـديث جثَا على ركبتيْه « قائلاً : « ومِن الأمانةِ أنْ أقُولَ لَك شَيَئًا أُحاوِلُه ، وأخشَـى أن لا أُصِيبه ، فإذا فاتنِي ، فعليْك أن تجتهدَ فِيه ، وهومحاولة الوصُولِ إلى الشّـيءِ الذي كان عندِه يَجثُو سيدنا أبُو إدريس الخُولانيّ علَى ركبتيْهِ .

وقد صَادفنِي هذا فِي كثيرٍ من الأحاديثِ الّتي كانتْ إذا ذكـرتْ بـرك بعـضُ أصحابِ رسول الله صَلّى اللهُ وسلّم عَلَيْه وَعلَى آلِهِ وصَحبِهِ ، ومثلها الآياتُ التي كان يُغشَى على بعضِهم عند سماعها .

أحاولُ الوصُول إلى الشّيءِ الّذي كان يَنفُذُ إلى قلوبهم ، فيجثُوا مَن يجثُـوا ، ويبركُ مَن يبرُكُ ، ويُغشَى على مَن يُغشَى عليـهِ ، وهـذا يحتـاجٌ إلى قـدرٍ مـن الشّفافيةِ يَهبُ اللهُ منها ما يشاءُ لِمن يشَاءُ »[1]

وغير خفيّ أنَّ مثلَ هذا الذي يكون ممّن يتلقّى هذا البيان إنمـا هـو فاعليّـة البيان في قلبٍ مؤهل للتلقّي ؛ لأنَّـه لا يفعلُ ذلك كلُّ من سمع ، فالغيـثُ هـو الغيثُ ولكنَّ الأرضَ مختلفة ، وهذا يستحضرُ في القلبِ ما رواه الشيخان مـن حديث سيدنا أَبِى مُوسَى الأشعريّ عَنِ النَّبِىِّ صَلّى اللهُ وسـلّم عَلَيْـه وَعلَـى آلِـهِ وصَحبِهِ قَالَ : « مَثَلُ مَا بَعَثَنِى اللَّهُ بِهِ مِـنَ الْهُـدَى وَالْعِلْـمِ كَمَثَـلِ الْغَيْـثِ الْكَـثِيرِ أَصَابَ أَرْضًا ، فَكَانَ مِنْهَا نَقِيَّـةٌ قَبِلَـتِ الْمَـاءَ ، فَأَنْبَتَـتِ الْكَـلأَ وَالْعُشْـبَ الْكَـثِيرَ ، وَكَانَتْ مِنْهَا أَجَادِبُ أَمْسَكَتِ الْمَاءَ ، فَنَفَعَ اللَّهُ بِهَا النَّاسَ ، فَشَرِبُوا وَسَقَوْا وَزَرَعُوا ،

---

(١) شَرْحُ أحاديثَ منْ صَحِيحِ مسلم ٢/٢٩٥

وَأَصَابَتْ مِنْهَا طَائِفَةً أُخْرَى ، إِنَّمَا هِيَ قِيعَانٌ لاَ تُمْسِكُ مَاءً ، وَلاَ تُنْبِتُ كَلأً ، فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ فَقِهَ فِى دِينِ اللَّهِ وَنَفَعَهُ مَا بَعَثَنِى اللَّهُ بِهِ ، فَعَلِمَ وَعَلَّمَ ، وَمَثَلُ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بِذَلِكَ رَأْسًا ، وَلَمْ يَقْبَلْ هُدَى اللَّهِ الَّذِى أُرْسِلْتُ بِهِ »

هذا الحديثُ القدسيّ الذي هو محلُّ النظر : (ياعِبادِي إنّي حرَّمتُ الظلمَ علَى نفسي وجَعَلْتُهُ بَيْنَكمْ مُحرّما) يعلوه ـ كمثل سائر الأحاديثُ القدسية ـ جلال الإلهيَّة ورهبوتها وجمال الرُّبوبية ورحموتها .

وهذان لهما حضورٌ مستمد من حضورهما في البيان القرآنيّ ، وهذا ما يجعلُ القول بأنَّ الحديثَ القدسيّ معناه ومبناه من الله تعالى إلا أنَّه لا يتحدّى به ، ولا يتعبدُ بمجرد تلاوته ، ولا تقام به الصّلاةُ ويأتي به الوحي عن طريقٍ غير طريق الوحي بالقرآن ، ولا تُشترط الطهارة لقراءته . . . إلخ ما يختص به البيانُ القُرآني .

* * *

على الرغمِ من أنَّ الحديثَ القدسيّ لا يتحدَّى بِه ، فإنّه عندي معجزُ ، فالمعجز أعمُّ من المتحدّى به ، فما كلُّ معجز بمتحدّى به ، ألا ترَى أنَّ هنالك معجزاتٍ لرسول الله صَلّى اللهُ وسلّم عَلَيْه وَعلى آلِهِ وصَحبِهِ لم تأت للتحدّي . فالمعجزُ هو كلُّ ما لا يُمكن أن يؤتى بِمثله من أحدٍ غيرِ الذي أتى به ، وإن لم يتحدَّ فاعله بِه أحدا ، ولم يقل هذا دليلي على صدقِي .

ألا ترَى أنَّ جميعَ شأن سَيّدنا رسُول الله صلّى الله عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ وسَلّمَ ولا سيّما في مكارمِ أخلاقِه ورحمتِه ورأفته ممَّا لا يستطيع أحدٌ البتة أن يأتي بِمثلِه ، فجميع شأنِه ﷺ هو عندِي معجزٌ ، وإن لم يتحدّ بِه ، وإن لم يقلْ مكارم أخلاقِي ورحمتي ورأفتي هي معجزتي أتحدّى بها ، وأستدلُّ بها على أنّي من عندِ الله سُبْحانَه وَتَعالَى رسولٌ إليْكم . ولكنَّ لسانَ حال هذه الأخلاق

يُؤذّن في النَّاس أجمعين أنَّ هذا من دلائل نبوته صَلّى اللهُ عليه وعلَى آلِهِ وصَحبِه وسلّم .

وغيرُ قليلٍ ممن لا يؤمنون به من أهلِ النّظر في زماننا هذا الذي ركبوا متن الموضوعية في دراسة شأنه صَلَواتُ اللهِ وسَلامُه عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ جهروا بأنه نبيّ من عند الله سُبْحانَه وَتَعالَى .

دراسة سيرته ﷺ وحركته في الحياة ، وعلاقته بالكونِ والحياةِ والإنسانِ وفي تأسيسه أمة بقيتْ قرونًا على الرَّغم ممّا يحاك لها من داخلها وخارجها ، ولو منيتْ بمعشاره أيُّ أمة لانهارت سريعًا .

لذا فإني على أنَّ الحديثَ النَّبويّ هو عندي معجزٌ ، في محموله من معاني الهدَى وفي صورة هذا المحمول ولكنّه برغمٍ منْ ذلِك لا يُتحدّى به ، ولا تجد أحدًا ذا عقلٍ وذوقٍ فِي العربية يُمكن أن يقول لك إن هنالك من يُمكنه أن يقول مثل ما قال رسول الله صَلّى اللهُ وسلّم عَلَيْه وَعلَى آلِهِ وصَحبِهِ ، ففي بيانه صَلَوات اللهِ وسلامُه عَلَيْه وَعلَى آلِهِ وصَحبِهِ أشياءُ مخرجها النّبوة ، وهذا لا يُمكِن لأحدٍ أن يحوزه ، ليكون بيانه ، كبيان سيّد المرسلين صَلّى اللهُ وسلّم عَلَيْه وَعلَى آلِهِ وصَحبِهِ .

الحديث القُدسيّ نحنُ نفتقرُ إلى دراسةٍ تُعنَى بتبصّر معالمِ الجلالِ والجمالِ في معناه ومبناه وما سِيق له . ومَدَى علاقتِه بالقرآنِ في المعنى والمبنى والمَقصِدِ ، ومَدى علاقةِ البيان النبويِّ به : أَهِيَ كمثل علاقتِه بالقُرآنِ ؟ ومَا مَعالمُ ذلك؟

إنه لبابٌ مِن العِلم وسيعٌ عميقٌ لا يَقدِرُعلى أن يأخذ بحِقه إلا صفيٌّ من أهلِ العلم والتّقى معًا ؛ فإنّه لا تكشّف أسرارُه لأمثالنا ، فغيرُ قليلٍ منه لا يُبلغُ حِماه على متنِ العلم المُكتسبِ الملقّن ، بل لا بُدّ فيه من إشراقِ القلبِ ، وطلاقة الرّوحِ ، وتلك الّتي دُونها خَرْطُ القتادِ .

إنَّ الفاعلَ في أبي إدريس الخولاني فجعله يَجثو صادف من قلبه استحضاراً لمقام الخشيةِ على مقامِ الرَّجاء ، على الرّغمِ مِنَّ أنَّ معالمَ الرّجاء قائمةٌ في الحديثِ إلا أن استفتاحه واختتامه إلى الرَّهبوتِ أقرب ، ويكادُ يكونُ جلالُ الإلهيَّةِ في قوله سُبْحانَه وتَعالَى : « يَا عِبَادِى إِنِّى حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِى وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا فَلاَ تَظَالَمُوا »

وقوله : « يَا عِبَادِى إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضَرِّى فَتَضُرُّونِى وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِى فَتَنْفَعُونِى

يَا عِبَادِى لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا زَادَ ذَلِكَ فِى مُلْكِى شَيْئًا

يَا عِبَادِى لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِى شَيْئًا

يَا عِبَادِى لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا فِى صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِى فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِى إِلاَّ كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ

يَا عِبَادِى إِنَّمَا هِىَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدِ اللَّهَ وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلاَ يَلُومَنَّ إِلاَّ نَفْسَهُ » .

أقرب حضوراً في القلبِ ، فمن لم يتبصَّر لا يستشعرُ قلبه جمال الرّبوبيّة في هذا الجلالِ .

ومن يقرأ قوله جلَّ جلالُه : « يَا عِبَادِى كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلاَّ مَنْ هَدَيْتُهُ فَاسْتَهْدُونِى أَهْدِكُمْ

يَا عِبَادِى كُلُّكُمْ جَائِعٌ إِلاَّ مَنْ أَطْعَمْتُهُ فَاسْتَطْعِمُونِى أُطْعِمْكُمْ

يَا عِبَادِى كُلُّكُمْ عَارٍ إِلاَّ مَنْ كَسَوْتُهُ فَاسْتَكْسُونِى أَكْسُكُمْ

يَا عِبَادِى إِنَّكُمْ تُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا فَاسْتَغْفِرُونِى أَغْفِرْ لَكُمْ»

يجدُ جمال الرّبوبية وعطاءَها أقرب حضوراً في القلبِ ، فمَن لم يتبصَّر لا يستشعِرُ قلبه جلال الإلهية في هذا الجمالِ . في كلٍّ يمتزِجُ الآخر ، ويتفاوتُ ظهور أحدِ المتمازِجين في بعضٍ .

ولا أعرف آيةً في كتابِ الله تعالى انفردَ فيها الجلالُ عن الجمالِ أو انفرد فيها الجمالُ عن الجلالِ ، هُما معًا حاضِران في كلّ آيةٍ ، وإن تفاوتَ ظهور حضورِهما مِن آيةٍ إلى أخرى ، فالتفاضُلُ في الظهور لا فِي الحضُور ، ولعلّ الأحاديثَ القدسيّةَ على هذا المِنوالِ .

ومن يقرأُ الحديث يجدُ أنّ جلال الإلهية في الحديثِ ليس وحدَه هوالّذي حمل على الجُثو على الرّكبتين الذي هو آية على ثقلِ ما حلّ بالجاثِي ؛ لما فيه من ثقلٍ يدركه القلبُ السليم ، بل إنَّ الجمال عاملٌ قويّ فتي في تحقيقِ هذا الجثو ، فكم من جمالٍ هو يُقيمك في مقام الدّهشِ والتبتّل .

معالم الجلال والجمال بالغة الظهورِ والفتوة في هذا الحديثِ لا يكادُ مُصغٍ إلا هو مُدرِكهما .

ألا ترى أنه حين يقرأ القلبُ السليم المعافى من داء الغفلة قول الله تعالى : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ (الفاتحة:٢،٣) وهو الذي غلب فيه ظهور الجمال على الجلال ، يستشعر هذا القلب ما فيه من الهيبةِ والمهابة والرَّهبةِ على الرغم من أنه حديث في الحمد والربوبية والرحمانية والرحيمية ومظاهر الجمال فيها ظاهرة جلية فتية ، لأنه يستشعرُ استحقاقات التَّجلّي على العبد بهذا الجمال ، وما يترتَّب عليه من تقصيرِه في الوفاءِ ببعض حقِّ هذا التَّجلّي ، فيكادُ ينخلعُ القلبُ مِن مخافةِ التَّقصيرِ ، فيَجثُو .

وهُوحين يقرأُ بعد ذلك قوله تعالى : ﴿ مَـٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴾ (الفاتحة:٤) وطابع «الجلال» فيه جدّ ظاهر ، ممَّا قد يُغفلُ عمَّا فيه من جمال ورحمةٍ وإحسانٍ ، يستشعرُ القلبُ البصيرُ هذا الجمال قائمًا في هذا الجلال . يستشعرُ أنّ اختصاصه بهذا يحملُ البشرى بأن القلب المخبتَ الأواهَ المتبتلَ سيلقَى وفيرَ الجزاءَ وجزيله ، وأن المظلوم سينتصِفُ من ظالمه ؛ لأنَّـه لن ينازع الله تعالى في ذلك أحد ، فيطمئن القلبُ أن ما قدَّمه من إيمان وعمل صالح سوف يراه . فيقوم العبد بين استحقاقات الجلال والرهب الأكثر ظهورًا واستحقاقات الجمال والرَّغب الحاضر في رحم الجلالِ والرّهبِ ، فيجمَع بين المقامين جمعًا يجمله إلى كمال التسليم والرّضا .

جُثو أبي إدريس الخولانيّ عند روايته هذا الحديث يلفتنـا إلى أنّ مثـل هـذا البيان إنما يؤتى من قبلنا نحن المتلقينه ، فنحن لا نهيّئُ قلوبنا لتلقِيه ، فيمضِي عليها كمثل ما يمضي غيره من البيان ، وهذا مما نُغبنُ فيـه ، وكـأنَّ لكـلِّ بيـانٍ منهاجَ تهيئة لما يُتلقّى بِه .

هذه التهيئةُ هي التي يَتعيَّنُ على قدرها ما يكونُ من عطاء مثل هـذا البيـان ، فالبيان العليّ الكريم يعطِيك على قدرِ اتساعِ وعائك (قلبك) وعمقِه وطهارته ، فإنَّ الماجد الكريم والجليل لا يضعُ عطاءه في وعاء غير طاهر

* * *

ومن أبرز سمات الشَّيخ العلميّـة والتَّربويّـة الحاضـرة في هـذا السّـفر أنّـه يحتفِي بالأسئلة المزعجة المستفزة المرء إلى المجاهدة في التلقّي والفهم ، فهو لا يستكين إلى هين التساؤل ، ووديعه ، هو لما بُنيت عليه شخصيته من الحزم والجدّ الذي يراه رأيَ عيْن كلّ من قاربه وعايشه .

هُو لذلك يهشّ للأسئلة العَصِيّة . يقول الشيخ : « وأنا من المولعين بـالكلامِ الذي يثيرُ الحيرةَ ، ويثيرُ أسئلة لا أعرفُ في كلام من يؤخذ عنهم العلم جوابًـا لَها . والسُّؤال عِندي غيرُ المجابُ أفعلُ فِي نفسِي من السُّؤال المجابِ »[1].

وقد تعلمت من لسان حال الشيخِ كثيرًا أنَّ الرِّجال إنّمـا ينحتـون الصَّـخر ، يتخذون من الجبالِ بيوتًا . فمن تربّى على أن يبني بيتًا من الرمـال ، فـإنّ يـدَه تَدمى حين تلامسُ الصَّخرَ .

هو بهذا يَحثّ طلابه إلى القيام لعصيّ الأعمالِ وأحمزها ، متخـذين لـذلك ما يليقُ بها من مهارات وأدواتٍ وفتيٍّ عزم ، وصـادق قصـد ، وفحيـل صُـنعٍ ، فَبمثل هذا تستعمرُ الأرضُ على وفق مرادِ الله تعالى الشرعيّ ، فتكون أهلاً لأنْ يستعمِرُ الله تعالى لنا جِنانا عنده على قدر مقامنا عنده سُبحانهُ وَتَعَالَى

* * *

ومن باب التّربيةِ والتثقيفِ النفسي ما يلفتنا إليه في قراءته قول الـنبي صَـلّى اللهُ وسلّم عَلَيْه وَعلَى آلِهِ وصَحبِهِ : « إذا توضّأَ العبدُ المسلمُ أو المؤمن ، فغسلَ وجهه . . . . » (الحديث) يلفتنا إلى أن الصحابة لايروون حديثًا عن رسُول الله صَلَوات اللهِ وسلامُه عَلَيْه وَعلَى آلِهِ وصَحبِهِ إلا وهو قائمٌ في لسانِ حالهم قبـل أن يقُوم في لسان مقالهم ، فروايته بلسـان الحـال أجلـى معنـى ، وأبلـغُ أثـرًا ، فالعلم أساسُ العمل ، والعمل أداة تبليغ العلم ، وكـأنَّ العمـلَ ، يجـزي العلـمَ على ما قدّمه له من تأسيسه على هـدًى ، ونـور ، فيجزيـه بـأن يكـون هـو أداة تبليغِه وحفظِه وتفسيرِه وتقريبه ، ممَّا يحقـق للعلـمِ حفظَـه مـن الضـياعِ ومـن الإبهامِ ومن التّخالف في فهمه .

---

(١) شَرْحُ أحاديثَ منْ صَحِيحِ مسلم : ١/٣٢٤

طريفٌ أنَّ العربية قد جعلت ما يعربُ عنه كلّ منهما من ألفاظ العربية من مادة واحدة ، (ع . ل . م) لا يختلفان إلا في ترتيب مكونات ما يعربُ به عن الآخر : (العلم) ، و (العمل)

وهذا يُبين لنا عن عظيم العلاقة بيْن العلم ، والعمل وأنهما لا يفترقان ، ولا يصلح أحدهما إلا في حضرة الآخر . ولذا وصم من أخذ العلم وترك العمل به بأنّهم (المغضُوب عليه : اليهود) ووصم من أخذ (العمل) وترك (العلم) بأنّهم (الضّالون : النصارى) ونعت الجامعين بينهما بأنَّهم (الّذِين أنَعم عليْهم : المؤمنون)

وطريفٌ أنَّ كلا قد كانت فاؤه (عينًا) وهوحرفٌ يحملُ في دلالته الجلاءَ والظهورَ والقوة وكأنَّ في هذا هداية إلى أنْ يؤسَّس العلمُ على هذه الصِّفات .

ويَأتي (الميم) وهو حرفٌ يتّسمُ بالدّلالة على الجمع والقوة ولاسيما إذا زيدَ في آخر الكلمة «اللهم»و«زرقم» ، «ابنم» ، «حصرم» ، فجعلت (الميم) لام الفعل (علم) ليهدِي إلى أهمية جمع دقائقِ العلم ولطائفه ، فمبدؤه جلاء وقوة ، ومنتهاه جمع وقوة ، وجعلت (الميمُ) عين الفعل (العمل) دلالة على وجوب قوة متنه[1].

---

(١) القولُ بأن مِن وراء ترتيب حروفِ المباني في بنية الكلمة معنًى ، لا يأخذُ بِه عبد القاهر ، ويرى في كتابِه دلائل الإعجاز أنَّ نظمَ الحُروف في الكلم لا علاقةَ له بالمعنى الذي وُضعتْ له الكلمة ، وهو في هذا على غيرِ ما ذهبَ إليْه ابن جنّي في «الخصائص»

والَّذي حمل عبدَ القاهرإلى ما ذَهبَ إليْهِ فيما يظهرُ لي أمران .

الأول : أنّ ترتيبَ الحروفِ في بناء الكلمة ليس للمتكلم فيه اختيارٌ وصنعة ، ولا يسْتدرك به صوابًا جماليًّا ، وذلك هو معيار الفضيلة ، فهذا التَّرتيب إنّما هو ميراثٌ لغوي . ==

يُقُول الشّيخُ : « ولَمْ يكنْ أبوهريرةً ، ولا غيرُه من صحابِ رسُول الله ﷺ يَروي لنا حديثًا عنْهُ إلاَّ وهومصحوبٌ بالتطبيقِ العمليّ ، لهذا الحديثِ ، لأنهم لَمْ يعلَموا مِنهُ عِلمًا إلا عَملوا بِه ، وهذه هي بِدايةُ حركةِ العلمِ فِي الأمةِ ، والّتي وضَع فيها المنهج ، وأن التطبيقَ العملي لَمْ يَكنْ ناتِجًا للمعرفَةِ ، وإنما كانتْ المعرفةُ من أجلِه . . . إلخ »[1]

والشَّيخُ حفيٌّ بأن يحثّ طلابَ العلمِ على تربية أذواقِه وصناعة معارفهم من معارف أشياخه وسلفهم ، وأن لا تكون معارفهم هي معارف الآخرين ، فمن فعل فقد ظلم . تراه وهو يشرح قول رسُول الله صَلّى الله عليْهِ وعلَى آلِه وصَحبِه وسلّم تسليمًا كَثيرا : « ما يُمكن أن يكون عندِي من خير فأدخره عنكم . . . » قائلا : « مهما أقوله لك من بلاغة وجزالةِ هذه الجملةِ ، فإنّه لن يُغني عنك شيئًا ، وإنّما أنصَحُ بأنْ تكرّر هذه الجملةَ بيقظةٍ كاملةٍ وتفريغِ خاطرٍ أو كما يقُول الباقلاني أن تصغى إليْها بِسكونِ طائرٍ ، وخفضِ جناحٍ ، وأنْ تقفَ عِندَ كلِّ كلمةٍ ، وأن تقلبها بِلسانك ، وأن تحاولَ أن تذوقها ، ولا تتركها حتّى تَجد طَعمها أو تذوقَ طَعمها ، كما يَجدُ المؤمنُ طَعمَ الإيمانِ ؛ لأنّ مُحاولَةَ تّذوّقِ مِثلِ هذا مِنْ بابِ تّذوّقِ حلاوةِ الإيمان . واحذرْ أن تعتمدَ علَى أيّ تحليلٍ فِي البلوغِ بِك إلى سِرِّ العبارةِ العاليةِ . واعلمْ أنّ أقدرَ الناسِ

== والآخر : أن هذا غيرُ مطَّرد ، فما تظهرُ حكمته قليلٌ ، وأكثرُه لا يتبين المرء حكمتَه ، وما كان كذلك فلا يحسن عدُّه من قبيل العلم القائم على أمرين كُليّين : الموضُوعية والاطراد .

أمّا نظمُ الكلم في بناء الجملة ، فذلك متحقِّقُ فيه الاختيارُ والصّنعةُ واستدراكُ صَواب ، وهوأيضًا أمرٌ مطرد .

من هنا كان موقف عبد القاهر .

(١) شَرْحُ أحاديثَ منْ صَحِيحِ مسلم : ٢٢٨/١

علَى بُلوغِ سرّها هو لِسانكَ المرتبطُ بخواطرك وبذائقتك وبحسّك ، وهذا هوالرائد الذي لا يكذبك أبدًا»[1]

تتجلى لك في هذا معالم شخصيته التربوية ، هو يضع بيْن يدك منهجًا يُمكنك أن تهتدي بشيءٍ منه ، فإذا ما عمدت إلى تجريبِ هذا الذي هداك إليه من أنْ تطعم به لذيذ المعاني وطريفها ، فإنك تقتدر مع طول دربة ، وصدق عزمٍ واتساعِ أفق معرفيّ أن تجعل لنفسك منهاجًا يلتقِي حينا مع شيءٍ من مناهجِ الآخرين ، ويمتاز أحايين عنهم ، فترى عون الله تعالى لك فيما تصنعُ . ورؤية المرء هذا فيما يصنعُ يُحبّب إليه العمل ، لأنه يرَى في صنيعه هذا ذكراه ، والمرءُ مفطورٌ على أن تكون له الذكرى الْحُسْنَى في مسِيرِه ومَصِيرِه .

* * *

---

(١) شَرْحُ أحاديثَ منْ صَحِيحِ مسلم : ١/٢٩٠

ثالثًا : البُعد البيانيّ

البعد البياني في آثار الشيخ هو البعدُ الأوفر ظهورًا وحضورًا في ما جاد به الشيخ علينا ، وإن كان البعدان الأولان : الإصلاحي والتربوي لهما في كتابه شَرْحُ أحاديثَ منْ صَحِيحِ مسلم الحظّ الأوفر ظهورًا منهما في سائر كتبِه .

البعد البياني الجماليّ[1] هو المرآة التي يهر فيها البعد الإصلاحي والتربوي

لا يكادُ يخفَى علَى مَن سَمع باسم الشَّيخِ أنّ عِماَد مُكون شَخصيتِهِ العِلميّة هو العلمُ العَريض العميقِ المتجدّد بِلسان العربيَّة في مستوياتِه الإفهامِيّة والفهميّة . من أنَّه يرَى الإنسانَ السّوي في لسانِه .

أنا صُورة منعكسة في لسانيّ ، يراني النّاس فيما يتحرك بِه لسانيّ ، فالإنسانُ السّوي إنّما يتحركُ لسانُه وفقًا لما يتحرَّكُ في قلبِه. والمَرْءُ مَخبوءٌ تحت لسانِه، والله سُبْحانَه وَتَعالَى يقُول لرسُوله ﷺ في شأنِ المنافقين :

﴿ وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَـٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَـٰهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَـٰلَكُمْ ﴾ (محمد: ٣٠)

---

(١) الجمال « هو الأثرُ الواقعُ في النّفسِ السّوية من استكمالِ تقريرِ الحق ونصرتِه ، وصِناعةِ الخيرِ ونشرِه ، فـ« الجمال » ليس قسِيمًا لـ« الحق » و« الخير » بل هُو أثرٌ من آثار استكمالِهما في حركةِ الحياة ، ولا يستشْعره إلا النفسِ السوية القائمة على الفطرة ، التي لم تلوثها الشبهاتُ والشهوات والغفلةُ والعصبية الحمقاء .
وكلُّ ماتسْتروحُه النفوسُ الملوّثة من مشاهدة أومصاحبة محسوسٍ أو معقولٍ أومصاحبتهما ولَم يكنْ ذلك الأثرُ مستولدًا مِن كمال تحقق « الحق » و« الخير » فيما تولد منه ذلك الاسترواحُ هو ليس من « الجمال » الذي يحبه الله سُبْحانَه وَبحمدِهِ

يقُول ابن القيم : « وَسَمِعْتُ شَيْخَ الإِسْلامِ ابْنَ تَيْمِيَّةَ ـ رَحِمَهُ اللَّهُ ـ يَقُولُ : عَلَّقَ مَعْرِفَتَهُ إِيَّاهُمْ بِالنَّظَرِ عَلَى الْمَشِيئَةِ ، وَلَمْ يُعَلِّقْ تَعْرِيفَهُمْ بِلَحْنِ خِطَابِهِمْ عَلَى شَرْطٍ . بَلْ أَخْبَرَ بِهِ خَبَرًا مُؤَكَّدًا بِالْقَسَمِ . فَقَالَ : وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَهُوَ تَعْرِيضُ الْخِطَابِ ، وَفَحْوَى الْكَلامِ وَمَغْزَاهُ .

وَاللَّحْنُ ضَرْبَانِ : صَوَابٌ وَخَطَأٌ . فَلَحْنُ الصَّوَابِ نَوْعَانِ .

أَحَدُهُمَا : الفِطْنَةُ . وَمِنْهُ الْحَدِيثَ « وَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَنْ يَكُونَ أَلْحَنَ بِحُجَّتِهِ مِنْ بَعْضٍ » .

وَالثَّانِي : التَّعْرِيضُ وَالإِشَارَةُ . وَهُوَ قَرِيبٌ مِنَ الْكِنَايَةِ . وَمِنْهُ قَوْلُ الشَّاعِرِ :

وَحَدِيثٌ أَلَذُّهُ وَهْوَ مِمَّا يَشْتَهِي السَّامِعُونَ يُوزَنُ وَزْنًا
مَنْطِقٌ صَائِبٌ . وَتَلْحَنُ أَحْيَانًا وَخَيْرُ الْحَدِيثِ مَا كَانَ لَحْنًا

وَالثَّالِثُ : فَسَادُ الْمَنْطِقِ فِي الإِعْرَابِ . وَحَقِيقَتُهُ : تَغْيِيرُ الْكَلامِ عَنْ وَجْهِهِ : إِمَّا إِلَى خَطَأٍ ، وَإِمَّا إِلَى مَعْنًى خَفِيٍّ لَمْ يُوضَعْ لَهُ اللَّفْظُ .

وَالْمَقْصُودُ : أَنَّهُ سُبْحَانَهُ أَقْسَمَ عَلَى مَعْرِفَتِهِمْ مِنْ لَحْنِ خِطَابِهِمْ . فَإِنَّ مَعْرِفَةَ الْمُتَكَلِّمِ وَمَا فِي ضَمِيرِهِ مِنْ كَلامِهِ : أَقْرَبُ مِنْ مَعْرِفَتِهِ بِسِيمَاهُ وَمَا فِي وَجْهِهِ . فَإِنَّ دَلالَةَ الْكَلامِ عَلَى قَصْدِ قَائِلِهِ وَضَمِيرِهِ أَظْهَرُ مِنَ السِّيمَاءِ الْمَرْئِيَّةِ . وَالْفِرَاسَةُ تَتَعَلَّقُ بِالنَّوْعَيْنِ بِالنَّظَرِ وَالسَّمَاعِ .

وَفِي التِّرْمِذِيِّ مِنْ حَدِيثِ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : « اتَّقُوا فِرَاسَةَ الْمُؤْمِنِ . فَإِنَّهُ يَنْظُرُ بِنُورِ اللَّهِ ». ثُمَّ تَلا قَوْلَهُ تَعَالَى : ﴿ **إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ** ﴾ (الحجر:٧٥)

وَهَذِهِ الْفِرَاسَةُ عَلَى حَسَبِ قُوَّةِ الإِيمَانِ . فَمَنْ كَانَ أَقْوَى إِيمَانًا فَهُوَ أَحَدُّ فِرَاسَةً .

قَالَ أَبُو سَعِيدٍ الْخَرَّازُ : مَنْ نَظَرَ بِنُورِ الْفِرَاسَةِ نَظَرَ بِنُورِ الْحَقِّ ، وَتَكُونُ مَوَادُّ عِلْمِهِ مَعَ الْحَقِّ بِلا سَهْوٍ وَلا غَفْلَةٍ . بَلْ حُكْمُ حَقٍّ جَرَى عَلَى لِسَانِ عَبْدِهِ . » [1].

وقراءةُ البيان البشري المَحضُ إنّما هي قراءةُ الإنسان السّوي :

الإنسانُ السّويّ إنْ هُو خاطبك ، فإنّما أَذِنَ لك أن تقرأه . قد وضعَ في يدك مفاتح مغاليق قلبِه ، مثلما أذنتَ أنتَ له حين أصغيتَ إليْه أن يتولّجك وأن يغزوَك ، وأنْ يفعلَ بكلمته في فؤادك ما يُريد .

وتلك خطورةُ الكلمة مقولةً ومسموعةً ، وما تهاون النَّاسُ فِي شيْءٍ ممَّا يملِكون تهاونَهم في الكلمة . إنّ الإنسان لظلومٌ كفَّار .

الشّيخُ هو الحفيُّ بالكلمة يتلقّاها ، ويُحسِن اختيارَ مَن يتلقاها مِنهم ، ويلقِيها في الفؤاد نوراً يُضِيءُ حناياه ، وسيفًا يبتُرُ به منه عوائقَ الحقّ .

وأنتَ تُبصرُ مقالَ الشَّيخِ في الكلمةِ الّتي يَسمعُ أو يَقرأُ تكادُ تَراه يَتلقاها بكلِّ مُدركاتِه : يتلقاها بِسمعِه ، وبَصرِه وشمِّهِ ولَمسِهِ وذَوقِه النّفسيّ والعقليّ والقلبيّ والرّوحي ولا سيّما حين تكون الكلمةُ من أفق الوحي قُرآنًا وسنّة .

ومن ثَمَّ ترَى الأبعاد الجمالية المكنونة في الكلمة الَّتي يقرأُ والتي يسمعُ قد تكشفت له ، فبسطَ تلك الأبعادَ لسَامِعيهِ وقُرّائِهِ .

ذلك أَنّ الكلمةَ الّتي اصطنعها قلبٌ مُعافَى مِن نواقضِ الآدميّةِ في صَاحبها إنّما هي ضَريعُ المرأة المُسلِمة : لا تكشفُ عن شيْءٍ من معالمِ حسنها إلا لِمَن ملكَ الحقّ في أن يُكشف له بعضُ هذا الحسنِ أو كلّه ، ويكون كشفُه حينئذٍ تعبّدًا . الكلمةُ المحرّرة كذلك .

---

(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين . تأليف : ابن قيم الجوزية : محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد(ت : ٧٥١هـ) تحقيق : محمد المعتصم بالله البغدادي . ط(٣) عام : ١٤١٦هـ . نشر : دار الكتاب العربي ـ بيروت . ٤٥٢/٢

ومِن ثمَّ تجدُ كلّ كلمةٍ نبيلةٍ هِي التي لا تمتَنع مِن أن تبذلَ للشيخِ حسنَها، وإحسانَها إليه جزاءً وفاقًا لإحسانِه إليها.

والشيخُ حاضرٌ في قلبه وصنيعه مقالة أبي حمد الخطابيّ (ت: ٣٨٨هـ) فأَمَّا مَن لَم يرضَ مِن المعرفةِ بظاهرِ السِّمةِ دون البحثِ عَن باطنِ العِلّة، ولم يقنع في الأمر بأَوائل البرهان حتَّى يَستشهدَ لها دلائلَ الامتحانِ، فإنَّه يقولُ إن الّذي يُوجدُ لهذا الكلامِ مِن العُذوبةِ في حسِّ السّامعِ، والهَشاشةِ في نفسِهِ، ومَا يتحلَّى بِه مِن الرَّونقِ والبَهجةِ الَّتي يُباينُ بها سائرَ الكلامِ حتَّى يكونَ له هذا الصَّنيع فِي القُلوبِ، والتَّأثيرُ في النّفوسِ، فتصطَلحُ من أجله الأَلْسُن على أنه كلام لا يشبهه كلام، وتَحْصَرُ الأَقوال عن معارضته، وتنقطع به الأَطماع عنها، أَمر لا بد له من سبب، بوجوده يجب له هذا الحكم، وبحصوله يستحق هذا الوصف»[1].

وحاضرٌ في قلبِه وصنيعه مقالةُ عبد القاهر: «لا يكفي في علمِ «الفصاحةِ» أن تَنْصُبَ لها قياساً ما، وأن تَصِفها وصْفاً مُجْملاً، وتقولَ فيها قولاً مُرْسَلاً، بل لا تكونُ مِن مَعرفتها في شَيءٍ حتى تُفصِّل القولَ وتُحصِّلَ، وتضعَ اليدَ على الخصائصِ التي تَعْرِضُ في نَظْم الكَلِم وتَعُدُّها واحدةً واحدة، وتُسمّيها شيئاً شيئاً، وتكونُ معرفتك معرفة الصنع الحاذق الذي يعلم علم كل خيط من الإبريسم الذي في الدِّيباج، وكلَّ قطعةٍ منَ القِطَع المنجورة في الباب المقطع، وكل جرة منَ الآجرِّ الذي في البناء البديع»[2]

كان صنيعُه مع فقه خصائصِ البيانِ النبوي في هذا الكتاب مطيَّةً إلى فهم

(١) بيان إعجاز القرآن تأليف أبي سليمان الخطابي (م. س) ص: ٢٥، ٢٦

(٢) دلائل الإعجاز: ص ٣٧ فقرة ٢٩

ما يحمله هذا البيانُ من مقوماتِ صِناعة الإنسانِ الصّالحِ المُصلِحِ ، كما أشـرتُ قبل في البعدِ الإصلاحيّ .

إنْ أردتُ أن أضعَ بينَ يـديك هـذا الَّـذي أبصـرته في قراءتـه أحاديـثَ مـن صَحيحِ مسلمٍ كان الأمر متكاثرًا تكاثرًا يُقيمني في الحيرةِ الّـتي لا مخـرجَ لِـي منها إلا الاحتماءَ بضِيق المقام عَن البَسطِ .

*　　*　　*

ولعل الأولى بأن أستفتح به عنايةُ الشيخِ بإبرازِ معالمِ البلاغـةِ النّبويـة ورسـم حِليَتِها : ممّا يحتفِي به العقلُ البلاغي في قراءته وتذوقه أيَّ بيانٍ عالٍ أن يرصُدَ مـن خـلالِ تفرُّسِ البيانِ ومفاتشـتـه والانديـاح فـي تجاويفه وسراديبـه معالمَ ما يُمكِن أن نسميَه السُّنة البيانية (الإفهامية) لِصَاحب هـذا البيـان ، فلكـلّ بليـغٍ خصائصُه البيانيّةُ التي ترسُم معـالم شخصـيته بليغًـا ، فمِـن الأُسُـسِ الكُليّـة أنَّ للبليغِ منهاجَ إبانةٍ يُنسَج على منوالِه ، وسنة بيانية يتعبّدُها .

إنَّ كلَّ بليغٍ بيانُه وليد عقلِه وقلبه ، يجـرِي علـى لسـانِه ، ولأولـي البَصـائرِ النّافذةِ في البيانِ ولأمراءِ مَهارة التَّلقِّي والفَهم قُدرةٌ على الاستِكشَافِ المُبينُ مـن بيانِه .

والنَّاقدُ البَصيرُ مُقتدرٌ على أنْ يتبيَّن الشَّاعِرَ مِن شِعره ، وأنْ يفصلَ في قضيّة تَوثيقِ النّصّ لِصانعِه .

وكذلك أنت واجدٌ علماء البيان النّبويّ لهم قدرة عالية على نقد متن الحديثِ، يتبين لهم وثاقة رفع هذا البيان لِمقامِ النّبوَّة أو عدم وثاقتها،وهو بابٌ من العلم، لا يتوقفُ على الجانبِ الكسبيّ من العلومِ ، بل لا بُدّ أن يَمتـزجَ بهـذا الجانـبِ الكسبيّ جانبٌ وهبيٌّ هو أقربُ إلى الفراسةِ ، فكأنَّ صَاحبَه من طول المُخادنـةِ

العقليَّةِ والنّفسيَّةِ والسُّلوكيَّةِ لبيان النُّبوّة تلمَح بَصيرتُه مَدَى حُضورِ نُورِ النُّبوّةِ في البيان[1] .

الشَّيْخُ حَفيّ بِلفتِنا إلى المعالمِ الكُبرَى لِمنهجِ النّبوّة فِي الإبانَةِ عَن المَعـانِي ، مشيرًا إلى الباعثِ علَى سُلوكِ هذا المَنهجِ فِي الإبانةِ عَن المعاني .

وممَّا هو أصلٌ في هذا اليقين بأنَّـه لما كانت البعثة المحمّدية رحمةً للعالمين ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴾ (الأنبياء:١٠٧)[2] كان مـن مقْتضـيات

---

(١) جرت دراسات عديدة في هذا الباب منها :

« جهود المُحدّثين في نقد متن الحديثِ النبوي . تأليف محمد طاهر الجوابي ، نشر وتوزيع مؤسسات محمد بن عبد الكريم بن عبد الله بتونس . ط(١) ١٩٩١م

« مقاييس نقد متون السنة . تأليف . مسفر بن غرم الله الدميني . الرياض ـ السعودية ـ، ط١ ، (١٤٠٤هـ)

(٢) جاءت هذه الآية في رأس المعنى القرآني وشرفه في سورة معقودة لـذكـرالأنبيـاء ، وما كانت رسالتهم قائمة عليه ، وقد استفتح البيان بأبي الأنبياء عَلَيْهم الصَّلاةُ والسَّلامُ : سيّدنا إبراهيم عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ ـ وختمه بمريم وعيسى عَلَيْهِما الصَّلاةُ والسَّلامُ . ولم يَكن نسقُ ذكرالأنبياء في السُّورة على وفق نسق أزمانهم بل من وراء ذلك حكمة نحن نفتقرُ إلى أن نحوم حول حماها .

ولمَّا جاء ذكر سيّد الأنبياء قال هذه الآية : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴾ (الأنبياء:١٠٧) دلالة على أنّـه إذا ما كان كلُّ نبيّ هورحمة لمن كان في زمانِه حتى يأتي نبيّ آخر ، فإنك أنت الرّحمة للعالمين كلّ العالمين حتى يدخل أهلُ الجنةِ الجنةِ وأهل النار النار ، فما من أحدٍ من العالمين إلا وله نصيبٌ من الرحمة التي حملها إرسالك .

وفي هذا إنباءٌ بأنّ مَن لمْ يأخذْ بنصيبه من تلك الرّحمةِ فهو الغابنُ نفسِه الظالمُها ، وليس أحمق ممّن يغبِن نفسه ويظلمَها ، فهو لغبن غيره وظلمه أشدُّ وأعظمُ . فهو الأجدرُ بالفرار منه ، فمَن حام حولَه فقد ظلم ﴿ وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴾ (هود:١١٣)

ذلك أنْ يكون بيانه بيانًا لا يسْتغلق على أحدٍ من العالمين أن يتبصر فيه منهجَه وطريقه إلى مرضاة ربـه سُبْحانَه وَبِحمـدِه ، فبيانُـه صـلّى الله عَلَيْـهِ وعَلَـى آلِـهِ وَصَحبِهِ وسَلّمَ لكلّ عصْرٍ ومصْرٍ وجنْسٍ حتـى يَـرثَ اللهُ تعـالى الأرضَ ومـن عليْها ، فلا يكون زمانٌ أوحالٌ إلاَّ وله في بيانِه غذاءٌ وشفاءُ ، ومخرجُ ممَّا يـرادُ الخروجُ منه مِن الباطل والشّرّ والضُّرّ ، ومَدخلٌ في ما يـرادُ الـدُّخولُ فيـه مـن الحقّ والخير .

وعلى من شاء فهم عالمية بيانه صلّى الله عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ وسَلّمَ أن يفتش فيه عما هو جوهريّ يجمعُ ولا يفرقُ ، يسـوق العبــاد إلــى الغـايــة ، ولا يشتتهم في السّبلِ . فيجِدُ كلُّ متبصّرِه أنـّه صلّى الله عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ وسَلّمَ يُخاطبه هو في عصرِه ومصرِه ، ولو كانت طلاقاته التخيّلية فتِيّة صـادقة لكان بِملكه أن يراه صَلَواتُ اللهِ وسَلامُه عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ في عقلِه قائمًـا يخاطبه ويشيرُ إليه وعليْه ، فلا يسـتوحش ، ولا يطلـب غـيرَه مخلصًـا وهاديًـا ومُنقّذا .

يقُول الشَّيْخُ : « لمَّا اقتربتُ مِنْ كلامِ سيّدنا رسُولِ الله صلّى الله عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ وسَلّمَ بالتحلِيلِ وجدتُ كَلامَهُ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ كأنـّه يقُولُه لنا بعدَ ما رأى الّذي نحنُ فيه ، وأنـّه عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ كان يضعُ الدّواءَ لأدوائنا ، وكَأنـَّه بيْننا وينادِي فِينا بِما يُخلصُنا من الأهوالِ المُحيطةِ بِنا »[1]

---

(١) حرَى أن نفرق بين الموقف من الحقيقـة : الإسـلام هوالنـور هـو الحـلّ هـو الكهـف ، والموقف ممن يتخذ ذلك شعارًا ، فيتعثرُ في تحقيقه أو يضلّ سواء كان ضلالَ مبعـثٍ أو مسلكٍ .

مناهضة من ينهض لهذه الحقيقة بدعوَى أنـّه يتـاجرُ بهـا أو يتسـتر تحتهـا لايجـب أن يُتخذ ستارًا لمناهضة الحقيقةِ نفسِها ؛ ، لأن مناهضتها إنما هي مناهضة الوحي قرآنًـا وسنة . وذلك هو الكفرُ البواح .

وهذا من الشَّيخ فوقَ أنَّه يحملُ نوراً يضِيءُ السَّبيلَ لمن أرادَ المَنْجَى ، هو يُنْزِلُ سيْفًا على أعناقِ أولئك الَّذين يتربّصون بالحقيقة الّتي لا تقبلُ نقدًا ولا نقضًا ؛ لأنّها الحقُّ المطلق : الإسلام كما جاء به بيان الوحي قرآنا وسنة هُو النّور وهو الحلّ لكلِّ مُعضلةٍ في كلّ مجالٍ من مجالاتِ الحياة،وهو المخلّص، وهو الكهفُ ، وهو الغيث ، وهو السبيل والمنهاج إلى كلِّ ما يريدُه كلُّ عاقل لنفسِه وقَومه ووطنِه ، فمَن توقفَ في ذلك ، فأهلٌ لأنْ يُجاهد بما يليقُ بحالِه ، فكيف بمن تردَّد أو ردَّ ، فكيف بمِن عاند وعادَى ؟!!!

ومن ثَمَّ أكّد شيخُنا أنّ من خصائصِ هذا البيانِ النَّبويّ أنّهُ ممسكٌ دائمًا بالجوهرِ الذي هوأقربُ إلى فطرةِ الأشياءِ ، وليسَ مُمسِكًا بالعرضِ المتغيّرِ ، فحديثُه عليهِ السَّلام عن الرجلِ الذي «الخيلُ له أجرٌ» كان ممسكًا باللبِ الذي هو الدّفاعُ عن الأمةِ ، وليست الخيل إلا وسيلةً من هذه الوسائلِ المتغيرة ، وهكذا . . .

فبيانه إنّما هو للأجيالِ كلّها في الأزمنة كلها ، وفي الأمكنة كلها[1] وما كان كذلك لا يستقيم له أن يشغل بما هو عرضٌ ، لأنّه متغيرٌ والأجيال والأعصار والأمصار متغيرة ، فاقتضَى عمومُ الرّسالة وخلودُها ألا تشغل بما يُمكن أن يكونَ في قومٍ أو زمانٍ أو مكان دون غيرِه . فكان بيانُه مطابقًا لمقتضَى الغاية التي كان لها ، ومطابقًا لحال من يُخاطبُ بهذا البيان . ومطابقًا لحالِ البيانِ نفسِه من أنَّه بيانٌ خالدٌ سابغٌ مُحِيطٌ بأمّته كلّها في كلِّ عصْرٍ ومِصْرٍ[2]

---

(١) شَرْحُ أحاديثَ منْ صَحِيحِ مسلم ٦١٢/٢ .

(٢) البحثُ عن معالمِ هذه المطابقة في بيانِ النبوة مما نحنُ مفتقرون إلى الوفاء ببعضِ حقه في دراساتنا ، ولا سيّما مطابقة حال عمومِ الرسالةِ وسبوغها العالمين . فالبحثُ عن عوامل اتساع دلالة بيانه لما هو حاجات كل عصر ومصر وجنسٍ من العمل الحميز اللذيذ الذي يسْتشرفُ له الفحول من طلابِ العلمِ .

كذلك استخرجَ الشَّيخُ حِليةَ البيانِ مِن جوهرِ رسالتِه ، وكأنَّ الشَّيْخَ يُعلِّمنا أن الإبانةَ عَن مَكنونِ الصُّدورِ وإيصالَه إلى القلوبِ ليْس عمَلاً عَفويًّا تصوُّرًا وتصويرًا ، بَلْ هُو أقربُ إلى أن يكونَ غزواً للصُّدور أو تدسُّسًا في القلوبِ المغلقة الأبوابِ ، ومثلُ هذا يَستوجِبُ مِن صَاحِبِهِ أن يُعِدَّ العُدّة للوفاءِ بحقِّ هذا العملِ : يستوجبُ أنْ يكونَ البيانُ في بنائِه وتشكيلِه ومستوَى دَلالتِهِ وما يحملُه مِن المعاني متوائمًا ومتآخيا مَع مَن نصنع لهم هذا البيان ومع الغاية التي يصنع البيان لها ، وهذا لا يكون إلا إذا كان المُبين قد وقف على حال من يُخاطبه وعلى طبيعة الرّسالةِ التي يريدُ إيصالها إلى قلبه ، فالبيانُ عملٌ شاقٌّ ، وليس مجرَّد خُطور معنى في القلبِ ، وإطلاق الّلسان بالألفاظِ ، إنَّه تخطيطٌ وتدبيرٌ وإعدادٌ . ولذا يستغرقُ الكلام البليغُ في مرحلةِ إعدادِه وتصوُّره في النَّفسِ أضعافَ أضعافَ ما يستغرقُه في مرحلةِ تصويرِه وجريانه على اللسان .

يقُول عبد القاهر : « وأنَّك تَتوخَّى الترتيبَ في المعاني وتُعْمِلُ الفكْرَ هناك ، فإذا تَمَّ لك ذلك أَتْبَعْتَها الألفاظَ وقَفَوْتَ بها آثارَها ، وأَنَّك إذا فرَغْتَ من ترتيبِ المعاني في نفسِك ، لم تحتجْ إلى أن تستأنفَ فكْراً في ترتيبِ الألفاظِ ، بل تَجدُها تَترتَّب لك بحُكْم أنها خَدَمٌ للمعاني ، وتابعةٌ لها ، ولاحِقةٌ بها ، وأن العِلْم بمواقعِ المعاني في النُّفس ، علمٌ بمواقعِ الألفاظ الدَّالة عليها في النّطق »[1]

* * *

وممّا يلتفنا إليه من معالم حلية بيان النبوة أنّه لما كانت رسالة النبوة التبليغ وإيصال الهدى إلى القلوبِ إعذارًا لكلِّ من يسمعُ استوجب هذا أن يجري البيان على منهاج يُحقق هذه الرِّسالة . من معالم هذا المنهجِ جريان المعاني الرئيسة المَركزيّة على منوالٍ واحدٍ أوعلى أكثر مِن مِنوال متقاربة أو متلاحظة .

---

(١) دلائل الإعجاز : ص : ٥٤ فقرة : ٤٧

يقول الشيخُ : « قُلتُ إنّ بلاغةِ بلاغِ رسُولِ اللهِ صَلّى اللهُ وسلّم عَلَيْه وَعلَى آلِهِ وصَحبِهِ فيها عنصرٌ بالغُ الأهميّةِ طالما أغفلناه ، وهُو عرضُ بيانه عليه السلامُ فِي صُورةٍ يسهلُ معها ، وبها حفظُ بيانِه ، وبلاغِه ، ومن أهم البلاغِ أن تيسر حفظه ، وتيسّر ذكره .

وقد نبهتُ إلى ذلك في حديثِ « لا ألفين أحكم يجيءُ يوم القيامةِ . . » ورأينا أن تكرارَ الفقراتِ التي بُني عليْها الحديثُ كان مِن أهمِّ أسبابِ تيسيرِ حفظِهِ مَع اختلافِ المعنَى ، وتنوعها ، وأنّ تكرارَ الصّيغِ والجُملِ والفقراتِ لَم يكنْ تكرارًا فِي المعنى ، وإنّما هو تكرارُ المنوالِ الغالبِ الذي بُنيت عليْه المعانِي »[1]

ويمضِي الشَّيخُ لِيقرِّر كُليةُ تتمثَّلُ في قوله : « اعلم أنَّ البيان يتشابَه كما تَتشابُه الوُجوه ، وتتغايرُ كما تتغايرُ ، وقد رأيتُ ذلك في الشِّعرِ . . . فإذا انتقلتُ إلى الكتاب العزيزِ وجدت عالمًا آخر من التَّشابُهِ والتّغايرِ ، ووجدت فواتح السّور كأنّها رموزٌ وإشاراتٌ إلى ضروبٍ من التَّشابهِ . . . ومِن هذا الَّذي راقني وراعنِي أنّي أجدُ السُّورتينِ تبتدئان بكلمةٍ واحدةٍ مُفردةٍ ، وكأنَّها غمزةُ عينٍ خاطفةٍ توجّهك إلى أختها كما نرى في (اقترب) التي بدأتا بها « الأنبياء » : ﴿ **ٱقۡتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمۡ وَهُمۡ فِي غَفۡلَةٖ مُّعۡرِضُونَ** ﴾ (الأنبياء:١) وابتدأتْ بها « القمرُ » ﴿ **ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ** ﴾ (القمر:١)

وأنا أشيرُ إلى التّشابهِ البعيدِ متجاوزًا ما ذكره علماءُ التَّشابُهِ اللّفظِيّ والرَّوابط الّتي بيْن السُّور المبتدئة بـ« الحمد » أوالسّور المبتدئة بـ« حروفِ المعجم » أو السّورِ المبتدئة بحروفٍ واحدة من المعجم مثل « الم » إلى آخره .

وأزعُمُ أنَّ هذا الحَقل مِن حُقُولِ معرفةِ البيان لَم يُدرس لا فِي الشعرِ ، ولا في القرآن ، ولا في كلامِ رسُولِ الله صَلّى اللهُ وسلّم عَلَيْه وَعلَى آلِهِ وصَحبِهِ ،

---

(١) شَرْحُ أحاديثَ منْ صَحيحِ مسلم : ٢/٥٦٥

وقد درسْتُ « آل حم » فِي أربعةِ مُجلدات ، وظهرَ لِي أنّـها بِمثابةِ سُورةٍ واحدةٍ ، وأنَّ قصصها جاءَ علَى نسَقٍ واحدٍ مِن التّرتيبِ إلى آخره »[1]

مِن المُهمّ الالتفاتُ إلى أنّـه إِذَا ما كانت هنالك كُليات قائمة في بيان ، فإنّها أجدرُ بأن تكونَ محلّ مباحثة وتفتيشٍ ، وأن تُبسط فيها البحوثُ الجادة ؛ لأنَّـها كليّة تشكّل محوراً رئيسًا تتلاقَى عليه فنونُ البيان في مستوياتٍ عديدة .

أنتَ تجدُه فِي الكلمةِ الإنسانِ شعرًا ونثرًا ، وفي الكلمةِ الرّسالةِ ، وفي الكلمةِ القُرآن . وما كان كذلك كان جَديرًا بأن يُحتفَى به ، وأن تحتفلَ الجُهودُ الجادّة الفتيّة للوفاءِ ببعضِ حقّه . فحُسنُ البَصرِ به في فنّ يَصلحُ أن يكونَ مِفتاحًا لحُسن البصرِ به في فنٍّ آخرَ .

إنَّـا إنْ أحسَنا بصرَه في الكلمةِ الإنسان ، فإنَّـه لا محالة سيُعِينُنا هذا على مقاربة إِحسان البصرِ به في الكلمة النُّبوة ، ثم في الكلمة القرآن .

ومن العَلِيِّ في اكتسابِ المهاراتِ في التَّلقّـي والفهـمِ أن يبـدأَ المـرْءُ بإتقـانِ مهارة التّبصر والفهم لما هو كليّ في أنواع البيان ، سواءٌ كان بيانًا بشريًّا محضًا أوكان بيانَ نبوةٍ أو كان بيانَ قرآن ، ذلك أنَّ مِنهاجَ البيان النَّبويّ والبيان القرآنيِّ لم يفارق البيان الإنسانيَّ مفارقةً كامِلة ، بحيـث لا يلتقيـان ، فَـذلك يـؤدِّي إلى استحالةِ أن يُحسنَ النَّاسُ تلقي بيانِ الوحْي أو إلَى تَعسُّر تلقيـه ، والله سُبْحانَه وَبِحمدِهِ يقُول في سورة القمر أربع مـرات : ﴿ **وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ** ﴾ (القمر:١٧، ٢٢، ٣٢، ٤٠)

ومِن سبلِ تيسِيره أن جاءَ به على مِنـوال مقـاربٍ لمنـوالهم في الإبانـة ، فلـم يخرق منهاجهم في بناء المعنى وصورته ، فإعجـازه البيـانيّ لا يتمثـلُ في أنّـه خرق سنتهم البيانية في بناء صُورة المعنى ، وإنما في اصطفاء السَّبيل الأكمل في هـذا البنـاء ، وعصمـة هـذا البناء عـن أن يحوم حوله أدنى خطـإٍ أوضـعف ،

---

(١) شَرْحُ أحاديثَ منْ صَحِيحِ مسلم : ٢/٢٦٦-٢٦٧ ، وانظر معه : ٢/٥٨٧ ، ٥٩٣

أو يكون في شيْءٍ منه ما غيره أولى به كَلِمًا مفردًا أو تركيبًا ومنهاج تصوير ودلالة وإفادة، أو أن يوضعَ في سياق آخر، فيجري فيه كجريانِه فيما كان فيه. فكلُّ كلمةٍ أوجملةٍ أو آيةٍ وما فوق ذلك لو نُزع من سياقه وأقيم هو في سياق قرآنيٍّ آخر لتبين عوار ذلك الفعل لكل ذي بصيرة.

* * *

وممّا هو قريبٌ من هذا في بيان حلية بيان النُّبوّةِ أنَّ هذا البيانَ ينسجُ على نهج يُعين على الحفظِ، وهو من عوامل خفةِ بيانه ونعمومة بيانِه وقربِه من القلوب والعقول على نحو ما تراه فيما يُعرف عند البلاغيين بـ« مراعاة النَّظير » فذلك كثيرٌ في كلام النّبوّةِ وكذلك هو مع تعدّده متنوعٌ في صُورِه، جمَع بين كثرته وتنوعه في صوره، وفي مستوياتِ تحققه، فلم يقتصر فيه على مستوى تناظر الكلم، بل تجاوز ذلك، فأنت « تجدُ رحمًا جامعةً لكثيرٍ من كلامِه، وهي رحمٌ موصُولةٌ غيرُ مقطوعةٍ، وكأنها صُورة لقلوبِ أمّتِهِ، فتآلفتْ، ومن العجيبِ أن تَجِدَ التَّآلفَ فِي اللبِناتِ الّتِي بُني مِنها البيانُ الّذِي يَدعُوالأمّةَ إِلَى أن تَتَآلَفَ وَتتقاربَ، وتَتَساندَ كَما تَألَفَتْ هَذِهِ الكلِماتُ وتَقَارَبَتْ وَتسَاندتْ، وهذا مِمَّا يُمكنُ أنْ يَكونَ مِن تصاقبُ المبانِي لتصَاقُبِ المعَانِي، وكُلّما غَلغَلتَ النّظرَ فِي كَلامِهِ صَلّى الله عليْهِ وعلَى آلِه وصَحبِه وسلّم تسليمًا كَثيرا وَقعتَ عَلَى خَبايا فِي الزّوايا »[1].

ويقرّرُ الشيخ سِمة بناء بيانِ النّبوّة على نهجٍ يُعينُ على حفظِه وحضورِه في القلبِ لِيحقق رسالته، وهو بصدد قراءة الحديث القُدسيّ: « ياعبادِي إِنّي حرمتُ الظلم على نفسي » فيلفتنا إلى « أنَّ المعانِي الّتي يراد لَها أنْ تَشِيعَ فِي الأمّةِ، وأن تكون أصلاً مِن أُصُول ثَقافتها يلاحظُ فيها التيسير »[2].

---

(١) شَرْحُ أحاديثَ منْ صَحِيحِ مسلم: ٢/٦٧٢، ٦٧٣

(٢) المرجع السابق: ٢/٦٩٠،٦٩١

فهذا من فيضِ رأفـةِ رسُول الله صَـلّى اللهُ وسـلّم عَلَيْـه وَعلَـى آلِــهِ وصَـحبِهِ بالأمّةِ ، وهو تطبيقٌ عملي لهديِه صَلّى اللهُ وسلّم عَلَيْـه وَعلَـى آلِـهِ وصَـحبِهِ في باب التيسير والتبشير .

روى الشـيخان البخـاري في كتـاب (العلـم) و(الأدب) ومسـلم في كتـاب (الجـهاد والسـير) مـن صحيحهـما عَـنْ أَنَـسٍ عَـنِ النَّبِـىِّ ﷺ قَــالَ « يَسِّــرُوا وَلاَ تُعَسِّرُوا ، وَبَشِّرُوا وَلاَ تُنَفِّرُوا».

وإِيراد البخاري لهذا الحديث فِي باب (العلم) مـن دقِيـقِ فقهـه ، فكـان مـن تيسير رسول الله صَلّى اللهُ وسلّم عَلَيْه وَعلَى آلِـهِ وصَحبِهِ في العلـم أن يجعـل العِبارة عنه سهلةً يسيرة الحملِ والفقهِ ، فلم يُعـرف عنـه الإغـراب علـى عظـيم اقتداره ، وكان يخاطبُ كلا بما يفهمُ رحمة بهم .

* * *

ويلفتنا الشيخُ إلى خاصّة من خصائص بيان سيّدنا رسُول الله صلّى الله عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ وسَلّمَ لا تجاوز إدراكها عين أوأذن ، وإن تجاوزتْها القلوب فقهًا لحكمتها : خاصة « التكرار».

يلفتنا في تبصره ما رواه مسلم من حديث أبي هريرة في كتاب « الإمارة» من صَحيحه « لاَ أُلْفِيَنَّ أَحَدَكُمْ يَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رَقَبَتِهِ بَعِيرٌ لَهُ رُغَاءٌ .... » الحديث . . إلى ما بُني عليْه بيانُ النّبوّة هذا الدّاء المُبيرِ الّذي يتسلل إلى قلبٍ أخرجَ صَاحبه إلى الجهادِ في سبيلِ اللهِ سُبْحانَه وَتَعالَى ، الذي هُوَ آيةُ الرَّغبةِ فيما عندَ الله تعالى ، والرغبة عن متاع الحياةِ الدّنيا وبرغْم من ذلك بُلي هذا القلبُ بهذا الدّاء الذي منزعه الرّغبة في عرضٍ زائلٍ من الدنيا ، فيغلّ قليلاً ممّا لو صبرَ كما صَبر في جهادِه لكان هذا الذي غله وفوقَه في يمينه كريمًا مباركًا .

وكأنّـي بهذا الدّاء الذي يُبين عنه رسُول الله صلّى الله عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ وسَلّمَ آتٍ من قبلِ وهن رسُوخ الإيمان في ذلك القلب واستقراره فيه وتمكنه

منه . فالقلبُ الَّذي يتأثرُ بذلك وهو الذي رغب في أن يترك الحياة كلَّها من أجل ما عندَ الله سُبْحانَه وَبِحمدِه كيفَ بَه يضعُفُ إلى هذا الحدِّ ؟!!!

كأنّي بالإنسان من ضَعفه تعتريه متناقضات ، ممّا يجعله شديد العَوز إلى ما يذكره بها ، ويضع بيْن يديه دواء هذه المتناقضات .

بيان النّبوّة هنا جاء مصورًا خطورة هذا الداء ، ولما كان داءً عضالاً كان قمنًا أن يُعني في تصويرِه بما هو الأقدرُ على اقتلاعه . فجاء البيان النبوي بأسلوب « التكرار » .

وفي إعراب البلاغيين عن هذا الأسلوب بمصطلح « التكرار » فيه ما ليس في« الترديد » أو« الترجيع » أو الإعادة ، ونحو ذلك .

في مصطلح « التّكرار » لفتٌ إلى ما هومنسول منه « الكَرّ » وفي الكَرّ معنى ليس في « الرّد » أو العَود أو الرُّجوع : في الكَرّ معنى العزم الصّادق والقوة الفاعلة والإصرار على النفاذ والبراءة من السآمة والملل .

في « التكرار » طرقٌ متوالٍ على المعني وتقريرٌ له وترسيخ وتوطين في السَّمعِ والقلبِ . وفي الحفاظٍ على ما يصك الأذن على ما هو عليْه لفتٌ وتنبيهٌ إلي أنَّ هذا المكرور بِه (المعنى وصورته) هو مناط العناية ، بخلاف تصريف المعاني . في التّصريف تنوّع ، ولفت إلى أمرين رئيسين :

الأول : أصل المعنى ، **الآخر** : ما في تنوع صورة المعنى من عطاءات هي محل القصد ، بيْنما التكرار فيه لفتٌ إلى أصل المعنى ولوازمه القريبة المأخوذة من صُورتِه أمَّا لوازمه البعيدة المأخوذة من سياقاته في الرُّتبة التَّالية من القصد ، فكلُّ تكرار فيه معان هي منسولةٌ من الصُّورة المكرورة ، وفيه معان من السّياق هي أقرب إلى « مسْتتبعات التراكيب»

في التكرير لفتٌ إلى العناية بأصل المعنى ولوازمه القريبة المنسولة من التركيب التي يُطلق بعض البلاغيين على طريق الإنباء عنها « الدلالة » أمَّا

المعاني التي هِيَ لوازم بعيدة التي يعربُ بعضُ البلاغيين عن طريق الإنباء بها بـ « الإفادة » فهي في المرتبة التالية من القصد .

أُشيرُ هنا إلى أنَّ البيان المكرور ليس مُتطابقًا مع أوَّله تطابقًا كاملاً في الصُّورةِ وأصلِ المَعنى،وفِي المَعانِي الَّلوازم قريبها وبعيدِها « مَدلولِها ومفادها » بلْ فيه مِن التَّنوع في المَعاني المُفادةِ بالسّياق « الإفادَة : الّلوازم البعيدة » وهذا مَا جعل بعضَ أهلِ العلم لا يرَى في البيانِ تكرارًا كاملاً . بلْ لا بُدَّ مِن شيْءٍ من التَّنوّع في المعاني الّلوازم البعيدةِ . فتغيُّر موقِع الجُملة المكرُورة يُلْزِمُها أن يكونَ فيها ما يتواءَم مع مَوقِعها الجديد . . . .

يقولُ شيْخنا : « هذا الحديثُ مكوّنٌ مِن أحدَ عَشَرَ سطرًا ، يُمكنُ حفظه عند قراءته أوْ سَماعِه أوَّل مرّةٍ ؛ لأنَّ تكوينَه البيانيّ مؤسّسٌ على تكرارِ فقراتهِ تكرارًا كاملاً ، وكلّه تقريبًا ناتج مِن تكرارِ « لا ألفين أحدكمْ يَجيءُ يومَ القِيامةِ على رقبتِه ... يقُول : يارسُول اللهِ : أغثني . فأقُولُ : لا أملكُ لك شيْئًا . قد بلغتك »[1]

---

(١) كأنـّي برسُول الله صلّى الله عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ وسَلّمَ ، وهويخبرُ بأنه سيقول له : « لا أملك لك شيئًا » يلفتنا إلى أنـّه عبد لله تعالى لا يملك من أمره شيْئًا ، فمن يريد الغوث فمن خالقِ الغوثِ،وليس من النبيّ صلّى الله عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ وسَلّمَ وإن كان سيد الخلائق ، فأولئك الذين يسْتغيثون برسول الله صلّى الله عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ وسَلّمَ راغبين عن الاستغاثة بالله تعالى من المتصوفة المبتدعة ، هم بيْن أمرين :

الأول : أنهم يسيؤون الظن بالله تعالى ، فيدعون الاستغاثة به إلى الاستغاثة برسُول الله صلّى الله عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ وسَلّمَ على الرّغم منْ أنـّه هو صَلَواتُ اللهِ وسَلامُه عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ يسْتغيثُ بربه سُبْحانَه وَتَعالَى فاعجب لمسْتغيثٍ يُسْتغاثُ بِه..

والآخر : أنـّهم على سنن ﴿ **وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ** ﴾ (الزمر:٣)

وفي قول الرسول له (قد بلغتك) إبانة عن كلّ ما هو مكلف به ، وما هو مستطيعه : إبلاغ مرادِ الله الشرعي أمرًا ونهيًا إلى الأمّة .

هذا هوالحديثُ ، وهذه كلماتُهُ الّتِي تكررتْ معَ إضَافةِ الشّيْءِ الّذي غَلّه . . .

وهكذا تراك حفظتَ الحديثَ من أوّل مرة معَ أنـّه منْ أرفعِ صُور البيان ومع أنـّه من أهمّ الأحاديثِ فِي حرمةِ الأموالِ والدماء . . . .[1]

« وقدْ قلتُ : إنَّ تكرارِ هذِه الفقر ، وبناء الحديثِ عليْها يجعلُ حفظها أمـرًا ميْسُورًا ، ويُسْرٌ حفظِها مِنْ تَمامِ بلاغَتها ، ؛ لأنـَّها تحصّنُ أمـوالَ النّـاسِ ودمـاءَ النّاس ، وغرسَ هذه الفقراتِ فِي النّفوسِ يُغنِي فِي أمن المُجتمعِ عَـن جحافـلِ جنودِ الأمن التي تنتشرالجرائمُ معَ وجودِها ، وزرعُ هذه الكَلمات فِـي القلـوبِ لا حدودَ لآثَارِه الطّيبةِ عليّ وعليْك ، وعلَى كلِّ منْ يعيشُ فِي هذا المجتمع .

وإذا جمعنا المعانِي الّتِي تكررتْ وجدنا لَها شأنـًا فِي حياة الناسِ أيّ شأن . وكَذَلِك المعَانِي التِي تكرّرَتْ فِي كتابِ اللهِ تعـالى ؛ لأنـّـه مـا تكـرّرَ شَـيْءٌ إلا ليتقرّرَ ، وما تكرّرَ شَيْءٌ إلاَّ ولَهُ شَأنٌ عِنْدَ الله تعالى ورسُولِه ﷺ .

وإذا كان مِنْ الواجبِ أنْ نعرفَ مَا لَهُ شَأنٌ عِندَ الله تعالى ورسُـولِهِ ﷺ فمِـنَ الواجبَ أنْ نجمعَ ما تكرّرَ فِـي كـلامِ اللهِ وكـلامِ رسُـولِهِ ، وأنْ نضَـعَ الحـديثَ بِجوارِ القرآنِ ما اتّفقَ وَما اختلفَ .

وكنْتُ وما زلْتُ أجدُ الْجمـلِ الّتِـي تكـرَّرتْ فِـي المُصـحفِ مِن الكَلمـاتِ الجامعةَ لأصُولِ الدين . . . . »[2]

---

(١) قوله : « معَ أنـّه منْ أرفعِ صُور البيان ومع أنـّه من أهمّ الأحاديثِ فِـي حرمـةِ الأمـوال والدماء» يلفتنا إلى أن ما كان هذا شـأنه فظاهر الأمر أن يصاغ علـى نحـو آخـر قـد تكون فيه حزونة في حفظِه ، ولكنَّ بيان النبـوَّة يخـرق المعهـود ، ويتجـاوز المـألوف والمتوقع ، فيدهشك بما عدل إليْه لنفاذ بصيرتِه فيما هو الأوفق بحال المعنى ، وحـال متلقيه . ومثل هذا لا يتحقق على كماله لغـيرِه صَـلَواتُ اللهِ وسَـلامُه عَلَيْـهِ وعَلَـى آلِـهِ وَصَحبِهِ .

(٢) شَرْحُ أحاديثَ منْ صَحِيحِ مسلم : ٢/٥٥٤، ٥٥٥

قول الشّيخ : « وغرسَ هذه الفقراتِ فِي النّفوسِ يُغنِي فِي أمن المُجتمعِ عَن جحافلِ جنودِ الأمن التي تنتشر الجرائمُ معَ وجودِها ، وزرعُ هذه الكَلمات فِي القلوبِ لا حدودَ لآثَارِه الطّيبةِ عليّ وعليْك ، وعلَى كلِّ منْ يعيشُ فِي هذا المجتمع » يلفت إلى ما ابتلي بِه القائمون على الشأن العامّ لهذه الأمّة في عصرنا هذا من الغفلة عن السبيل القويم في تحقيق الأمن لهذه الأمة ، لأن عُظمهم قد سطا على مقعد الولاية ، وهو غير أهل لأن يقوم بما ألقَى بنفسِه فيه .

لو كانت له بصيرة لأدرك أنَّ أمن الأمة من داخلِ قلوبها ،وليس من خارجها، حصن المرءِ والأمّة في ما في قلوبها . من مراقبة الله تعالى ، وليس في ما في خارجها من مراقبة لشُرَطٍ آخذةٍ بأيديها سياطًا كأذناب البقر يُرهبون بها الضعفاء ويحمون بها المنتهبين ، وينفق عليهم من بيت مال المسلمين ما لوأنفقَ معشارَهُ على تعليم النّاسِ أدب مراقبة الله سُبْحانَه وَبِحمدِه في جميع أمرهم خلاءً وجلاءً لكان لها من الأمن أضعاف أضعاف ما يرغبون فيه من أولئك الشُّرَط التي باتت هي مصدر الهلعِ والظلمِ للنّاس .

وهو بقولِه : وإذا كان مِنْ الواجبِ أنْ نعرفَ مَا لَهُ شَأنٌ عِندَ الله تعالى ورسُولِه ﷺ فَمِنَ الواجبَ أنْ نجمعَ ما تكرّرَ فِي كلامِ اللهِ وكلامِ رسُولِه . . . » كأنّه فوق تحريضنا على أن نفعل ما يرجو ، هو ينبهنا إلى أنّا في تقصِيرنا ، وانشغالنا عن جمع ما تكرر في بيان الوحي كأنَّا رغبنا عن العلم بما له شأن عند الله تعالى وعند رسُولِه ﷺ ، وكأنَّ الأمر لا يعنينا .

هو بهذا يدلُّنا على أنّ الاعتناءَ بذلك هُو من بابِ الاعتناءِ بما عُني به اللهُ تعالى ورسُوله ﷺ ، وهذا نزولٌ على محبوبِ الله سُبْحانَه وَبِحمدِه ومحبوبِ رسُولِه صَلَواتُ اللهِ وسَلامُه عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ .

وهو من وراء ذلك يعلمنا كيف يُمكننا أن نعرفَ ما له شأن عند الله تعالى وعند رسُولِه ﷺ ، وهذا منه أخذ بيد طالبِ العلم ليطعم من عملِ يده . وذلك من همومه العُظمَى .

* * *

والشيخُ في عنايته بـ «التّكرار» من أنه وسيلة إلى سهولة حفظ البيان وتقريره في النفسِ هو بالغ العناية بتأكد خاصة تيسير الحفظ والتقرير في القلبِ في بيان النبوة في مواضعَ عدّةٍ مِنْ سِفرهِ ، ليجعلَ هذا التَّيسيرَ سُنَّةً لنا نتأسّى فيها بِه ﷺ :

«قلتُ : إنّ بلاغةَ بلاغِ رسُول الله ﷺ فيها عنصرٌ بالغ الأهميةِ طالما أغفلناه ، وهو عرضُ بيانه عَلَيْه السلامُ في صُورةٍ يَسْهُلُ معَها ، وبِهَا حفظُ بيانِه ، وبلاغتِه ، ومِنْ أهمّ البلاغِ أنْ تيسّر حفظَهُ ، وتيسّر ذكرَه ...»[1]

قوله : «بالغ الأهميةِ طالما أغفلناه» يجمع لك فيه أمرين : قيمة هذا الشَّيء «بالغ الأهميةِ»، وموقفنا منه «طالما أغفلناه» وفي هذا من اللوم النافذ ما فيه ، فإذا كان بالغَ الأهمية ، فكيف بنا مردنا على إغفاله ، وتأمل قوله «أغفلناه» دون (غفلنا عَنْهُ) : في «أغفلناه» معنى ليس في «غفلنا عنه» في أغفلنا لفتٌ إلى أنّ ذلك عن وعيّ ، وكأننا لم نُعنَ بما فيه من الأهميَّة البالغةِ ، وفي إضافةِ الصّفةِ إلى الموصوفِ «بالغ الأهميّةِ» والعدولِ عن اتْباعِ الصِّفةِ الموصوفَ «أهميَّة بالغةٌ» ما يَهدِي إلى قُوَّةِ الصِّفةِ فِي المَوصُوفِ ، حتَّى صارَ المَوصُوفُ مضافًا إلى الصِّفة . وأنَّه لا ينفكُّ عنْها . تابع لها . لايكونُ إلاَّ إذا كانتْ .

ليس من وراء هذا اللوم من الشّيخِ ما يحتاجُ طالبُ العلم إلى أن يُلهز به لينتبِهَ .

كلمة وجيزة «بالغ الأهميةِ طالما أغفلناه»، ولكنها نافذة ، بل أقول مُوجعة ، كاشفة عن غيرِ قليلٍ من خطلٍ آخذٍ بنا .

وكأنّي بسَيِّدنا رسُول الله صلّى الله عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ وسَلّمَ أراد أن يكون لبيانه نصيبٌ من قول الله تعالى في شأن كتابِه : ﴿ **وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ**

---

(١) شَرْحُ أحاديثَ منْ صَحِيحِ مسلم : ٢/٥٦٥

لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ (القمر:١٧) فاتخذ سبيلا إلى تيسير بيانه للذكروالحفظ والحضُور ، وهذا من عنايته بمعاني بيانِه .

ولعلنا طلابَ العلم نعمدُ إلى استحصاءِ معالمِ تيسيره صلّى الله عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ وسَلّمَ ذكر بيانه وحفظه واستحضاره ، ومنهجه في ذلك ، وأدواته التي اتخذها إلى ذلك ليكون لنا زادٌ إلى حسن فهم بيانه صلّى الله عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ وسَلّمَ أولاً ، وليكون لنا ثانيا اقتداء به في إفهامنا الآخرين ما نريد .

* * *

وَمنْ حلية بيان النبوة حلية السلاسةِ والعذوبةِ : السّنة البيانية للحديث النبويّ أنّ ما تجدُ فيه من صَنعةٍ تجدها « كأسلسِ وأعذبِ ما تكونُ الصنعةُ ، ولكنه عليهِ السّلامُ لَم يقصِدْ إِليْها ، وإنّما تأتي عَفوَ الفطرةِ البيانيةِ العاليةِ ، كهذا التّعادل والتوازنِ الّذي تَراهُ فِي قولَه : « تطؤه بأخفافِها ، وتعضّه بأفواهها » جُملتان مُتساويتان فِي عددِ الكلِماتِ وأنواعِها . كلُّ جملةٍ رأسُها فعلٌ مضارعٌ يسْتحضِرُ لك الصُّورة .[1] هذا التَّعادلُ فوقَ أنّه يُعينُ على الحَملِ والحفظ هو يُعينُ على التَّطلعِ إلى ما بينها من تلاقٍ في المعنى ، فالتّشاكل في الصُّورةُ يَحملُ فِي رحمِهِ تشاكلا فِي المَعنى ، فإنّ المعانِي على أشكالِها تَقَعُ ، وما تعارف منها إئتلف . ففي هذا التناغُم بيْن الصورِ حملٌ إلى إدراك ضرب آخر من التّآخِي مناطُه المعنى ، وحينئذ تتطلع النّفسُ الشّغُوفُ إلى الوقوف على ما بيْن هذه المعانِي من تراحُبٍ وترابُحٍ . وهذا من سبل التيسير للذّكرِ .

ومِن سبلُ العنايةِ بالمعنَى أن وطّأ له في القلوبِ لِتسكنَ إليه وتطمئن به ، فتفعلُ فيها ما يُراد بها أن تفعلَ . وليس أقبح من رجلٍ لا يُعنى بالحفاظ على ولائدِهِ ، وبيان المرْءِ من ولائدِهِ ، ومعانيه ممَّا هو مكلّف بالحفاظِ عليْها ،

---

(١) شَرْحُ أحاديثَ منْ صَحِيحِ مسلم . ٥٨٥/٢

وكفى بالمُبين معابةً أن يُضيع معانيه ، فلا يُمكن لها في نفوسِ النّـاسِ بِحملـها على متن وطاءٍ ، وكفى بالمتكلم ألا يُحسن قرى سامعِهِ .

وقد كان رسُول الله صَلّى اللهُ وسلّم عَلَيْه وَعلَى آلِهِ وصَحبِهِ أَجْوَدُ بِالْخَيْرِ مِنَ الرِّيحِ الْمُرْسَلَةِ . ورأسُ الخيرِ الذي يَجودُ بِه العِلم بما لا يعلمـه المـرءُ إلا مِنـه صَلَوات اللهِ وسلامُه عَلَيْه وَعلَى آلِهِ وصَحبِهِ

* * *

ومن البعد البياني في صَنيع الشيخِ رصده حركة المعنى في الكليات الجامِعة من بيان سيّدنا رَسُولِ الله صَلّى اللهُ وسلّم عَلَيْه وَعلَى آلِهِ وصَحبِهِ وهو في بيانه جدُّ كثيرٍ . البصرُ بمحمول هذا البيان الجامعِ يحتاج إلى أمرين :

الأمر الأوّل : اتساعُ أفق الرُّؤية بحيثُ لا يكونُ في اتساع الدَّائرة التي تُحيط بهذا الفيضِ من المعاني معيقًا عن البصر بأقطار المحمول .

واتساع الرُّؤية هو وليد اتساع القلبِ المتلقّي ، وهذا لا يتأتى لقلبك إلا إذا كان مكنونه المعرفيُّ متسمًا بالتّنوعِ والتّعمّق والتّدقيقِ والتَّحريرِ الذي يـأذنُ لـه أن يتداعَي ويتنادَى .

والأمر الآخر : الفراسة البيانيّة التي بهـا يتحقَّـقُ التّغـوّرُ في أدغـالِ المعـاني وأعماقها ، فيبصرُ ما بيْنها من اتّفاق وافتراق ، فيتأتَّى لهـذا القلـبِ أن يجمعَهـا بسببِ الرَّحمِ الناشبِ بيْن هذه المعانيِ المتنوّعة المتعدّدة المُتباعِدة في ظاهرِها المتآخية في جوهرِها .

وهذه المهارةُ مِن أوجبِ مهاراتِ العقلِ البلاغيّ ، ولذلك كـان عبـدُ القـاهر ناصًّا على هذه المهارةِ في كتاب « أسرارِ البلاغة » ، فجعلَ محور هذه الأسـرار في أمر المعاني كيف تختلف وتتفقُ ، ومن أين تجتمعُ وتتفقُ . . . . تأمل قوله (كيف) وقوله (من أيْن . . .).

الشَّيخُ كان احتفاؤه بهذا الأمر : كيفيةِ اختلاف المعاني واتفاقها ، ومخرج اجتماعها وافتراقها ، وأيها الأصل الذي تفرع عنه غيره ، وأيها العام المتفاسح وأيها الخاص المُتعيّن . . .

هو بهذا الباب من النّظر البيانيّ أكثر احتفالاً واحتفاء في قراءته أحاديث من صَحيح مسلم من احتفائه بضروب أُخر هي إلى النّظر الجزئيّ أقرب ، فمسلك الشيخ هنا أقرب إلى نهج المُحصّلين الذين يحتفون بالكلياتِ الضابطة ، وبيان أمر المعاني اتفاقًا واختلافًا . . . من هذا الباب .

فَلَوْ أَنَّك جمعت مقالاتِ الشّيخ في قضايا البيان ، ونظرتَ فيما هي إلى الكليّة أَقربُ وما هِيَ في الجزئية أدخلُ رأيت غلبةَ حضورِ ما هي إلى الكليّات أقربُ ، فالعقلُ الجَمعي كانت له الغلبة على صنيع الشّيخ في هذه القراءة ، على أَنَّ تبصُّرَه بالجزئيِّ حاضرٌ زاهر إلاّ أنّه دون الأول .

هل لك أن تصغي إليه وهو يقرأ قول رسول الله صَلّى اللهُ وسلّم عَلَيْه وَعلَى آلِهِ وصَحبِهِ : « تضمّن اللهُ لمن خرج في سبيله . . . » (١)

تَراه محتفيًا بالنظر فِي امتدادات المعاني وتوالدها وتشابكها وتلاحظها وبناء بعضِها على بعضٍ في الفقر الأربع من الحديث بعضها على بعض وتوالدها ، وما هو الأصلُ منها ، وما يضيفه كلٌّ إلى سياقِه ، وما يُمهِّدُ به للحاقِه ، فإذا المعاني في الكلام البليغ أسرةٌ تقبلُ على المعنى « الأم » برًّا وخدمةً ورعايةً وتربيَةً .

وينصُّ الشيخُ على أنَّ « دراسةَ هيئةِ المعاني وبناءِ بعضها على بعضٍ مِنْ أهمّ ضُروبِ دراسَةِ بلاغةِ البيان ؛ لأنها تكشفُ كيفَ قامتْ هذه الهيئَةُ فِي نفسِ المتكلّم ، وكيف ترتَّب بعضُها على بعضٍ ، وكيفَ قامتْ فِي النفسِ قيامًا واحدًا . . .

---

(١) شَرْحُ أحاديثَ منْ صَحِيحِ مسلم : ٣٢٢/٢

ومن الواجبِ أن ندرسَ هيئةَ بناءِ المعانِي فِي كل رسَالةٍ ، وفي كل مقالةٍ ، وفي كلِّ قصِيدةٍ ، وفي كلّ حديثٍ وفي كلِّ سُورة سُورة»[1] .

ومخرج هذا الاحتفاء ـ في ما أفهم ـ ما بُنيتْ عليْه شخصيته الأخلاقيّة ، فهو ـ فيما عهدتُ قرابة نصف قرن ـ رغوبٌ فِي رؤيةِ مقومات الجمال السّلوكيّ الذي هدانا إليه بيان الوحي : قرآنًا وسنة وهي جدٌّ كثيرة قائمة في البيان . ومن أبرز مقومات الجمال السلوكي الّتي هدى إليها الوحي قُرآنا وسنة ، مقوم التآخي والتماسك : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ (الحجرات:١٠)

﴿ فَمَنْ عُفِيَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ ﴾

(البقرة:١٧٨)

﴿ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ﴾ (الحجرات:١٢)

وبيان النبوة ملآنٌ بذلك . من هذا ما رواه الشيخان بسندهما :

« الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ ، لاَ يَظْلِمُهُ وَلاَ يُسْلِمُهُ ، وَمَنْ كَانَ فِى حَاجَةِ أَخِيهِ كَانَ اللَّهُ فِى حَاجَتِهِ ، وَمَنْ فَرَّجَ عَنْ مُسْلِمٍ كُرْبَةً فَرَّجَ اللَّهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرُبَاتِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » .

وما رواه البخاري من حديث أَنَسٍ عَنِ النَّبِىِّ ﷺ قَالَ : « لا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ » والمقام يضيق عن استيعات بعض ما جاء في هذا .

قلت : رأس مقومات الجمال السلوكي في المجتمع المسلم هو التآخي ، وهذا التآخي هورأس مقومات الجمال في البيان اللساني . وعبدُ القاهر أقام نظريته في أساسِ بلاغة البيان وروحها على هذا (التآخي بين المعاني)

---

(١) شَرْحُ أحاديثَ منْ صَحِيحِ مسلم : ٣٢٦/٢

يقُول عبدُ القاهر : « واعلمْ أنَّ ممَّا هو أَصلٌ في أنَ يـدِقَّ النظـرُ ، ويَغْمُـضَ المَسْلكُ ، في توخِّي المعـاني الَّـتي عرفـتَ : أنْ تتَّحِـدَ أجـزاءُ الكـلامِ ويَـدخلَ بعضُها في بعضٍ ، ويشتدَّ ارتباطُ ثانٍ منها بأول ، وأن تحتاج في الجملة إلى أن تضَعَها في النفس وضعًا واحدًا ، وأنْ يكونَ حالُكَ فيها حالَ الباني يَضعُ بيمينه ههنا في حالِ ما يَضَعُ بيَسارِه هناك . نَعم ، وفي حـالِ مـا يُبْصـر مكـانَ ثالـثٍ ورابعٍ يَضعهُما بَعْدَ الأَوَّلَيْن .

وليس لِما شأْنُه أن يجيءَ على هذا الوصفِ حَدٌّ يَحْصُرُه ، وقانونٌ يُحيطُ به ، فإنه يجيءُ على وجوهٍ شتَّى ، وأنحاءَ مختلفةٍ[1] .

والحقّ أنّنا لو استجمَعنا ما جاء في القرآنِ من آياتٍ وما جاء فِي السُّنَّة من أحاديثَ تعين مقومات جمال السلوك الاجتمـاعي في الأمَّـة ، وصنّفناها وفـقَ مجالاتِها ، لأمْكنَنا أن نتخذ منهـا نظريـة في جمـال البيـانِ اللسـانيِّ . فأصـولُ الجمالِ في عالم الإنسانِ هي أصلٌ لأصولِ مقوماتِ الجمالِ في عالم البيانِ .

* * *

ومنْ مَعالم البُعدِ البيـانيّ (الجمـالي) في منهجـه الاعْتِنـاءُ باتّسَـاعِ المعَـانِي وإحكامِها ، هو حفيّ بما كان مِن الكلم أو النّظم ذا اتسَاع رحِيـبٍ تتنـادَى فِيـه المعاني ، فيبرزُ لنا منها الشَّيخُ ما قد لا يكون قريبًا استحضارُه عند كثير .

من هذا ما تراه في تبصّره ما رواه مسلم في كتاب « الإمارة »: من صَحيحه بسنده عَنْ زِيَادِ بْنِ عِلَاقَةَ قَالَ سَمِعْتُ عَرْفَجَةَ قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : « إِنَّـهُ سَتَكُونُ هَنَاتٌ وَهَنَاتٌ فَمَنْ أَرَادَ أَنْ يُفَـرِّقَ أَمْـرَ هَـذِهِ الأُمَّـةِ وَهْـىَ جَمِيـعٌ فَاضْرِبُوهُ بِالسَّيْفِ كَائِنًا مَنْ كَانَ » .

يتلبث الشيخ عند « وهي جميع » فيرى فيها مِن الاتساع الذي يجمعُ فيضًـا مِن المعاني الَّتي لا تجتمعُ في غيرها . يقولُ :

---

(١) دلائل الإعجاز (م . س) ص ٩٣ ، فقرة (٨٣)

«لابدَّ مِنْ مُلاحظَةِ كلَمةِ (وهِي جميعٌ) أي مجتمعة علَى قلبِ رجلٍ واحدٍ ، ثُمَّ هِيَ مجتمعَةٌ حولَ حاكمٍ أفضلَ ، وماضِيةٌ نَحوَ العملِ الأفضلِ والقولِ الأفضلِ والتّعليمِ الأفضلِ والتطورِ العلميّ والصّناعيّ الأفضلِ . وهذا منْ معَانِي اجتماعِ الأمَّةِ ، ولَمْ يكن الحاكمُ الجاهل الغبيّ ... لا بُدَّ من ملاحظةِ هذا كله ، إذا جاءنا ونحن مجتمعون حول العادل الراشد . . .» [1]

كذلك يذوق الشّيخ كلمة «وهي جميع» لا يأخذ الكلمة في هذا السياق مطلقة ، فيظنّ أنّه إذا اجتمعت الأمَّة على حاكم ظالم فاسق يعملُ على إذلالِ الأمّة ، واستنعاجِها وإضاعة الدّين كان حقًّا أن يكون النَّاسٌ من حولِه طائعين .

مجرّدُ الاجتماع على الحاكم لا يكفِي ، لا بدَّ مِن ملاحظةِ حال الحاكمِ المجتَمع عَليَه ، وحالِ الشَّعبِ المُجتمع . بهذا تتحدَّد دَلالة الكلمةِ . فهذا التَّحديد مُستمَدٌّ مِن الغايةِ مِن الدّين ، والغايةُ من اجتماعِ الأمّة .

كلُّ اجتماعٍ لا تتحقَّقُ فيه الحِكمةُ مِنه هو والافتراقُ سَواءٌ ، بل ربما كان الافتراقُ حينًا أخفَّ وطأة من الاجتماعِ على ما لا يرضاه الله تعالى .

استطعام «الكلمة» في سِياق مقاصدِ الدِّين مهمٌّ جدًّا ، وهذا ضابطٌ مهمٌّ كما أنّه قرينة معِينةٌ على حُسن الفَهم ، وإقامةِ الكلمةِ مقامَها الفاعل . .

وهو يتذوق كلمة «وهي جميع» يلتفت إلى حديثٍ ذكره صاحب اللسان ، وهو بصدد بيان معنى «هنات» : «سَتَكُونُ هَنَاتٌ ، وَهَنَاتٌ ، فَمَنْ رَأَيْتُمُوهُ يَمْشِي إِلَى أُمَّةِ مُحَمَّدٍ ، فَيُفَرِّقَ جَمَاعَتَهُمْ ، فَاقْتُلُوهُ» [2]

---

(١) شَرْحُ أحاديثَ منْ صَحِيحِ مسلم : ٩٢/١ .

(٢) السنن الكبرى للنسائي (ت : ٣٠٣هـ . تحقيق : حسن عبد المنعم شلبي . أشرف عليه : شعيب الأرناؤوط نشر : مؤسسة الرسالة ـ بيروت . ط(١) عام : ١٤٢١هـ/ باب قَتْلُ مَنْ فَارَقَ الْجَمَاعَةَ / رقم : ٣٤٧١) شرح مشكل الآثار . تأليف : أبي جعفرالطحاوي : أحمد بن محمد بن سلامة بن عبد الملك بن سلمة الأزدي المصري (ت : ٣٢١هـ) تحقيق : شعيب الأرنؤوط . نشر : الناشر : مؤسسة الرسالة . ط(١) عام ١٤١٥ . ==

فيرَاها أقوى في الدَّلالة على تماسك المجتمع : «لاحظْ كلمة» أمّة مُحمّدٍ «لأنّي أفهمُ منها معنَى التَّماسك ، والتآزر ، والتّسَاندَ والتَّحاب ؛ لأنَّ مُحمدًا ﷺ هُو ينبوع الحُبّ فِي قلبِ وضميرِ ورُوحِ الأمَّة . . .»

فإضافة كلمة «أمّة» إلى رسول الله ﷺ توجب لهذه الكلمة دَلالتها على اتّسامها بالتّماسك ، فإنّها لا تؤمّ إلاَّ إليه ﷺ ، ومن كان مأمّه رسول الله ﷺ ، فلن يفرِّقه شيْءٌ ، ولنْ يكونَ اجتماعه على باطلٍ .

الدَّلالة على الاجتماع على الحق والخير في «أمّة محمّدٍ» دلالة إضافية ، فكلمة «أمة» تفيد أنهم آمين «سيّدنا «مُحمدًا» صلّى الله عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ وسَلّمَ وهذا لا يكونُ إلا في الحقِّ والخيرِ .

استطعم الشّيخ الإضافة في «أمة محمد» . هي مخرج حُسن الدلالة على التّماسك وتمامها وإحكامِها .

أَكْسَبَ المضافُ (محمّد) المضافَ إليه (أمّة) معنًى لا يكونُ لغيرِ هذه الأمَّة . فليس في الأرضِ البَتة أمَّةٌ كمثْلِها في أمِّها ومحجِّها واجتماعها . فكلُّ أمة غيرها لا تؤمّ إلى مثل ماتؤم هي إليْه[1] .

== (بَابُ بَيَانِ مُشْكِلِ مَا رُوِيَ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ مِنْ قَوْلِهِ : «تَكُونُ هَنَاتٌ وَهَنَاتٌ) ٦/١٠١ (رقم/٢٣٢٥)، والطبراني في المعجم الكبير (رقم : ٣٥٣) والأوسط ، (رقم : ٣٧٤٩ ، ٦٠٣٢) والبيهقيّ في السنن الكبرى (رقم : ١٦٦٩٠) والصغرى . (رقم : ٣١٤٥)

(١) كلمة «أمّة»منسولة من مادة (أ م م) القصد ، فالأمّة أصل معناه من اجتمعوا في القصد إلى شيءٍ ، ولذا لا يقال أمة إلا إذا كان هناك اجتماع إلى شيءٍ . يجمعها . من هنا كانت ملاحظة الاجتماع في القصد إلى رسول الله ﷺ في قولنا«أمة محمدٍ» فمأمُّهم هو رسُول الله ﷺ . فهي«أمة محمد» باعتبار أنه ﷺ هو مأمها ، وليس مجرد الانتسابِ الموروث الذي لا يؤكده لسان الحَال ، ودلائلُ السلوك ، فأمته ﷺ في الحقيقة هي التي أمَّته هدًى يأخذ بجوانب الحياةِ كلّها ومجالاتها بغير استثناء إلا ما كان من أن الدنيا الصّرف من نحوز مناهج استزراعِ الأرضِ ، واستصناع الأسلحة ، وأدوات التنقل وغيرِ ذلك .

كذلك نتعلم من شيخنا الموازنة بين مُستويات الدّلالة على المَعنى بين المتقاربات ، ونتعلّم السعي إلى البصرِ بِمخرجِ القوة في ما كان منها أقوَى ، فليس المُهمُّ فقط أن تدرك عُلوَّ جملةٍ في الدَّلالة على مَعنى على جملة أخرَى ، بل الأهمَّ الأتمّ أن تدرك مع ذلك مخرجَ هذه القوّة ؛ فإدراك مخرَج المعنى والأثر مهارةٌ تمنح صَاحبها حسن البصر بحركةِ المعنى ، وروافدِ استمراره وقوتِه حتى يبلغ محجّهُ .

السّعي إلى امتلاكِ مثلِ هذه المهارات في عالم البيان يُعينُنا إنْ أحسنا الاستثمار في امتلاك مثلها في عالم الإنسان .

نحن ـ طلاب علم البلاغة العربيّ ـ نجتهدُ في البصرِ بحالِ البيان ، وعَوامل قوته ، وثرائه وإحسانِه وجُودِه وفي البَصر بعوائق حركتِه إلى مأمّه ؛ ليكون لنا من ذلك اقتدارٌ على مُمارسة ذلك في عالم «الإنسان» فهذان : عالم «الإنسان» ، وعالم «البيان» هما على مَحجة ، وهما من رحمٍ ، فعُظم الأصول الضَّابطة حركة الإنسان لها نظير في عالم البيان ، وعُظم ما هدَى إليْه سيِّدنا رسول الله صلّى الله عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ وسَلّمَ من عوامل تحقيق «الجمال» في عالم «الإنسان» لي ، بل عليّ أن أُبصره أيضًا في عالم «البيان» .

* * *

ولتنظر ما قاله في اتساع المعنى في قول رسُول الله صَلَواتُ اللهِ وسَلامُه عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ : «كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ».

هو يرى هذه الجملةَ جامعةً كلّ القوانين العادلة في العلاقة بيْن الناس فما من قانون أوقاعدة عَدْلِيّة إلا وهي منسولة من هذه الجملة الأمّ . يقُولُ : «كلمة «كلّ المُسلم» كلمةٌ نادرة ؛ لأنّ لفظ «كلّ» يدخلُ على ما له أجزاءٌ . . . والمُسلم شيءٌ واحدٌ وإنّما أرادَ منّا عليه السّلام أن نعرفَ حقُوقَه المتعلّقة بِه ، فله مالٌ ، وله عِرضٌ ، وله دمٌ . . . إلى آخرِه وكأنَّه وَحده عائلةٌ ، وكلُّ هذه

العائلةُ حَرامٌ . . . ولو قلتَ كلَّ الإنسانِ على الإنسانِ حرامٌ تكونُ قد أصبتَ ؛ لأنَّ هذا في الشرائع كلّها .

وإنّما خصّ المسلمَ للذي قلناه في مِثلِه ، ولمْ أعرفْ احترامًا لِحقوقِ الإنسان كالاحترامِ الّذي أجدُه في هذه الجملةِ وحدَها ، والمكوَّنةِ مِن كلمتين ، ولمْ أعرفْ صَونًا للحُرمات كهذا الصونْ الذي أجدُه فِي هاتين الكلمتيْنِ ، بلْ لَمْ أعرفْ أخصرَ لفظًا ، وأَوفرَ معنًى في كلامِ النّاسِ مِن هاتيْن الكلمتيْنِ ، وتدبّرْ أنْتَ وراجع ؛ لأنّني لو تابعتُ امْتدادَ هذا المعنَى واتساعَه وسدادَه ، ومدَى ما فِيهِ مِن إِكرام وكرامةٍ لِهذا الإنسانِ ، فسَيطولُ بي الكلامُ ، ويصرِفُني عن غيره».[1]

اتساع كلام النبوة مخرجه اتساع الرُّؤية : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (سبأ:٢٨)

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ (الأنبياء:١٠٧)

وروى مسلمٌ في كتاب «الفضائل» من صَحيحه بسنده عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : «فُضِّلْتُ عَلَى الأَنْبِيَاءِ بِسِتٍّ :

أُعْطِيتُ جَوَامِعَ الْكَلِمِ وَنُصِرْتُ بِالرُّعْبِ وَأُحِلَّتْ لِىَ الْغَنَائِمُ وَجُعِلَتْ لِىَ الأَرْضُ طَهُورًا وَمَسْجِدًا وَأُرْسِلْتُ إِلَى الْخَلْقِ كَافَّةً وَخُتِمَ بِىَ النَّبِيُّونَ» .

ذلك يقضِي باتساع الكلامِ وسبوغِه ، والاتساع مناطه الرّئيس «المعنى» يتبعه اتساعٌ في دلالةِ الصُّورةِ ، وليْسَ في تكوينِ الصّورةِ .

لا تحقق رؤيةُ اتساع الكلام إلاّ من اتساع أفقِ القلبِ المتلقّي ذلك الكلام ، فليس كلُّ سامعٍ واعٍ ما يحلّ في الكلامِ .

واسْتحضار خصُوصية رسُولِ اللهِ صَلَواتُ اللهِ وسَلامُه عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ بعموم رسالته معينٌ على الاجتهاد في رؤية اتساع كلامه ﷺ ، وكذلك

---

(١) شَرْحُ أحاديثَ منْ صَحِيحِ مسلم : ٦٨٦/٢، ٦٨٧

استحْضارُ قوله صَلَواتُ اللهِ وسَلامُه عَلَيْـهِ وعَلَـى آلِـهِ وَصَـحبِهِ : « . . . أُعْطِيتُ جَوَامِعَ الْكَلِمِ » إذا ما فهمْنا منها أنـَّها بيان النبوّة[1].

* * *

وتجد هذا أيضًا في تبصّره رواية أخرَى لهذا الحديثِ فيهـا اسـتهلالُ البيـانِ النَّبويّ بكلمةٍ رآها الشَّيخُ جامعةً لكلِّ الرَّذائلِ الَّتي جـاءَ تفصـيلُها فــي الرِّوايـةِ الأمِّ . يقول : « وروايةُ أبي هريرة الَّتي رواها الأعرج « إيَّاكمْ وَالظَّنّ ، فإنّ الظـنّ أكذبُ الحديثِ ولا تَحَسَّسُوا . . . . »

والجملةُ الأولَى الَّتي ابتدأَ بها الحديثُ في رواية الأعـرج عـن أبـي هريـرة ، وهي : « إياكم والظنّ فإنّ الظنّ أكذبُ الحـديثِ » توشِـكُ أن تكـونَ رأسَ هـذا الحديث ، وتلاحظُ أيضًا أنّ الظنّ المنهيّ عنه هو رأسُ وجود هـذه الرذائـل في النفسِ فهو الذي تتولدُ منه كلّ ما دخلتْ عليْه « لا » النّاهية في الحديثِ »[2]

وهُوَ إِذَا مَا كَانَ قد لفتك إلى مـا فـي روايـة عبـد الرحمــن الأعــرج عــن أبي هريرة عن رسُول الله صلى من براعة الاستهلال بقوله : « إِيَّاكُمْ وَالظَّنَّ فَـإِنَّ الظَّنَّ أَكْذَبُ الْحَدِيثِ » وما في هذا الاستهلال بمعدن الرذائل ما يُعين ذا القلـبِ المعافَى على أن يتوقفَ عندها ثم يمضِي متبصرًا مفصـلاً مـا يتولـد مـن هـذا

(١) قوله صَلَواتُ اللهِ وسَلامُه عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ : « أعطيت جوامع الكلم » هو نفسُه مـن جـوامـع الكلم ، واتسـاعـه ، فَمن قصره على أنـّه القرآن لم يكن هو الأعلى في ما ذهب إليْه . الأعلى أن جوامع الكلم التي أعطيها إنّما هي القرآن وبيانه صَلَواتُ اللهِ وسَلامُه عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ .

والذي يشهدُ أنَّ بيانَه مِن جوامعِ الكلم ما رواه الدَّارَقطنِيّ في كتاب « النّوادر » من سُننه بِسنده عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ، قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « أُعْطِيتُ جَوَامِعَ الْكَلِمِ ، وَاخْتُصِرَ لِي الْحَدِيثُ اخْتِصَاراً » (حديث رقم : ٤٢٧٥)

(٢) شَرْحُ أحاديثَ منْ صَحِيحِ مسلم : ٦٧٢/٢، ٦٧٣

الظنّ الذي هوأكذب الحديث ، فيجد نَفسه قد مضتْ تحصى فتعجزُ عن الإحصاء من تكاثر هذه الرذائل المتولدة من الظنّ الذي هوأكذبُ الحديثِ ، فيعظُم خطرَ هذا الظنّ الَّذِي هُو أكذبُ الحديثِ .

وهذا مسلكٌ مِن مَسالكِ تعظيمِ أثرِ المَعاني في النُّفوسِ ومِن توسيعِها ، ثُمّ يلتفتُ المتلقي إلى ما جاء به الرَّسول صَلَواتُ اللهِ وسَلامُه عَلَيْهِ وعَلى آلِهِ وَصَحبِهِ من هذا الرَّذائل ، وما اصطفاه منها ليصرّح بذكره ، فيجعله ذلك يتبصَّر ما في هذه الرذائلِ المُختصَّةِ بالذّكر من عظيم الخطرِ المُمزّق للأمّة الغارسِ في قلوبِها عواملَ التَّدابُرِ والتَّطاحُنِ الَّذي هو أقوَى أسلحةِ انكسارِ الأمّةِ وانهيارِها[1] .

وهذا التّخصيص بالذكر هو ما يسميه البلاغيون بـ (التّخصيص في الإثبات) الذي لايفيد حصراً .[2]

وهذه الرذائلُ المذكورة في هذه الأحاديث على تنوّعٍ في عدَدها وفي ترتيبِها هي التي ترَاها الآن في عصرِك ومصرِك وفي كلِّ تجمُّعٍ تحلّ فيه وإن كان تجمُّعَ من يُنسبون إلى العلم . تجدُ هذه الرذائل قد أورقت وأزهرتْ وأثمرتْ

---

(١) غرسُ عوامل التّدابر والتّطاحن والكراهية المستطيرة وتربيتها وحمايتها في الأمّةِ الإسلامِيّةِ والعربيّة عامةً ، وفي الأمّة المصريةِ خاصّة هو فريضة الوقت عند ثلة منها . إيمانًا منهم بأن تلك العوامل هي التي ليس كمثلها شيءٌ في الأخذ بهذه الأمة إلى الهلكةِ .

ولو أدرك أَبناءُ هذه الأمة ذلك لكان لهم إلى التصالح والتناصح والتصابر على الحق والخير مسارعة . **بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿ وَٱلۡعَصۡرِ ١ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ ﴾** (العصر: ١-٣)

(٢) التخصيص في الإثبات هوالتخصيص في الذكر دون أن يفيد هذا حصر الأمر فيه ، فهو لا يفيد القصر ، أما التخصيص في الثبوت فهو التخصيص الحصري الذي هو طريق من طرق القصر (غيرالاصطلاحي) ينظر : المصباح شرح المفتاح للسيد الشريف . ص : ١٦١ . (م . س)

مِمّا يستوجبُ الاجتهادَ في التَّحذيرِ وفِي إصلاحِ ذاتِ البَيْنِ ، وفِي مُقاومةِ كلِّ مُحاولاتِ التَّنميةِ لها بيْن النَّاسِ على نحوِ ما تراه في أفاعيلِ سَحرةِ إبليس عَبْرَ بعضِ وسائلِ الإعلامِ .

ثم تراه يلتفت إلى ما اشتملت عليه رواية عبدِ الرحمنِ الأعرجِ عن أبي هريرة عن رسُول الله صَلَوات اللهِ وسلامُه عَلَيْه وَعلَى آلِهِ وصَحبِهِ من اختتامها بقوله عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ : « كُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا » . من حسن الختام . وكيف أنّها وقعت مما قبلها موقع الفاصلة القرآنية ، وكأنه يلفتك إلى تأثر البيان النبوي بالبيانِ القرآن في بناء صُور معانيه التي أوحاها الله تعالى إلَيْه.

« وقَولُه عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ : « كُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا » مِن أكرمِ الكلامِ وَأكرمِ الْمعَانِي ، ويفتحُ البابَ لأكرَمِ حياةٍ فِي أكرمِ الْمُجتمعاتِ . وهذه الْجُملةُ العاليةُ تضمّنتْ ما قبلها ، هي بمثابةِ « الفاصلة القُرآنية » الّتِي تتضمّن كلّ الذي مَضى . . . » (١)

فأنت ترى المعنى قد أورده الرسول صَلَوات اللهِ وسلامُه عَلَيْه وَعلَى آلِهِ وصَحبِهِ في ثلاث صور : صورتان مجملتان بدأ بأحدهما : « إِيَّاكُمْ وَالظَّنَّ فَإِنَّ الظَّنَّ أَكْذَبُ الْحَدِيثِ » وختم بالثانية : « كُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا » وجعل من بينهما صورة المعنى المفصّلة .

وبهذا يحقَّقُ للمعنى وصوله إلى القلبِ وتمكُّنه فيه ، ويُحقق للقلب أن يستمعَ بوروده عليه في صورٍ متَنَوِّعة ، فإنّ التَّفنن في تقديمِ المَعنى في صورٍ متّنوعة ممَّا يفتحُ شهيةَ القلبِ في الفهمِ ، ففي هذا مُراعاة لحقِّ المعنَى منْ جهة وحقّ المُساق إليه المعنَى مِن جهةٍ أخرَى ، وهذا نهج وافر في بيان النبوة : يورد المعنى ثلاث مرات على قلب السامع وقد غدا من السُّنة البيانيّة له صَلّى اللهُ وسلّم عَلَيْه وَعلَى آلِهِ وصَحبِهِ .

---

(١) شَرْحُ أحاديثَ منْ صَحِيحِ مسلم : ٢/٦٧٩، ٦٨٠

ويلتفتُ الشَّيخُ إلى ما في قوله صَلَوات اللهِ وسلامُه عَلَيْه وَعلَى آلِهِ وصَحبِهِ : « كُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا » من عموم الأمر ، فالإعراب بـ« عِبَادَ اللَّهِ » هادٍ إلى مخرج هذا الأمر : « الأمر بالأخوة » من جهةٍ وإلى عمومِه من جهةٍ .

مخرجُه أنّ المأمورين به متساوون في أنَّهم « عبادُ الله » وهذا نسبٌ لا سبيلَ إلى نقضِه ، ولا سبيل إلى أحد ذي عقلٍ أن يغفُل عنه وهو أكرمُ نسبٍ وهو الأولى بأن يُوصل ، والأولى بأن يُحفظ حقُّه ، والأولَى بأن يكون حجازًا من كلّ إضرار بأحد ، فالخطاب عند الشيخ في : « كونوا » خطاب للإنسانِ كلّ الإنسان في كلِّ عصرٍ ومصر وجنس ولسانٍ ومعتقد : المسلم وغيرُه فهم جميعًا فِي هذا سواءٌ . هم جميعًا قائمون في أرضِ الله تعالى وهم جميعًا تجمعُهم حِلية واحدة « عباد الله » .

وفي اصطفاء كلمة (عباد) تثويرٌ لمعنى القنوت والخشوع والتسليم لهذا الأمر ، فشأنُ العباد أن يستسلموا لأمر مَن هُم عبادُه .

وأنت تلحظ التآخي الدّلالي بيْن كلمة (عباد) و(إخوانا) فاشتراكهم في العبودية لله سُبْحانَه وَبِحمدِهِ يوجبُ الكونَ أخوةً . يقُول الشّيخ :

« ثُمَّ إنَّ كلمة : « كُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا » المخاطبِ بِها كلّ عبادِ اللهِ : مؤمنهم وكافرهم ؛ لأنَّ كلمة « عباد الله » في الكتاب العزيز جاءتْ لِمن آمنَ ومَن لمْ يُؤمن[١]

وهذا يَعنِي أنَّ المرادَ بِهذه الأخوة هو المَعنى الإنسانيّ حَتّى تستقيم حياتكم ، وحتّى تتعايشُونَ مُتسالِمينَ مُتعاونينَ مَع اختلافِ عقائدكم ، وقد أمرنا ربنا أن نغفرَ للذين لا يرجونَ أيامَ اللهِ ، وهم الذين لم يؤمنوا ، وقال لسيدنا عليْهِ السلام : ﴿ فَٱصۡفَحۡ عَنۡهُمۡ وَقُلۡ سَلَٰمٞ ﴾ (الزخرف:٨٩) .... »[٢]

(١،٢) شَرْحُ أحاديثَ منْ صَحِيحِ مسلم ٢/٦٨٠ .

وهو ينظر إلى صِيغةِ الفعل (كُونُوا) من جهتين : من جهةِ الغرضِ البلاغيّ . ومن جهةِ المعنى المحمول في مادة الأمر : «الكون» .

وكأنّه يفلتك إلى وجه العدول عن قولنا (تآخوا عباد الله) إلى قوله صلّى الله عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ وسَلّمَ : «كُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا» ففرق لا يغيمُ بيْن أن تقولَ لصاحبِك : «برّ والديك» وأن تقول له : كن بارًّا بوالديك . يقُول الشيخ :

«وفعلُ الأمرِ فِي قَولِه ﷺ معناه النّصحُ والتَّوجيهُ إلى عملِ الصّالحاتِ . ومعناه أيضًا صِيروا وتحوّلوا أي غالِبوا نوازعكمْ وغرائزكمْ المعارضةِ لِهذه الأخوةِ وافتحوا قلوبكمْ وعقُولكمْ حتّى تتقبّلَ الآخرين ، وروّضُوها علَى المعايشةِ الهادئةِ والناعمةِ والطيبةِ حتّى تألفُوا وتؤلفوا . وهذا من الذي تستطيعونَه ، ولو لم تستَطِيعوه مَا كلفتمْ به

لا بدّ أن تخرجَ مِن السّردابِ المغلقِ الّذِي تطوِي نفسَك فِيهِ ، وتنفرَ مِمّنْ يُخالفك فِي الدّينِ أو فِي الفكرِ أوْ في السّلوك ، ولابدّ أن تتحركَ فِي الفضاءِ الأوسعِ ، فتَقبلَ الآخرين ؛ لأنَّ الله ما نهاك أنْ تبرّ الذينَ خالفوك فِي الدين ما دامُوا لَم يُقاتلوك ولَم يُخرجوك ، ولم يُظاهروا على إخراجك»[(١)]

الشَّيخُ في بسطه ما اكتنزه الأمر بفعل (كونوا) يهديك إلى أنّ تحقيقَ هذا الكونِ ليس أمرًا عفويًّا بل هو يحتاجُ إلى إعدادٍ واجتهادٍ وعزم ، لأنّه حمالٌ في رحمه تكاليف جدّ عظيمة ، هي على الرَّغم من ذلك ممّا يمكن للإنسان ـ إن أراد وعزم ـ أن يقوم به خيرَ قيام ، ففي هذه الإرادة وذلك العزم الصادق سبب في أن يكونَ له عونٌ من الله تعالى عليْهِ ، فإنه جَلَّ جَلالُهُ إذا ما قام في قلبِ المرء إرادة الخير وعزم عليه ، واتخذ له أسبابا بسط الله تعالى عليه من عونه ما يجعل العَصِيَّ في نظر الآخرين جدّ يسير عليْه . ممّا يدْهشُ الآخرين أنّى

---

(١) شَرْحُ أحاديثَ منْ صَحِيحِ مسلم ٢/٦٨١ .

لذلك أن يقومَ بمثل هذا ، وما علموا أنه أراد وعزم واستعد ، فكان له من الله تعالى عظيم العون . ﴿ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ (آل عمران:١٥٩) ولذا أَكَّد الشّيخ هذا بقوله : وهذا من الذي تستطيعونَه ، ولو لم تستَطِيعوه مَا كلفتمْ به» يريدُ أن يقول لي كلُّ ما تكلَّف به أي تلزم بإيقاعِه أو تلزم بتركِه ، وإن كان في نفسِه ثقيلا ، أو كان في نظر الآخرين ثقيلاً ، فليس عليْك إلا أن تُريد ، وأن يصدق عزمُك ، وأن تستفرغ جُهدك في اتخاذِ الأسْباب ، وليس عليك من بعدُ شيْءٌ ، بل الله سُبْحانَه وَتَعالَى هو المتكفِّلُ بما وراء ذلك .

وإذا ما كان أهلُ المروءة من عبادِ الله تعالى إذا علموا صِدق مُريدٍ للخيرِ وقوةَ عزمِه عليْه وقوةَ اجتهادِه في اتخاذ الأسباب له كانوا في عونِه ، وتأييدِه ومؤازرتِه ، فكيف بالله سُبْحانَه وَبِحمدِه الّذي عرَّفنا بنفسِه قائلا جَلَّ جَلالُهُ : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ (الفاتحة:٢-٣) في مفتتح سورة «أم القرآن».

أحضَرَ سُبْحانَه وَتَعالَى في سَمعِنا وقلوبنا حمدَه ، وربوبيَّته العالمين ، ورحمانيّتَه البَسيطة المديدة الفسِيحةَ الّتي لا تتناهَى اتّساعًا وسُبوغًا ، ورحيميته التي لا تتنهَى عظيم فضلٍ وجلِيله . ؟!!!

وهذا يهديك إلى أنَّ تحقيق هذه المفردات من الأفعال الجسام التي سردها الشيخ لتحقيق الكون إخوانًا لا تتوقف إلا على أن تريد هذا وأن يصدق عزمك ، وأن تتخذ الأسباب ثم دَع الأمر للذي أمرك على لسان رسُوله صلّى الله عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ وسَلَّمَ : «كُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا»

يمضي الشَّيخ إلى أن يلفتَنا إلى ما في هذا الحديث الجامع بين الرَّذائل المُتآخية أو المُتقاربة ، ويصف هذا النَّهج بأنّه «جيد في كلام سيدنا رسُول الله صَلَواتُ اللهِ وسَلامُه عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ ، وأنا أفهم كلمة «جيد» هُنا من

الجُود لا مِن الجَودة كما هو في الإدراك المجتمعي الآن لكلمة «جيد» ، أفهم أنّ «جيد» هو الجَواد الذي يُفيض عليْك من اللطائف ما تتوقعه وما لا تتوقعه .

وتراه يمضي مبينا أثر هذه الجمع بين المتآخيات والمتقاربات قائلاً : «وهو يعينُ على الحفظٍ ، وهو مِن عوامل خفّةِ بيانِه ، ونعومةِ بيانِه ، وقربه من القلوب والعقُولِ ، وهُو ممَّا تُسميه «البلاغة» فِي «البديع» : «مراعاة النظير» وهو كثيرٌ في كلامه صَلَواتُ اللهِ وسَلامُه عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ تجدُ رحمًا جامعةً لِكثيرِ مِن كلامِه ، وهي رحِمٌ مَوصُولةٌ غير مقطوعةٍ ، وكأنّها صُورةٌ لِقلوبِ أمتِه اقتَربتْ ، فتألفتْ .

وَمِن العجيبِ أنْ تجدَ التآلفَ فِي اللبنات الّتي بُني منها البيانُ الذي يدعو الأُمّةَ إلى أنْ تتآلفَ ، وتتقاربَ وتتساند ، كما تآلفتْ هذه الكلمات ، وتقاربتْ وتساندتْ .

وهذا ممَّا يُمكنُ أن يكونَ مِن «تصاقب المباني لِتصاقبِ المعاني» وكلّما غلغلتَ النَّظرَ فِي كلامِهِ ﷺ وقعتَ على خبايا في زوايا . راجع تآلف الوزن والرَّنين . . .» [(١)]

يلفتنا الشّيخُ إلى أثرِ التلاقِي بين المعاني والمباني في عالم البيان ، وأن هذا الذي هو قائمٌ في عالمِ البيانِ الذي هو صنعة الإنسان الأحرى أنْ يكونَ أكثرَ حضوراً ، وأمكن في عالم الإنسان ، فيكون لهذا التآلفِ بيْن أبناء هذا العالمِ الإنسانيّ موقعًا عليًّا ، وكأنَّ الشَّيخ يَنعى على عالم الإنسان أن يحرصَ على إقامة التآلف في معانيه وصورها وهي ولائد قلبه ، ولا يحتفي بإقامة هذا التآلفِ بيْن أبناء صُلبِهِ ، فكأنَّه نتيجة انفصام في السّلوكينْ ، من يعشق شيئًا ويحتفِي بتحقيقه في بابٍ هو الحفيّ به في كل باب ، ولكنّه «الإنسان» حليته النِّسيان .

* * *

---

(١) شَرْحُ أحاديثَ منْ صَحِيحِ مسلم . ٦٧٢/٢، ٦٧٣ .

والشَّيخُ ذو اعتناء بالغٍ بعلاقات المعاني وتآخيها وترتيبِ مواقعها على نسقٍ معينٍ لها على أن تتولجَ القلوب ، وأن تتمكَّنَ فيها ، ممَّا يجعلُه يناظرُ بين رواياتِ الحديثِ الواحدِ ، ويتبصّر مواقع المعاني وترتيبها في الرّوايات وما بينها من اتفاق وافتراق . ويعمد إلى تأويل ذلك وتعليلِه . يقول : « وقد جاء هذا الترتيبُ فِي الرّوايةِ التي رأسُها « إِيّاكْ والظّن » واختلفَ فِي الرّوايات الَّتي ليس لها هذِه الرَّأسُ .

وَوجه هذا الاختلاف هو أنّ المقصُود النّهي عن كلّ رذيلةٍ مِن هذه الرذائلِ نهيًا مستقلاًّ ، وكأنّ كلَّ رذيلةٍ بلاءٌ برأسِهِ أفضَى إلى غيرِه أو لم يُفضِ».

يلفتنا إلى أنّه لو جاء نسق المنهي عنه من الرذائل في الرّوايات كلّها على وتيرة لفهم أنَّ هذه الرَّذائلَ متوالِدةٌ : أنّ الثَّانيةَ وليدةُ والأُولى ، ووالِدةُ الثَّالثة ، وهذا يُضعِفُ النَّهي عَن كلّ رَذيلةٍ ، لأنّه لو قلْنا بالتَّوالُدِ لكان هذا كالقيدِ في النَّهي أي أن القصدَ النّهيُ عنها حين تتوالد . والسّياق قائمٌ لتشديدِ النَّهي عَن كلّ رذيلةٍ على حِدة ، لاباعتبارِ توالُدِها مِن غيرِها . . .

وهُو في هذَا ينظرُ إلى طبيعةِ ما يُتكلَّمُ فيه (الرَّذائل) وإلى القصدِ وسياقِ الكلام ، وما يقتضِي حال المَنهيّ عنه من الرَّذائل ، وحال المُتكلم في الإشفاق على من ينهاها . . . . كلّ ذلك أعلَى شأنَ الرَّغبةِ عن إيهامِ أنَّ المنْهِيَّ مَنظورٌ فِيهِ إلى توالدِ الرذائل بعضِها من بعضٍ . ذلك بعضٌ مِن نهجِه في تأويلِ الظَّواهر وعدولها عمَّا يُمكنُ أن يتوقعَ .

* * *

ومِنْ هذا هدايتنا إلى أهمية قرن النظائر لاستخراج ما لا يسْتخرجُ بغيرِ ذلك الاقتران : « تَجدُ فِي كلامِ سيّدنا المختار صلّى الله عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ وسَلّمَ حِين نَضَعُ بَعضَهُ بِجوارِ بَعضٍ يُعطيك عطاءً لا تَجدُه إذا درستْ بعضَ كلامِهِ بِمعزِلٍ عنْ بعضٍ »[1]

(١) شَرْحُ أحاديثَ منْ صَحِيحِ مسلم : ١/٢٢٥

كأنّي بالبيان في رؤية الشّيخِ يقوم بالإحسان إلى الجارِ ذي القربَى يترابحان فيتراحبان ، ويَتسعُ أفقُ الرّؤية لِما في كلٍّ مِن دقائقِ المعاني ولطِيفِها وطريقها ، ممّا يُقيمُك في جنة التلقّي والفهم ، فتدركُ ما لم تر عينُك وما لم تسمعْ أذنك ، وما لم يخطرْ على قلبك من قبل أن يتحقق هذا الإحسان بيْن الجار ذي القُربَى..

وإذا ما كان هذا في عالم البيان ، فكيفَ هُو في عالمِ مِن يصنع البيانِ ؟

ومن ثَمَّ تراه يُناظر الأحاديثَ المُتشابِهة والمُتقاربِة ، وكذلك يناظرُ رواياتِ الحديثِ الواحدِ ليرَى ما بيْنها من اختلافٍ واتفاق واجتماعٍ وافتراقٍ ، وأيُّها أصلٌ تفَرّعَ عليْهِ غيرُهُ ومقتضِياتِ ذلك كلِّه ، وأثرَه في المعنَى وفِي النفسِ المستقبِلةِ ذلك البيان ومخرج هذا فيما يبدُو لي يرَى كلّ معنًى إنسانًا له بالآخرين علاقاتْ اختلافٍ واتّفاقٍ ، وله مأمٌ أعظم يَؤمّون إليه ، فيجعل مِن وكده قراءة العلاقات بين المعاني ؛ لأنَّها من باب علاقاتِ الإنسان بالإنسان . وكأنّي به يَستَحضِرُ وهو قائمٌ بشرح بيان النّبوة قولَ الله تعالى : ﴿ **يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ** ﴾ (الحجرات:١٣)

من هذا ما تراهُ في صَنيعه في ثلاثة أحاديث جمعها في سياقٍ :

ما رواه مسلمٌ عَنْ ثَوْبَانَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ « لاَ تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِى ظَاهِرِينَ عَلَى الْحَقِّ لاَ يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ حَتَّى يَأْتِىَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَذَلِكَ ».

وَمَا رَواه عَنْ جَابِرِ بْنِ سَمُرَةَ عَنِ النَّبِىِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ « لَنْ يَبْرَحَ هَذَا الدِّينُ قَائِمًا يُقَاتِلُ عَلَيْهِ عِصَابَةٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ ».

وَما رَواه عَنْ عُقْبَة قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ « لاَ تَزَالُ عِصَابَةٌ مِنْ أُمَّتِى يُقَاتِلُونَ عَلَى أَمْرِ اللَّهِ قَاهِرِينَ لِعَدُوِّهِمْ لاَ يَضُرُّهُمْ مَنْ خَالَفَهُمْ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ وَهُمْ عَلَى ذَلِكَ ».

يناظرُها فَيرَى أنَّ حديث « عقبة » : « لاَ تَزَالُ عِصَابَةٌ مِنْ أُمَّتِي . . . » يرجعُ إلى حديثِ ثَوْبَانَ : « لاَ تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي . . . » رجوعًا ظاهرًا ، وكأنَّه رواية أُخرَى مع شيْءٍ من اختلافٍ أَوْجَبَهُ اختلافُ الكلمِ لا النّظمِ ، فهما على مِنوالٍ .

وحديثُ ثوبان ، وحديثُ « سَمُرة » : « لَنْ يَبْرَحَ هَذَا الدِّينُ قَائِمًا . . . » يقُومان على بيان أمرينِ :

الأول : بقاءُ الدّين قائمًا ، والآخر أنّ ثَم طائفةً رسالتُها الدِّفاعُ عَن هذا الدّينِ الذي هوكهفها الحافظ ، وهو نورُها الهادِي .

والتَّبصُّرُ يُريك فرقًا جَوهريًّا في مِنهاجِ الإبانةِ والإفهامِ في كلٍّ ، ويعمَدُ الشّيخُ إلى بيانِ هذا الفرقِ ، وهو يَستهل بيانَه بتعيينِ رأسِ المعنى ومركزِه في كلٍّ ، وهذا يرسُم لنا معالمَ الطَّريقِ فِي المُناظرة بين الأشباهِ والنّظائرِ .

وهذا الباب : بابُ ما يختلفُ فيه المتناظرانِ وما يتَّفقان فيه وما بيْنهما مِن تغايرٍ وتشاكُلٍ ومقتضياتِ ذلك ، وأثره هُو جوهر صِناعةِ العقلِ البلاغيّ فِي البيانِ ، والتوفيقُ فيه مفتاحُ التوفيقِ فيما وراءه ؛ لأنّ حسن الفهمِ لذلك يترتبُ عَلَيْهِ حُسنُ الفهمِ لما بُنِيَ عَلَيْهِ .

يذهبُ الشَّيْخ إلى أنَّ رأسَ الأمرِ في حديثِ « ثوبان » هو الإنباءُ عَن الطَّائفةِ النَّاصرةِ للدّين ، ورأسُ الأمرِ في حديثِ « عُقبة » هو الإنباءُ عن أمرِ هذا الدّينِ المَنصُورِ .

الشّيخُ هنا يلفتنا إلى مخرجِ المعنى في كلّ حديثٍ ، وإلى الجهةِ التي هِي أصحّ لتأديتِه ، علَى نحو ما أبان به عبدُ القاهر عَن الطّريقِ إلى تحقيق حسن دلالة الكلامِ على معانها وتمام هذه الدّلالةِ وإحكامها[١] .

---

(١) دلائل الإعجاز : ص ٤٣ فقرة : ٣٥ .

وكأنّي بالأوَّل اقتضاه افتقارِ الأمّة إلى بيانِ مسؤوليتها إزاءَ هذا الدّين الحقّ المُطلق الّذي هو لها النورُ والكهفُ وجاء حديثُ «ثوبان» مطابقًا لمقتضى حال هذه الأمَّةِ ورسَالتها ، فجعل الحديثَ عنها هو رأسُ الأمرِ فيه . وكَأنّي بالآخر : حديثِ «عقبة» اقتضاه افتقارِ هذه الأمةِ من بعدِ بيانِ مسؤوليتها إزاءَ هذا الدّين الحقّ إلى ما يقُيمُ في قلبها أنّ هذا الدينَ الخاتم كتِبَ له الخلودُ والانتصارُ ، وأنَّه إن مُني حماته يومًا بالانكسارِ في حلقة من حلقاتِ المجاهدة ، فإنَّ هذا الدّين الحقّ باقٍ منصُورًا يُقيّضُ الله جَلَّ جَلالُهُ له من يقوم لنصرته ، ويقُوم بمنعتِه . وهذا يجعلُ الطائفة النّاصرة للدّين على يقين من الانتصار إن قامت بما هو عليها .

وهذا فيه أيضًا بيانُ الجِهة الّتي أُتِي إلى المعنَى مِنها ، فكان الدخول إليه مدخلا كريمًا .

وكأنّي بحديثِ : عقبة «تالٍ لحديثِ» ثوبانَ في الإيرادِ والإنباءِ النَّبويّ . وهذا يُمكن أن يفتح لنا بابَ ترتيبِ إيرادِ الأحاديثِ في البابِ الواحد من المعانِي من جهةِ ما سِيقت له ، وعلاقة بعضِها ببعضٍ ، وهو بابٌ بِكرٌ جَموعٌ للطائف والطرائفِ لم يُستزرَع على النَّحوِ الَّذي هُوأليقُ بِهِ مِن جِهةٍ ، وأليقُ بالعقلِ البلاغيّ العربيّ أن يشتغلَ به بَدَلا من الاشتغالِ بما يقيئه العقلُ الأعجمي ، من مذاهب لغوية وأدبية ونقدية وفلسفيّةٍ فتسارع ثلة المستغربين إليه غَرثَى . المهمّ أنّ الشّيخَ يستخلصُ من هذا تعادلا لمنزلة كلّ من الطائفةِ النّاصرةِ والدّين المنصُور ، وأنَّ هنالك تلازمًا بيْنهما وجودًا وبقاءً[1]

وهذا يُفهمُ أنَّه إذا ما كان بقاءُ هذا الدِّينُ حَقيقةً قارّةً لا يتوقفُ فيها مُتوقفٌ ، فإنّ وجودَ هذه الطائفة النَّاصِرة كذلك ، فحفظُ هذه الأمَّة مِن حِفظِ هذا الدّينِ الّذي تكفَّل اللهُ تعالَى بِه ﴿ **إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ** ﴾ (الحجر:٩)

(١) شَرْحُ أحاديثَ منْ صَحِيحِ مسلم ١/٣٨٦، ٣٨٧ .

فهي أُمَّةٌ محفوظةٌ من الله تعالى بحفظِ القرآن وهذا يقيمُ في قلبِ هذه الأمّة أنّه لَن تكونَ جائحةٌ تجتاحُها مِن قوّة البَغيِ مَهْما بلغَتْ الأمةُ المسلمةُ في الضَّعفِ ، ومهما بَلَغت قُوَى الشّرّ فِي الاستفحالِ وتكاثر العَدَد والعُددِ وتنوعها .

وليس ثَم أُمّةٌ كان دينُها دينًا خالداً غيرَ هذِه الأمّة .

وليس ثَم أمَّةٌ اقترن بقاؤها ببقاءِ دينِها غيرَ هذِه الأمّةِ .

وليس ثَم أمةً اقترن بقاءُ لسانها فصِيحًا محفوظًا معلومًا دقيقُه ولطيفه لفظًا ومعنًى ، وكلمًا وتراكيب ومنهاج إفهامٍ وفهمٍ ببقاء دينها غير هذه الأمة . .

وهذا يقيم في قلوب أبناءِ هذه الأمّة ثقلُ المسؤولية المُلقاة على عاتقِهم ، إذْ جعلَهم الله سُبحانَه وتعالى سببًا من أسباب حفظِ هذا الدِّين مَنصوراً .

وهذا مِن تكريمِ هذِه الأمَّةِ وتشريفِها ، فاستحالَ تكليفُها تَشرِيفًا ، ومآلُ كل تكليفٍ في هذا الدين إلى تشريفٍ لمن قام له ، وقامَ بِه ، ولو أنّا نظرنا إلى هذه الحقيقة لهشَّت نفوسُنا لكل تكليفٍ ، واستبشرت بكلّ أمرٍ أو نَهيٍ ، ورأت في ذلك مطية تقربها إلى ربها جلّ جَلالُه .

وإذا ما كانت الأممُ السَّابقة تجتهدُ في تخليدِ ذكرها عبْرَ وسائلَ تَصطَنِعُها هِيَ بِنفسِها لِنفسِها على نَحو ما فَعلتِ «الفَراعِنة» إذْ خلَّدت ذكرها بصناعتها في الآثارِ الحجريّة ، وعلى نحْو ما صَنعتْ «يونانُ» إذْ خلَّدت ذكرَها في الفلسفةِ والمنطقِ ، وعلى نحْو ما فعلتِ «العربُ» قبلَ الإسلام إذْ خلَّدت ذكرها فِي الشّعْرِ ، فإن هذه الأمّة المُسلمة لم تصطنع لنفسِها وسيلةَ تخليدها ، بَلْ صَنعَها لها خَالِقها : جَعلَ خُلودَها وخُلودَ ذكرهِا بيْن الأُمَم بِخلُودِ هذا الدِّينِ ونُصرتِهِ . وهذا ما لم يكن لأمّة غيرِها .

وإني لمؤكد ذلك تأكيدًا مقرونًا بقوله الله تعالى : ﴿ **إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٖ كَفُورٍ** ﴾ (الحج:٣٨)

في هذِه الآيةِ وعدٌ إلهيٌّ صَادِقٌ مُتضَمِّنٌ شرْطَ تحقُّقه : تحقّقَ الإيمانِ ممَّن وعدُوا بالدّفاع عنهُمْ : « الذين آمنوا » وكأنَّ في هذا تقريرًا لما يفهم بـ « مفهوم المخالفة » أنَّـه لا يدافع عن غيرِهم ، بل يدع ذلك لأنفسِهم ، وليس أنكى من أن يدَع الله جَلَّ جَلالُهُ أحدًا إلى نفسِه ، فيكونُ فِي هذا دمارُه لمَحالة .

وهذا ما يؤكده منطوق قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴾ .

وفي قوله ﴿ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾ إعرابٌ عنْ أنّ الدّفاع عَنهم لن يكونَ فحسبُ بما يكون من غيرِهم من الذين كفروا أو فسقوا أو مرَدُوا على مجاهرة الله تعالى بالمعاصِي من دعاة « الدّولة المدنيّة » التي لا يكون فيها الإسلام إلا حبيس المساجد والمنازل ، وغير مأذون له بأن يكون في غيرِهما بل يكون الدفاع عن الذين آمنوا من الله سُبْحانَه وَتَعالَى بذلك وبما عند ربك من جنــده ﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَۚ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ ﴾ (المدثر:٣١) وبمقدار تحقيقهم الإيمان في قلوبهم ومسلكهم في الحياة ، وبمقدار ما يجعلون من الإسلام عقيدة وشريعة وأخلاقًا نورًا وسيفًا يكون دفع الله سُبْحانَه وَتَعالَى عنهم

وإذا ما كان البيان القرآني يقول : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾ بكلّ ما يتضَمَّنه من مؤكداتٍ تقرِّر مضمونَ هذا النّبإِ الإلهي الحقّ ، وكان « الّذين آمنُوا » هم في أول مدرجةِ مِعراج القرب من الله سُبْحانَه وَتَعالَى ، فكيف بمَن هُم فوق هَذه الدّرجة : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾ (النحل:١٢٨) وهي معيَّةٌ أوسعُ وأعظمُ مِن الدّفاع عنهم . فهل لنا أنْ نفهَمَ عن الله سُبْحانَه وَبِحمدِه فهمًا يُرى أثرُه في سُلوكِنا ؟

* * *

والشيخُ يغرينا ـ طلابَ العِلمِ ـ في رِفقٍ بأن نقومَ إلى باب جمع الأحاديثِ ذات المعنى ، لِنبصِرَ ما بيْنها مِن علاقاتِ اتفاقٍ وافتراقٍ ، وأنْ نعملَ على الوفاءِ بحقِّ هذا البابِ . يقُولُ : « ولَوْ أتيحَ لِي أنْ أجمعَ الأحاديثَ الّتي تناولتْ مَعنًى

واحدًا ، وأَبانتْ عَنْهُ فِي بيانينِ مختلفينِ علَى حدِّ ما بيّنتُ فِي هذينِ الحديثينِ . أقولُ لَو أتيحَ لِي ذلك لَفعلْتُهُ ؛ لأنّـهُ مُهمٌّ جدًّا فِي معرفةِ أسرارِ بيانِه صَلَواتُ اللهِ وسَلامُه عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ وَمعرفةِ أقدارِ المعاني التي تنوعتْ طرائقُ الإبانة عنها »[1]

والشّيخُ يعزفُ على وترِ شغفِ طلابه بِصنعِ ما يُرضِيهِ وما يُحبُّ أن يفعلوا ، فهم يتنافسُون في إرضائِهِ ، وفي أن تكونَ لهم عندَه زُلفَى ، وأن يصنعُوا ما تقرُّ بِه عينُه جزاءً له على ما أسدى إليْهم من جليل الفضلِ ، وهو يستشعرُ ذلك من حال بعضِ طلابِ العلمِ حولَه ، فيُبرِزُ لهم أمانِيه في صِناعة العلم ، التي لم يسبق في وسع وقته وجهده ما ينجزُه ، فيتنافسُ أولئك الطّلاب في تحقيق أمانيّ شيخهم سبيلا من سُبل البرّ به ووفاءً ببعضِ حقّه عليهم . وهذا من الشَّيْخ مذهبُ تربويٌّ يَسوقُ طلابَ العلم إلى استزراع الخيرِ ، واستثمارِه ، والدّال على الخيرِ كفاعلِه

* * *

والشَّيخ حَفِيٌّ في مواضعَ عدّة بأن يبرزَ لنا خصائصَ هذا البيان النَّبويّ ، وهواحتفاءُ أفهمُ منه إغراءنا طلابَ العلم بالبحثِ عن هذه الخصائص في البيانِ النّبويّ بأنفسِهم ، وتبصر علاقتها بالبيان القرآني من جهة ، وعلاقتها بالغاية التي يكون لها هذا البيان النبوي ، فهم إن فعلوا علموا علم يقين أنَّـهم ليسوا بأهلٍ لأن ينفقُوا أعمارهم وجهودهم فيما ما لا يكون من هذا البيان بسبب أو في ما لا يؤدّي إلى حسنِ تلقيه ، وفهمه « ومَنْ قَصَدَ البحرَ استقلَّ السواقيا ».

يقُول في معرض بيان سنة بيانية لرسولِ الله صلّى الله عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ وسَلّمَ تتمثل فِي تقاربِ الحذو في الأحاديث النبوية : « ... وهذا المنوالُ أو هذا

(١) شَرْحُ أحاديثَ منْ صَحِيحِ مسلم : ١/٣٧٨، ٣٨٨ .

المذهبُ أو المنزعَ فِي البلاغة النبوية يُعين على حفظِ هذه الأحاديثِ الّتِي هِي من أصُولِ الدينِ ، وذلِكَ بِتَيْسيرها وتكرار مِنوالِها ، وإن اختلفتْ ألفاظها .

ثُمّ إنّها ذات قيمةٍ أخرَى ؛ لأنَّ هـذَا الأسـلوب العـالِي ، والسّـهل ، والعـذبَ يُساعدُ قارئَ السّنةِ علَى صَقلِ ملَكتِهِ اللسانيةِ ، وإلَى زيادةِ قُدرتِه البيانيّةِ .

وحَقِيقةُ العِنايةِ بالبيانِ فِي هذِه الأمّةِ ليْسَتْ التّفاصُحَ ، والتّعالمَ ، وإنّمـا هِـي منْ أصُولِ الدينِ ؛لأنّـه لاَ يُقرّبكَ مِنْ كلامِ الله سُبْحانَه وَتَعالَى ،وكلامِ رسُولِه ﷺ شَـيْءٌ كَمَـا يُقرّبـك الإحسَـاسُ البيـانيّ الَّـذِي يُعينـك علَـى اسْتكشَـافِ خَفَايَـا البيان »[1]

قول الشيخ : « وهذا المنوالُ أو هذا المذهبُ أو المنـزعَ فِـي البلاغـة النَّبويـة يُعين على حفظِ هذه الأحاديثِ الّتِي هِي من أصُـولِ الـدينِ ، وذلِـكَ بِتَيْسـيرها وتكرارمِنوالِها ، وإن اختلفتْ ألفاظها ». أيكون ذكره « المنـوال » و« المَـذهب » و« المنزع » من قبيل التكاثر أمْ هو يلفتني إلى مناطات النظر في البيان : أيكونُ « المنوال » منظوراً فيه إلى أثر أدوات الفعل في تحقيق الانسـجام ، فهـو يتخـذ أداة ينسج عليْها كلامه . فيكون متقاربًا غيرَمتفاوتٍ في نسجه ومنسوجِه .

والعربُ تقول : وإذا استوتْ أَخلاقُ الْقَوْمِ قِيلَ : هُمْ عَلَى مِنْوَالٍ وَاحِدٍ ، وَكَذَلِكَ رَمَوْا عَلَى مِنْوَالٍ وَاحِدٍ أَي عَلَى رِشْقٍ وَاحِدٍ ، وَكَذَلِكَ إِذَا اسْتَووا فِي النِّضال .

أَوَ يكونُ « المذهب » منظوراً فيه إلى مسلك الفعل ، ومسارِه ومدرجِه الـذي يجري عليْه ، ومستوى الحركةِ ، لأنّ الذهاب فيـه إشـارة إلى مسـتوى الحركـةِ ونوعها . ومتجهها .

وفي كلمة « المذهب » إشعاربالسيرورة والديمومة والاطراد وسمـي كـذلك لأنَّـه يذهب فيه بالبيانِ إلى القلوب على نهجٍ سواء .

---

(١) شَرْحُ أحاديثَ منْ صَحِيحِ مسلم ٥٨٧/٢

أَوَ يكون «المنزع» منظوراً فيه إلى مخرج الفعل ومصدره فلكلّ فعلٍ باعثُ عليْه ومنزع ينـزع منـه ، وكلمـة «منـزع» تشيرُ إلى مـا ينتـزع منـه الفعـل ، ومستخرجه ، والعرب تقول : انتزعت هذا من قولك ، ونزعته أي استخرجته ، فالكلامُ منازع المعاني ، وهم يقولون : إن الكلام من الكـلام . فـالكلام الفاعـل في القلوب لا يخلقُ من عدم ، وإنما ينتزع من أصولٍ عريقة في صَنعةِ البيان

فتكون الكلمات الثلاث هاديةً إلى تحقق الاستواءِ في البيان لأنّـه خـرج مـن مخرج واحد ، وكان بمنوال واحد وجرى على مذهبٍ واحد ، فأنّـى يختلف؟!!!

واستواءُ البيان آية على استواءِ النَّفسِ التي خرج منها ، فـإذا مـا رأيـت بيـانَ الرَّجـل ذا رقـاعٍ متنوعة فـي صِياغة المعنـى في البابِ الواحد ، فهذا آية علـى ما يعتلج في نفسِه من اضطراب وتفاوتٍ .

أيكون لي أنْ أذهب إلى أنَّ الشيخ يرمِى من الجمع بيْن هذا الكلمات الثلاث إلى شيءٍ ؟ لعلي حُمتُ حول حماه . وإِلاَّ . . .(١)

---

(١) رغبتُ من هذا أن أحمل النَّاشئة في طلبِ العلم أن تكونَ لهم عنايةٌ بطريقة الإفهام لدَى أهلِ العلم الأعيان ، فلا يكتفِي طالبِ العلم بأن يفهم عن شيخِه مقصده ، بل حبذا الوقـوف عنـد طريقتِه فـي الإبـانـة والإفهـام . فالظنُّ بأهـل العلم الأعـيان أنـّهم لا يعمدَون إلى الترادفِ الأجرد ، ولا إلى التّكاثر ، فقولُ الله سُبْحانَه وَبِحمدِه ﴿ **أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ** ﴾ قائم في صدورهم ، وهم يستحضرون أيضًا في صدورهم تنفيرَ سيّدنا رسول الله صَلَواتُ اللهِ وسَلامُه عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ من «التفيهق»

ومن كمالِ العلم أن تَتعلّمَ كيف تُفهِم الآخرين بعد أن تتعلَّم كيف تَفهَمُ عن الآخرين. وهذا لا يتأتّى إلا بالعناية بفقه طرائق الإفهام عند الأعيان ومناهجهم في الإبانةِ واختيار الكلم والكلام والصّنعة في ذلك ، وفي منهجهم إلَى استدراك مرادتهم ومقاصدهم .

وظنّي أن النّاشئة في طلب العلم لو جعلوا من عمرهم وجهدهم نصيبًا للنّظر في منهاج كلّ من الأستاذ مصطفى صادق الرّافعي ، والدكتور محمد عبد الله دراز ، والأستاذ الأكبر محمود شاكر ، وشيخنا ، وتفرغوا لأن يتعلموا منهم منهاج الإبانة ،==

وقوله : «يُعين على حفظِ هذه الأحاديثِ الّتِي هِي من أصُولِ الدينِ ، وذلِكَ بتَيْسيرها وتكرار مِنوالِها ، وإن اختلفتْ ألفاظها . «فيه لفتٌ إلى المثنَـي ، وإلى المغزَى من وراء هذه الطريقة في الإبانةِ النبوية ، فاستقرارِ هذه الأحاديث الـذي هو ضرورة من أنها أحاديث في أصول الدين يجعلها فاعلة في القلبِ الذي إذا استقام استقامت الحياة . وهذا مطمح نبيلٌ بل جليل رئيس ، لا يُغفل عن الوفاءِ بحقّه البتة .

ويلفت الشيخ إلى أن هذا النَّهج في الإبانة النبوية له أثر في السامع والقارئ من حيث امتلاكه مهارة الإفهامِ ، فهي مهارة مكملة مهارة «الفهم» والله سُبْحانَه وَبِحمدِهِ في قوله : ﴿ **عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ** ﴾ (الرحمن:٤) كان البيان المعلّم للإنسان بشطريه : بيان الفهمِ وبيان الإفهام . ﴿ **وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٣١ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ۝٣٢ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ** ﴾ (البقرة:٣١-٣٣)

فمن امتلك مهارة الفهم عن الآخرين ، ولم يكن ممتلكًا مهارة الإفهام ، فهـو ناقصٌ في آدميَّته من هذه الجهة ، والرَّغبة عن ذلك رغبـة عَـنْ الانتفـاع بنعمـة الرّحمن ، وفي هذا مِن سوءِ الأدب مع الله تعالى ، وكفى بالعبد إثما أن يسيئ الأدب مع ربّه سُبْحانَه وَبِحمدِه . فلو لَم يكن من تعلم مهارة «الإفهام» إلا أنـّه يحقق محبوب الله تعالى : أن يرى أثر نعمتِه على عبدِه لكافاه .

== وحملوا من معجمهم ، كلما وتراكيب وجعلوا من ذلك زادهم لكانت لكلٍّ طريقة منسولة من أولئك الأعيان ، فكان لبيانهم ولتفهيمهم الآخرين خصُوصية ، وطابعٌ . «إن الكلام من الكلامِ» ومثلما تَسْمعون تُسمِعون .

وبلفتنا الشيخ إلى أمر جليلٍ في توظيف نعمةِ « الفهم ، والإفهام » في أصول التربية الإسلامية ، أن التميز في هذه المهارة ليس تحقيقًا للتّفاصُحَ ، والتّعـالمَ ، وإنّما هِي منْ أصُولِ الدينِ ؛ لأنّـه لا يُقرّبـكَ مِـنْ كـلامِ الله سُبْحانَه وَتَعـالَى ، وكـلامِ رسُـولِه ﷺ شَـيْءٌ كَمَـا يُقرّبـك الإحسَـاسُ البيـانيّ الـذِي يُعينـك علَـى اسْتكشَافِ خَفَايَا البيان ، وقد أثر أنَّ « مَنْ تَعَلَّمَ صَرْفَ الْكَلاَمِ لِيَسْبِىَ بِـهِ قُلُـوبَ الرِّجَالِ أَوِ النَّاسِ لَمْ يَقْبَلِ اللَّهُ مِنْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ صَرْفًا وَلاَ عَدْلاً » (١).

معنى « لِيَسْبِىَ بِهِ قُلُـوبَ الرِّجَـالِ أَوِ النَّـاسِ » أي ليكـون لـه سـلطان عليهـا يصرفها إلى مراداته ومطامعه ، وليس إلى مرادِ الله تعالى ومرضاتِه . فمن تعلَّم صرفَ الكلام ليسوقَ قلوبَ الرّجال إلى ما يُرضي الله سُبْحانَه وَبِحمدِه فهُو مّمن يقبل الله تعالى فعله ، ويقبلُ عليْه ، كما تقضِي سبيلُ « دليل الخطاب » (مفهوم المخالفة) في الأفهام

* * *

---

(١) ضعَّف الألباني رفعه إلى رسول الله صَلَواتُ اللهِ وسَلامُه عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ ، ولذا لم أشأ أن أسنده ، وهو في معناه سديد ، يتلاقَى معناه مع أحاديث أخر صَحيحة ، فالضعف من قبلِ السند ، لا من قبل المعنى .

ينظر في هذا « صحيح وضعيف سنن أبي داود » للألباني (رقم : ٥٠٠٦) وضعيف الجامع الصغير للألباني (رقم : ٥٥٢٩) وضعيف الترغيب والترهيب للألباني (رقم : ٨٧)

ومعالم السنن : شرح سنن أبي داود . تأليـف : أبـي سليـمـان حـمـد بـن محـمـد ابن إبراهيم الخطابي (ت : ٣٨٨هـ) نشر : المطبعة العلمية . حلب . ط(١) عام : ١٣٥١هـ . ١٣٦/٤ ، والكاشف عن حقائق السنن : شرح مشكاة المصابيح تأليف : شرف الدين الحسين بن عبد الله الطيبي (ت : ٧٤٣هـ) تحقيق : عبد الحميد هنداوي ، نشر : مكتبة نزار مصطفى الباز . مكة المكرمة ط(١) عام : ١٤١٧ هـ .

٣١٠٧/١٠ رقم (٤٨٠٢) ومرقاة المفاتيح شـرح مشـكاة المصـابيح ، تـأليف : المـلا علي القاري : علي بن سلطان محمـد ، الهـروي (ت : ١٠١٤هــ) نشـر : دار الفكـر ، بيروت ط(١) عام١٤٢٢هـ . ٣٠٢١/٧ رقم (٤٨٠٢)

الفصل الرابع

قضَايا كليّة قي قراءة الشَّيْخ بيان النُّبوّة

القضية الأولَى : تحقيق القول في وحي البيان النبويّ وإعجازه .

تقومُ هذه القَضيةُ مِن أمرين :

الأوَّلُ : تحقيقُ القولِ في أنَّ بيانَ النّبوَّةِ وَحْيٌ .

والآخر : تحقيقُ القولِ فِي مَوقعِ بيانِ النُّبوّة مِن الإعجازِ ، والأمرُ الثَّاني مُترتبٌ على الأوَّل ، لذا كانَ الابتداءُ بِه

تحقيق القول في أنّ بيان النبوة وحي .

جاءت كلمة «وحي» في البيان القرآني واقعةً على الإنسان نبيًّا ، والإنسان غير نبيّ ، ولغيرِ الإنسان .

﴿ إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيۡمَٰنَۚ وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا ﴾ (النساء:١٦٣)

﴿ فَأَوۡحَىٰٓ إِلَىٰ عَبۡدِهِۦ مَآ أَوۡحَىٰ ﴾ (النجم:١٠)

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمۡ لَنُخۡرِجَنَّكُم مِّنۡ أَرۡضِنَآ أَوۡ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَاۖ فَأَوۡحَىٰٓ إِلَيۡهِمۡ رَبُّهُمۡ لَنُهۡلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ (إبراهيم:١٣)

﴿ إِذۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴾ (طه:٣٨)

﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ (القصص:٧)

﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴾ (النحل:٦٨)

﴿ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴾ (فصلت:١٢)

﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۝١ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ۝٢ وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا ۝٣ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ۝٤ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴾ (الزلزلة:١-٥)

هذه يجمعها معنى الإنباء بأمرٍ جليلٍ في خفيةٍ . والَّذي يَعنينا هنا هُو إيحاءُ الله تعالى لأنبيائه ورسولِهِ عَلَيْهِم الصَّلاةُ والسَّلامُ،وفي مقدمتِهم سيدُنا محمّدٌ ﷺ أكانَ الله تعالى يُوحِي إليه القرآنَ والسّنة ، عن طريق جبريل عَليْه السّلام ، أم أن الوحي عن طريقه خاصٌّ بالقرآن .

للعلماءِ فِي هذا حديثٌ وسيعٌ عميقٌ[1] .

الذي هُو الأعلَى عندِي من خلال البصر بمقالات أهل العلم أنَّ القرآن كانت له طريقُه الخاصُّ بِه فِي الوحيِ بِهِ عَن طريق سيِّدِنا جِبْريلِ عَليْه السّلام . وهـذه الطريقةُ هي التي كان يعتري سيِّدنا رسُولَ الله صَلَواتُ اللهِ وسَلامُه عَلَيْـهِ وعَلَـى آلِهِ وَصَحبِهِ من الأحوال ما هُومعروفٍ عندَ الناشئة من طلابِ العلمِ ، وأنَّـه كان وحيًا بالمعنى وصورتِه ونسَقه آياتٍ ونجوم ومعاقد وسورًا وقرآنـًا مفتتحـه أم القرآن ، ومختتمُه سورة النَّاسِ ، ليس لأحدٍ مِن البشرِ في أيّ شيْءٍ مِن هذا شرو نقير ، وكذلك طريقُ أدائه وتلاوتِه .

---

(١) لمن شاء بسطة عرفان في هذا أن يرجع إلى كتاب : مناهل العرفان في علوم القرآن . تأليف : محمد عبد العظيم الزُّرْقاني (ت: ١٣٦٧هـ) ط(٣) نشر : مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه . ٦٣/١

أمّا غَيرُ القرآن ، ولا سيّما السُّنة ، فللعلماء اشتجار قول وسيع .

غيرُ قَليل منْهم على أنّ السنة وحيٌّ ، ومنهم من ذهبَ إلى أنّ جبريل كان ينزلُ بالسّنةِ كما ينزلُ بالقرآن .

وقولهم : (كما ينزلُ بالقرآن) أمناط التشابه ، هو نزول جبريل بها على طريقةٍ أخرى ، أم نزوله بها على طريقةِ القرآن .

ظاهرُ الأمر أنّ نزوله بها ـ إذا ما ثُبِتَ ـ لا يكون بطريق نزول القرآن ، بدَلالة أنّه لم يكن يَعتري سيّدنا رسُولَ الله ﷺ عندها ما كان يَعْتريهِ عندَ نُزولِ القُرآنِ ، فاختلافُ الحالَيْن آيةٌ بيّنةٌ علَى أنَّ المُنزلَيْن ليْسَا سواءً فِي طريقَةِ التَّنزيلِ والإيحاءِ . فإذا ما ذهبنا إلى أنّ السّنة وحي ، فما مناط الوحي منها :

أهو المعنى وصورته ، أم المعنى وحده ، والصورة من صَنعة سيّدنا رسُول اللهِ صَلَواتُ اللهِ وسَلامُه عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ . ؟

ممَّا يستأنسُ به ما رواه أبو داود في كتاب «العلم» من سننه بسندِه عَنْ زَيْدِ ابْنِ ثَابِتٍ قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ «نَضَّرَ اللَّهُ امْرَأً سَمِعَ مِنَّا حَدِيثًا فَحَفِظَهُ حَتَّى يُبَلِّغَهُ فَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ إِلَى مَنْ هُوَ أَفْقَهُ مِنْهُ وَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ لَيْسَ بِفَقِيهٍ»(1).

فهذا دالٌّ على أنّ الحرصَ على منطوقه ﷺ أعلَى ، ممّا يستأنس به أنّ منطوقَه كمعناه ، فهو أهلٌ لأن يُحافظَ عليْه ، وأن يُبلَّغ كما سُمع . وفي قوله ﷺ : «فربّ حامل فقه . . . إلخ» ما يُفهم منه أنّه لو جاء الرَّاوي به على نحو مقارب لمنطوقه لكان الّذي في منطوقه من المعاني غائيًا عمّا كان مقاربا ،

---

(1) ورواه الترمذيّ في جامعه وابن ماجه في سننه ، والنسائي في السنن الكبرى ، وأحمد في مسنده ، الدارمي . في سننه وابن حبان في صحيحه والحاكم في المسْتدرك والحمديدي في مسنده والبزار في مسنده ، والطبرانيّ في المعاجم الثلاثة ، والشافعيّ في مسنده (وصَححه الألباني)

وذلك لا يفقهُه إلا بصيرٌ ، وكَـانَ ابْـنُ عُمَـرَ رَضِـيَ اللهُ عَنهمـا « إِذَا سَمِعَ مِـنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حَدِيثًا لَـمْ يَعْـدُه ، وَلَـمْ يُقَصِّـرْ دُونَـه » كمـا أخـبر ابـن ماجـه ، والدارمي في سننهما .

وروى ابن ماجه في مقدمة سننه بسنده عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْـنِ أَبِـي السَّـفَرِ ، قَـالَ : سَمِعْتُ الشَّعْبِيَّ يَقُولُ : « جَالَسْتُ ابْنَ عُـمَـرَ سَنَةً ، فَمَـا سَـمِعْتُهُ يُحَـدِّثُ عَـنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ شَيْئًا » (صَححه الألباني).

وكـان عبدُ الله بـن مسعود رَضِـيَ اللهُ عَنــه يمكـث سنــة ، لا يقـول : قـال رسُـول الله ﷺ ، فـإذا ما قـال : قـال رسُـول الله ﷺ أخـذتـه الرّعــدة ، ويقُـول أو هكذا »

وروى ابن ماجـه فـي مقدمة السنن بسنـده عَـنْ عَمْـرِو بْــنِ مَيْمُـون ، قَـالَ : « مَا أَخْطَأَنِي ابْنُ مَسْعُودٍ عَشِيَّةَ خَمِيسٍ إلا أَتَيْتُهُ فِيهِ ، قَـالَ : فَمَـا سَـمِعْتُهُ يَقُـولُ لِشَيْءٍ قَطُّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ، فَلَمَّا كَانَ ذَاتَ عَشِيَّةٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّـهِ ﷺ ، قَالَ : فَنَكَسَ » قَـالَ : « فَنَظَـرْتُ إِلَيْـهِ ، فَهُـوَ قَـائِمٌ مُحَلَّلَـةً ، أَزْرَارُ قَمِيصِـهِ ، قَـدْ اغْـرَوْرَقَتْ عَيْنَـاهُ ، وَانْتَفَخَتْ أَوْدَاجُـهُ » قَـالَ : أَوْ دُونَ ذَلِـكَ ، أَوْ فَـوْقَ ذَلِــكَ ، أَوْ قَرِيبًا مِنْ ذَلِكَ ، أَوْ شَبِيهًا بِذَلِكَ » (صَححه الألباني)

وروى ابن ماجه أيضا بسنده كانَ أَنَـسُ بْنُ مَالِكٍ رَضِيَ اللهُ عَنـه « إِذَا حَـدَّثَ عَنْ رَسُولِ اللَّـهِ ﷺ حَـدِيثًا فَفَـرَغَ مِنْـهُ قَـالَ : أَوْ كَمَـا قَـالَ رَسُولُ اللَّـهِ ﷺ » (صححه الألباني)

و« كان مالك يتقي في حديث رسول الله ﷺ الياء والتاء ونحوهمـا » . كمـا جاء في مسند الموطأ لأبي القَاسِمِ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بنُ عَبْدِ اللهِ بنِ مُحَمَّدٍ الغَافِقِيُّ ، الجَوْهَرِيُّ المالكي (ت : ٣٨١هـ) (رقم ٤٦)

وقد كان مالك شديد التحرّي في حديثِ رسُول الله ﷺ ، كان كما أنبأ

الربيع سَمِعْتُ الشَّافِعِيَّ ، يَقُولُ : « كَانَ مَالِكٌ إِذَا شَكَّ فِي بَعْضِ الْحَدِيثِ طَرَحَهُ كَلَّهُ »

وكان أحمد بن حنبل على جلاله في العلم والحفظِ لا يحدِّث إلا من كتاب ، أنبأ ولده عبد الله قال : ما رأيتُ أبي على حفظِه حدث من غيرِ كتابٍ إلا أقلّ منْ مئة حديثٍ »[1]

كلّ هذا يُبين لك عن عظيمِ العناية بمنطوق رسُول الله ﷺ مما يستأنسُ به على أنَّ منطوقه كالوحي من الله تعالى إن لم يكنْ وحيًا . .

وإذا ما أردْنا أن نبصرَ شأنَ الأمرِ عند شيْخنا : أبيانُ رسُول الله ﷺ عنْده مِن الوحي؟ فإنْ كان فما مناطُ الوحي : أمعناه وصُورتُه أم معناه دون صُورتِه؟

الأكثرُ ظهوراً وحضُوراً فيما جاء في كتابِ شيْخنا : « شَرْحُ أحاديثَ منْ صَحِيحِ مسلم » أنّ البيان النَّبوي وحْيٌ من الله سُبْحانَه وَتَعالَى إلى رسوله صَلّى اللهُ وسلَّم عَلَيْه وَعلَى آلِهِ وصَحبِهِ ، غيرأن ثمّ في الكتابِ ما قد أتوهّم أنا منه أنّ الشيخَ يشيرُ إلى أنَّ بعضَ هذا البيانِ ليس وحيًا ، إنّما هو محمديُّ المصدرِ معنى وصُورة ، وهذا مِن حقه عليَّ أن أَتلبّثَ في بيانِه أَعرضُ ما توهمتُ لعلّي أجدُ مَن يأخذ بيدي ، فأستدركُ الصّواب :

في سياقِ مناظرته أكرمه الله تعالى برضوانه ثلاثة أحاديثَ من بابٍ ليرى ما بينها من اتفاق وافتراق :

حديث « أربع من كنّ فيه كان منافقًا خالِصًا ... » أو « آيَة المنافق ثلاثا ... » وحديث « ثلاثةٌ لا يكلّمهم اللهُ يومَ القيامةِ . . . » يذهبُ الشَّيخُ إلى أنّك إذا وضعتَ هذه الأحاديثَ إزاءَ بعضِها ألفيت فرقين ظاهرين :

---

(١) اللماع إلى معرفةِ أصُولِ الروايةِ وتقييد السماع . تأليف القاضِي عِياض بن موسَة الْيَحصُبيّ (ت:٥٤٤هـ) تحقيق السيد أحمد صَقر ، ط(٢) ١٣٩٨هـ، نشر دار التراث . القاهرة ، والمكتبة العتيقة . تونس . ص : ٢٢٥

أمَّا الفرق الأوّل فهو بيانٌ لِسياق الحالِ لما يصوّره البيانُ ، هذا لا مراجعة فيه عندي .

وأما الفرق الآخر ، فهو بيانُ مَخرجِ البيانِ ومرجعيَّتُه ، وهذا فيه نظرٌ :

الفرقُ الأول : « أن حديث « أربع من كن فيه » أو « آية المنافق . . . » إنّما هو بيانٌ لما هو قائمٌ من أمراضِ النّفاقِ في بعضِ الأمّة ، فهو كشفٌ لواقع حالٍ يُمكن أن يستصلح ، ففي الوقت فُسحةٌ للمراجعة والتّوبِ .

بينما حديث « ثلاثة لا يكلمهم الله . . . » فهو بيانُ حالِ ثلَّة مِن الأمَّة ونحن جميعًا بيْن يدي الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يومَ القيامة ، فهو كشف لواقع لا يتأتي فيه الاستصلاح والهَوْدُ . وهذا مُسلَّمٌ للشيخ .

والفرق الآخر : أن قول النبيّ صلّى اللهُ عليْهِ وعلَى آلِهِ وصَحبِهِ وسَلّم ـ : « أربعٌ مَن كن فيه ... أو قوله » آية المُنافق . . . « ليس من بيان النُّبوّة المحضِ ، بل هو ممّا استنبطه النّبيُّ صلّى اللهُ عليْهِ وعلَى آلِهِ وصَحبِهِ وسَلّم من بيان الوحي (الكتاب) أو استنبطه بفراسته من واقع الأمّةِ ذلك ممّا قد يتسلل إلى قلبِ القارئ قول شيخنا : « لو قلت إنّه من استنباطه عليْه السّلام ومن اجتهادِه واستخراجِه ومتابعته لمرضِ قُلوبِ أهلِ النفاقِ ومواقعها في الكتاب .

أقولُ : لو قلت هذا لَجازَ أن يُقبلَ منك ، بَلْ لو قلتَ : إنّ هذا الذي استخرجَهُ رسُول الله ـ صلّى اللهُ عليْهِ وعلَى آلِهِ وصَحبِهِ وسَلّم ـ من أحوالِ هذه الطبقةِ مِن البشرِ ، وهم المنافقون يُمكنُ لأهلِ العلمِ بأحوالِ الناسِ . . . . ، وأهل الحِكمةِ والبصيرة منهم يُمكنُ أن يصِلوا إلى ذلك ، وأنّه يُمكنُ أن تقرأ مثلَ في كتابٍ لِباحثٍ فِي أحوالِ الغرائزِ الإنسانيةِ .

أقولُ : لو قلتَ هذا لَكانَ كلامًا جائزًا أن يُقبل منك ، بخلافِ حديث« ثلاثة لا يُكلمهم الله » لأنَّ هذا لابدّ أن يكون وحيًا . . . وإذا كان كلامُه صلّى اللهُ عليْهِ

وعلَى آلِهِ وصَحبِهِ وسَلّم كلّه مطبوعًا بِخاتمِ النبوةِ ، فإنَّ هذا الخاتمَ أظهـر فِـي بعضِ كلامِه من بعضٍ ، وخاتم النّبوةِ هنا أظهر جدًّا»[(١)].

صدرُ كلامِ الشَّيْخِ أنّ من بيانِ سيِّدنا محمَّدٍ صلّى اللهُ عليْهِ وعلَى آلِهِ وصَحبِهِ وسَلّم ليسَ من بيان الوحي ، أي ليس مخرجه إعلامٌ بغيبٍ من الله تعالى وحيًـا إليْه ، بلْ هوإلى الحِكمةِ والِفراسةِ التي هو أميرها ، وأنّـه صَلّى اللهُ وسلّم عَلَيْـه وَعلَى آلِهِ وصَحبِهِ استنبطه مـن الـوحي (الكتـاب) أو مـن خـلالِ التّفـرسِ فِـي أحوالِ النَّاسِ ، هو قراءة له من كتاب الوحي (القرآن) أو كتاب الكونِ والحياة ، فالطابعُ المُحمَّديَّ ، لا النبويّ هو الحاضـرُ في بعـضِ البيـان ، ولا يكـون هـذا وحيًا ، بل فراسة في قراءة الوحي أو الكونِ . هـذا مـا فهمـتُ مـنْ صـدر كـلام شَيْخنا ، وهو محلُّ نظرٍ سيأتي .

وعجزُ كلام الشيخ يفهم منه أنَّ كُلَّ بيانه صلّى اللهُ عليْهِ وعلَـى آلِـهِ وصَـحبِهِ وسَلّم مطبوع بخاتم النّبوة ، وأنّ بعضـه يتفـاوت في هـذا ظهـوراً لا حضـوراً ، فجميعُه طابعُ النُّبـوّةِ فيـه حاضـرٌ ، وهـذا يلزمُـه أن يكـونَ كلامـه صَلواتُ اللهِ وسلامه عليْهِ وعلَى آلِه وصَحبِهِ مِن أفـقِ الـوحيِ ؛ لأنـّه لا يكـونُ عليـه طـابعُ النُّبوة إلاَّ إذا كان كذلك ، فلا يُوصفُ بيانُه بأنَّه بيانُ النُّبوّةِ أوعَليْهِ طـابعُ النُّبـوّة إلا كان مِن أُفقِ الوحيِ .

يقول أعزّه الله تعالى : « وإذا كان كلامُه صلّى اللهُ عليْهِ وعلَى آلِـهِ وصَـحبِهِ وسَلّم كلّه مطبوعًا بِخاتمِ النبوةِ ، فإنَّ هذا الخاتمَ أظهـر فِـي بعـضِ كلامِـه مـن بعضٍ ، وخاتم النّبوةِ هنا أظهر جدًّا»

فطابع النبوة هو طابع الإنباء بالغيبِ ليس للمُحمَّدية في محْمُولِه مِنْ معَـانِي الْهُدَى شيْءٌ .

---

(١) شَرْحُ أحاديثَ منْ صَحِيحِ مسلم : ١/٧٢، ٧٣ .

ما جاء في صدر كلامه من أن بعض بيانه محمديّ وبعض كلامه نبوي هو محل النظر عندِي ذلك أنه يفتح شُبهةً تتمثّلُ فِي أنّه إذا كان بعضُ بيانه كذلك ليس وحيًا ، فهل لأحدٍ أن يتوقفَ فِي الأخذِ به ، أو أن يعارِضَه ، أو يردّه ، فهو ممَّا يُردُّ عليْه ، فيكون قولُهم : كلٌّ يؤخذُ منه ويردُّ عليْه خلا رسول الله صلّى اللهُ عليْهِ وعلَى آلِهِ وصَحبِهِ وسَلّم قولاً غيرَ مُسلّم ؛ لأنَّ ما كان من بيانه محمديًّا ، فهو من نظره واجتهاده وفراسته ، وما كان كذلك كان محلاً للتَّوقّف في الأخذِ به . وبهذا لا يُفسَّقُ مَن توقّفَ أوْ رَدَّ فَضلا عَن أن يُكفَّرَ .

وهذا يفتحُ بَابًا في وجه الأغرار وأشباه العلمانِيين وأشباه الليبراليين ـ أقول أشباه ، لأنَّ العلمانيين والليبراليّين لَيسُوا بحاجة إلى هذا ، فهمْ يتوقّفون في كلِّ بيانِه صلّى اللهُ عليْهِ وعلَى آلِهِ وصَحبِهِ وسَلّم ؛ فالنبيّ صَلّى اللهُ وسلّم عَلَيْه وَعلَى آلِهِ وصَحبِهِ عندهم رجلٌ وهم رجال بل أن معارفهم وثقافتهم وعقُولهم أوسع وأغزر وأنفذ من معارفه وثقافته وعقله . . !!!!!

أقُولُ سيفتح هذا أمامَ الأغرار وأشباه العلمانيين وأشباه الليبراليين بابًا يردُّون بِه كلَّ حديث لا يتوافقُ مَع أهوائِهم ومصالحهم بدعوَى أنَّه من البيانِ المُحمديّ الذي هو استنتاج واجتهاد في فهم القرآن أو فهم الكون والحياةِ ، ولا غضاضة عليهِم إن اجتهدوا كما اجتهد ولا غضاضة عليهم إن توقفوا في الأخذ باجتهاده صلّى اللهُ عليْهِ وعلَى آلِهِ وصَحبِهِ وسَلّم وقراءته القرآن أو الأكوانَ ، والعلمانيون يبْتهجون بِدعْوَى أنّ النبيّ ﷺ مجتهدٌ في ما يقُول ، وهذا يلزَمه عندهمْ أنّ كل مُجتَهدٍ يُصِيبُ ويُخطئُ ، وهومثلهمْ .

ذلك هو مجملُ النَّظر .

لك أن تجيبَ عنْ هذا بأنَّ ما هو أقربُ إلى البيانِ المُحمّدي منْه إلى البيانِ النّبويّ له مِن حصَانةِ العقلِ الفِطريّ ومن الواقعِ المَشهُودِ مَا يُحاجزُ كلَّ ذي

عَقلٍ أن يتوقّفَ فِيهِ ، فضلاً عَنْ أن يتردّدْ . ما هو إِلى البيـانِ المُحمّـديُّ أقـرب يَحوطُه منطقُ العقلِ الفطريّ ، لا يُمكنُ لعقلٍ مُعـافًى مِـنْ داءِ الغفلَـةِ والشُّـبهةِ والضّلالةِ والجهالةِ أنْ يتوقّفَ ، فهو مِن مسلماتِ العقلِ الآدميّ[1]

وما كان كذَلِكَ كانتْ لَه من الحصَانةِ مَا للبيانِ النَّبويّ الذّي هُو إنباءٌ بـوحيّ مَحْضٌ ، فكلٌ مُحَصّنٌ من التّوقفِ فيه ، وإن اختلفتْ جهـةُ الحَصَـانةِ والحِياطـةِ والمُحاجَزةِ .

وَأَمرٌ آخر : ما هو مُحمّديٌّ فِي بيانِهِ هُو صُورةُ المعنـى الّـذي هـو وحـيٌ ، وهُو فِي صِناعتِهِ صُورة المعنى الموحَى إليْه مطابقٌ شَأنَ هذَا الْمعنَى مِـنْ كونِـه وحيًّا ، فصُورته عندي إنْ لَمْ تكـنْ وحيًـا كَـوحي المعنَـى فِـي الكيفيّـةِ ، فهِـيَ كالوحيِ إلهامًا وتوفِيقًا وتسْديدًا ، لا محيدَ عَنه ؛ لأنَّ فِـي الحيـدةِ عَنْـهُ مفارقَـةً للمطابقَةِ ، وتِلْك الّتِي لاتَكُونُ منْه ﷺ ، وهذَا مَا جعَلَ صُورةَ الْمعنَى فِي بيانِـه لايُصلّى بِها ، ولا يَحرمُ مسُّ قرطاسٍ رقّنتْ فِيه ، وبرغمٍ مِنْ ذلِكَ يُـدرِكُ أهـلُ العلمِ مَا لِهذِهِ الصّورةِ مِن قُدسِيةٍ علَى نحو ما أُثر عن البخاريّ ومالك وغيرهما إذا ماأرادوا أن يحـدثُوا عـن رسُـول الله صَـلَواتُ اللهِ وسَـلامُه عَلَيْـهِ وعَلَـى آلِـهِ وَصَحبِهِ ، كانوا يتخذون سمتًا وحالاً لا يكونُ إلا من تقديسِهم ما هو قـائمون لصِناعتِه . .

* * *

تحقيق القول في إعجاز بيان النبوّة .

حرى أن أسْتفتح بأنّ المعجزة لهـا مـدلولٌ لغـوي يتمثـل في ماكـان خارقًـا

---

(١) سبق أن فرقت بين ما هو إنساني وما هو آدميّ ، العقلُ الآدميّ عقلٌ فطريٌّ طهورٌ مـن داء الشبهاتِ والضلالات والأهواء المبيرةِ وأصحابُ هذا العقل هم أولو الألباب .

للعَادة . ولها مدلول اصطلاحيّ عند أهلِ العلم . يضيف إلى المدلول اللغوي شرطًا يتمثل في اقتِرانها بدعوى النبوة التَّحدّي[1]

وابن تيمية يذهب إلى أنّ الإعراب عنها بـ« الآية » هو الأعلى ، فهو المصطلح القرآني[2].

---

(١) « المعجزة فعل يظْهر على يَدي مدعي النُّبوَّة بِخِلاَف الْعَادة فِي زمَان التَّكْلِيف مُوَافقا لدعواه وَهُوَ يَدْعُو الْخلق إِلَى معارضته ويتحداهم أَن يَأْتُوا بِمثلِهِ فيعجزوا عَنهُ فيبين بِهِ صدق من يظْهر على يَده وَمَا من رَسُول من رسل الله تَعَالَى إِلا وَقد كَانَ مؤيدا بمعجزة أَو معجزات كَثِيرَة تدل على صدقه »(التبصير في الدين وتمييز الفرقة الناجية عن الفرق الهالكين ، تأليف : ابي المظفر : طاهر بن محمد الأسفراييني (ت: ٤٧١هـ) تحقيق : كمال يوسف الحوت . ط(١) عام ١٤٠٣هـ . نشر : عالم الكتب ـ لبنان . ص : ١٦٩

أو الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام وإظهار محاسن الإسلام ، تأليف : شمس الدين القرطبي : أبي عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري (ت : ٦٧١هـ) تحقيق : أحمد حجازي السقا ، نشر : دار التراث العربي ـ القاهرة . ص : ٢٣٩

أوشرح العقيدة الطحاوية ، تأليف : صدر الدين محمد بن علاء الدين عليّ بن محمد ابن أبي العز الحنفي ، (ت : ٧٩٢هـ) تحقيق : أحمد محمد شاكر . ط(١) ١٤١٨هـ نشر : وزارة الشؤون الإسلامية ، والأوقاف والدعوة والإرشاد السعودية . ص٥٠٧

(٢) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح ، تأليف تقي الدين أبي العباس أحمد ابن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية الحراني(ت: ٧٢٨هـ) تحقيق : علي بن حسن ، وآخرَيْنِ . ط(٢) عام ١٤١٩هـ . نشر : دار العاصمة ، السعودية . ٤١٢/٥

أو : النبوات . للتقي أبي العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية الحراني (ت : ٧٢٨هـ) تحقيق : عبد العزيز بن صالح الطويان . ط(١) عام : ١٤٢٠هـ. نشر : أضواء السلف ، الرياض . ١٢٩/١

مجمل الأمر أنّـه لا يكفِي في المعجزة أن تكون خارقة للعادة ، لا يسْتطاع مثلها ، بل لا بدَّ من شرط التحـدّي بهـا إثباتًـا لصـدق دعـوَى النبـوة ، فـإذا لم يتحقق ذلك الشرط لا تكون معجزة اصطلاحًا .

وبناء على ذلك لا يكونُ لسيِّدِنا محمّدٍ صَلَواتُ اللهِ وسَلامُه عَلَيْهِ وعَلَـى آلِـهِ وَصَحبِهِ إلا معجزة واحدة هي القرآن ؛ لأنـّه الذي تحدَّى بِه ، ولم يتحد بغيره ، وإن كانت هنالك خوارق قد وقعت منه صَـلَواتُ اللهِ وسَـلامُه عَلَيْـهِ وعَلَـى آلِـهِ وَصَحبِهِ . ولم يتحد بها .

والذي هو أعلَى عندي أنَّ شرطَ التّحدّي ليس شرط صحةٍ ، بلْ هو إلى شرطِ الحُسن أقربُ ، وأنَّ كلَّ ما وقع من الخوارق من رسُول الله صلّى الله عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ وسَلّمَ هو من المعجزاتِ ، وهي جدٌّ كثيرة ، وكان الرَسول صلّى الله عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ وسَلّمَ يُخبرُ بأشياء تكونُ فتكونُ كما أخبر فيقولُ إنّي رسول الله ﷺ ممَّا يهدِي إلى أنَّ ذلك آيةٌ على رسَالتِه .

والأستاذ الأكبر محمود شاكر يذهب إلى الإعراب بالإبلاس بدلاً من الإعجاز ؛ من أن الإعجاز يقتَضِي أن تكون هنالك محاولة ، يعقبها عجز ، فلا عجـز إلا بعد محاولة ، والإبلاس قطع الأمل من النفسِ عن أن تحدثه بالمحاولـة ، وهـذا أليَق بحال القرآن .[1]

* * *

يصرّح الشّيخُ بأنَّ بيان النُّبوة بيانٌ غيرُ معجـز ، وإن كـان وحيًـا ، فهـذا مـن مناطاتِ الفرق بيْن البيانِ القرآنِيّ والبيان النّبوي . يقول : « ومِن المفيدِ أنْ نَضعَ كلّ حديثٍ بِجانبِ الجملةِ القُرآنية التي استخرجَ منها ثُمَّ تُراجعُ المعنى فِي لفظ القرآن ، وفي لفظ الحـديثِ ، وأن نحـاول أن نتدبــر وأن نتـأمّــلَ الفــرقَ بـيْن

(١) ينظر مداخل إعجاز القرآن . الناشر : مطبعة المدني بالقاهرة ودار المدني بِجدة ، ص٤٥ .

كلامِه ﷺ الّذي هُو صَنعةُ لسانِه صلواتُ الله وسلامه عليْهِ ، وبيانِه (أيْ القرآن) الَّذي أنزلَه الله تعالى عليْه بلسانه العربيّ المبين . وهو الفرقُ بيْن المُعجِز ، وغيرِ المُعجِز . . .» [1]

مجملُ هذا أنَّ نَفيَ الشّيخِ الإعجازَ عن بيان النّبوّة إنّما هُو نفيُ الإعجازِ الّذي للبيانِ القرآنيّ ، وليس معنى هذا النَّفي أنَّه يذهبُ إلى أَنّ بملكِك أنْت أوْ مَن استجمعتَ مِن النّاسِ أن تقولَ قولاً يُضارعُ بيان النَّبيِّ صلّى الله عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ وسَلّمَ ، فهذا لا يقولُه مَن ذاق شيْئًا مِن بيانِ العربيَّة ، فكيف بشيخ علماءِ بلاغةِ العربية في زمانِه؟!!

تفصِيل القول :

ما في البيان النبويّ لا سبيل لأحد أن يأتي بما يتآخى معه في محموله من معاني الهدَى ، وفي صورةِ هذا المعنى ، لأن صُورة المعنى تنبثقُ منه ، أليست صُورته ؟

ولا سبيلَ لأحدٍ أن يأتِيَ بما يتآخَى معه في مساقاتِه الَّتي يستثمر فيها حال قولِه ، وحال تنزيله على واقعِ الأمّة .

والشيخ لا يكتَفِي بذكرِ هذا في موطن بل تراه يصرف البيان عن هذا في مواضعِ من كتبه ، لتَتمكَّنَ الحقيقةُ الّتي يراها في قلوبِ القُراء . تراه وهو يُناظر بين رواية رفع كلمة (صفائح) ورواية نصبها في قول رسُول الله صلّى الله عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ وسَلّمَ : «مَا مِنْ صَاحِبِ ذَهَبٍ وَلاَ فِضَّةٍ لاَ يُؤَدِّى مِنْهَا حَقَّهَا إلاَّ إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ صُفِّحَتْ لَهُ صَفَائِحَ مِنْ نَارٍ فَأُحْمِىَ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ ...». فيرى أنّ رفعها لا يدلّ على أن هذه الصفائح هي ذهبه وفضته التي لم يُزّكها ،

---

(١) شَرْحُ أحاديثَ منْ صَحِيحِ مسلم ١٤٦/١ .

وأنَّ النَّصبَ يجعلُ نائبَ الفاعلِ هو الذّهب والفضة أيْ صُفّحت له الذهبُ والفضة صفائح ، فهُو يُكوَى بها ـ يقول عن رواية النصب :

« وهذا هوالموافقُ للآية الَّتي هي أصلُ الحديثِ : ﴿ **وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ﴿٣٤﴾ يَوۡمَ يُحۡمَىٰ عَلَيۡهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكۡوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمۡ وَجُنُوبُهُمۡ وَظُهُورُهُمۡۖ هَٰذَا مَا كَنَزۡتُمۡ لِأَنفُسِكُمۡ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَكۡنِزُونَ** ﴾ (التوبة: ٣٤، ٣٥)

وهذا ظاهرٌ في أنَّ الذي يُحمى عليهِ في نارِ جهنَّمَ هُو المكنوزُ الَّذي لم تنفقْ زكاتُه فِي سبيلِ الله تعالى .

والحديثُ قد اقتبسَ من هذه الكلمة قوله عليْهِ السّلامُ : « فأحمي عليْها فِي نارِ جهنّم ، فيكوى بها » إلى آخره ، وقد تغيّر نسقُ الحديثِ عن نسقِ الآية تغييرًا خفيفًا :

الحديثُ يقُولُ : إذا كان يومُ القيامةِ صُفحَتْ ، وعبّر بالماضِي عن المستقبلِ ؛ لأنَّ ما هُو للوقُوعِ كالواقِعِ ، وكأنّه وقعَ ، وسيّدنا رسُولُ الله صَلَواتُ اللهِ وسَلامُه عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ يقصّ لنا قصّته .

والآيةُ تقولُ : ﴿ **يَوۡمَ يُحۡمَىٰ عَلَيۡهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ** ﴾ فأشارتْ إلى أنّه حدثٌ سيقعُ لاحظْ الفرقَ بيْن « فأحمى عليْها » وبيْن « يوم يُحمَى عليْها » وهذا التغييرُ الخفيفُ الَّذي خالفَ نسق الآية ذهب معه إعجازها البيانيّ ، وصارتْ فِي الحديثِ من كلامه ﷺ ، وإن بقيتْ جزالةُ القرآنِ مَع ما بقِي مِن ألفاظِهِ في كلامِه ﷺ .

ومثالُ هذا أن أقولَ : أقسمَ ربنا بالعصْرِ على أنّ الإنسانَ فِي خُسرٍ . هذا شيْءٌ ، وقولُه تعالى : ﴿ **وَٱلۡعَصۡرِ ﴿١﴾ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ** ﴾ (العصر: ١، ٢) شيءٌ آخرُ ؛ لأنّ تفكيكي لنسقِ الجملةِ القرآنية في أيّ عنصرين من عناصرها يذهبُ

بإعجازها السّاكن فِي نسقِها الذي نزلَ بِه جبريلُ عليه السلامُ ، ورحم الله عبد القاهر الذي تعلمنا منه هذا ، فقد كان يهتدِي بهدي الله »[1]

هذا قاطعٌ في أنّ بيان النبوة مهما كان علوّه وتبيينه بيان القرآن فإنّه يفقد ما يجعله غيرَ معجز في نظمه وإن احتفظ بما في القرآن من جلالِ المعنى ، وكأنّ الشيخ يذهبُ بك إلى أنّ أصل المعنى المُستكن في بيان النُّبوّة هو من معنى القرآن فلمّا صوره رسولُ الله ﷺ لمْ يبق فيه ما يُحقّق له ما كان له في بيان القرآن عنه من الإعجاز ، وإن بقي له جزالةً لا تكفي وحدها أن تجعله معجزًا ، وهذا يُفهم منه أنَّ الجزالة الباقية في البيانِ النبويّ مصدرها أصلُ المعنى القرآنيّ المُستكِنّ فيه .

وعلى الرَّغم من تقريرِ الشيّخ أنَّ بيان النُّبوة غيرُ مُعجز ، فإنّه يذهبُ إلَى أنَّ بيانَه ﷺ أسبقُ بيانٍ ، وأقربُهم إلى هذه الفِطرةِ الّتي هي النَّهجُ الأعلَى فِي التّعبيرِ عَن المعنى أيّ معنى ؛ لأنّه عليْه السلام أفصحُ مَنْ كانوا ، وأَفصحُ مَن سيكونُ إلى يوم القِيامة ، وكانتْ هذه الأحاديثُ الّتي هِيَ أبناء أبٍّ وأُمٍّ أقربَ إلى النّهجِ البيانِيّ الّتي يستطيعُه لسانُ البشر ، فليس لأحدٍ أن يتجاوزَ هذه البلاغةَ النّبويّةَ فِي الإبانةِ عَن هذه المعانِي ، وإنّما أدركَ جيلُ المبعثِ الإعجاز فِي الكتابِ أوّل ما سمعوه ، لأنَّهم رأوا فِيه النّهجَ الأعلَى ، والمَنزع الأعلى ، والسّمت الأعلى فِي العِبارةِ عَن كلّ معنًى تناوله ، فإِذا كان هناك نهجٌ أعلَى ، وكأنّه هو فطرةُ بيان هذه المعنَى ، وهُو الّذي تَسعَى إليْه الألسنة ، ويتقدمها لسانُ سيّد الخلقِ ، فإنّ الّذي هو في الكتابِ هو واقع الحُلُم البيانيّ الذي كان يَسعَى إليْهِ الكلّ ، ولَم يصلْ إليْه أحدٌ ، وقد ذكر الرّافِعيُّ شيئًا مِن هذا المعنى ، ولكنَّه ليس في

(١) شَرْحُ أحاديثَ منْ صَحِيحِ مسلم ٥٧٣/٢

هذا الموضُوعِ الذي أنا فيه ، والّـذي أثـارَه تلـك الأحاديـثُ التـوائمُ في طريقـة الإبانةِ ، والمختلفاتُ في المعانِي »[1]

غير خفيّ أن الشيخَ يذهبُ هُنا إلى أنّ أسبقِيَّة البيانِ لا تعـني إعجـازَه ؛ لأنّ الأسبقية لا تكون إلا في نسق متقارباتٍ بينها تفاضل وإن كان شاسِعًا ، يَحُـوزُ رأسَهَ دائمًا نمطٌ من البيان . أمَّا الإعجاز فليس هنالك نسـق متقاربـات . بـل إذا ذكر ، فلا يذكر إلا وحده وذلك للقرآن وحده ، فهو متفـردٌ تفـرّد المـتكلّم بـه سُبحانَه وتعالى .

وانظر قوله : « أسبقَ بيانٍ ، وأقربهم إلى هذه الفطرة » جعلُه في مقام مفاضلة هادٍ إلى أنّـه من جنسِ كلامِ النّاسِ وإنْ بزّهم وعلا عليهم أجمعين ، فليس عليه طابع الألوهية ، وإِن كان المعنى قد أوحاه الله تعالى إليْه .

وانظرْ قوله : « أقربهم إلى هذه الفطرة » فهـو دالٌّ علـى أن مخرجَـه الفطـرة البشريّة النّقاءِ ، والقرآنُ ليس كذلك ، فالفرقُ بيْن بيانِ النّبـوة وبيـان القـرآن لـه وجوه عديدة مِن أظهرها (أقواها) مخرج كلِّ معنًى ومبنى .

القـرآنُ كلـمـةُ اللهِ عـزّ وجـلّ ، والبيانُ النّبويّ كلـمـة سيّدِ الخـلـق ، وفـرق لا يُحاطُ اتساعُه بين المقامين . هوالفرق بيْن الله سُبْحانَه وَتَعـالَى ، وبـيْن كـلّ العالمين أجمعين . لا سَبيل إلى تصورِهِ فَضْلاً عَن الإحاطَةِ بِه .

أضِفْ إلى هذا أنّ القرآن يدركُ أصحابُ البيان بمجرد سماعه إعجازَه ، ولذا لا تُحدِّثُ عاقلا نفسُه أن يحوم حول الرّغبة في أن يقول قريبًا منه ، وهـذا هـو الإبلاس ، فالقرآن إعجازه إعجاز إبلاس . كما قال أبو فهر محمود شاكر[2] .

---

(١) شَرْحُ أحاديثَ منْ صَحِيحِ مسلم : ٦٦/١، ٦٧ .

(٢) مداخل إعجاز القرآن . الناشر : مطبعة المدني بالقاهرة ودار المدني بِجدة ، ص٤٥.

وتبصر قول الشيخِ : « هذه الأحاديثُ الّتِي هِيَ أبناء أبُ أبٍ وأُمٍّ أقربَ إلى النّهجِ البيانِيّ الّتِي يستطيعُه لسانُ البشر ، فليس لأحدٍ أن يتجاوزَ هذه البلاغـةَ النّبويّـةَ فِي الإبانةِ عَن هذه المعانِي » فهذا دالٌّ على نسق التقارب والانتهاء إلى استحالة أن يتجاوزه أحد ، فمجرد نعته بأنه أقربُ إلى . . . قاطعٌ بأنه غيرُ مبلس ، لأنّ الإبلاس ، قطع تحديثِ النفس بالمُقاربة . وهلْ يُمكن أن يذهب أحد من أهل العلم بالبيان أن تحدثه نفسه بمحاولة المقاربة لا المُنافسةِ .

فنفيُ الشّيخِ الإعجازَ عَن بيانِ النّبوّةِ لا يَعني أنّـه ذاهبٌ إلى إمكان أن يكونَ في كلامِه ﷺ ما يُمكن أن يُنافس وأنْ يُعطسَ بغبارِه ، كلاّ .

مقامُ الشّيخ في العِرفان بأقدارِ البيانِ لا يتوقّفُ أحدٌ البتَّة في التّسليم له بأنّـه فارسُه في زمانِه . هذا المقامُ يحاجزُ كلَّ مُنصفٍ عَن أنْ يتوهَّمَ مجرَّد توهّم أنّ الشَّيخَ يُلْمِحُ إلى إمكانِ أن يأتيَ بيانٌ يُقاربُ بيانَ النُّبوَّةِ إنْ في معناه أو فِي مَبناه .

الذي أوقنُه غيرَ متعجّلٍ ولا مترخّصٍ أنّ بيانَ القرآن الكـريم مُعجِزٌ مُبْلِسٌ اتخذَه النَّبيّ ﷺ آيةً على أنّـه رسُولُ الله ، وبيانُ النّبوة مُعجِزٌ لمْ يتخذْه النبيُّ ﷺ أية على أنَّـه رسُولُ الله. وهذا الإبلاسُ في حقّ البيانِ القرآنيّ آتيه مِن أُفق جلالِ الإلهيّة .

وأنتَ لا يُمكِن أن تجد بيانًا غيرَ القرآن يقال فيه حقا وصدقًا : ﴿ **لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ** ﴾ (الحشر:٢١) تبصّر الفاصلة : ﴿ **لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ** ﴾ وتبصَّر كيف أنّ الله سبُحانَه وَبِحمدِه أتبعَ هذه الآية المُصورة جلالَ البيان القرآنى بذكر أسمائه الحسنى : ﴿ **هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ**

﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝٢٣ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ (الحشر: ٢٢-٢٤)

مُجملُ القول في القضيّة :

أذهبُ إِلَى أنَّ بيانَ النُّبوّة بيانٌ معجزٌ ، لا قِبلَ لأحدٍ أنْ يأتِيَ بمَا يُقاربه البَتّة لا فِي مَحموله من معاني الهدَى ، ولا في صُورة محمولِه ، ولا فِي مَنهَجِ تولُّجِه فِي القُلوبِ ، ولا فِي أفاعِليهِ فيها ، ولا فِي مَساقاتِه الَّتي يُجريه فِيها .

بَلْ أزعُمُ على بصِيرةٍ ، أنّه صلّى الله عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ وسَلّمَ لَوْ لَم يَكُن القرآنُ هُوَ المُعْجزةُ الّتي تَحدَّى بِها ، والّذي استدَلّ بِها علَى أنّه رسُولُ من عندِ اللهِ سُبْحانَه وَبِحمدِهِ لَوْ أرادَ أن يَجعلَ بَيانَهُ هُوَ المُعجِزةَ الَّتي يَتحدَّي بِها ، والآيةَ الدَّالةَ فِي حُسنٍ وتمامٍ وتبرجٍ (إحكامٍ) علَى أنّه رسولُ الله صلّى الله عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ وسَلّمَ لكانَ له ذلك .

لذلِك أفهَمُ من قوله ﷺ : « أَلاَ إِنِّى أُوتِيتُ الْكِتَابَ وَمِثْلَهُ مَعَهُ » . (أبو داود : السنة) أنَّ مِن وجوه المِثليَّة أنّه لا يُمكِنُ أن يُؤتَى بِمثلِه . . . ، فهُوَ صلّى الله عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ وسَلّمَ أُوتِيَ مُعجِزتيْن :

الأولَى : معجزةٌ وقعَ بِها التَّحدّي (القُرآنُ) .

الأخرَى : مُعجزَةٌ لَم يقعْ بِها التَّحدّي ، (بيانُ النّبوّة) .

وقوله صلّى الله عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ وسَلّمَ (أُوتِيتُ) فيه من براعةِ الاستهلال ما فيه ، ومِن ذلِك أنّه لَم يكُنْ لَه مِن الأمرِ شيْء فِيهما : القرآنِ والسّنّة فَهُما عَطِيَّةُ الله سُبْحانَه وَبِحمدِه ، وإنْ اختلفَتْ سَبيلُ العطيّة لكلٍ .

وفي الإعراب عن بيانِه ﷺ بأنه (بيان نبوة) دلالة على أنّه آتٍ من أفق « النّبوّة » التي هي الوحي ، ولذا كان بيانًا يَصنع أمةً لها تاريخُ الأرض من بعد ، كما يقول الرَّافعي ، وهو كما يقول : فهو كلام كلّما زدتَه فكرًا زادك معنى ،

وتفسيره قريبٌ ، قريبٌ كالرّوح في جسمِها البشري ، ولكنَّه بعيدٌ بعيدٌ كالرّوحِ في سرِّها الإلهي ، فهو مَعك على قدْر ما أنت معَه ، إن وقفتَ على حدٍّ وقفَ ، وإن مدَدت مدَّ ، وما أديّت به تأدَّى ، وليس فيه شيْءٌ ممَّا تراه لكلّ بلغاءِ الدُّنيا مِن صِناعةِ عبثِ القولِ ، وطريقةِ تأليف الكلام ، إنّما هُو كلامٌ قيلَ ؛ لتصيرَ به المعانِي إلى حقائِقها ، فهُو مِن لسانٍ وراءَه قلبٌ ، ووراءَه نورٌ ، ووراءَه اللهَ جل جلاله »(١)

* * *

(١) من وحي القلم . لمصطفى صادق الرافعي ، مطبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب . سلسلة مكتبة الأسرة عام ٢٠٠٣م ٣/٨-١١ .

القضية الثّانية

المجاز في بيان الوَحي أسماءَ الله تعالى وصِفاتِه وأفعالِه

منطقُ العقلِ الفطريّ هو الرَّغبةُ عن الانسياقِ إلى القولِ بالمجازِ حين لا يتأتَّى له أن يُدرِكَ كيفيَّات الأحداثِ .

ذلك هو العروةُ الوثقَى ، لأنّه إقرارٌ بأنّ لهذا العقلِ المخلوقِ لله ربّ العالمين حدٌّ يقفُ عندَه ، وطاقةٌ لا سبيلَ له إلى تجاوزِها ، وأنّه كَمثلِ كلّ مخلوق لله سُبْحانَه وَتَعالَى غيرُ مطلق القدرة والفعلِ والمجال ، فَما مِن مَخلوقٍ إلا وحِلْيتُه العجزُ والعَوزُ . فلا يقالُ في شيْءٍ مَخْلوقٍ البتَّة إنَّه بكلِّ شيْءٍ عليمٌ ، وإنّه على كلّ شيْءٍ قدِيرٌ .

فمَن ذهبَ إلى أنَّ مِن العقول عقلاً له أن يَسْعَى إلى تصوّر حقائقِ المعاني والأشياءِ الغيبيّة وكيفيّاتها فكأنَّ لسانَ حالِهِ يقولُ : أنا لا أُومِنُ إلاّ بِما يَرَى عقلي وما يُحيطُ به .

جعلَ مِن عقلِه المُطلق مَصْدَرَ عِرفان ، بلْ جعلَ مِن عقلِه الأجردِ إلهًا يخضعُ لسلطانِهِ وتِلك هِي الحالقةُ الحارقةُ .

وإذا ما كان جمهرة أهل العلم إنْ لم يكنْ عظمهم قديمًا وحديثًا على أنّ المجاز سبيلٌ من سُبلِ الإبانةِ عن المعاني المكنونة في الصّدورِ ، وإيصَالها إلى القلوبِ وتمكينها فيها فإنَّ الَّذي يجبُ أن نكون منه على ذكر واستيثاقٍ أن ذلك ليس بالمطلقِ في كلّ معنًى(١) .

---

(١) بعض من أهلُ العلم قالوا إنَّ البيان كلّه حقيقة ، سواء كان بيان وحي أو غيرِه ، وأنّ كل كلمةٍ في سياقها وقرائنها هي دالة على معناها دلالة حقيقية ، وأنَّ الكلمة==

ثَمَّ معانٍ لا يقالُ فيها بالمجاز ؛ لأنَّ المجاز يقالُ بِه حين لا يكونُ العقلُ قادرًا على إدراك الحقيقةِ أو كانتْ الحقيقةُ عاجزة عن الوفاء بمرادِ المُتكلمِ .

يقُولُ أبو الحسن الرُّمانيّ (ت : ٣٨٤هـ) : « وكلّ استعارة حسنة فهي توجبُ بيانًا لا تنُوبُ منابه الحقيقةُ ، وذلك أنه لو كان تقوم مقامه الحقيقة ، كانت أولى به ، ولم تجز الاستعارة . » (١)

قوله : « لا تنوبُ منابَه الحقيقة » قولٌ حكيم ، فالمَجاز ، ورأسُه الاستعارة ، يَكون لمعانٍ لا قِبَلَ للحقيقةِ أن تكونَ لها ، ممَّا يجعلُ الذهاب إلى الاستعارة ضرورة إفهامية ، وهذا الذي لا تنوبُ الحقيقةُ فيه منابَ المجازَ (الاستعارة) ليس هو أصلَ المعنى غير المُصوّر ، بل ما هُو طَلبة أربابِ البيانِ ، أمَّا أصلُ المعاني البشريّة غيرِ المصوّرة ، فالحقيقةُ مقتدِرةٌ على أن تقومَ بِها .

والقول في « المجاز » قبولاً وردًّا ليس مناطُه المعاني البشريّةَ ، ولا معاني الوحي الّتي ليستْ من باب أسماءِ الله تعالى وصِفاتِه وأفعالِه ولا ما يتعلّقُ بالغيبِ . فمَن نازع في القول في غيرِ باب أسماءِ الله تعالى وصِفاتِه وأفعالِه

== خَارج الاستعمال لا ينظرإليها ، ولا توصفُ بأنها حقيقة أومجازٌ ، فالعِبرة بالاستعمالِ ، وهي موضوعة لما استعملتْ فيه وضعًا حقيقيًّا . وليس هنالك وضعٌ متعيّن لكل كلمة خارجَ الاستعمالِ إذا عدلتْ عنه كانتْ مجازًا ، الاعتداد بالاستعمال ، فحيث حلت في سياقٍ وقرائن ودلت على معنًى فذلك معناها الحقيقيّ .

(١) النكت في إعجاز القرآن . تأليف أبي الحسن الرماني : علي بن عيسى بن علي ابن عبد الله . (ت : ٣٨٤هـ) ط(٣) عام ١٩٧٦هـ ضمن : ثلاث رسائل في إعجاز القرآن [سلسلة : ذخائر العرب (١٦)] تحقيق : محمد خلف الله ، ومحمد زغلول سلام ، نشر دار المعارف بمصر ، ص : ٨٦

وما يتعلّقُ بالغيبِ كان الآنّ منازعًا فيما فرغَ منه ، واجترار القولِ في ذلك هو من إِضاعةِ العمرِ والجهد إلا في مقامِ التّعليم . .

* * *

في تلقي الشيخِ قولَ سيّدنا محمّد صلّى الله عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ وسَلّمَ : « مَنْ تَوَضَّأَ فَأَحْسَنَ الْوُضُوءَ خَرَجَتْ خَطَايَاهُ مِنْ جَسَدِهِ حَتَّى تَخْرُجَ مِنْ تَحْتِ أَظْفَارِهِ» . ينبئُ أنه يصعُبُ عليْهِ أن يجد « وجهًا للمجازِ مِنْ خروجِ خطايا الرّجلِ مِن تحتِ الأظفارِ .

والقَولُ بأنّ هذا منْ « ترشِيحِ المجازِ » قولٌ ينبو بِه البيانُ ، كما أنَّ كلمةَ « الخروجِ » المتكرّرةَ فِي كلّ حديثٍ تعنِي أنَّ هذه الآثامَ أجسامُ ، وأنّها تخرجُ من مَخارجها ، في الحديثِ ، تخرجُ مِن تحتِ الأشفار ، وتخرجُ مِنْ تحتِ الأظفارِ إلى آخرِه ، وهذا لا يصرفُ إلا إلى الحقيقةِ .

ولا تقلْ لِي إنّ قرينة الاسْتحالةِ توجبُ صَرفَه إلى « المجاز » ؛ لأنَّ قرينةَ الاستِحالةِ هذه تَكونُ فِي أفعالِ الْمخلوقين ، وفِي أحوالِهم ، كاسْتحالةِ أن ْترَى أسدًا علَى صَهوةِ جوادٍ ، أو بدرًا يُغنّي ، أمَّا أفعالُ الخَالقِ ، فلا يقالُ فِيها هذا ؛ لأنّها لا تخضَعُ للنّظامِ الّذِي نعرِفُهُ نحنُ ، وإنّما هِي هُناك مَعَ منظُمةِ الفعلِ الإلهيّ الّذي يَخضَعُ كلُّهُ لِكلمةِ (كُن) فيكون . . . . » [1]

قول الشيخ : « يصعُبُ عليّ أن أجدَ وجهًا للمجازِ مِنْ خروجِ خطايَا الرّجلِ مِن تحتِ الأظفارِ » . « يَهديك إلى أَنّه لا يعمدُ إلى قولٍ إلاّ مِن بعدِ أن يجربّ الوجوه الأخر ، ويسبرها ويقيسَها ويوازن بينْها ، وينتَهِي إلى ما هُو الأوفقُ الأوثق ، فيأخذُ بِه .

---

(١) شَرْحُ أحاديثَ منْ صَحِيحِ مسلم : ٢٢٧/١

يقِيمُ أمرَه على الصَّنعة ، والاختيارِ واستدراك الأعلى والأوفقِ ، لا على فَطير الرَّأي وخاطفِ الخاطر ، فهذا لَيْس من شأنِ أهلِ العلمِ وطلبتِه ، ولا سيّما العلمُ بكتابِ الله تعالى وسُنة رسُولِه صلّى الله عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ وسَلّمَ .

وفِي هذا مِن تربيتنا نحنُ طلاَّبَ العلم على الوفاءِ بحقِّ العلمِ أوَّلاً وبحقِّ من يتلقّى مِنا ما نسوقُه إلى قلوبهم . فمَن هَدْي النُّبوّة أنَّ الله تعالىّ يُحبُّ إذا عَمِلَ عبدٌ عَمَلاً أن يُتقنَهُ[1]

وفي قوله : «والقَولُ بأنّ هذا منْ «ترشِيحِ المجازِ» قولٌ ينبو بِه البيانُ» إعلامٌ بأنّ للبيان سلطانًا في حركة التلقّي والتأويل . والبيانُ هنا بيان عن فعلٍ إلهيّ ، وما كان كذلك ، كان هذا البيانُ موجبًا استحضار شأن صَاحبِ الفعلِ ، وتلقّي البيان على ما يليق بجلال صَاحب ما كان البيانُ عنْه . ، فالمتلقّي لا يصرّف التّأويل على وفقِ حالِه هو ، بلْ على وفقِ شأنِ صَاحب الفِعل الذي البيانُ عنه . فاستحضارُ جلالِ الإلهية وقدرتها ، صارفٌ عن القول بالمجاز ، وإذا ما كان استحضار الاستحالةِ العقليّة البشريّة صَارفا عن الحقيقة ، فحرى أن يكون الفصل لاستحضار جلالِ الإلهية وقدرته المطلقه سُبْحانَه وَبِحمدِهِ والذهاب إلى الحقيقةِ ، لا لاستحضار الاستحالة العقلية . وإلاَّ كان هذا من قبيل تقديم مقتَضى العقلِ البشريّ الّذي حليتُه النقصُ والعجز ، على مقتضَى شأن جلال ِالإلهية وكمالِها ، فمن فعل كان على سنن من قال الله سُبْحانَه وَتَعالَى فيهم : ﴿ **وَيَجۡعَلُونَ لِلَّهِ ٱلۡبَنَٰتِ سُبۡحَٰنَهُۥ وَلَهُم مَّا يَشۡتَهُونَ** ﴾ (النحل:٥٧)

---

(١) روى الطبراني في المعجم الأوسط عَنْ عَائِشَةَ ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : «إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يُحِبُّ إِذَا عَمِلَ أَحَدُكُمْ عَمَلا أَنْ يُتْقِنَهُ» وفي المعجم الكبير بسنده عن سيرين أخت سيدتنا مارية القبطية رَضِيَ اللهُ عَنهما
والبيهقي في شعب الإيمان من حديث أمنا عائشة رَضِيَ اللهُ عَنهما وصححه الألباني في السلسة الصحيحة ، (١١١٣) ، وحسنه في صَحيح الجامع الصغير (١٨٨٠).

﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ ٱلْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ ٱلْحُسْنَىٰ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ ﴾ (النحل:٦٢) (١)

* * *

وفي شرحه قولَ رسُول الله صلّى الله عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ وسَلّمَ : « إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ الْخَلْقَ حَتَّى إِذَا فَرَغَ مِنْهُمْ قَامَتِ الرَّحِمُ فَقَالَتْ : هَذَا مَقَامُ الْعَائِذِ مِنَ الْقَطِيعَةِ . قَالَ : نَعَمْ ، أَمَا تَرْضَيْنَ أَنْ أَصِلَ مَنْ وَصَلَكِ ، وَأَقْطَعَ مَنْ قَطَعَكِ ؟ قَالَتْ : بَلَى . قَالَ : فَذَاكَ لَكِ » ذكرَ أنَّ ممّن يؤخذُ عنه العلمُ ذاهبٌ إلى أنَّ الرَّحمَ قرابةٌ ونسبٌ ، وليست إنسانًا يقومُ ويستعيذُ ويخاطبُ ، وأنَّ كلّ ذلك تمثيلٌ وتصويرٌ [استعارة تمثيليّة] وأنَّ المعنَى والمغزى هُو بيانُ عظيمِ شأنِ الرّحمِ وعظيمِ الثّوابِ في وصلِها ، وعظيمِ العقاب في قطعِها ، ومِن أولئك الأعيان القاضِي عياضٌ رحمه الله تعالى وتأييد النَّوويّ مقالَه .

ويلفتنا الشَّيخُ إلى أنّ المجازَ والتّمثيلَ هنا ليس في آياتِ الذّات والصِّفات ، وأنَّه ممَّا يقلُّ التَّنازعُ فيه ، وكثيرٌ من أهلِ السّنة يقُولون بِه ما دام ليس في الذّاتِ والصِّفات

(١) ومن هدي القرآن ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾ (الطلاق:٢،٣) ومن هدي النبوة : فيما رواه أحمد في مسنده بسندِه عَنْ أَبِى قَتَادَةَ وَأَبِى الدَّهْمَاءِ قَالاَ كَانَا يُكْثِرَانِ السَّفَرَ نَحْوَ هَذَا الْبَيْتِ . قَالاَ أَتَيْنَا عَلَى رَجُلٍ مِنْ أَهْلِ الْبَادِيَةِ فَقَالَ الْبَدَوِىُّ أَخَذَ بِيَدِى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَجَعَلَ يُعَلِّمُنِى مِمَّا عَلَّمَهُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى وَقَالَ « إِنَّكَ لَنْ تَدَعَ شَيْئاً اتِّقَاءَ اللَّهِ جَلَّ وَعَزَّ إِلاَّ أَعْطَاكَ اللَّهُ خَيْراً مِنْهُ » .
فمن ترك الذهاب إلى التأويل المجازي إعلاءً لشأن الله سُبْحانَه وبِحمدِه على شأن العقل البشريّ في التأويل كان له من نعمة الفهم والتلقّي واستبصار دقيق المعاني وشريفها ، وأثرها في قلبِه ومسلكه ما لم يكن له لوأعلى شأن عقله . فالذهاب إلى الحقيقة فيمثل هذا أتقى وأبرك عطاءً وأطيب غذاء وأنجع دواءً .

ثم يلتفتُ إلى الوجه الآخر قائلاً : « ولك أن تقُول : إنّ صرفَ هذا إلى التمثيلِ يجعلُ قوله سُبحانه وتَعالى للرّحمِ : « أصل مَن وصلك وأقطع من قطعك » من باب « التَّمثيل » الّذي يُرادُ بِه تعظِيمُ شأنِ الرّحمِ وتَعظيمُ أجر واصلِها ، وتعظيم عقابِ قاطِعها ، وهذا شيءٌ يَضعفُ به المعنى ؛ لأنَّه لا شَكَّ أنّ المرادَ أنّ الله يصلُ واصلها ويقطع قاطعها حقيقةً ، وليست مجازًا »(١)

فهُو لمْ يَشأ أدبًا مَع الأعيانِ مِن العلماءِ أنْ يصرِفَ وجهك عن مقالهم ، ولم يشأ أن يقول لك إنّ هذا منهم جَرأة على اقتحامِ الغيبِ ، ولكنّه لفتك إلى أنّ الذي قالوه فيه إضعافٌ للمعنى ، أي إضعاف أثرِه في قلوبنا ، وكأنّه يقول لك هذا أقلّ ما فيه ، وإذا كان ثمرة مقالِهم إضعافًا للمعنى في صدورِنا ، فإنّ الرَّغبة عنه أوفقُ ، كلّ ذلك في تلويحٍ لطيف ليعلّمنا أدبَ الحوارِ مع من نختلف في ما ذهب إليْه . وكذلك شأنُ العلماء وطلبة العلم .

ثمَّ لا يَدعُك ، بلْ يُبيّنُ لك قدرَ الذّهابِ بالكلامِ على الحقيقةِ ، ويعرضُ لك بعَضًا ، ثم يقُول : « صَرفُ كلّ ذلك إلى التَّمثِيلِ يذهبُ بكثيرٍ مِن هذِه المعانِي الجليلةِ فِي هذا الحديثِ الذي هُوَ مِن عَطاءِ اللهِ لنا جميعًا . . . »

يُرشدُك إلى أنَّ القولَ بالتَّمثيلِ فِي مثلِ هذا مَخرجُهُ عدمُ المُحاجزةِ بيْن رُؤية خلقِ الرَّحم وخلقِ الأرضِ مثلا وأنّهما معًا ممّا لا يُخاطب دون التفاتٍ إلى أنَّ المخاطِب إنّما هو الله تعالى ، فخلقُهما : الرّحمِ والأرضِ خارق للعادة (عِند البَشرِ) وكذلك خطابُه سُبحانه وَتَعالَى لهما خارقٌ للعادة (عند البشر) فكلٌّ على الحقيقة لا التمثيل .

من قال بـ« التمثيل » فرَّق بين الفعلين : الخلقُ والمخاطبة من جهةٍ ، وقارب بين خطابه سُبحانه وَتَعالَى لهما وخطابنا لها ، فجعلهما معًا على التَّمثيل ، وهذه مقايسة مَع الفارق ، فالشَّيخُ لفتنا إلى مَخرج المُجاوزة ، وكأنَّه يبصّرنا كي نتعلمَ ، فلا نسلكُ مثل هذا المسلك . وهذا من صِناعة الرّجال . .

---

(١) شَرْحُ أحاديثَ منْ صَحِيحِ مسلم : ٢/٦٦٣، ٦٦٤ .

ويجهرُ لك بالذي هو فيه قائم : « ما دُمنا قَبِلْنَا أنَّ الله خلقَ السّمواتِ والأرض ، وقالَ لَهما ائتيا طوعًا أوْ كرهًا ، فقالتا أتينا طائعين ، وفلا بدّ أن نقبلَ أنّه قالَ ذلك على وجهِ الحقيقةِ ، وقالتْ له على وجه الحقيقةِ . . . . وحمل خطاب الخالقِ علَى خِطابِ الخلقِ أقُول هذا ليسَ بواجبٍ ؛ لأنّ أمرَ الله فِي خلقِه يتجاوزحُدودَ المألوف ؛ لأنّ الخالق نفسه مُتجاوز حدود المألوف ...

وهذا ممَّا لم أقرأه في كلامِ مَنْ يُؤخذ عنهم العلمُ ، فخذْ ما تراه ودع ما لا تراه ، ولا حرج عليْك ، وأرجو أن أكونَ أيضًا مِن الذين لا حرج عليهم »[1]

الشّيخُ يلفتك إلى مَخرجِ ما قام فيه : أبان لك أنّ منطقَ العدلِ والإنصافِ قاضٍ به : لا تجعل للعقل فيما هو خارجٌ عن مألوفِه سلطانا ، ولا تكلْ بمكيالين :

تجعلُ خلق الرَّحم والأرض . . . خارجًا عن سلطان العقل ، وتجعل خطابهما خاضعًا لسلطانِه ، دون أن يكونَ هنالك حاملٌ صحيحٌ على تلك التّفرقة . هذا مجاوزةٌ في منهجيّة التّفكير . الخللُ هنا خللٌ في المنهج الفكريِّ .

هو يقول لي إنّ الخلل في منهج التفكير لا يستوجبُ تفسيقَ من ابتلي به تفسيقًا عقديًّا ، وإن كان تفسيقًا منهجيًّا في التفكيرِ ، لأن الفسُوق العقديّ مخرجٌ من مِلّةِ الإسلام ، والفسوق المَنهجي تفكيرًا داخلٌ في الخطأ ، وكلُّ ابن آدم خطاءٌ وخيرُ الخطائينَ التّوابون ، فأقصَى ما يُمكن أن يُوسمَ به أنَّه أخطأ في اختيار السَّبيل الأوفقِ في تقديسِ الله سُبحانه وَتَعالَى ، وكذلك الفسوق السلوكي لايُخرجُ من الملَّة[2]

---

(١) شَرْحُ أحاديثَ منْ صَحِيحِ مسلم : ٢/٦٦٤، ٦٦٥ .

(٢) للفسوق ثلاثةُ أنواع :

« فسوقٌ عقديٌّ مُخرجٌ من الملَّة وهوبِحمد الله تعالى قليل في المسْلمين . ==

ولذا تجد الشّيخ يقول: وحملُ خطاب الخالقِ على خِطابِ الخلق أقول ليس بواجب . . .

لم يقل إنّه خطأٌ أو ضلالٌ ، أو جائز بل قال : «ليس بِواجبٍ» ، فلفتني بهذا إلى أنّ الّذي قال بِه لم يكن ثَم ما يَحمله عليْه ، وكان لمن سلكه مندوحةٌ عنه ، وهذا من عظيمِ إجلالِه لأهلِ العلمِ الّذين يقُولون ما لم يذهبْ هو إليْه ، وهذا مِن مسلكِه في تربيتنا ، كذلك نتعلَّم منه أعزَّه الله تعالى بطاعتِه .

* * *

وفي قراءته أعزه الله بطاعته قول رسول الله صَلَوات اللهِ وسلامُه عَلَيْه وَعلَى آلِهِ وصَحبِهِ : «ثَلاثَةٌ لاَ يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلاَ يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ وَلاَ يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ» . . . الحديث

من بعدِ أن أبان أن قوله صَلّى اللهُ وسلّم عَلَيْه وَعلَى آلِهِ وصَحبِهِ : «ثَلاثَةٌ لاَ يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلاَ يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ وَلاَ يُزَكِّيهِمْ» منقول من كتاب الله سبحانه وتعالى في سياق عقابِ الذين يكتمون ما أنزلَ الله من الكتابِ ، ويشترون به ثمنا قليلا،وسيقت في بيانِ عِقابِ هؤلاءِ الّذينَ لا يزالون بيننا بقوله تعالى : ﴿ **إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَشۡتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ مَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ** ﴾ (البقرة:١٧٤) وفي آل عمران مثل ذلك في شأنِ الذين يشترونَ بِعهدِ اللهِ وأيمانهم ثَمناً قليلا : ﴿ **إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشۡتَرُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ**

== «فسوقٌ منهجيّ في التفكيرِ لا يُخرجُ من الملة ، ويُدخل صَاحبه في دائرة الخطأ ، وهو غير قليلٍ في من لا ينبتون من النابتة في العلم ، وغير قليلٍ في من يُوسَمون بالمفكر الإسلامي»

«فسوق سلوكيٌّ أخلاقيّ لا يُخرج من الملة ، ويدخل صَاحبه في الخطيئة وهو الكثير في الناسِ».

وَأَيْمَـٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلاً أُوْلَـٰٓئِكَ لَا خَلَـٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْأَخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (آل عمران:٧٧)

وكَأن الشَّيْخ يلفتنا إلى أن نتصور فداحة الذنب الذي جاء البيان عن عقابه في الحديثِ بمناظرته بالذّنب الذي جاء العقاب نفسه عنه في البيان القرآني .

لأنَّ هذه الجمل التي صورت عقوبة الآثام المذكورة في بيان النُّبوّة لم تفرغ من شُحنةِ الغضبِ الّتي أفرغها فيها سياقُ سورة البقرة ، وآل عمران «لأنَّ المفرداتِ لا تَعرُو أبدًا مِن أحوالِ السياقِ الذي جَرتْ فيه ، وكذلك الجمل»[1]

وفي هـذا لفـتٌ إلى أهميّـةِ استصـحابِ سياقاتِ استعمال الكَلـمِ والجُمـلِ والصُّورِ ، ولا سيَّما في بيـان الـوَحي ، فهـذِه السّـياقاتُ تَمـنحُ الكلـمَ والجُمـلَ والصّورَ معانِيَ تمتزجُ بموضـوعاتها الرّئيسـة ، فتتلّـون هـذا المعـاني الأصـليّة بالمعاني الاستعماليّة .

وهذا يفهمُ منه أنَّ كثرة استعمال الكلم وتنوّع مساقَاتِ الاستعمالِ يمنحُها ثراءً وقوَّة ، ممَّا يجعلُ نُدرة الاستعمال عاملاً مِن عواملِ ضيقِ دائرة المعنَى[2]

وهذا يهدِي إلى أنّ الاتساع الّذي هو حِلية البيـان العـالي مِـن رَوافـدِه كثـرة استعمـال الكلـم والجـمـل والصـور ، فهذا الاستعمالُ حين يكونُ مـن الأعيـانِ لا يُصيبُ الكَلمَ والجُملَ والصُّورَ بداءِ الابتذالِ .

---

(١) شَرْحُ أحاديثَ منْ صَحِيحِ مسلم : ٧١/١ .

(٢) من حقّ الكلم النوادر على أهـل العلـم وطلبتـه أن يصـطفوا منـه مـا لـيس بِحوشـيّ ، فيجرونه في آذان الناس في سياقات كاشـفة ، ولـو بقرنـه أولاً بمـا يهـدِي إلى معنـاه ليستحيل مأنوسًا ، ثم إذا ما كثر جريانه في الألسنة ونفاذه في الآذان أفرد بالاسـتعمال فإحياءُ البيان وسيلة من وسائل إحياء الفهم . واتساعه وفتوته . فإحياء الموات في باب العلم وأدواته لا يقل أهمية عن إحياء موات الأرض استزراعًا .

ولعله مما ينفعُ في هذا إدمان النظر في معاجم اللغة ، نظرًا فاقها مستوعبا ، وكذلك مخادنة مثل كتاب« الألفاظ الكتابية » ، لعبد الرحمن الهمزاني .

الابتـذالُ يـأتي مِـن كثـرةِ استعمالِ الـدَّهماءِ ؛ لأنــَّهم لا يستعملون الكَلِـمَ والجُملَ والصُّورَ في كلِّ مرّة اسْتعمالاً متجدِّدًا ومجـدِّدًا ، بـل هُـو إلى التّكـرارِ العقيمِ أقربُ .

وبعدَ أن نصَّ شيخنا على أنَّ قوله (لا ينظرُ إليهم) لا بدّ مِن مُراعاةِ التَّقاربِ فِي المعنى بيْن قوله : (لا يُكلمهـم الله) وقولـه : (لا ينظُـرُ إلـيهم) وفـرغَ مـن الإشارةِ إلى ما بينهما من مراعاة النَّظير ، وحثَّنا علـى أنْ نبسـطَ النَّظـرَ في هـذا الأسلوبِ ، ونخرجَه من دائرةِ الألفاظ إلى دائرة المعاني والأغـراض ، مـن بعـدِ ذلك انتقل إلى مقابل نفي نظر الله تعالى إلى أُولئك الثلاثـة ، وهـو نظـر عبـادِه إليه ، فذهب إلى أنّـه « لا شكَّ أنـَّنا نَنظُرُ إليْه سُبْحَانَهُ وَتَعَـالَى في كـلّ حـالٍ ، وقد وصف ربنا أهل محبته بأن وجوههم ناضرة (إلى ربّها نـاظرة) ونظرنـا إلى ربنا ليس كنظرِ بعضنا إلى بعض ، وإنّما ننظر إلى لطفه وإحسانه ومنّهِ وفرجِـه وعطائهِ ، وكما أكرمنا ، ولطفَ بنا ، ونظرَ إلينا فِي الدّنيا نَنْتَظِـرُ لطفـه وكرمَـه ومنّه علينا يوم العرضِ . . . .

وقال العلماءُ في بيانِ قوله عليْه السلام (ولا ينظرُ إليهم) المرادُ منعُ الإلطافِ والعفو والإحسانِ[1]

وهذا فيه نظران :

الأول : أن قوله : « وقال العلماء .... إلخ لو جعله قبل قوله : « وهذا ممَّا يُسميه علماء البلاغة مراعاة النظير . . . » لكان آنس بما قبله .

والآخر : أنَّ قوله : لا شكَّ أنـَّنا نَنظُرُ إليْه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في كلّ حالٍ ، وقد وصف ربنا أهل محبته بأن وجوههم ناضرة (إلى ربّها ناظرة) . . . « يفهـم مِـن قوله (ننظرُ إليْه في كل حالٍ) أنـّه يلتفتُ إلى نظرِ العبادِ إلى الله تعالى في الدنيا

---

(١) شَرْحُ أحاديثَ منْ صَحِيحِ مسلم : ٧١/١

وفي الآخرة ... ولكن الإتيان بقوله : « وقد وصف ربنا أهل محبته ... » قد يحملنا إلى أن نفهم منه أنّ الآية في نظر أهل محبته إلى ربهم سبحانه وتعالى في الدُّنيا بقرينة قوله : « وإنّما نَنظُرُ إلى لطفه ... » والآية التي ذكرها إنّما هي نصٌّ في يوم القيامة ، وأنّ هذا لأهل الجنَّة في الجنة .

ولوأنَّ شيخنا الجليلِ قدرُه وعلمُه وبيانُه قال : ولا شَكّ أنّنا نَنظرُ إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في الدُّنيا والآخرة ، ونظرُنا إلى ربِّنا سُبْحانَه وَتَعالَى في الدُّنيا ليس كنظرِ بعضِنا إِلى بعض ، وإِنما ننظرُ إلى لطفه . . . وكما أكرمنا ولطف بنا وَنظرَ إلينا فِي الدّنيا ننظرَ إِلى لطفه وننتظر كرمَه ومنِّه علينا يوم العرضِ . .

لو صيغت العبارة على هذا النّحو لكانت أعون للقراء على حُسن الفهم ، ولعلموا أنّ الشيخ أعزه الله تعالى يقرن بين نَظريْن لأهل الإسلامِ إلى ربهم سُبْحانَه وَتَعالَى :

نظر في الدّنيا ، ونظرٌ يومَ العرضِ من قبلِ دخولِ الجنةِ وفسره بانتظار ألطافه ، وهذا الانتظارُ في الدنيا من كمال العبودِية ، ويوم العرض من كمال الرَّجاءِ فِي رحمانيتِه ورحمتِه .

ونظر في الجنة قرّرته آيات سورة « القيامة ». وهو نظرٌ على الحقيقةِ . نعلم الآن معناه ، ونجهلُ كيفيته إلى أنْ يكون لنا في الجَنَّة . إنْ شَاء الله تعالى .

أمَّا ما جاء عليه بيانُ شيخنا فأخشَى أنه يتوهَّمَ أنّ الشَّيخ يذهب إلى أنّه يفسر قول الله تعالى : ﴿ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ (القيامة:٢٣) بأنَّها تنتظر منه ثوابه بدلالة قوله : « وكما أكرمنا ولطف بنا ونظر إلينا في الدّنيا ننتظر لطفه وكرمه ومَنّه علينا يوم العرضِ يومَ الآزفة ... » فهذا يحملُ على أَن يُفهم أنَّ قوله تعالى ﴿ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ تأويلها عند الشيخ إلى ربّها منتظرة لطفه وكرمَه يوم القيامة .

نعم هذا الوجه من التأويل نسبه الطّبري إلى «مجاهد» يقُول الطبري : حدثنا أبو كُرَيب ، قال : ثنا عمر بن عبيد ، عن منصور ، عن مجاهد ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ (القيامة:٢٢،٢٣) قال : تنتظر منه الثواب ....

عن منصور ، عن مجاهد ، قال : كان أناس يقولون في حديث : «فيرون ربهم» فقلت لمجاهد : إن ناسا يقولون : إنّه يُرَى ، قال : يَرَى ولا يَراهُ شَيْءٌ[1] .

والذي في تفسير مجاهد مخالفٌ لذلك الذي نسبه إليْه الطبريّ قال مجاهدٌ في تفسيرِه : «أنا عَبْدُ الرَّحْمَنِ ، قَالَ : ثنا إِبْرَاهِيمُ ، قَالَ : ثنا آدَمُ ، قَالَ : ثنا الْمُبَارَكُ بْنُ فَضَالَةَ ، عَنِ الْحَسَنِ ، فِي قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴾ (القيامة:٢٢) قَالَ : «حَسَنَةٌ» ، ﴿ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ (القيامة:٢٣) قَالَ : «تَنْظُرُ إِلَى رَبِّهَا حَسَّنَهَا اللَّهُ بِالنَّظَرِ إِلَيْهِ ، وَحَقَّ لَهَا أَنْ تَنْضُرَ ، وَهِيَ تَنْظُرُ إِلَى رَبِّهَا عَزَّ وَجَلَّ»[2]

وتأويل ناظرة بمنتظرة قال به جمع من غيرِ أهلِ السّنّة[3]

---

(١) جامع البيان في تأويل القرآن . تأليف أبي جعفر الطبري : محمد بن جرير بن يزيد الطبري (ت : ٣١٠هـ) تحقيق : أحمد محمد شاكر . نشر : مؤسسة الرسالة . الطبعة الأولى ، ١٤٢٠ هـ . ٧٢/٢٤، ٧٣ .

وانظر معه الرد على الجهمية . تأليف ابن منده : محمد بن إسْحاق بن محمد ابن يَحيى بن منده (ت : ٣٩٥) تحقيق : علي الفقيهي . ط(٣) عام ١٤١٤هـ نشر : مكتبة الغرباء الأثرية . المدينة المنورة . ص١٠١-١٠٣

(٢) تفسير مجاهد . تأليف : أبي الحجاج مجاهد بن جبر المخزومي (ت : ١٠٤هـ) تحقيق : محمد عبد السلام أبو النيل . نشر : دار الفكر الإسلامي الحديثة ، القاهرة . الطبعة الأولى ، ١٤١٠ هـ . ص ٦٨٧ .

(٣) ينظر : شَرح الأصُول الخمسة للقاضي عبد الجبار بن أحمد بن الخليل الهمذاني (ت :٤١٥هـ) تحقيق عبد الكريم عثمان . نشر مكتبة وهبة عام ٢٠٠٩م . ص ٢٤٥ ==

وقد دفعه أهل العلم ، وليس عليه جمهرةُ المحققين[1]

واليقينُ المُستمدُّ من شواهدَ فتيةٍ أنَّ الشَّيخ لا يذهبُ إلى نفي رؤية أهلِ الجنَّة ربّهم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ، ففي ما كتب وما سمعنا منه في محاضراته ومجالسه العلمية ما يقطع بذلك ، لذا كان الأعلى عندي أن تحرّر العبارة في هذا حتى لا يَفهم الذين لم تكن لهم صُحبةٌ مديدةٌ بالشَّيخِ وكتبِه ومجالسِه العلميّةِ غير ما عليْه مذهبُ الشّيخِ من اليقين بأنّ أهلَ الجنة يرون ربّهم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ، وأنّ هذه الرُّؤيةَ هي أجلّ نعمةٍ يُنعم بِها الله تعالى على عبادِه في الجنة ، وبها كمالُ نعمةِ الله تعالى عليهم ، وبهذا يفهم وجه البيان بقوله تعالى :

== وتنزيه القرآن عن المطاعن . تأليف : القاضي عبد الجبار بن أحمد الهمذاني (ت : ٤١٥هـ) نشر : الناشر : دار النهضة الحديثة القاهرة : ص٤٤٠

والوجوه والنظائر تأليف أبي هلال العسكري : الحسن بن عبد الله بن سهل العسكري (ت : : نحو ٣٩٥هـ) تحقيق : محمد عثمان . نشر : مكتبة الثقافة الدينية ، القاهرة . الطبعة الأولى عام : ١٤٢٨ هـ . ص٤٨١

معانى القرآن . تأليف : أبي الحسن الأخفش الأوسط (ت : ٢١٥هـ)تحقيق : هدى محمود قراعة . نشر : مكتبة الخانجي ، القاهرة . الطبعة الأولى ، ١٤١١هـ . ٢/٥٥٨.

(١) الاعتقاد والهداية إلى سبيل الرشاد على مذهب السلف وأصحاب الحديث . تأليف : أبو بكر البيهقي : أحمد بن الحسين بن علي بن موسى البيهقي (ت:٤٥٨هـ) تحقيق : أحمد بن إبراهيم أبو العينين علق عليه : عبد الرزاق عفيفي . قدم له : عبد الرحمن ابن صالح المحمود . نشر : دار الهدي النبوي (المنصورة) ـ دار الفضيلة (الرياض) الطبعة الثانية ، ١٤٢٧ هـ . ص١٢٣-١٣٨

ونهاية الإقدام في علم الكلام . تأليف أبي الفتح محمد بن عبد الكريم الشهرستاني (ت : ٤٨٥هـ) تحقيق : أحمد فريد المزيدي . نشر : دار الكتب العلمية ـ بيروت . الطبعة الأولى عام : ١٤٢٥ هـ ، ص٢٠٧

ومختصر الصواعق المرسلة على الجهمية المعطلة . تأليف : ابن قيم الجوزية (ت:٧٥١هـ) تحقيق : رضوان جامع رضوان نشر : دار الفكر ـ بيروت . طبع عام ١٤١٨ هـ . ص ٤٥، ٩٩، ١٠٠ .

﴿ ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينًا ﴾ (المائدة:٣) فجاء بالكمالِ في الدّين والتّمامِ في النِّعمة ، الكامل لا يقبلُ الزيادة بأيِّ وجهٍ ، والتّمَامُ يقبلها بوجهٍ ، ونعمتُه جلَّ جلالُهُ لن تكملَ عليهم إلا بالتفضّل عليهم برؤيتِه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى

* * *

ويؤكد الشّيخُ أنّ امتطاءَ صَهْوةِ العقلِ في كلِّ خبرٍ مِن الوَحيِ ليس مآله السّلامةَ وبلوغَ المَأمَنِ ، بَلْ الأخذُ في سياقاتٍ التَّسليمِ وتركِ التّأويل في كيفياتِ الأخبارِ الّتي أنبأ بها الوحيُ هُو المَهيعُ الآمنُ ؛ لأنّ قدرةَ العقلِ من دون كثير ممّا جاء به النبأُ العظيمُ ، وليْسُ كلُّ ما يُنبّأُ به العقلُ ليُؤوّلَه ، بل ينبّئُ به لِذوق نعمةَ التسليم والوقوفِ عند طاقتِه في الإدراك ، فهذا عنوان العُبوديّة لله تعالى .

يتلقّى الشيخُ ما أنبأ به البيانُ النّبَويّ « إِنَّ الْمُقْسِطِينَ عِنْدَ اللَّهِ عَلَى مَنَابِرَ مِنْ نُورٍ عَنْ يَمِينِ الرَّحْمَنِ عَزَّ وَجَلَّ وَكِلْتَا يَدَيْهِ يَمِينٌ الَّذِينَ يَعْدِلُونَ فِى حُكْمِهِمْ وَأَهْلِيهِمْ وَمَا وَلُوا ». فيقرّرُ أنَّ الواقِعَ الّذي نعيشُهُ لَمْ نَعرف فِيهِ منابِرَ مِنْ نُورٍ ؛ لأنَّ النُّورَ مَهما زادَ ، وجاءَ نور علَى نورٌ لا يكونُ منبرًا يَرقَى عليْهِ أحدٌ .

وإذا أخذنا بِظاهرِ الحديثِ ، وهو الأَوْلَى قُلنا : إنَّ الغائبَ الّذي هو شَأنُ الآخرةِ لا يُقاسُ علَى الشّاهدِ الذِي أَلفناه فِي الدُّنيا .

ولك أنْ تَقُولَ : إنَّ هذا مِن المَجازِ ، والمقصُودُ ليسَ ظاهرَ اللّفظِ ، وإنّما المقصُودُ المنزلةُ الرَّفيعةُ والمقامُ المحمودُ لِهؤلاءِ المُقسِطين ....

وفهمُ المَجازِ هنا يَحتاجُ إلى فِطنةٍ ؛ لأنَّ الّذي ذُكر فِي الكلامِ الشّريفِ هُو هَيئة منابر النّورِ والمقسطونَ عليْها . والمقصودُ هو بيان أنّ لَهمْ عندَ الله منزلة رفيعة . وهذا يَعنِي أنَّ للهيئةِ المذكورة المكوّنة مِن منابر النّورِ ، والمُقسِطون عليْها هيئةً مُصورةً للمنزلةِ الرَّفيعة . ووجه الشَّبهِ هوالظهورُ السَّاطعُ والبيانُ القاطعُ عن هذه المنزِلةِ .

ولك أنْ تلجَأَ إلى الكنايـةِ التِـي لا تسـتوجبُ تشـبيهًا ، وتكتفِـي بـدلالات اللزومِ ؛ لأنـّه يلزمُ من منابر النّور علو المنزلة وبليغ الإكرام . . .

وقوله عَليهِ السّلامُ : « عَنْ يَمينِ الرّحمنِ عزّ وجل » كلمة « يَمين الرّحمن » مثل كلمة « وكلتا يديْهِ يمين »... ويذكر العلماءُ معها دائمًا قَولَهُ تعالى : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ﴾ (الشورى:١١) ، وأنـّه سبحانه منزّهٌ عَن مشابهةِ الحوادثِ ، وأنـّه سبحانه ليس له يدٌ كأيدينا ، وليس له وجهٌ كوجوهِنا ، ولا يمينٌ كَيمينِنا إلى آخرِه .

وهذا لا خلاف فيه ، ليس لأنـّهُ إجماعٌ ، وإنّما لأنـّه صَريح آية : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ﴾ (الشورى:١١) [1] ثُم يأتي الخِلافُ بعد ذلك ، وهوعلى وجهين :

وجهٌ يقولُ نُؤمن بِه ، كما جاء ، ونعتقد نفي الشّبه والمثل ، ثُم نفوّضُ المراد بِه إلى الله ، ولا نحاول أن نؤول ، ونقول المراد باليد كذا ، والمراد بالوجهِ كذا ؛ لأنّ هذا التأويل حديثٌ عـن اللهِ ، ولـيس لـدينا الـدليلُ القـاطعُ علـى صِـحتِه ، والسّلامة فِي أن ننفِي الدَّلالة الظاهرة ، ونفـوض علـم المـراد بهـا إليـه . وهـذا مذهبُ السلف ، وهو أسلمُ ، وقال بِه كثيرٌ من المتأخرين وكثيرٌ من المتكلمين .

وَوَجهٌ آخرُ قال به كثيرٌ مِن كِرامِ عُلماءِ الأمّـةِ رضـوانُ الله علـيْهم ، وهـو أن نؤوّل فِي ضَوءِ استعمالِ اللسان العربيّ الذي خاطبنا الله به ، وفيه المجازُ ، وفيه الحقيقةُ ، فاليمينُ فِي كلامِ العربِ يأتي ولا يرادُ بِه الجارحـة ، وإنمـا يُـرادُ بِـه

---

(١) يشير الشَّيْخ إلى أنّ هذه الحقيقة ليس مأخذها من جهة إجماع العلماء ، بل من جهة نصّية الخطاب القرآني المحكم الذي لا يقبل التخصيص أو التأويل أو النسخ ، فقوله تعالى ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ﴾ (الشورى:١١) خبرٌ مُحكَم بمصطلح الأصوليين لا يقبل هذه الثلاثة : التَّخصيص والتَّأويل والنَّسخ . وهذا يحقِّق له الثلاثة الأصول : حُسن الدلالة وتمامها وإحكامها (تبرجها).

العنايةُ والاهتمام . . . . ومثلُ هذا كثيرٌ في مجازات اللغة ، ويرون أنّ هذا أوْلَى مِن القولِ بأنّ لها مَعنًى يليقُ بِه سُبْحانه ، وهُو أعلمُ بِهذا المعنى كما يقُول السلفُ ، وهوحقٌّ .

واجتهدَ الخلفُ فِي أنْ يتعرّفوا على المعنى الذي يليقُ بِه سُبْحانه فِي ضَوءِ العلمِ باللغةِ وطرائقِ دلالتها ، وهذا حقٌّ أيضًا »[1].

* * *

ويمضي الشيخُ مقررًا أن هذا قال به كرام من علماء الأمة ، وأن لك أن تأخذ بأيِّ المذهبين من بعد أن تتبصر ، لا تقليدًا أعمى ، على أن تحمي لسانك مِن الطَّعن في أيّ من الطائفتين ، ثم يقول : « أمَّا أنا فقد بقيتُ زمانًا فِي أوّلِ اشتغالِي بهذا العلمِ أقولُ بما قال بِه الخلفُ ، وأصرفُ الكلامَ عن الحقيقةِ إلى المجازِ فِي هذه الآياتِ ، وأغرانِي بهذا قولُ بعضِ الخلفِ أنهم بادروا إلى التأويلِ حتّى لا تعرض خَطراتُ التَّشبيهِ إلى نفوسِ الجهال .

وأنا الآن أكفُّ يدِي عن التأويلِ ، وأفوضُ العلمَ بالمرادِ إلى اللهِ ، واستقرّ في نفسِي أنّه ممَّا لا يعلمُ تأويله إلا الله ، ولا أخطّئُ من أوّلَ ؛ لأنّ يقيني أنّه مجتهدٌ فِي التنزيهِ واللغةُ تساعده ، ورحمةُ الله أوسعُ مِن أن تضيقَ بِهم ، وهمْ جَميعًا مِن أهلِ العلمِ ، وأهل التّقوَى ، وأهلِ النّظرِ فِي كلامِ الله ، وكلامِ رسُولِه ﷺ »[2].

* * *

بسطت لك نقل مقالة شيْخنا لتكون بيْن يديك ، لعظيم أهميّة القول في هذا فتبصر الحقّ بنفسِك .

---

(١) شَرْحُ أحاديثَ منْ صَحِيحِ مسلم : ١/٤٢٠، ٤٢١

(٢) المرجع السابق : ١/٤٢١، ٤٢٢

وثَم نَظرات :

الأولى : قول الشّيخ : « وإذا أخذنا بِظاهرِ الحديثِ ، وهوَ الأَوْلَى قُلنا : إنَّ الغائبَ الِّذي هو شَأنُ الآخرةِ لا يُقاسُ علَى الشّاهدِ الذِي أَلفناه فِي الدُّنيا .

ولك أنْ تَقُولَ : إنَّ هذا مِن المَجازِ ، والمقصُودُ ليسَ ظاهرَ الّلفظِ ، وإنّما المقصُودُ المنزِلةُ الرَّفيعةُ والمقامُ المحمودُ لِهؤلاءِ المُقسِطين . . . . »

بدأ بما هو الأَوْلَى في هذا المقام كأنّه يريدُه أن يأتيَ إلى قلبِك وهو خلاءٌ ، فيتمدَّد فيه ؛ لأنّه أمرٌ في باب العقيدة انتهى إليْه مِن بعدِ طُولِ سفرٍ في أودية العلم وبطحانه وتلالِه وشواهقه ، ومن بعد أن حط رحاله ومد أطناب خيامِه في غبْراء ما ليس هو الأولى عقودًا ، فأفضى به التَّبصُّرُ والتّدبرُ والمراجعة إلى الذي قال عنه إنَّه الأولى . أي الذي تحقق أنّه الأولى .

ومن أدب الشَّيخ مع أهل العلم لم يقل وهو « الحقّ » حتى لا يحاجزك محاجزة تامًّا عن أن تسمع غيره إن كنت ممنْ لا يرى في نفسِه اقتدارًا على أن يسمع ما ليس هنالك ، فيدفعه .

قال « الأوْلى » وكأنّه يشيرُ إليك أن تنظرَ بنفسِك فيما ذهبَ هو إلى أنَّه ليس الأوْلَى لعلك ترى غير الذي رأى « يَا نِسَاءَ الْمُسْلِمَاتِ لاَ تَحْقِرَنَّ جَارَةٌ لِجَارَتِهَا ، ولَوْ فِرْسِنَ شَاةٍ » . (متفق عليه)

أرأيت إلى حرصِه على أن لا يقيمَك مقامَ التقليد ، الذي يأخذ النّاس من آذانهم إلى ما يريدونه منهم وبهم .

والثانية : قوله « ولك أن تلجأ إلى الكناية » من بعد أن قال : « لك أن تقول إنَّ هذا من المجاز . . . »

اصطفاء كلمة (تلجأ) هنا فيه إشارة إلى أن الأخذ بالقول بالكناية أقوى وأسلمُ من القول بالمجاز ، لاستغناء القول بالكناية عن ركوب متن التشبيه ،

ولو أنّ الشَّيْخ لم يقل : « وتكتفي بدلالة اللزوم » لكان عنـدي الأعلـى ، لأن الكناية إذا اكتفي فيها بدلالة اللازم كانت ألصق بالمجاز ، بينمـا الكنايـة تفـارقُ المجاز من وجهين :

الأول : أنّ الملزوم واللازم فيها لايتعاندان قصدًا .

والآخر : أنَّ الكناية أبعد عن التشبيه .

فالكنايةُ في حقيقتها لا تمنع الجمع بيْن المعنـى الملـزوم والـلازم . وكـأنَّ المعنى اللازم هو مآل المعنى الملزوم الّـذي لاينكـرُ ولا يـدفع ، فأنـت تقـول بحقيقة أنّـهم على منابرمن نور ، وأنّ هذا حقيقة تقـوم يـوم القيامـةِ لا يتوقـفُ فيها ، وأنّ هذا إنّـما هو آية علـى علـو منـزلتهم وجليـل إكـرامهم . فـالملزومُ واللازمُ على درجةٍ سواءٍ مِن القصدِ والإرادةِ .

والقولُ بأنَّـه مِن بابِ المَجاز على مذهبِ مَن يذهبُ إلى صِحةِ الجمـع بـين المعنيين : الملزوم واللازم في باب المجاز علـى درجـة سـواءٍ مـذهب قريـبٌ ، وغير قليلٍ من أهلِ العلم يقول بالجمع بيْن الحقيقـة والمجـاز في كـلام واحـد وسياقٍ واحدٍ، وشيخنا مِمّن يقول بذلك في بعض السياقات ولا يمنع من ذلك، بل يراه هو الأعلى في بعضِ السياقات ، وقد ظهر ذلك منه في أكثر مـن سـفرٍ من أسفارهِ[1] .

والثالثة : قوله : « ليس له يد كأيدينا . . . . »

لوأنه أعزه الله تعالى قال : ليْست يده كأيدينا ، لكان ذلك أعربُ عن مرادِهِ ، وما عبر به ـ أحسن الله تعالى إليْه بإحسانه إليْنا ـ مناط النفـي فيـه لـيس كلمـة

---

(١) كنتُ قد نشرتُ في طلابِ العلم بحثًا في تحقيق القول في مشكلة الجمع بيْن الحقيقـةِ والمجاز في البيان القرآنيّ ، وناقشتُ أدلة كلّ مذهبٍ ، ونظـرت في مـواطن عـدة مـن البيان القرآنيّ قيل فيها بهذا الجمع ، وقررت وقربت ما رأيته الأعلى ، وهو صحة هذا الجمعِ في بعضِ المساقات .

(يد) بل (كاف التشبيه) أي له يد ، ولكنها ليست كمثل أيدينا. فهو نفي للكيفية، وليس لإثبات اليد له سبحانه وتعالى . . فالشيخ يُثبت لله تعالى يدًا ليْسَتْ كأيدينا .

والرابعة : قوله : « أمَّا أنا فقد بقيتُ زمانًا فِي أوّلِ اشتغالِي بهذا العلمِ أقولُ بما قال بِه الخلفُ ، وأصرفُ الكلامَ عن الحقيقةِ إلى المجازِ فِي هذه الآياتِ ، وأغرانِي بهذا قولُ بعضِ الخلفِ أنهم بادروا إلى التأويلِ حتّى لا تعرض خَطراتُ التَّشبيهِ إلى نفوسِ الجهال »

يشيرُ فيه الشَّيْخ إلى أنَّ الحاملَ لمن ذهبَ إلى التّأويل هو الرَّغبة في مزيدٍ من التقديس ، وتوهّم أن تركَ التَّأويل فيه شائبة تشبيه ، ففروا مِن شيْءٍ ووقعوا في آخر ، فكان صَنيعُهم خطأً في المنهج لا في المُعتقد .

وجاءهم الخطأُ من قبل الغفلة عن أنَّ السلف لم يروا في ترك التّأويل شبهة التشبيه ، وهم أنفذ بصيرة ، وأسبغ رؤية ، فكان الاقتداء بهم على بصيرة هو الأعلى والأولَى . فاجتهاد الخلفِ في هذا لم يكن قويمًا .

وكأنّي بالشّيخ يريدُ أن يؤدبني بأن لا أتجاوزَ في وَسْم المذهب الذي أرغبُ عنه من المذهبين ، فأذهبُ إلى تفسيق صاحبه ، فَعدلُ القضاء أن لا أتجاوزَ نعته بالخطأ في المسلك إلى تحقيق نبيل الغاية وزكيّ المقصد .

وفرقٌ جدٌّ ظاهر بيْن من يسلك مسلكًا غير قويم من بعدِ أن يسْتفرغَ جهدهَ وهو يريدُ بلوغ الحق من خلالِه فلا يهدَى إلى حاق الحقّ ، وآخر يسلكه غيرَ مستفرغٍ جهده أو يسْلكه وهو يريد الباطل .

الأول واقع في الخطأ ، والآخران واقعان في الخطيئة .

الأول يُعذَرُ ويعلّم ، والآخران يُعزّران ويؤثّمان ، وينفّرُ منْ مسلكِهما .

والخامسة : قوله : « أنا الآن أكفُّ يدِي عن التأويلِ ، وأفوضُ العلمَ بالمرادِ

إلى اللهِ ، واستقرّ في نفسِي أنّـه ممَّا لا يعلمُ تأويله إلا الله ، ولا أخطّئُ من أوّلَ ؛ لأنّ يقيني أنّـه مجتهدٌ فِي التنزيهِ واللغةُ تساعده»

- قوله : « وأفوضُ العلمَ بالمرادِ إلى اللهِ »

- قوله : « واستقرّ في نفسِي أنّـه ممَّا لا يعلمُ تأويله إلا الله

- قوله : « ولا أخطّئُ من أوّلَ»

كلٌّ فيه نظر :

أمّا أنَّه لا يُخطئ من أوّل ، فَإِنّي أرَى أن الأعلى أن يقال : « لا أكفرُ أو أفسّقُ من أوّل» لأن الحكم بخطأ من أوّل هو الحكم العدل .

التأويل بمدلوله الاصطلاحي عن أصوليي العقيدة والشريعة هو «صَرْفُ اللَّفْظِ عَنْ ظَاهِرِهِ الَّذِي يَدُلُّ عَلَيْهِ ظَاهِرُهُ إِلَى مَا يُخَالِفُ ذَلِكَ لِدَلِيلٍ مُنْفَصِلٍ يُوجِبُ ذَلِكَ»[1] لا ريب فِي أنّ الذهاب إليْه في باب أسماءِ الله سُبْحانَه وَتَعالَى وصِفاتِه وأفعالِه ونفِي أنباء الغيبِ إنما هو خطأ محضٌ .

وأمّا قول الشّيخِ : « واستقرّ في نفسِي أنّـه ممَّا لا يعلمُ تأويله إلا الله»

---

(١) مجموع الفتاوى . تأليف : ابن تيمية : تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية الحراني (ت : ٧٢٨هـ) جمع عبد الرحمن بن محمد بن قاسم . نشر : مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف ، المدينة النبوية . عام : ١٤١٦هـ . ٦٩/٤

أوْ شرح العقيدة الطحاوية . تأليف صدر الدين بن أبي العز : محمد بن علاء الدين عليّ بن محمد بن أبي العز الحنفي (ت : ٧٩٢هـ) تحقيق : أحمد محمد شاكر . ط(١) عام ١٤١٨هـ . نشر : وزارة الشؤون الإسلامية ، والأوقاف والدعوة والإرشاد السعودية بالرياض . ص : ١٨٢

أوْ الحاوي للفتاوي . تأليف الجلال السيوطي : عبد الرحمن بن أبي بكر ، (ت:٩١١هـ) نشر : دار الفكر للطباعة والنشر ، بيروت ـ عام : ١٤٢٤ هـ . ٢٠١/٢

فتأويله الذي لا يعلمه إلا الله ليس هو معناه وإنّما حقيقة معناه، وكيفيته، فحقيقة مدلول أسمائه وصِفاته وأنباءِ الغيب لا يعلمها إلا الله سُبْحانَه وَتَعالَى .

يقول ابن تيمية : « وَأَمَّا حَقِيقَةُ مَا دَلَّ عَلَيْهِ ذَلِكَ مِنْ حَقَائِقِ الأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ وَمَا لَهُ مِنْ الْجُنُودِ الَّذِينَ يَسْتَعْمِلُهُمْ فِي أَفْعَالِهِ فَلا يَعْلَمُهُمْ إلا هُوَ ﴿ **وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ** ﴾ (المدثر:٣١) وَهَذَا مِنْ تَأْوِيلِ الْمُتَشَابِهِ الَّذِي لا يَعْلَمُهُ إلا اللَّهُ....

وَاَللَّهُ ـ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ـ لا يُعْلِمُ عِبَادَهُ الْحَقَائِقَ الَّتِي أَخْبَرَ عَنْهَا مِنْ صِفَاتِهِ وَصِفَاتِ الْيَوْمِ الآخِرِ وَلا يَعْلَمُونَ حَقَائِقَ مَا أَرَادَ بِخَلْقِهِ وَأَمْرِهِ مِنْ الْحِكْمَةِ وَلا حَقَائِقَ مَا صَدَرَتْ عَنْهُ مِنْ الْمَشِيئَةِ وَالْقُدْرَةِ . . » [(١)]

فإن أراد شيخُنا أنَّه لا يعلم حقيقة المعنى ومآلَه إلا الله فحقّ لايدفع، وإن أراد أن المعنى الذي يتلقاه العقل من النّبأ عن أسماءِ الله سبحَانه وتعالى وصِفاته وأفعاله لا يُعقل، ولا يدركه العقل، فذلك ما نتوقف في التسليم به، لأنّ الله سُبْحانَه وَبِحمدِه إنما خاطبنا لنعقل ونفهم .

وأمَّا قول شيخنا : « وأُفوضُ العلمَ بالمرادِ إلى اللهِ » فإن القول بالتفويض مما أحتاج إلى بسط القول فيه .

جاء في مواضع من الكتاب أن السّلف يقولُون بالتفويض في أسماء الله تعالى وصفاته، وأنهم يؤمنون به كما جاء، ويعتقدون نفي الشّبه والمثل، ثُم نفوّضُ المراد بِه إلى الله »

وهذا يحسُن بِي أن أبدي ما أذهب إليه في هذه القضية : قضية تفويض السَّلف في الأسماء والصفات، وما كان من أمرِ الغيبِ المطلق .

---

(١) مجموع الفتاوى لابن تيمية . (م . س) ٣/٦٥، ٦٦

أو : الرسالة التدمريّة في تحقيق الإثبات لأسماء الله وصِفاتِه وبيانِ حقيقةِ الجمعِ بيْن الشرعِ والقدر، تأليف ابن تيمية. ط(٣) المطبعة السلفية. القاهرة عام ١٤٠٠هـ. ص٣٤

«التفويض» هو المقابلُ للتأويل . وهو قد يقع في «المعنى» وقد يقع في «الكيف» فهل قال بالتفويضِ أئمةُ السّلف من القرون الثلاثة الأُول ، ومن تبعهم مِن أعيانِ الأئمةِ مِن أهل العلم . ؟

وهل جعلوا مناطه المعنى والكيفِ معًا أو جعلوا مناطَه الكيف دون المعنى؟

ذلك ما يَتعيّن أنْ أسعى إلى تحقيقه وتَقريبه ، والله المستعان على طاعتِه .

التفويضُ معناه التَّسليم وترك المنازعةِ . يقال : «فَوَّضَ إليه الأَمرَ : صَيَّرَه إليه وجعَلَه الْحَاكِمُ فِيهِ . وَفِي حَدِيثِ الدُّعَاءِ عند النوم : «قُلِ اللَّهُمَّ أَسْلَمْتُ وَجْهِى إِلَيْكَ ، وَفَوَّضْتُ أَمْرِى إِلَيْكَ ، وَأَلْجَأْتُ ظَهْرِى إِلَيْكَ ، رَغْبَةً وَرَهْبَةً إِلَيْكَ ، لاَ مَلْجَأَ وَلاَ مَنْجَا مِنْكَ إِلاَّ إِلَيْكَ . .» . أَي رَدَدْتُه إِليك» فتفويض الله تعالى أي ردّ الأمرِ إليْه ، ونزعُ اليدِ من النّظر فِيه .

ولأهلِ العلم من المتأخرين في معناه عباراتٌ منها قولهم التفويضُ «صرفُ اللفظِ عَن ظاهرِه مَع عَدمِ التَّعرُّض لبيانِ المعنَى المُرادِ منه ، بَلْ يترك ويُفوّض علمُه إلى الله تعالى بأن يقال : الله أعلمُ بمراده»

وهذا المعنى الذي ذُكرهنا غيرُ قويم لجعلِ مناط التفويضِ هو المعنى . ومنطقُ العقلِ ومِن فوقِه حكمةُ الشّرعِ لا يقضيان بأن يكون في بيان الوحي ما لا سبيل إلى العلمِ بمعناه . فذلِك يفضِي إلى أنّ الله تعالى خاطب عبادَه بما سبيل لهم إلى علمه منه ، والله تعالى قد وصف كتابَه بأنَّه بلسان عربيٍّ مبينٍ ، فدلّ هذا على أنَّ القرآن إنّما أنزل ليعلم الناسُ ما فيه مِن معانِي الهُدَى ، وليس فيه ما يَعجزُ العلماءُ عن فقهِ معناه ، ليفوّضوا علمه إلى الله تعالى .(١)

---

(١) ينظر : درء تعارض العقل والنقل . تأليف : تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية (ت : ٧٢٨هـ) تحقيق : محمد رشاد سالم . نشر : جامعة الإمام محمد ابن سعود الإسلامية، المملكة العربية السعودية . ط(٢) عام ١٤١١هـ. ١/٤٠١، ٤٠٢ .

مذهبُ السَّلفِ هُو أنـَّهم يعلمُون معنى أسمائِه وصفاتِهِ سبحانه وتعالى وما أنبأ به من الغيبِ المُطلق ، ويفوّضون إلى الله تعالى العلم بكيفيته . فمناط التفويضِ ليس علم المعنى ، بل مناطه العلم بالحقيقة وبالكيفية .

والحقُّ سُبْحانَه وَتَعالَى في سورةِ البقرةِ ، وهي سورة معقودة لتقرير فريضة الإيمان بالغيبِ ، فهو رأس الأمر فيها ومركز القصد قال في قصّة سيدنا إبراهيم عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ :

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَـٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾(البقرة: ٢٦٠)

سيدنا إبراهيم عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ سأل ربه سُبحانه وتعالى عن كيفية إحيائه الموتى . ولم يسأله عن معنى إحياءِ الموتى لأنـَّه معنًى معقول ، لم يسألْ عن معنى الفعل ، سأل عن كيفيتِه .

فبم أجابه اللهُ سُبْحانَه وَتَعالَى : أ قال له : لا تسأل . أو قال له : لا طاقة لك بعلمه؟

كلا ، بلْ أقَامَه مقامًا قاطعًا في أنـّه سأل ما لا طاقة له بعلمه لأنـّه فوق عقلِه .

قال له : ﴿ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (البقرة: ٢٦٠)

أمره بأربعة أفعالٍ يقُوم هو بها :

خُذْ أَرْبعَةً مِّنَ الطَّيْرِ

َصُرْهُنَّ إِلَيْكَ

اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءاً

ادْعُهُنَّ .

كلُّ فعل من هذه لا يؤدّي إلى جوابِ ما سألَ عنه سيّدُنا إبراهيمُ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ .

هـذا الّـذِي أمـرَه بفعـلِـهِ لـم يُثمرْ له علمًا بكيفيةِ إحياءِ الموتَى ، ولا رؤيـةِ ما يكونُ في إحالةِ الميّتِ حيًّا ، كلّ الذي رَأَى هُو إتيانُ الطّيرِ إليْـه سَعيا عنـد دعوتهنّ ، ما الَّذِي حَدث بيْن دعوتُها إليْه وإتيانها إليْه؟

ذِلك الّذي أَرادَ سيّدُنا إبراهيمُ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ أن يعلَمَه ، وذلـك مـا لمْ يكشفْ اللهُ تعالى له عَنه ؛ منْ أنّـه فوقَ طاقةِ عقلِه وبصرِه .

فسبحانَه وتعالى لم يُعلمه بالكيفية ؛ لا حرمانًا له ، أو ضنًّا عليْـه بهـا ، بـلْ لأنَّ هذا الّذي سألَ عنه لا يطيقُ علمَه عقلُه ، فكان جوابُه مـن قَبيـلِ مـا يُسـمَّى عند البلاغيين بـ« أسلوبِ الحكيم » .

فدلَّنا هذا عَلَى أنَّ العلم بكيفياتِ الغيبِ فوقَ طاقة العقلِ البشـريّ وإن كـان عقلَ أبي الأنبياءِ وخليلِ الله تعالى سيدنا إبراهيم عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ ، وعلمنـا هذا أنّ من يسْعَ لعلم ما لا طاقة لعقله بعلمِه ، فقد كلَّف نفسَـه مـا لا تطيـقُ ، وأنفقَ عمرَه وجهده فيما لا ينتفعُ به ، بل ولا يُتوصَّل إليه ، فأقلُّ معاباتِـه أنّـه تبذيرٌ وإسرافٌ في إنفاقِ العُمُرِ وبذلِ الجُهدِ والله تعـالى قـد نهَـى عـن التبـذير والإسراف .

بقِي عندي أمرٌ في شأن قصة أبي الأنبياء عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ :

لم يكن قط سؤال سيّدنا إبراهيم عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّـلامُ سـؤال شـكٍّ ، أَنـّى ، وهو الخليلُ ؟!!!

وما رواه الشيخان البخاري في كتاب (التفسير) ومسلم في كتاب (الإيمان) و(الفضائل) بسندهما عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ ـ رضى الله عنه ـ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ « نَحْنُ أَحَقُّ بِالشَّكِّ مِنْ إِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ (رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْيِى الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ

تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِى) قد يتسارعُ عجلٌ فيتوهم أن النبيّ ﷺ يشيرُ إلى أن سيّدنا إبراهيم عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ قد وقعَ منه الشك؟

ما هكذا تورد ياسعْدُ الإبل .

هذا من سيّدنا رسول الله محمّد صَلَواتُ اللهِ وسَلامُه عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ استدلالٌ قطعي الدّلالة على أنّ سيدنا إبراهيم عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ لم يقع منه الشَّكُّ فيما سأل عنه قط .

قول سيدنا محمّد ﷺ : «نَحْنُ أَحَقُّ بِالشَّكِّ مِنْ إِبْرَاهِيمَ» . نفي قاطعٌ لوقوع الشّك من سيدنا إبراهيم عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ .

هو ﷺ يقول لنا : لو شكَّ إبراهيم عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ لكنا نحن كذلك ، ونحن ما شككنا ، فهو أولى باليقين منا .

وهذا نهجٌ في التّقريرِ والمُحاجة في بيان النُّبوّة ، فهو أدخلُ في باب دَلالة الّلزوم المُحكمة .

وغيرُ قليلٍ من خصائص التراكيب الاستدلالية الحِجاجية تنتمي إلى هذا الباب من وجهٍ وهذه أودية لم تستزرع . وحسنٌ أن نسعَى إلى إنصافِه في الدّراسات البلاغية العليا في جامعاتنا . وأن يكون منطلقُنا منطقيةَ العقلِ العربيّ المسلم ، وليس منطلقُنا منطقيَّةَ العقل الأرسطوطاليسيّ [1].

---

(١) إذا ما أردنا أن نعيد لعلم البلاغة الاستدلالية حقه من العناية به ، فليس حسنًا أن نجعل ما جاء بِه أبو يعقوب السكاكي في كتابه «مفتاح العلوم» في باب «الاستدلال» عمدتنا أو له سلطان على فعلنا ، علينا أن نعمد بأنفسنا إلى إقامة قواعد هذا العلم إقامة تحقق خصائص اللسان العربي في الإفهام والإقناع من خلال حسن البصر ببيان الوحي في هذا الباب ، وحسن البصر ببيان الإبداع فيه .
ولوأنّ الله سُبْحانَه وَبِحمدِهِ هداني لهذا في باكر عملي بالبحث العلمي لانصرفت إليه بالكلية ، ولكن قدر الله تعالى لي غير ذلك وما شاء فعل ، وما يقدره لنا هو الخيرُ والفضل والإحسان فله الحمد والشكر ما بقيت الحياة .

إنَّ في بيان الوحي قرآنا وسنة منهاجًا بيّن المعالم لمنطقية هذا العقل العربيّ المسلم يمكن لطلابِ العلم أن يضعوا أيديهم عليها ، وأن يعدوها واحدةً واحدةً وأن يسموها شيئا فشيئًا .

* * *

إن قيل : إن الله سُبْحانَه وتَعالَى يقول : ﴿ **هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۖ وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ** ﴾ (آل عمران:٧)

ومِن أهل العلم من أوجبَ الوقفَ على اسم الجلالة في قوله تعالى : ﴿ **وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ** ﴾ (آل عمران:٧) واستأنف القراءةَ بقوله تعالى ﴿ **وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ** ﴾ (آل عمران:٧) جاعلا (الواو) في (وَالراسِخون) استئنافية ممّا يدلّ على أنَّ تأويلَه مقصور على الله تعالى . وهذا هو عَيْن تفويض معناه إلى الله تعالى .[1]

إن قيل ذلك أُجيبَ بأنَّ هذا لا يصحُّ الاستدلالُ به على ما يُذهبُ إليْه من تفويضِ المعنى إلى الله تعالى لأُمور :

« الأوّل : أن القولَ بوجوب الوقف على آخر قوله (إلاّ الله) لم يتفق عليْه أهل العلم ، منهم طائفة لا توجبُ الوقف عليه ، بل تعطف قوله تعالى (الرّاسخون) على اسم الجلالةِ .

---

(١) ينظر في مذاهب العلماء في الوقفِ في الآيةِ كتاب : إيضاح الوقف والابتداء ، تأليف : أبي بكر الأنباري (ت : ٣٢٨هـ) تحقيق : محيي الدين عبد الرحمن رمضان . نشر : مطبوعات مجمع اللغةِ العربية بدمشق . عام : ١٣٩٠هـ ٢/٥٦٥ .

وما كان هـذا شـأنه يسـقط الاسـتدلالُ بـه كمـا هـو مقـرَّرٌ في أُصـول علـم الاستدلال .

والثاني : أنَّ الذين رأوا الوقـفَ علـى قولـه تعـالى (إلا الله) أرادوا بالتأويـل تأويل حقيقة المعاني ، والكيفية ، وموعد الوقوع . . . ، أي لا يعلمُ بـذلك إلا الله تعالى ، وأمَّا المعنى الذي يدركُه العقلُ فليس مُحاجزًا عن إدراكِه . ذلك أن القرآن هدًى للناس ، ولا يكون كذلك إلا إذا كان كلُّ ما فِيه معناه معقولاً .

والثالث : أنّ التّأويل الذي اختصّ الله تعالى بعلمه لـيس هـو التأويـل الـذي يقُول به المتأخرون ، فسلف الأمة لكلمة التَّأويل عندهم معنى غير الـذي عنـد المتأخرين :

السَّلفُ لا يُريدُ بالتأويلِ صرف اللّفظ عن ظاهره إلى معنـى آخـر ، فـذلك مفهومٌ مُستحدث بعد القرون الأولى .

والتأويل في القرآن جاء بمعنى آخر هو عاقبة الأمر ، وما يؤول إليه الكلام . ولذا قالت السيدة عائشة رضي الله عنها فيما رواه البخاري في كتاب الأذان بسنده : أَنَّـهَا قَالَتْ كَانَ النَّبِىُّ ﷺ يُكْثِرُ أَنْ يَقُولَ فِى رُكُوعِهِ وَسُجُودِهِ « سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا وَبِحَمْدِكَ ، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِى » يَتَأَوَّلُ الْقُرْآنَ .

وروى البخاري في كتاب الحج بسنده عَنْ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ ـ رضى الله عنهما ـ أَنَّـهُ قَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ، أَيْنَ تَنْزِلُ فِى دَارِكَ بِمَكَّةَ . فَقَالَ « وَهَلْ تَرَكَ عَقِيلٌ مِنْ رِبَاعٍ أَوْ دُورٍ » . وَكَانَ عَقِيلٌ وَرِثَ أَبَا طَالِبٍ هُوَ وَطَالِبٌ وَلَـمْ يَـرِثْـهُ جَعْـفَـرٌ وَلاَ عَلِىٌّ ـ رضى الله عنهما ـ شَيْئًا لأَنَّـهُمَا كَانَا مُسْلِمَيْنِ ، وَكَانَ عَقِيلٌ وَطَالِبٌ كَافِرَيْنِ ، فَكَانَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ ـ رضى الله عنه ـ يَقُولُ لاَ يَرِثُ الْمُؤْمِنُ الْكَافِرَ . قَالَ ابْنُ شِهَابٍ وَكَانُوا يَتَأَوَّلُونَ قَوْلَ اللَّهِ تَعَالَى : ﴿ **إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖ**﴾ (الأنفال:٧٢) الآيَةَ .

وروى أحمدُ في مسنده بسنده عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ عَنِ ابْنِ عُمَرَ يُصَلِّى حَيْثُمَا تَوَجَّهَتْ بِهِ رَاحِلَتُهُ وَقَدْ رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَفْعَلُ ذَلِكَ وَيَتَأَوَّلُ عَلَيْهِ ﴿ **وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ** ﴾ (البقرة:١٤٤) .

هذا هومعنى التأويل عند سلف هذه الأمة .

ومِن المُقرَّر في منطق البحث العلميّ أنّه إذا ورد مُصطلحٌ في كلامِ بعضِ أهلِ العلمِ فإنَّ منطقَ العلمِ والحقِّ أن يُنظرَ في سُنَّةِ مَن تكلَّم بِه في مُرادِه به ، فإنَّ المُصطلحاتِ تَختلفُ مَدلولاتُها باختِلافِ الحِقبِ الزَّمنيّة وباختلافِ أنواعِ العُلوم التِي وَردت فيها ، وأنْ تُعتبرَ الأعرافُ الّتي يُؤخذُ بِها في ذلك العلمِ ، ومِن ذلك العالمِ نفسِه ، فالمُصطَلحُ الواحِدُ يَرِدُ عندَ أكثرَ مِن عالم ، وفي أكثرَ مِن عِلم ويكونُ له في كلٍّ مرادٌ ، فوجب ضَبطُ ذلك ، حتَّى لا يحرّف القولُ عن مواضعِه ، فَينسبَ إلى العالمِ ما لم يُرِدْهُ .

أما التَّأويل بمعنى « صرف اللفظ عن الاحتمال الرَّاجح إلى الاحتمال المرجوح لدليل يقترن به » فذلك الذي لم يُرده السَّلفُ ولم يَكونوا يعرفُونه ، فسقط الاستدلالُ بآية سورة آل عمران على جواز التفويضِ في المعنى . . وبقيتْ مشروعيّة التفويض في حقائقِ معاني أخبارِ الغيبِ وكيفيّاتها . وبطل ما خالف ذلك .

حاصلُ الأمرِ أنَّ السلفَ لا يقولون بالتفويض في علم المعنى ، وأن قوله تعالى : لا يعلم تأويله إلا الله لا يُراد به تأويل معناه ، بل تأويل كيفيته ، ونحوها ، فَمعنى المتشابه هو ممَّا يعلم الرَّاسخون معناه ، ولذا قال ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنهما أنا ممن يعلم تأويله ، أي تأويل معناه .

وعلى هذا فالمذهب الحقُّ هومذهبُ السَّلف القائل بأنَّ المعنى معلومٌ وأنَّ الكيفَ مجهولٌ ، وبذلك جاءت عبارة الإمامِ مالك بن أنسٍ رضِيَ الله عَنْهُ عندما سئل عن قول الله سُبْحانَهُ وتعالى : ﴿ **ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ** ﴾ (طه:٥).

فقال : « الاستِواءُ غيرُ مَجهولٌ ، والكَيفُ غيرُ معقولٍ ، والإيمانُ بِـه واجـبٌ ، والسُّؤال عنه بِدعةٌ »[1]

تبصّر قوله : (الاستواء غيرُ مجهول) وهي عبارةٌ جليلةٌ ، لأنّـها تدلُّ على أنّـه ممَّا لا يلحقُه الجهلُ به ، وهو عندى أدلُّ مِن قولنا (الاستواءُ معلـومٌ) لأنّ نعتَـه بأنّـه معلومٌ يُمكن أن يفهم منه التّفاوت في درجات العلمِ به ، أمَّا نفي جهلِـه ، فلا يتحقق فيه التَّفاوتُ في درجـات النَّفـي ، لأنَّ النَّفـي لا يلحقـه التَّفـاوتُ في الدّرجات بخلافِ الإثباتِ .

يؤوّلُ بعضُ أهلِ النَّظر عبارةَ الإمام مالكٍ (الاستواء غير مجهول) على معنى أنَّـه غيرُ مجهولِ ورودُه في القرآن ، ولا يؤولُه على أنـه غـيرُ مجهـولِ معنـاه ، وهذا التأويلُ عقيمٌ ؛ لأنّـه لا معنى أن يقول مالكٌ إنّ الاستواءَ واردٌ في القرآن ؛ لأنّـه قال بعد ذلك : « والإيمان به واجب» بـل الصَّـواب أن المعنـى والاسـتواء غيرمجهول معناه ؛ فَهذا هو الموافق لحقيقة أنَّ القرآن نزلَ لِيفهم معناه وليؤمن به ويصدق خبره ، وليطاع أمره ونهيه احتسابًا .

---

(١) تنظر عبارة الإمام مالك في كتاب : الرَّدُّ عَلى الجَهَمِّيَة . تأليـف : أبـي سَعِيدٍ عُثمَـانَ ابن سعِيدٍ الـدَّارمِيِّ . (ت : ٢٨٠هـ) تحقيـق : أَبـوُ عَاصِـم الشَّـوَامِيّ الأَثـرِي . نشـر : المكتبـة الإسـلامية ، القـاهرة ـ ط(١) عـام ١٤٣١ هــ ص : ٦٩ ، وكتـاب : الأسمـاء والصـفات . تـأليف : أبـي بكـر البيهقـي (ت ٤٥٨هــ) تحقيـق : عبـد الله بـن محمـد الحاشدي . تقديم : مقبل بن هادي الوادعيّ . نشر : مكتبة السـوادي ، جـدة – ط(١٩) عام : ١٤١٣ هـ ٢/ ٣٠٥

وما نسب إلى الإمام مالك بن أنس ، نسب موقوفًا إلى أم المؤمنين أم سلمة رضي الله عنها ، غيرأن أهل العلم قالوا بضعف نسبته إليها ، وأن المشهورالوثيق نسبته إلى مالك ابن أنس ، وإلى ربيعة الرأي . ينظر كتاب « العلو للعلي الغفار في إيضاح صحيح الأخـبار وسقيمـها » تأليف شمـس الـديـن الذهـبي (ت : ٧٤٨هـ) تحقيـق أشرف عبد المقصود . نشر : مكتبة أضواء السلف ـ الرياض . ط(١) عام ١٤١٦هـ ص٨١ ..

وقول سيّدنا مالك بن أنسٍ رضِيَ اللهُ عنه (والسؤال عنه بدعة) يريد به والسؤال عن الكيفِ بدعةٌ ، وليس السُّؤال عن معنى الاستواء ، فالسُّؤال عن معانِي القرآنِ إنّما هو مِن طلبِ العلمِ المحمودِ .

وانْظر كيفَ نسقَ الإمام مالك رضيَ الله عنه عبارته ورتَّب الجمل ترتيبًا مكينا :

بدأ بتقريرِ انتفاء الجهلِ بمعنى الاستواء ، فدلَّ على أنّ معنى الاستواء محل العلمِ بِه ، فهو غير ممتنع عنه ، وغيرُ قابلٍ لأن يُجهلَ . ثم لم يجرّد كيفية الاستواءِ من العلم بها فحسبُ ، بل جرَّدها من أن تكون محلّ الإدراك العقليّ : نفى عن العقل أن يكون أداةَ إدراكها ، وبذلك قطعَ السَّبيلَ عن المنازعة ، فلو قيل : والكيفُ غيرُ معلوم ، لقيل له : بل ثَمَّ من يعلم ، فقضى بِأنَّ الكيفَ في ذاتِه غيرُ قابلٍ للتَّعقُّل البشريّ له .

وهذه من الإمامِ مالك فحولةٌ في المحاجة والمجادلة وجندلة الخصم ، وقطع الطريق .

ثم قال : (والإيمان به واجبٌ) أي الإيمان بِمعنى الاستواء على العرشِ واجبٌ ، فَسَدَّ الطَّريقَ على مَن يُوسوسُ له شيطانه إذا كان غيرَ معقولٍ كيفيّته ، فليسَ محلَّ إيمان به ، لأنّ الإيمانَ مُرتهنٌ بالتَّعقل : تعقّل المعنى والكيفِ ، فوجبَ على هذا أن لا يُؤمنَ به ، ففصل بقوله (والإيمَانُ بِهِ واجبٌ) في القضية ، وقضَى بأنَّ الإيمانَ به مصدرُه إنباءُ الوحي . فكلُّ ما أنبأَ بِه الوحيُ وجبَ الإيمانُ بِهِ ، وإنْ كانَ المرْءُ عاجزًا عَن تعقُّله ، ألا ترَى أنَّك تُؤمِن بنفسِك وعقلِك ، وروحك ، وتعلم معنى كلٍّ ، ولا سبيلَ لك إلى تعقل كيفية أيّ منها ، وَأنت تُؤمن بـ(الموت) وتعلم معناه ، ولا سبيلَ لك إلى أن تعقِلَ كيفيتِه .

كذلك يتصاعدُ الإمام مالك في بناء المعانى ونسق بعضها على بعضٍ . ثم يختم بما هو القاصمة ، أنبأ بما بعث على السؤال ، وأن السؤال في نفسِه إنَّما

هو مخرجه قلبٌ هو مزرعة البدعة . والتقصيرُ في الطَّاعة من غيرِ بدعة أهون من الاجتهاد في الطَّاعة مع البدعة ، وكأنَّه يلفتُ السائل إلى مكمن الداء ، ليسعَى إلى طلب الدواء .

وهذا من الإمام مالك من فيضِ الحكمة ، والتوفيق فختم جوابه . بالكلمةِ الفصلِ : (والسؤال عَنه بِدعةٌ) أي السّؤال عن الكيفِ بِدعَةٌ ، لأنّه سُؤالٌ عمّا لا طاقةَ للأداة التعقّل أن تطيقه ، فلو كشِف لك عن حقيقة الكيف فبأي أداة تتعقّل؟ فوجوبُ تركُ السّؤال عن الكيفِ ليس مخرجُه الضَّنُّ بعلمِه حرمانًا ، بل مخرجه أنا نفتقدُ أداة تعقله ، وليس مِن الحكمة أن يُخاطب المَرءُ بما لا يملكُ أداة تعقلِه .

روى البخاري في كتاب « العلم » في صَحيحه : « حَدِّثُوا النَّاسَ بِمَا يَعْرِفُونَ ، أَتُحِبُّونَ أَنْ يُكَذَّبَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ؟ »

هذا الذي كان من الإمام مالك رَضِيَ اللهُ عَنه في نسق بيانِه هو الذي أريده ببلاغة الاستدلال البياني المقابل للاستدلالِ العقلي (المنطقِي الفلسفِي) الذي برع فيه اليُونان .

إنَّ دراسةَ خصائصِ التَّراكيبِ الاستدلاليّة هو شطر البلاغة الذي ما نزال بحاجة إلى أن نوفيه عديل ما وفيناه قسيمه : خصائص التراكيب الخطابية التي مبدؤها توخّي معاني النحو وأحكامه في ما بَيْن معاني الكلم على وفق الأعراض والمقاصد .

وبلاغة الاستدلال البياني عمودها علاقات المعاني التركيبية المتجاوزة ما يعرف بمعاني النّحو وأحكامه على ما هو معهود عند المتأخرين من نَحو العربية .

كان الإمامُ مالك في هذا ممتطيًا صهوة البيان البديع . ومثل كلام مالك من أقرانِه الأئمة الأعيان جدير بأن يلتفتَ إليه العقلُ البلاغي ليقضي بعض حقه

عليه ، فقد لقيت في كلام الأئمة أبي حنيفة ومالك والشَّافعي وأحمد وغيرهم من العبارات التي نفتقرُ إلى تذوق ما فيها من دقائق البيان العالي الجواد ، ولو أنا فعلنا لكان لنا سبيلٌ إلى أن نعرفَ مواقع أئمةِ علماء فهم بيان الوحيِ قُرآنًا وسنة من باب البلاغةِ إفهامًا ، وكيف أنَّ في بيانهم من دقائق البيان ولطائفه ما يُمكن أن لا تجده في كلام غير قليلٍ من الأدباءِ .

يقُولُ عبدُ القاهر : «ومَبْنَى الطباع وموضوعُ الجِبِلَّة ، على أن الشَّيْء إذا ظهرَ من مكانٍ لم يُعْهَد ظهورُه منه ، وخرج من موضعٍ ليس بمعدِنٍ له ، كانت صَبَابَةُ النُّفوسِ به أكثر ، وكان بالشَّغَف منها أجدر ، فسواءٌ في إثارة التَّعجُّب ، وإخراجك إلى روعة المستغربِ ، وُجودُك الشيءَ من مكان ليس من أمكنته ، ووجودُ شيءٍ لم يُوجَد ولم يُعرَف من أصله في ذاته وصفته .»[١]

* * *

إذا ما تبين لك هذا في منهجِ الشّيخِ أبي موسَى ، وأنَّ أمرَه قد انتهى إلى الرَّغبةِ عمّا كان منه في باكر أمرِه إلى تركِ تأويلِ ما كانَ من أفق الغيبِ المطلقِ عامة وما كان من باب أفعالِ الله تعالى وصِفاته خاصة فإن بعضًا قد يتراءى له أنَّ الشَّيْخَ ذهبَ في أولِ الكِتابِ إلى التّأويل في شيْءٍ مِن هذا الباب وإن علينا في كلّ موضع من أيّ سفر من أسفاره مارس فيه التأويل أن نشير في هامش الموضع إلى ما انتهى إليه أمر شيخنا رفع الله تعالى ذكره في الصّدقين .

* * *

(١) أسرار البلاغة . ص١٣١ ، فقرة : ١١٧ .

القضية الثالثة

البيان النبوي وتغيّر الأعصار والأمصار

مقتضَى قول الله سُبْحانَه وتَعالَى في سورة «الأنبياء» من بعد الإنْباء بأخبارِ الأنبياءِ وأقوامِهم : ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ ﴿١٠٦﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ (الأنبياء:١٠٥-١٠٧)

وقوله تعالى : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (سبأ:٢٨)

وما رواه الشَّيخان : البخاريّ في كتاب (التَّيمم) و(الصَّلاة) ومسلم فِي كتاب (المساجد) من صَحيحهما بسندهما عَنْ جَابِرِ بْن عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللهُ عَنهما أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ «أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ قَبْلِى نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ ، وَجُعِلَتْ لِىَ الأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا ، فَأَيُّمَا رَجُلٍ مِنْ أُمَّتِى أَدْرَكَتْهُ الصَّلاَةُ فَلْيُصَلِّ ، وَأُحِلَّتْ لِىَ الْمَغَانِمُ وَلَمْ تَحِلَّ لأَحَدٍ قَبْلِى ، وَأُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ ، وَكَانَ النَّبِىُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً ، وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً» .

وفي رواية «مسلم» : «أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ قَبْلِى كَانَ كُلُّ نَبِىٍّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً وَبُعِثْتُ إِلَى كُلِّ أَحْمَرَ وَأَسْوَدَ . . . .» .

وما رواه مسلم في كتاب (الإيمان) من صَحيحه بسنده عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنه عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّـهُ قَالَ «وَالَّذِى نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لاَ يَسْمَعُ بِى أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الأُمَّةِ يَهُودِىٌّ وَلاَ نَصْرَانِىٌّ ثُمَّ يَمُوتُ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِالَّذِى أُرْسِلْتُ بِهِ إِلاَّ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ».

وما رواه أحمد في مسنده بسنده عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ أَتَى النَّبِىَّ ﷺ بِكِتَابٍ أَصَابَهُ مِنْ بَعْضِ أَهْلِ الْكُتُبِ فَقَرَأَهُ عَلَى النَّبِىِّ ﷺ فَغَضِبَ وَقَالَ « أَمُتَهَوِّكُونَ فِيهَا يَا ابْنَ الْخَطَّابِ وَالَّذِى نَفْسِى بِيَدِهِ لَقَدْ جِئْتُكُمْ بِهَا بَيْضَاءَ نَقِيَّةً لاَ تَسْأَلُوهُمْ عَنْ شَىْءٍ فَيُخْبِرُوكُمْ بِحَقٍّ فَتُكَذِّبُوا بِهِ أَوْ بِبَاطِلٍ فَتُصَدِّقُوا بِهِ وَالَّذِى نَفْسِى بِيَدِهِ لَوْ أَنَّ مُوسَى ﷺ كَانَ حَيًّا مَا وَسِعَهُ إِلاَّ أَنْ يَتَّبِعَنِى » . (حسنه الألبانيّ)

مُقتَضَى كلِّ هَذِهِ الأَنْبَاء العَظيمةِ من القرآن والسُّنةِ أنَّ بَيَانَه صَلّى اللهُ وسلّم عَلَيْه وَعلَى آلِهِ وصَحبِهِ بَيانٌ مَدِيدٌ البَقاءِ سَابغُ العطاءِ وَلَيْسَ صَالِحًا لِكلِّ زَمانٍ وَمَكانٍ ، فَحسبُ ، بلْ هُو مُصلِحٌ كلّ زمانٍ ومكانٍ ، فما مِن موْضعِ فسَادٍ أو إفسادٍ نزّل على بيانِه صَلَوات اللهِ وسلامُه عَلَيْه وَعلَى آلِهِ وصَحبِهِ إلاَّ اسْتحالَ هذَا الفَسَادُ والإفسَادُ صَلاحًا وإصلاحًا .

ذلك هُوالطّريق . فَبَيَانُه صَلّى اللهُ وسلّم عَلَيْه وَعلَى آلِهِ وصَحبِهِ إنّما هُو حيٌّ مُتجَدِّدٌ ، علم ذلك كلّ مَن اتخذوا الهَجمةَ على هذا البيان رسالة حياتِهم في هذه الحقبة من مشروع استئصَال الإسلام من قلوبِ العبادِ .

استحضارُ حقيقةِ أنَّ بيانَ النُّبوّةِ بيانٌ حيّ مُتَجدّدٌ ليْسَ صَالِحًا لِكلِّ زمانٍ ومكانٍ وجِنسٍ فَحسْبُ ، بلْ هُوَ المُصلحُ كلّ زمانٍ ومَكانٍ وجنسٍ في وجهِ الهجومِ المُمَنهَج المدبّر علَى السّنة النّبويّة باعتباره خُطوةً إلى الهُجوم على البيان القرآنيّ في سبيل تحقيقِ المَرحلة الأخيرةِ من المخطط العلمانيّ : هي مرحلة (تجريم الإسلام الحقّ) بعد الفراغ تقريبًا من المرحلة الأولى : (تغْريب الإسلامِ الحقَّ) ومن المرحلة الثانية : (تغييبِ الإسلام الحقّ).

جاءت المرحلة الأخيرة : مرحلة « تجريم الإسلام الحقّ » من خلال عدّة عوامل وروافد منها تكثيفِ الهجوم على السّنةِ النبويّة وأنّها فهمٌ شخصيّ

تاريخيّ من محمد صَلّى اللهُ وسلّم عَلَيْه وَعلَى آلِهِ وصَحبِهِ للقرآن لا يلزم كلَّ مسلم أن يأخذَ به[1] .

جنَّدوا سحرةَ إبليس عبرَ وسائل الإعلام والمؤسسات الثقافية لشنّ هذا الهجوم . ونبتت فرقة «القرآنيين» ، فكان لزامًا الجهادُ في بيان الحقّ ، وكشف حقيقة أولئك العابثين في عقلِ الأمّة ودينها ، وفِي عِرضِها أيضًا .

كان لزامًا بيانُ أنَّ بيانَ النُّبوة قدْ قيلَ في عصرِ المَبعث ، وكأنَّه قيل لنا في هذا العصر ، وكأنَّه سيقال لكلّ عصرٍ . فما تنبتُ في النّاسِ نابتةٌ إلا ويُمكنك أن تسمع سيّدنا رسُول الله صَلَوات اللهِ وسلامُه عَلَيْه وَعلَى آلِهِ وصَحبِهِ يكلِّمك فيها إنْ كنتَ ذا سمعٍ .

وهذا من مقتضَياتِ عمومِ الرّسالة وديمويتها وأنَّها للنَّاس كافة في كلِّ عصر ومصرٍ وجنسٍ ولسان . ومن أنكر هذه الحقيقة فقد كفرَ بما جاء به القرآن الكريم : ﴿ **وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ** ﴾ (سبأ:٢٨)

ومن كَفرَ بحرف من القرآن ، فقد كفرَ كفرًا بواحًا يُخرجُه مِن المِلّة الإسلاميِّةِ خروجًا كاملاً .

كان الشَّيْخُ حفيًّا بهذه القضيّة ؛ لأنّها قضيَّةُ مَصيرِ أُمَّةٍ مُرتبطٍ بمصير دينِها . فهي أمّةٌ ليس كمثلها أمّةٌ : أمّة لسانها مرتبطٌ بكتاب دينها الخاتم ، فكان في

---

(١) في كتابي : «تغييب الإسلام الحق» الذي نشرته مكتبة وهبة بالقاهرة بيانٌ لما يصطنعوه لتحقيق هذه المرحلة وفيه مناقضة ودحض للكتاب الفتنة (الإسلام الحق) الذي نشرته الهيئة المصرية العامة للكتاب بثمن زهيد نشراً للفساد والفتنة وتحدّيًا لتوصية مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر بمنع نشره لما فيه إضلال وإفساد .
﴿ **إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلۡفَٰحِشَةُ فِي ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ** ﴾ (النور:١٩)

هذا حفظًا إلهيًّا لهذا اللّسانِ لم يتحقَّق لأيِّ أمة من قبل ، ولن يتحقّق البتّة لغيرِها . وهذا يعنِي أنَّ أصول منهاج الفهم وأدواته لهذا الكتابِ لن تتغيّرَ .

وهِي أمَّةٌ وجودُها من وجودِ دينِها قائِمًا فتيًّا له سلطانُ ضبطِ حركةِ الحياةِ إلى مراد الله الشّرعيّ وتلك رسالةُ ورثةِ الأنبياءِ ورسالةِ الأمّة جمعاء ومن هنا كان احتفاء الشيخِ بهذه الحقيقة .

يقُول الشيخ في قيمة كلامه صَلَوات اللهِ وسلامُه عَلَيْه وَعلَى آلِهِ وصَحبِهِ : « أنه كلامٌ حيٌّ باقٍ في الأمّةِ لا يبلى ، ولايسقطُ مِنه حرفٌ »[1]

ومن أجلِّ معالمِ إعجازِ بلاغة بيانه صلّى الله عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ وسَلّمَ وأظهرِها أنَّه البيانُ الباقِي في النَّاسِ لا يسْتطيعون أن يردُّوا عليْهِ قليلاً من معانيه في أيَّ أمرٍ أبانَ فيه،ولا أن يستوحشوا على تقادم الزَّمان كلمة توثَّق نسبها إليْه، ولا أن يجدُوا فيه كلمةً خلاءً مِن كريم عطاءٍ .

يقُول الرافعيّ : « معلومٌ أنَّه ﷺ لا يتكلّفُ ولا يتعمَّل ، ولم يكتُبْ ولم يؤلِّفْ ، ومع هذا لا تجِدُ في بلاغتِه موضعًا يقبلُ التَّنقيح ، أو تعرفُ له رقّة من الشَّأن كأنمّا بيْن الألفاظِ ومعانيها في كلِّ بلاغتِه مقياسٌ وميزانٌ ، أوْ كأنَّ هذِه البلاغةُ تَنْبَثِقُ بالكلامِ علَى طبيعةٍ عاملةٍ فيه بقواها الدَّائمةِ الثّابتةِ ، ففنُّها الجميلُ هو التَّركيبُ الَّذي تجيْءُ فيه كَما ترَى الشّجر مثلاً كاسيًا مِن ورقِه وزهره ، فأنتَ مِنه بإزاءِ عملٍ جميلٍ ؛ لأنَّك بإزاءِ حقيقةٍ طبيعيَّةٍ قَد انفردَتْ في ذاتِها ، ومعنى انفرادِها في ذاتها أنَّها كذلك هِي ، فليْس فيها موضعٌ لشيْءٍ غيْر ما هُو فِيها »[2].

بيانٌ كهذا لا يكونُ إلا إذا كان قد أُقيم للزَّمان كلّه ، والعالمِ كلّهِ . فعالميةُ بيانِه قائمةٌ أدلتُها وبراهينُها فيه هو ،لا يفتقرُ إلى شيْءٍ من خارجِه ليشهدَ له بِها،

---

(١) شَرْحُ أحاديثَ منْ صَحِيحِ مسلم ١/٢٩ .

(٢) من وحي القلم ٣/٢٠ .

فالله سُبْحانَه وَبِحمدِهِ يُخاطبه ممتنًا عليْه ومعلّما لنا وهاديا : ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ ۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَىْءٍ ۚ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾ (النساء:١١٣)

تبصّر قوله سُبْحانَه وَبِحمدِهِ : ﴿ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ﴾ كيف أنه لم يقل : وعلمك ما لم تعلم ، ولا يغيمُ عليْك فضلا عن أن يغيب ما بيْن القوليْن : قوله ﴿ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ﴾ ممَّا فيه أنّه جَلَّ جَلالُهُ علمه ما لم تكن نفسُ رسُولِ الله صلّى الله عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ وسَلّمَ مؤهلةُ من حيثُ هو بَشر غير نبيٍّ أن يتعلمه لِما هو فوق طاقتِهِ البشريّة الصِّرفة وما لمْ يكن للعالمين أجمعين أن يعلموه لوكان قابلاً لأن يتعلم ، فهو بذاته صلّى الله عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ وسَلّمَ ليسَ متمكنًا من ذلك ، وليس في العالمين من يقتدر على أن يعلمه ذلك ، فجمع له بيْن الأمريْن :

هيّأه جَلَّ جَلالُهُ لذلك خرقا لطاقاتِ البشريةِ وإمكاناتها ومهاراتها . وصِناعتها على نحو آخر فريدٍ لم يكن ولنْ يتكرر ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ﴾

(الضحى:٦)

وكان هو سُبْحانَه وَبِحمدِهِ معلّمه ، فإذا ما كان أبو البشرِعَلَيه السّلام قد علمه الله تعالى الأسماءَ كلَّها ، فإنَّ سيّد الخلائق سيّدنا محمَّدًا صلّى الله عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ وسَلّمَ قد عَلَّمَه الله جَلَّ جَلالُهُ مَا لَمْ يكُنْ مهيئًا بنفسِه أن يَعْلَمه ولو اجتمع العالمون على تعليمه .

فمن كان هذا شأنه كان بيانُه بيانًا عالميًّا أبديًّا مقرونًا بقاؤه ببقاءِ الحياة ، محمولا على متن الليل والنّهار ، فما من بقعةٍ حلَّ فيها ليلٌ أونهارٌ إلا كان هذا البيانُ النبويّ أهلاً لأن يحلّ فيها ، وأن يصلحها ، ويطهرها ممّا فيها من فسادٍ وأوضارٍ ومضارٍ .

وممّا هو قاطع في عالمية دعوته وسيرورتها في الأرضِ جميعها ، وفي كل بني آدم ما بقيت الحياة قول الله سُبْحانَه وبِحمدِه :

﴿ وَإِذۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيۡتُكُم مِّن كِتَٰبٖ وَحِكۡمَةٖ ثُمَّ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مُّصَدِّقٞ لِّمَا مَعَكُمۡ لَتُؤۡمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥۚ قَالَ ءَأَقۡرَرۡتُمۡ وَأَخَذۡتُمۡ عَلَىٰ ذَٰلِكُمۡ إِصۡرِيۖ قَالُوٓاْ أَقۡرَرۡنَاۚ قَالَ فَٱشۡهَدُواْ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾ (آل عمران: ٨١)

تبصّر كيف أنّـه أخذ الميثاق على كلّ الأنبياء من قبل سيّدنا محمّد صَـلَوات اللهِ وسَلامُه عَلَيْهِ وعَلَى آلِـهِ وَصَـحبِهِ أن يؤمنـوا بـه وأن ينصـروه . فـلا يكفِـي الإيمان بِه ، بل لا بدَّ أن يقترن هذا بنَصرِه في نَفسِه ودينه وسُنَّته .

وإذا ما كان هذا ميثاقًا على كلِّ الأنبياءِ ، فهو ميثاقٌ لا محالـةَ علـى أمَمِهـم أجمعين . فكلَّ مَن جاءَ منذ بعثِه صلّى الله عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَـحبِهِ وسَـلّمَ إلى يوم الحاقة في كلّ عَصْرٍ ومِصْر وجِنْسٍ هُو الْملزمُ بـالأمريْن معًـا ، فمَـن قـامَ بالإيمانِ بِهِ ولَم ينصرْه في نفسِه ودينِه وسنتِه فقد قام بشطر ما ألزم بِه .

ومِن نصرِه الملزم به كلّ عاقلٍ تقريرُ أنّـه النَّبيّ الخاتم لكـلِّ عصـرٍ ومصـرٍ وجنسٍ ونصر ذلك ، والدّفع عنْه ، ونشـره في النَّـاسِ إيمانًـا واحتسـابًا ، فمـن توقف في هذا فكيف بمن تردد أوْ ردَّ أو عاند فقد خرج من الإسلام . .

يقُول ابن تيميّة : « قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَغَيْرُهُ مِنَ السَّلَفِ : مَا بَعَثَ اللَّهُ نَبِيًّا إلا أَخَذَ عَلَيْهِ الْمِيثَاقَ لَئِنْ بُعِثَ مُحَمَّدٌ وَهُوَ حَيٌّ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ وَلَيَنْصُرَنَّهُ وأَمَرَهُ أَنْ يَأْخُذَ الْمِيثَاقَ عَلَى أُمَّتِهِ لَئِنْ بُعِثَ مُحَمَّدٌ وَهُمْ أَحْيَاءٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَيَنْصُرُنَّهُ وَالآيَةُ تَدُلُّ عَلَى مَا قَالُوا ، فَإِنَّ قَـوْلَـهُ ـ تَـعَـالَـى ـ : ﴿ وَإِذۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾ (آل عمران: ٨١) يَتَنَاوَلُ جَمِيعَ النَّبِيِّينَ ﴿ لَمَآ ءَاتَيۡتُكُم مِّن كِتَٰبٖ وَحِكۡمَةٖ ثُمَّ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مُّصَدِّقٞ لِّمَا مَعَكُمۡ لَتُؤۡمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ﴾ (آل عمران: ٨١)

وَهَذِهِ اللامُ الأُولَى تُسَمَّى اللامَ الْمُوَطِّئَةَ لِلْقَسَمِ وَاللامُ الثَّانِيَةُ : تُسَمَّى لامَ جَوَابِ الْقَسَمِ ، وَالْكَلامُ إِذَا اجْتَمَعَ فِيهِ شَرْطٌ وَقَسَمٌ وَقُدِّمَ الْقَسَمُ سَدَّ جَوَابُ الْقَسَمِ مَسَدَّ جَوَابِ الشَّرْطِ ، وَالْقَسَمِ . . .

وَمِنْ مَحَاسِنِ لُغَةِ الْعَرَبِ أَنَّهَا تَحْذِفُ مِنَ الْكَلامِ مَا يَدُلُّ الْمَذْكُورُ عَلَيْهِ اخْتِصَارًا وَإِيجَازًا لا سِيَّمَا فِيمَا يَكْثُرُ اسْتِعْمَالُهُ كَالْقَسَمِ (وَقَوْلُه) : ﴿ **لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ** ﴾ (آل عمران: ٨١) هِيَ مَا الشَّرْطِيَّةُ ، وَالتَّقْدِيرُ : أَيُّ شَيْءٍ أَعْطَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ ، وَلا تَكْتَفُوا بِمَا عِنْدَكُمْ عَمَّا جَاءَ بِهِ وَلا يَحْمِلَنَّكُمْ مَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ عَلَى أَنْ تَتْرُكُوا مُتَابَعَتَهُ بَلْ عَلَيْكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِهِ وَتَنْصُرُوهُ ، وَإِنْ كَانَ مَعَكُمْ مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ فَلا يُغْنِيكُمْ مَا آتَيْتُكُمْ عَمَّا جَاءَ بِهِ ، فَإِنَّ ذَلِكَ لا يُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ .

فَدَلَّ ذَلِكَ عَلَى أَنَّهُ مَنْ أَدْرَكَ مُحَمَّدًا ﷺ مِنَ الأَنْبِيَاءِ وَأَتْبَاعِهِمْ وَإِنْ كَانَ مَعَهُ كِتَابٌ وَحِكْمَةٌ فَعَلَيْهِ أَنْ يُؤْمِنَ بِمُحَمَّدٍ وَيَنْصُرَهُ كَمَا قَالَ ﴿ **لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ** ﴾ (آل عمران: ٨١) »[١]

كلُّ من زعم أنّ من مَات بعد مبعثِ رسُول الله صلّى الله عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ وسَلّمَ غير مؤمن بِهِ ، وكان على دين من يهوديةٍ أو نصرانية هو ناجٍ من الخلودِ في النار هو خارجٌ من الإسلام إن كان يعقلُ ما يقول ، ويقصده . فالزَّعم بأن ممّن مات على النصرانية أواليهودية ، وصنع للناس ما ينفعهم

(١) الجوابُ الصَّحيحُ لمنْ بدَّل دينَ المسيحِ . تأليف أبي العباس التقي ابن تيمية : أحمد ابن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية الحراني (ت:٧٢٨هـ)(م.س).٢/١٢٠-١٢٤

هومن أهلِ الجنةِ كان مرتدًا عن الإسلام ، وإن كان في النّاسِ فقيه عصرِه إلا أن يتوبَ ويعمل صالحًا ، وتبرأ ممَّا أذاعه في النَّاسِ[1].

إننا لنؤكد في حزم بالغ ويقين قاطع أن مَن مات غير مسلمٍ هو مخلد في نار جهنم كائنًا من كان . ومن ترحّم عليْه أو استغفر له ، وهو يعلم ما يقول ويقصِده فهو مثله . ومن نكص عن أن يعلن ذلك أو خشي أحدًا من العالمين فقد حقر نفسَه .

وليس هذا من الفتنة المجتمعية في شيءٍ ، وإنما توجبه فريضة النّهي عن المُنكر ، وإنقاذ النّاس من سوء عقبى الجهالةِ والضَّلالةِ .

روى أحمد في مسنده بِسَنده عَنْ أَبِى سَعِيدٍ الْخُدْرِىِّ عَنِ النَّبِىِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ : « لاَ يَمْنَعَنَّ رَجُلاً مِنْكُمْ مَخَافَةُ النَّاسِ أَنْ يَتَكَلَّمَ بِالْحَقِّ إِذَا رَآهُ أَوْ عَلِمَهُ » .

والشّيخُ في سِفره حفيّ بتقريرِ عالمية رسالة الإسلام وأن كلَّ دين غير ما أتِى به سيّدنا محمد ﷺ مردودٌ على صَاحبِه .

وهو إذ يقرّر ذلك نورًا يضيءُ القلوب والدّروب يقرّرُ ذلك أيضًا سيفا يقفُ بِه في وجهِ مَنْ يريدُ لِهذه الأمّة أن تبحثَ عن النُّور الكاشف عَن صَالحها فيما أنتجه العقلُ العصريّ ، ولاسيّما العقل الغربيّ الصليبيّ ، فـ « مصرُ » عندهم أقربُ عقلا وثقافة وعاداتٍ وتقَاليد ومراسيم وأخلاقًا إلى السواحل الشّمالية للبحر الأبيض المتوسط منها إلى الساحل الشّرقيّ للبحر الأحمر . فكل ما جاء من قبلِ هذا السّاحل الشرقيّ للبحر الأحمرِ لا يتجاوب في زعمهم مع واقع الحياةِ في « مصر »

هم يقُولون ذلك على الرغم من علمهم الوثيق بأنّه قولٌ هالك في نفسِه ، لنْ يجدَ له سبيلاً إلاَّ إلى قلبِ هالك مِن قبلِهِ ، ولكنّها الزُّلفّى إلى « أمّ جميل ».

---

(١) ينظر في هذا كتاب « دين الله واحد » لمحمود أبي رية . . وقد أعادت الهيئة المصرية العامة للكتاب نشره بثمن زهيد بعد أن كاد لا يعلم كثير عنه شيئًا .

إنّ عالميَّة السُّنة وصَلاحَها لكلِّ عصرٍ ومصْرٍ وجنسٍ بلْ إصلاحها كلّ عَصرٍ ومِصرٍ وجنسٍ من عالمِيّة القرآن الكريم وديموميّة رسالتِه ونوره ما بقيتْ علَى الأرضِ الحياةُ .

وإنَّ مِن عواملِ حفظِ السُّنة حفظُ الله تعالى كتابَه الكريم الّذي تكفل بِه : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴾ (الحجر:٩) جعل سُبْحانَه وَبِحمدِه حقيقة حفظِه القرآنَ عديلَ حقيقة إنزالِه فجعلَ ما يعربُ عن ذلك جملةً معطوفةً على جملة تعربُ عن حقيقة إنزاله سُبْحانَه وَبِحمدِه القُرآن ، وجعلَ كلاًّ مؤكدًا ، فجلالُ الألهيةِ وجمالُ الرُّبوبيّة حاضران في هذه الآيةِ على نحوٍ لا يُمكنُ لبصيرةٍ أن تُشْغلَ عنْ إدراكِهما .

وحفظه جَلَّ جَلالُهُ الذكرَ متسع لا يُحاطُ به ، ولا يحُصرُ في نوعٍ أو زمانٍ أوْ مجالٍ مِن محالات الحفظِ ، فكلُّ ما يتعلقُ به هو في حفظِ الله سُبْحانَه وَتَعالَى له . فمنْ أرادَ أن يعتدي عليْه فإنّما هو يأذن بحرب من الله سُبْحانَه وَبِحمدِه .

﴿ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴾ (التوبة:٣٢)

﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴾ (الصف:٨)

وهذا الحِفظُ الإلهيُّ للذّكرِ يلزمُه أمران :

الأوَّلُ : حفُظُ السّنة النبوية .

والآخرُ : حفظ لسان العربية كما كان يُعربُ به رسُول الله ﷺ وقومه ، وإنّه لشرفٌ لنا أن ننطقَ كما كان ينطق ﷺ ، وأن تجري الكلم على ألسنتنا كما جرتْ على لسَانه صَلَواتُ اللهِ وسَلامُه عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ .

فهذان : السُّنة والعربيّةُ في كنفِ القـرآن الكـريم ، وحفظُهمـا مـن حفـظ الله تعالى الذّكرَالحكيم الذي أكد منزله سُبْحانَه وَبِحمدِه أنه متكفلٌ بِه .

وهذا يجعلُنا نعملُ على حِفظ السّنةِ والعربيّة لِنُحُوزَ شرَفَ أن نكـونَ عـاملاً مِن عواملِ ذلك الحِفظِ ، ويجعَلُنا نعملُ على ذلك ونحن مُترعون بالثقـةِ بِأنـّا على بصِيرةٍ ونُجح ، وأنـّه لنْ يخيبَ سعيُنا . وعَلى قدرِ ما نبـذلُ ونـتقنُ تَكـونُ مثوبتُنا من الله تعالَى . ومَن رغب عنْ أن يلحقَ بالرّكب ، فلا يلـومنّ إلا نفسَـه وهذا يبين لك موقـع أولئـك الـولاة علـى مسـتوى «الأسـرة» والدولـة الـذين يجعلون غير لسان العربية هو لسان التعليم والتثقيف ويقدمون من يلوك اللسان الأعجمّى ويستقذرون جريان كلمة عربية على لسانهم فترى أحدهم قـد جعـل أكثر كلامه أعجميا وأكثر ما يقرأ أعجميّا .

إنَّ الرغبة عن لسان العربية هى من رحم الرغبة عن بيان الوحى قرآنا وسنة .

* * *

القضيّة الرابعةُ
قضيّة المواطنة

مِن هُموم قراءة الشَّيْخ تجلية الحقّ في شأن قضية «المواطنة» من خلالِ الفهم القويم لبيان رسُول الله صَلَواتُ اللهِ وسَلامُه عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ ، وهي قضية استُغلّت استغلالاً قبيحًا مِمَّن ناصرَها ، وممَّن عاندَها .

والمواطنة هي علاقة الحَقّ والواجب بيْن قومٍ اختلفت أنسابهم وعقائدهم يُقِيمون في وطنٍ واحد تحت سلطان ولي أمر عامٍ واحدٍ ، ونظام حكمٍ واحدٍ .

فلكلّ حقّ متعيّن لا يمنعُه وعليْه واجبٌ لا يتقاعصُ عن الوفاء بِه لأصحابِه سَواءَ كان ذلك الحقُّ متعلقًا بأمرٍ من أمورِ الدّين أو الدّنيا ، وسواء كان صَاحبُ الحق رجلاً أو امرأة فِي أيٍّ بقعةٍ من بقاعِ الوَطن . . .

والشَّيخُ في بيانه الحقّ في هذه القضية ينطلقُ مِن كلياتٍ مسلَّمة وردت في بيان الوحي .

رأسُ هذه الكليات قول الله سبحانه وتعالى : ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾ (الأنبياء:١٠٧) ومن كان كذلك لن يكون في سنته وهديه أثارة من ظلم لمَن خالفه أو خاصمَه أو كفَر بِه ، بلْ هو يرحمُه ، وقد تكونُ رحمته صَلّى اللهُ وسلّم عَلَيْه وَعلَى آلِهِ وصَحبِهِ به كفُّه عن أن يقومُ مقامَ الظَّالمِ نفسَه وغيرَه ، فمعالمُ الرَّحمة النّبويَّة تتجلَّي في موقفه صَلَوات اللهِ وسلامُه عَلَيْه وَعلَى آلِهِ وصَحبِهِ من خصومِه كَمثلِ ما تتجلَّي في موقفِه مِن مُؤازريه وناصرِيه صَلّى اللهُ وسلّم عَلَيْه وَعلَى آلِهِ وصَحبِهِ .

وقول الله سُبْحانَه وتَعالَى : ﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ۝٨ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُواْ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾

(الممتحنة:٨،٩)

فقه هاتين الآيتين على الوجه الصَّحيح فيه العِصمَةُ في هذه القضيّة :

العِصمةُ من ظُلم مَن لم يظلْمنا منهم .

والعِصمةُ من مُساعدة الشَّيطان على خصومِنا بموالاته وتركِ كفّهم عن الظُّلم.

والعِصمةُ مِن ترك مُناصرة من يُظلم منهم ، فهذا حقهم علينْا ما لم يظلموا ولم يعينوا علينا خصيما وما لم يعملوا على إِخراجِنا مِن دِيارِنا . .

وما رواه البخاري في كتاب (الجزية) من صَحيحه بسنده عَنْ عَبْدِ اللَّهِ ابْنِ عَمْرٍو ـ رضى الله عنهما ـ عَنِ النَّبِىِّ صَلَواتُ اللهِ وسَلامُه عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ قَالَ : « مَنْ قَتَلَ مُعَاهَدًا لَمْ يَرَحْ رَائِحَةَ الْجَنَّةِ ، وَإِنَّ رِيحَهَا تُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ أَرْبَعِينَ عَامًا » .

وما رواه أبوداود في كتاب (الخراج) من سننه بسنده عن أَبي صَخْرٍ الْمَدِينِىُّ أَنَّ صَفْوَانَ بْنَ سُلَيْمٍ أَخْبَرَهُ عَنْ عِدَّةٍ مِنْ أَبْنَاءِ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَنْ آبَائِهِمْ دِنْيَةً عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صلّى الله عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ وسَلّمَ قَالَ : « أَلاَ مَنْ ظَلَمَ مُعَاهِدًا أَوِ انْتَقَصَهُ أَوْ كَلَّفَهُ فَوْقَ طَاقَتِهِ أَوْ أَخَذَ مِنْهُ شَيْئًا بِغَيْرِ طِيبِ نَفْسٍ فَأَنَا حَجِيجُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ »

في هذا البيان النبوي ميثاقٌ غليظ لحقوق أهل الكتاب في ديار الإسلام لا تجد عديله لأهل الإسلام في أيّ دار لأهل الكتاب ومن دونهم . ولوأنا جعلنا

هذا الميثاق في سمع وقلب كل طالب علم وكل مسلم ، ونشرنا ذلك في وسائل الإعلام لتبين للناس قدر ما يكون لأهل الكتاب في ديارالإسلام من الحقوق المحفوظة المكفولة من نبيّ الإسلام صلّى الله عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ وسَلَّمَ كيما يكف النّاغقون عن نغيقهم . .

وما رواه الحاكم في المستدرك على الصحيحين في مقدمة سننه بسَندِه : عَنْ أَبِي صَالِحٍ ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَة رَضِيَ اللهُ عَنه قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلّى الله عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ وسَلَّمَ : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا رَحْمَةٌ مُهْدَاةٌ »[1]

والشيخ يتخذُ قول النبيّ صلّى الله عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ وسَلَّمَ : « لهم ما لنا وعليهم ما علينا » فيجعله في أهلِ الذّمَّة ، والتحقيقُ أنَّه ليس في أهل الكتاب الباقين على دينهم ولهم ذمة المسلمين بل جاء في شأن المشركين .

روى أبو داود في كتاب (الجهاد) من سننه بسنده عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللهُ عَنه قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَواتُ اللهِ وسَلامُه عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ : « أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ وَأَنْ يَسْتَقْبِلُوا قِبْلَتَنَا وَأَنْ يَأْكُلُوا ذَبِيحَتَنَا وَأَنْ يُصَلُّوا صَلاَتَنَا فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ حَرُمَتْ عَلَيْنَا دِمَاؤُهُمْ وَأَمْوَالُهُمْ إِلاَّ بِحَقِّهَا لَهُمْ مَا لِلْمُسْلِمِينَ وَعَلَيْهِمْ مَا عَلَى الْمُسْلِمِينَ ».

ورواه الترمذيّ في كتاب (الإيمان) من جامعه . (صححه الألبانيّ).

الواردُ كما ترى إنّما هو في حقِّ مَن أسلم من المشركين ، وليس في حق أهلِ الكتابِ الباقين على دينهم ولهم الذّمة ، فكلمة « الناس » في (أُقَاتِلَ النَّاسَ) هم مشركو العرب ، وليس أهل الكتاب . لأنّ أهل الكتاب إذا عُرِضَ عليهم

---

(١) ورواه الدارمي في مقدمةِ السّنن ، والبزار في مسنده مرفوعا عن أبي هريرةَ ، والطبراني في المعجم الأوسط ، والمعجم الصغير ، وصححه الألباني في سلسلة الأحاديثِ الصحيحة . ٨٨٢/١ حديث رقم (٤٩٠) وفي صَحيح الجامع الصغير وزياداته حديث رقم (٢٣٤٥) .

الإسلام فلم يقبلوا لا يقتلون ، ولا يقاتلون ، وإنّما تكونُ لهم الذِّمة ، وعليْهم الجِزية ، أمّا مشركو العربِ ، فلا يقبلُ منهم إلا الدُّخول في الإسلام أو الأسرُ فإنْ دخلَوا كان لهم ما للمسلمين قبلهم ، وعليْهم ما عليْهم .

وقد يقال إن إسلامهم قاضٍ بأن لهم ما لنا وعليهم ما علينا ، فلا يكون لقوله صَلَواتُ اللهِ وسَلامُه عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ هذا فائدة جديدة . فلو لم يقلها لكان هذا معلومًا من أصول الإسلام .

والجواب عن هذا أنّه من باب التَّأكيد والتَّذكير به ، ودفع مظنّة أن يكون لتأخُّرهم في دُخول الإسلام أثرٌ في استحقاقِهم ذلك . فصرَّح به ليكونَ ذلك حُجّةً نصيّةً قطعيّة الدَّلالةِ لِعظيمِ أهميّة الإعلامِ والتَّذكير به . فليْس الاعتدادُ بالسَّبق بل الاعتدادُ بالصّدقِ

جعلَ دخولَهم الإسلام مِن بعدِ الكُفران والعدوان مُحققًا لهم ما هو حَقٌّ لمن سبقَ إلى الإسلامِ في أوّل الدَّعوة . ولم يكن لما كان منهم في أثناء الكفر من الإيذاء للمسلمين أدنَى أثر في توفيتهم حقوقهم سواءً بسواء .

وهذا يهدينا إلى أن من كان منه في حق أحدٍ ما لايُسترضَى ثم اعتذر وأناب وأصلح ، فلا يليق أن يكون لما سلف منه أثر في استيفائه حقوق الأخوةِ في الله تعالى . وكأنَّ اعتذاره وإنابته وإصلاحه يعفو ما كان في القلوب من جرائره . ذلك شأن القلبِ الذي أناره الوحي قرآنًا وسنةً . لاتضرب الضغينة بجرانها فيه ، يقتلعها الاعتذار والإنابة والإصلاح والدخول في الجماعة .

﴿ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ (المائدة:١٣)

﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ ۖ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ ﴾ (الحجر:٨٥)

﴿ وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (النور:٢٢)

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ وَأَوۡلَٰدِكُمۡ عَدُوّٗا لَّكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُمۡۚ وَإِن تَعۡفُواْ وَتَصۡفَحُواْ وَتَغۡفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴾(التغابن:١٤)

فالصفح الجميل حلية المسلم .

وإذا ما قلت إن قوله ﷺ : «لَهُمْ مَا لِلْمُسْلِمِينَ وَعَلَيْهِمْ مَا عَلَى الْمُسْلِمِينَ» . هو في شأن من أسلم من المشركين فإنَّ هذا لا يبطل أنّ لأهل الذّمة حرمة المواطنة ، والمجاورة وحرمة المعاهدة فذلك مأخوذ من بيان نبوي آخر :

روى الشيخان البخاريُّ في كتاب (الأدب) ، ومسلمٌ في كتابِ (البر والصّلة والأدب) من صَحيحيهما بسندِهما عَنِ ابْنِ عُمَرَ - رضى الله عنهما - قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَواتُ اللهِ وسَلامُه عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ : «مَا زَالَ جِبْرِيلُ يُوصِينِى بِالْجَارِ حَتَّى ظَنَنْتُ أَنَّهُ سَيُوَرِّثُه» .

لم يقيده بالجارِ المسلمِ ، فـ(ال) فِي قوله (بالجار) للاستغراق . إلا إذا ما قلت إن قوله : «حَتَّى ظَنَنْتُ أَنَّهُ سَيُوَرِّثُه» قرينة تصرف (ال) عن الاستغراقِ إلى (العهد) لأن التوارث لا يكون بيْن المسلم وغير المسلم ، فهو قرينة صَارفة عن الاستغراقِ الكامل إلى العهد الذّهني .

وثَمَّ بيان من كتابِ الله سُبْحانَه وَبِحمدِهِ قاطعٌ في حقِّ الجِوارِ والصُّحبةِ لا في العدلِ ، فحسبُ بلْ في ما فوقه من الإحسان . يقُول الله سُبْحانَه وَبِحمدِهِ :
﴿ وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗا وَبِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡجَارِ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡجَارِ ٱلۡجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلۡجَنۢبِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخۡتَالٗا فَخُورًا ﴾ (النساء:٣٦)

جاءتنا هذه الآية في سياق سورة «النّساء» وهو سياقٌ يقرِّرُ قيامَ العلاقة بيْن النّاسِ على العدلِ والرَّحمةِ .

عطف قوله : ﴿ وَبِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡجَارِ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡجَارِ ٱلۡجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلۡجَنۢبِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ ﴾ (النساء:٣٦)

على قولِه ﴿ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ﴾ (الإسراء:٢٣) المُقرّر أنَّ معناه وأحسِنوا بالوالديْن إحسانًا ، فيكونُ لما عُطف ما للمعطوف عليْه .

وهذا يستوجبُ أن يكون الإحسانُ لِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالجَنبِ ...... كالّذي للوالدين غيرَ مقيدٍ بالموافقة في الدِّين بدَلالة قوله تعالى ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ ۚ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (العنكبوت:٨)

﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (لقمان:١٤،١٥)

تبصّر قوله : ﴿ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ﴾ (لقمان:١٥) تجدْ مِن عليِّ الرّحمة واستحقاقِهم الإحسانَ إليْهما على الرَّغمِ مِن أنَّهما يجاهدانِه على الإشراكِ بالله تعالى . يحُثّ سُبْحانَه وَبِحمدِه مَن آمَن به على أن يُحسنَ إلى مَن يجاهدُه ليُكفرَ بِه .

لم يجعل سُبْحانَه وَتعالَى إساءتهما سببًا في إبطالِ حقِّهما على ولدِهما ، ممّا يبيّنُ لك أنَّ حقَّ الوالدين لا يسقُطُ أبدًا مهْما كان مِنهما مِن عقوقٍ وإساءةٍ وظُلمٍ .

والجوارُ المستحقُّ الإحسانَ غيرُ مقيّد بزمانٍ ومكانٍ ، فكلُّ من ساكنك في وطنٍ ، فهو جارُك ، وإنْ تفاوتوا فِي الأسبقيّةِ في التَّوفيةِ بالإحسانِ ، فجَارُك عَن يمينِك المُلاصِقُ أسبقُ مِن جارِك عَن يسارِك فِي التَّوفِيةِ وهكذا ، وكلّ مَن صاحبَك ولو قدرًا يسيرًا مِن الوقتِ في درسِك أو سُوقك أوْ سَيْرِك في الطّريق

أو فِي وسيلةٍ من وسائل النقلِ له عليك حقُّ الإحسانِ إليْه . وأدنَى درجاتِه أن يأمَنَ بوائقك ، وأن لا يقومَ في قلبِه من لسانِ حالِك ظنٌّ أنك يُمكن أن تعتدِي عليْه .

وصنيعَه صَلّى اللهُ وسلّم عَلَيْه وَعلَى آلِه وصَحبِه مع جيرانه من غيرِ المسلمين دالٌّ على عظيم بره بهم وإقساطه لهم كما جاءت به سُورة المُمتَحِنة .

روى أحمد في مسنده بسنده عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللهُ عَنه قَالَ عَادَ النَّبِىُّ ﷺ غُلاَماً كَانَ يَخْدُمُه يَهُودِيًّا فقَالَ لَهُ « قُلْ لاَ إِلَهَ إلاَّ اللَّهُ » . قَالَ فَجَعَلَ يَنْظُرُ إِلَى أَبِيهِ . قَالَ فَقَالَ لَهُ قُلْ مَا يَقُولُ لَكَ . قَالَ فَقَالَهَا فقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لأَصْحَابِهِ « صَلُّوا عَلَى أَخِيكُمْ » .

وَقَالَ غَيْرُ أَسْوَدَ « اشْهَدْ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَأَنِّى رَسُولُ اللَّهِ » . قَالَ فَقَالَ لَهُ قُلْ مَا يَقُولُ لَكَ مُحَمَّدٌ .

الشّيخُ يلحُّ كثيرًا على تبْيين الحقيقةِ في هذِه القضيّةِ ، ولا سيّما في سياقِ ما يَجري مِن حوله من أحداثٍ جثام . يقُول في مَعرض بيان مَناط الأخوة في قول رسول اللهِ ﷺ : « أن تحبّ لأخِيك ما تُحبُّ لِنفسِك » : ليس المرادُ بأخيك أخوةُ النسبِ ، وإنّما الأخوةُ في الوطنِ الّذي يجمعُ غير المسلمين ؛ لأنَّ غيرَ المسلِمين الذين بَيْننا لَه ما لنا وعليهم ما علينا . ونجدُ في حديثِ رسُول الله صَلَواتُ اللهِ وسَلامُه عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ : « من غشّنا فليس منّا » وفي روايةٍ : منْ غشَّ أي ارتكبَ جريمةَ الغشِّ ، وكلّ ما حرّمه اللهُ على المسلِمِ مِن إيذاءٍ لأخيهِ المسلم حرمه عليْهِ أيضًا مِن إيذاء غيرِ المسلِمين الذين بيننا ، لدخولِه في قولِه عليْه السّلامِ « لَهم ما لنا وعليهم ما علينا » دماؤهم حرامٌ ، وأموالهم حرامٌ وأعراضُهم حرامٌ وغشّهم حرامٌ ، والغدرُ بِهمْ حرامٌ ، والكذبُ عليْهم حرام وشهادةُ الزور عليهم والحيدةُ فِي القضاءِ والقمع والظلم ، وهكذا كلما توغلتُ

فِي هذا قلتُ فِي نفسِي : لو قرأ هذه غير المسلمين لطالبوا بِه لأنه هو الخير للناس »[1]

وبهذا يضع الشيخُ على عاتقِ علماءِ الأمة ، وعلى المسلمين جميعًا غيرَ قليلٍ مِن مسؤولية نشوبِ الملاحاة بيْن المسلمين وغيرِهم ، من أنّهم لم يُحسنوا تقديم الحقيقة الإسلامية في هذا الباب ، وأن الإسلام جاء رحمة للناسِ كافة ، فمن لم يدخله اتخذ الإسلامُ منه موقف المُسالمَةِ له ، والمُدافعةَ عنه إنْ ظُلِمَ .

ويقُول : « وأكرّرُ أنّ كلّ ما يَجبُ أن يكون بيْن المُسلمِ والمسلمِ من تنفيس الكُربةِ ، وتيسيرِ العُسرة ، ومدّ يدِ العونِ هُو قائمٌ بيْن المسلِمِ وغيرالمسلِمِ مِن الذين يَعيشُونَ مَعنا نُساعدُهم ويُساعدونَنا ، ونُعينهم ويُعينُونا ، ونمدُّ أيدِيَنا إليْهم ، ويمدّون أيديَهم إلينا ؛ لأنّ الله تعالى أخبرَنا بأنَّ لهم مالنا وعليهم ماعليْنا ، ولأنّ رسُول الله ﷺ أمَرنا بِمكارمِ الأخلاقِ ، ومَكارِمُ الأخلاق ليستْ انتقائيّة ، ولو كانت انتقائية لما كانت مكارم أخلاق .

والإسلامُ بريءٌ براءةً كاملَةً من هذا الإجرامِ الذي يستبيح أموالهم ، أو يحرقُ بِيوتهم ، أو يفزّع آمنهم ، هذه عصابات إجرامِية ليس لها أَيّ سندٍ مِن دينِ الله ، وأظنّها من إعدادِ أعداءِ الإسلامِ الذين يريدون تشويه وجهه الأنور »[2]

ويقُول الشّيخُ : « دفعُ الظّلمِ عن المظلوم إذا لم يوجبه الدّين أوجبته المَروءة ، ولا يجوزُ لكرامِ النَّاسِ أن يرَوا ظلمًا يقعُ على فريقٍ مِن النَّاسِ ، وهم يتفرَّجون مهما كان الخِلافُ بيْنهم وبيْن الفريقِ الذي يُنكّلُ بِه ، ويُقمعَ ويقهرُ وتلفّق له التُّهم ؛ لأنَّ أحرارَ الرّجالِ لهم نهجٌ فِي الحياةِ غير نهجِ أهلِ النَّدالةِ والوطن الحُرّ هو ذاتُه يأنفُ القمعَ والقهرَ ؛ لأنَّ ذلك لا يليقُ بتاريخِه ،

---

(١) شَرْحُ أحاديثَ منْ صَحِيحِ مسلم : ١/١٠ .

(٢) المرجع السابق : ١/١١-١٢ .

والمسؤول الَّذي هوأهل للمسؤولية لا يرضَى بأن يُهين فريقًا من أبناءِ الوطنِ فضلاً عن استِباحةِ الدّماءِ والإهانةِ . . . »[1]

وهُو يُؤكّد حقَّ المواطنة ، حين يَعرضُ لتقويم مفهوم مُصطلح « الرّعية » وهو مصطلح نبويّ كريم . (كلّكمْ رَاعٍ وكُلّكمْ مَسْؤولٌ عَن رَعِيّتِه) ومصطلح « أهل الذمّة » كذلك مصطلح نبويّ[2] هذان الْمصطلحان قد أسيئ فهمُهما في العرفِ الثقافيّ والسّياسيّ والإعلاميّ ، حتى بات استعمالهما مثارَ تشاجر وتسفيه وتخوين . . .

يقُول شيخنا : « كلمة » الرَّعية والرّاعي « من الكلمات الَّتي كثرتْ فِي كلام رسُول الله ﷺ ، ولها معنَى كريمٌ جدًّا ، ونبيل ، وزاكٍ وطاهر ، ولكنها كُدّرتْ لَمَّا جرتْ فِي لسانِ مَنْ كانوا يُخاطبُون الملوكَ فِي شأن الرّعية . . .

فُهم من كلمة « رعيّة » مَعنًى الإهانةِ وأنّها تساقُ ، وأن الرَّاعِي يُصرّفها حيثُ يشاءُ ، وهذا خطأ وإفسادٌ للمعنَى النَّبيل الّذي جاءتْ بِه الكلمةُ علَى لسانِ المُبلغ عن ربّه صلوات الله وسلامه عليه ؛ لأنّ الرَّاعِي هو القائمُ علَى خدمة الرَّعيّة ، وهو المسْؤول الأوّلُ عن أشياءَ لا تتيسّر إلا له ، ولا يقدر عليْها إلا هو . . .

---

(١) شَرْحُ أحاديثَ منْ صَحيحِ مسلم ١٧/١ .

(٢) روى مسلم في كتاب فضائل الصّحابة من صَحيحِهِ بسَندِه عَنْ أَبِى ذَرٍّ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ :

« إِنَّكُمْ سَتَفْتَحُونَ مِصْرَ وَهِىَ أَرْضٌ يُسَمَّى فِيهَا الْقِيرَاطُ فَإِذَا فَتَحْتُمُوهَا فَأَحْسِنُوا إِلَى أَهْلِهَا فَإِنَّ لَهُمْ ذِمَّةً وَرَحِمًا ». أو قَالَ « ذِمَّةً وَصِهْرًا فَإِذَا رَأَيْتَ رَجُلَيْنِ يَخْتَصِمَانِ فِيهَا فِى مَوْضِعِ لَبِنَةٍ فَاخْرُجْ مِنْهَا ». قَالَ فَرَأَيْتُ عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ شُرَحْبِيلَ بْنِ حَسَنَةَ وَأَخَاهُ رَبِيعَةَ يَخْتَصِمَانِ فِى مَوْضِعِ لَبِنَةٍ فَخَرَجْتُ مِنْهَا . .

فالرَّعايةُ مسْؤوليةٌ والرَّاعِي مسؤولٌ والمرعيُّ مَسْؤولٌ . . . ليْس فيها معنَى التّرتيب الطَّبقيّ ، وإنّما فِيها معنَى ترتيبِ المسْؤليّات .

وهذا جيّدٌ جدًّا ، وتكديرُه ليْسَ لَهُ مُسْتندٌ مِن الفَهمِ ، وإنّما هِي ضرباتٌ إعلاميّة .

ومثلُ هذا كلمة « الذّمّة » الّتي جاءتْ فِي كلامِ سيّدنا رسُول الله ﷺ ، وشَاعتْ فِي كتب الفقهِ ، وأطلقتْ علَى غيرِ المُسلمين الذين يَعِيشُون بيْن الْمسْلمين .

شُوّهتْ هذه الكلمةُ الكريمةُ فِي الأيامِ الأخيرةِ ، واتهمَتْ بأنّها تنْفِي حقّ « المُواطِنة » وتجعلُ أصحابَها طبقةً دون طبقةِ الأكثرية فِي الحقوق ، وهذا كلّه باطلٌ . ويُرادُ بِهِ التّشْويهُ والتّشْويشُ علَى أصُول فقهيّةٍ جلِيلةٍ جدًّا ؛ لأنَّ هذه الحقوقَ مضمونةٌ بقولِه عَليْهِ السّلام « لَهُمْ ما لنا ، وعليْهم ما عَليْنا »

وهي كلمةٌ تكادُ تنصُّ نصًّا مباشرًا على ما نسميه حقّ « المواطنة » ؛ لأنّه لا معنى للمواطَنةِ إلا أنْ يكونَ النَّاسُ شُركاءَ فِي هذا الوطنِ كلّ فردٍ فِيهِ عليْهِ ما علَى غَيْرِه لا يزيدُ ، ولا ينقص وله ما لِغيْرِه لا يزيدُ ولا ينقصُ ، ثُم يُضَاف لِهذه الجماعةِ الّتي تعيشُ بيْن المُسلمين ، وليْسَتْ منهم عهدٌ هو زيادةٌ لَهمْ حتّى لا يسْتفزّهمْ جاهِلٌ أو أحمق أو متعصّبٌ . هذا العهدُ زيدَ فِي احترامِه ومهابتِه وتقديرِه ، فسُمِّيَ « ذمة الله ورسُوله » ، فمن خاشنهم أو قاربهمْ بسُوءٍ فقد اعتدَى علَى عهدِ الله ورسُولِه واعتدَى على ذمة الله ورسُولِه ﷺ »[1].

هذا بيان للناس وفصل في القضيةِ لا يحتاج أحدٌ من بعدِه إلى أن يبيّن له موقف الإسلام والمسلمين من « المواطنة » إلاّ إذا أُريد الشّغبُ على الإسلام والمسلمين . وبرغم من ذلك ولو كتب هذا البيان على كلِّ جدارٍ في مصرَ

---

(١) شَرْحُ أحاديثَ منْ صَحِيحِ مسلم : ١/١٩، ٢٠

ستظلّ شرذمة يتخذون مِن المسألة وقودًا لاستعار نار الشّبهات المختلقة التي يريدون بها إحراقَ كلّ ما له علاقة بالإسلامِ والمسلمين .

وكل ما يشْغبُ به أولئك هو ممّا نبت في عقول أحبار الفرق الضالة (الاثنتين والسبعين فرقة) وسدنتهم وأغرارهم فشغبوا بها ، والتي قوّضها أهل السنة وما تزال حاضرة في أسفار أهل السنة ولكنَّ الفَسَدَةَ ينتزعون الشبهاتِ وينفثُونها في مسامعِ النَّاسِ في وسائلِ الإعلام ، ويوهمونهم أنها شبهات هي بِنْتُ ليْلتِها ، وأنَّها من بنات أفكارِهم وأن علماء أهل السّنة الآن لا يملكون الرَّدَّ عليها ، لأنَّ الفسدة على يقينٍ منْ أنَّ الجمهرة الكاثرة من النَّاسِ بيْنها وبين أسفارِ أهل العلم قطيعة وإذا رأيت من لا يقرأ ببصيرة نافذة ووعى محيط وحرية في التفكير فاعلمنَّ أنَّه المستطعم الضلالة المستعذبُ المذَلَّة الرّاغبُ عن نعمة الله تعالى عليه : « التعليم بالقلم » الذي هو رمزُ كرامة الآدميّ . فذلك الذي لا يشارك الإنسان فيه أحدٌ من العالمين .

ما رأيت إنسانا ينفرعن القراءة المثمرة تسنّما مدارج العزَّة والكرامة إلاّ وأيقنت أنه المبغض انتسابه إلى أبي البشرية سيدنا « آدم » عليه السَّلام ، فلسان حاله يجهر بالبراءة من هذا الانتساب .

* * *

القضِية الخامسة
الموقف من الآخر

الآخر هو ذلك الذي يتخذ من أصولنا عقيدة وشريعة وخلقًا ورسالة حياتنا مسلمين موقفًا معاندًا أو وقف ملاحاة وتضليل ومحاجزة ، وإِن كان من بني جلدتنا ونسبنا ووطننا .

مناط العلّة هو الملاحاةُ للأصولِ والضَّوابطِ ، وليس الاختلاف عنا في العقيدة أو الوطن أو الجنس ، فكلنا لآدم وآدم من تراب . أو الاختلاف معنا في الفروع وفهم النّصوص ، فذلك الاختلافُ في الفهم ضُرورة تنوّع وتعدّد لا تخلو منه الحياة

هذا الآخر قد يكون ولدك ، وقد يكون زوجك ، وقد يكون رئيسك . . . المهم أنه متخذ الملاحاة لأصولنا وضوابط حركتنا لتحقيق مراد الله الشرعي منها رسالة حياتِه .

وهذا الآخر قد أنبأ رسُول الله صلّى الله عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ وسَلّمَ بتكاثره فيما رواه أبو داود من كتاب (الملاحم) من سُننه بسنده عَنْ ثَوْبَانَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ « يُوشِكُ الأُمَمُ أَنْ تَدَاعَى عَلَيْكُمْ كَمَا تَدَاعَى الأَكَلَةُ إِلَى قَصْعَتِهَا » . فَقَالَ قَائِلٌ وَمِنْ قِلَّةٍ نَحْنُ يَوْمَئِذٍ قَالَ « بَلْ أَنْتُمْ يَوْمَئِذٍ كَثِيرٌ وَلَكِنَّكُمْ غُثَاءٌ كَغُثَاءِ السَّيْلِ وَلَيَنْزِعَنَّ اللَّهُ مِنْ صُدُورِ عَدُوِّكُمُ الْمَهَابَةَ مِنْكُمْ وَلَيَقْذِفَنَّ اللَّهُ فِى قُلُوبِكُمُ الْوَهَنَ » . فَقَالَ قَائِلٌ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَا الْوَهَنُ قَالَ « حُبُّ الدُّنْيَا وَكَرَاهِيَةُ الْمَوْتِ » . (صححه الألباني)

في هذا الإنباء حفزٌ إلى وجوب اتخاذ العدة لصدِّه ، وإبطال أفاعيله ، وهذا التّداعي من الأممِ علينا هو الملاحاة والمحاجزة عن رسالتنا في تحقيق سلطان الإسلام على حركة الحياة إلى تحقيق مراد الله الشرعي في هذه الدّنيا .

وفي كلمة التَّداعي بيان لعظيم تعاونهم وتعاضدهم في هذا الأمر ، وأنَّ كلا يدعو الآخر ، ويهيىء له السّبل ويوفر له الأدوات للقيام بهذه الملاحاة . وهو ما تبصره عينك وتسمعه أذنك صباح مساء .

وحقٌّ على كلِّ مُسلم أن يتداعَى للوقوفِ في وجه تداعيهم ومن ثمَّ كان في مقابل هذا التَّداعي على الأمّة من هذا الآخر قيامُ الشَّيخِ في وجه ذلك الآخر بكلمتِه (النّور) يكشفُ بها لطلابِ العلم وطلاب الحقّ ونَصَره واقع ذلك الآخر ، ومآل مداراتِه ومسالمتِه ومهادنتِه ، ويقطع بكلمته (السَّيف) كلّ سببٍ يمدُّه ذلك الآخرُ لتحقيق رسالته الإبليسيّة .

والشّيخ جدّ شديدٍ قلبا وعقلاً ولسانًا على هذا الآخر ، فبمقدار ما ترى من عطفه ورأفته على كلّ مسلم وإن كان عاصيًا ، وترى حدَبه على أن نناصر حقّ منْ كان غيرَ مسلم مسالمًا لا يناصبُ الأمَّة المُسلمة العداء . تجدُ شدته وصلابته في التَّصدّي لهذا الآخر . وبمقدارِ ما تجدُ الشَّيخَ حفيًّا بتوكيدِ حقوق المواطنين مسلمين وغير مسلمين وتقريرها والدَّعوة إلى الحفاظِ عليها ، وإلى بذلها لهم قبل أن يطلبوها تجده جدّ فتيّ في توكيد وجوب مناهضة المتواطئين وإن خرجوا علينا وقد بلغت لحاهم إلى منتصف صدورهم ، وإن رفعوا في أيمانهم كتاب الله تعالى ، وإن أقاموا معتكفين في بيوتِ الله تعالى من يسمون أنفسهم بالجماعات الإسلامية ماداموا سائرين في ملاحاة الأمة وتكفيرها وتفجيرها . والكتاب ملآنٌ بصور هذا التصدّي لهذا الآخر على تعدد فرقِه :

- فرقة الذين يقتلون النّاس ليدخلوهم بزعمهم الجنة وفق فهمهم الضّليل لكتابِ الله تعالى وسنةِ رسُوله صَلَواتُ اللهِ وسَلامُه عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ .

- وفرقة الذين يقتلون النّاس ليدخلوهم بزعمهم الدّيموقراطية كما يحبونها ، وحين تكون في مصلحتهم وفي تحقيق طموحاتهم وأضغاث أحلامهم .
- وفرقة الذين يفسدون على النّاس حياتهم ليدخلوهم في زعمهم رياض الليبراليّة : التحرر من العبودية لله ربّ العالمين . وليس التّحرر من العبودية للسّلطان ومن العبودية للشهوات ، ومن العبودية للشيطان . . . .

والشيخ وهو يشتد على هذا الآخر ينطلق من الوفاء بحق الإنسان كلّ الإنسان عليْه ، الشيخ جدُّ حفيٍّ بالأخوة الإنسانية ، ولا يرى الاختلاف في العقيدة بمبطل حقَّ الأخوة في الإنسانية ، وإذا ما كان رسُول الله ﷺ قد أمرنا بنصرة الأخ ظالمًا أو مظلومًا فيما رواه البخاري في كتاب (المظالم) من صحيحه بسنده عَنْ حُمَيْدٍ عَنْ أَنَسٍ ـ رضى الله عنه ـ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ «انْصُرْ أَخَاكَ ظَالِمًا أَوْ مَظْلُومًا» . قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ هَذَا نَنْصُرُهُ مَظْلُومًا ، فَكَيْفَ نَنْصُرُهُ ظَالِمًا قَالَ «تَأْخُذُ فَوْقَ يَدَيْهِ».

وفي رواية له في الباب بسنده عن حفيد أنس : عُبَيْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِى بَكْرِ بْنِ أَنَسٍ عَنْ أَنَسٍ ـ رضى الله عنه ـ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ «انْصُرْ أَخَاكَ ظَالِمًا أَوْ مَظْلُومًا» . فَقَالَ رَجُلٌ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَنْصُرُهُ إِذَا كَانَ مَظْلُومًا ، أَفَرَأَيْتَ إِذَا كَانَ ظَالِمًا كَيْفَ أَنْصُرُهُ قَالَ «تَحْجُزُهُ أَوْ تَمْنَعُهُ مِنَ الظُّلْمِ ، فَإِنَّ ذَلِكَ نَصْرُهُ»

هذه الرواية أكثر تبينًا منْ سابقتها ، وأنت تجدُ في هذا البيان النبوي توكيدًا لحقّ الظالم على الآخرين على الرغم مِن أنه ظالمٌ .

حقه عليْهم أن يُحاجزوه عن أن يعمد إلى ظُلِم أحدٍ ، فإن تركه لما يعتلج في نفسِه من الرغبةِ فِي أن يوقعَ الظلمَ علَى منْ هو دونَه هو في نفسِه ظلمٌ له وإسلامٌ للشيطانِ ولنفسِه ، وقد نهينا عَن أن نسْلمه . .

روى الشّيخان البخاريّ في كتاب «المظالم» و«الإكراه» ومسلمُ فِي كتاب

« البرّ والصّلةِ والأدب » بسندهما عَنْ ابْنِ شِهَابٍ أَنَّ سَالِمًا أَخْبَرَهُ أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ ابْنَ عُمَرَ ـ رضى الله عنهما ـ أَخْبَرَه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ « الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ ، لاَ يَظْلِمُهُ وَلاَ يُسْلِمُهُ ، وَمَنْ كَانَ فِى حَاجَةِ أَخِيهِ كَانَ اللَّهُ فِى حَاجَتِهِ ، وَمَنْ فَرَّجَ عَنْ مُسْلِمٍ كُرْبَةً فَرَّجَ اللَّهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرُبَاتِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » . في هذا الحديث تقريرٌ لكلية إذا ما جعلت حاضرة في وعينا ومسْلكنا فِي الحياةِ كان ذلك المحقق لهذه الحياة سلامَها الاجتماعيّ الذي تفتقده صَباح مساء ، فلا يكاد يأتي ليلُ يومٍ إلا وكانت الحياةُ قد انتقصت من سلامِها الذي كان لها في الليلة السابقتها . وكأنَّ الشمسَ وهي تغيب كلَّ يومٍ تَختلسُ من سلام الحياةِ الاجتماعيّ كلّ يومٍ قدرًا منه .

وهكذا يتناقصُ السلام الاجتماعيّ في الحياة كلّ يومٍ ، ولن يتحقّق حفظه إلا بأن نقيم هذا الحديثَ الكريم في وعينا ومسلكنا في هذه الحياة .

وهذا يؤكّد أنَّ القيمةَ العُليا للإسلام هي « العدل » المطلق ، وهذه القيمَة العليا للإسلامِ تجمعُ كلَّ القيم العليا لأيّ تصور بشري للمذاهبِ والفلسفات التي يخترعها الإنسان لنفسِه ، فالقيمة العليا لما يُسمونه « الليبراليّة » والتي يقتلونَنا ليحققوها فينا القيمة العليا فيها هي الحرية ، وهي عند من يقُولون بالليبرالية حريَّة غيرمسؤولة ، وغيرُ منضبطة ، قد تصل إلى حد تأباه الفطرة ، والعقل المعافَى ، على نحوما تراه من القول بزواج المثليين وحق الإجهاض في أي مرحلة من حياة الجنين . . . . فهذه حريّة غير مسْؤولة ، وهي تلحقُ الإضرار بالنّاسِ وبمن يمارسُها أيضًا .

والحرية التي يتضمنها « العدل » الذي هو القيمة العليا للإسلام حرية منضبطة مسؤولة ، لها حدودٌ ولها وظيفة تعميرية لا تخريبية . حريةٌ تخرج الإنسان من عبوديته للآخرين ، وعبوديته لشهواتِه وشُبهاته وشيطانه ونفسِه وعقلِه إلى العبودية المطلقة لِخالقه سُبْحانَه وَتَعالَى ، فتتسع حريته اتساعًا نافعًا

منضبطًا ، ولذا كان من كليات الإسلام « لا ضـرر ولا ضـرار » (ابـن ماجـه في كتاب الأحكام من سننه) ، و« وَالْمُسْلِمُونَ عَلَى شُرُوطِهِمْ إِلاَّ شَرْطًا حَرَّمَ حَلاَلاً أَوْ أَحَلَّ حَرَامًا » . (الترمذي : الأحكام)

وإذا ما كانت « المساواة » هي القيمة العليا لما يُسمى بـ« الاشتراكية » فـإن هذه المساواة في « الاشتراكية » مساواة غير حقيقيّـة ، لأنـّها لا تعتـد بـالفروق الخَلقيّة والوظيفية بيْن النَّاسِ ، ممّا يبطلُ العدلَ ، ويوقع الظلـمَ ، كيـف يسـوَّى بيْن من تفاوتوا في إمكـانتهم الخلقيّـة الفطريّـة الـتي خلقهـم الله تعـالَى عليْهـا وكذلك بيْن وظائفهم في الحَياة وما يقُومون بِه؟

لكـلّ إنسـان أيًّـا كـان جنسُـه وعمـرُه وعلمُـه وعملُـه ووطنُـه حَـقٌّ مـرتبطُ بخصُوصياته لاً بدّ من أن يُوفَّاه غيرَ منقوصٍ في قدرٍ أو نوع ، أو هيئة (كيـف) أووقتٍ . . وعليْه واجِبٌ مرتبطٌ بِخُصُوصيّاتِه عليْه أنً يؤدِّيه غـير منْقُـوصٍ . . . هذه هِي المُساواة الحقيقيَّة الَّتي جاء بِها الإسلامُ : وهي عـيْنُ العَـدل الَّـذيً هُـو القيمةُ العُليا في الإسلامِ .

الإسـلام هـودين « العـدل » المطلـق ، وهوالمنـاهضُ لكـل صُـور الظلـم : ومستوياتِه ومناهضٌ لأن يظلم أيّ مخلـوقٍ في هـذه الحيـاةِ . مسـلمًا أو كـافرًا أوحيوانًا .

ذلك أنّ الله سُبْحانَه وَبِحمدِه قد حرم الظلم علـى نفسِـه وجعلـه بـيْن عبـادِه محرّما . روى مسلمٌ في كتاب « البرّ والصّلةِ والأدَب » مِنْ صَحِيحِه بِسندِه عَنْ أَبِى إِدْرِيسَ الْخَوْلاَنِىِّ عَـنْ أَبِـى ذَرٍّ عَـنِ النَّبِـىِّ ﷺ فِيمَـا رَوَى عَـنِ اللَّـهِ تَبَـارَكَ وَتَعَالَى أَنَّـهُ قَالَ « يَا عِبَادِى إِنِّى حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِى وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا فَلاَ تَظَالَمُوا » .

فليس الأخ هنا الأخَ في النّسب أو الدّين فحسبُ ، بـل هـوأعم مـن ذلـك ، وليس في البيان مـا يصـرف العـام إلى التخصـيص ، فهـذا الآخـرُ الـذي أضلَّه

الشَّيطانُ على علمٍ من حقّه علينا أن ننصرَه على شيطانِه بأن نأخذ على يده ، وألاّ ندعه يفعل ما يشاءُ ، فإذا ما وجد من يتصدي لظلمه نفسَه وغيرَه ربّما كفَّ عن ذلك ، فوقى الله تعالى الأمة شرَّه .

فهذه الشدّة من الشيخ في شأن الآخرِ لها وجهُ الوفاء بحق هذا الآخر عليْه وهذا من رقة الشيخ ورأفته بالنَّاسِ كلّ النَّاس ؛ لأنَّه يلتقي به في نسبه إلى أبينا آدم عليه السّلام ، فحقُّ هذه الرّحم أن يشتدّ ليحاجز من يشتدّ عليه عمّا يُضيرُه ، ولِيدفعه إلى ما ينفعه .

* * *

أول ما يلقاك من الشيخ في كتابه في هذه القضية قوله في الصفحة الأولى :

« اللهُمّ إني أعوذ بك أنْ ألقاك وفِي عنقِي بيْعةٌ لِمنْ يرفضُ الحكمَ بما أنزلتْ ، ولمنْ لُوثت يدهُ بدماءِ أهلِ الشّهادتين[1] .

اللهم إني أعوذ بك أنْ ألقاكَ وفِي عنقِي بيعةَ لِمن إذا حدّثَ كذب ، وإِذا عاهدَ غدرَ ، وإِذا ملك ظلم ، وإذا خاصم فجر .

اللهم لا تسلط شرارنا على خيارنا وارفع مقتك وغضبك عنا . اللهم آمين » .

هذه الكلمات هي أول ما يلقاك به الشيخ . أوّل ما يغزو به قلبك ووعيك ، فإن كنت ممّن يُحسن التلقي علمتَ أنك قائم بين يدي من . علمتَ مذهبَ الشّيخ وموقفه من نصرةِ الحق بالحقِّ وإزهاق الباطلِ بالحقّ . وعلمتَ كيف يكونُ الرّجال صدَّاحين بكلمة الحقّ في وجهِ الطاغوتِ ، فإنْ كنتَ ممّن يقرأُ

---

(١) تبصر حكمة الشيخ في قوله (لمن يرفض الحكم) دون أن يقول (لمن لم يحكم) ذلك أن الرفض كفر ، وعدم الحكم لشبهة دنيوية أو حرص على أمرٍ وخوف من عتيٍّ ليس كفراً وإنما هو كبيرة ينصح صاحبها ولا يخرج عليه بالسيف .

ويفهم بكلّ ما تحمله كلمة (يفهم) من معنى عرفت موقف الشّيخِ من الآخر الظلوم .

ومن كان في عمره وعلمه ومقامه في أهلِ العلم لا يقُول هذا إلا وهو على يقين من أنّها الكلمة الحقّ التي يحب أن يلقَى الله سبحانه وتعالى بها .

هكذا يلقاك الشّيخُ أوّل ما يلقاك بكلمة هي النّور لك والسيف في صدرفتنةِ كلّ ماردٍ عنيد .

* * *

القَضِيّة السّادسَة
الموقِفُ مِن الحاكم مناصَرةً ومعارضَة

كانتْ ثُلة من أدعياءِ السلفية ينغقون في النّاس بحرمة الخروج على الحاكم الظالمِ ، يقرؤون على النّاس من بيان رسُول الله ﷺ ما لم يفقهوا مخرج القول ومراميه وسياقته يقرؤون على الناس نَحو ما رواه الإمام مسلمٌ في كتاب (الإمارة) من صَحيحه بسنده عن حُذَيْفَة بْن الْيَمَانِ أنه قال « قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّا كُنَّا بِشَرٍّ فَجَاءَ اللَّهُ بِخَيْرٍ فَنَحْنُ فِيهِ فَهَلْ مِنْ وَرَاءِ هَذَا الْخَيْرِ شَرٌّ قَالَ نَعَمْ . قُلْتُ هَلْ وَرَاءَ ذَلِكَ الشَّرِّ خَيْرٌ قَالَ « نَعَمْ » . قُلْتُ فَهَلْ وَرَاءَ ذَلِكَ الْخَيْرِ شَرٌّ قَالَ « نَعَمْ » . قُلْتُ كَيْفَ قَالَ « يَكُونُ بَعْدِى أَئِمَّةٌ لاَ يَهْتَدُونَ بِهُدَاىَ وَلاَ يَسْتَنُّونَ بِسُنَّتِى وَسَيَقُومُ فِيهِمْ رِجَالٌ قُلُوبُهُمْ قُلُوبُ الشَّيَاطِينِ فِى جُثْمَانِ إِنْسٍ » . قَالَ قُلْتُ كَيْفَ أَصْنَعُ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنْ أَدْرَكْتُ ذَلِكَ قَالَ « تَسْمَعُ وَتُطِيعُ لِلأَمِيرِ وَإِنْ ضُرِبَ ظَهْرُكَ وَأُخِذَ مَالُكَ فَاسْمَعْ وَأَطِعْ » .

ويسمع الأمراء والولاة هذا ، فيجدون فيه مايعصمهم من معارضةِ شعوبهم ، لأنّ الرسُول صلّى الله عَلَيْهِ وعَلَى آلِـهِ وَصَحبِهِ وسَلّمَ نهاهم عن معارضة الحكام ، وإن بالغوا في ظلمهم بل بلغوا أنهم لا يهتدون بهدي النبي ﷺ ولا يستنون بسنته قلوبهم قلوب الشياطين في جثمان إنس . هكذا يعرضون بيان رسول الله ﷺ ، ولا يقرؤون هذا في صُحبة ما رواه النسائي في كتاب (البيعة) بسنده عَنْ طَارِق بْنِ شِهَابٍ أَنَّ رَجُلاً سَأَلَ النَّبِىَّ ﷺ وَقَدْ وَضَعَ رِجْلَهُ فِى الْغَرْزِ أَىُّ الْجِهَادِ أَفْضَلُ قَالَ « كَلِمَةُ حَقٍّ عِنْدَ سُلْطَانٍ جَائِرٍ » . ورواه ابن ماجه في (الفتن) من سننه ، ورواه أحمد في مسنده .

ولا يقرؤون على النَّاس ما رواه الحاكم في المستدرك ، والطبراني في المعجم الأوسط والسيوطي في الجامع الصغير من حديث ابن عبّاس رضي الله عنهما قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « سَيِّدُ الشُّهَدَاءِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَمْزَةُ ابْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ ، وَرَجُلٌ قَامَ إِلَى إِمَامٍ جَائِرٍ ، فَنَهَاهُ وَأَمَرَهُ ، فَقَتَلَهُ » (النص للطبراني في الأوسط ـ حديث رقم : ٤٠٧٩)[(١)]

كيف يكون أفضلُ الجهاد كلمةَ حقّ عند سلطان جائر ، وكيف يكون سيد الشهداء من قام آمرًا وناهيًا إمامًا جائرًا ، والرّسول صَلَواتُ اللهِ وسَلامُه عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ أمر بالاستماع والطاعة للسلطان الظالم الجائر الذي لا يهتدي بهديه ﷺ ولا يستن بسنته وقلبه قلب الشيطان؟

أليس من أمانة الفقه والدّعوة أن يُبيّن للنَّاس ما بين القولين من اتفاق وافتراق؟

أمن الحكمةِ أن يكتفى بذكر ما يتخذه الظلمة سندًا في منع شعوبهم من معارضتهم ؟

أليس في الاكتفاء بذكر حديث حذيفة رضي الله عنه وحده ما يُشرّعُ الاستبداد والظلم ؟ أمثل هذا من هدي النبوة ؟ أليس مثل هذا ممَّا يسيئ إلى الإسلام ؟ من ذا الذي يرضى ممّن ولد كافرًا أن يدخلَ في دين ينهاه عن مقاومة ظالميه ، وأن يبذل السَّمع والطَّاعة لمن يتخذ ظلم النَّاس دينا ومنهاج حياة ؟!!!

والعجبُ أنّ أولئك الذين يمنعون الناس من الاعتراض على من يظلمهم لا يذكرون للنَّاس مقالة أبي بكر الصديق في أول خطبة له بعد توليه الخلافة ،

---

(١) صححه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة . حديث رقم (٣٧٤) وفي صَحيح الجامعِ الصغير وزياداته . حديث رقم (٣٦٧٥) وفي صَحيح الترغيب والترهيب . حديث رقم (٢٣٠٨) .

ولا يذكرون مقالة الصحابيّ لعمربن الخطاب رضي اللهُ عنه : قومناك بسيوفنا ، وثناء عمر على هذا الموقف المعارض . ؟

بيان الأمر في حديثِ حذيفة بن اليمان رضي اللهُ عنه : « تَسْمَعُ وَتُطِيعُ لِلأَمِيرِ وَإِنْ ضُرِبَ ظَهْرُكَ وَأُخِذَ مَالُكَ فَاسْمَعْ وَأَطِعْ » . مناطه في تعيين مفعول تسمع وتطيع ، أي تسمع أمره لك بالمعروف ونهيه لك عن المنكر ، وتطيعه في ذلك وإن كان قد وقع منه عليك ظلمٌ : ضرب ظهرك وأخذ مالك ، فهذا الظلم لا يمنعك من أن تطيعَ أمره لك بالمعروفِ ونهيَه لك عن المنكرِ . لا تجعل هذا الظلم سببًا في عصيانِه في كلِّ حال أمرك فيه ونهاك . افصل بين الحالين :

حال ظلمه لك وحال أمره لك بالمعروف ونهيه لك عن المنكر .

الرَّسول ﷺ يُبين له منهج الفصلِ بين الأحوال ، ووجوب اتخاذ الموقف الحقّ مع كلِّ حال . إنْ أَمرَ بمعروف ونهى عن المنكر وجبَ السَّمع والطَّاعة لا لشخصه ، ولكن لما أمر به من معروفٍ ونهى عنه من منكرٍ ، أيّا كان موقفه منك ظلمك أو أحسَن إليْك .

وإن أمرك بمنكرٍ ونهاك عن معروف ، فلا تطع أمره هذا ولا تطع نهيه هذا ، وإن كان محسنًا إليك لم يقع منه عليك نزيرٌ من ظلم . وإن كان أباك .

والأمر الكليّ الضَّابط في هذا ما رواه الإمامُ مسلم في كتاب « الإمارة » من صَحيحِه بسندِه عَنْ سَعْدِ بْنِ عُبَيْدَةَ عَنْ أَبِى عَبْدِ الرَّحْمَنِ عَنْ عَلِىٍّ رَضِيَ اللهُ عَنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قال « لاَ طَاعَةَ فِى مَعْصِيَةِ اللَّهِ إِنَّمَا الطَّاعَةُ فِى الْمَعْرُوفِ » .

وفي مسند أحمد بسنده عَنِ الْقَاسِمِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ أَنَّ النَّبِىَّ ﷺ قَالَ « كَيْفَ بِكَ يَا عَبْدَ اللَّهِ إِذَا كَانَ عَلَيْكُمْ أُمَرَاءُ يُضَيِّعُونَ السُّنَّةَ وَيُؤَخِّرُونَ الصَّلاَةَ عَنْ مِيقَاتِهَا » . قَالَ كَيْفَ تَأْمُرُنِى يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ « تَسْأَلُنِى ابْنَ أُمِّ عَبْدٍ كَيْفَ تَفْعَلُ لاَ طَاعَةَ لِمَخْلُوقٍ فِى مَعْصِيَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ».

وفي حديث آخر فيه بسنده عن هِشَامٍ عَنْ مُحَمَّدٍ قَالَ : جَاءَ رَجُلٌ إِلَى عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ ، وَنَحْنُ عِنْدَهُ ، فَقَالَ : اسْتُعْمِلَ الْحَكَمُ بْنُ عَمْرٍو الْغِفَارِىُّ عَلَى خُرَاسَانَ . فَتَمَنَّاهُ عِمْرَانُ ، حَتَّى قَالَ لَهُ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ : أَلاَ نَدْعُوهُ لَكَ؟ فَقَالَ لَهُ : لاَ . ثُمَّ قَامَ عِمْرَانُ ، فَلَقِيَهُ بَيْنَ النَّاسِ ، فَقَالَ عِمْرَانُ : إِنَّكَ قَدْ وُلِّيتَ أَمْراً مِنْ أَمْرِ الْمُسْلِمِينَ عَظِيماً ، ثُمَّ أَمَرَهُ ، وَنَهَاهُ ، وَوَعَظَهُ ، ثُمَّ قَالَ هَلْ تَذْكُرُ يَوْمَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « لاَ طَاعَةَ لِمَخْلُوقٍ فِى مَعْصِيَةِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى » قَالَ الْحَكَمُ : نَعَمْ . قَالَ عِمْرَانُ : اللَّهُ أَكْبَرُ .

وفي ضوء هذا يفهم ما رواه مسلمٌ في كتاب (الإمارة) بسنده عن عَوْفِ ابْنِ مَالِكٍ الأَشْجَعِىَّ يَقُولُ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ « خِيَارُ أَئِمَّتِكُمُ الَّذِينَ تُحِبُّونَهُمْ وَيُحِبُّونَكُمْ وَتُصَلُّونَ عَلَيْهِمْ وَيُصَلُّونَ عَلَيْكُمْ وَشِرَارُ أَئِمَّتِكُمُ الَّذِينَ تُبْغِضُونَهُمْ وَيُبْغِضُونَكُمْ وَتَلْعَنُونَهُمْ وَيَلْعَنُونَكُمْ » . قَالُوا قُلْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ أَفَلاَ نُنَابِذُهُمْ عِنْدَ ذَلِكَ قَالَ « لاَ مَا أَقَامُوا فِيكُمُ الصَّلاَةَ لاَ مَا أَقَامُوا فِيكُمُ الصَّلاَةَ أَلاَ مَنْ وَلِىَ عَلَيْهِ وَالٍ فَرَآهُ يَأْتِى شَيْئًا مِنْ مَعْصِيَةِ اللَّهِ فَلْيَكْرَهْ مَا يَأْتِى مِنْ مَعْصِيَةِ اللَّهِ وَلاَ يَنْزِعَنَّ يَدًا مِنْ طَاعَةٍ » .

قوله ﷺ : « فَرَآهُ يَأْتِى شَيْئًا مِنْ مَعْصِيَةِ اللَّهِ فَلْيَكْرَهْ مَا يَأْتِى مِنْ مَعْصِيَةِ اللَّهِ وَلاَ يَنْزِعَنَّ يَدًا مِنْ طَاعَةٍ » أي عليه أن يفصل بيْن حالين : حال إتيانه ما يكره اللهُ تعالى وحال إتيانه ما لا يكره الله تعالى .

في الأولى يسخطُ فعله المنكر ولا يعصاه إن أمره بمعروف .

وفي الأخرى يرضَى فعله ، ولا يطيعُه حال أمرِه بما يسخط الله تعالى .

هذه المفاصلة هي المنهج الحق .

وهي تقرّر مبدأ معارضة المنكر من أيّ إنسان ومساندة المعروف من أيّ إنسان دون تعميم حالٍ على حالٍ .

فقوله (لا تنزعن يدًا من طاعة) ليس معناه لا تنزعن يدًا من طاعته في كلّ حال ، بل لا تنزعن يده من طاعته في المعروف ، فهذا من العام الّذي خُصّص بمخصّصٍ مستقلٍّ ، وهوبابٌ وسيع عميق دقيق فِي أصول فقه بيان الوحي .

فالقضية لا لبس فيها البتة . إنّ مبدأ معارضة المنكر والخروج عن طاعة السلطان فيه أمرٌ لا لبس فيه ولا توقف . ومن ذكر بعضًا من بيان النبوة في هذا الباب دون بعض فقد خان رسُول الله صلّى الله عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ وسَلّمَ ، وخان الأمّةّ ، ومن فعل فقد خسر .

روى البخاري في كتاب «الأحكام» من صَحيحه بسنده عَنْ هِشَامٍ عَنِ الْحَسَنِ قَالَ أَتَيْنَا مَعْقِلَ بْنَ يَسَارٍ نَعُودُهُ فَدَخَلَ عُبَيْدُ اللَّهِ فَقَالَ لَهُ مَعْقِلٌ أُحَدِّثُكَ حَدِيثًا سَمِعْتُهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ «مَا مِنْ وَالٍ يَلِي رَعِيَّةً مِنَ الْمُسْلِمِينَ ، فَيَمُوتُ وَهْوَ غَاشٌّ لَهُمْ ، إِلاَّ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ»

ورواه مسلم في كتاب (الإيمان) وكتاب (الإمارة) من حديث معقل بن يسار المزني ، وقد بينه شيخنا في شرحه .

العلماءُ والدُّعاة قد تولوا أمر العلم والدّعوة فمن ذكر بعضًا من القرآن أو السنة وأعرضَ عن بعضٍ عمدًا كان غاشًّا للأمة بل هو أشدُّ غِشًّا من السُّلطان.

الشيخُ يتخذ في هذه القضية موقفًا أسّسه على حسن الفقه لبيانِ النبوة الذي رسالته الأولى هي إصلاح الأمة والحياةِ كلها .

يقُول الشّيخ : «المعارضةُ الصّادقة المخلصة هي المرآة النَّظيفة التي يَرَى فيها النِّظامُ نفسَه ، وعجيبٌ جدًّا أن نرى هذا الفكرَ السياسيّ المستنير قد ولد في لحظة ولادة الأمةِ الإسلامية سَاعةَ أن تولّى أمرها أبو بكر ؛ لأنه قال في السّطر الأول من خطابِه لمّا تولّى : «إنما أنا متّبعٌ ، ولستُ بِمبتدع» يريدُ أنه مطبق لِكتابِ الله وسنة رسُوله ﷺ ، وهذا هو الحكم بِما أنزل الله ، وهذا هو رأسُ

الدّين فِي قلبِ السياسةِ ثُم قال الصديق رضوان الله عليْه : إن رأيتموني على صَوابٍ فأعينوني ، وإِن رأيتمونِي على خطإٍ ، فقومونِي ، وكلمة « قوموني » فيها معنًى ليس في أن يقُول فنبهونِي ، وكان عمرُ حاضرًا ، فاستقرتْ هذه الجملةُ الكريمةُ التي يحمّلُ فيها الصّدّيقُ الناسَ مِن حولِه أمانةَ المتابعةِ الواعية لسياسته، فإذا رأوا خيرًا اجتمَعُوا حولَهُ ، وتعاونوا وتساندوا ، وإن رأوا خطأً وقفُوا ، وعارضُوا ؛ لأن هذه المعارضة من الدّفاعِ عن النّفسِ وعن الغيرِ .

ولمَّا تولّى عُمرُ رضوان الله عليه كان أوّل كلامٍ يقوله هي جملة أبي بكرٍ ، وفهم النّاس المراد ، وأنّه الوقوفُ فِي وجهِ خطإِ المسؤول الأول حماية للنّاسِ وقوّةً للدولةِ ، فقام رجلٌ فِي المسجد ، وسلّ سيفه ، وقال لِعمر والله لو رأيناك على خطإٍ لقوّمناك بسيوفنا ، فأدرك عمرُ أنّ الرّسالة وصلتْ ، وأنَّ المقصُودَ اليقظةُ الواعيةُ والمتابعةُ الصّادقةُ لِساسةِ البلادِ ، فهشَّ عمرُ ، وهو رجلُ الدّولةِ ، وقال : الحمدُ لله الّذي جعلَ مِن أمّةِ مُحمّدٍ مَن يُقوّمُ عُمرَ بحدّ السيفِ . . .» [(١)]

الذّي يجملُ أن تلتفتَ إليْه أنَّ أبا بكر الصّديق لو قال « فنبهوني » دون « فقوّموني » لظنّ ظانٌّ أنَّ أعلى درجاتِ المعارضة « التنبيه » ولا تتجاوزُ هذه المعارضة ، وإن لم يأخذ الوالي بها ، ولكنه قال « فقوموني » أي قوموني أولا بالتنبيه فإن أطعت فنعما ، وإن لم فتصاعدوا إلى ما هو أعلى .

وقول الصّحابي لعمر : « قوّمناك بسيوفِنا » أي قوَّمناك بكلِّ طريقٍ وإن اقتضَى الأمرُ أن نقوّمك بحدِّ السَّيفِ ، ولم يعترض عمرُعلى العبارة ، ولم يقلْ له لا يجوز الخروج على الحاكم بالسّيفِ ، فإنّ الخروج على الحاكم بالسَّيف قد يكون فرضًا إذا ما كان في بقائه هلاكٌ للأمة والدّين بأن كان الوالي خائنا لدِينه وقومِه ووطنِه ، عميلاً لأعداءِ الأمةِ وسلَّ السَّيف في وجه شعبِه ، فلا مكان

---

(١) شَرْحُ أحاديثَ منْ صَحِيحِ مسلم : ١٧/١، ١٨ .

هنا للمسالمةِ والملاحاة اللسانية والمعارضة الحنجرية ، لأن هذه المسالمة سيترتَّبُ عليها ضياعُ الدِّين والدَّولة والأمّة والوطن .

*　*　*

ومِن هذا ما كان من تذوقه ما رواه مسلم فِي كتاب «الإمارة» بسنده عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ زَوْجِ النَّبِىِّ ﷺ عَنِ النَّبِىِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ «إِنَّهُ يُسْتَعْمَلُ عَلَيْكُمْ أُمَرَاءُ فَتَعْرِفُونَ وَتُنْكِرُونَ فَمَنْ كَرِهَ فَقَدْ بَرِئَ وَمَنْ أَنْكَرَ فَقَدْ سَلِمَ وَلَكِنْ مَنْ رَضِىَ وَتَابَعَ» . قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ أَلاَ نُقَاتِلُهُمْ قَالَ «لاَ مَا صَلَّوْا» . أَىْ مَنْ كَرِهَ بِقَلْبِهِ وَأَنْكَرَ بِقَلْبِهِ .

تراه يستطعم بناء الفعل (يُستعمل) لغيرالفاعل ، والأفعال «تعرفون» و«تنكرون» ودلالة «الفاء» ثم ما في قوله « مَن كره فقد بَرئ» من اقتصاد في اللغة لتحقيق سخاءٍ في المعنى ، ومناظرته بقوله «ومن كره فقد سلم» ثم الوقفة البَسِيطة عند «ولكنْ مَن رَضِيَ وتابع»

كان له مع كلٍّ تبصّراتٌ كاشفَةٌ عمَّا وراءها ، فهُو يَرَى في اصطفاء صِيغةِ البناء لغير الفاعل في «يُستعمَل» دلالة على أنَّ أولئك الأمراءَ ما جاءوا على مُراد شعوبِهم ، وإنَّما فُرضوا عليهم بأيّ مِن سُبل الفَرضِ وهِي في عَصرنا ومِصرنا عديدةٌ متنوّعةٌ .

وهنا يلتفتُ الشَّيخُ إلى الواقع المُحيط ، فيستفزّ الحَميّةَ . ويُسجّل على الأمّة استكانتَها إلى أفاعيلِ مَن تولوا أمرها قهرًا وخديعةً ، فسَعوا إلى أن يتخذُوا الأمّة مكانا ومكينا ميراثًا يتناقلوه جيلاً من بعد جيل .

وسيأتي زمانٌ يقرأ النَّاسُ هذا التاريخ الذي نعيشه ، فيدهشُون من أمرِنا كيف بلَغ رضانا بأنْ نُظلم ، لا ، بلْ نُستنْعج .

والرَّسولُ صلّى الله عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ وسَلّمَ كما استعاذَ بالله تعالى مِن أن يَظلِم أحدًا استعاذَ بالله تعالى من أن يُظلم : « اللَّهُمَّ إِنِّى أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْفَقْرِ وَالْقِلَّةِ وَالذِّلَّةِ وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ أَنْ أَظْلِمَ أَوْ أُظْلَمَ » .(١)

وفي الاستعاذةِ بالله تعالى من أن يُظلَم ، معنًى جليلٍ ، فمن رَضِيَ بأن يكونَ مظلومًا وهو قادرٌ عن أن يدفعَ الظُّلم عن نفسِه وقومِه ثمَّ لا يفعلُ إنّما هُو كافرٌ بنعمةِ الله عليه أنْ كرَّمه ﴿ **وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا** ﴾ (الإسراء:٧٠) وفِي الوقتِ نفسِه هو يُعملُ برضائِه بأنْ يكون مظلومًا على استهتار الظالم في ظلمِه ، فيعمُّ الفساد في الأرض ، والله سُبْحانَه وَتَعالَى يقول : ﴿ **وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِي ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ** ﴾ (الأعراف:٥٦) ﴿ **وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِي ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ** ﴾ (الأعراف:٨٥) فالظالمُ إذا لم يجدْ منْ يقفُ في وجه ظلمه ويأخذ على يديه ، استعذبَ ذلك وأدْمَنَه ، فغدا الظلمُ عنده عبادةً يمارسُها لذاتها ، والرَّسول صلّى الله عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ وسَلّمَ قد جعلَ مِن حقِّ الظَّالم علينا أن نَمْنعَه عن ظلمِه :

روى البُخاري في كتاب « المظالم » من صَحيحه بسندِه عَنْ أَنَسٍ ـ رضى الله عنه ـ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « انْصُرْ أَخَاكَ ظَالِمًا أَوْ مَظْلُومًا » . قَالُوا : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، هَذَا نَنْصُرُهُ مَظْلُومًا ، فَكَيْفَ نَنْصُرُهُ ظَالِمًا ؟ قَالَ : « تَأْخُذُ فَوْقَ يَدَيْهِ »

---

(١) رواه أبو داود في « الوتر » من سننه ، وراه أحمدُ في مسنده ، وصحَّحه الألباني في صَحيح وضعيف سنن أبي داود . حديث رقم (١٥٤٤) وفي صَحيح أبي داود (١٣٨١) وغيرهما .

جعل الأخذ على يد الظالم نصرًا له ، فهو حقّ له على من ظلَمه ، وعلى الأمَّةِ جمعاء . فاستكانُة المظلومِ ورغبته عَن التَّصدِّي لظالمِه هو في الوقتِ نفسِه يستَحيلُ إلى ظالم :

ظالم نفسَه من أن يحميها ويقيها من المَذلة وقد كرَّمها الله تعالى . وظالم لظالمِه ، حيثُ لم يمنعه من أن يظلِمَه ، فهو بترك التّصدّي له أعان الشَّيطان على أخيه الّذي ظلمه ، والرَّسُولُ صلّى الله عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ وسَلّمَ نهانا عَنْ أنْ نُعين الشّيطان على إخوانِنا فقال صَلَواتُ اللهِ وسَلامُه عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ : « لاَ تَكُونُوا عَوْنَ الشَّيْطَانِ عَلَى أَخِيكُمْ » (البخاري : الحدود) فالتخلية بيْن الظالمِ وظلمِه هو من صَميم إعانة الشيطان عليْه ، فمن حقه على رعيته أن يكفوه عن ظلمه ، وأن لايسْكتوا على ما يبدر منه ، ولاسيما في باكر حكمه ، حيثُ يكون أقربَ إلى أن يسمع لهم ، ليمكن لنفسِه ، على نحو ما تراه من باكر حكم الطغاة .

من صور عون الشيطان على الأخ أن تعرضَ عنْه ، وتدعه فريسة للشيطان ولأهواء النفسِ ، فاحتمالِ صُحبته بقصد وقايته من أن لا تسمع أذنه نصحًا ، وترى عينه صَنيعة خيرٍ هو من العون له على الحق .

إن إفراد الظالمِ والتخلّي عن وعظه ، وعن تذكيره بالحسنى هو من التقصِيرِ البالغِ بحقه أخًا ابتلي بالولاية العامة ، فحسب هو جهالةً أنّه أكرم بها ، ولو علم لأدرك أنّه إنما بها فتن ، فنعمت المرضِعة وبئست الفاطمة .

إن من واجب العلماء أن يبادروا إلى الإحاطةِ بوليّ الأمر العامّ ، لا طمعًا في ما في يديه من أموالِ المسلمين ، فإنَّ الذي في قلوب العلماءِ خيرٌ من الدُّنيا وما فيها ولا إقامةً للشّعور بعظمته من أنّه يأتيه العلماء إلى إيوان سلطانه ، وإنما من باب (لايُسلِمه) يحيطون بِه رجاءَ أن لا يُترك فريسةً للشيطان،وجنده، فيعبثون في قلبِه ونفسِه ، ولا سيما أنَّ عُظمَ المبتلَيْن بفتنة الولاية العامّة في

عالَمنا العربي خاصةَ ، وعالمنا الإسلامي عامة مقترٌ عليْهم رزق عقولهم وقلوبهم ، فهم أكثرُ العباد حرمانًا من الحكمةِ والرحمةِ ، وهم أيسر العباد على الشيطان وجنده .

إنَّ على العلماء أن يُسمِعوا وليّ الأمرِ العام في ما بيْنهم وبينه أولاً ـ إن أتيح لهم ـ ما أوجبه الله تعالى عليه إزاء رعيتِه من حقوق ، ولا يملُّوا تكرارَ ذلك وتقريرَه وتوطينَه في سمعه ، وأن يُسمعوه أنّه لا يجبُ له على رعيَّته شيْءٍ من الطاعة ، والمناصرة له إلا من بعدَ أن يُحقِّق هو حقين عليْه :

الأوّل : حق الله تعالى عليْه .

والآخر : حق شعبِه عليْه[1] .

ثم يأتي من بعدُ حقُّه هو على شعبِه أن يكون له ناصرًا الحقَّ بالحقِّ ، مطيعًا له فيما يرضي الله سُبْحانَه وَتَعالَى ، فإن استجاب والتزم ، فنعمّا ، وإلا وجب على العلماء أن يسمعوه ذلك على مشهدٍ من شعبه إبراء للذمة من جهةٍ ، وإحراجًا له أمام شعبِه من أخرى .

وعلى العلماء أن لا يدعوا العامة تتجرّأ على وليّ الأمرِالعام ، فالجراءة عليْه من العامَّة ولا سيّما في وسائل الإعلام المَفتوح مُضعِفٌ للأمّة . ولهم أن

---

(١) الأصلُ المكينُ القويمُ فِي شَأن بذلِ الواجب ، واستيفاء الحقّ أنّ الأكبر والأقوى من الطرفين عليْه أن يبدأ هو ببذل ما عليْه من الحقِّ للآخرين ، ثُمَّ يكونُ ما له ، وهو لا يستوفيه ، فشأن الكرام أن لا يسْتوفوا حقوقهم من الآخرين .
فالواحب على ولي الأمر بدأً من الوالدين والمعلم وانتهاءً بوليّ الأمرِ العام (الرئيس وما شاكله) أن يبذل لشعبِه أوّلا كلَّ حقوقهم عليْه ، فإذا وفَى لهم كان له أن يطالبَ بحقّه هو على شعبِه .
والله تعالى ما طالبنا بحقّه علينا من توحيده وطاعته في مرادِه الشَّرعي إلا من بعد أن أفاضَ علينا من نعمِه ما لا يسْتحصَى ، وحتى يبلغَ الواحد منها الحُلم .

يجهَروا بمظالِمهم في أدبٍ وإصرارٍ واحتسابٍ ، ويقين أنَّ الله تعالى معينٌ لهم على أن يتنصفوا : ﴿ لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا ﴿١٤٨﴾ إِن تُبْدُوا۟ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا۟ عَن سُوٓءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴾ (النساء:١٤٨،١٤٩)

فمن سكت على أن يُظلم ، وهو قادِرٌ على أن يدفعَ عن نفسَه أن تظلم كان مُفسدًا في الأرض ﴿ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ (المائدة:٦٤) ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ (يونس:٨١)

كلُّ شعبٍ استكان إلى ظُلم ولِيَ أمرَه ، وهو قادرٌ علَى أن يدفعَ عَن نفسِه الظُّلم إنّما هُو نفسُهُ شعبٌ ظالمٌ مفسِدٌ في الأرض . والله تعالى لا يسْتجيبُ دعاءَ فاسدٍ ظالمٍ .

واللهُ تعالى لا يَستجيبُ لدعاءِ المظلوم على الظَّالم وهو قادرٌ على أن يدفعَ الظلمَ عنْ نفسِه ثُمَّ لم يفعلْ ، إنّما يَستجيبه حين يَسْتنفِد المَظلوم كلّ طاقاتِه فِي رفعِ الظُلم عَن نفسِه ، فالله جَلَّ جَلالُهُ إنّما يُحب أن يأكلَ العبدُ من عملِ يدِهِ ورفعك الظلمَ عنْ نفسِك بنفسِك من عملِ يدك ، فليس ألذ من أن تستطعم جهدك في رفع الظلم عن نفسِك بنفسك لا بغيْرك .

منْ هنا ندركُ وجهًا مِن وجوه استعاذِة رسُول الله ﷺ مِن أن يكونَ مظلومًا مثلما استعاذ به تعالى من أن يكون ظالمًا .

وبقي الالتفات إلى ذهاب رسُول الله صلّى الله عَلَيْه وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ وسَلّمَ إلى الاستعاذة بالله تعالى مِن أمورغير قليلةٍ ، في هذه الاستعاذةِ دَلالةٌ على أنَّ في المستعاذِ منه ما يفتقرُ العبدُ إلى أنْ يطلبَ مِن ربّه جَلَّ جَلالُهُ أن يكونَ له عونًا عليْه ، فالعبدُ أضعَفُ مِن أن يقومَ له وحدَه ، وهذا يلفتُنا إلى ما في المستعاذِ مِنه مِن عظيمِ الخطرِ ، فخطر المُستعاذ منه يُفهمُ في ضوءِ مَكانة المُستعاذَ به وقدرته وجلالِه . وفي الاستعاذةِ بالله تعالَى معنى الإعرابِ لله

سُبْحانَه وَتَعالَى عَن يقين العبد من تجرّده من الحول والقوّة ، وأنـّه لا شيْءٍ إلا بالله تعالى ، وهذا تصاعدٌ في معراج العبوديَّة لله تعالى ، وذلك أفضل ما يقـومُ فيه المرء ، وأعذبه ، وما استعذبَ أحـد مثـل استعذابه الاسـتغراق في التَّحقـق بالعبوديّة لله تعالى فعُضَّ عليها بنواجذك ، واحرص على كلّ مـا يسـتبقيك في مقام (إيَّاك نعبدُ وإياك نسْتعين) فإذا حضرتْ نفسك ، فاستعذ بالله تعالى ، فإنّه بمقدار حضور نفسك في خلدك يكون غياب ذكرك الله تعالى فيه .

لا يجتمعان : الله سُبْحانَه وَتَعالَى ونفسُك . فاختر لها حضورَها أو حضورَ جلالِ خالقِها؟

*　　*　　*

القَضية السّابعة
الموقف من دخول الدّين في السّياسة

لم يأت الإسلام دينًا يحاجزُ أتباعه عن تعميرِ دنياهم ، بل جاء ليحملهم إلى تعميرِها لتعمرُ آخراهم ، فموقفُ المسلم من تعميرِ أخراه هو من موقفِه من تعمير دنياه ، فمن خرّب دنياه هو لا محالة المخرّبُ أخراه ، ولكنَّ الإسلام هدَى إلى سبيلِ التعمير في الدّنيا هو سبيلُ إسلامِ الوجه لله تعالى في جميع الأمر وسلوك مبدأ سمعنا وأطعنا في ما أمرَ به الوحيُ وما نهَى عنه .

والله تعالى يَقُولُ ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ (الذاريات:٥٦) أي إلاَّ ليعمروا حياتهم الدّنيا بطاعتي . لأعمِّر لهم آخرتهم برحمتي ورضواني . فمن لم يُدخل نفسَه جنَّة الله تعالى في دنياه بتعمير دُنياه بطاعة الله تعالى على وَفق ما شَرع في وحيه (فليغرسها) ، فإنّه لن يدخل جنةَ الله سبحانه وتعالى في أُخراه . وكلُّ هذا لا يكونُ إلا بضربٍ من العلمِ والحِكمة والسّياسة : سياسة كلّ شيءٍ ليستقيم إلى ما خلقَ له ، وترويضِه لما يراد منه أن يفعل .

ليست السّياسةُ إلا منهاج ترويضِ العصيّ إلى ما يرادُ منه أن يكون ، وكلّ ما في الإسلام مِن عقيدة وشريعة ، وأَخلاق هو بابِ الترويض والسياسة ، فالدّين في أصلِه سِياسةٌ ، أولها سِياسة النفس لتخضع لما يريده منها خالقُها ، فتأتى حركتها علَى وفق مرادِه الشَّرعيّ ، وتسلم الوجَه لمُراده القدريّ . .

والّذين ينعقون بأنّه لا دين في السّياسة بدعوَى أنَّ الدينَ مقدّس والسّياسة مُدنّس إنّما هي مقالة إبليسية يُراد بها تنحِيةُ الدّين عن السّياسة لِيعبثَ السِّياسيون في الحياة دون ضابطٍ أو رقيبٍ . وهُمْ عندِي ثلثان :

ثلة من أولئك الناغقون تجهلُ الدّين كما تَجهل حقيقة السّياسة ، وأنّها ليست كما يقال فن الممكن ، وفن بلوغ الغاية من أقصر طريقٍ وإن كان طريق الشيطان ، وأنَّ الاعتداد بالغاياتِ لا بالوسائل

ما تكونُ السّياسة كذلك ، وإنّما هي التَّرويض إلى الحقِّ بالحقّ .

وثلة تسعى إلى إضلالِ الأمة ، وإخراجها عن محجتها ، مع علمها بأنَّ دخول الدّين يصلح السّياسة ، لأنّ هذا الدين إنّما نزلَ لسياسةِ الناس ، وسياسة أحوالهم في حياتهم على النّحو الذي يسعدهم ، ويرضي خالقهم .

والشيخُ يحتفِي كثيراً بتقرير أن الدّين الإسلامي داخل في كبدِ السّياسة ، وما من شيءٍ منها إلا والدّين قائمٌ فيه . يقول : « كلّما طالَ نظري فِي عنايةِ رسُول الله ﷺ بأمنِ الناسِ وسلامتهم وإقامةِ لُحمةِ المودّةِ والتآلفِ والتساند بيْنهم ثُمَّ حِمايةِ الجماعةِ مِن أن تتسلّلَ لها الأمراضُ الاجتماعيّة المُزعجة من الجهل والفقرِ والظلمِ والقمع والإهانةِ ، ثُم أقرأُ كلامًا يقول إنّ دخول الدّين فِي السّياسةِ عودةٌ إلى عصُورِ الظلماتِ أقطعُ بأنّ هؤلاءِ لم يقرؤوا شيئًا في الدين .

وأنا لا أفهم دخول الدين في السّياسةِ إلا على هذا الوجهِ الذي أقُوله ، وهو حمايةُ النّاسِ من الظلمِ والقهر والإهانةِ ثُم التساند والتّآلف ووضع اليدِ فِي اليدِ ، وإِحسان العمل ، وإتقانه ونظافة النَّاس من الغشّ والكذب إلى آخره ، وهذا هو الحكمُ بِما أنزلَ اللهُ ، وكلّ ما وراءَ ذلك فِيما أعلمُ ليس هو المطلوب . . . »[1]

الشيخُ كما ترى يتولى تصحيح مفهوم النّاسِ عن الدّين وعن السِّياسة ، وأنَّ الفهم الصَّحيح يرَى أنَّ العملَ السّياسيّ النَّظيف من مبدأ تحقيق الغاية بأي سبيلٍ ، وإن كان سبيلَ الشيطان إنّما هُو مِن الدِّين ، وأنَّ الدّين في جوهره سِياسةُ النّاسِ والحياة إلى ما فيه العزة والسعادة والأمن والأمان .

---

(١) شَرْحُ أحاديثَ منْ صَحِيحِ مسلم : ١٢/١ .

وقد بيَّن الشيخُ أن اختلافنا في تحرير مفهوم الدّين وبيان حقيقته وجوهره ، واختلافنا في فهم حقيقة السّياسة ورسالتها هو الذي جعلَ منا فريقًا يقول بدخولُ الدين في السّياسة ، وفريقًا يقُول لا دين في السياسة مع غياب الوعي المدقق عند كلٍّ ، وهذا الغيابُ يجعلُ الخلاف يطولُ ويشتد والواجبُ العملُ على إنهاءِ التَّنازع والتفرغ لتنميةِ الأمَّة وتقدمها الَّذي هُو الفريضة . . . [1]

ويقُول : « الدين حمايةٌ ورعايةٌ وصلاحٌ للجماعةِ ، وأمنٌ وأمان في الجماعة ، وأمن وأمان للفردِ ، وليس تكاليف تعوقُ حركة الحياة ، وتحدُّ من حرية الإنسانِ ، وتعودُ بِه إلى عصُورِ التخلّف ، والظلمات كما يروّج أعداؤه ، وإنّما كلّ أمرٍ فِيه جلبٌ لمصلحةِ الناسِ ، وكلّ نهي فيه دفع لمضرّة عن النّاس . . . .

وكلّ الأديانِ السّماويةِ متّجهةٌ إلى هذه الحراسةِ ، وهذه الحماية ، وهذا من أهمّ مقاصد النّبواتِ كلها ، وهي مساحةٌ متسعةٌ جدًّا يتلاقَى فِيها أهل الكتابِ جميعًا ، ولذلك تجد مساحات التقاربِ بيْن أهلِ الكتبِ السماويةِ أوسع بكثير من مساحات الخلاف . . . » [2]

وغير خفيّ أن الشيخ يريد أنَّ مساحات التقارب في غيرِ باب العقيدة ، أما باب العقيدة فالذي بين أهل الإسلام ، وأهل الكتاب من اليهود والنصارى إنما هو جد متباعد ، فهم لا يؤمنون بالله الذي جاء وصفه وحليته في القرآن والسنة ، لا يؤمنون بالله الذي جاءت سورة « الصمد » مستجمعة أصول المعرفةِ بِه . أمّا في باب القيم الأخلاقيه فإننا نتقاربُ في بعضِه .

وبعضُ القيم الأخلاقِية تجدها عند من ليس له دين ، وفرقٌ بين ممارستنا نحن أمة النبي ﷺ لمكارم الأخلاق ، وإتيان غيرنا بعضًا من القِيم الأخلاقية : إننا نمارسها تعبدًا أي نمارسها ، وجلالُ اللهِ تعالى وجماله وكماله قائم في

---

(١) شَرْحُ أحاديثَ منْ صَحِيحِ مسلم : ١/١٤ .
(٢) المرجع السابق : ١/٢٧، ٢٨ .

قلوبنا . وهذا ما لا يتحقق عند غير أمةِ الإسلام . ومن هنا كانت ممارستنا لمكارم الأخلاق لا تتطلعُ إلى عوضٍ من أحدٍ من الخلائق ، نمارسُها لأنا جديرون بها ، وإن كان غيرُنا ليس جديرًا بأن يُعامل بها ، فالأمرُ الكليُّ عندنا أن نعاملَ النَّاسِ بما يلِيقُ بنا أمةَ الإسلام ، لا بما يليق بغيرنا .

ولو أن الذين يقُولون لا « دين » في« السياسة » قاموا بدراسة ما كان من سيدنا رسول الله صَلَواتُ اللهِ وسَلامُه عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ من تأسيس الدّولةِ ، وما كان منه في رعايته الناس والمكان والعقيدة والشريعة وحمايتها ، وما كان من علاقته بجيرانه من غيرِ المسلمين ، وما كان من علاقته بأعدائه ، ثم ما كان من الخلفاء الراشدين الأربعة ، أين يقع كل ذلك من أصول« العمل السياسي » بمفهومه عندهم ، أله مقامٌ عليّ فيه أم أنه الذي كان من النبيّ صلّى الله عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ وسَلّمَ ومن الخلفاء الراشدين من بعده ليس من العمل السياسي في شيْءٍ . وأنه خبط عشواء .

هل عقد رسول الله صَلّى اللهُ عليه وَعَلى آلِه وصَحبه وسلّم أو أحدٌ من الخلفاء الراشدين عقدًا أو معاهدة فيها شيْءٌ مخالفٌ لِما شرعَ الله سُبْحانَه وَتَعالَى ، أو أعاقه شرعُ الله تعالى عن الوصول إلى مرادِه وما ينفعُ الأمة؟

لا يستطيع أحدٌ أن يقولَها ، فالذين يحسبون أن في الالتزام بمراد الله الشرعي أمرًا ونهيًا سيعيقهم عن الوصُول إلى مبتغاهم ، فإن مرد ذلك ليس إلى مراد الله الشرعيّ أمرًا ونهيًا بل إلى وهنهم المَهارِيّ ، فهم ضعفاء في ممارسة السياسة ، فأرادوا تجاوز وهنهم المهاري الوظيفي بالتخلي عن شرع الله تعالى على الرغم من أن الأيسر لهم أن يعملوا على تمكنهم من مهاراتهم السياسية ، وأن يحسنوا عملهم ويحيطوا بأصوله ومناهجه وأدواته ، ومهاراته . ذلك هو السَّبيلُ القويمُ الذي يَجعلُ مِن الدِّين خادمًا للسّياسة ، ومحقّقا لأغراضِ الأمَّة في جميعِ مجالات الحياة الدّاخلية والخارجية .

روى البخاري في كتاب «العلم» وكتاب «الرقاق» بسنده عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ قَالَ بَيْنَمَا النَّبِىُّ ﷺ فِى مَجْلِسٍ يُحَدِّثُ الْقَوْمَ جَاءَهُ أَعْرَابِىٌّ فَقَالَ مَتَى السَّاعَةُ فَمَضَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُحَدِّثُ ، فَقَالَ بَعْضُ الْقَوْمِ سَمِعَ مَا قَالَ ، فَكَرِهَ مَا قَالَ ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ بَلْ لَمْ يَسْمَعْ ، حَتَّى إِذَا قَضَى حَدِيثَهُ قَالَ «أَيْنَ ـ أُرَاهُ ـ السَّائِلُ عَنِ السَّاعَةِ» . قَالَ هَا أَنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ . قَالَ «فَإِذَا ضُيِّعَتِ الأَمَانَةُ فَانْتَظِرِ السَّاعَةَ» . قَالَ كَيْفَ إِضَاعَتُهَا قَالَ «إِذَا وُسِّدَ الأَمْرُ إِلَى غَيْرِ أَهْلِهِ فَانْتَظِرِ السَّاعَةَ» . ذلك أنه إذا وسد الأمر إلى غيرأهله فلن يكون منه إلا الفساد والإفساد ، وحينئذٍ تفسد الحياة ، فلا يبقَى إلا قيام الساعةِ ، لأنها لا تقوم وفي الأرض صلاح وإصلاح .

ومن هنا حذر رسُول الله صَلَواتُ اللهِ وسَلامُه عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ من أن يتولى المرءُ عملا عامًّا يعلم أنه ليس هو له بأهلٍ .

روى أبو بكر محمد بن هارون الرُّوياني (ت : ٣٠٧هـ) بسنده عنْ عَبْدُ اللَّهِ ابْنُ عَيَّاشٍ ، عَنْ أَبِيهِ : أَنَّ يَزِيدَ بْنَ الْمُهَلَّبِ لَمَّا وَلِيَ خُرَاسَانَ قَالَ : دُلُّونِي عَلَى رَجُلٍ حَامِلٍ لِخِصَالِ الْخَيْرِ ، فَدُلَّ عَلَى أَبِي بُرْدَةَ بْنِ أَبِي مُوسَى الأَشْعَرِيِّ ، فَلَمَّا جَاءَهُ رَآهُ رَجُلا فَائِقًا ، فَلَمَّا كَلَّمَهُ رَأَى مَخْبَرَتَهُ أَفْضَلَ مِنْ مَرْآتِهِ ، قَالَ : وَإِنِّي وَلَّيْتُكَ كَذَا وَكَذَا مِنْ عَمَلِي ، فَاسْتَعْفَاهُ ، فَأَبَى أَنْ يُعْفِيَهُ ، فَقَالَ : أَيُّهَا الأَمِيرُ ، أَلا أُخْبِرُكَ بِشَيْءٍ حَدَّثَنِيهِ أَبِي أَنَّهُ سَمِعَهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ؟ قَالَ : هَاتِهِ ، قَالَ : إِنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ :

«مَنْ تَوَلَّى عَمَلا وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّهُ لَيْسَ لِذَلِكَ الْعَمَلِ بِأَهْلٍ فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ»

وَأَنَا أَشْهَدُ أَيُّهَا الأَمِيرُ أَنِّي لَسْتُ بِأَهْلٍ لِمَا دَعَوْتَنِي إِلَيْهِ ، فَقَالَ لَهُ يَزِيدُ : مَا زِدْتَ عَلَى أَنْ حَرَّصْتَنِي عَلَى نَفْسِكَ ، وَرَغَّبْتَنَا فِيكَ ، فَاخْرُجْ إِلَى عَهْدِكَ

فَإِنِّي غَيْرُ مُعْفِيكَ ، فَخَرَجَ ثُمَّ أَقَامَ فِيهِ مَا شَاءَ أَنْ يُقِيمَ ، فَاسْتَأْذَنَهُ بِالْقُدُومِ عَلَيْهِ فَأَذِنَ لَهُ ، فقَالَ : أَيُّهَا الأَمِيرُ ، أَلا أُحَدِّثُكَ بِشَيْءٍ حَدَّثَنِيهِ أَبِي أَنَّهُ سَمِعَهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ؟ قَالَ : هَاتِهِ ، قَالَ : « مَلْعُونٌ مَنْ سَأَلَ بِوَجْهِ اللَّهِ ، ومَلْعُونٌ مَنْ سُئِلَ بِوَجْهِ اللَّهِ ثُمَّ مَنَعَ سَائِلَهُ مَا لَمْ يَسْأَلْهُ هُجْرًا » ، وَقَالَ : أَنَا أَسْأَلُكَ بِوَجْهِ اللَّهِ إِلا مَا أَعْفَيْتَنِي أَيُّهَا الأَمِيرُ مِنْ عَمَلِكَ ، فَأَعْفَاهُ »[1] حسَّنه الألباني الخبر في السلسلة الصحيحة .

وفي هذا الخبر إنباءٌ بما كان من ولاة الأمر من حرصِهم على توليةِ من كان « حاملا لِخصال الخير » الخير في جميعِ أمرِه علاقته بربّه سُبْحانَه وَتَعالَى ، وفي علاقته بالنّاس ، وبكل شأن من شؤون الحياة ، علاقته بعملِه وامتلاكه لأدواته : قوة عقلية وعملية ، وأمانةً ، حرصًا على إنفاذ المصلحة العامة .

والله الهادي إلى سواء السبيل .

* * *

---

(١) مسند الروياني . تأليف : أبي بكر محمد بن هارون الرُّوياني (ت : ٣٠٧هـ) تحقيق : أيمن علي أبو يماني . نشر : مؤسسة قرطبة . القاهرة ط (١) عام : ١٤١٦هـ . ٣٢٦/١ (رقم : ٤٩٥)

فاصلة

لسْت فِيما أجريته في هذه الأوراق إلا محاولة إلى أنْ أقدم تجربة لي في قراءة هذا الكتاب وهي تجربة أجريتها ، وما أنا قائم فيه ، وقائمٌ فيّ من شعور بالقهرِ آخذًا بخناقِي يحاجزني عن التمرد عليْه والتخلصِ منه مخافة أن أقع فيما لا يرضَاه الله سُبْحانَه وتَعالَى ممّا الأمل في غفرانِه جدّ متهالك .

أعلم علم يقينٍ أن هذا الذي نقشته أو نكشته في هذه الأوراق ليس على ما يليقُ بشَيْخنا وسفره ، لا أقوله تواضعًا أو هضمًا للنفسِ بل هو إقرار بالحقيقة التي هي قائمة في صدري منذ عقود ، فإنّ للشيخ في قلبِي ما أسأل الله تعالى أن يجعله ذخرًا لي يوم أنْ ألقاه ممتنًّا عليَّ بِغفرانه ورضوانه ومتفضّلا عليّ بصحبتي الَّذِينَ أَنْعَمَ اللّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاء وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقاً .

فليجُد القارئ ، وشيخنا بالصفح عَمّا كان منّي من تقصِيرٍ في التفكير والتعبير . فإني عليم بأن الذي جئت به لا يبلغ فرسن شاة . ولولاً أن رسول الله صَلَواتُ اللهِ وسَلامُه عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ قال « يَا نِسَاءَ الْمُسْلِمَاتِ لاَ تَحْقِرَنَّ جَارَةٌ لِجَارَتِهَا وَلَوْ فِرْسِنَ شَاةٍ » (متفق عليْه) ما كنت لأحمله .

والله نسأله أن يسبل سابغَ أستاره علينا ، فلا ينكشفُ منا شيْءٌ البتة لأحدٍ من العالمين في الدّنيا والآخرة ، وأن يرزقنا حُسن الخاتمة في أمورنا كلها ، فإنّه وليّ ذلك والقادرُ عليْه ، والمتفضل به جَلَّ جَلالُهُ . والحمد لله رب العالمين .

فرغت من مراجعته وتحريرِه وسع الطاقة الهزيلة في ظهر يوم الأحد الثالث من شَهرِربيع الآخر عام ١٤٣٨هـ ، والموافق فاتح شهر يناير سنة ٢٠١٧م

المفتقرإلى عفوربه تعالى

مَحمُود تَوفيق مُحمد سَعد

الأستاذ في جامعة الأزهر الشريف

القاهرة ـ مدينة الشروق

ثبت المصادر والمراجع

١- إحكام الإحكام شرح عمدة الأحكام . تأليف : ابن دقيق العيد (ت : ٧٠٢هـ) نشر : مطبعة السنة المحمدية (د . ت)

٢- أسرار البلاغة ، تأليف عبد القاهر الجرجاني ، قرأه وعلق عليه محمود محمد شاكر ، نشر دار المدني . جدة ، مطبعة المدني بالقاهرة . ط(١) عام ١٤١٢هـ .

٣- الإلماع إلى معرفةِ أُصولِ الروايةِ وتقييد السماع . تأليف القاضِي عِياض ابن موسَة الْيَحصُبيّ (ت : ٥٤٤هـ) تحقيق : السيد أحمد صَقر ، ط(٢) ١٣٩٨هـ ، نشر دارالتراث . القاهرة ، والمكتبة العتيقة . تونس . لبنان .

٤- الإبانة الكبرى . تأليف : ابن بطة : عبيد الله بن محمد بن محمد بن حمدان العُكْبَري (ت : ٣٨٧هـ) تحقيق : رضا معطي ، وآخرِين ، نشر : دار الراية للنشر والتوزيع ، الرياض .

٥- بدائع الفوائد تأليف : ابن قيم الجوزية . (ت ٧٥١هـ) تحقيق علي محمد العمران . إشراف بكر بن عبد الله أبو زيد . نشر دار عالم الفوائد . مطبوعات مجمع الفقه الإسلامي بجدة .

٦- بيان إعجاز القرآن ، تأليف : أبي سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم الخطابي (ت : ٣٨٨هـ) تحقيق محمد خلف الله ، ومحمد زغلول سلام ، نشر : ضمن كتاب : ثلاث رسائل في إعجاز القرآن (سلسلة : ذخائر العرب عدد ١٦) دار المعارف . مصر . ط(٣) سنة : ١٩٧٦م .

٧- التبصير في الدين وتمييز الفرقة الناجية عن الفرق الهالكين تأليف : أبي المظفر : طاهر بن محمد الأسفراييني (ت : ٤٧١هـ) تحقيق : كمال يوسف الحوت . ط(١) عام ١٤٠٣هـ . نشر : عالم الكتب .

٨- التبيان في أقسام القرآن . تأليف : ابن قيم الجوزية : محمد بن أبي بكر ابن أيوب بن سعد (ت : ٧٥١هـ) تحقيق : محمد حامد الفقي . نشر : دار المعرفة ، بيروت .

٩- تفسير مجاهد . تأليف : أبي الحجاج مجاهد بن جبر المخزومي (ت:١٠٤هـ) تحقيق : محمد عبد السلام أبو النيل . نشر : دار الفكر الإسلامي الحديثة ، القاهرة . ط (١) ، ١٤١٠ هـ .
١٠- تنزيه القرآن عن المطاعن . تأليف : القاضى عبد الجبار بن أحمد الهمذاني (ت : ٤١٥هـ) نشر : دار النهضة الحديثة القاهرة .
١١- تهذيب الكمال في أسماء الرجال ، تأليف : أبي محمد القضاعي (ت:٧٤٢هـ) تحقيق : بشار عواد معروف . نشر : مؤسسة الرسالة ـ بيروت . ط(١) عام ١٤٠٠هـ .
١٢- جامع البيان في تأويل القرآن . تأليف : أبي جعفر الطبري : محمد بن جرير ابن يزيد الطبري (ت : ٣١٠هـ) تحقيق : أحمد محمد شاكر . نشر : مؤسسة الرسالة . الطبعة الأولى ، ١٤٢٠ هـ
١٣- الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح . تأليف : تقي الدين أبي العباس أحمد ابن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية الحراني (ت : ٧٢٨هـ) تحقيق : علي ابن حسن ، وآخرَيْنِ . ط(٢) عام ١٤١٩هـ . نشر : دار العاصمة ، السعودية .
١٤- حجية السنة للعلامة عبد الغني عبد الخالق . ط(١) عام ١٤٠٧هـ ألمانيا الغربية ـ شتوتغارت . المعهد العالمي للفكر الإسلامي . واشنطن . أمريكا . نشر دار القرآن الكريم . بيروت .
١٥- الخصائص . تأليف : أبي الفتح عثمان بن جنّي (ت : ٣٩٢هـ) تحقيق : محمد على النجار . نشر : الهيئة المصرية العامة للكتاب . القاهرة سنة ١٩٩٩م
١٦- درء تعارض العقل والنقل . تأليف تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية (ت : : ٧٢٨هـ) تحقيق : محمد رشاد سالم . نشر : جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، المملكة العربية السعودية . ط(٢) عام ١٤١١ هـ
١٧- دلائل الإعجاز . تأليف : عبد القاهر الجرجاني (ت : ٤٧١هـ) قرأه وعلّق عليه محمود محمد شاكر . مطبعة المدني . القاهرة دار المدني بجدة . نشر : مكتبة الخانجي .
١٨- الرّسالة . تأليف : محمد بن إدريس الشافعي تحقيق : أحمد شاكر : مكتبه الحلبي ، مصر . ط(١) عام ١٣٥٨هـ

١٩- الرسالة التدمريّة في تحقيق الإثبات لأسماء الله وصِفاتِه وبيانِ حقيقةِ الجمعِ بيْن الشرعِ والقدر ، تأليف ابن تيمية . ط(٣) المطبعة السلفية . القاهرة عام ١٤٠٠هـ .
٢٠- رياض الأفهام في شرح عمدة الأحكام . تأليف : تاج الدين الفاكهاني (المتوفى: ٧٣٤هـ) تحقيق : نور الدين طالب . نشر : دار النوادر ، سوريا . ط(١) عام ١٤٣١هـ .
٢١- شَرْحُ أحاديثَ منْ صَحِيحِ البخاري : دراسة في سمت الكلام الأوّل . لشيخنا . ط (٢) عام : ١٤٣١هـ . نشر : مكتبة وهبة . القاهرة .
٢٢- شَرْحُ أحاديثَ منْ صَحِيحِ مسلم ، دراسة في سمت الكلام الأوّل . لشيخنا . ط(١) عام : ١٤٣٦هـ . نشر : مكتبة وهبة . القاهرة .
٢٣- الكاشف عن حقائق السنن : شرح مشكاة المصابيح تأليف : شرف الدين الحسين بن عبد الله الطيبي (ت : ٧٤٣هـ) تحقيق : عبد الحميد هنداوي ونشر : مكتبة نزار مصطفى الباز . مكة المكرمة ط(١) عام : ١٤١٧ هـ .
٢٤- مجموع الفتاوى . تأليف : ابن تيمية : تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية الحراني (ت : ٧٢٨هـ) جمع عبد الرحمن بن محمد ابن قاسم . نشر : مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف ، المدينة النبوية . عام ١٤١٦هـ .
٢٥- مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية المعطلة . تأليف : ابن قيم الجوزية (ت : ٧٥١هـ) تحقيق : رضوان جامع رضوان نشر : دار الفكر ـ بيروت . طبع عام ١٤١٨ هـ .
٢٦- مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين . تأليف : ابن قيم الجوزية : محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد (ت : ٧٥١هـ) تحقيق : محمد المعتصم بالله البغدادي . ط(٣) عام : ١٤١٦هـ . نشر : دار الكتاب العربي ـ بيروت .
٢٧- مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح ، تأليف : الملا علي القاري : علي ابن سلطان محمد ، الهروي (ت : ١٠١٤هـ) نشر : دار الفكر ، بيروت ط(١) عام١٤٢٢هـ .

٢٨- المصباح شرح المفتاح للسيد الشريف الجرجانيّ . تحقيق : بوكسل جلبك (رسالة دكتوراه . إشراف : أحمد طوران أرسلان) ط : استنبول ٢٠٠٦م
٢٩- معالم السنن ، : شرح سنن أبي داود ، تأليف : أبي سليمان حمد بن محمد ابن إبراهيم الخطابي (ت : ٣٨٨هـ) . نشر : المطبعة العلمية . حلب . ط(١) عام : ١٣٥١ هـ
٣٠- معانى القرآن . تأليف : أبي الحسن الأخفش الأوسط (ت : ٢١٥هـ) تحقيق : هدى محمود قراعة . نشر : مكتبة الخانجي ، القاهرة . ط(١) ، ١٤١١هـ .
٣١- مفتاح العلوم . تأليف : أبي يعقوب السكاكي . (ت : ٦٢٦هـ) طبعة مصطفى الحلبي . القاهرة . عام ١٣٥٦هـ .
٣٢- المفهم لما أشكلَ من تلخيصِ كتابِ مسلم ، لأبي العباس : أحمد بن عمر ابن إبراهيم القرطبي ، (ت ٦٥٦هـ) تحقيق : محيي الدين ديب مستو ، وآخرينَ . ط(١) ١٤١٧هـ دار ابن كثير ، ودار الكلم الطيب ، دمشق وبيروت .
٣٣- منهاج البلغاء . تأليف : حازم القرطاجنّي . تحقيق : محمد الحبيب بن الخوجة . دارالغرب الإسلامي . بيروت .
٣٤- الموافقات في أصول الشريعة . تأليف : أبي إسحاق الشاطبي . تعليق وشرح عبد الله دراز ، خرج أحاديثه أحمد السيد سيد أحمد على . ط : الهيئة المصرية العامة للكتاب . سلسلة مكتبة الأسرة ، تراث . نشر : سنة ٢٠٠٦م
٣٥- النكت في إعجاز القرآن . تأليف : أبي الحسن الرماني : علي بن عيسى ابن علي بن عبد الله . (ت : ٣٨٤هـ) ط(٣) عام ١٩٧٦هـ ، ضمن : ثلاث رسائل في إعجاز القرآن [سلسلة : ذخائر العرب (١٦)] تحقيق : محمد خلف الله ، ومحمد زغلول سلام ، نشر : دار المعارف بمصر .

فهرست الموضوعات

الفصل الأول

ضوابط قراءة بيان النبوة ومعالمها عند الشيخ

(٤٥-١٤٢)

الفصل الثَّاني

آلاتُ القراءةِ عند الشيخ

(١٤٣-٢٠٢)

الفصل الثالث

أبعادُ قراءته في صحيح مسلم

(٢٠٣-٣٢٨)

الفصل الرَّابع

قضايا كلية في قراءة الشيخ بيان النبوة

(٣٢٩-٤٢٤)

* * *

الكتاب القادم للمؤلف إن شاء الله

الرّجال قوّامون على النّساء

مدارسة إيمانية أخلاقية

في ضوء علم البلاغة العربي